

عبد الرَّحمن مُنيف

الآن... هُنا

عبدالرّحمَن مُنيف

الآن.. هُنَا

أو

شرق المتوَسط مَرّةً أخْرى



المركز
الثقافي
العربي

الآن.. هُنَا

أو

شرق المتوَسط مَرّةً اخرى

الطبعة الرابعة

2001

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826

* جاء في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للأستاذ العلامة والقدوة الفهامة الشيخ كمال الدين الدميري، في باب الذئب، «وروى ابن عدي عن عمرو بن حنيف عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ادخلت الجنة فرأيت فيها ذئباً فقلت أذئب في الجنة فقال أكلت ابن شرطي فقال ابن عباس هذا وإنما أكل ابنه فلو أكله رفع في عليين».

حياة الحيوان

صفحة 361، الجزء الأول

الناشر: المكتبة الإسلامية

لصاحبها الحاج رياض الشيخ

دون ذكر لسنة الطبع

* روي عن سفيان الثوري: «إذا رأيتم شرطياً نائماً عن صلاة فلا توقظوه لها فإنه يقوم يؤذي الناس».

طبقات الشعراني

عن المستطرف الجديد ـ هادي العلوي

صفحة 77ـ طبعة ثانية موسعة

مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في

العالم العربي 1986

* «أفضل ما يفعله الإنسان أن يحيل أوسع تجربة ممكنة إلى وعي»

بطل رواية الأمل

مالرو

الدهليز

حين بدا موتي وشيكاً.. أطلقوا سراحي!

لم يكونوا راغبين أن أموت عندهم، رغم أنهم لم يكفوا عن التأكيد، خاصة خلال الفترة الأولى من الاعتقال، إني لن أخرج من هنا إلاّ إلى القبر! الآن، وقد تحقّق لهم احتمال موتي، من خلال تقارير الأطباء، ومن إصراري العنيد البارد برفض تناول الأدوية، وبعد الدعوة إلى الإضراب العام عن الطعام، وقد تسربت معلومات أن الإضراب سيعلن إذا لم تستجب السلطات وتنقل المرضى للعلاج... أفرجوا عنّي وعن اثنين آخرين.

وهكذا أصبحتُ حراً!

الاسبوع الذي قضيته في البيت، وقد زارني خلاله بعض الأطباء، وأُجرِيَت لي عدة فحوص، وتمّ فيه التشاور والسؤال عما إذا كان بالإمكان معالجتي في عمورية أو نقلي إلى الخارج، ومدى احتمالي للسفر، ثم النتائج المتوخاة، وقد بلغت تلك الحالة من الانهيار.. هذا الاسبوع الذي لم تهدأ فيه الحركة، لا أتذكره إلاّ دوياً مكتوماً أقرب ما يكون إلى سقوط أجسام ثقيلة على أرض رخوة، يعقبه صمت هش مخنوق، تماماً مثل حالة الغرق. أما وجوه الأهل والأصدقاء التي كانت تتعاقب فلا أتذكرها إلاّ على شكل أطياف متداخلة متشابهة.

في نهاية الاسبوع، وبعد إجراءات عديدة، من ضمنها التعهد بالعودة حالما ينتهي العلاج، سافرت، أو بالأحرى سُفِّرت إلى براغ.

كانت الساعات الأخيرة، قبل السفر، حافلة، إذ إضافة إلى حالة

الصحو المفاجئة، وكأن شيئاً في داخلي استُنفر وتيقظ، تماماً كما كان يحصل لي في جلسات التحقيق بعد كل حفلة من حفلات التعذيب. . . فإن نظرات المودعين في البيت ثم في المطار، وكلمات التشجيع الكثيرة، والمليئة بالمبالغة، أكّدت لي أني لن أرى عمورية مرة أخرى، ولن أرى أياً من الذين يتزاحمون حولي الآن. كنت أحاول الابتسام، ولا أعرف إلى أي حد نجحت، وكنت أتملى الوجوه حولي والأماكن، لعلها تثبت في ذاكرتي وترافقني حتى اللحظة الأخيرة. أما وأنا أعتدل في الفراش، ثم وأنا أحاول موازنة جلستي على الكرسي المتحرك في المطار، بعد أن عجزت عن السير، وبعد أن رفضت أن يحملني بعض الأهل، وكانوا شديدي الانفعال والحزن، فقد كنت أملأ رئتي إلى الحد الأقصى بالهواء وروائح الأشياء والأجساد، لأنّي على يقين أن هذه هي الفرصة الأخيرة، المرة الأخيرة، التي يقدر لي أن أرى وأسمع وأشم ما تبقى من الأصدقاء والأهل والوطن.

في اللحظات الأخيرة بذلت جهداً استثنائياً لكي أبقى قوياً ومتماسكاً، رغم التوتر وتزايد ضربات القلب؛ كنت أرد على النظرات المتسائلة المكسورة، وتلك التي تحاول الاكتشاف، بابتسامات حمّلتها أقصى ما أستطيع من الشجاعة. وشددت على الأيدي التي كانت تمتد لمصافحتي بقوة، لكن، في لحظة ما، ولا أعرف متى أو كيف جاءت تلك اللحظة، استبدَّ بي اليأس وقهرني التخاذل فلم أستطع حبس دموعي، بكيت، وفعل ذلك عدد من المودّعين. أما آخرون فقد فضلوا الابتعاد، ابتعدوا وغرقوا في الصمت والحزن، أما حين اقترب الفراق، ودُفع الكرسي شاقاً طريقه في الممر الخاص بالمعوقين، فكدت أصرخ وأتوقف طالباً العودة والموت هنا، لكني كنت مبدداً إلى درجة التلاشي، كنت حزيناً إلى الحد الذي تساوت لدي جميع الأشياء: أن أموت هنا أو في أي مكان آخر، أن أبقى أو أن أُغادر، فاستسلمت إلى الدفعات التي تسارعت باتجاه الطائرة!

نظرات المضيفات وتصرفاتهن كانت مليئة بالود ورغبة المساعدة، ومع ذلك امتلأت يقيناً أني لن أصل إلى نهاية الرحلة، سأموت في الطائرة وقبل الوصول إلى براغ. نعم إن ذلك سيحصل، وسيخلف موتي حالة من الارتباك ثم الشؤم، ولا بد أن يتكدر الركاب وطاقم الطائرة. ولقد تأكّد الأمر أكثر

وأنا أتبادل النظرات مع المسافرين الذين أخذوا يتدفقون بسرعة. كانوا وهم يرونني ملفوفاً بالبطانيات، ومسنوداً بالوسائد، يرتبكون، وكانوا بسرعة يسحبون نظراتهم بعيداً. وكان آخرون، وبعد أن يتملّوا من منظري، تسرع خطواتهم وتضطرب، مندفعين إلى داخل الطائرة. عرفت، ربما، بعض المسافرين، لكن أياً منهم لم يعرفني، أو هكذا تظاهروا! إنه الزمن، فإذا أُضيف إليه الغياب، فعندئذ يجب ألا نطالب الآخرين بتذكر ما بذلوا جهداً من أجل نسيانه!

وإذا كنت أول الذين صعدوا إلى الطائرة فقد كنت آخر الذين أُنزلوا منها. كان المسافرون، وهم يتدافعون بصخب وسرعة، يريدون المغادرة، ينظرون إلى الجهة التي أنا فيها، كانوا يفعلون ذلك ليتأكدوا أنني لا زلت حياً، وبدافع الفضول والشفقة أيضاً، فإذا تأكدوا وأقنعتهم حركتي، وكنت أرقب النافذة لأجنبهم أن تلتقي نظراتنا، فلا بد أن يحسّوا بخيبة امل، لأنه لن يتاح لهم مفاجأة مستقبليهم وإدهاشهم، وهم يروون لهم كيف مات أحد الركاب على الطائرة! ومع ذلك لن تفوت الكثيرين الإشارة إلى ذلك المريض ـ الميت، وقد يضيف بعضهم بسخرية «هؤلاء العرب لا يعرفون الطبيب أو العلاج إلاّ حين يدق الموت أبوابهم... ليس ذلك فقط، يتصورون إننا قادرون على إعادة الحياة للموتى... ما أشد حماقتهم!».

في براغ لم يردوا عني الموت، أوقفوا زحفه فقط. بذلوا كل جهدهم، وبكثير من الدأب والجهد وبأعمال الخيال أيضاً، توصلوا، وبعد فترة من الانتظار، إلى ترميم جسدي المتداعي، خاصة بعد أن عرفوا لماذا أصبحت هكذا! وكان بعض الأطباء لا يكف عن الحديث عن المستقبل!

قضيت شهوراً طويلة في مستشفى كارلوف. أجريت لي خلالها عدة عمليات، بدأت بعدها أتحسن، ثم بدأت أميل إلى الشفاء، لكن ضمن نسق جديد: «لم تعد شاباً، سوف تتحسن بالتدريج، لكن عليك أن تتقبل وضع المرض، وأن تتعايش معه».

وهكذا بدأت أدخل مرحلة جديدة أقرب ما تكون إلى الكهولة، مع مجموعة من الأمراض التي تقوى وتشتد، وبعض الأحيان تغفو، وبدأت أستعد لاستقبال الحياة الجديدة ضمن هذه المواصفات. كنت أعد نفسي

لاحتمال ذلك، لتقبله، وأيضاً لنسيان الماضي. لكن حصل شيء غيَّر المسار من جديد، وهذا التغير لم يكن نتيجة المرض بشكل مباشر، ولم يكن نتيجة الرغبة، لقد كان لسبب لم يخطر لي ببال!

ففي براغ، حيث توقف الموت، أو تأجل، بدأ موتي الآخر!

في المستشفى تعرفت، ويجب أن لا تتسرعوا أو تذهب بكم الظنون بعيداً، فتفترضون مثلاً أني تعلقت بامرأة، وهي التي تسببت بموتي أو بقتلي، إذ بعد أن همت بها تخلت عنّي! قد تتصورون مثل هذا الاحتمال، وكنت أتمناه، وقد يجنح بكم الخيال إلى تصور تلك المرأة. قد تفترضون أنها طبيبة أو ممرضة، كما يحصل عادة في الأفلام والروايات! وقد تكون مريضة في فترة النقاهة، وخلال التمشي في الحديقة، ومن النظر إلى الابتسام، ثم الحديث، وقعنا في الغرام، وأصبحنا مرضى من نوع آخر! أو ربما تكون زائرة لإحدى المريضات، ولسبب ما وقعنا في ذلك الداء الذي يصيب جميع البشر: العشق، وهكذا دخلت المستشفى بسبب، ولم أخرج منه لسبب آخر!

لا لم يحصل شيء من هذا، وإن تمنيته طويلاً وكثيراً، لكنه لم يتح لي:

إن الذي غيَّر حياتي ووضعني على حافة الموت هو أني تعرفت على طالع العريفي!

وطالع العريفي مريض مثلي، جاء من موران للعلاج. وكما يحصل بين اثنين يتعارفان على ظهر باخرة أو في سجن تعارفنا.

حصلت الأمور بالصدفة، كما تحصل في الحياة خارج المستشفى وخارج السجن، إذ ما كادت تنقضي أيام على وجودي في المستشفى حتى جاء لزيارتي.

جاء بين العصر والغروب، في تلك الساعة الشجية، والتي غالباً ما يحصل في مثلها أن تبدأ علاقة أو أن تنتهي. كان في ثياب المرضى، وفوق الثياب روب نبيذي كامد، ربما كان لواحَد غيره أضخم منه حجماً، أو ربما اشتراه في اللحظة الأخيرة دون تدقيق، لأنَّ الروب كبير فضفاض بحيث يتسع لواحد آخر معه!

كان طالع نحيفاً إلى درجة لافتة للنظر، وهذا ما يجعله يبدو طويلاً، رغم انه مربوع أو أميل إلى القصر. أسمر، وتتضح سمرته أكثر نتيجة بياض

الأسنان وانتظامها، عدا السن الوسطى، عيناه واسعتان حزينتان، خاصة حين يصمت أو وهو يتأمل. وما يزيد في حزن العينين أكثر: الهالات، وكأنها آثار كدمات قوية أو كحل قديم!

بدون ارتباك، وبكلمات قليلة، قدّم نفسه على أنه أحد نزلاء المستشفى، وأنه يعرف التشيكية، ويمكن أن يكون مفيداً لي إذا احتجت إلى مساعدته، وقبل أن أجيب على عرضه، تابع وهو يدور حول السرير:

ـ ولدي بعض الكتب والمجلات يمكن أن أضعها تحت تصرفك.

ابتسمت وهززت رأسي. كنت متعباً، نتيجة الفحوص الكثيرة التي أُجريت لي خلال الأيام الأخيرة. وكنت أحس بالحرج نتيجة بقاء ناجي، الصديق الذي رافقني في هذه الرحلة، فترة طويلة إضافية إلى جانبي، ولذلك كنت مصمماً أن أواجه الموقف وحدي في أقرب فرصة ممكنة، اعتماداً على لغتي الفرنسية، أو بمساعدة أحد من العرب المقيمين. ولذلك، ورغم الحذر الغريزي الموروث من السجن، فقد اعتبرت العرض الذي يقدّم إليّ الآن سخياً وغير متوقع، مما جعل رد فعلي موازياً لهذا السخاء، إذ رحّبت بالزيارة، وبدر مني ما يشي بموقف ودي مبالغ فيه. انتعش طالع، وكأنّه لم يتوقع، فقال بانفعال:

ـ قلت لنفسي: العرق دساس والدم أبداً ما يصير ماي!

وبعد قليل، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ أن الغريب للغريب نسيب، وأنت تدري أن النسيب أحسن من ابن العم في بعض الأحيان.

وضحك. أضفت وأنا أترنم:

ـ أن الغريب للغريب نسيب وقريب وحبيب!

هكذا تعارفنا. وخلال أيام أصبحنا أصدقاء. ومثلما للسجن لغته، فإنّ المرضى يستطيعون التفاهم فيما بينهم بيسر وسرعة، فإذا أُضيف إلى المرض الغربة، فعندئذ تولد لغة شفافة شديدة الحساسية والنفاذ، ويمكن لأقل الكلمات، وبعض الأحيان دون كلمات، أن تخلق حالة من التفاهم، كما أن العلاقة بين البشر المحصورين في مثل هذا المكان، ويواجهون نفس الآلام، تختلف من حيث المتانة والمدة التي تتطلبها عن علاقات العالم الخارجي.

ما كادت أسابيع تمضي حتى أصبح أيّ منا يعرف الآخر وعن الآخر ما لا تستطيع سنوات من الحياة العادية المشتركة أن تخلقه، خاصة بعد أن اكتشف كل واحد منا أن الآخر كان سجيناً، وربما لأسباب واحدة أو متقاربة. لقد أحسسنا، ونحن نكتشف هذه الحقيقة، بفرح أقرب إلى النشوة. أكثر من ذلك تصافحنا بحرارة وبمودة زائدة، وكأننا نتعارف من جديد، أو أصدقاء يلتقون بعد غياب طويل! كما أصبحنا قادرين على أن نخوض في عدد غير محدود من المواضيع، بما في ذلك الأمور الصغيرة أو الشخصية!

إن الإنسان وهو يعثر على نفسه في الآخرين، ويجدد ما هو قوي ومشترك بينه وبينهم، يتحول إلى طفل كبير: حمل إليّ طالع عدداً من الكتب التي كانت لديه، مع أنيّ لم أكن قادراً على القراءة في تلك الفترة. ولما وجد أن هذه المتعة لم تدخل الغبطة إلى قلبي بالمقدار الكافي، حمل إليّ مجموعة من المجلات المصورة وأوراق اللعب، إضافة إلى صندوق من التمر الجيد، لا بدّ أنه ادخره لوقت لاحق، ليوم خروجه من المستشفى لكي يقدمه للطبيب تعبيراً عن الامتنان والشكر، ثم أخذ «يسرق» لي وردة يومياً من مكان ما إذا لم يزرنا أحد، أو لم يحمل لنا الزائر زهوراً!

لا استطيع أن أُحدّد مقدار التأثير الذي ولدته الحالة الجديدة، لكن يبدو أن تحسناً واضحاً وسريعاً بدأ يظهر علينا نحن الاثنين، ولقد لاحظه الأطباء، وأبدى أحدهم استغرابه! أكثر من ذلك لم يُعترض على نزول طالع مرة أو مرتين إلى براغ خلال تلك الفترة، أو بكلمات أدق تظاهرت الممرضة المشرفة أنها لم تعرف ولم تلاحظ، أمّا الطبيب المعالج فقد اعتبر الأمر جزءاً من العلاج!

لم أستطع أن أقدر الدوافع الحقيقية لنزول طالع إلى المدينة، لكن تبينّ لي في وقت متأخر أنه اشترى كمية من الأوراق والدفاتر، وأيضاً بعض الكتب، ويبدو أن أحاديثنا حول مواضيع وأفكار كثيرة، واستعادة الذكريات، وغالباً ما كنا نرويها بمرح، حرضته وجعلته يفكر بالكتابة. ولقد اتضح لي ذلك من التساؤلات حول جدوى وأهمية الكلمة، ثم من حالة الكآبة التي أخذت تتسلل إلى وجهه، خاصة إلى عينيه، إذ كان يبدو بعيداً غارقاً في التفكير، وفي المرات التي حاولت معرفة ما وراء هذه الحالة كان يرد أنها لأسباب طارئة،

ولا بد أن تزول بسرعة!

في إحدى الأمسيات، وبدون تمهيد قال لي بانفعال:

ـ يبدو أنني لن أشفى. . .

وحين فتحت عيني باستغراب، تابع وهو يهز رأسه بحزن:

ـ ولا أشعر إطلاقاً أنني أصبحت حراً!

قدرت أنه يعاني. لم أشأ أن أفرض عليه تفاؤلي الهش باستعمال الكلمات التي يتداولها الناس عادة في مثل هذه الحالات. صمت. نظر إليّ، لكن بدا لي أنه لا يراني، وبعد فترة صمت طويلة:

ـ أحمل السجن معي أينما ذهبت، ويبدو أنني لن أستطيع التخلي عنه أبداً!

ـ تحمل السجن معك؟

ـ نعم، وهذا أخطر ما في المشكلة. لقد أصبح السجن، بالنسبة لي، حالة لا تغادرني، تماماً كالعلامة الفارقة!

قلت أستفزه، لعلي أُخرجه من هذا الجو:

ـ نحن العرب عباقرة في توهّم الأحزان ثم في الاستسلام لها!

ـ يمكن أن تقول أيّ شيء، ولكنني أؤكّد لك أن السجن ليس فقط الجدران الأربعة، وليس الجلاد فقط أو التعذيب، إنه بالدرجة الأولى: خوف الإنسان ورعبه، حتى قبل أن يدخل السجن، وهذا بالضبط ما يريده الجلاد، وما يجعل الإنسان سجيناً دائماً.

ـ لم أفهم ما قلته:

ـ لا اريد أن أستعمل كلمات كبيرة أو خاطئة، ولكن قناعتي أننا نحن الذين خلقنا الجلادين، ونحن الذين سمحنا باستمرار السجون. لقد فعلنا ذلك من خلال تساهلنا وتنازلنا عن حقوقنا، ومن خلال استسلامنا لمجموعة من الأوهام والأصنام، ثم لما أصبحنا الضحايا لم نعد نعرف كيف نتعامل مع هذه الحالة.

ـ لا حاجة لأن نجلد أنفسنا مرة أخرى، يكفي ما تلقيناه من عذاب.

ـ ولكن العذاب الحقيقي، يا صاحبي، هو أن نعيش في الوهم. نفترض، بعض الأحيان، أننا ما دمنا خارج السجن فنحن أحرار، ونظل في

هذا الوهم إلى أن يطبق الفخ على أقدامنا، وعندها نندم لأننا لم نفعل شيئاً، ليس فقط لئلا ندخل السجن، وإنّما لأننا لم نفعل ما يجب علينا لكي لا يكون السجن أصلاً.

قلت بيأس:

ـ سيبقى السجن، يا طالع، وسيبقى السجان، ما دام هناك ظلم واستغلال.

ـ أعرف ذلك، لكن ما أفكر فيه السجن الداخلي، وهو أن يرضى جميع الناس بالبقاء في هذا السجن، عدا مجموعة صغيرة للحراسة، وهذه المجموعة ذاتها دائمة الخوف لأنها لا تعرف متى ستلتحق بالآخرين وتدخل السجن ايضاً. لو كان شعور الناس بالحرية حقيقياً لتقلص السجن إلى حدوده الجغرافية، وربما انتهى، لكن ما دام الناس هكذا فإنّ السجن لن يُبقي أحداً خارجه!

ـ لا أعرف ماذا تعني بالضبط، ولكني متأكد من أمر أساسي: لا يمكن أن نهدم السجون إلاّ إذا ألغينا حالة الخوف وعقل الخوف، وهذا، برأيي لا يكون إلاّ بالفضح، بالتحدي، وأيضاً بالشجاعة، وأن يكون الإنسان مثلاً. والخطوة الأولى، في هذا السبيل، أن نقول الحقيقة، وأن نؤمن بالحرية لأنفسنا وللآخرين.

حتى تلك اللحظة كان جالساً على طرف السرير ونحن نتحدث، نهض واتجه إلى النافذة، بعد فترة من التأمل والصمت، سأل:

ـ وهل تعتقد أن الكلمة يمكن أن تواجه الرصاصة؟ وهل تستطيع الأوراق الهشة أن تحرّر سجيناً واحداً أو أن تفتح كوة في أصغر سجن من هذه السجون العربية؟

وقبل أن أجيب التفت إليّ، وكشف عن صدره، وتابع بانفعال:

ـ وهذه الآثار كيف تزول، ومَن سيدفع ثمنها؟ وحياتنا، بعد هذه السنين، هل لها معنى أو فائدة؟ ولمن؟

تحركت في سريري، ارتفعت بصلابة، وقلت بهدوء لكي امتص غضبه:

ـ أسمع يا طالع: لقد فعلنا كل ما فعلناه من أجل قناعاتنا، وكنا نعرف

أن هذا الطريق ليس طويلاً وشاقاً فقط، كنا نعرف أننا قد ندفع حياتنا من أجله، وأعتقد أننا لسنا آسفين أو نادمين على ذلك، ولا بد أنك تشاركني الرأي.

ـ لنفترض أننا على اتفاق، ولكن، وكما قلت لك، أشعر الآن أنني في السجن أكثر مما كنت هناك، وهذا الشعور نتيجة العجز عن تغيير شيء، عن تحرير إنسان.

ـ ولكن السجناء سيتحررون ذات يوم يا طالع.

قال وهو يقترب وينظر إليّ بتحديد:

ـ أخشى، يا عادل، أن يحصل العكس، لأنّ الأمور، كما أراها الآن، تأخذ مساراً مختلفاً عن السابق..

وبعد قليل وكأنه يحدّث نفسه:

ـ المشكلة ليست في الصعوبات، فلكل مرحلة صعوباتها وتعقيداتها، وأيضاً ضحاياها، ولكن المشكلة كما أرى، هي في انعدام اليقين، في الهزيمة الداخلية التي نعيشها، مما يجعل الكثيرين حائرين ثم يائسين، وهذا ما يريده الجلاد: أن نأكل أنفسنا، وأن يأكلنا الندم حتى ننتهي تماماً.

ساد بيننا صمت ثقيل، ربما كانت هذه هي إحدى المرات القليلة التي نقول فيها الأشياء بوضوح. كنا في مناقشاتنا السابقة، حين نقترب من المشكلات الحارقة، نقول كلمات متلعثمة أو مواربة، مع زفرات وهزات من الرأس، على أمل أن تجد هذه المشكلات لنفسها حلاً. هذه المرة لا أعرف لماذا فجّر طالع الأحزان كلها، قلت في محاولة لأن أخلق جواً جديداً:

ـ سألتني قبل قليل ما إذا كانت الكلمة تستطيع مواجهة الطلقة أو قادرة على تحرير سجين، وأنا أقول لك، ومتأكد مما أقول، إن الكلمة الصادقة قد لا تظهر نتائجها بسرعة، ولكن حين تنفذ إلى عقول الناس وقلوبهم وتستقر هناك، فلا بد أن تتحول إلى قوة، وتكون قادرة على فعل الكثير.

سأل بسخرية:

ـ أن تواجه الطلقة وتخرسها؟

ـ لا أريد المقارنة، ولكن أنت تعرف أن العالم لم تغيره إلاّ الأفكار، أي الكلمات، وقد حصل هذا منذ أقدم العصور وحتى الآن. وبالمقابل فإنّ

ملايين الرصاصات التي ملأت الدنيا صخباً ودوياً انتهت إلى الصمت المطبق، إلى الموت، دون أن تستطيع تغيير شيء.

ـ أريد أن أصدق هذا الوهم!

هكذا كانت تجري المناقشات بيننا في أحيان كثيرة، ربما نتيجة الهواجس والذكريات التي تملأ ليالي المرضى، تماماً كما كان الحال في السجن، فالليل والصمت، ويُضاف هنا الألم، ثم ذلك الحنين إلى شيء ما، وغالباً ما يكون غائماً أو مختلطاً، يدفع مجموعة كبيرة من الأسئلة والأفكار، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يقطع برأي أو يكون متأكداً ما لم يناقشها مع صديق، وهذا ما يجعله متطرفاً فيدفع الأمور إلى نهاياتها، لعله يجد في الحوار جواباً أو ما يشبه الجواب.

كانت حواراتنا تطول وتتشعب، وكانت تمتد في بعض الأحيان. والأُخت جوليا مسؤولة ممرضات الليل، الحازمة، المسنة، وهي تمر على الغرف لتتأكّد أن كل مريض في سريره، وأن كل شيء يسير بشكل طبيعي، كثيراً ما وجدت طالع في غرفتي، ولذلك أصبحت تبتسم وتردد نفس الجملة:

ـ وانت، مرة أخرى، هنا؟

وتهز رأسها بلوم أقرب إلى الإشفاق، وتضيف، وهي تستدير، تريد الخروج، ولكي تمنع طالع من رؤية ابتسامتها الصغيرة.

ـ سأعود بعد قليل لكي أراك في فراشك!

وغالباً لا تعود، أو تتعمد أن تتأخر في العودة. وطالع رجل من النوع الصعب، لا يمكن أن يقتنع بسرعة أو بسهولة، فإذا ألحت عليه فكرة يظل تحت تأثيرها ليلة، يوماً بكامله، إلى أن يصل إلى جواب!

في بعض الليالي، حين أكون متعباً، أو لا أملك إجابة عن سؤال يطرحه، أقول له بمداعبة:

ـ لقد تعلمت، يا طالع، دروساً كثيرة في السجن، ولعل أهم هذه الدروس ألاّ تترك المعتقل يستريح حتى تنتزع منه اعترافاً كاملاً!

حين يسمع مثل هذه الكلمات، أو حين تطل كبيرة الممرضات، جوليا، في المرة الثانية، ينتزع نفسه من الكرسي وينهض. يسير ببطء وتثاقل، ويعد

أن يفتح الباب يستدير من جديد، ويقول واحدة من عبارتين:

ـ «سأعود... بعد قليل لأراك نائماً» أو «حضّر نفسك لترى نجوم النهار». وإذا كانت عبارة جوليا تدل على أنه أقرب إلى الاقتناع، وقد وصل إلى الإجابات التي كان يبحث عنها، فإنَّ العبارة الثانية، وهي للشهيري، المحقق الذي أذاق طالع الموت مرات عديدة أثناء التحقيق، فهي تعني أن جولة أخرى من النقاش تنتظرنا غداً، وحول نفس الموضوع!

كنا في بعض الأحيان، ربما نتيجة الضيق، أو لاختبار قوة فكرة من الأفكار، نحتد في المناقشة ونعاند، فإذا أطلّت علينا إحدى الممرضات، وغالباً ما تكتفي بالابتسام، إشارة إلى أننا تجاوزنا الحد، ويفترض أن نكون نائمين في مثل هذه الساعة، فإنَّ جوليا ترفع يدها اليمنى، وتزم ابهام وسبابة اليد اليسرى وتقربهما من فمها مخرجة صوتاً أقرب إلى الصفير، طالبة منا أن نتوقف فوراً. وحين نصمت، تقترب وتقول لطالع بهمس، وكأنها تعلمه درساً إضافياً في طريقة الحوار:

ـ يجب أن تعرف، أيُّها السيد، أن ذوي الأصوات العالية ليسوا دائماً على حق!

ـ وليسوا دائماً على خطأ!

هكذا يرد بانفعال، وبصوت، وإن بدا أقل ارتفاعاً، إلاَّ أن نبرة الحدة لا تزال تميزه، فتجيبه جوليا همساً:

ـ بداية الخسارة في الحب والسياسة: الغضب!

ينظر إليها ملياً. تنفرج الشفتان وتظهر ابتسامة صغيرة. يهز رأسه ويقول كأنَّه يتحدث لنفسه، لكنه يتحدث إليها أولاً، ثم يترجم لي ما قاله:

ـ تستغربين إذا قلت لكِ أيَّتها السيدة المحترمة إنني كنت أتمنى اللحظة التي يغضب فيها المحقق، كان يترجم غضبه إلى عذاب، ولكني كنت أحس أنه خسر الجولة تماماً، أنه فقد أهم أسلحته، وهذا يجعلني أقوى وأكثر قدرة على تحمل العذاب الإضافي. ويجعله أيضاً مهزوماً، أو يكاد، بالنسبة لي!

وبعد أن يخيم الصمت، وكانت جوليا تشاركنا تلك اللحظات، ولأنَّ جواب طالع أقنعه، وربما أرضاه، يضيف، وقد فارقت عيناه هالات الحزن:

ـ أعرف هذا الجانب نتيجة التجربة، أمّا الأمر الآخر، الحب، والذي

يمكن خسارته نتيجة الغضب، فأنا بحاجة لأن أجربه.

تبتسم جوليا، وتسأل بهمس وهي تستعد للمغادرة:

ـ أتريد أن تجرب الحب أم الغضب؟

ـ الاثنين معاً.

فإذا كان في الوقت متسع، ولا تزال سماحة جوليا تمنحنا مزيداً من الوقت فعندئذ تتراجع إلى الخلف، ترفع يدها، مع حركة صغيرة، وصفير بالابهام والسبابة، كي نواصل ما نحن فيه، لكن بهدوء هذه المرة. أمّا إذا حان وقت النوم فتردد عبارتها ذاتها:

ـ سأعود بعد قليل لكي أراك في فراشك!

ورغم أن هذا المشهد المرح تكرّر عدة مرات إلاّ أنّ جوليا كانت شديدة الاستغراب من طريقتنا في المناقشة. قالت لطالع ذات مرة:

ـ أتمنى أن اراك وقد أحببت امرأة، لأعرف كيف تتصرف معها، وأيضاً لأرى كيف تخاطبها.

يجيب طالع وهو يضحك:

ـ أعتقد أن المرأة ليست بحاجة إلى كلمات كثيرة، تكفيها كلمات القلب ولغة العيون!

تهز جوليا رأسها هزات حكيمة وتقول بمكر بريء:

ـ إذن يجب أن تشفى بسرعة لأرى لغة القلب والعيون!

حين تنسحب ونعود إلى الحديث، يقول بصوت مخدوش:

ـ يمكن أن يستغربوا أصواتنا، طريقتنا في المناقشة، لأنّهم لا يعرفون كم من الصدأ غلّف ألسنتنا وحلوقنا. كما لا يعرفون دوافعنا لتحدي تلك الحكمة الأزلية في بلادنا: إذا تكلمت في النهار، فالتفت، وإذا تكلمت في الليل فأخفت...

شابت وجهه مرارة وهو يضيف:

وقد تستغرب أنت إذا قلت لك: إنّني في أحيان كثيرة أقبض على نفسي أُكلّم نفسي بصوت عالٍ، لقد كنت أفعل ذلك وأنا في المنفردة، لكي لا أجن، أمّا هنا فأفعله لكي أقنع نفسي أنني أصبحت خارج السجن، وأنت تعرف أن بداية شعور الإنسان بالحرية أن يكون قادراً على الشعور بالحرية

والكلام دون خوف، وأن يرفع صوته إذا اقتضى الأمر!

ومن المواضيع العامة نتسلل إلى الموضوعات الشخصية.

في وقت ما، وبعد أن تعبنا من مناقشة قضايا العالم عرجنا إلى الأمور الخاصة، ولقد بدا لي أن طالع لا يزال حائراً متردداً، ففكرة مواصلة الدراسة تراوده لكن دون حماسة كبيرة، ودون تحديد للموضوع، كما تراوده رغبة العودة، لكن متسللاً هذه المرة، لأن موران بعد أن تعبت منه اعتبرته من رعايا الدواحس وأبعدته. وقرار بالعودة لا يتم، ولا يمكن أن يتخذه دون موافقة المسؤولين في الداخل، ويبدو أن علاقته بالتنظيم لا تزال ضعيفة أو غير محددة بدقة، ولقد بدا لي ذلك ثم تأكّدت من تلك اللهفة التي يبديها أثناء زيارة بعض الأصدقاء، ثم حالة الإحباط التي تسيطر عليه، لأنّ الزيارة اقتصرت على أحاديث عامة وبعض الكتب والمجلات، ولم تحمل إليه الجواب الذي كان ينتظره! وأيضاً من ذلك السؤال الذي لا يتعب من تكراره مستفسراً ما إذا وصلته رسائل أم لا!

كنت، وأنا أرقب توزيع الرسائل، وليس بينها رسالة له، أقول بدعابة، وفي محاولة لأن أُخفّف عنه:

ـ ليس أمامنا إلاّ أن يكتب الواحد منا للآخر، وبهذه الطريقة نتلقى رسائل أكثر من جميع المرضى!

فإذا لم يجب أضيف مازحاً:

ـ ويمكنني أن أتخفى وراء اسم امرأة وأكتب إليك رسائل عشق إذا أردت!

يزفر بحزن، يعتم وجهه، ويخرج صوته، كما تريده جوليا، همساً:

ـ انتهى الأمر: لقد اتخذت قراراً بالنسبة للمرأة والزواج!

ولكي لا أعود لمثل هذه الدعابة مرة أخرى يضيف بنبرة جديدة:

ـ من الخطأ أن يفكّر مرضى السل بالزواج والأولاد، لأنّ هذا المرض يمكن أن يختفي، ولكنه لا ينتهي، فإذا قدر علينا أن نصاب بهذا المرض، فيجب ألاّ ننقله للآخرين...

ورغم أنّي فوجئت بإصابته بهذا المرض، فقد حاولت، اعتماداً على معلوماتي العامة، أن أؤكّد له خطأ تصوراته وتقديره، لأنّ السل لم يعد مرضاً

خطيراً للآخرين، لكن طالع، بإصرار أقرب إلى عناد الأطفال، يرفض أن يصدّق أو أن يقتنع. والمرات التي حاولت معه أن نحتكم إلى الطبيب كان يقابلها برفض أقرب إلى السخرية، كان يقول:

ـ المرضى يعرفون أكثر من الأطباء!

ويدق على صدره لتأكيد هذه الفكرة، فأرد عليه:

ـ ولكنهم لا يعرفون أحسن منهم!

وحين يهز كتفيه دلالة عدم الاهتمام أحتد:

ـ إذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا نحن هنا، وكيف نكون علميين في ناحية، ونؤمن بالخرافات في الناحية الثانية؟

ولم نصل إلى أية نتيجة لأنَّ طالع لم يكن مستعداً لذلك.

في فترة لاحقة، وبأساليب لا تخلو من مكر، حاولت أن أعرف ما وراء هذا الموقف، إلى أن افترضت أن طبيعة حياته لا تسمح له بالزواج، ولذلك، وما دام الأمر مؤجلاً، فالأفضل عدم التفكير فيه. وفي فترة أخرى اعتبرت الأمر نتيجة صدمة أو تجربة فاشلة، وهذا ما يجعله غير راغب في تجربة جديدة. وقدرت أيضاً أن المصابين بالسل تنتابهم هواجس في بعض الحالات تجعلهم، رغم الشفاء، أقرب إلى السوداوية والتشاؤم، بحيث يصبحون غير ميالين لعلاقة من هذا النوع.

ظلت هذه الأفكار تظهر أو تغيب تبعاً لمزاج كل منا وحالته الصحية أو النفسية.

وفي أحد الأيام المتأخرة من أيار، وكانت الطبيعة تتفتح بنزق يشبه الجنون، وهي تستعرض مفاتنها، وتضفي على الوجوه والأجساد، وحتى الحركات، ألقاً وعربدة، وتعطي للحياة مذاقاً مختلفاً عن أيام الشتاء الباردة والكامدة... في ذلك اليوم، وقد سبق الأحداث بأسبوع واحد، كان لدى طالع ما يريد أن يقوله:

ـ تذكر مناقشتنا قبل أسابيع حول الزواج؟

ـ لا أذكر غيرها!

وأفلتت مني ضحكة صغيرة، فقد أحسست أن الطبيعة، هذه الطاقة التي لا تتوقف لحظة واحدة، لم تغفل عن طالع ولم توفره. فها هي الآن تستفز

أعماقه النائمة، تحركها، لكي تنهض وتلاقي النور والدفء اللذين يتفجران من كل الأنحاء ومن كل الأشياء، وها هو طالع يستجيب للنداء فيعود من جديد إلى ما اعتبره منتهياً، يعود إلى المرأة.

هزَّ رأسه وابتسم بحزن. قلت لأزيل الحرج، ولئلا يتردد في مواصلة الموضوع:

ـ نعم... أتذكر تلك المناقشات جيداً.

ـ قبل أيام، وبعد فحص كامل، أكَّد لي الدكتور ميلان أنني في حالة صحية جيدة، ولن أحتاج لأكثر من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، لكي أُغادر المستشفى إلى الجبال، وأنني سأكون قادراً حتى على الزواج...

نظر إليّ بطريقة اختبارية يريد قياس رد فعلي، وهل عليه أن يواصل في نفس الاتجاه ام أن يختار طريقاً آخر. لما وجدني عيوناً صاغية، وقد فارقني المكر، تابع بنبرة دعابة:

ـ بعد أن طمأنني الدكتور ميلان تماماً سألته ما إذا كان مرضي القديم يمنعني فعلاً من الزواج أم لا، فشرح لي الحالة بدقة وبالتفصيل، وقال: تزوج وعلى مسؤوليتي!

ـ ولذلك فأنت مقتنع ولا بد أن تنفذ توصيات الطبيب؟!

ـ لا بد أن أُفكّر!

وبعد قليل وهو يتمطى:

ـ لا تزال أمامنا أسابيع وشهور، وسوف نصل إلى القرار المناسب!

ـ وخلال هذه الفترة... ماذا يجب أن تفعل؟

ـ ماذا يجب أن أفعل؟

ـ نعم هذا هو السؤال، كما يقولون.

ـ بم تنصح أيُّها المعلم؟

رددت وأنا لا أقوى على منع نفسي من القهقهة:

ـ يجب أن تحب، أن تعشق عشقاً حقيقياً، لكي يعرفك التاريخ ليس فقط كسجين قديم بل وكعاشق كبير.

شاركني الابتسام، لكن غمامة حزينة ارتسمت فوقنا فجأة. قال وقد تغيّر تماماً:

ـ أتمنى لو أستطيع العشق بعد تلك المرأة. . .

وخيّم الصمت، كان صمتاً قاسياً شعرت معه أن أي تدخل من جانبي سوف يسبّب لطالع حزناً قد لا يكون مبرراً أو ضرورياً. في وقت ما عاد للكلام، ولكن بدا لي أن شخصاً آخر هو الذي يتكلم:

ـ حبنا كان كبيراً، كالجبال، كالصخور، كالأنهار، وكان قوياً أيضاً ومجنوناً. وبعد انتظار وعذاب، وبعد ممانعة الأهل والتهديد، والحرمان من الميراث، اتفقنا على الزواج، واتفقنا على كل شيء، لكن قبل أسبوع من هذا الموعد تمّ اعتقالي، ولم أرها بعد ذلك أبداً!

ولم يترك استغرابي يطول، أضاف، وخرج صوته متلجلجاً:

ـ قالوا لي إنها ماتت بعد شهر واحد من اعتقالي، نتيجة مضايقة الأهل، والكلمات التي سمعتها من العائلة. وقيل إن السل هو الذي قتلها قبل أن تموت فعلاً. وقالوا إنها ماتت حسرة وكمداً نتيجة سجني وحصار الأهل. المهم اني لم ارها بعد أن اعتقلت.

حاول، بوجهه وتعابيره، أن يوضح، أن يقول شيئاً لكن ظهر أن تلك الحركات لم تكن كافية، قال بحدة:

ـ ومنذ ذلك الوقت انتهى بالنسبة لي موضوع الحب!

أحسست بالجرح الغائر في أعماقه والذي يرجع إلى ذكريات بعيدة منذ سنين طويلة، وفي محاولة لأن أواسيه، وأجعله يتقدم خطوة للأمام قلت:

ـ أتذكر كلمة قالها ناظم حكمت: «ان الموتى لا يشغلون أناس القرن العشرين أكثر من سنة». ولذلك يجب أن نتجاوز أحزاننا، وأن نبدأ من جديد، لأنّ استمرار الحزن على الذين مضوا لن يفيدهم، وسيضرنا بكلّ تأكيد.

ـ ليس المنطق وحده ما يقرر عواطف الانسان، فهناك مجموعة من الدوافع والأسباب، وربما قوى أخرى، تلعب أدواراً أساسية في سلوكه وتفكيره وردود فعله، وربما لا يدركها هو نفسه بوضوح، أو قد ينساها لفترة. والموت على رأس هذه الدوافع، ولذلك فأنا ضعيف تجاه الموت.

قلت في محاولة أخيرة للخروج من الحزن والذكرى، وكنت أتطلع إلى البعيد:

ـ في شؤون الموت والحب يتكلم القلب، ولذلك علينا أن نترك له قيادتنا، والأفضل أن يقرر نيابة عنا!

أتذكر تلك الساعة عند الغروب. في أحد الأيام المبكرة من أيام الربيع: كان ضيق الصدر أقرب إلى النزق، كان لديه ما يقوله، لكن شيئاً في داخله يمنعه، ولأنَّ السجن قد علّمنا ألا نستعجل الأشياء، لأننا لو فعلنا فلا بد أن ندفع ثمناً غالياً وقبل الأوان، خاصة وأن السجين لا يعرف عدوه أغلب الأحيان، إذ يهجم على مَن يواجهه، مَن يتحداه، ولذلك لم استعجله لأن يتكلم، لأن يقول، خاصة وأن الإنسان حين يكون محصوراً في مكان ضيق، ومع أناس محدّدين، فإنَّه بمقدار شعوره بالقرابة والتضامن مع هؤلاء الناس، فإنَّه يصبح ضيق الصدر سريع الغضب، ويمكن لأي تصرف خاطئ أن يخلق عداوات لا تزول، ولذلك من الأفضل أن تترك لكل إنسان فسحة من «الحرية» لكي يناجي نفسه، لكي يتأمل، دون تدخل الآخرين. وحتى دون الاحساس بوجودهم. وهذا ما جعلني أتغاضى في الأسابيع الأخيرة لانقطاع طالع في بعض الليالي، أو لزياراته القصيرة. كان، في بعض الأحيان، يعتذر لانشغاله بقراءة كتاب، وفي أحيان أخرى لا يجد نفسه بحاجة لأي اعتذار! أما تساؤلات جوليا، أو حتى إجاباتها، وهي تفتح الباب لتتأكد، فقد كانت ملتبسة، إذ بعد أن تذكر اسم طالع تحرك أصابعها بإشارة دلالة أنه يكتب، وأفهم ولا أفهم!

في هذا المساء الربيعي، وبنوع من الزهو، اعترف:

ـ بعد مناقشاتنا حول السجن، ولكي نخلق ذاكرة إضافية لدى الناس، قررت أن أكتب عن هذه التجربة، وكتبت!

ابتسم وهزَّ رأسه ثم أضاف:

لا أزعم أنها تجربة خارقة، ولكنها قد تكون مفيدة لاستعادة وقائع الفترة الماضية كلها، وإذا كان من حقّي أو من واجبي أن أسجل هذه التجربة بكل صدق وجرأة فإنَّ مسألة نشرها، إن كانت تستحق النشر، مرهونة بالظروف المناسبة.

ـ المهم كتابتها، أما توقيت نشرها فإنَّه يخضع لاعتبارات كثيرة، وهذا ما ينساه الكثيرون، فالذاكرة مهما كانت قوية، فإنَّها أشبه بالغربال، والظروف

مثل الفصول تتقلب وتتفاوت كثيراً، ولذلك لا يستطيع الإنسان التوفيق بين ما يريده وما يقدر عليه، وهنا يقع الخطأ الكبير، إذ يتصور الكثيرون أن الوقت المناسب سيأتي، ان عاجلاً أو آجلاً، وعندها سوف يدلون بشهاداتهم الكاملة دون خوف، وأظن أن أغلب هؤلاء لن يعيشوا لكي يدلوا بهذه الشهادات. . . سيذهبون وتذهب معهم وقائع كثيرة وهامة كان يفترض أن تبقى، وهذا بسبب خوفهم، أو لأن توقيتهم سيئ كما هو الحظ السيّئ!

وحين صمت، وربما كان بعيداً عما قلته، أضفت في محاولة للتحريض:

ـ ألا تعتقد أن الجبن يكتسي كل يوم وجهاً جديداً، قناعاً جديداً، وإلاّ كيف نفسر هذا الفارق الهائل بين ما يقع كل يوم، وعلى مرأى من الآلاف، ولا نجد ما يوازيه من وقائع مكتوبة؟ ولماذا لا يكتفي الناس في بلادنا بهذه الذاكرة الشفوية وحدها طريقة للتعلم والتواصل ثم التاريخ؟

ـ اللغة السرية في بلادنا وحدها اللغة المتداولة، وهي نتيجة السجن الطويل، سجن الآباء والأديان والأقوياء، ولا أحد يعرف متى يمكن أن تترجم هذه اللغة إلى كلمات فوقائع يقرأها جميع الناس ويعرفون في أي مستنقع يعيشون!

ـ إذا ترجمت فغالباً ما يتولاها المترجمون السيئون!

ـ وهذا ما يجعلنا ندفع الثمن مضاعفاً!

وبانفعال ومرح قام، وبصوت كهنوتي لفت نظر الذين حولنا في الحديقة، وأخذ يردّد:

ـ «وقال ارميا في الاصحاح الخامس: اسمع يا هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون: لهم آذان ولا يسمعون، اياي لا تخشون يقول الرب أو لا ترتعدون من وجهي أنا الذي وضعت الرمل تخوماً للبحر فريضة أبدية لا يتعداها فتتلاطم ولا تستطيع، وتعج أمواجه ولا تتجاوزها. وصار لهذا الشعب قلب عاصٍ متمرد، عصوا ومضوا».

وفي هذا الجو الملتبس، وكان مزيجاً من الانفعال والمرح والجو الصوفي الساخر، تطرقنا إلى أفكار كثيرة، ورغم تحفظات طالع، فقد كنت مسروراً انه كتب، صحيح إنه اعتبر كتابته بداية لا تناسب ما وقع، ولكنها، مع ذلك

«مسامير للذاكرة» كما قال، وانها لنفسه، ولا يفكر بنشرها، ولن يقرر شيئاً إلاّ بعد الاستشارة والتمحيص، لأنّ «الكتابة كالصنّارة، إذا علقت يصعب التخلص منها».

قضينا ذلك المساء في ظل أفكار وأحلام كثيرة، وأتذكر أنه ردّد، وبنفس الطريقة الكهنوتية، وهو يودّعني:

ـ «وخطاياكم منعت الخير عنكم. لأنه وجد في شعبي أشرار يرصدون كمنحنٍ من القانصين ينصبون اشراكاً يمسكون الناس، مثل قفص ملآن طيوراً هكذا بيوتهم ملآنة مكراً. من أجل ذلك عظموا واستغنوا، سمنوا لمعوا. أيضاً تجاوزوا في أمور الشر. لم يقضوا في الدعوى، دعوى اليتيم. وقد نجحوا. وبحق المساكين لم يقضوا. أفلأجل هذه لا اعاقب، يقول الرب، اولا تنتقم نفسي من امة كهذه؟» تنحنح، مسح حول شفتيه، غيّر صورته وتابع:

ـ لا أريد أن أصدع رأسك بأقوال الأنبياء، لكن أريدك أن تسمع ما قاله ارميا في الاصحاح السادس، سأتلوه على مسامعك وامضي، يقول: «أهكذا قال الرب؟ قفوا على الطرق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم، ولكنهم قالوا: لا نسير فيه. وأقمت عليكم الرقباء قائلين: اصغوا لصوت البوق، فقالوا: لا نصغي: لذلك اسمعوا يا أيُّها الشعوب واعرفي أيتها الجماعة ما هو بينهم. اسمعي أيّتها الأرض، ها أنذا جالب شراً على هذا الشعب، ثمر أفكارهم لأنَّهم لم يصغوا لكلامي، وشريعتي رفضوها» آمين!

كانت جدتي تقول «لا تغسلوا الثياب يوم الأربعاء»، وكانت أُمّي تحاول منع أبي من السفر، إذا أراد أن يسافر يوم الأربعاء، أمّا عمّتي سليمة فكانت تخاطب نفسها، ولكن تريد لِمَن حولها أن يسمع، إذا جرى الحديث بتفجع عن أحد معارفنا المرضى: «إذا جاز هذي الأربعاء وصار القمر بدراً تراه يعيش» تصمت قليلاً، وتتابع بصوت أكثر انخفاضاً، لا تريد لمن كان بعيداً عنها أن يسمعها: «وإلاّ أخذ الله وديعته».

في يوم الأربعاء ذاك، الأربعاء الكامد، الأربعاء الملعون بكل اللغات، وأيضاً أربعاء الرماد، كما يقول أحد الشعراء، بدأ النهار عاصفاً مجنوناً. كانت السماء تسودّ، وتزداد سواداً لحظة بعد أخرى، وكانت الرياح تسوق الغيوم من أماكن بعيدة، وبعد البرق والرعد انفتحت أبواب السماء وسقط المطر. مطر لم أر مثله من قبل.

هذه الطبيعة كم فيها من القوى الكامنة، والغادرة في بعض الأحيان، وكيف تتغير وتتقلب بين يوم وآخر، وكم تفاجئ وتدهش وتجعل الإنسان دائم التساؤل والترقب.

فبعد أيام ربيعية شديدة الزهو وصلت درجة التحدّي، وقد بلغت ذروتها يوم الأحد، يوم الزيارة الأسبوعية، بدأ التحوّل.

لا . . إن التحوّل بدأ في اليوم التالي أو الذي يليه، لكننا نحن الذين نعيش في البادية أو على تخومها، نشبه الحيوانات الصحراوية، فقد أحسسنا بهذا التحول قبل أن يقع، بدأ يتسلل إلينا عند الواحدة، موعد الزيارة

الأسبوعية. إذ ما كدنا ننتهي من تناول الطعام، حتى غادر كل واحد منا غرفته، ولا أبالغ إذا قلت إنني التقيت وطالع في منتصف الطريق، وكأننا كنا على موعد بالغ الدقة!

كان طالع في واحدة من حالاته النموذجية: حليقاً، متأنقاً، بادي الفرح. حتى روبه النبيذي بدا أكثر ملاءمة له في هذا اليوم، ربما لأنه امتلأ قليلاً، أو لأنه أخذ يشد قامته وهو يمشي، بناء لتوصية الطبيب، لكي يسحب أكبر قدر من الهواء النقي، مما يساعد في تحسن صحته.

هكذا بدا طالع، لكن في لحظة ما، بعد أن التقينا وأخذنا نتجول في الحديقة، شعرت أن حزناً من نوع غير عادي يستبد به، ولقد تأكّد لدي هذا الشعور من طريقته في الحديث ثم التفاتاته المتكررة، وبعض الأحيان المفاجئة. حاولت أن أتذكر كيف كان حديثه وتصرفه خلال أيام الزيارات السابقة. قلت في نفسي «لقد تأخرت تلك الرسالة اللعينة»، وتذكّرت قصة الجنرال، لكن لم أشأ أن أرويها له الآن. قلت في نفسي: «في أحيان كثيرة الكلمة تحيي وتميت، وأغلب الناس لا يدركون ذلك».

إنّني ألوم نفسي كثيراً، لكن لا فائدة من اللوم أو الندم بعد فوات الأوان! ربما كنت بعد ظهر ذلك اليوم في حالة نفسية غير مؤاتية، إذ لم أعد قادراً على استعادة تلك اللحظات. شردت أكثر من مرة أثناء الحديث. سافرت بعيداً وعدت. تأملت، سراً، مريضاً وصديقته وكيف كانا يتبادلان النظرات الملهوفة ويشدان على أيدي بعضهما، ثم كيف يرفع كل واحد منهما يد الآخر ويقبلها من الباطن قُبلاً طويلة مليئة بالحنان. وتأملت مريضة يضع لها زوجها المسن قرطاً في أذنها، وهي فرحة كطفلة.

في وقت ما، بين العصر والغروب، وصل زائرونا: اثنان من موران وواحد من عمورية. كان أحد اللذين جاءا من موران يأتي لأول مرة. قدّرت أنه يحمل رسالة طالع التي طالما انتظرها! تبادلنا أحاديث عامة، ثم في لحظة، وبطريقة لا تخلو من فجاجة، طلب هذا الزائر الجديد أن ينفرد بطالع دقيقة أو اثنتين. وافقنا بحماس.

جلسا على كرسي طويل غير بعيد عنا. تعمدت أن أقرأ على وجه طالع الرسالة التي سيُبلّغ بها قبل أن ينقلها إليّ في وقت لاحق. يبدو أن الرسالة لم

تبلغ فوراً، إذ سبقتها أسئلة، ربما عن الصحة والأهل والوطن. في لحظة ما، ويبدو أن المساء كله هبط في تلك اللحظة، رأيت كيف يشعر الإنسان بالإهانة، وكيف يصبح وحيداً تماماً.

هل دامت هذه الحالة دهراً؟ لحظة؟ لا يمكن أن تقاس بمقياس الزمن المألوف، لأنّ الصمت الذي أعقبها كان ثقيلاً موجعاً. واللغة الوحيدة التي تحدّت الصمت، لكن لم تخدشه، كانت هزّات رأس طالع، كانت بطيئة، لكن مستمرة. كانت متعبة، لكن قوية. وقالت كل شيء.

قدرت أن الرسالة جاءت على غير ما يحب، أو ينتظر. قلت لنفسي «الذين يعيشون وسط الغابة يرون عدداً محدوداً من أشجارها فقط، ولا يرون الغابة كلها، وكذلك حال الذين يعيشون هناك، إنهم يغرقون في همومهم الصغيرة اليومية، ولا يحسون بآلام الآخرين، خاصة البعيدين، ولذلك ستبقى الفجوة قائمة بين الداخل والخارج وستكبر، وسوف تزداد اتساعاً فترة بعد أخرى إلى أن تختم بالقطيعة».

بعد أن ودّعنا زوارنا، وكان وداعاً حزيناً، إذ اقتصر على كلمات مجاملة عامة وسريعة، قال لي طالع ونحن في الممر الطويل، وكان صوته عميقاً مثقلاً:

ـ أتعرف مَن سيزور براغ غداً؟

هززت رأسي بالنفي، تابع بتهكم:

ـ وزير نفط موران!

ـ وزير نفط موران؟

ـ نعم يا سيدي: وزير نفط موران!

للحظات ساد صمت ثقيل، إذ لا بد لكمية كبيرة من اللعاب لتكون قادرة على أن تلوك هذه الكلمة، ولتساعد في فهمها وترجمتها. زفر طالع وأضاف بتهكم وحزن معاً:

ـ لو اقتصر الأمر على الزيارة لهان. لقد طُلب من شبابنا أن يستعدوا هذه الليلة لمغادرة براغ، وأن يقضوا أسبوعاً في الجبال البعيدة، بضيافة الحكومة وعلى حسابها وتحت رقابتها أيضاً! ومعنى ذلك أننا لا زلنا نتمتع بميزة إضافية قياساً لحكومة موران، لأنّ ضيافتنا أطول من ضيافة وزير النفط

بيومين، يوم قبل زيارته ويوم بعدها!

كان حزيناً لدرجة القهر، وكان ساخراً كحد السكين، وإذا كنت ألوم نفسي على أخطاء كثيرة وقعت فيها سابقاً، فلا أعرف كيف تبلدت ذاكرتي تلك الليلة، أو تحوّلت إلى غربال مثقوب، بحيث تداخلت الوقائع والكلمات واختلطت إلى درجة لا اقوى معها إلاّ على نقل صورة معتمة مخدّشة مليئة بالفراغات.

في تلك الليلة، وقد طالت سهرتنا أكثر من المعتاد، حتى اننا لم نفطن أو لم نأبه لمرور الأخت جوليا في المرة الأولى، في تلك الليلة تكلّم طالع كما لم يفعل من قبل:

ـ الحكومات كالبغايا. فالبغي تذهب مع مَن يدفع، ولا تسأل أبداً عن الأنساب أو مصدر الأموال، ولا تهتم أيضاً بعواطف صديق الليل أو إلى أين سيذهب بعد أن يتركها، أكثر من ذلك تكون مغفّلة إذا لم تحاول ابتزازه حتى آخر لحظة.

وأتذكر أنه ضحك بشكل هستيري وضرب حافة السرير، واستمر:

ـ والبغي حين تفعل ذلك فلكي تعيش.. أما الحكومات..

ساد الصمت حتى ظننت أنه لم يبق لطالع شيء يقوله، أو لم تعد لديه الرغبة لمواصلة الحديث. وإذا كانت عادتي في أكثر المناقشات السابقة أن أتدخل بكلمة مرة، بمزحة مرة أخرى، في محاولة تخفيف حدة المناقشة أو لإعطائها مساراً آخر، فلا أعرف لماذا كنت سلبياً هكذا في تلك الليلة!

في وقت ما واصل الكلام:

ـ... من خلال أجهزتهم كانوا يقدمون لنا بين فترة وأخرى كماً هائلاً من المعلومات والصور، في محاولة لترسيخ اقتناعنا أن نظاماً من نوع نظام موران لا يحتاج إلاّ إلى الدفن، وأن من الحماقة أن يفكّر، ولو للحظة واحدة، بإمكانية تطويره أو التعايش معه..

توقف، ابتسم بحزن، وبعد قليل:

ـ لم نكن نحتاج إلى معلوماتهم، فأهل مكة أدرى بشعابها، ولم نكن نحتاج إلى تحريضهم، لأنَّ مَن يأكل العصي ليس كمَن يعدها، والآن يبيعوننا بثلاثين من الفضة؟

صمت، ثم بعد قليل:

ـ يمكن أن تكون لهم اعتباراتهم، مصالحهم، فالنفط أسال حتى لعاب الآلهة، ولكن أن نتحول نحن إلى الثمن، أن يطوّح بنا إلى أقاصي الجبال، أن نجمع كالخيول المسنة الجرباء، ونحشر في قطار الليل، لكي لا تفسد رائحتنا هواء براغ وتؤذي وزير نفط موران، فهذا ما لم نتوقعه ولم ننتظره.

وأتذكر أنني قلت كلاماً فجاً، إذ وضعت احتمال دورة خاصة صدف توقيتها مع وصول هذا الزائر؛ أو ربما لعدم كشف هؤلاء الشباب ومعرفة موران بوجودهم! وربما ذكرت شيئاً آخر. أقول ذلك لأنَّ رد فعل طالع كان حاداً وساخراً:

ـ أعرف أن الحكومات تختلف كثيراً عن الأفراد، حتى الذين يكونونها، لأنَّها لا تؤمن بالعلاقات الأبدية، ولا تعرف شيئاً يسمَّى الوفاء، ولا تقيم وزناً للكلمات والعواطف، وأن ما يحركها ليس المبادئ وإنما المصالح، لكن، مع ذلك، هناك ما يسمَّى اللياقة، والمجاملات، وهذا ما تدّعيه الحكومات دائماً وتحرص عليه في علاقاتها مع الحكومات الأخرى، وحتى مع الجماعات والأفراد... أعرف هذا كله، ولكن أن تبلغ الأمور هذا الحد فلا بد أن خللاً كبيراً موجود في مكان ما، في الأفراد والأفكار والعلاقات، ولذلك يجب أن ندفع الثمن، وغالباً ما يدفع الثمن الفقراء والضعفاء!

وبطريقة تشنجية، أقرب ما تكون إلى رقصة المتصوفة وقف وأخذ يدور على قدمين أول الأمر، ثم على قدم واحدة، وهو يردّد بصوت مبحوح:

ـ أنا مديت للدنيا حبال تجرها لكن الدنيا جرتني بغير حبال.

اي نعم.. بغير حبال، بغير حبال، بغير حبال... وأنا اللي يستاهل كل اللي يجري لي، دنق دي، دنق دي، دنق دي.

وأنا، كالمأخوذ، بين الحزن والفرح والاندهاش لا أعرف ماذا أقول أو كيف أتصرف، لأنَّ الزبد الذي أخذ يظهر على زاويتي فم طالع، وذلك الانفعال الحاد الذي بدأ يلفه، وقد ظهر أوضح ما يكون في عينيه، جعلني حائراً وقد سيطرتْ عليّ حالة من الخوف.

ربما صرخت، أو كانت الضجة الصادرة عنا أكثر مما يحتمل أو غير مسموح بها، لأنَّ الممرضة التي فتحت الباب أغلقته بسرعة، وبعد قليل

جاءت جوليا تهرول. كان طالع يدور وصوته: «دنق دي، استاهل اللي يجري لي»، يتردد بانتظام، وما كادت تنظر إليه بحزم وبكثير من اللوم حتى خفت حركته ثم ارتمى على السرير.

لا أعرف ماذا قالت له، لكنها كانت تتكلم بانفعال، ونظرت إليّ بعتاب، أما وهي ترفعه، وتنظر إلى وجهه بإمعان، فإنَّ هزّات رأسها لم تكن تتوقف، وكانت تتمتم أيضاً! وفي لحظة معينة استعاد طالع نفسه. نهض. شدّ روبه النبيذي على جسده. جال بنظراته في أنحاء الغرفة، وحين التقت عيناه بعيني الأخت جوليا ابتسم ابتسامة صغيرة أقرب للاعتراف أنه أخطأ، وأنه يعتذر. ثم سار، وهي وراءه. حين بلغ الباب توقف قبل أن يفتحه، وقال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ ما حك جلدك مثل ظفرك. . .

وبعد أن فتح الباب، وقف لحظة في اطاره، وبطريقة عسكرية حازمة، قال:

ـ تصبح على خير!

ولم يأتِ هذا الخير أبداً، جاءت المصائب جميعها وتبعتها كل الأحزان!

ففي اليوم التالي، وكان من عادة طالع أن يخرج بعد الافطار مباشرة إلى الحديقة، ويقضي فيها وقتاً يزيد يوماً بعد آخر مع تقدّم الربيع وتزايد الدفء.. في اليوم التالي، وحين فتح الباب يريد الخروج، مُنع من ذلك! لم يمنعه الدكتور ميلان، ولم تمنعه الأخت رادميلا، ديكتاتورة البر والبحر، كما كان يسمّيها الكثيرون، ولم يمنعه أي من العاملين في المستشفى، وإنما كان هناك شرطي، ولديه ورقة صغيرة بحجم راحة اليد مكتوب عليها: «يُحظّر على المريض رقم غرفته 217، واسمه العريفي طالع، مغادرة الغرفة، لأسباب أمنية، ابتداء من يوم الاثنين السابع عشر من مايو وحتى إشعار آخر».

لم يصدّق أحد. الأطباء، الممرضات، المرضى، كوبكا، المسؤول عن الحديقة في المستشفى، وقد لاحظ تأخر طالع، وكان يتظاهر أنه لا يراه وهو يقطف وردتين كل يوم.. لم يصدّق أي من هؤلاء، وأضيف لهم في وقت لاحق المنظفون والمنظفات، والعاملون في المختبر. حتى حارس البوابة الذي سمع، لم يصدّق. الوحيد الذي اعتبر الأمر عادياً، ونقل عن لسانه أنه قال: «اجراء طبيعي وضروري» هو طالع!

لقد حصلت ضجة كبيرة، لكنها مخنوقة، في المستشفى. ولا يمكن لأحد أن يعرف ما وقع بالضبط، لأنّ الكثير من التصرفات النزقة، والحدة في المناقشات، إضافة إلى التجمعات الصغيرة في الزوايا أو عند التقاطعات، كانت تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر.

قيل إن مغادرة الدكتور ميلان للمستشفى عند الساعة الحادية عشرة كانت بمثابة احتجاج واضح، وقال لي مريض في الغرفة 216، وأيّده زميله، إنه سمع نقاشاً أقرب إلى الملاسنة بين الدكتور ميلان والشرطي، أنهاه الدكتور ميلان بالتهديد أنه سيذهب إلى وزارة الصحة للاحتجاج على هذا التصرُّف. وفسَّر ذلك المريض أن مغادرة الدكتور كانت بهذا الهدف. أمّا الأُخت رادميلا فكانت أكثر مَن في المستشفى وضوحاً وصراحة. فجاري الذي سألها عن الأمر أجابته بنزق، وكانت ترفع يديها وتهز رأسها باحتجاج واحتقار: «إذا كان الأمر كذلك فيجب أن تتولى الشرطة الطبابة والتمريض ومسح الخراء أيضاً».

لم يسمح لي بمقابلة طالع إلاّ في الليل، بعد العشاء. فالشرطي الذي استلم الحراسة الليلية كان طيباً ونبيلاً، وربما متمرداً أيضاً، لأنَّ الأُخت جوليا التي طلبت منه أن يسمح لي بزيارة طالع، ردَّ عليها ببساطة ووضوح، كما ذكرت وترجم لي طالع:

ـ إذا حصلت اغتيالات فإنّها تقع غالباً في النهار، ونحن الآن في الليل، هذا أولاً، وثانياً أن وزيرهم الآن على مائدة وزيرنا، وأنت تعرفين أن مثل هذه الدعوات لا يحضرها إلاّ المدعوون، وما دمنا أنا ورقم 217 غير مدعوين فمعنى ذلك أنّا هنا، وما دمنا نحن هنا فلن يقع الاغتيال، على الأقل من قبل 217، وأنا مسؤول عن هذا الموضوع فقط، ولا يعنيني أي شيء آخر!

وضحك الشرطي بمرح، ربما تذكّر شيئاً، ثم أضاف:

ـ ولا بد للسجناء والمرضى أن يجدوا وسيلة للترفيه وقتل الوقت، ولذلك ليس لدي ما يمنع أن يزوره أحد مواطنيه، شرط أن يبقى الأمر بيننا!

والأُخت جوليا التي وافقت على هذه الديباجة كلها والشروط، ركضت إلى غرفتي وطلبت مني أن أرافقها بسرعة. لقد كنت مرتبكاً وأنا أسير في ذلك الممر الطويل باتجاه غرفة طالع. لم نستطع أنا والأُخت جوليا أن نتبادل أكثر من النظرات. أما وهي تشير نحوي فقد وقف الشرطي ومدّ يده لمصافحتي. قلت لنفسي، وأنا أُصافحه بحرارة «حتى الشرطة فإنّهم مثل الآخرين، ويختلفون كاختلاف أصابع اليد، فيهم الإنسان وفيهم النذل، ولذلك يجب ألاّ نضعهم كلهم في سلة واحدة».

كان طالع، وبسخرية مريرة، يلعب اللعبة إلى نهايتها: بأصابعه، وهي أصابع فنان دون أدنى شك، قص اوراقاً رفيعة على شكل أشرطة وحزم يديه وقدميه بهذه الأوراق فبدت كسلاسل وكلبجات، ووضع قطعة مستطيلة من الورق على فمه، وكأنّه ألصقه تماماً.

ابتسمت، ثم قهقهت، وأنا أراه هكذا. قلت بنزق في محاولة لإخفاء عواطفي:

ـ من حسن الحظ أن لكل منا تجارب في السجن، خاصة الانفرادي، مما يجعلنا نحتمل هذا الكابوس!

بدرت من عينيه موافقة، وربما أيضاً هزة رأس صغيرة، تابعت باندفاع:

ـ والمهم الآن تحدِّي الجلاّد، تمهيداً لهزيمته..

ضحكت عيناه. تشجعت أكثر:

ـ وبداية سقوطنا، يا طالع، هو أن نستسلم لهم، أن نوافق على ما يريدون، وأنت تذكر كم تحدّينا السجن والسجان، أما أن نضع لأنفسنا القيود ونتباهى بها فلن نحقق لهم هذه الفرحة، خسئوا!

ومثلما يحصل في المسرحيات المأساوية الكبرى، وبهدوء الآلهة، انتزع طالع الورقة المستطيلة عن فمه، بعد أن مزق قيود يديه ورجليه بحركة سريعة بارعة، وكأنّه لاعب جيد وماهر يعرف كيف يقابل خصمه وكيف يتغلّب عليه. اعتدل في سريره، وكانت الأُخت جوليا ترقب المشهد، وكأنّها لا تصدق، وكانت حادة متوترة، وفي عينيها حزن لا تقوى على إخفائه.

هجمتُ عليه، دفنت وجهي في صدره، عانقته وقتاً، إلى أن كوتني ملوحة الدمع. في هذه اللحظة سمعت الباب، وراءنا يغلق. لقد غادرت الأخت جوليا، لم تشأ، أو تحتمل، أن ترى هذا الحزن كله، وأن ترى العذاب.

بعد دقائق جاءت، فتحت الباب على مهل. نظرت بسرعة في كل أنحاء الغرفة، قالت لطالع، وبدا صوتها مكسوراً:

ـ أود أن تكونا معاً لأطول فترة ممكنة، لكن من الأفضل، وأقول ذلك من أجلكما، أن تستمعا للعقل أكثر مما تستسلما للعاطفة، وأن تتصرفا بطريقة

تراعيان بها وضعكما الصّحي، وهذا معناه: أنّني سأعود بعد قليل لكي أرى كل واحد منكما في فراشه!

وغابت الأُخت جوليا فترة طويلة.

في هذه الليلة كان الصمت سيداً، كان أقوى من الكلام وأوضح منه. فطالع الذي حاول أن يبقى قوياً ومتماسكاً، لم يستطع ذلك في كل الحالات. فحين طلبت منه أن يفهم الحالة هزَّ رأسه، وحين طلبت منه أن يتحمل وأن يصبر قال، وخرج صوته من صدره، أو ربما من أعماق أبعد:

ـ نحن الآن الطرف الضعيف في هذه العلاقة، والضعيف يجب أن يتحمل، كما كان الحال في السجن، لكن الفرق بين هذا وذاك، بين هنا وهناك، أنني الآن يائس، وهذا ما يعذّبني، ما يجعلني غير قادر على محاكمات منطقية ومتوازنة.

وهزَّ رأسه. سقطت بهدوء حزين دمعة، تابع كأنّه يكلّم نفسه:

ـ ما لم نكتشف قوتنا، أي قوة الناس الذين معنا هناك، وما لم نحاول أن نوظف كل شيء وكل القوى من أجل قضيتنا، أن نوظف الريح والصحراء ومكر البدو وقوة احتمالاتهم، وأيضاً قدرتهم على تحمّل الجوع والعطش، فإنّنا سننتهي، وكيف؟ منفيين، وفي أسوأ الشروط، وكما تراني الآن.

في وقت ما فتح الشرطي الباب، بعد أن دقه مرتين، وسأل، بأدب، ما إذا كان لدينا ثقاب ليولع سيجارته. كانت لدي علبة ثقاب، لكن وجدت طالع، وكان لا يدخن، ينهض بسرعة إلى الخزانة، قبل أن أعرف ما يجري، ويستخرج قداحة ويقدّمها له. والشرطي الذي أولع سيجارته أراد أن يعيد القداحة، لكن إصرار طالع كان لا يحتمل الرفض. قبلها. نظر إليها من جديد، وقبل أن يغلق الباب، هزَّ رأسه، وضحكت عيناه، وتعثر وهو يغلق الباب أيضاً!

قال لي طالع، وهو يحاول إغرائي بأن أتركه:

ـ والتضامن، يا صاحبي، ليس هو أن نتعب نحن الاثنان معاً، فلا بد أن نمنح أنفسنا الراحة لكي نواجه يوماً جديداً. . .

ضحك بحزن وأضاف:

ـ إذا كان «وزيرنا» اليوم عند وزيرهم، فلدينا أيام كثيرة يمكن أن نفكر

خلالها، وأن نصل إلى القرار الصحيح، وليس معنى ذلك أن نصفي حساباتنا هنا، وإنما يجب أن تصفًى هناك، وهذا ما يحاول الكثيرون منا أن يتجاهلوه، اعتماداً على وهم مثل الذي نعيشه اليوم!

وبعد قليل وهو يتطلع إلى السقف:

ـ الحالة التي نعيشها الآن، الطريقة التي يتعاملون بها معنا، بما فيها من ذل وقهر، درسنا الأخير، فإمّا أن نستوعب هذا الدرس جيداً أو أن ننتهي.

قلت بانفعال:

ـ لو اننا تعلمنا هذا الدرس في وقت مبكر لجنّبنا أنفسنا وجنّبنا الآخرين الكثير من الدماء والآلام، لكن يبدو أن التعلم ليس سهلاً دائماً، وبعض الأحيان باهظ التكاليف!

ردَّ بسخرية:

ـ وأخشى أن لا يكون الوقت أصبح متأخراً!

حاولت أن أرد، أن أقول بضع كلمات، رأيت وجهه يعتكر وعينيه تغيمان، قلت لنفسي «ليس الوقت مناسباً لإعطاء الدروس، المهم الآن أن نجتاز هذه المحنة». نظر إليّ طويلاً ثم خرجت كلماته متكسرة:

ـ أحس الآن أني أُولد من جديد، وتتراءى لي صورة الطفل الذي كُنته قبل وقت طويل، ربما قبل أكثر من ثلاثين سنة.. الله كم كانت أياماً جميلة، في ذلك الوقت كنا نجمع النجوم طوال الليل، وفي اليوم التالي نوزعها بيننا بالتساوي. وكنا نركض ولا نتعب، وكانت أحلامنا كبيرة... أما الآن...

وبعد قليل وبانفعال:

ـ الأفضل أن تذهب لتستريح، وغداً سنكون أقدر على التفكير في المستقبل!

لم أستطع المقاومة، شعرت أن طالع يريد أن يبقى وحيداً، ربما يريد أن يفكّر بهدوء، أن يكتب، وربما أحس بحركة الشرطي خارج الغرفة، أو تذكر الوعد الذي أعطاه للأُخت جوليا.

قلت وأنا أنهض:

ـ إن غداً لناظره قريب.

اليوم التالي، الثلاثاء، كان يوم هياج المستشفى، ويوم إصابتي بالجنون. فمنذ ساعات الصباح الأولى، وفي بداية الجولة التي يقوم بها الأطباء عادة لزيارة المرضى، وقع شيء غير عادي أدّى إلى انتهاء الجولة، أو إلى انقطاعها على الأقل. إذ تمّ استدعاء عاجل لعدد من هؤلاء الأطباء، وكانوا من ذوي اختصاصات متعددة، إلى الغرفة 217 لمواجهة التدهور السريع والمفاجئ في صحة المريض.

لما سمعت، ثم عرفت، أن الأمر يتعلق بطالع قلت: «نهاية الدنيا والطامة الكبرى». وركضت نحو غرفة طالع. مُنعت من الدخول، ثم طُلب إلى الجميع أن يبتعدوا.

الدكتور ميلان، رئيس القسم، وكان من عادته أن يمر على المرضى في وقت مبكر، لم يُشاهد اليوم، ولم يُعرف ما إذا انقطع عن العمل أو اعتصم في غرفته. أمّا حين هرولت الأُخت رادميلا، وكانت تركض مثل بطة مسنة، وكان منظرها يثير مشاعر الشفقة والضحك، فقد رأى الكثيرون الدكتور ميلان يقطع الممر قفزاً، وعلى مسافة غير قصيرة رادميلا وراءه تركض!

والشرطي المكلف بالحراسة النهارية، وكان فظاً شديد الصرامة في اليوم السابق، تخلّى عن صرامته منذ اللحظات الأولى، واضطر للتراجع خطوتين أو ثلاثاً عن باب الغرفة، فاسحاً المجال لدخول الأطباء والممرضات، أو لنقل الأمصال والحاملات، دون أية إعاقة وبالسرعة اللازمة، من أجل إنقاذ حياة المريض.

أما لماذا تدهورت صحة طالع بهذا المقدار، وبهذه السرعة، بعد أن تماثل للشفاء، وكان على وشك مغادرة المستشفى في غضون أيام أو أسابيع قليلة، ومتى حصل هذا التدهور، فإنّ كل مَن في جناح الأمراض الخاصة، ثمّ كل مَن له علاقة بالمستشفى، يروي أو يفسر ما حدث بطريقته.

«الجريدة»

كانت هذه الكلمة السحرية أكثر الكلمات التي تردّدت في ساعات الصباح، وحاول الكثيرون أن يفسروا الانتكاسة نتيجة الصدمة. فقد قيل إن الأمور ظلّت عادية إلى أن وصلت صحف الصباح. ورغم معرفتي أن طالع تربطه بالقراءة علاقة خاصة، بما فيها قراءة الجريدة، في الوقت الذي كنت أُفضّل الراديو عليها، لأنّه يتيح لي حرية الاختيار والانتقال، وهي عادة اكتسبتها من السجن، وذكرت ذلك لطالع، فرد ساخراً «طريق المعرفة العين، أمّا الأذن فهي للطرب والنميمة».. رغم هذه المعرفة فلم أُصدّق أن الجريدة يمكن أن تكون سبب انتكاسته.

حتى ما نقل عن مايا، الممرضة العصفورة، كما كنا نسميها أنا وطالع، إذ قالت: «حملتُ إليه الافطار، وكان في وضع طبيعي؛ أمّا بعد أن اطلع على الجريدة...». إن هذه الواقعة، على فرض صحتها، تحدّد ولا تفسر.

والإشاعة السيئة التي سرت عن أن طالع حاول الانتحار، وأن المحاولة جرت باستعمال سكين، هذه الإشاعة دفعت بعض المرضى ليس فقط للاقتراب، ثم الوقوف قريباً من باب الغرفة 217، لمعرفة ما جرى، إذ مدّ اثنان أو ثلاثة منهم رؤوسهم للاطمئنان، وللتأكّد أيضاً أن أغطية السرير خالية من بقع الدم.. هذه الإشاعة انتهت بسرعة. أمّا محاولات بعض المرضى إدارة حديث مع شرطي الحراسة، وسؤاله ما إذا رأى أو سمع شيئاً غير عادي، فقد ظلّ هذا الحديث في الغالب من جانب واحد. والممرضات اللواتي سئلن لزمن الصمت. وقيل إنهن فعلن ذلك نتيجة التوصيات الصارمة التي صدرت عن الدكتور ميلان والأُخت رادميلا.

وبتقدم ساعات النهار وجد مَن قال إن الانتكاسة التي أصابت طالع ناشئة من أخطاء في المعالجة، لكن مثل هذا القول لم يلق اهتماماً، «لأنَّ المريض، كما هو معروف، كان يستعد لمغادرة المستشفى خلال أيام، ولم يكن

في مراحل العلاج الأولى».

أمّا الذين أكّدوا، اعتماداً على كلمات لا يعرف كيف انتقلت اليهم، أن عملية جراحية عاجلة سوف تجرى لمريض الغرفة 217، وأن الدكتور ميلان، مع فريق من الأطباء، يستعدون لإجرائها، ولا بدّ أن يُنقل المريض بين لحظة وأخرى، فإنّ ما تلا ذلك من انتظار دون أن يتم خلاله ما توقعوه، دفع أحد المرضى لأن يقول بثقة تصل حدود اليقين، خاصة بعد أن قضى الدكتور ميلان وقتاً غير قصير في غرفة طالع، «إن هذا الطبيب من البراعة والثقة بالنفس إلى درجة يمكن أن يجري العملية في أي مكان، وفي أي وقت، وليس فقط في غرفة العمليات، ولا بدّ أنه يجريها الآن».

وحين وصل طبيب أشقر لم يره الكثيرون في هذا الجناح، فقد ثار التساؤل عمّن يكون، ومَن الذي استدعاه، فأكّد مريض مسن أنه يعرفه، وقد رآه حين كان يخدم في الجيش، ولذلك لا بدّ أنه جاء من المستشفى العسكري بناء لاستدعاء الدكتور ميلان! وأكّد مريض آخر أن الطبيب اسمه اندريه بارسكي، وهو مختص بالأمراض الهضمية، ويعمل في نفس المستشفى، لكن في الجناح الغربي!

إن المرضى كالسجناء تماماً: ميالون إلى المبالغة، وإلى اختراع القصص، ولا يتردّدون في أن يقسموا أغلظ الأيمان لتأكيد صحة هذه القصص، وكأنّهم كانوا شهوداً عليها، ومع ذلك فهم سريعو الإنكار ونفي أي علاقة أو معرفة فيما لو تبينّ عدم صحة الأخبار التي روجوا لها!

حين منع الوقوف من جديد أو الاقتراب من الغرفة 217، فقد تأكّد أكثر من قبل أن الحالة الصحية للمريض تزداد سوءاً.

في هذا الجو المضطرب، المملوء بالدوي، كنت الوحيد الأخرس. وخلال ساعات الصباح الأولى، وعن طريق رادي، المسؤول عن الصيدلية، والذي يعرف الفرنسية، وكان يتعمد أن يجلب الأدوية والأمصال بنفسه، وبمقدار ما حاول أن يعرف مني عرفت بعضاً مما كان يقال أو يجري. ولأنّ جهودي لزيارة طالع ومعرفة ما حصل انتهت بعد عدة محاولات إلى الفشل، فقد بدأت أشعر بآلام حادة، اضطررت إلى ملازمة غرفتي، خاصة بعد تلك النظرات التي كانت تنصب عليّ مشفقة أو متسائلة.

وحين مرّ الدكتور ميلان، بعد ارتفاع حرارتي المفاجئ، إضافة إلى حالة التقيؤ، فقد قال لي بلهجة بطيئة وأبوية:

ـ يبدو أن العلاقة بينكم، أنتم الشرقيين، تشبه العلاقة بين التوائم، ولذلك، ولكي تساعد طالع، أريدك أن تشفى بسرعة، ولا بدَّ أن تفعل.

ورغم الحمى والغثيان استفسرت منه عن طالع، فقال، ويده على جبهتي:

ـ اعتقد أن الريح التي وصلتنا أمس لم تؤثر على المناخ فقط، بل وأثرت عليه ايضاً، لكنها ريح عابرة!

ولما حاولت أن أفهم أكثر من ذلك، فقد ردَّ، ورأيت على وجهه ابتسامة حزينة:

ـ أرجو أن تتحسن، وهذا هو الشيء المهم الآن!

رادميلا، وقد زارتني خلال ساعة مرتين للتأكّد، وكانت تتكلم وحدها، قالت، دون أن أفهم، أشياء كثيرة، لكنني قدّرت أنها لم تكن راضية، وربما غاضبة، أمّا وهي تتناول الدواء من رادي، فقد قالت، كما ترجم لي:

ـ يجب أن تكتبوا لحكومتكم أن إجراء مثل هذا، أي حجز المرضى وتقييد حريتهم، أمر غير قانوني وغير إنساني..

وبعد قليل، وهي تتطلع إلى رادي بقلق:

ـ إذا سُئلت عن الأمر فسوف أقول الحقيقة وفقط الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

أما محاولاتي ورادي للسؤال عن طالع فقد قابلتها بحزم:

ـ المهم الآن أن تعتني بنفسك!

في وقت ما، ولم أعد أتذكر متى كان هذا الوقت، بدأت تغيم الألوان والأشكال وتتمازج. كان يفتح الباب ويغلق، وكانت أيدٍ ثقيلة رطبة تستقر فوق جبهتي، وأسمع كلمات تتطاير في الهواء. أفتح عيني، لكن طبقة كأنَّها الرصاص الثقيل تجعل كل شيء لزجاً مستعصياً. أُحاول الصراخ، لساني ثقيل لا يطاوعني. أتحرك في السرير، الغرفة كلها تتحرك، تطير. أصعد. أغرق. جسدي يتحوّل إلى كومة من الطين. أفتح بإصبعي طريقاً عند الرقبة، ينفر الدم، يغرق السرير. أغرق. أغرق. أصرخ، يخرج صوتي مبحوحاً. لا أحد يسمع. الوحوش تحاصرني. تتقدم، تتقدم، عيونها حمراء، ألسنتها كبيرة متدلية رطبة. تسحبها قليلاً إلى الداخل، تصبح مثل حيات ضخمة، وهي تتحرك هكذا. أتراجع، أصرخ، تضحك الحيونات تتقدم، تتقدم. وحدي، لا أحد حولي. الظلمة، الظلمة تتكاثف سوى أنوار صغيرة. إنها عيون الحيوانات. أمدّ يدي، تلحس الحيوانات اليد، تكركرها، أشعر بلذة وقرف، أسحب يدي، أرفعها، اللعاب يتساقط، وبعده قطرات من الدم، دم ثقيل، لزج، الدم يتكاثر. نوافير من كل مكان. يهجم الدم، يملأ الأرض، يرتفع في الغرفة، تتغطى قوائم السرير، يرتفع أكثر، أهرب، يصطدم رأسي بذئب كبير. يعوي الذئب ويتراجع قليلاً ليتقدم. أبكي. الدموع حمراء. أخرج عيني لأرى كيف أصبح لونها، ينفجر الدم، يملأ يدي ويتساقط على صدري، يصبح الدم كثيراً. الرائحة ثقيلة موجعة، أصرخ، ألتفت، أرى الحيوانات على افريز عالٍ تنظر إليّ وتضحك، عدا الذئب فإنّه يقترب ويفتح فمه. أسنانه

صفراء، صفراء كريهة. ورائحته نفاذة ورطبة. أقول له: أنا غريب لا أعرف أحداً هنا. اتركني. يعوي، تخرج من حلقه رائحة نفاذة قاسية. أقول له: أنا ضعيف وأريد أن أبقى حياً. يمسك يدي، يلويها، ينتزعها، أمسك بيدي، انتزعها. أسمع عظماً يتكسر. أقول له: أنا غريب لا أعرف أحداً هنا. يمسك يدي ويضعها في فمه. أمد يدي لأنزعها منه، يكشر. أبكي. أحس أن الدم وصل السرير. أسحب رجلي. الحيوانات على الأفريز تنظر إلى بعضها وتنظر إليّ. الألسنة تتدلى كالحيات. العيون مليئة بلون بني على صفرة. وتهز رؤوسها وتقول لا. أبكي أكثر من قبل، يتلمظ الذئب بعد أن ابتلع يدي كلها، عدا الساعة سقطت، كان لسقوطها دوي، ومع الدوي انتثرت قطرات كثيرة من الدم على الوسائد والأغطية. صرخت، الصراخ كان مكسوراً، اصطدم بالدم وتراجع. صرخت بصوت أقوى. تقدم الذئب، لكنه زلق في اللحظة الأخيرة ووقع في بركة عميقة. سمعت الدوي. كان الدوي مثل صوت طبل كبير!

حين فتحت عيني وجدت مايا العصفورة تضع على جبيني كمادات لتنزيل الحرارة. ربما حصل هذا عند الغروب، عند الفجر، لا أتذكر. كان حلقي جافاً والعرق يغسلني. تطلعت حولي لأتأكد. بدا لي وكأني أرى المكان أول مرة. ابتسمت لي مايا وهزّت رأسها.

شربت نصف كوب الماء، بعد أن سندتني مايا. طلبت منها أن ترفع الوسادة، دارت ورفعت القسم الأعلى من السرير. تطلعت إلى مايا. تطلعت إليها طويلاً. كانت في عينيها وداعة أقرب إلى الحزن. «هل كانت مايا هكذا»؟ سألت نفسي سألتها:

ـ طالع.. كيف حال طالع؟

قالت كلمات متلعثمة وهزّت رأسها. سألتها من جديد:

ـ طالع.. ماذا حصل لطالع؟ أين هو طالع؟

نظرت إليّ وصمتت. حاولت من جديد، وفي هذه الأثناء دخلت الأختان: رادميلا وجوليا معاً. نظرت إليّ رادميلا بفرح. كانت عيناها تضحكان، اقتربت مني وأمسكت بيدي، ربما لتقدّر الحَرارة. تحدثتُ إلى مايا، سألتها عن شيء ما. هزّت مايا رأسها. دخل رادي ومعه حبات من

دواء. قالت رادميلا شيئاً للأُخت جوليا. سألتُ رادي عن طالع. نظر إلى رادميلا وتحدّث معها، وبعد قليل:

ـ سوف يكون غداً أفضل من اليوم، ومثلما تحسنت أنت فإنّه يتحسن!

سألته ما إذا كنت قادراً على رؤيته. بعد أن ترجم سؤالي، ردّت رادميلا بحزم:

ـ إنه نائم، والطبيب منع الزيارة!

حاولت من جديد، لكن جوليا تراجعت خطوة للوراء، وغمزتني بعينيها، تطلب منّي أن أترك لها الموضوع. قلت في محاولة أخيرة:

ـ سوف لن أزعجه، يكفي أن أراه وهو نائم!

ترجم رادي ما قلته، تجاهلت رادميلا، وطلبت من مايا أن تذهب. أعطتني حبة الدواء وقالت:

ـ الثانية تأخذها بعد العشاء!

قالت بعض الكلمات لجوليا ثم التفتت إلى رادي، وطلبت منه أن يترجم:

ـ إذا كنت مطيعاً وواصلت صحتك بالتحسن، كما في الأسابيع الماضية، فسوف نتركك تغادر المستشفى في بداية الشهر القادم. يجب أن تفعل!

تلك الليلة لا تشبه غيرها من الليالي ابداً. ففي وقت ما، ربما بعد العشاء بساعة، جاءتني الأُخت جوليا. قاست حرارتي، وتأكّدت أني تناولت الدواء. نظرت إليّ ملياً وكأنّها تدرس صحتي وقوتي من خلال العينين. ابتسمت وهزّت رأسها. جرى كل ذلك بصمت. قالت بيدها اليسرى: «انتظر» غادرت الغرفة. لم تمض دقائق حتى عادت. طلبت مني أن أضع المعطف على كتفي. امتثلت. خرجنا باتجاه غرفة طالع.

شرطي المساء ذاته، سلّم عليّ بحرارة وكأنّنا أصدقاء قدامى. فتح باب الغرفة وتنحى. دخلت الأُخت جوليا أولاً ودخلت بعدها. كان طالع في سريره، وقد ارتفع القسم الأعلى منه. بدا لي متعباً إلى درجة الإرهاق، وكان في عينيه حزن لم أرَ مثله من قبل. حاول أن يبتسم. كانت ابتسامته صغيرة حزينة. راودتني نفسي أن أُقبّله وأُعانقه، لكن قدّرت أن صحته لا تحتمل،

وأن الانفعالات الزائدة قد تؤذيه. قلت له بمرح، وأنا أجلس على حافة السرير:

ـ مالك حق أن تخيف الجميع...

حاول أن يبتسم، لكن ابتسامته، هذه المرة، كانت أقرب إلى الغصّة. تابعت:

ـ ومثلما اتفقنا: سوف نتحداهم بقوتنا وصلابتنا، وأيضاً بقدرتنا على التحمل، هل نسيت اتفاق الأمس؟

ألتفتُ لأرى الأُخت جوليا. كانت ترقبنا كأُم. كانت عيناها تحضننا، وحين التقت نظراتنا ابتسمت. قالت كلمات لطالع. لما طلبت منه أن يترجمها، قال، وخرج صوته ضعيفاً:

ـ السالفة نفسها...

وبعد قليل، وهو يحاول أن يبتسم:

ـ ما عندها غيرها!

سألته عن صحته. ماذا حصل له. كيف هو الآن. ردَّ وهو يتنحنح في محاولة لأن يجلو صوته:

ـ هالحين أحسن، بس بعدني تعبان..

ـ ولكن ماذا حصل؟ لماذا؟

ـ كله من الله!

وضحك ضحكة صغيرة. بدا أنه غير قادر أو غير راغب لأن يتحدث في الموضوع. لم أُحاول أن أثقل عليه، خاصة حين نظرت إلى الأُخت جوليا، فقالت لي عيناها: «لا ترهقه».

بعد أن صمتنا، وتبادلنا النظرات، وابتسمنا، قال لي، وخرج صوته متعباً:

ـ أريد أن تعطيني رأيك بهذه الأوراق.

واستخرج من وراء الوسادة رزمة من الأوراق. نظر إليها وهو يحملها بيديه الاثنتين، وكأنه يحمل طفلاً في أيامه الأولى، وقال:

ـ بعد أن تقرأها يمكن أن نتكلم حولها. المهم الآن أن تقرأها.

وبيدي الاثنتين، أيضاً، استلمت الأوراق. كنت أريد أن أبقى معه فترة

أطول، لكن عيني جوليا، رجتني أن أختصر الزيارة، والتعب الذي كانت تنطق به ملامحه وعيناه أجبرني، قالت لي: كفى. أمّا الأوراق التي بين يدي فقد تحوّلت إلى جمر مشتعل، وكأنّها تدعوني لكي أقرأها بسرعة.

قلت له وأنا أنهض:

ـ سوف أقرأها بسرعة إذا وعدتني أن تشفى بسرعة.

هزّ رأسه وابتسم. قبل أن أغادر الغرفة، قلت بمرح، وللتأكيد:

ـ هذا وعد بيننا!

الحمى، تلك الليلة، تطوف بي من مكان إلى آخر، والرعود هي التي تعيدني. لم يبق جرف حاد إلاً ووقفت على حافته، ثم وجدت يداً تشبه يد العطيوي تدفعني إلى قاعه. ولم تبق حية صفراء أو سوداء إلاً وطاردتني. كنت، في كل لحظة، أسقط. كان الظلام يتكاثف إلى درجة أنه وحده يخنقني. أما العطش فكان مثل حبل يلتف حول عنقي ويمنعني حتى من الصراخ. فإذا ارتجت الدنيا بدوي الرعد من الأماكن البعيدة التي كنت فيها، أتطلع حولي لكي أتأكّد أنني لا زلت حياً، ولا زلت هنا. وأمد يدي إلى كوب الماء، أجد صعوبة وأنا أتجرعه، الماء ينزلق ملتوياً في الحلق الجاف، وما أكاد أشعر بالارتواء حتى يملأني العطش من جديد. وتشتعل السماء، توجّ بالبروق فتبدو الأشياء بلون بين الأزرق والرمادي، ولكنه حاد كالنصل، وقبل أن أستوعب ما يجري تهجم الرعود الثقيلة الجافة، وكأنها نطاح ثيران السماء. أنكمش في سريري. أستعيد البروق والرعود القديمة. أستعيد وجه طالع ووجه أُمي، لكن البرق الجديد الذي يملأ الغرفة فجأة يمزق الصور، يبعثرها. أشعر أنني صغير وخائف، أدير رأسي، أميله قليلاً، انتظاراً للرعد الآتي. لا يتأخر، ولكنه هذه المرة بعيد ثم فجأة يقترب، ينفجر داخل الغرفة، فوق السرير. وأمد يدي إلى كوب الماء، ومع انزلاق الجرعات الأولى أسمع حبات المطر وهي تتساقط مثل حجارة صغيرة لتملأ كل الفضاء.

ليلة لا تشبه أية ليلة غيرها. واسعة كالسماء، ومخيفة كصحراء التائه، أما البروق والرعود والمطر فكما كانت أيام الطوفان الأول، ولا بد أن تدمر كل شيء وتجرف المدن والمنازل والبشر.

وتأخذني الحمى مرة أخرى. أُسافر، أغيب، وحين أعود ثانية من ذلك السفر أشعر بالتعب، بالعطش، برغبة البكاء. وعبر النافذة أرى وأسمع المطر.

لا أعرف كم مرة سافرت وكم مرة عدت تلك الليلة، ولكن عندما كنت أعود، وفي تلك المساحة الهشة من اليقظة أحس يداً كاللجام تطبق على رقبتي. أحس بالانقباض، وفي مرة كدت أختنق. كنت أرفرف مثل عصفور لا يريد أن يبقى في قبضة حاقد، كنت أشتهي الصراخ أو البكاء. وفي مرة تأكّدت أن قوة تشدني إلى أسفل. تشبثت بالسرير، قبضت على الطرفين بقوة.. حتى بدأ النهار.

كنت أريد أن يأتي النهار.

وجاء النهار، جاء ذلك اليوم المشؤوم، يوم الأربعاء الملعون بكل اللغات، اللئيم كيدِ حاقدة، القاسي الكريه كوجوه الأعداء!

في ذلك النهار، وبعد أن مُنعت من مغادرة الغرفة، وكان منع الأُخت رادميلا حازماً كاملاً، وإجاباتها، وأنا أسألها عن طالع، همهمات أقرب إلى الشتائم، في ذلك النهار، في وقت منه، عند الظهر، قبل ذلك، أو بعده بقليل، وفي جو العاصفة التي ما كانت تهدأ إلاً لتثور من جديد، وتحت وقع المطر، وحين غرقت الحديقة الأمامية كلها، وغابت العصافير تماماً، ولما توارى كوبكا، ولوت الزهور أعناقها، وفي ظل الدوي الذي يتولّد من حركة الأرجل والكلمات المبعثرة ووقع المطر... في لحظة ما شعرت بألم حاد يسري في جميع أنحاء جسدي، كان حاداً وسريعاً، شعرت بعده بصفير، خاصة في الأذن اليسرى، ونتيجة الخوف، أو ربما الألم، دققت الجرس، فعلت ذلك مرتين أو ثلاث مرات، لكن لم يأتِ أحد، وفجأة وجدت نفسي أغرق في البكاء.

كيف عرفت، لا أدري!

لما جاءت الأُخت رادميلا، كانت عيناها ثقيلتين وأنفها أحمر. نظرت إليّ ملياً، أمسكت يدي، وهي تنظر إلى اللوح المسجل عليه درجات الحرارة. كنت متعباً ومستسلماً. بعد أن هزّت رأسها عدة مرات، ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، استخرجت ميزان الحرارة ووضعته في فمي. بدت لي وأنا أنظر

إليها مسنّة أكثر من قبل، وحزينة أكثر مما ينبغي، وحين لاحظت أنني أنظر إليها هكذا سحبت عينيها بعيداً، أما حين سألتها عن طالع فقد وضعت إصبعها على فمها تطلب مني السكوت، وبعد أن سجلت الحرارة على اللوح استدارت وغادرت دون كلمة. قلت لنفسي: «العجائز والصغار يتصرفون بنفس الطريقة، إنهم، وحدهم، سادة هذا العالم».

كل الذين سألتهم عن طالع ذلك اليوم لم يجيبوا، كنت أقرأ في وجوههم أخباره لكنهم أشاحوا عني وهربوا!

الدكتور ميلان، وأنا أسأله وألح عليه لمعرفة أخبار طالع، كان يشيح وجهه، وأخيراً قال بنفاد صبر:

ـ يجب أن تبقى في الفراش يومين أو ثلاثة أيام...

وأضاف بعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذه الحرارة لا تعجبني، ويجب أن نعرف أسبابها!

وحين سألته عن طالع تجاهل السؤال، نظر إلى رادميلا وسألها أو تحدّث معها. لما سألته مرة ثانية، وقبل أن يغادر الغرفة، ردَّ، ولم ينظر إليّ:

ـ المهم الآن أن تعتني بنفسك.

كنت أمتلئ إحساساً أن شيئاً ما حصل في ذلك اليوم عند الظهر. حتى غياب رادي بذلك الشكل كان متعمداً. لا يريدني أن أعرف، وربما طُلب منه أن يغيب. قلت لنفسي: «الرائحة الكريهة تنتقل بسرعة، ولا يمكن أن تخفي نفسها».

ظلت الأمور ملتبسة، وظللت أخدع نفسي واؤملها بالكذب والأوهام إلى أن جاءت الأخت جوليا.

ما كادت تدخل الغرفة حتى عرفت كل شيء. حاولت أن تبتسم، لكن فكيها لم يطاوعاها، إذ بدت الابتسامة أقرب إلى التكشير، أو تشبه حالة من الألم المفاجئ والممض. أما العينان فكانتا حمراوين وكأنها فرغت لتوها من البكاء. ورغم انها أبعدت نظراتها وهي تمسك بمعصمي لتقيس النبض، بعد أن وضعت ميزان الحرارة في فمي، ووضعت اللوح حاجزاً بيننا، إلاّ اني امتلأت بذلك التوقع الخفي الذي يقول كل شيء دون كلمات.

ما كادت تنتهي، ولا أعرف كيف صبرت كل ذلك الوقت، وكأنّ

أهيّئ نفسي لتلقي الضربة، تماماً كما كنت أفعل وأنا أشد عضلاتي وأعصابي لاستقبال ضربات العطيوي، بعد أن دونت المعلومات، سألتها عن طالع!

كيف تنفجر الطلقة، كيف تخرج الصرخة، كيف يعوي الكلب إذا ديس على قدمه، كيف تتفجر المياه بعد أن تنحبس، كيف يتهاوى فجأة جدار قديم، هكذا انفجرت دموع الأُخت جوليا وهكذا كانت تنتحب. أما وهي تطوقني وتشد على كتفي فكانت تقول: إذا غاب هو فيجب أن تبقى على الأقل لتذكر للآخرين كيف عاش وكيف مات!

لا أعرف كم من الوقت مرّ ونحن هكذا. كانت إذا رفعت وجهها، في محاولة لأن تتماسك وتتوقف، وما أن ترى دموعي، حتى تنخرط في موجة جديدة من البكاء. وكنت وأنا ألوم نفسي على هذا الضعف الذي لا يليق بالرجال، أسمع النحيب، أو أرى العينين وقد امتلأتا بالدموع، فأسقط. أصبح مثل طفل أضاعته أمه. أشعر أني وحيد ومتروك، ولا شيء غير البكاء وسيلة للاحتجاج.

في وقت ما ساد صمت ثقيل، يشبه النوم. جففت خلاله الأُخت جوليا دموعها، وبدت حازمة، أو هكذا تظاهرت. هزّت رأسها أكثر من مرة، وكأنّها تلوم نفسها، ودون كلمات قالت الكثير.

ومثل الطفل الذي تهيّئ له الأُم مهده، رتبتْ لي الوسائد وطلبت مني، بعد أن شربتُ حبة الدواء الأخيرة، وربما كانت مخدراً، أن أتمدد. أحكمتْ الغطاء عليّ، ورجتني، بعينيها، أن أنام. حاولتْ أن تبتسم، كانت ابتسامتها أقرب إلى الخفر لكنها كانت مليئة بالحنان والحزن والرجاء.. ورحت في النوم.

مـات طالع، يوم الأربعاء مات.

ويبدو لي أن أي كلام بعد هذا زائد!

إن يُدفن هنا، في براغ، أن يُدفن هناك، في موران، لا يعني شيئاً، ولا يغيّر أي شيء. أمّا تلك الحاجات الصغيرة البائسة التي تركها: الكتب والصور وبعض الملابس، فإنْ عنت له، يوماً، ضرورة أو متعة أو ذكرى، فبعد أن ذهب هو، بعد أن غاب، لم تعد تعني لأحد شيئاً، سواء بقيت هنا أو عادت إلى أرض الوطن!

لكن الأمور تجري، أغلب الأحيان، بشكل غير متوقع.

بقي جسد طالع في براد المستشفى أياماً طويلة، امتدت إلى أسابيع! فعلى أثر الوفاة خاطبت المستشفى الجهات المختصة، فكان الجواب: «من غير الجائز، بروتوكولياً، بحث الموضوع أثناء زيارة ضيف البلاد الرسمي، وزير نفط موران، لأنَّ من شأن ذلك تعكير جو المباحثات والإساءة إلى مصالح البلاد العليا، ولذلك يُرجأ الأمر إلى وقت آخر!».

بعد سفر الوزير، وحين أكّدت المستشفى ضرورة البت، أفادت الجهات المختصة: «لم يتسنَّ بحث الموضوع، حتى تاريخه، باعتبار أن ذوي المتوفى في جولة قد تستمر بضعة أيام أخرى». وهذه الجولة الإلزامية لم تكن رحلة الجبال التي بدأت قبل زيارة وزير النفط، والتي كان يفترض أن تنتهي بعد هذه الزيارة بيوم واحد، فقد مُدّدت في آخر لحظة! وفي براتسلافا جرت مباحثات كان الدافع لها، كما عرفتُ فيما بعد، «توضيح الظروف والملابسات التي

قضت بتوجيه الدعوة لوزير نفط موران، وضرورة إعادة تقييم المرحلة على ضوء الظروف الدولية الجديدة». ويبدو أن الغاية الحقيقية وراءها: امتصاص المرارة وردود الفعل المحتملة، إضافة إلى معرفة الاحتمالات في موران خلال المرحلة القادمة.

بعد عودة المسفّرين إلى براغ أشارت الجهات المختصة «.. لقد تعذّر الاتصال لأنَّ مسؤول العلاقات الخارجية في إجازة حالياً، وسنبلغكم بالنتائج في وقت لاحق».

وفي وقت لاحق، يوم الزيارة الأسبوعية، وبعد أسبوعين من الوفاة تقريباً، جاء اثنان لزيارة طالع. وبعد أن عُرف الأمر بدأت خلافات من نوع جديد: انقسم «الشباب» إلى فريقين، الفريق الأول يصر على «دفن الشهيد في أرض الوطن، وأن تُعتبر الوفاة مناسبة لفضح النظام أمام الرأي العام الدولي، وهي فرصة أيضاً لتعبئة الجماهير في الداخل!» أمّا الفريق الثاني فقد كان أقل انفعالاً وأكثر واقعية، لأنَّ «الوفاة نتيجة أسباب مرضية وليس لها علاقة بالشهادة، هذا أولاً، وثانياً من شأن هذا التشهير أن يسيء إلى بلد صديق، ويجعل علاقاتنا تسوء وإقامتنا هنا تصبح مهدّدة».

استمر النقاش وتحشيد المؤيدين بضعة أيام، وطالع راقد في البراد، إلى أن انتصر الفريق المتشدّد «لأنَّ دم طالع يجب أن لا يذهب هدراً، ولا بد أن يدفع القتلة الثمن»، وكلمة «القتلة» أثارت أيضاً الخلاف، إلى أن وُجد مَن اقترح حلاً وسطاً أرضى الجميع ولم يرضِ أحداً!

بعد أن تم تجاوز التأخير والتغلّب على الخلافات، ظهرت صعوبات لم تخطر ببال: الإنسان الحي يُعامل بطريقة مختلفة عن الجثة، فإذا كان يُكتفى بجواز السفر بالنسبة للأحياء، فإنَّ للموتى جوازات خاصة بهم، «وباعتبار أن المومأ إليه سبق وأن أُبعد من موران، ولا يتمتع رسمياً وجدارة بجنسيتها، لذلك نبلغكم اعتذارنا عن صرف جواز سفر متوفى للمذكور». وبعد مداولات مع جهات إنسانية عديدة، وكتاب رقيق من وزير نفط تشيكوسلوفاكيا إلى نظيره في موران، وباعتبار أن للمتوفى أقارب هناك، فقد تمت الموافقة، لاعتبارات إنسانية، وتقديراً لرغبة بعض الجهات التي توسطت في الأمر، على استقبال جثمان المومأ إليه، مع الإشارة «ان حكومتنا لا تتحمل

أية تكاليف ناتجة عن ذلك، على أن تستكمل الأوراق الثبوتية اللازمة بالمذكور».

وأمكن، بعد انتظار وتدخل وسطاء كثيرين، صرف جواز سفر متوفى لطالع العريفي من دولة صديقة، «اعتماداً على الأوراق التي وجدت بحوزة المتوفى، ولمرة واحدة غير قابلة للتجديد، دون أن تترتب على ذلك أية حقوق مالية لاحقة».

وبدأت مرحلة استكمال الأوراق المطلوبة.

الشهادة الصحية، شهادة الوفاة، الجهة التي أوفدت المتوفى للعلاج، إضافة إلى الأمراض التي كان يعالج منها، المدة التي قضاها في المستشفى، تاريخ الوفاة. أسباب الوفاة. تقرير الطبيب المعالج.. وعشرات التفاصيل الأخرى. وطالع يرقد، وحيداً، في البراد!

بعد أن سقطت العقبات واحدة بعد أخرى، وصلت إشارة من موران، وهي عبارة عن صورة من كتاب هيئة الإفتاء، يشترط «ان يتم تجهيز المتوفى، قبل صندقته بصورة نظامية، وإجراء كافة الشعائر الدينية، من الغسل والتكفين، وفقاً للشريعة الاسلامية الغرّاء، على أن ترفق بذلك أوراق رسمية مترجمة ومصدّقة».

كاد مركز فريق المتشددين، في هذه المرحلة، أن ينهار. فإذا أمكن التغلّب على الصعوبات السابقة كلها، فكيف يمكن مواجهة هذه العقبة الجديدة؟ لكن المنفيين بمقدار ما يخطئون في الأمور الكبيرة، فإنَّ لديهم القدرة على النجاح في الأمور الصغيرة والعملية! وهكذا أُقيمت المراسم، بشكل ما، وتمَّ تجاوز هذه العقبة ايضاً!

أمّا حين جهّز الصندوق، فقد اشترطت إدارة المستشفى أن لا يوضع فيه المتوفى إلاّ قبل إقلاع الطائرة بفترة زمنية قصيرة، «خاصة وأن الظروف المناخية، وإلى المنطقة التي سينقل إليها، تتطلب إجراءات خاصة في النقل».

وإذا كانت براغ تستقبل عشرات الطائرات يومياً، وكذلك موران، فإنَّ خطاً بين المدينتين ليس له وجود، وإذ استغرب بعض الذين يريدون إنهاء هذه «المشكلة» بأسرع وقت، فقد تساءلوا كيف جاء وزير النفط، وهل يعقل أن يكون قد بدّل طائرة أو مطاراً لكي يصل إلى هنا!

ومرة أخرى تعرقلت الأمور، وكاد يصرف النظر عن كل شيء. أكثر من ذلك وجد مَن روى بعض النكات: «طالع العريفي مشكلة في حياته وفي موته، لنفسه وللآخرين، فلو كان حياً لدبّر نفسه بنفسه، أمّا بعد أن مات فشدوا روسكم يا قرعان» وقال آخر ساخراً «لو ظننا أن المشكلة بهذا التعقيد لطلبنا من وزير النفط أن يأخذ هذا الطرد معه إلى موران».

والصدفة، أو القدر، ساعد على إيجاد مخرج في اللحظة الأخيرة.

فإيفان سافكو، ابن أخت رادميلا، وهو مهندس بترولي، كان يستعد، ضمن وفد كبير، لزيارة موران، بناء للاتفاق الذي جرى أثناء الزيارة الأخيرة لوزير نفط موران، ولا يعرف كيف حدّثته خالته عن طالع وموته، وأن الصعوبة الآن هي نقله إلى هناك.

وهكذا، ونتيجة مداخلات من جهات متعددة، وكان الدكتور ميلان يتابعها بنفسه، تمّ الوصول إلى الحل «السعيد»!

اتخذ القرار في الساعات الأخيرة قبل إقلاع الطائرة، ولذلك اقتصر التشييع على نقل الجثمان من البراد إلى سيارة الإسعاف، عند باب المستشفى الجانبي، من الناحية الشمالية، وقد شارك في ذلك ثلاثة من العاملين في المستشفى، إضافة إلى كوبكا، الإنسان الرائع، بستاني جناح الأمراض الخاصة، والذي ثبّت على الصندوق باقة من الزهور انتقاها على عجل!

أمّا اللافتات التي أُعدّت في وقت مبكر، وقد كُتبت باللغتين، وكان يراد لها أن تتقدم موكب التشييع، أمّا الكلمات التي أُعدّت لهذه المناسبة، فقد طويت، «لأنّ الجثمان نقل منذ ساعات طويلة إلى المطار، وسلمت الأوراق إلى القبطان، دون أن يعلم أحد من الركاب، ولا بد أن الطائرة أقلعت، وهي الآن في طريقها إلى موران».

كان طالع العريفي في صندوقه، أسفل الطائرة، يتنصت إلى الهدير، وكان بعد فترة وأخرى يسمع المناقشات التي تدور فوقه بين أعضاء الوفد، وكان يسمع الضحكات أيضاً، كان يفعل ذلك وهو يبتسم، لأنّ الرحلة توشك أن تنتهي، وها هو في طريقه إلى الوطن، لكن دون عنوان ودون أن يعرف أحد!

امتزج حزني بالغضب، وصحتي تنوس بين حدين متباعدين، فحين يملأ طالع عليّ الغرفة بوجهه المقدود من الصخر ومن شمس البلاد البعيدة، ترافقه تلك الكلمات التي تتطاير كالشهب، ومعها عنفوان التحدي، أشعر أني أفيض بالغضب، وأشعر أني بحاجة إلى صحة جيدة، لكي أُواصل المشوار إلى نهايته. وبتصميم لا يعرفه إلاّ الأبالسة أُقرّر أن أشفى بسرعة، وخلال ساعات تغادرني الحرارة التي حيّرت الدكتور ميلان وأزعجته.

أمّا إذا غشيني الحزن، وبدأت تلك الفورة الترابية تنغل في داخلي أو تطفو على روحي، ويشتد صراخها: «باطل الأباطيل، كل شيء باطل، قبض الريح وحصاد الهشيم»، فلا بد عندئذ أن ترتفع حرارتي، ويرافقها ذلك الذوبان، وكأنّه يعلن عن قرب النهاية، فتنظر إليّ الأُخت رادميلا، وأنا أدخل الحمى، وكأنّني أدخل إلى معبد، باستغراب، تقول للدكتور ميلان أو لرادي: «صيف وشتاء على سطح واحد؟ لا أُصدّق، إن هذا يحيرني».

أمّا الدكتور ميلان، وهو يلاحظ التفاوت الكبير بين فترة وأخرى، فكان يقول، وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لو كان لدينا سجل طبّي كامل عن وضعك الصحي للفترة السابقة لساعدنا كثيراً..

يهز رأسه وهو يحرضني على أن أتذكر أكثر:

ـ.. وهل أصابتك أمراض أخرى غير التي ذكرتها؟ حاول أن تتذكّر..

وحين لا أتذكر شيئاً إضافياً يسألني بحيرة:

ـ والوفيات في العائلة.. كانت لأية أسباب؟ بأية أمراض؟

كانت حرارتي ترتفع وصحتي تتراجع حين أتذكر الأيام الأخيرة، وأيضاً أيام المهرجان الساخر الذي تبعها، خاصة حين بدأت إجراءات نقل جثمان طالع إلى موران. فما أكاد أسمع تلك التفاصيل المتعلقة بالموضوع، أو أرى أحداً من أصدقاء طالع وهو يتابع الاجراءات، حتى امتلئ حزناً، لا لم يكن الحزن وحده، وإنما معه مقدار هائل من الشعور بالتفاهة واللاجدوى. أقول لنفسي بانفعال حاد: «كان من الأسهل أن نموت هناك، لو فعلنا ذلك لجنبنا أنفسنا المذلة والإهانة، ولجنبنا الآخرين الإحراج». ويتراءى لي موتي هنا، موت الكثيرين، فأصرخ:

ـ بيدي لا بيدك يا عمرو!

لقد صدف مرة، حين مرضت هكذا، وكانت مايا العصفورة قد فرغت من قياس حرارتي، وكنت قد سمعت لتوي أن مسؤول العلاقات الخارجية في إجازته الصيفية، ولذلك لا يمكن البت بمصير الجثة، وقد نقل إلّي رادي ذلك.. حين صرخت بتلك الطريقة الحادة المفاجئة، سقط اللوح من يد مايا واصفرّ وجهها. نظرت إلّي ملياً، وكأنها تقرأ في عيني الخطوة التالية، لكي تتصرف على ضوئها. تابعت بحزن وأنا أُدرك أن مايا لن تفهم أية كلمة، ولن تقدّر في أي وضع أنا:

ـ طريد ولي مأوى، مباح ولي حمى
وحيد ولي صحب، غريب ولي أهل

لكن هيهات مَن يفهم أو مَن يتصرف في الوقت المناسب!

ومرة أخرى، وأتذكر أن اليوم كان يوم الزيارة الأسبوعية، وبعد أن سمعت عن الخلافات الواقعة حول الجثمان، هل ينقل أم يدفن هنا، وحين كنت أقلب في الليلة السابقة أوراق طالع، قرأت العبارة التالية: «ليست المسألة الاختيار بين نحن وهم، أي يجب علينا أن نختار واحداً منهما، المسألة في مدى قدرتنا على اتخاذ مواقف صحيحة ومدروسة، وأيضا نابعة من حاجاتنا الفعلية، ولا تجعلنا مرتهنين إلى عوامل وقوى خارجية. إذا استطعنا ذلك نكون قد قطعنا نصف المسافة نحو الهدف. وهذا لا يمكن أن يقرّره إلاّ مَن تكون له علاقة حقيقية بالقضية، أمّا مَن يحارب بالمنظار وحده، أو من

تعوّد على المنفى، فغالباً لا يستطيع أن يتخذ الموقف المناسب، وتغلب على قراراته المزاودة أو الهروب» بعد أن قرأت العبارة أكثر من مرة، وسمعت ببعض ما يدور من نقاش، قلت: «اللعنة، لأنَّ النتائج جاءت أسرع مما توقَّع طالع». أمّا والأُخت جوليا تدخل عليّ وأنا أستعيد هذه المشاهد، وكانت تبدو هرمة إلى درجة لا تصدّق، ولا أُبالغ إذا قلت إنها كانت تكبر بالساعات والأيام، فقد ابتسمت وهزّت رأسها هزّات متأنية، وكأنّها تسألني: كيف أنت؟ ودون انتظار أخذت أُردّد:

ـ «وعند بابي يصرخ الأشقياء:
اعصر لنا من مقلتيك الضياء
فإنّنا مظلمون
عند بابي يصرخ المخبرون:
وعر هو المرقى إلى الجلجلة
والصخر، يا سيزيف، ما أثقله
سيزيف. . ان الصخرة الآخرون».

أنصتتْ. حاولت أن تقرأ معنى الكلمات من خلال اللحن، ومن العينين. لما رأتني أقرب إلى الحزن، هزّت رأسها بأسى وبتأنٍ زائد. قدّرت أن ليلة صعبة ستكون هذه الليلة. ومثلما تفعل عادة، قالت لي بيدها «انتظر». عرفتُ أن رادي سيكون بعد لحظات ثالثنا، خاصة وأنه في هذه الفترة يحضّر لامتحاناته النهائية، وسوف ينتقل من صيدلية المستشفى إلى الجامعة، ولذلك فإنَّ المختبر الموجود هنا يتيح له العمل، وهذا ما جعله يقيم بصورة شبه دائمة في المستشفى.

جاءت ورادي، ولا بد أنها أخبرته: «قرّر هؤلاء العرب أن يموتوا على طريقة البطارق: أن يقفوا على الجرف، فإذا ألقى الأول نفسه تبعه الآخرون، ولذلك يجب أن نجعل من موت العريفي استثناء، وليس قاعدة». هكذا جاءا لحفلة المساء: قصص حكيمة، مسنة، نابعة من المشاهدة والتجربة، إضافة إلى حبة دواء منوّم، ومن عيار يناسب الحالة!

قال لي رادي:

ـ إذا كنت قد ذكرت لك اليوم، أو في أيام سابقة، بعض المسائل المتعلقة بالأساليب البيروقراطية السائدة، فلا يعني ذلك حذف الإنسان، أن البشر ميالون إلى الكسل، ويخضعون للعادات السهلة، لكن الضمير لا يموت، وأُبالغ فأقول إنه لا ينام أيضاً، وهذا معناه أن نثق بالآخرين، وأن نثق بالمستقبل.

وخلال الفترة التي استغرقتها الأحاديث الكثيرة عن المرضى الذين كانت أمراضهم مستعصية، لكن بالإرادة، والامتثال للتعليمات، استطاعوا أن يختصروا مدة العلاج، وأن يشفوا تماماً. وعن المرضى الذين استسلموا، والنتائج التي وصلوا إليها! وكيف يمكن أن يساعد المريض نفسه وطبيبه.. خلال تلك الأحاديث، وبشكل بسيط، أعطتني جوليا حبة الدواء. كنت أحتاجها، كنت أريدها، وكانت هي تريدني أن أرتاح، أن أبقى، فأخذتها بسرور لم أستطع أن أُخفيه، وقلت وأنا ابتلعها:

ـ الطريقة السهلة للنسيان!

لكن دواء النسيان المؤقت لا يكفيني. فالأعطاب الكثيرة التي حملتها معي تترمم بصعوبة وبطء، وإذا كنت أستطيع مساعدة الطبيب بالإرادة، كما تقول الأُخت جوليا، فإنَّ الموت، هذا الوحش الساخر، والذي يدق الأبواب، ويقتحم بين فترة وأخرى، فيجعل الناس، ولو مؤقتاً، يحزنون ويتساءلون، وربما يعيد بعضهم ترتيب أولوياته على ضوء إحساسه بقربه، فإنَّه هنا ضيف دائم الحضور. ليس ذلك فقط، إن الطريقة التي مات بها طالع قلبت كل شيء بالنسبة لي.

مع أيام حزيران الثقيلة، كانت الأحزان تترصدني في كل وقت وفي كل مكان ومع تزايد الحرارة وتمدّد ذرات الهواء، ومن خلال استعادة الماضي، وفي ظل الصمت الذي فرضته على نفسي، أو فرضه عليّ غياب طالع، ثم انشغال رادي بامتحاناته، أصبحت الوحدة مرضاً إضافياً. كانت ثقيلة إلى درجة الألم، وكانت مسيطرة في كل الأوقات. حتى كوبكا، البستاني، الذي كان يروق له أن يخوض في بعض الأحاديث مع طالع، وكان يراني معه باستمرار، افتقدني، واستغرب انقطاعي، خاصة في هذه الفترة من السنة، حيث كانت الحديقة الأمامية تضج بالزهور والألوان.

كانت الحركات وحدها الوسيلة التي يخاطبني بها، ففي اليوم الذي سبق وفاة طالع، وحين تزايد الهمس والسؤال، وكنت كالتائه أحلّق من مكان لآخر، جاءني وبدأ يتكلم، ولما وجد أن كلماته تضيع في الهواء، لجأ إلى الحركات، حركات اليدين والوجه، وخاصة العينين. كنت أفهم عليه، وأُحاول، قدر ما أستطيع، أن أجيب، لكن تلك الإجابات التي تقول أشياء كثيرة، ومن القلب، ولا تقول!

حين لاحظ انقطاعي، ولا شك أنه قدّر الحالة، وعرف السبب، أخذ يبعث إليّ كل صباح مع مايا بوردة أو بباقة من الزهور الربيعية. كانت مايا تحملها إليّ مع كلمات، وكنت أفهم أنها منه. وتجرأ مرتين أو ثلاث مرات بأنْ حملها بنفسه. كنت أُلاحظ وقفته الطويلة المتسائلة. كان لديه الكثير ليقول، ولكن لا يجد إمكانية للحوار، فتتكلم عيناه أول الأمر، ثم تبدأ يداه بالكلام، ولا يكتفي بذلك، كان جسده كله يتكلم، وبعد أن ينتهي يرفع قبعته بتحية ودودة حارة ويغادر.

لكن الوردة أو باقات الزهور الصغيرة مع الموت والمنفى دواء ضد النسيان. ورغم مشاعر الود والامتنان التي تملأني تجاه هذا الرجل البسيط، فقد أصبح بالنسبة لي وجهاً آخر لطالع، فما يكاد يبعث بوردته، أو يحملها بنفسه، وفي الوقت الذي يريد أن يحمل إليّ الفرح، فإنَّ أحزاناً إضافية كانت تهف من زهوره ومن حركاته، وكثيراً ما وجدت نفسي أمسح دمعة لا أعرف كيف سقطت، وأن أرى وجه طالع ينبثق من هذه الزهور.

قلت لزميل زارني في أواخر أيام حزيران:

ـ أُريدك أن تبلغ البستاني أن يتوقف عن إرسال الزهور، لأنّها تسبّب لي الحساسية، كما أن الطبيب منع وجودها في غرفتي!

لا أعرف لماذا تصرفت بهذه الطريقة. فجأة انبثقت الفكرة في رأسي، ودون تردّد طلبت من هذا الصديق أن يحمل هذه الرسالة! هل أريد أن أجلد نفسي؟ أن أُعاقبها؟ هل عنت لي تلك الباقات نهاية من نوع ما، خاصة وأنا أراه، في اللحظات الأخيرة، كيف جمع تلك الباقة، وحزمها بخيط من النبات أيضاً، وبسرعة البرق، كي لا يفوته وداع لائق بطالع؟

في ذلك المساء، وأنا أتناول العشاء، وأستعيد مشاهد النهار كله،

قلت، وخرج صوتي نزقاً: «لقد شوهنا السجن، وأفسدنا الجلاد، والآن جاء الموت، وهذا الموت العابث المجاني بالذات، لكي يقضي على آخر ما تبقّى فينا من مشاعر إنسانية، وإلاّ كيف أسمح لنفسي أن أرد على هذا الإنسان بهذه الطريقة؟».

والأُخت جوليا التي بدأت جولتها المسائية، ولا بد أن تتوقف عندي فترة طويلة، حين رأتني متجهماً هكذا، قطبت جبينها، نظرت إليّ لتقرأ في عيني الحالة التي أنا فيها، ونظرت بسرعة أيضاً إلى اللوح المسجل عليه الحرارة، لتعرف هل بدأت واحدة من تلك الحالات الملعونة!

ابتسمتُ بهدوء، وقلت لها، دون كلمات، وأنا أُشير إلى الأوراق الموضوعة على السرير: لست بحاجة، هذه الليلة، إلى حبة من حبوب النسيان، لدي ما أشغل به نفسي، لدي أوراق طالع، وأُريد أن أتذكر.

كنت في هذه الأمسية، ولا أعرف لماذا، أؤجل قراءة تلك الأوراق. صحيح أنني قلبتها، قرأت فقرة هنا وفقرة هناك، لكن منذ أن مات طالع، لم أجد لدي الرغبة أو القدرة على أن أقرأها كلها. كنت أقول لنفسي بتشفٍ، لأشعر بمزيد من العذاب: «ما دام لم يف بوعده، فيجب أن لا أكون أكثر وفاء منه» لكنني في هذه الليلة وجدت نفسي أغرق في تلك الأوراق. كنت وأنا أتوغل في ذلك العالم المجنون أزداد مرارة، وحقداً، وأزداد اقتناعاً أيضاً أن هذا العار الذي حملناه معنا فترة طويلة، السجن، يجب أن ينتهي، أن يزول.

في الليل المتأخر، وحين فتحت الأُخت جوليا الباب، كي تطمئن، وقد فعلت ذلك بهدوء، ووجدتني لا أزال غارقاً في تلك الأوراق، تغيّرت فجأة، غادرتها الوداعة وتخلّت عن الهدوء. سحبت منّي الأوراق بخشونة أقرب إلى القسوة، وتدفق سيل من الكلمات، ومع الكلمات حركات من اليد تدل على الكتابة. وكان اسم العريفي يتردّد بين جملة وأخرى. ربما ميّزت الأوراق، أو اعتبرت الوقت متأخراً، وربما قالت إن الارهاق الذي أصابه، والذي أودى به، هو نتيجة القراءة أو الكتابة الملعونة، هكذا قدّرت، وكنت أقرأ انفعالاتها وأرى غضبها.

إنها إحدى المرات القليلة التي أُحافظ على هدوئي، وكأن الأمر لا

يعنيني. أكثر من ذلك بدا لي المشهد بالغ الغرابة والطرافة معاً. وتذكّرت أيام السجن، وكيف ينفعل المحقق، وبعض الأحيان يبلغ أقصى حالات الغضب، نتيجة سبب بسيط: صمت المعتقل. في لحظة ما بلغت الأُخت جوليا هذا الحد. كانت تريدني أن أتكلم، أن أجيب عن أسئلتها، وكانت مستعدة لأن توافق على غضبي لو غضبت، لكن روح العناد، التي تتملكني بعض الأحيان، جعلتني أستمر في الصمت.

دارت حول السرير. تطلعت بإمعان إلى الأوراق، وكأنّها تحاول فك رموزها، وفجأة سقط على خدها خيطان من الدموع، تيقنت عند ذاك إنها عرفت تلك الأوراق، وربما عرفت أيضاً ما خط طالع فيها، وبطريقة هادئة أقرب إلى النجوى قلت:

- «تلك هي الحياة، يا فيديريكو
ولك هنا الأشياء التي تستطيع أن تقدمها
صداقتي كإنسان شجاع وحزين
فقد أصبحت تعرف بنفسك أشياء كثيرة
وستعرف سواها على مهل».

هذه الكلمات، وأنا متأكد أنها لم تفهم واحدة منها، امتصت الغضب، غيّرت الجو. هزّت رأسها وهي تنظر إليّ بتفهم، حاولت أن تبتسم لكنها لم تستطع. قالت بعض الكلمات، وكأنّها تطلب جواباً أو وعداً، هززت رأسي موافقاً، خطت إلى الأمام نحو الطاولة البعيدة، ووضعت فوقها الأوراق، رفعت يدها اليمنى إشارة للتنبيه، فلما رأتني أتابعها، وضعت يدها اليسرى على أذنها تعبيراً أنه حان وقت النوم، ويجب أن أنام فوراً. امتثلت. انزلقت في الفراش، وأطفأت الضوء، أغمضت عيني وبدأت السفر إلى الأمكنة البعيدة. وأتذكر أنني كنت على عتبة النوم عندما أغلق الباب، وساد الصمت!

طالع، الجسد، انتهى. وجد، أخيراً، بقعة من الأرض واستقر فيها، لكن طالع آخر ظهر بدلاً عنه.

صحيح أن موته أثار استغراباً وصل حد الذهول وعدم التصديق أول الأمر، ثم لما تأكّد هذا الموت ـ وقد نقل جثمان طالع خلال فترة راحة المرضى، بعد الظهر، من الباب الجانبي المفضي إلى الحديقة الداخلية ـ فإنَّ حالة من اللوعة، وصلت عند البعض درجة البكاء، استبدت بالكثيرين من المرضى والعاملين في المستشفى، نظراً للصداقات التي نشأت خلال هذه الفترة. أمّا في الليلة الأولى، ثم في عدة ليالٍ تالية، فإنَّ الرهبة حلّت مكان الحزن، وشعر عدد من المرضى الذين أظهروا اهتماماً منذ البداية، وتابعوا ودققوا، ورأى بعضهم الجثمان وهو يُنقل، وقد غطته بالكامل ملاءة بيضاء، شعر هؤلاء أنهم لا يستطيعون النوم، أو غير راغبين فيه، لأنَّ وهماً سيطر عليهم أن الموت يفضّل أن يأتي أثناء النوم، فهو يستغل الإغفاء أو السهو والظلام وينقضّ، وخلال ثوان قليلة ينتهي كل شيء!

ونُقل عن اثنين من العاملين في المستشفى، صادف وجودهما لحظة الوفاة، أن طالع لم يمت مثل الآخرين، وليس نتيجة النزف كما قيل، وإنما انفجر. وقد أكّد الاثنان أنهما سمعا صوت الانفجار، وكان قوياً ومفاجئاً، ولا بد أن يكون ذلك قد حصل بسبب الحزن أو الغيظ! ونقل عن أحد هذين الشخصين أن حالة من الهياج استبدت بالدكتور ميلان، فظلَّ لفترة طويلة يدلك الصدر وينفخ في الفم، لكن هذه الاسعافات لم تجدِ، وعند ذاك هزَّ الدكتور ميلان قبضته بغضب ثم ضرب الجدار. وأضاف الشخص ذاته أن

الدكتور ميلان قال لرادميلا التي لم تستطع أن تحبس دموعها: «هذا المريض كان مصمماً على الموت، لأنّه يعتبر الموت وحده الرد على الإهانة التي وُجهت إليه».

مناقشات المرضى وتفسيراتهم لما حصل كانت كثيرة ومتباينة إلى أقصى الحدود. فحين تساءل واحد منهم، وكان بالحقيقة يوجه السؤال إلى الفيلسوف، وهذا اللقب أطلق على اميل جانك، وهو مريض قديم، يعتبر المستشفى بيته الحقيقي، وربما الوحيد، وقد أطلق عليه لقب الفيلسوف لأنّه يحمل باستمرار كتاباً كبيراً، ولا يقرأ فيه إلاّ فقرة أو اثنتين، وبعدها يتيه في التأمل والتفكير.. حين وجه السؤال إلى جانك لتفسير ما حصل، اتخذ سيماء جادة أقرب إلى الصرامة، وقال بصوت مبحوح يشبه الهمس:

ـ هؤلاء الشرقيون عاطفيون وسريعو التأثر، ويمكن لأرواحهم، وهي تغادر أجسادهم، أن تنفجر، لأنها أرواح شفافة، وهي على شكل بالونات صغيرة ذات لون أزرق.

هزّ رأسه عدة مرات وتابع بتأكيد:

ـ لقد قرأت في كتاب كبير، أكبر من هذا ـ وأشار إلى الكتاب الذي يحمله ـ عن رحالة هولندي زار بلاد الشرق، ورأى بعينه أن حالات الموت هناك ليست كلها نتيجة المرض أو الشيخوخة وليست نتيجة القتل المباشر، إذ يقع قسم منها بسبب حجز الحرية، وتعتبر هذه أقسى العقوبات! ولقد رأى هذا الرحالة عدداً من الأشخاص يموت لهذا السبب بالذات، فما يكاد يحجز الإنسان، وخلال فترة أقصاها ثلاثة أيام، حتى يجدوه ميتاً!

وحين تساءل أحد المرضى ما إذا كان أُناس آخرون، من غير الشرقيين، لو حجزت حرياتهم، يواجهون نفس المصير، ردّ جانك بثقة:

ـ قد لا يختلف الأمر، لكن ما هو مؤكّد، أن الشرقيين الذين عاشوا في الصحارى وفي الهواء الطلق، لا يطيقون أي سقف، عدا السماء!

وغير هذه القصص والأمور حدث الكثير أيضاً. فالدكتور ميلان الذي تغيّب عن المستشفى بعد ثلاثة أيام من الوفاة، جاء مَن أكّد أنه كتب استقالته ووضعها بتصرف مدير المستشفى، ولن يعود عن الاستقالة ما لم تقدم له

إيضاحات كافية ومقنعة لتفسير الإجراءات التي اتخذت ضد طالع. أمّا بعد أن عاد في نهاية الأسبوع فقد اختلف الكثيرون في تفسير هذه العودة!

هذا بعض ما حصل في أوساط المرضى وبين العاملين في المستشفى، خلال الفترة الأولى التي أعقبت وفاة طالع. لكن هموم المرضى ومشاغل العاملين لا بد أن تطغى على كل ما عداها، وهكذا، وبمرور الأيام، بدأت صورة طالع تتراجع أو تغيب، إلاّ حين يقع ما يذكّر بها من جديد.

وفي أوساط شباب موران، وأوساط العرب الآخرين، حدثت أمور كثيرة أيضاً: ثارت خلافات حادة، ترافقت مع مناقشات صاخبة، ولم يخل بعضها من استعمال الأيدي، إضافة إلى الشتائم التي لم توفر أحداً أو شيئاً! لكن ما كاد جثمان طالع يسافر، حتى أخذت الأمور مساراً جديداً: الأسئلة المحرمة، الأسئلة المسكوت عنها، بنوع من التواطؤ الضمني، بسبب الخوف، أصبحت وحدها الأسئلة التي تُطرح ولا تجد مَن يُجيب عنها، أو أن أية إجابة تعتبر غير كافية وغير مرضية! ونتيجة ذلك فإنَّ علاقات وصداقات كثيرة، كانت قائمة، تصدّعت أو انتهت، وبدأت أشياء جديدة تبحث عن أشكال لها، حصل كل ذلك وطالع لم يعد حياً، لكنه موجود، وإن لم يُذكر، ومؤثر دون أن يسمّى!

وتغيّرت أمور أخرى كثيرة.

لكن ربما كنت أنا الوحيد الذي رفض أن يصدق أو أن يعترف بما حدث.

كان طالع يقاسمني يومياً صحن الطعام وكأس الماء، وكان يتمدّد على سريري، ولا يتردّد في أن يجر الوسادة ناحيته أو أن يقلبها. ويقف إلى جانبي وأنا أنظر إلى المرآة أثناء الحلاقة، أو حين أُحدّق داخل عيني لأختبر مدى قدرتي على الاحتمال.

وأثناء القراءة، خاصة قراءة الأوراق التي تركها، كنت أحس بثقل يده وهو يطوي هذه الأوراق، للحظات، ويقدّم لي إيضاحات إضافية عن الأشخاص والأماكن، ويقلد أصوات المحققين والجلادين، وكيف أنهم كانوا يجفلون من أقل الحركات وأضعف الأصوات، حين لا يتوقعونها! فإذا

واصلت القراءة مرة أخرى يقول لي هامساً، وإصبعه تشير إلى الفقرة أو الكلمة: «انتبه، انتبه هنا».

وحين أتأمل الأشجار أو الزهور، وحين أُتابع شحروراً مجنوناً يملأ فضاء المستشفى بنشيد لا ينتهي، خاصة في الصباح الباكر أو عند الغروب، حين أفعل ذلك كنت أراه واقفاً إلى جانبي، وكان يشير ويعلّق ويتساءل. حتى الماء البارد الذي كان يجفل منه وهو يغسل وجهه أو يديه، وكان ذلك مثار تعليقاتي الساخرة، اكتشفت فجأة أنني أصبحت أجفل منه أنا أيضاً!

إن العلاقة بين البشر، والصداقة بشكل خاص، لا تُقاس قوتها ومتانتها بالزمن وحده، فقد اكتشفت أنّني أعرف طالع منذ وقت لم أعد أتذكره، أو بالأحرى لا أتذكر إلاّ وأنا أعرفه.

صحيح أننا لم نعش معاً في السجن، أو في السجن ذاته، لكن، وهذا ما يثير دهشتي واستغرابي وتساؤلي، قابلنا نفس الجلادين، وإن اختلفت أسماؤهم، وعشنا نفس الآلام والعذاب. حتى اللحظات المجنونة، حين كنا نحلم بإعادة تشكيل العالم، مرت علينا بالتفاصيل ذاتها!

كنا ونحن نتبادل أخبار السجن، فنروي القصص والنكات، أو نصف السجناء والحرس والجلادين، كنا نفعل ذلك كي نتغلب على المرض وساعات المستشفى الطويلة، وكنا نحرّض بعضنا ونحلم أنه سيأتي يوم تُهدم فيه السجون وتُبنى بحجارتها حدائق ورياض أطفال.

كانت الساعات والأيام وهي تمر تزيدني اقتناعاً أني أتعرف على طالع أكثر وأفضل من قبل. بل واكتشفت أنني كنت أجهله، أو بالأحرى لم أتعرف على معاناته إلاّ حين قرأت أوراقه. كنت وأنا أقرأ وأغرق أحس أن ما يربطني بطالع أقوى مما كنت أفترض، وتأكّدت أن العلاقة بيننا أقوى من علاقات الأخوة، وهذا ما جعل حياتي تضطرب من جديد.

لما قرأت الأوراق تعرفت، مرة أخرى، على طالع، ولكن بشكل أدق وأعمق هذه المرة، وكنت أيضاً أتعرف فيه على نفسي وعلى الحياة التي عشناها. كانت الحياة، في تلك الفترة، عابثة ومنكودة، وكانت مليئة بالتشوهات والأكاذيب، أو كما يقول طالع في إحدى الفقرات التي كتبها:

«.. يجب أن نكون شديدي الحذر من الشعارات الكبيرة ومظاهر التقوى. علينا أن ننظر إلى الأشياء الصغيرة والبسيطة قبل أن ننظر إلى الكلمات الكبيرة واللافتات، لأنَّ هذه الأخيرة غالباً ما تخفي الأعمال الرديئة والأكاذيب. وإلاَّ كيف نفسر كل ما يقع تحت أبصارنا وسمعنا في كل لحظة؟ كيف نفسر السجون والقتل والسرقة وعشرات الارتكابات الأخرى، وفي ظل الشعارات الكبيرة ومظاهر التقوى؟».

وبمقدار ما يتفاءل الدكتور ميلان من التحسّن الذي أحرزه خلال بعض الفترات، فلا ألبث أن أُخيِّب أمله في فترات لاحقة، إلى أن أصبح الأمر تحدياً له. كان يحكم عليّ الحصار ـ وقد اكتشفت ذلك في وقت متأخر ـ لمعرفة العوامل والأسباب التي تؤثّر على صحتي. افترض، أول الأمر، أن صدمة الوفاة هي السبب، وبمرور الوقت لا بد أن أنسى وأتجاوز، وأستعيد الصحة والنشاط. وفي فترة لاحقة افترض أن الأخبار التي ينقلها إليّ الزوار لا بدّ أن تكون هي السبب في ارتفاع درجة الحرارة، وفي الاضطرابات التي تُرى في الصور أو تظهرها التحليلات.

كان يسألني ويتبسط معي، خاصة في بداية الأسبوع، يريد أن يعرف ما إذا كانت أخبار العالم الخارجي هي التي تجعلني هكذا. لكن ما أن نسترسل في الحديث، أو يقرأ درجات الحرارة المسجلة على اللوح، حتى يُسقط هذا السبب، أو لا يعتبره أساسياً!

في منتصف تموز، أو بعد ذلك بأيام، وكان قد مضى على وجودي في المستشفى فترة طويلة، ويبدو أن قدرة الطب لا تستطيع أن تقدّم لي أكثر مما قدّمت، في هذه الفترة، ونتيجة وشاية، أو نتيجة صدفة، وضع الدكتور ميلان يده على السبب!

ـ هذه الأوراق... أريد أن أعرف مَن كتبها، وما هو مكتوب فيها!

وأشار إلى أوراق طالع، وكانت موضوعة، مع كتب ودفترين، على الطاولة القريبة. للحظة خفت. تذكرت المداهمات القديمة والبحث عن المستمسكات، وأية أوراق يمكن أن تكون طرف خيط وتساعد المحقق. وتذكّرت مرة، حين عُثر على ورقة مفكرة صغيرة عليها بضعة أسماء. كانت

أسماء مفردة. وكان المحقق متأكداً أنها بخط يدي، ويريدني أن أعترف بذلك. سألني عنها، طلبت منه أن أرى الورقة. قدّمها لي، ما كادت تصل إلى يدي، حتى اتخذت قراراً خطيراً: في لحظة مناسبة، وبشكل مفاجئ التفت إلى هذه الجهة ثم إلى الجهة الأخرى، وقد تظاهرت بالخوف، وما أن التفت المحقق متسائلاً وليعرف ما حصل أو سبب التفاتي حتى دعكت الورقة وكومتها ثم ابتلعتها. لا أزال أتذكّر الجنون الذي أصابه فجأة. أمّا الفك المكسور، والأسنان الثلاث التي سقطت، فالثمن الذي دفعته لقاء تلك الورقة الصغيرة!

ماذا أقول للدكتور ميلان الآن، وهل أقوى على ابتلاع هذا الكم الهائل، ليس من الأوراق وإنما من العذاب وحدي؟

قلت بنوع من الفخر:

ـ إنها أوراق العريفي:

ـ أوراق العريفي؟

سأل باستغراب وقد انفتحت عيناه على اتساعهما، أجبت بكبرياء:

ـ نعم إنها له، وقد كتبها قبل وفاته بفترة قصيرة.

ـ هل من حقّي أن أسأل عما كتبه فيها؟

ولا أعرف كيف واتتني، في تلك اللحظة، السخرية السوداء، قلت وأنا أبتسم:

ـ وهل يمكن أن يكتب إلاّ في الموضوع الذي عاشه، وعرفه عن ظهر قلب؟

للحظات لم يستطع الدكتور ميلان أن يستوعب الأمر، قلت بنفس السخرية:

ـ يمكن للآخرين أن يكتبوا في مواضيع عديدة: مثلاً: عن الحب في ضوء القمر، عن تسلق الجبال، أو كيف تصبح ثرياً وسعيداً، أما نحن فقد تخصّصنا في موضوع واحد، ولا نستطيع أن نتركه، لأنه لاصق بنا، علامة فارقة لنا، عنوان لعصرنا الذي نعيشه..

ولا أعرف كيف أصبح وجهي أو ماذا قالت عيناي، فقد لاحظت أن

الدكتور ميلان يضطرب في كرسيه، وقد قالت ملامحه أيضاً ذلك. قلت وأنا أنظر إلى السقف:

ـ الموضوع الذي يشغلنا هو: السجن...

خيم صمت قاس. أحسست أن الرسالة أصبحت قابلة للقراءة، تابعت، وربما بدت لهجتي حزينة:

ـ كيف نستطيع أن نتحدث عن الأمور الأخرى ما دام السجن الآن هو عارنا، وهو الذي أكل زهرة أيامنا وأحسن رجالنا، وما دام يطاردنا حتى في المنافي، وقد رأيت كيف مات طالع.

قال الدكتور ميلان، بعد أن ملأت زفرته الغرفة كلها. ودون أن يتطلع إليّ، قال وهو يخطو نحو الباب:

ـ يجب أن أمرّ على المرضى الآخرين، وسوف نجد وقتاً آخر نتحدث فيه.

في ذلك اليوم، وربما أكثر من أي يوم سابق، تضطرب أوضاعي الصحية. والأخت رادميلا التي تكون عادة مشغولة في يوم الاثنين أكثر من الأيام الأخرى، وتبدو أكثر نزقاً، وغير مستعدة لتقديم أي تنازل، أو الخوض في أية أحاديث ومطالب، ما كادت تبلّغ بحالة الحمى التي أصابتني، حتى اقتحمت غرفتي كالعاصفة. كنت أحس يدها الثقيلة وهي تستقر، مثل لوح الثلج، على جبيني، وكنت أُميّز الشتائم التي تقذفها في كل الاتجاهات، وربما شتمتني أيضاً!

ومايا العصفورة التي رابطت في غرفتي، بطلب من رادميلا، وربما بإيعاز من الدكتور ميلان، كانت مضطربة، أقرب إلى الخوف. قدرت ذلك من نظراتها إليّ؛ من ردود فعلها وأنا أطلب الماء أو رفع مقدمة السرير، وأيضاً من بعض الأحاديث التي كانت تبدو طويلة، وهي تجيب الأُخت رادميلا، وكأنها تنقل إليها لحظات الهذيان التي كانت تغشاني حين ترتفع حرارتي، أو تصف لها حركاتي!

إن تفاصيل كثيرة لذلك اليوم، ثم الليلة التي تلته، غابت من ذاكرتي، أو بالأحرى لا أعيها، لأنَّ الأدوية التي أُعطيت لي، وأيضاً حالة التعب،

جعلتاني أغرق في نوم عميق أقرب إلى الغيبوبة، حتى الأُخت جوليا التي أُبلغت بحالتي، ولا بد أن تكون قد سهرت عليّ الليل بطوله، لا أتذكر أني رأيتها. وربما لأنَّ حالتي أخذت بالاستقرار، ولم تعاودني الحرارة، فقد سمحت لنفسها بمغادرة المستشفى في الوقت المحدّد، ولم تضطر لمواصلة النهار بالليل، كما فعلت في مرة سابقة!

في اليوم التالي، عند الضحى، وهو وقت يعتبر متأخراً بالنسبة للدكتور ميلان، ولا بدّ أن يكون قد انتهى من جولته، جاءني. خلافاً لمرات كثيرة سابقة بدا مرحاً. الابتسامة تملأ وجهه، ولديه استعداد لأن يتحدث وأن يسمع.

بعد أن سألني إن كان وضعي الآن أفضل من قبل، تطلع بإمعان إلى درجات الحرارة المسجلة على اللوح. هزَّ رأسه عدة مرات تطلع إليّ وابتسم، وجلس على الكرسي القريب.

هناك لحظات يحس الإنسان خلالها بالحرج، رغم انه لم يرتكب خطأ، ولا يريد أن يطلب شيئاً قد يُرفض، وهذا الحرج، ربما، بسبب دقة الموضوع الذي يريد أن يخوض فيه، أو لأنّه لم يجد بعد إليه المدخل المناسب. وربما لخشيته أن لا يكون مفهوماً بالمقدار الكافي.

لقد سيطر علينا، نحن الاثنين، هذا الشعور، خلال فترة الصمت التي بدت طويلة وثقيلة، إلى أن اخترقها الدكتور ميلان بصوت أجش:

- لا أسمح لنفسي، وليس من حقي، أن أطلب إليك تسليمي أوراق العريفي، فقد اختار هو الشخص الذي يسلمها إليه..

زفر وهو يحاول الابتسام، بدا له أن هذا المدخل شديد الوُعورة. تحرك في كرسيه وتابع، وكان صوته هذه المرة مختلفاً:

- لا أريد أن أتحدث في السياسة، فأنا لا أعرف في هذه الأمور إلاّ القليل، ولكني أتحدث كطبيب.

ومرة أخرى تغيّرت نبرة الصوت:

- المرض، في حالات معينة، وربما كثيرة، هو المريض، فبعض المرضى لديهم استعداد أكثر من غيرهم لأن يبقوا مرضى، ولفترة طويلة،

وهذا بسبب رغبة داخلية أكثر مما هو نتيجة أسباب عضوية.

تطلع إليّ بإمعان ليقرأ تأثير هذه البداية، لما وجدني مصغياً باهتمام، أضاف:

ـ وآخرون لديهم استعداد وإرادة لأن يتغلبوا على مرضهم، خاصة من خلال الالتزام بقواعد العلاج، ومن خلال الرغبة بتجاوز المرض. ورغبة من هذا النوع، تلعب دوراً بالغ التأثير حين يتداخل المرض العضوي بالمرض النفسي. ولذلك فإنَّ مواجهة العوامل النفسية من خلال معرفتها أولاً، ثم من خلال منع أو وقف تأثيرها تكون ذات تأثير كبير، إذا لم نقل حاسماً.

بعد هذه المقدمة بدا مرتاحاً، وكأنه استطاع أن يوصل إليّ ما أراده.

خيّمت موجة من الصمت. كان يفترض أن أتكلم، أن أقول رأياً بما سمعت. لكن وجدت أن كلامه يعني شخصاً آخر، أو لا يعني شيئاً، فقد قرأت مثله في زوايا مجلات غير طبية توجد عادة عند ربات البيوت وفي عيادات الأطباء!

قلت وكأنّي أُحدّث نفسي:

ـ ليس لي أي اعتراض على هذا الكلام، لكن الفرق كبير، وكبير جداً، بين ما نرغب فيه وما نقدر عليه.

ابتسم ابتسامة كبيرة، وكأنّه يهيّئ نفسه لهجوم جديد، قلت لأوقف هجومه:

ـ ومع ذلك فإنَّ المشكلة...

ـ المشكلة هي الإرادة...

هكذا قاطعني ولم تفارق الابتسامة شفتيه، وبعد قليل:

ـ أنت مريض، هذا شيء مؤكّد، لكن يمكن أن تتعايش مع هذا المرض، وأن تتحسن باستمرار، شرط إن...

ولم أتركه يتابع:

ـ شرط أن أنسى السجن، أن أخلّفه ورائي. أليس هذا ما تريد أن تقوله؟

قرّب كرسيه ونظر إليّ بإمعان. تصلّب وجهه قليلاً، قال وهو يهز رأسه:

ـ العريفي أخطأ كثيراً. إن ثلاثة أيام سجن إضافية أو أربعة لا تعني شيئاً، كان يمكن أن يتحملها ويستمر. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ أنا ضد ما حصل، وأعتبره منافياً لكل أخلاق، لكن الفرق بين شخص وآخر: كيف يتصرف ومتى، ويبدو أن هذا الدرس ثمنه باهظ أغلب الأحيان، وقد رأيت كيف دفع العريفي حياته ثمناً، وربما دون مقابل، فأرجو أن تتأمل في الموضوع جيداً.

وتحرك في كرسيه وهو يهز رأسه وينظر إليّ، ثم نهض.

قال بعد أن جر نفساً عميقاً، وبدا لي صوته حزيناً:

ـ أريدك أن تشفى، أن تتحسن صحتك، لعلك تستطيع أن تفعل شيئاً، هل فهمتني؟

وابتسم ابتسامة عريضة وهو يغادر الغرفة!

ولـم أستطع أن أشفى، أو الأصح لم أكن مقتنعاً بضرورة الشفاء! أصبحت الحياة بالنسبة لي مملة أقرب إلى اللاجدوى، وتستبد بي مثل هذه القناعة أكثر خلال ساعات الليل الطويلة القاتلة، حين تمر أمامي، كشريط بلا نهاية، صور المرحلة الماضية، إذ يسيطر عليّ شعور أن كل شيء تبدّد وسقط، وأن ليست هناك إمكانية لبداية جديدة، خاصة بعد أن توالت الخلافات ومعها الاتهامات والفضائح، وبعد أن تغيّر موقف السلطات المحلية تجاه اللاجئين.

وجوليا التي بذلت جهوداً كبيرة من أجل أن تعيد لي الثقة، أخذت تفقد صبرها، وبدأت تدفع الآخرين لعلهم يستطيعون ما عجزتُ عنه.

ذات صباح، أثناء مرور الدكتور ميلان، وبعد أن اطمأن لوضعي، تلفت في الغرفة وكأنه يبحث عن شيء، ولما لم يجده هزّ رأسه وسألني:

ـ أتذكر أن غرفتك لم تكن تخلو من زهور، فلماذا نسيك كوبكا؟

وقبل أن أُجيب نقر على صدغه، وكأنّه تذكّر شيئاً، وخرج!

لم تمض دقيقة حتى وجدت كوبكا، بوجهه الطفولي المرح، داخلاً عليّ يحمل باقة من الزهور! كانت الباقة منتقاة بعناية، مرتبة، فوّاحة. تقدّم بها نحوي، وقالت عيناه، برجاء، أن أقبلها، فلما صمتُّ وضعها على طرف السرير، قرب قدمي، وبعد أن تكلّم بضع كلمات، وكان متأكداً أنني لن أفهم عليه، جعل يشير بيديه ورأسه، واسم الدكتور ميلان يتردّد، فقدّرت إنه ما كان ليحمل إليّ الزهور لو لم يأخذ موافقته!

ومرة أخرى، بدل أن تسعدني تلك الزهور أثارت أحزاني وذكرياتي.

كدت أتصرف بحماقة، أن أرفضها، أن أحرّك ساقي وأدفعها لتسقط على الأرض، لكن حركة كوبكا، وهو يحمل اناء الزهور الفارغ من طرف الشباك، ثم وهو يملأه بالماء، بعد أن برّده قليلاً، وكيف تناول الباقة وفردها في الاناء، وقد فعل ذلك بمهارة وذوق، وأخيراً حين حمل الاناء إلى الطاولة البعيدة، مقابلي، وأداره أكثر من مرة ليأخذ الشكل الملائم تماماً. . . لما انتهى من كل ذلك فرك يديه وابتسم ابتسامة كبيرة، وأخذ ينقل عينيه بين الزهور وبيني، وكأنّه يلتمس الرضا أو الموافقة.

في تلك اللحظة اختلطت مشاعري، لم أعد أعرف هل أنا فرح أم حزين، هل أتذكر طالع ولحظاته الأخيرة، أم أستعيد الحياة بجمالها وبساطة البشر وطريقتهم في الحب والتعبير؟ فجأة وجدت نفسي أقفز من السرير وأهجم على كوبكا وأعانقه.

شممت في كوبكا رائحة الأرض والنباتات. كانت رائحة منعشة ذكّرتني بأيام بعيدة رائعة، شددت على ساعديه، عند الكتفين، تعبيراً عن الامتنان والمودة، وأبعدته قليلاً لكي أنظر إلى وجهه وإلى عينيه. لفترة غير قصيرة تراءى لي أني لا أرى وجهاً أمامي، كنت أرى مرجاً فسيحاً أخضر، كنت أرى أُمّنا الأرض بتضاريسها القوية وحنانها الذي لا ينتهي. قلت، وأنا واثق أنني أُخاطب نفسي:

ـ «لا عجب فيمن عمل خيراً. . في الماضي.

ولا فيمن عمل خيراً. . اليوم

العجب الدائم هو:

كيف يمكن أن يوجد إنسان لئيم وجاحد؟»

وأنا، يا كوبكا، أعتبر نفسي ذلك اللئيم الجاحد، كما يقول الشاعر، وأريد منك الآن أن تغفر لي.

في لحظات معينة يفهم البشر على بعضهم دون كلمات، أو دون أن يعرف الواحد لغة الآخر. إنهم يفعلون ذلك بطرق لا حصر لها، إذ فجأة وجدت كوبكا يهز رأسه فرحاً وتضحك عيناه بغفران لا نهاية له. وحين انزلقت يداي عن كتفيه تراجع قليلاً إلى الوراء، دون أن يلتفت، وأخذ جسده كله يشهق ويتكلم. قال الجسد أشياء كثيرة، لذيذة وحزينة معاً، وكنت

أُحاول أن أُبادله الكلام بهزّات من رأسي، بالابتسام، بالتعبير عن الشكر، فلما شعر أنه قال كل ما عنده، وسمع الجواب، تراجع أكثر نحو الباب. مال بزاوية ووضع يده على قبضة الباب يريد أن يفتحه، عاندته القبضة، استدار أكثر، كان جسده فرحاً، وحين انفتح الباب وأصبح في اطاره الخارجي، قال، باعتذار، كلمات، كنت متأكداً أنها التالية، لا غيرها:

ـ الحديقة تناديني ولا بد أن أُلبّي النداء!

في الأيام التالية، ولكي لا يثقل كوبكا عليّ، ولئلا يصبح للزهور معنى روتيني، لم يتبع قاعدة ثابتة في إيصالها، فمرة يحملها بنفسه، ومرة يحملها لمايا، وثالثة يتظاهر بالنسيان، وأنه لم يتذكر إلاّ في آخر لحظة، حين التقت نظراتنا عبر النافذة أو في الدهليز، إذ يضرب على جبينه، ويندفع بسرعة وقوة لكي يحملها إليّ!

والآخرون، معظم الآخرين، يشاركون في هذه «اللعبة» أيضاً. فالدكتور ميلان الذي أبدى دهشته، وقد فاجأته باقة الزهور في اليوم التالي، قال بمرح:

ـ سألني كوبكا قبل أيام ما إذا كانت الزهور تضر بصحتك، وحين أكّدت له أن لا ضرر منها، أتعرف ماذا قال لي؟

حركت رأسي دلالة عدم المعرفة، تابع الدكتور ميلان:

ـ قال لي: الزهور والنباتات، ومنذ أقدم العصور، وبالنسبة لجميع المخلوقات، دواء للأمراض والأوجاع كلها، واستغرب إذا كانت تضر أحداً... إلاّ إذا كان أحمق أو من فصيلة الجعلان!

ابتسمت لشتيمة كوبكا! تابع الدكتور ميلان:

ـ لم أجد ما أُجيب عنه إلاّ أن أقول له: يجب أن تأتي وتحل مكاني، يا كوبكا، في معالجة المرضى. فردَّ: لكل إنسان المهنة التي يحسنها في هذه الحياة، وأنا لا أُحسن سوى العمل في الأرض، ولكن أريدك، يا دكتور ميلان، أن تتأمل الحياة والمخلوقات حولنا، وأن تتأمل الحيوانات بشكل خاص، وكيف تعالج نفسها وتشفى من الأمراض!

ولأن الوقت لم يكن ملائماً لحديث طويل فقد هزَّ الدكتور ميلان رأسه، وقال كلمة أخيرة وهو يغادر:

ـ نعم يجب أن نتأمل الحياة لكي نتعلم أكثر!

وأن نتأمل الحياة حولنا ليس دائماً بالأمر الممتع، أو مما يعجّل بالشفاء! فتلك العادات الجامحة التي تعودناها منذ وقت طويل، وحملناها معنا إلى هنا، وتلك الأحقاد الغافية، وكان الجبن وحده يمنعنا من التعبير عنها، بدأت تظهر بصخب، وأخذت التحديات تتزايد والخلافات تتسع وتستحكم، والقطيعة ومعها الظلال السوداء اليائسة تُغطي كل شيء. أمّا الذين صمتوا طويلاً فلم يعودوا قادرين على أن يستمروا كذلك. ومع كل قصة جديدة تزداد الأمور صعوبة وتعقيداً!

وإذا كنت قد انقطعت عن الحديقة منذ غياب طالع، إلاّ أنه نتيجة إلحاح الدكتور ميلان، فقد بدأت أتجرأ على الخروج في بعض العصاري. كنت أخرج ومعي، أغلب الأحيان، كتاب أدفن فيه وجهي، لأتجنب الحديث مع الآخرين، ولكي أتجنب نظراتهم أيضاً!

واميل جانك الذي جاذبنا الحديث في أوقات سابقة، وكان طالع يحاوره بمرح ويترجم لي، ولأنَّ من عادة جانك أن يطرح الأسئلة إذا لم يسأله أحد، فقد اصطدمت به من جديد، رغم محاولاتي الابتعاد والهرب.

بدأ، أول الأمر، من خلال الكتاب الذي أحمله، إذ بعد أن أبدى اهتماماً للاطلاع على الكتابة العربية، استغرب أننا نكتب من اليمين إلى اليسار، وتساءل ما إذا كنا نستعمل أيدينا اليسرى في الكتابة! ثم سأل عن موضوع الكتاب، وأية موضوعات تروق لي وأهتم بها أكثر من غيرها. جرى كل ذلك الحديث بمزيج من التشيكية واللاتينية والفرنسية، وبعض الكلمات الانكليزية والألمانية ايضاً! وفي مرات لاحقة، حين لا نفهم على بعضنا بالمقدار الكافي، كان يلجأ إلى الكتابة، ولا يتردّد في أن يرسم، وأخيراً استعار قاموساً من مكتبة المستشفى وظلّ يحمله باستمرار، ليستعين به في الحالات الدقيقة والهامة!

أنا متأكد أن لدى جانك ما يقوله، وربما يكون ذلك هاماً ومفيداً، لكن قلة المفردات التي نتبادلها كانت تحول، أغلب الأحيان، دون مواصلة الحديث، أو تحوّله إلى حديث شديد البؤس، إذ تتخلله الإشارات الكثيرة، وترديد الكلمات كالأطفال، وأيضاً الاستعانة بالقاموس! وهذه الطريقة في

النقاش أو الحديث أخذت تثير اهتمام المرضى وفضولهم، وتدفع الكثيرين منهم إلى المشاركة، بشكل أو آخر، لتوضيح فكرة أو لإبداء رأي فيما يدور بيننا. حتى الأخت رادميلا التي كانت ترقب المناقشات، بعض الأحيان، إذ تتوقف وتنظر إلينا باهتمام وتساؤل، كانت لا تقوى على إخفاء ابتسامتها وهي تقول:

ـ خلال فترة، لن تطول كثيراً، سوف نحوّل المستشفى إلى جامعة مفتوحة لتعليم اللغات...

وتضحك ثم تضيف:

ـ بطريقة الصم!

وتُسمع هنا وهناك تعليقات مرحة، وبعض الأحيان لاذعة، ورغم ذلك لا بد أن ينتهي كل نقاش من هذا النوع بحكمة أو فكرة يحاول جانك أن يثبتها في أذهان سامعيه. كان يفعل ذلك بإصرار «لأن صاحب الفكرة يجب أن يتحمل الكثير من أجل توصيل فكرته، ولنا بالأنبياء قدوة»!

في اللقاء الذي أبدى رغبته في التعرف على اللغة العربية، قال كلمات ظلّ المرضى يتذكرونها حتى اليوم الأخير من إقامتي في المستشفى، إذ بعد الأسئلة والمناقشات قال بفخامة، بعد أن رفع يديه عدة مرات طالباً من الجميع أن ينصتوا بانتباه:

ـ الشرق أمر خطير للغاية يا أيُّها السادة. هكذا كان وهكذا سيعود مرة أخرى...

وبعد أن نظر إليّ بإمعان، أضاف:

ـ ولأن الحضارة بدأت من الشرق، لا بدَّ أن تعود إلى الشرق مرة أخرى؛ فالحضارة كالدائرة تماماً، فمن أي نقطة بدأت لا بدَّ أن تنتهي عند تلك النقطة، فانتبهوا جيداً لما أقول!

وهزَّ رأسه عدة مرات، وبدا عليه همّ، وبعد فترة من الصمت تابع بصوت مختلف، وكان يوجه الحديث إلى الآخرين:

ـ لكن عيب الشرق وأهله أنهم كالشهب سريعو التألق ثم الاحتراق... والتفت إليّ في محاولة اعتذار وتوضيح:

ـ ومع ذلك فإنَّ بعض الشهب لا يحترق بسرعة، وأظنك كذلك،

وكذلك يجب أن تكون!

تبرع بعض المرضى بالتفسير وإيراد الأمثلة، وقال واحد ظلّ واقفاً طوال الحديث، ولا يعرف إن كان جاداً في حديثه أم ساخراً:

ـ لتبق أفكارك نيرة ودائمة التوقد يا اميل جانك، ولتعش عمراً مديداً دون آلام، وأستميحك العذر إذ شبّهت ما قلته بالشمس، فهي تغيب كل ليلة، لكن لا بد أن تظهر في اليوم التالي، فهل توافقني يا اميل جانك؟

وافقه، أو اضطر لموافقته اميل جانك، خاصة وأنه لم يبق أحد إلاّ وشارك في الحديث، وانتهى الأمر بمعادلة قصيرة: كل شيء يبدأ من الشرق: بزوغ الشمس، وبداية الحضارة وفناء البشرية أيضاً!

قلت لنفسي وأنا أنهض: «المرضى كالسجناء لا بد أن يشغلوا أنفسهم بشيء ما، ويجب أن يكون هذا الشيء بالغ الجدية!»

وإذا كانت هذه الأحاديث تسرّي عن المرضى، وربما تشغلهم أيضاً، فقد كانت تبدو لي قليلة الأهمية، رغم ما يميزها من مظاهر الجد والاهتمام، وربما كنت أنظر لها كذلك، لأنَّ الهموم التي سيطرت عليّ مختلفة.

وفي مرة أخرى أنهى اميل جانك الحديث، وكانت الريح تهب وتنذر بالمطر:

ـ الريح، في هذا العصر، هي الآلهة الجديدة، لأنها تحمل خلال ثوانٍ، الأفكار والأخبار والجنون من أقصى مكان في الأرض إلى أقصى مكان يقابله، وما تفعله خلال وقت قصير ينشغل فيه البشر لسنوات وسنوات... وأنت تعرف أن الريح لا تتوقف!

ونظر إلى السماء وهزَّ رأسه للتأكيد، ثم نظر إليّ وابتسم!

انقطعتُ، مجدداً، عن الخروج إلى الحديقة لبضعة أيام، كنت خلالها أرقب جانك وهو يتخطر في الممرات وبين الأشجار، ولكن لم يكن يكف عن ترصد غرفتي منتظراً خروجي، وكان بين فترة وأخرى يخرج من كتابه السميك ورقة وينظر إليها بإمعان، ثم يعيدها إلى الكتاب.

في اليوم الثالث أو الرابع، وفي لحظة انفعال، قررت أن أُغامر بالخروج لأكتشف المفاجأة التي هيأها لي جانك!

ما كدت أتبادل معه بضع كلمات حتى جاء رادي، ومع ذلك لم يتأخر

ولم يتردد في أن يبوح لي بالمفاجأة. ورغم أنه استعان بالقاموس لترجمة الورقة، إلا أنه استغل وجود رادي لكي يخرج عن السياق الأول. إذ بعد أن اتخذ سيماء جادة، وأبقى الورقة مطوية بين أصابعه، فقد طلب من رادي أن يترجم.

بدأ بمقدمة حول الشرق وأهميته، وكيف أنه قضى سنوات في دراسة فلسفة الشرق وانتهى بأن قال:

ـ إن الشرق كنز المعرفة، وخير مَن يلخص هذه المعرفة طاغور، وخير ما كتب طاغور الأبيات التالية:

وبعد أن ترجم رادي، أخذ جانك يترنم:

ـ «أخلّف الأشياء الصغيرة لمن أحب، أمّا الكبيرة فلكل الناس»

«الإنسان أسوأ من الحيوان حين يكون حيواناً»

«لن يصبح الخطأ صواباً إن هو أصبح أقوى»

«نعيش في هذا العالم حين نحبه»

«إني أثق بحبك، لتكن هذه آخر كلماتي»

كان يقرأ آثار كل بيت على وجهي، ورادي يترجم، ولا أعرف لماذا طلب إليه أن يترجم البيت الأخير مرة ثانية! بعد أن انتهى قدّم إليّ، بطريقة احتفالية، الورقة التي كتب عليها تلك الأبيات. كان خطه، باللغتين، جميلاً، لكن الترجمة بالفرنسية كانت حرفية ومضحكة، وترك مسافات كافية بين بيت وآخر، أما اسم طاغور فقد كتبه بخط أخضر، وبدا أقرب إلى الرسم!

وبكثير من الحزم والمهابة نهض اميل جانك، وكان نهوضه، بتلك الطريقة، دعوة لأن نفعل مثله، ولم نتأخر، إذ مد يداً صلبة، صافحنا بقوة، وربما دون مودة، وكأنّه يوشك على رحيل لا يعود منه. كانت عيناه حازمتين مثل قائد عسكري يودّع قطعة ذاهبة إلى القتال، أمّا وهو يستدير ويمشي، وقد وضع الكتاب تحت إبطه، فكان أقرب ما يكون إلى فلاح يحرص على زوادته، وقد شدّ عليها بساعد قوي.

تبادلنا النظر أنا ورادي، وكنا منفعلين. كان لدى كل منا ما يقوله، ولكن وجدنا أنفسنا نجلس، من جديد، ونغرق في الصمت، وبدأ يهبط المساء.

Twitter: @ketab_n

ولـم يظهر اميل جانك بعد تلك الليلة في مستشفى كارلوف!

وعلى عادة المرضى في ملء أوقات الفراغ والتسرية عن النفس، انتشرت في المستشفى إشاعات وتفسيرات ساخرة حول غيابه.

قيل إنه ذهب إلى الجبال ليتمتع بإجازته السنوية من المرض! وأكّد سلوفان غيزي أنه «ذهب للمشاركة في مؤتمر فلسفي يعقد حالياً في إحدى جزر المحيط، وحالما يعود سوف يخصص الأيام الثلاثة الأولى للحديث عن انطباعاته، والأيام الثلاثة التالية للإجابة عن الأسئلة، فهيئوا أسئلتكم منذ الآن. . أيُّها السادة» أما سابيلا، المريض بالربو، والذي يحمل باستمرار جهازاً لمواجهة النوبات الطارئة للمرض، فقد أكّد «ان جانك اكتشف، بالصدفة، وعن طريق بعض الزوار، مكان عائلته، ولذلك قرّر أن يداهمها قبل أن تفر منه مرة أخرى وتغيّر عنوانها!».

قيلت هذه التعليقات في الصباح الباكر، حين كان غياب جانك مجرد إشاعة. أما بعد أن تأكّد هذا الغياب، فقد قال داركو، مسؤول المكتبة، إن «الهارب» استولى على ممتلكات عامة وفرَّ بها، وكان يشير إلى الكتب التي استعارها جانك ولم يعدها، مما دفع عدداً من المرضى إلى تدقيق محتويات حقائبهم وعدّ نقودهم، خشية أن تكون قد تعرضت للسرقة!

عند الظهر، حين عاد مانيس من قسم التحليل، وجد تحت سريره الكتب المستعارة، ومعها مجموعة من كتب جانك الخاصة، إضافة إلى رسالة قصيرة: «قال فيلسوف ساخر: أحمق مَن يعير كتاباً، لكن الأكثر حماقة مَن

يستعير كتاباً ويرده، وأنا، يا مانيس، الأحمق الأكبر في محيط من الأرض قدره مائتا ذراع طولاً ومثلها عرضاً، وها أنذا أعود، من جديد، إلى الحياة.
التوقيع: جانك: الذي يزداد جهلاً بعد قراءته لأي كتاب جديد!».

بعد أن عرفت هذه الواقعة ندم الذين أساؤوا الظن بجانك، ونفى الجميع علاقتهم بهذه الإشاعة! أكثر من ذلك لام الذين دققوا الحقائب أنفسهم، وقال واحد من هؤلاء: اميل جانك شديد الزهد، لا يفكر بالنقود ولا يعرفها».

وعند الغروب، في الحديقة، كان الجميع يتحدثون عن اميل جانك. فقد وجد مَن أكّد أن مسألة مغادرته للمستشفى كانت مقررة قبل أيام، لكن لم يشأ أن يعلن عنها «لئلا يواجه لحظة الوداع الصعبة» كما قال أحد المرضى؛ وقال عجوز لا يكنّ الود لجانك «لقد طرد صاحب الأفكار السوداء، لأنَّ المستشفى مكان للمرضى وليس نادياً للثرثارين!» وأكّد مانيس «ان جانك لم يكن طبيعياً في الأيام الأخيرة فقد كان منطوياً حزيناً، وحين صافحني أمس بدا وكأنّه يودّعني» وقال آخرون «إنه انتقل من مستشفى كارلوف إلى مستشفى آخر، لأنّه جاء مَن أبلغه بوصول أطباء جدد إلى ذلك المستشفى»!

ولم يتردد بعض المرضى في التندر على اميل جانك وإيراد القصص الطريفة والساخرة عنه. ومثل واحد منهم ـ بعد أن استعار قبعة تشبه قبعة جانك، ووضع كتاباً تحت إبطه ـ كيف كان جانك يتكلم وكيف يجيب عن الأسئلة! ورغم أن هذا المريض أضحك الجميع، إلاَّ أنه كان يتلفت باستمرار، خوف أن يظهر جانك فجأة! وبعد أن هدأ الصخب قال مريض عجوز «لا أحد منكم يعرف إميل جانك مثلما أعرفه، وأراهنكم أنه سيعود، لأنّه لا يطيق العالم خارج المستشفى، وليس له أحد هناك».

وأنا، هل ندمت بعد تلك الليلة، هل تغيّرت؟

لا أعرف، أو بالأحرى لست متأكداً، فقد اختلطت الأشياء بالنسبة لي إلى درجة لم أعد قادراً على التثبت أو التمييز.

فإميل جانك الذي كان يبدو لي «فيلسوف الغمام»، كما سميته مرة لطالع، وضحكنا طويلاً لهذه التسمية، خاصة بعد أن بدا شديد الحماس، وهو يتحدث عن «القوى الخفية» التي تدفع الطيور والأسماك إلى الهجرة من

مكان إلى آخر، رافضاً الأفكار والنظريات التي تفسر هذه الهجرة بدوافع البحث عن الغذاء والدفء، أو نتيجة النور وتغيّر المناخ، وكيف أصبحنا نتجنب هذا «الفيلسوف» ونبتعد عن الأماكن التي يكون فيها «لئلا نعلق في شباكه». . اميل جانك، وخلال فترة قصيرة، يتحول إلى شخص آخر مختلف، ثم إلى شخص ثالث، ثم إلى عدد من الشخصيات في آن واحد. . . ولا يمكن أن تحكم عليه أو تعطيه أوصافاً ثابتة ودقيقة، خاصة وأنه لا يحسن، أغلب الأحيان، التعبير عن الطيبة التي تملأه.

لو كان طالع موجوداً في ذلك المساء، ورأى الانفعال الذي غمر جانك وهو يترنم بأبيات طاغور، ثم الطريقة التي يسلمني تلك الوثيقة، وكأنّه يودع لدي كنزاً يريد مني أن أحرص عليه حتى آخر لحظة في حياتي، وأن أتمثل كل كلمة قالها، لو رآه طالع أو سمعه لما احتاج إلى دليل إضافي للتأكد من أهمية الكلمة ـ الفكرة، ومدى ما تتركه في الإنسان من آثار لا تزول بمرور الزمن.

والآن، بعد أن غاب، كيف بدأ يتحول بنظر «الأصدقاء» من فيلسوف وقديس إلى لص هارب، تُروى عنه النوادر والحكايات، ويتقمص البعض صوته وحركاته لكي يعيد تصويره من جديد!

قلت لنفسي، وقد ملأتني الكآبة: «رغم أن المرض يجعل الناس أكثر شفافية وأقرب إلى الصدق، إلاّ أن الخراب الذي يثوي في قلوب الكثيرين لا يمكن أن يزول بسهولة».

كنا، أنا ورادي، في الأيام التالية، نستعيد قراءة أبيات طاغور، وكنا نضيف ونعلّق، وكان يروي لي الأخبار التي يتناقلها المرضى عن جانك، خاصة بعد أن تأكّد الجميع أن جانك غادر المستشفى بطلب منه، وقد فعل ذلك «لكي أُفسح المجال لمريض آخر يحل مكاني بعد أن أتعبت نفسي وأتعبت الآخرين أيضاً. وأخذت من وقت الأطباء والممرضات الكثير وعلى حساب المرضى الحقيقيين، ولقد آن لي أن أُداوي أوهامي بنفسي» كما قرأ رادي في الكتاب الذي رفعه للإدارة.

في إحدى الأمسيات، بعد العشاء، جاء رادي لزيارتي، ولإعادة كتاب كان قد استعاره مني. ما كدنا نتبادل الحديث حتى مرّت الأُخت جوليا في جولتها المسائية، ولا أعرف لماذا كانت راغبة في الكلام ذلك المساء، ربما

لوجود رادي، وبالتالي إمكانية أن تعبّر عمّا يجول في خاطرها منذ فترة طويلة.

قالت، بعد أن جلست على كرسي مقابلنا، وكانت توجّه إليّ الكلام:

ـ لا يحق لي أن أتدخل في شؤونك الخاصة، كما لا أعرف ما يشغل بالك، ولكن من حقي، كممرضة، أن أُعبّر عن رأيي ومشاعري...

توقفت لتتيح لرادي أن يترجم، ويبدو أنها ندمت، أو اعتبرت هذا المدخل أوسع مما كانت تريد، إذ ارتسمت على وجهها تعابير حائرة، ثم طالت فترة الصمت بعد أن انتهى رادي من الترجمة. لما رأت عيوننا مشدودة إليها، قالت، وخرج صوتها حاداً:

ـ لا أعرف كيف تنظرون إلى الموت هناك، أو كيف تتعاملون معه، وقد يكون لكل إنسان موقف يختلف عن غيره، لكن أستطيع أن أُعطي نفسي الحق في أن أعتبر ما حدث لا يستحق كل هذا العناد، وأعتبر أن موقفكما، أنت والعريفي، خاطئ، فالأول قتل نفسه بشكل ما، وأنت تصرّ على أن تبقى مريضاً.

ترجم رادي بحماسة وقناعة، لما وجدته هكذا تابعت:

ـ جسد الإنسان مقدّس، وهو هبة من الله، ولذلك يجب أن لا نتعامل معه باستهتار أو بازدراء، لأنَّ مَن يستهتر بجسده أو يزدريه لا يُعتبر بالنسبة له أي شيء يستحق الاحترام أو مقدساً.

ارتبك رادي قليلاً، إذ أصبح أكثر بطئاً وهو ينتقي الكلمات المناسبة، وما كاد ينتهي حتى نظر إليها طالباً أن تتابع، لكي يكتشف ما وراء هذه الفلسفة، قالت بهدوء وهي تهزّ رأسها:

ـ إننا حين نتأمل الجسد نزداد قناعة أن الحياة تعني الكثير، وهي شديدة القوة والتناسق والجمال، وأن ما وهبناه، وربما بالصدفة، يجب أن نحرص عليه وأن نحترمه حتى اللحظة الأخيرة، وإلاّ كيف نفسر قدرة الإنسان على تحمل الصعوبات وتحدّي الأخطار، وقدرته على النهوض من جديد بعد كل سقوط؟

بدت لي الأُخت جوليا إنسانة مختلفة هذه الليلة. كنت أتصورها شديدة البساطة، ولا تعرف أكثر مما تعلمته في مدرسة التمريض أولاً، ثم ما إضافته لها خبرة الحياة بعد ذلك، وإذا كان لها رأي ففي الشؤون اليومية الصغيرة.

قلت لها بمداعبة لكسر الجدية المبالغ فيها، والتي تظهر في كلماتها وعلى ملامحها:

ـ يذكرني كلامك، يا سيدتي، بما قاله لي صديقٍ حين جاء المخبرون لاعتقاله، قال لهم، لما دفعوه بقوة في سيارة الجيب: «أحذركم أيُّها السادة، أنا لا أسمح لأي كان أن يلمس جسدي، لأنَّ جسد الإنسان مقدس، وهو ملك صاحبه فقط».

بعد أن ترجم رادي بدا الاستغراب، الأقرب إلى التساؤل، على وجهيهما. قلت وأنا أرفع نظري إلى السقف:

ـ يمكن أن تقول الأُخت جوليا ما قالته لإنسان غيري، لأنَّ الفلسفة التي أؤمِن بها تختلف عن ذلك كثيراً!

وظهر الاستغراب أكثر من قبل، تابعت بحدة:

ـ كانت مهمتنا، خلال سنوات طويلة، أن نهين أجسادنا، أن نروّضها لاحتمال أقسى أنواع العذاب، ولو فعلنا ما تريده الأُخت جوليا لما بقي واحد منا...

ضحكتُ بسخرية، وبعد فترة صمت، وهما يتطلعان إليّ ويتبادلان فيما بينهما النظرات، قلت:

ـ كنا نلعب معهم لعبة ماكرة، إذ بمقدار ما كانوا يريدون إيقاظ أجسادنا، ومحاولة استغلال يقظتها، كنا نحاول أن نُبقي هذه الأجساد نائمة ومحايدة!

قبل أن يترجم رادي ما قلته للأُخت جوليا استوضح عن معنى يقظة الجسد، أجبت بسخرية:

ـ يقظة الجسد معناها أن تستجيب له، أن تدلله وتحنو عليه...

وبعد قليل وكأنيّ أُخاطب نفسي:

ـ ممنوع عليك أن تشعر بالألم، بالضيق، بأي من الحاجات الفيزيولوجية، لأنَّ رهانك الوحيد، وربما الأخير، في مدى قدرتك على التحمّل والمقاومة، وهم لا يستطيعون الدخول عليك إلاّ من باب الجسد، ولذلك كنا نبذل كل جهدنا من أجل إغلاق هذا الباب!

ترجم رادي حرفياً، وبحذر، وكنت متأكداً أنهما لن يستطيعا استيعاب

ما قلت، لأنَّ اختلاف نظرتنا إلى الموضوع تجعلنا في حالة من الافتراق الكامل، وبالتالي تجعل حوارنا مستحيلاً. لم أُخطئ التقدير، قالت جوليا بألم وحيرة.

ـ لا أتصور أن أحداً يمكن أن ينظر إلى الجسد باحتقار أو يتعامل معه بقسوة..

واستدركت بحزن:

ـ إلاّ إذا كان شاذاً أو مجنوناً.

ومثل ليالٍ سابقة، ولأنَّ لدى رادي ما يقوله، فقد استغل لحظات الصمت التي طالت، وتوجّه إليّ بالكلام:

ـ الماضي هو الماضي، ومن الجنون أن يظل الإنسان أسيراً له، خاصة وأن الحياة لا تتوقف عن السير إلى الأمام، ولا بد من النظر إلى المستقبل أكثر من العيش في الماضي!

ترجم بسرعة واختصار للأُخت جوليا، لأنّه يريد أن يتابع:

ـ واعتقد أن من الأفضل أن نفكر بما يجب عمله اليوم وغداً من أن نفكر بأخطاء الماضي!

قاطعته بحدة:

ـ مَن يقرأ الماضي بطريقة خاطئة سوف يرى الحاضر والمستقبل بطريقة خاطئة أيضاً، ولذلك لا بدَّ أن نعرف ما حصل كي نتجنب وقوع الأخطاء مرة أخرى، ومن الغباء أن يدفع الإنسان ثمن الخطأ الواحد مرتين.

قالت جوليا، بعد أن ترجم لها ما قلته:

ـ الحياة، كما أتصورها، أكبر وأغنى من مجرد أخطاء سياسية، وأنتم الرجال تتوهمون القوة والتفوق في السياسة وحدها، ولذلك تتغاضون، أو لا ترون جوانب الحياة الأخرى، وربما الأكثر أهمية.

ابتسمتْ وتطلعت إلينا بمكر جميل، وكأنها تقول: كم أنتم ساذجون أيُّها الرجال، وأضافت بمرح:

ـ كم في الحياة من المسرات والجمال، ولأنَّها قريبة هكذا فإنَّ الكثيرين لا يرونها، أو لا يعرفون كيف يتمتعون بها، وحين يفطنون إلى ذلك يكون الوقت متأخراً، وكل شيء قد انتهى!

ربما كانت تريد أن تقول أشياء أخرى، لكن الجرس الذي طرق أسماعنا في تلك اللحظة، جعل الأُخت جوليا تتنبه وتنهض بسرعة، قالت وهي تغادر:

ـ سوف نجد وقتاً آخر لمتابعة الموضوع!

قلت لرادي، وربما شاب صوتي حزن لم أستطع أن أخفيه:

ـ أعرف أن في الحياة مسرات كثيرة ومتنوعة، ولا بد أن يتمتع بها الإنسان بدءاً من السيجارة الأولى مع قهوة الصباح، وانتهاءً بقدح الكونياك مع المرأة التي يحبها في الليل المتأخر، وبين المتعة الأولى والأخيرة، هناك كفاح الإنسان من أجل العيش والصداقة والشجاعة والمودة ومن أجل قيم يؤمن بها، وهي التي تعطي للحياة معنى، وهذا ما يجعل حياة الإنسان أكثر صدقاً وفائدة.

توقفتُ، زفرت بحرقة، ثم تابعت الاعتراف:

ـ لكن شرط هذا كله، يا عزيزي رادي، الاعتراف أولاً بالإنسان، وهذا الشرط لا وجود له في بلادنا، الآن، ولذلك فنحن لا نحس بهذه المتع، أو لا نعرف كيف نتمتع بها!

قال رادي، وهو يسحب نظراته بعيداً.

ـ قد تختلف شروطنا، وربما مطالبنا، لكني متفق تماماً مع جوليا، لأنَّ الجسد القوي هو إداتنا في الكفاح، وحتى في المتعة، ودون هذا الشرط فإنَّنا لا نستطيع شيئاً في هذه الحياة لا لأنفسنا ولا لغيرنا، ولذلك فهي تلحّ على الموضوع بأكثر من شكل، لكي تحرّض أقوى ما فيك من أجل أن يقاوم وتنهض!

ـ أقدّر دوافع جوليا، لكن المشكلة، كما تبدو لي، أكثر تعقيداً، لأنها تتجاوز الرغبة، وبعض الأحيان تتحدى الإرادة.

تنفست بعمق وأضفت كأنيّ أُخاطب نفسي:

ـ المشكلة أنني فقدت الثقة، وربما أحتاج إلى وقت طويل من أجل جمع الشظايا التي أصبحتها، ومحاولة معرفة ما يمكنني عمله..

وبعد قليل وأنا أبتسم:

ـ ولكن أعد نفسي، قبل أن أعد أي إنسان آخر، أن أُحاول، وأطول

رحلة، كما يقول الصينيون، تبدأ بخطوة، ولا بد أن أخطوها.

قال رادي، وهو يضرب كتفي بمودة:

ـ يجب أن تفعل.

وبعد قليل، وقد تغيّرت ملامحه:

ـ والمشكلة تعني كل واحد منا، وأنت تعرف أن لكل انسان، لكل شعب، مشاكله وهمومه، ومن الخطأ أو العبث أن نلقي همومنا على أكتاف الآخرين...

وانفرجت أساريره مرة أخرى، أضاف بمرح:

ـ ربما عرفتُ، من خلال مناقشاتنا، ومن خلال الترجمة، بعض مشاكلكم، وأصبحت قريباً منها، والسؤال الذي لا بدَّ أن أُوجهه إليك: إلى أي حد عرفت مشاكلنا وهمومنا؟ وهل تتصور أن مشاكلنا أقل من مشاكلكم؟

فوجئت بالسؤال، بدا لي غريباً وجاداً معاً. وبدا لي رادي إنساناً مهموماً، قلت، وكأنِّي أُخاطب نفسي:

ـ فعلاً.. لماذا لم أسأل نفسي هذا السؤال البسيط؟

ردَّ رادي، وهو يستعد للنهوض:

ـ إذا كنت راغباً ومستعداً، وتحتمل هموماً جديدة، فسوف نتحدث طويلاً عن هذه الهموم...

وبعد قليل وبمرح:

ـ طبيعي ليس في هذه الليلة!

وغرقت في تفكير مضطرب، وملأتني أسئلة لا أعرف لماذا أجّلتها طوال هذي الشهور!

ومرة أخرى ينفجر في داخلي السؤال المقصلة: لماذا أصبحت الأمور هكذا؟

. . . وأتذكّر تلك الليالي الطويلة: كنت أحشد إرادتي وأنا أرى عيونهم المحتقنة تطل عليّ مثل فوهات النار، وأسمع أصواتهم تهدر من كل مكان: «يجب أن تعترف» فأقول لنفسي: «الفرق بين الحياة والموت: لحظة؛ والفرق بين الصمود والسقوط: لحظة، ولا بدَّ أن أحتمل». وتمر تلك اللحظة الطويلة التي تصورتها بلا انتهاء، أعيشها كلها، وأتجاوزها أيضاً، وأبقى حياً وصامتاً. إلى أن تعبوا مني، فقالوا: هنا ستموت، ولم أمت. اجتزت الدهليز الطويل كله، كان أطول من طريق الصحراء، وكان أطول من احتمالهم. أخيراً تركوني أذهب لأموت في مكان بعيد، فهل أُحقق لهم هذه الأمنية الآن وأموت هنا؟

ومن بين الرماد، من الشظايا، أحس في داخلي شيئاً ينتفض، يصرخ: كن عنيداً كالثور، وافعل شيئاً غير أن تموت.

أتقلب عشرات المرات على الفراش. أدير الوسادة بكل الاتجاهات، أقول لنفسي بنحيب مكتوم: ولكن ماذا يمكن عمله الآن.. بعد الخراب الذي عمَّ كل شيء؟

وتمر الحياة الماضية مرة أخرى. تمر الأشرطة الرمادية ثم السوداء. أحس بالغصة ورغبة البكاء. أنهض. أتطلع إلى وجهي في المرآة. أرى الوجه مسكيناً، مخطوفاً، شديد الحزن، وفجأة يتطلع إليّ ويصرخ: «كن نفسك ولا

تكنّي» هكذا يدوي صوت طالع، وشيئاً فشيئاً يذوب الصوت ثم يأتي الصمت. وحين أتطلع إلى المرآة من جديد ينهرني بسخرية كاوية: «أنت ليس أنا، وأنا لست أنت، فانتبه». ويذوب الصوت ويطغى الصمت. أرتمي على الفراش متعباً، حائراً، موزعاً إلى نخالة من الأفكار.

ولأنَّ ليالي الصيف طويلة حارة فالهواء يتقلص ويتراجع، وفي نصف الظلمة تأخذ الأشكال والأصوات حيزاً شبحياً كتيماً، وكأنَّها توشك على العويل. أجمع نفسي في حالة من التحفز أقرب إلى الدفاع لمواجهة عدو لا بد أن ينقض في أية لحظة. تتداخل الأشكال، تتغير كل لحظة، أغمض عيني في محاولة للنوم، لكن ثقلاً يضغط على صدري، يجعلني منتبهاً، مشدوداً مثل وتر.

لم يكن عدّ أعمدة الهاتف في ذلك الطريق الصحراوي الطويل، ولا قطعان الماشية، ليجعلني قادراً على النوم. كما أن الغرق في الأعداد، وقد تجاوزت الألف، رغم الأخطاء المستمرة، ومعها الأمواج التي لا تتوقف، لم تكن كافية لإعادة ترتيب الأفكار والأحلام التي كانت تضجّ في رأسي وتنقر الصدغين، وكأنَّها الأزاميل، وهكذا تبقى العينان مفتوحتين حتى الصباح.

وإذا كانت ليالٍ سابقة تشبه الليلة سلمتني إلى الحمى، وطوّفت بي كل العالم، فقد انقضت هذه الليلة دون كوابيس ودون كمادات. وفي الصباح، حين مرّت الأُخت رادميلا، نظرت إليّ بخوف مشوب بالتساؤل، ولا بدَّ أنها قالت لنفسها «لا أحتمل أكثر مما احتملت دلع هذا الشرقي أو جنونه». لكن بعد أن قاست حرارتي، لمحتُ على وجهها ظل ابتسامة، ولما رأت كوبكا داخلاً وبيده باقة الزهر، يفترض أنها قالت: «وجه صديقك لا يعجبني هذا اليوم، يا كوبكا. فصلِّ معي من أجل أن لا تدهمه الحرارة» ولما ضحكت عينا كوبكا ونقل نظراته بين رادميلا والزهور، ثم استقرت في عيني، وكأنها ترجوني، فقد أضافت رادميلا «لا شك أن الزهور وضوء النهار وهؤلاء المرضى الذين لا يتوقفون عن الثرثرة، سوف يساعدونه على أن يستعيد حيويته بسرعة» اهتزَّ رأس كوبكا، وبدأ الجسد يغني بالموافقة والتأييد. تحركت رادميلا تريد الخروج، قالت لي عيناها قبل أن تغلق الباب «انتبه، لا اريد أي نوع من المتاعب، أتسمعني؟

وكويكا مثل كناري لا يهدأ ولا يتعب من الحركة، فعند الطاولة البعيدة، بعد أن ملأ اناء الزهور بالماء، وبخفة وبراعة، مع دندنات لحن شعبي، جعل يرتب الزهور؛ وبين لحظة وأخرى ينظر إليّ بطرف عينه ويسألني: ألا ترى كيف تتحدانا النباتات بجمالها وقوتها؟

بعد أن انتهى، وبطريقة لا تخلو من كبرياء وافتتان، ومثلما يفعل نبلاء عصور مضت وفرسانها، وهم يدعون السيدات لرقصة الفالس، حرّك جسده كله: مدّ يداً سخية جسورة إلى أمام، وأحكم الأخرى وراء ظهره، مشيراً إلى آنية الزهور. وبهدوء مثل نسمة، بدأ يتراجع ووجهه نحوي، وابتسامته تملأ الغرفة كلها. وكما يفعل كل مرة، وهو في اطار الباب، من الخارج، قال: إلى اللقاء مع زهور أخرى!

إنّها الحياة، هذه الزانية، التي لا تخلو قط من فتنة وطيبة وروعة!

ووجدت صوتي يهدر وتخرج الكلمات رغماً عنّي: وكم فيها من قسوة وخِسّه!

وأُحاول ترتيب الأشكال والأشياء والصور، لكن ما أكاد أُرتّب شيئاً أو أتصوّر شكلاً أو أستعيد صورة حتى يتزلزل كل شيء وينهار، تماماً مثل البيوت التي يبنيها الأطفال من رمال الشواطئ. أثبّت، للحظات، صورة كوبكا، لكن فجأة تشوّش عليها صورة الشهيري أو العطيوي، ثم تربكها تماماً. أستعيد صورة طالع، تأتيني عيناه الذكيتان، وابتسامته التي تجعلني ضعيفاً، وما أكاد آنس به حتى تهتز الصورة، ترتبك، ثم تنطفئ فجأة، ويعلو صراخ المساعد خليل: «والله لاخليك تتمنى الموت وما تحصّله!».

أنظر إلى الزهور، انظر إليها بإمعان، امتلئ عجباً لألوانها وعبقرية تكوينها، وحين تنتشي منها روحي، ويصل عبيرها إلى أقصى الرئتين، أشم فجأة رائحة البول المجنونة المتصاعدة على شكل أبخرة وصنان من ذلك الجحر الذي قضيت فيه أسابيع متوالية، وكانت تلك الرائحة، وحدها المخيمة ليل نهار.

أقترب. أبتعد، أحس في لحظات معينة أنه لا يزال في الوقت متسع لعمل شيء ما، لبداية جديدة، فأستجمع قواي، أتحفز، لكن فجأة ترتخي الساقان، وأشعر بالتخاذل. ترتج الذاكرة بالصور النازفة كالطوفان. أخبط

الهواء، أقول لنفسي بشراسة ذئب جريح: المهم الآن أن نخرج من هذا النفق، أن نداوي جروحنا لكي نستطيع مواصلة الرحلة، وهذا يتوقف على بقاء التنظيم وسلامة الخط؛ أمّا إذا سقط أحد أو تعب فيجب أن لا يتوقف الجمع، فالحياة تعلمنا أن كثيرين يمكن أن يتوقفوا، أن يسقطوا، لكن الحياة ذاتها لا تتوقف ولا تنتهي، وهذا ما سأظل أراهن عليه حتى آخر يوم من أيام العمر.

وحين أتقلب في الفراش، وأحس الألم أقول، وتخرج الكلمات من بين أسناني «. . . وانت، أيُّها الموت، ماذا لو أتيت؟ إنك، كما يقول يوناني ملعون: مجرد بغل، ولا بد أن أركبك لكي أصل إلى الجنة. لا يهم أن يكون المشوار قريباً أو بعيداً، الأكثر أهمية أن أتحداك، أن لا أخاف منك». ويشتد عصبي، أصبح حصاناً غير مروض، بشارة من تلك البشائر التي تتجاوز الخوف وتقف عند تخوم البركان.

وضاعت تلك الأيام. انزلقت بسرعة سمكة نهر جبلي. هربت كحلم، وحلّت مكانها سلحفاة بعين واحدة. جاءت الأيام السوداء، الطينية. وأقف الآن في مواجهة الحائط، فهل أكون دريئة الأباطرة الجدد؟ هل أدخل القفص بأوداج ديك مخصي؟

تتكاثف الصور وتتداخل، أشعر أني مقسوم إلى درجة التلاشي، لكن في مكان ما، لا أعرف أين، أشعر أن هناك شيئاً لا يزال يتحرك، وهذا الشيء هو الذي سينقذني، إنه جزيرة خضراء قريبة، وهو المركب الوثيق، وكأنّه فنار آلهة قديمة تنتظر مسافرين سيأتون من أمكنة قصية، وليست لديهم فرصة طويلة للانتظار أو التوقّف.

إلى جانبي أوراق طالع، أقرأ الأوراق وأُعيد قراءتها. حين تمتلئ روحي بالعذاب أتطلع إلى زهور كوبكا. أقترب منها كما يقترب العاشق. أنظر إلى الخضرة، التويجات، أتنشق بشغف العطر الذي لا يكف لحظة واحدة عن التدفق، وكأنّه مطر دائم، عطاء لا يعرف الهدوء. وأسأل كطفل: «وأنت يا كوبكا، يا نور العين وجسر المحبة، ماذا أستطيع أن أُقدّم لك مقابل هذا العطاء؟» ترتعش الزهور، تحتج، تتأوه بنزق وقد حزّها الألم.

وإذا غاب كوبكا تتراءى قبعة جانك، ومعها يدوي صوت طاغور:

«نعيش في هذا العالم حين نحبه» والحب بداية كل شيء، إذ من خلاله نفهم العالم، نتعاطف معه، رغم أن هذا العالم ليس مستوياً وليس هادئاً، وربما لا حاجة لأن يكون كذلك، كما قال جانك مرة. لقد «هرب جانك، ليس من المستشفى أو المرض، وإنما من القسوة والخداع والخسة، وأيضاً من تفاهات الناس الصغيرة».

وأنا كبندول الساعة أتراوح بين الأمل ولحظة الانفجار، خاصة بعد أن اكتشفت كم في هذا العالم من القسوة والنذالة.

الصور تتوالى كالأمطار التي تعقب العاصفة: سريعة، مزدحمة، والزمن الماضي نثار من الألم والأقمار الصغيرة، ثم ذلك الانتظار الذي لا ينتهي على أمل أن يكون الغد أحسن من يوم العذاب الذي نعيشه الآن، لكن ما أن يجيء الغد حتى يخلّف حسرة كاوية على الأيام التي مضت. ويصرخ العطيوي: «والله لاطلع حليب أُمّك من خشومك، يا ابن الحرام، إذا ما حكيت» ويصبح الصمت مرضي غير القابل للشفاء. وحين يرتخي الجسد، بعد أن أصبح كومة من اللحم المعجون بالدماء، أحس في مكان ما، معتم، لكنه حصين، راحة يولدها العناد. ومع الأنين ورائحة الدم وأحذية الذين يذهبون ويجيئون، وأصوات الأبواب التي تفتح، والصرخات التي تتوالى، أشعر أن الأشياء تساوت إلى درجة أن الحياة والموت شيء واحد. ويزول الخوف تماماً. يجن العطيوي، يصرخ: «والله لأخليك تحكي مثل العصفورة، يا ابن ستين كلب».

وتطل رادميلا. أنظر إليها بوقاحة الرفض. تهزّ رأسها لتتأكد. تقترب بمشية البطة المسنّة. تضع يدها على جبيني. تطمئن. تتكلم وحدها، تتكلم ببذاءة أو ربما بقسوة، هكذا يوحي جرس الكلمات. وجهها محايد، لكنه لا يخلو من نزق وبقايا تعب. تسألني بعينيها: كيف أنت الآن؟ أهز رأسي مثل ثور مسن دلالة العافية والرضا والشبع. تهز رأسها دلالة الفهم. نضحك كلانا، لكن لأسباب مختلفة!

ولأنّي انقطعت، مرة أخرى، عن الحديقة، فقد قال لي الدكتور ميلان ذات يوم:

ـ الفحوص السريرية تؤكّد أن وضعك أفضل من قبل، لكن يلزمك أن تتحرك، أن تمارس رياضة خفيفة.

وحين ابتسم ابتسامة تقع عند الحد الفاصل بين المكر والرضا، يضيف:
- الرياضة التي أقصدها لا تتعدى المشي في الحديقة، نصف ساعة في اليوم!

وفي محاولة لأن يخلق جواً من المرح، يلتفت في أنحاء الغرفة، ويقول:
- صحيح أن كوبكا حمل الحديقة إلى هنا، لكن الحديقة الأخرى، الهواء الطلق والناس والتمشي، ضرورية أيضاً.

وأخرج ولا أخرج، لأنَّ روحي شديدة العياء، وقلبي مثقل، والظروف التي تحيط بي تزداد تعقيداً. فالنكد الذي أخذ يزداد ويتكرر، أسبوعاً بعد آخر، منذ موت طالع، أصبح يجيء من الزوار. فهؤلاء الذين يفترض فيهم أن يخفّفوا عنّي أصبحوا همّاً فوق همّي، ثم أصبحوا مرضاً لا أعرف كيف أتخلص منه.

خلافات المقاهي والبارات، والتي تحولت بسرعة إلى معارك، لا بدَّ أن تصلني يوم الزيارة الأسبوعية إذا لم يستطع نقلها بين الزيارتين! كانوا ينقلونها بحماسة المبشرين، ويريدون منّي، ومن صديقاتهم أيضاً، أن نأخذ علماً، ثم أن نصبح شهوداً، وأخيراً أن نتحول إلى حكّام على صحة مواقفهم وما يقولون!

ولأنيّ تعلمت في السجن الصمت، وأتقنته كثيراً، كنت، في البداية، أستمع إليهم باهتمام، أو هكذا يبدو عليّ! والصمت، بالنسبة إليهم في المرحلة الأولى، ميزة لا تقدّر بثمن، إذ يريد كل واحد منهم مَن يستمع إليه بعد أن تعذّر وجود مثل هذا الشخص في المقاهي، واستحالته حين يبدأ السكر، إذ سرعان ما يتحوّل النقاش إلى دردشة مليئة بالهذيان: الكل يتكلم ولا أحد يسمع! ولذلك كنت صيداً ثميناً لهؤلاء المكتنزين بهذا الكم الهائل من الكلام. كانوا يجرّبون ألسنتهم كما تُجرّب الأسلحة في مناورة بالذخيرة الحية. وبعدما اطمأنوا لإصغائي، وامتحنوا وقائعهم والحجج التي سيدلون بها في مرافعاتهم من أجل دحر الخصوم، لا بدَّ أن يخطوا، زيارة بعد أخرى، خطوة إضافية إلى الأمام: أن أكون أول مَن يقتنع. أن أكون أول مَن يوافق. أن أستعد لدخول المعركة في وقت قريب!

ولأنيّ كنت خلال هذه الفترة فريسة لعذاب الحيرة وانكسار اليقين،

ولأنَّ شيئاً في داخلي تفتت وانمعس، وكان هذا الشيء أبيض شفافاً يشبه حنان الأم وشديد التماسك كالجسد، فقد شعرت أن العالم اسودّ وتحوّل إلى آلاف الشظايا، فامتلأت بالقهر والتعب، وهجمت عليّ أحزان لا أعرف أين كانت مختبئة، ولولا ذلك العناد الذي يلفّني كسياج، في أغلب الأحيان، لوجدت نفسي منتهياً.

قلت لنفسي، وأنا أستعيد دوي المعارك التي تدور حولي: «إذا كان لا بدَّ من معركة فيجب ألاّ تكون مستشفى كارلوف ساحتها، ولا براغ مكانها، ففي موران وعمورية، وفي الأرض العربية الشاسعة، من الأمكنة والبشر ما يكفي لخوض المعركة هناك! وهؤلاء الذين يحملون أوهامهم، ويتجولون بها من مطار إلى آخر، ويعرضونها في السهرات، وكأنّها بضاعة مهرّبة، ويتصورون أن بضع شتائم تكفي لكسب الحرب أو تصنع مجداً، مثل هؤلاء يجب أن أتخلص منهم دون رحمة».

قلت لهم: إذا جئتم مرة أخرى لزيارتي، فتعالوا خفافاً لطافاً، وبعد أن تتركوا خلافاتكم خارج أبواب المستشفى.

وهكذا، بعد أن كان الصمت السلاح الذي أُواجه به العالم الخارجي، اكتشفت بمرور الأيام تآكل هذا السلاح وعدم جدواه، لأنَّ الصمت إذا كان ذا دلالة، ويعني موافقة أو رضا في وقت سابق، فلم يعد يكفي هؤلاء «المحاربين». ولذلك لجأت إلى الطريقة الثانية: إلى السخرية التي لا تخلو من وقاحة. وتبينّ لي أن هذه الطريقة شديدة الأثر وفعّالة جداً! فقد بدأت زيارة «المحاربين» تتباعد وتقل، إلى أن جاءت أسابيع لم أر أحداً منهم!

في البداية، في الأسبوع الأول، قلت لنفسي: «نوم الظالم رحمة». وبدأت أعيد مراجعة حياتي كلها بعيداً عن المؤثرات الآتية المتلاحقة. قرأت. حزنت. ندمت. قلت لنفسي: كم كنا أغبياء وجبناء خلال فترات طويلة سابقة. وتأكّدت لدي هذه القناعة أكثر وأنا أستعيد ليس فقط الأخطاء التي وقعت، وإنما معها المبررات التي كانت تساق والحجج التي تقدم. قلت لنفسي بأسى: «لا يكفي في العمل السياسي أن يكون الإنسان صادقاً ومتفانياً، خاصة في جو الكهانة، والذي انتقل من الأديرة النائية إلى التنظيمات السرية. فحين تغيب الحرية في القول والاختيار، وحين يتم التستّر

على كل شيء، خاصة الأخطاء، بحجة حماية التنظيم، ولعدم تمكين الأعداء، فعندئذ من الأفضل، بل الأهم، أن يكون الإنسان ماكراً بارعاً وأقرب إلى النفاق، خاصة مع مَن هم أكبر منه موقعاً، ومع مَن هم أقوى! أما إذا كانت الطيبة سلاح المناضل، فإنّها في حالات كثيرة تدل على الغفلة وسوء التقدير، وعدم معرفة القوانين الحقيقية التي تحرك الأشخاص وتتحكم بالسياسة والدول».

لم أصل إلى نتيجة مرضية. أصابني الغم. قلت لنفسي: «الله كم كنت حماراً!» ابتسمت. اهتزّ رأسي كاهتزاز رأس الحرذون. تابعت بسخرية: «وكيف يجرؤ هؤلاء الأوغاد على إطلاق مثل هذه الصفات على مخلوقات الله الطيبة؟ ولماذا نظلم الحمير بهذا المقدار؟» أجبت نفسي، وقد تملكني المرح: «لا بدَّ من إعادة النظر في أشياء كثيرة، وفي مقدمتها قاموس الشتائم السياسية، وكيفية إعطاء الأوصاف والألقاب والنياشين».

في أسبوع لاحق زارني عماد الأشهب. بعد أن حيّاني بمودة، فرك يديه، ابتسم، قال: «الطقس حار». هززت رأسي موافقاً. تطلع حواليه بنظرة دائرية أَمنية. سألني عن صحتي، لم ينتظر الجواب، زم نفسه كعرنوس الذرة، تطلع إليّ بحزم محقق، وخرج صوته صارماً!

ـ ليس على الرسول إلاّ البلاغ. .

صمتُّ وتطلعت إليه لأقرأ الرسالة قبل أن يتلوها كما تتلا كلمات تلقين الموتى. تابع بحرج:

ـ طلب إليّ الرفاق أن أتصل بك لأعرف موقفك، يجب أن تحدد موقفك!

وبعد قليل وهو ينظر إلى الأرض، وكأنّه يبحث عن شيء، أضاف وهو مطرق:

ـ لأنَّ على ضوء الموقف سوف تتحدد أمور كثيرة، ولا حاجة للدخول في التفاصيل!

تطلعت إليه وأنا أبتسم. شعر بالحرج أكثر من قبل. رفع رأسه، سحب نظراته بعيداً. ساد بيننا صمت ثقيل. نظر إليّ من جديد متسائلاً. قلت وقد ملأتني السخرية:

ـ قل لهم، يا عماد، إنني في هذه الفترة أعد النجوم وأرعى الغيوم، وليس لدي وقت لأي شي آخر!

وحين أبدى استغرابه أضفت:

ـ قال حكيم قديم «إن الحاضر لا يعنيني، أمّا المستقبل فيحزنني غاية الحزن، لأنّي أرى فيه اشتعال الكون ودماره، وهذا ما يهيب بي لأن أتحسّر وأنتحب. إني لأذرف الدمع غزيراً لعدم رؤيتي أي شيء ثابت، فكل شيء متداخل بعضه في بعض، فاللذة تختلط بالألم، والمعرفة تمتزج بالجهل، والكبير بالصغير، والرفيع بالوضيع، وإنها لحلقة لا تبرح شخوصها تتعاقب في لعبة الزمن»(*)..

وبعد قليل، وقد أصابني الغم:

ـ هذا ما يشغلني يا عماد، وأتمنى أن يشغلك أيضاً، فإذا لم تفهم هذا الدرس جيداً، والآن، فلن نستطيع مساعدة أحد، والأفضل أن ننزوي ونصمت!

وعلى مدى عدة أسابيع لاحقة لم يأت أحد لزيارتي!

شعرت، في البداية، بالراحة، فلن أصدع رأسي، بعد الآن، بالهراء الذي يدور، ولن أكون طرفاً في خصومات وهمية، المنتصر فيها كالمهزوم.

ورغم الأخبار القليلة والمتباعدة من الوطن، وكانت تتراوح بين النقيضين، فقد بقي الأمل أن يتحكم العقل وأن تتراجع الأنانية، لكن أملاً مثل هذا كان يخبو فترة بعد أخرى، وظلت المعارك هنا، وربما في أماكن أخرى، تزداد حدة وعنفاً لاقتسام «التنظيم»، والمناصب والأفراد، ومعها حروب البيانات والاتهامات. وتأكدت أكثر من قبل أن هزائم جديدة تنتظرنا، طالما لم نعرف كيف نفهم بعضنا، ولم نستطع أن نحتمل خلافاتنا أو نتوصل إلى حلها، خاصة واننا، في مراحل معينة، ارتضينا أن يكون الحكم بيننا خصومنا!

قلت لنفسي بنوع من اليأس: «هذا النمط من التفكير والتنظيم هو

(*) هراقليط، لوقيانس، من «مذاهب في المزاد»، ترجمة سعد صائب ومفيد عرنوق ـ ص 94 دار الرشيد، بغداد 1979.

امتداد للعصور السابقة أكثر مما هو للمستقبل!» وانصرفت للقراءة والتأمل.. وأيضاً للمراجعة وانتظار شيء ما.

كانت أوراق طالع موجعة، نازفة، قلت لنفسي: «لا بدَّ من نشرها» أطلّ عليّ بعينيه الضاحكتين والحازمتين معاً وقال: «مَن تكون حتى تقرر نيابة عنّي؟» قلت له «انتبه أيها الرجل، أنت لم تعد موجوداً، كان يمكن أن تقول لا أو نعم حتى ذلك الأربعاء، وبعدما انقضى ذلك اليوم، أصبحت ملكاً مشاعاً، ومثلما فقدت قدرتك على التحكم بجسدك فقدت، في نفس اللحظة، الحق في التدخل بشؤون الأحياء، لأنَّ هؤلاء وحدهم يقررون ما يناسبهم. وأوراقك، الآن، تحت يدي، ويمكن أن أفعل بها ما أشاء» قال بصوت مشروخ: «ولكنني أودعتها أمانة لديك، واحتفظت لنفسي، لرفاقي، بحق التصرّف بها، ويجب أن تكون أميناً وتعرف الحدود»! قلت وأنا أضحك «لم يمت ضميري بعد، يا طالع، ولن أجعل منك سلعة مهما كانت الظروف. لكن يجب أن تعرف: الاكتشافات، الإبداعات، وأيضاً التجارب، رغم صلتها بالذين أبدعوها أو حققوها فإنَّها تصبح ملك الآخرين بمجرد أن تتعدى أجساد أصحابها». قال لي، وهو يهز رأسه: «اسمع، لن أستطيع منعك، وما تعتبره تجربة، أنت تعرف في أية ظروف كتبت، ولهذا السبب بالذات أعتقد أنها لا تستحق التوقف، ومع ذلك فإنَّ المسألة التي تؤرقني إلى أقصى حد: كيف يمكن أن ندمر السجون، نعم كيف يمكن أن ندمرها؟ وكيف نستطيع أن نخلق نظاماً وإنساناً يؤمنان فعلاً بالحرية؟ هذه هي المسألة التي تستحق العناء!» قلت له وأنا أُشدّد على مخارج الحروف: «أعذرك، يا عزيزي الذي غاب إلى الأبد، فأنت، ربما، لا تعرفني كما عرفتك، وقد تعمقت هذه المعرفة أكثر حين قرأت ما كتبته، ولذلك أريدك أن تتأكد من شيء واحد: إذا خنت نفسي أخونك يا طالع، هذا ما أستطيع قوله». ردَّ بحدة مشوبة بالخوف: «لا أتحدث هنا عن الوفاء والخيانة، فهذه الأمور بالنهاية قيم شخصية، أي أنها متعلقة بالأشخاص أكثر مما هي متعلقة بالظروف والوقائع، وما يهمني تماماً أن يتطابق الصوت مع الحركة، الشعار مع الموقف، وإلاَّ أصبحنا متآمرين من حيث لا نريد». رددت بحدة «اسمع يا طالع، رغم قناعتي بحرية الآخرين، إلاَّ أن المقياس الحقيقي: هو الأحياء

وليس الموتى، وأنت الآن، رغم أن هذا يحز بقلبي ويشطره إلى نصفين، لا يحق لك أن تدلي بأي قول، لأنك لم تعد موجوداً». نظر إليّ بمرارة وقال بحدة: «إنك لا تترك عاداتك أبداً، فأنت، بلباقة، وربما بمكر، تريد أن تسلب الآخرين حقهم في الحرية، وتحاول ذلك من خلال أفكار تعتبرها نهائية، وهذا أكثر ما يزعجني فيك، فاتركني أتنفس، أتكلم كما أريد!» صرخت بحدة «طالع، يا عزيزي، آن لك أن تذهب لتستريح، فالأحياء أقدر منك، الآن، على حل مشاكلهم». وغاب وجه طالع.

لكن عشرات الوجوه القديمة طلعت. كنت أتأملها بكثير من الصبر، وأُحاول أن أستعيد الكلمات والمواقف.. ثم النتائج.. أصرخ بحدة: «هل يمكن أن يكون الإنسان مغفلاً بهذا المقدار؟ لماذا كنا بسطاء إلى هذه الدرجة؟ ولماذا كنا جبناء بحيث لم نستطع أن نقول كلمتنا في الوقت المناسب؟».

وتملأني أفكار ومشاعر تحيرني، لا أعرف كيف أصنفها، أن أعطيها أوصافاً معينة. ليست الغبطة، ولا الرضا. ولا تمتّ إلى القناعة، كما أنها تختلف عن الضرورة، وليس لها أية صلة بالتقدير الخاطئ أو المعلومات الخاطئة، أو نتيجة عدم توفر المعلومات. إنها، بشكل مختصر: الغباء والجبن.

كنا أغبياء وجبناء، وكانوا أذكياء وجبابرة. تنازلنا عن حقوقنا، طواعية، وكانوا اذكياء في أن يضعوا أيديهم على أي شيء ليس له مالك، وهكذا أصبحنا في وضع غير متكافئ، ليس من حيث الملكية، وإنما من حيث معرفة ما لنا وما لهم، والجهل هو دائماً الوجه الآخر للعبودية، ولذلك انتهينا إلى الوضع الذي وصلنا إليه!

ورغم الراحة لانقطاع زياراتهم، والقناعات التي توصلت اليها، بدأت أفتقدهم وأشعر بحنين إليهم. وفي محاولة لتبرير هذه المشاعر، كنت أقول لنفسي، «الجنة بلا ناس لا تُداس، هكذا قالوا الذين سبقونا، ولذلك لا بد من الاتصال بهم لكي أعرف الأخبار» وترتسم على شفتي ابتسامة، وأتذكر خلافي مع طالع الذي لا يعترف إلاً بالكلمة المقروءة، وأن يرى الأشياء والأشخاص بعينيه ليتأكد. وأتذكر كم ناكدته، فأنا اعتبر متابعة الأخبار من الراديو الوسيلة الحقيقية، أما جمعها من خلال الأفواه والأفراد فإنّها مضيعة للوقت، ولهذا ما برح الراديو يئز، وحتى ساعة متأخرة من الليل في غرفتي.

لقد صدف أن جاءت أكثر من مرة الأُخت جوليا، ووجدته مفتوحاً ووجدتني نائماً، وما تكاد تغلقه حتى أفتح عيني. قالت لي مرة، ورادي يترجم:

ـ حسب معلوماتي إن أغلب الناس لا يستطيعون النوم إذا كانت هناك ضجة، وأنت يغادرك النوم إذا خيّم الصمت. .

ابتسمت وهزّت رأسها عدة مرات، ثم تابعت:

ـ لا أعرف ماذا تنتظر، لكن وأنا أراقبك تتابع الراديو بهذا الاهتمام، أتصور أنك تتوقع شيئاً ما بين لحظة وأخرى، هل أنا مخطئة؟

قلت، وكنت أوجه الحديث لرادي واعنيه:

ـ المسألة لا تتعلق بالخطأ والصواب، وإنما تتعلق بهذا الشرق المليء بالاحتمالات، إنه ومنذ سنوات طويلة، علّمنا على المفاجآت. قد لا تكون المفاجآت سارة، ولكنها تدلّ أن شيئاً ما لا يزال حياً ويتحرك، وهذا ما أريد أن أتأكد من استمراره، لأنّه رهاني الأخير.

بعد أن ترجم رادي، وحاول أن يختار عباراته بعناية، قدّرت هذا من الشروح الإضافية التي قدّمها لجوليا، سألني:

ـ وأية مفاجآت تنتظر؟

ـ لا أنتظر مفاجآت من أي نوع!

ارتد إلى الخلف، إذ شعر أني أسخر منه. تطلع بتساؤل، فتابعت:

ـ الذي يزرع قمحاً يحصد قمحاً، والذي يزرع شعيراً يحصد الشعير، أمّا مَن يزرع الريح فلا بد أن يحصد العاصفة!

راقت لي هذه العبارة الشاعرية، لكنها لم ترق لرادي، أمّا الأخت جوليا فقد تحرّكت، لكن قبل أن تترك الغرفة قالت:

ـ كثيراً ما يتحارب الرجال، والذكور عموماً، دون أن يعرفوا لماذا، ربما لأنَّ في داخلهم قوة فائضة أو لأنّهم مجانين، وهذه هي السياسة التي يغرق فيها الرجال أينما كانوا، ويتوهمون أنهم يقومون بعمل هام، ولذلك عليّ أن انسحب!

بعد أن غادرت جوليا، كان لدي الكثير لأقوله لرادي، لكن لا أعرف لماذا وجدت نفسي أختصر، وأجعل الحديث خفيفاً سريعاً، وحين امتدت يدي إلى مؤشر الراديو، ابتسم ونهض. قال، وبدا صوته بين الحزن والقلق:

ـ لا بدَّ أن أتركك الآن، لعل المفاجأة التي تنتظرها يحملها إليك الراديو. . تنفس بعمق، وخرج صوته مختلفاً:

ـ أمَّا المفاجأة التي انتظرها فلا بد أن أُساهم بصنعها!

وقبل أن أنام تلك الليلة اتصلت، هاتفياً، بعماد الأشهب، كان صوته على الجانب الآخر، رخواً، وقد امتلأ بالفجوات، نتيجة السكر. حين عرفني ضحك بنشوة، وحين قلت له إنني أنتظر زيارته في أقرب فرصة، قال بصخب:

ـ لولا أن المستشفى بعيدة، والوقت متأخر، لجئت فوراً!

ـ ليس الأمر بهذه الأهمية. . والشوق هو الذي دفعني للاتصال، وأيضاً للاطمئنان. .

وبعد لحظات صمت طويلة، سألته:

ـ ما هي أخبار الوطن يا عماد؟

ـ زفت، من سيّئ إلى أسوأ.

ـ طيب. . بسيطة، عندما تزورني سنتحدث!

لم يأتِ عماد الأشهب يوم الزيارة الأسبوعية، جاء ثلاثة غيره: زكي وصادق وأحمد، كردينال واثنان من الأساقفة، كان ينقصهم فقط الشماس الذي يفترض أن يمشي في المقدمة حاملاً المجمرة والماء المقدس، إعلاناً عن بدء الاحتفال؛ فالثمرة قد نضجت ولا بد أن تسقط في أحضانهم، ولذلك يجب أن يكون هذا المستوى من التنظيم مَن يستقبل الابن الضال، ومَن يتلقى اعترافه.. ثم يهبه الغفران.

وأنا أستعد لهذه الزيارة تذكّرت الثلاثة الذين جاؤوا لزيارة طالع في ذلك الأحد الحزين.. قلت لنفسي: «لن أكون مثل طالع لأني سأجعل بغل الله الذي سينقلني إلى الجنة ينتظر طويلاً، وينتظر إلى أن يقتله الملل».

ومن باب السخرية انتقيت من بين الكتب القليلة التي عندي: محاورات لوقيانوس. كان هذا الاختيار مرتبطاً بعماد، لأنّي أريد أن أقرأ له بعض الفقرات لأشعره كم نحن مخدوعون ومغرر بهم.

الصدفة، ربما، دفعت ثلاثة آخرين غير عماد. وربما حصل ذلك، مثل مرات كثيرة سابقة، نتيجة الإصرار الذي لا يتردّد عماد في التشبث به: «العطلة مقدسة، يا رفاق، ولذلك أعتذر عن أية التزامات أيام العطل» فإذا كان الجو مرحاً، أو يحتمل، فعندئذ يبتسم ويضيف: «والأعياد وبعض المناسبات!».

ويعرف الجميع أسباب اعتذار عماد، ويحسدونه أيضاً، خاصة بعد أن «وضع يده» على سفيتلانا، تلك الغزالة الريفية غير المروضة، والتي تأتيه بعد

ظهر كل سبت من مسافة مائة وثلاثين كيلومتراً، لتقضي معه ليلة السبت ويوم الأحد، لأنَّ عليها أن تأخذ قطار السابعة وتعود من حيث أتت، ولتغيب أيام الأسبوع الأخرى تاركة له كل الحرية. عماد وهو يصر على قداسة العطلة الأسبوعية، ويرفض، أو يحاول التملص من أية مهمات أثناءها، لا يتردد في اصطحاب سفيتلانا معه إذا اضطر للقيام بمهمة! يفعل ذلك بتواضع زائف، مما جعل خليل الحاج اسماعيل يصرخ في وجهه:

ـ يا سيدنا.. إذا قال روكفلر أو مورجان أن العطلة مقدّسة فعلى العين والراس، لأنَّ الجماعة يقدّسون العمل، وهم كالنحل لا يهدأون لحظة طوال أيام الأسبوع، أمّا أنت فإنّك مثل الشرطي العموري، إذا أخذ إجازته فإنّه لا يفعل شيئاً إلاّ الجلوس على باب المخفر! وأنت، أولاً، فاضي، لا شغل ولا عمل، وثانياً، إذا راحت سفيتلانا عندك بدلها عشر، ولا أدري لماذا تتشبث بهذا الموقف العقائدي.

ينظر عماد إلى مثل هذه التعليقات بسخرية أو بعدم اهتمام، وبعض الأحيان يرد بمداعبات مليئة بالتحدّي. هذه المرة يختلف الأمر، إذ بعد أن أبلغ مسؤوله عن الاتصال الهاتفي تلك الليلة، ورغم أنه غير راغب، أو غير متحمس للقيام بالزيارة، فلا بدَّ أن يكسب جزءاً من الثناء وربما الثواب.

وهكذا جاء الثلاثة الآخرون.

لأول وهلة شعرت بالارتباك.

كنت تحت شجرة اكاسيا أقلب محاورات لوقيانوس. رأيتهم وهم يدخلون إلى الحديقة. لم أتوقعهم. فزكي الغائب الحاضر دائماً، لم أره إلاّ لفترة دقائق في اليوم الثاني لوصولي إلى براغ، وأثناء إجراء المعاملات من أجل دخولي إلى المستشفى. وفي المرات التي سألت عنه، باعتباره المسؤول الذي طُلب مني أن أُراجعه حول كل صغيرة وكبيرة، تلقيت إجابات غامضة: السفر، الانشغال، التحضير للمؤتمر. وتصلني، بعض الأحيان، تحياته ووعد بالزيارة في وقت قريب. ها هو الآن يتقدم، بنصف خطوة، أحمد وصادق، وقد وضع على رأسه بيريه للتخفي!

لبضع ثوان، وهم يسيرون نحوي، بعد أن جالوا نظراتهم بإمعان لاكتشاف مكاني، تظاهرت أني مستغرق في الكتاب. حين وقفوا قريباً مني،

وبعد أن رفعت رأسي، والتقت العيون، رأيت فيضاً من الفرح، عبرت عنه الابتسامات الواسعة، مع حركات، جعلت زكي ينزع البيريه ويتقدم بلهفة:

ـ الحمد لله على السلامة، رفيق!

القُبَل والأشواق أكثر ما تكون من زكي، ورغم أني رأيت أحمد وصادق أكثر من مرة، فقد كانا أكثر تحفظاً. لم يترك زكي مجالاً للصمت:

ـ كنا نتابع أخبار صحتك، عن طريق الرفاق، وعن طريق إدارة المستشفى، خطوة خطوة، وكنا مسرورين أن التقدم مستمر والتقارير مرضية!

لم أجب، نظرت إليه، وإلى الآخرين، بهدوء، أقرب إلى البرود، وهززت رأسي، دلالة الرضى والموافقة. آذته هذه الطريقة في الإجابة. تابع بحماس:

ـ كنت أطلب من الرفاق أن يذكّروني بيوم الزيارة، لكي أتأكّد بنفسي، لكن أنت تعرف الظروف الراهنة.

ضحك بصخب وتوجه نحو الآخرين:

ـ تتذكر صادق.. منذ أكثر من شهرين وأنا أقول لنفسي: لازم أشوف صادق، ولازم نقعد ونسولف.. لكن.. وأنت، أحمد، متى آخر مرة تلاقينا؟

ولم يبقَ أحد منا، وباعتباري معنياً، إلاّ وقدّر ظروف الآخرين، وحاول أن يلتمس عذراً أو تفسيراً..

وقيلت أشياء كثيرة حول كيفية النظر أو التعامل مع الزمن بشكل مختلف، وأن نترك المجاملات والشكليات، «لأنَّ من جملة الأخطاء التي وقعنا فيها خلال الفترة الماضية خضوعنا لمثل هذه الاعتبارات!» هكذا قال أحمد، وكان مقطباً!

بعد أسئلة، لا تخلو من اهتمام، عن الصحة، وكيف أستجيب للمعالجة، ورأيي بالمستشفى والأطباء، قال زكي بثقة:

ـ المعالجة هنا تعتمد على ثلاثة خطوط أساسية ومتلازمة: خط الثقة، وهو نتيجة المعرفة، والعلاقة بين الطبيب والمريض، وهي تقاليد معروفة في هذه البلاد، لأنَّ الثقة أساس العلاج؛ والخط الثاني، تكوين ملف كامل عن المريض، عضوياً ونفسياً، لاعتقادهم أن المرض، أي مرض، لا يمكن أن

يكون له سبب عضوي أو طارئ فقط، وباعتبار أن الكثيرين درسوا في النمسا، فقد تأثروا بنظريات علم النفس. أمّا الخط الثالث فهو العلاج الحديث بكل ما تعنيه هذه الكلمة!

وافقنا على أقوال زكي، ولكي لا يترك مجالاً للتساؤل، أضاف بمرح ومعرفة:

ـ مستشفى كارلوف من أحسن مستشفيات أوروبا، ومعروفة على نطاق واسع، وخَدَمَ فيها عدد من كبار الأطباء!

وبعد أن جال بنظره، ووقف في بعض اللحظات، لتكون نظرته شاملة، وبعد أن سأل عن بعض الأقسام، وبدون تمهيد سألني عن الكتاب الذي أقرأ فيه.

قلت بهدوء، وربما بعدم اهتمام:

ـ كتاب لكاتب قديم، اسمه لوقيانوس، كانت الحرية أعز صديق له، وكان يقول باعتزاز: «هؤلاء المهرّجون والدجّالون الجهال الذين خُلقوا ليزحفوا على بطونهم، وولدوا للذل، وعاشوا للهوان، وفطموا على المسكنة، إذا استطاع هؤلاء أن يتخلصوا من هذا العمل المشين، فلن يجدوا لأنفسهم أي عمل آخر، لأنهم لن يصلحوا لسواه، وبذلك يصبحون عاطلين مدى العمر».

نظرت إلى زكي وأنا أبتسم لأقرأ أثر هذه الكلمات. ابتسم بدوره وتطلّع إلي، تابعت: «وهو كاتب ساخر، الحقيقة بالنسبة له أهم من أي شيء آخر، ولذلك يحاول أن يكتشف الزيف والمظاهر والنفاق، ولا يتردد في تسمية الأشياء بأسمائها مهما بدت قاسية أو تخدش الحياء العام..»

توقفت لحظة، هززت رأسي دلالة الاقتناع، وكان الصمت قوياً، فأضفت:

ـ والغريب أن موضوعاته، طريقته في التعبير، وأيضاً كلماته، تكاد تكون معاصرة، حتى ليظن الإنسان أن في الأمر ما يشبه الحيلة، وأن كاتباً معاصراً يتخفّى وراء هذا الكاتب القديم الذي عاش قبل أكثر من ألف وثمانمائة سنة..

وبعد قليل وبسخرية:

ـ أو ربما لم تتغير الحياة، ولم يتغير البشر، منذ أيام لوقيانوس حتى يومنا الراهن!

ـ الغريب أنني لم أقرأ لهذا الكاتب!

هكذا قال زكي، وكان يمد يده طالباً أن يرى الكتاب، ولأنِّي طويت بعض الصفحات، ليسهل الرجوع إليها، فقد توقف زكي عند بعضها، وقرأ لنفسه، وكان يقرأ للآخرين أيضا:

ـ «ما دمتم قد انتويتم مصرّين على قتلي، وإذا لم تتضح أية وسيلة لأفلت من قبضتكم، تعالوا، أجيبوني، على الأقل، مَن أنتم، وأي شر مستطير ألحقته بكم، فدفعكم إلى هذا الغيظ، أو أثار فيكم هذا الغضب الذي اشتدت سورته فحملكم على القبض عليّ وتقديمي للموت».

وفتح صفحة أخرى وقرأ:

ـ «ديوجين إذا جعلتك مريداً لي سأبدأ بأن أنزع عنك تراخيك، وأضمك إلى الفقراء، وألبسك ثوباً زرياً، ومن ثم فإنِّي سأقسرك على العمل والتعب، وسأضطرك إلى النوم الخشن، وشرب الماء، وأكل ما يقع بين يديك، أمَّا الثراء فإن كنت على نصيب منه فإنِّي أنصح لك أن تلقي به من توّك في اليم، ولن تهتم البتة بامرأة أو ولد أو وطن...

ضحك زكي وقال بصخب:

ـ لا.. هذي الأخيرة كبيرة، لأنَّ الإنسان بلا وطن ما يسوي فلسين، ومع ذلك خلنا نشوف التالي:

«.. لأنَّ كل ذلك سيغدو بالنسبة إليك لغواً وعبثاً، وستهجر بيت أبيك الذي نشأت فيه، لتمضي فتسكن رمساً أو برجاً صغيراً مهجوراً أو برميلاً، وستملأ جعبتك دوماً وأبداً بالترمس والكتب المطبوعة على الظهر، فإذا ما بلغت هذه الحال فستزهو بأنك أكثر سعادة وهناء من ملك عظيم، وإذا جلدوك أو آذوك أو نكّلوا بك تنكيلاً فثق بأنَّ لا شيء من كل ذلك يؤذيك أو يؤلمك».

توقف، صمت. هزَّ رأسه أكثر من مرة وبعد فترة من الحيرة والارتباك قال وكأنَّه يخاطب نفسه:

ـ تحليل صحيح، لكن النتائج خاطئة..

وبعد قليل، وكان يتوجه إلينا بالحديث:
ـ لو ربط هذه المعاناة بقضية ملموسة لكان أكثر إقناعاً.
وضحك في محاولة لأن يغير الجو:
ـ على كلٍّ، لازم الواحد يطّلع على الكتاب بدقة قبل أن يحكم!
والتفت إلى أحمد، وقال له بلهجة أقرب إلى الأمر:
ـ سجل، رفيق أحمد، اسم الكتاب، واطلب لنا نسخة أو اثنتين!
قلت بمكر:
ـ يمكنني أن أعيره أو أتنازل عنه.
ـ لا. . لا رفيق، واجبنا نحن أن نزوّدك بالكتب، لا أن نأخذ الكتب الموجودة عندك!
وساد بيننا، من جديد، الصمت الذي يسبق الحديث الجدي.
بعد فترة، لا أدري كم طالت، قال زكي:
ـ رفيق. . نحن جئنا لزيارتك أولاً، ولبحث بعض الموضوعات ثانياً، والذي شجعنا أكثر اتصالك الهاتفي مع الرفيق عماد. .
هززت رأسي موافقاً، تابع دون انتظار:
ـ كان بودنا ألاّ تحصل فجوة بالعلاقة، خاصة في هذه الظروف الخطيرة، لكن يبدو أنك كنت ميالاً لعدم تحديد موقف، أو هذا ما أبلغنا به الرفيق عماد. . ونحن، بسبب تقديرنا لوضعك الصحّي، لم نشأ أن نلحّ، أو أن نضغط. .
وبعد أن أخذ نفساً عميقاً، وغيّر قليلاً جلسته، أضاف:
ـ ولا بد أنك راجعت نفسك وراجعت المواقف خلال الفترة الماضية، وأنا متأكد أنك توصلت إلى النتيجة الصحيحة!
واقترب مني، طوّقني وشدّ على كتفي، وتابع بلهجة ودية تماماً:
ـ لا تعرف كم نقدر تضحياتك وصمودك يا رفيق، وهذا موضع اعتزازنا؛ وأنا، منذ سنوات طويلة، وعلى البعد، أسمع باسمك يتردد كواحد من الرفاق الذين تحدّوا الجلادين والسجون وصمدوا، ولأنك تحتل في قلوبنا هذه المنزلة، نريدك أن تبقى رمزاً، ونريد أيضاً أن يستمر هذا الرمز، ليس عنواناً لمرحلة سابقة فقط، وإنما عنوان للمرحلة الحالية وللمستقبل ايضاً.

قلت، وخرج صوتي ضعيفاً، وإن أردته حازماً:

ـ رفيق زكي.. أشكرك أولاً على الزيارة، وأشكر باقي الرفاق، وثانياً أنا لا أستحق هذا الإطراء الذي سمعته الآن، كل ما عملته أنّني قمت بواجبي، بما يفرضه عليّ ضميري..

كان داخلي يغلي، وقد شعرت أني أتوتر كلمة بعد أخرى. تنفست بعمق في محاولة لأن أسيطر على أي انفعال حاد، وبعد فترة، تابعت، وبدا صوتي أكثر قوة:

ـ لست ميالاً، الآن، للحديث عن الماضي، أمّا بخصوص القضايا المطروحة فلدي ثلاثة ثوابت أساسية، أولاً: الديمقراطية، إذ يجب أن نؤمن بها إيماناً حقيقياً، وأن نمارسها ممارسة فعلية، وحول هذه النقطة تفاصيل كثيرة معروفة، ولا حاجة لأن نخوض فيها الآن..

ابتسمت وأنا أنقل نظراتي بينهم، وأضفت بلهجة مرحة:

ـ ويجب ألا تستغربوا أيضاً، انّ إيماني بالديمقراطية تجاوز كثيراً ما كان يدور بيننا، وقد تأكّدت لدي هذه القناعة في السجن، وأصبحتْ غير قابلة للمراجعة أو إعادة النظر. والآن، ومن خلال تأملي لكل ما يجري.. فأنا لا أؤمن بالديمقراطية لحزب أو لفئة أو لطبقة، أؤمن بالديمقراطية للجميع، وبنفس المستوى، عدا أولئك الذين يخونون وطنهم!

وثانياً: لا يمكن لأية قوة سياسية بلغت هذا العمر العتي، وخاضت هذه التجارب، أن تترك للمنجمين وفتاحي الفال والمؤرخين في القرون الآتية المضيئة، أن يحكموا على مواقفها وسلوكها، يجب أن تقدّم كل حركة سياسية كشفاً بما قامت به من أعمال، وما حققت من نتائج، تماماً كما يفعل مكلف الضرائب، وهذا الكشف يجب أن يكون من الدقة والنزاهة والشمول بحيث يقنع مأمور الضرائب، أي الشعب. لأن أي خطأ يقع ويعترف به كالخسارة، لا يشكّل عيباً أو سبة، وعلى ضوء هذا الكشف يمكن أن يُحكم، ليس فقط على ماضي هذه القوة السياسية، وإنما على جدارتها بالنسبة للمستقبل.

فيما أراه بخصوص هذه القضية، إنّ الكثيرين يفهمون من النقد والنقد الذاتي حريتنا في شتيمة الآخر، وهذا الآخر الذي كان خصماً في فترات سابقة، أصبح الآن الطرف المقابل في التنظيم، ولم يعد يكتفي بالشتائم الآن،

بل تمّ تجاوزها إلى الأعراض والسرقات والمنافع، بحيث لم يبقَ شيء واحد مقدساً، ولم تعد تُعرف الحقيقة في هذا المزاد الذي يقوده الرعاع وتباركه الآلهة من بعيد.

ولذلك فإنّ مفهوم النقد الذي يجب أن يسود ليس حريتي في شتيمة الآخرين وإنما مدى مسؤوليتي عن الأخطاء التي حصلت، ولماذا حصلت، وكيف يمكن تجاوزها في المستقبل. وبدون النزاهة والموضوعية والترفّع عن الأحقاد والمطامع الشخصية لا يمكن أن نقنع أحداً حتى أنفسنا، بل ونستحق الحبس بسبب التزوير أو إخفاء الحقائق، وهذا ما يجري الآن.

لقد آن لنا أن نتعلم بعض الفضائل من خصومنا، وأن نعود إلى ضمائرنا أيضاً!

أمّا الثابت الأخير فهو أنني مع الحزب وضد الكتل، مع الديمقراطية وضد الحقوق المكتسبة والإرث التاريخي، مع الأغلبية وضد مراكز القوى، مع المنطق وضد الإرهاب والتشهير، مع النزاهة والاستقامة وضد الشطارة والتلفيق والافتراء على الآخرين من أجل تصفيتهم وإخراجهم من المعركة، مع الإنسان وضد الغول والبهلوان والصنم.

... عندما وصلت إلى هذا الحد شعرت بالتعب، بل بالإعياء. كانوا يسمعون وينظرون إليّ بتساؤل واستغراب، ولم ينظروا إلى وجوه بعضهم بعضاً، وكأنّهم يتحاشون مثل هذه النظرات التي قد تكشف وربما تفضح.

بعد أن خيم الصمت قال زكي بصوت رخو:

ـ على كلٍ...

وبعد قليل وهو يرفع رأسه ويديره في أكثر من اتجاه، قال كأنّه يخاطب نفسه:

ـ المسائل التي طرحتها، رفيق، فيها الكثير من العموميات والبديهيات، وفيها قضايا تتطلب المناقشة والتوقف..

وتطلّع إليّ، وكأنه يريد أن يقرأ في عيني ما لم تستطع الكلمات أن تقوله، وسأل:

ـ هذا رأيك الكامل والنهائي، رفيق؟

ـ هذا جزء رأيت من المفيد والضروري أن أقوله الآن.

ـ إذن نُبقي الأمور معلقة، وأرجو أن تتاح لنا الفرصة لمناقشتها في المستقبل.

قلت وأنا لا أُخفي ابتسامتي:

ـ لا أنكر أن هناك أموراً كثيرة تستوجب مناقشة عميقة، وكل ما أرجوه أن تناقش قبل اتخاذ أي موقف، أي قرار، لئلا يأكلنا الندم.

قال أحمد، وكان صوته حاداً، أقرب إلى النزق:

ـ أنا لست ضد النقاش وبحث القضايا، لكن في أحيان كثيرة يكون مثل هذا الطلب ذريعة لعدم اتخاذ موقف، أو محاولة لتمييع الأمور..

ـ أعتقد، يا رفيق، أن الخطوة الأساسية للخروج من هذا المأزق أن نفعل مثلما يفعل الكرادلة أثناء انتخاب البابا: أن نتعلم كيف نتناقش، أن نسمع بعضنا جيداً، أن نفهم ما يقوله الآخر، وأن نعطي الفرصة لكل وجهة نظر لكي تعبّر عن نفسها بحرية. بعد أن نتقن هذا الدرس جيداً يمكن اختيار البابا، وعندها نطلق ليس فقط الدخان الأبيض، بل ومعه الفرح والوعد بالمستقبل بأننا اجتزنا سن الطفولة وأصبحنا قادرين على اتخاذ قرارات مقنعة لنا وللآخرين، ومفيدة أيضاً لهؤلاء الذين لم يتوقفوا طوال الفترة الماضية عن دفع الدم والدموع، على أمل أن يكون اليوم أحسن من الأمس، والغد أحسن من اليوم.

قال صادق في محاولة لوضع حد لهذا النقاش:

ـ أعتقد أن الموضوعات المطروحة طويلة... وبعضها خلافي. ويجب أن تؤجّل الآن...

والتفت إلى زكي:

ـ ولا نستطيع أن نتأخر عن الموعد... مع صاحبنا!

قلت بلهجة مرحة.

ـ عندما طرحت هذه القضايا لم أفترض أننا سنناقشها الآن، إنها مجرد أفكار، وأريد، قبل مغادرتكم، أن تسمعوا ما يقوله صاحب هذا الكتاب، وأرجو ألاّ أثقل عليكم...

ضحك زكي، ورد بصوت أجشّ:

ـ تفضل.. تفضل رفيق.

ـ يقول لوقيانوس في حوار مجلس الآلهة، وربما تأثرت به بما قلت:
«اني أقول إذن أن ثمة نفراً بيننا تصرفوا بتعسف غريب، فلم يرضهم أنهم أمسوا هم أنفسهم آلهة بعد أن كانوا بشراً، بل زعموا أن من حق عظمتهم وسلطانهم أن يحظى أتباعهم وخدمهم بالشرف الذي حظينا نحن به. ولهذا، يا زيوس، استأذنك بأن أتكلم بصراحة إذ ليس في مقدوري الكلام على غير هذا النحو. لقد عرف العالم أجمع صراحة لساني، وعرف أيضاً أني لا أستطيع أن أسكت عما يخالف النظام، وإني أنتقد كل شيء وأفصح عن رأيي جهاراً دون أن أخشى أحداً، بل دون أن أخفي فكرتي احتراماً لأي كان، لذلك فإنّ معظم الآلهة لا يستطيعون احتمالي، ويقولون إني خُلقت لأفتري على الناس، ويطلقون عليّ لقب المدّعي العام. وإذ إن القانون قد خوّلني حق الكلام...».

قال أحمد بسخرية:

ـ الصراحة مطلوبة دائماً، لكن هناك فرق، وفرق كبير، بين الصراحة والوقاحة، وأعتقد أن صاحبك، يا رفيق، من النوع الثاني!

تحرك زكي، إشارة أن الزيارة توشك على النهاية. كتم عواطفه تماماً، شدّ على كتفي وابتسم وهو ينظر إليّ بتركيز، كمحاولة أخيرة لقراءة أفكاري، ونهض ونهضنا. قال مجاملاً:

ـ الحديث معك، رفيق، أثار أفكاراً وتساؤلات كثيرة، ولا بدّ أن نفكر فيها جميعاً، ولا بد أن نصل إلى نتيجة إيجابية ما دامت النوايا سليمة ورائدنا المصلحة العامة!

وقبل أن نتوادع قلت بمكر ورجاء:

ـ أريدكم أن تسمعوا هذه القصة الأخيرة التي يرويها لوقيانوس، وأرجو ألاّ تضايقكم!

وردّ أحمد بغيظ وبصوت ممطوط:

ـ ظلت على هذي.. تفضل، رفيق!

ـ «يحكى أن ملكاً من ملوك مصر درّب قردة على الرقص، وأن هذه الحيوانات، وهي أجدر مَن يقلد أفعال الناس، قد تعلمت بسرعة ورقصت بعد أن تزينت بالأرجوان، ووضعت على رؤوسها الخوذ، وظلّ هذا المشهد

يثير إعجاب الناس، حتى جاء يوم شاء أحد النظارة أن يلهو، وكان في حوزته جوز ألقاه في حلبة الرقص، وما أن شاهدته القردة حتى نسيت الرقص وعادت إلى طبيعتها الأولى، قردة بدل راقصين، فحطمت خوذها ومزّقت ثيابها، وتقاتلت في سبيل الحصول على الجوز، فاختل نظام الرقص، وراح النظارة يضجون بالضحك!»

قال صادق بعصبية، وكان يوجه الحديث إلى زكي:

ـ راح يفوتنا الموعد، رفيق، ولازم نمشي فوراً!

ورغم أن اللقاء انتهى بنفس الطريقة: ضرورة أن أهتم بصحتي، وأننا سنبقى على اتصال خلال الفترة القادمة، وأخيراً بالقبل، فقد تأكدت أن شيئاً في داخلي قد انكسر، وأن هذا الشيء يصعب جبره، على الأقل الآن!

قلت وأنا أرافقهم للبوابة الخارجية:

ـ يجب أن أشفى بسرعة، وبعد أن أُغادر المستشفى سوف تكون الظروف أفضل.

قال زكي وهو ينظر إليّ بارتياب:

ـ بكل تأكيد، رفيق!

وبعد قليل:

ـ إلى اللقاء.. رفيق!

وأنا أعود تجاه شجرة الأكاسيا تذكرت جانك، قلت، وكانت الكلمات أقرب إلى الدمدمة.

ـ يجب أن أتخلص أولاً من المرض، وهذا معناه أن أصرف بغل الله، أن أقول له:

إذهب أيُّها الحيوان القوي الذي يساعد الكثيرين، خاصة في الجبال، لأنَّ طريقك ليس طريقي، على الأقل الآن..

وبعد أن أنتهي من المرض لا بد أن أنتهي من الغربة، فإذا رجعت إلى الوطن، إذا نظرت إلى عيون الناس، وعرفت همومهم، ولفحتني الأنفاس الشقية، عند ذاك يمكن أن أكون قادراً على المساهمة، مع الآخرين، في عمل شيء ما، واتخاذ الموقف الصحيح.

ما ان جلست تحت الشجرة، حتى عاودني صوت جانك مرة أخرى:

«الإنسان أسوأ من الحيوان حين يكون حيواناً».

«لن يصبح الخطأ صواباً إن هو أصبح أقوى».

ووجدت نفسي أصرخ:

ـ أين أنت يا طالع العريفي لتسمع وترى؟

وبعد قليل وكنت أُحدّث نفسي:

ـ ماذا يمكن أن نفعل لأولئك الذين يقبعون وراء القضبان، الحزانى، المتروكين؟ كيف نستطيع أن نجعل ما تبقى لهم من أيام فيها شيء من الأمل والدفء؟

وذلك الوطن المسبي بالحكام المؤبدين الآن، وأؤلئك الذين ينتظرون دورهم في الحكم إذا كانوا هكذا اليوم!

وتلاحقت الأمور، بعد ذلك، بسرعة كبيرة.

فعقب الزيارة بيومين أو ثلاثة أيام، لم أعد أتذكر بدقة، وصلتني رسالة خالية من الطوابع وختم البريد، وليست فيها أية إشارة لمرسل، وهذا يؤكّد أنها وُضعت في صندوق بريد المستشفى، أو سلّمت باليد. وقد يكون من باب المجاز أو التجاوز وصفها بالرسالة، إذ لم تتعد نشرة داخلية تشير إلى «الانحرافات والأخطاء الجسيمة التي تسبّب فيها عدد من الأعضاء، الأمر الذي اضطر القيادة لاتخاذ الإجراءات المناسبة بحقهم»، وقائمة بالأسماء والعقوبات. وزيادة في التأكيد أشير إلى اسمي بالخط الأحمر، كي لا يفوتني، ولئلا أخطئ في قراءته!

صحيح أن الرسائل والنشرات لم تنقطع عنّي طوال الفترة الماضية، لكن كانت تصلني دائماً عن طريق الزوار أو بالبريد الرسمي، وغالباً ما كان يكتب اسم المرسل وعنوانه على الغلاف، إضافة إلى كلمات تحية على طرف بعض النشرات، أو بورقة مستقلة.

لماذا جاء «البريد» هذه المرة هكذا؟ ولماذا جاء بهذه السرعة؟

قرأت قائمة الأسماء أكثر من مرة. تذكّرت بعض الوجوه، ورنت في ذاكرتي عبارات كثيرة وهي تتطاير في الهواء وتملأ سماء براغ. تذكّرت التحديات، وكيف كانت تتحول حلقة الزوار في حديقة المستشفى إلى حلبة لصراع الديكة، مما يجعل المرضى ينظرون إلينا باستغراب أغلب الأحيان. وتذكّرت أيضاً رادي وهو يسألني في إحدى المرات، وقد جاء ليرد إليّ شريطاً

موسيقياً استعاره مني قبل أيام. سألني ذلك المساء بعد انصراف الزوار، وكان ميالاً للمداعبة:

ـ لا أدري عمّا كانت تدور مناقشاتكم، لكني أجزم أنها حول واحد من ثلاثة: المرأة، الله، السياسة!

وبعد قليل وبمرح أكبر:

ـ فإذا استبعدنا المرأة، لأنَّ الحديث إذا جرى حولها فأغلب الأحيان يكون بين اثنين أو ثلاثة، ويكون همساً، ويكون مرحاً متألقاً، ولا يخلو من عطر وابتسامات. . . وأنتم لم تكونوا هكذا، فيبقى الأمران الآخران: الله والسياسة، ولا بدَّ لي أن أسقط الله أيضاً من القائمة بالنسبة لكم، عكس ما نفعل نحن هنا، لأنَّ لديكم قناعة أن الطريق الآخر هو الذي يوصل إلى التقدم! فيبقى الأمر الثالث والأخير: السياسة. فإذا كنتم تتحدثون في السياسة فالشيء الأساسي الذي كان ينقصكم، لحسم الأمور والوصول إلى نتائج، هو السلاح، وهذا ما يجب أن تحرصوا على توفيره في مناقشات لاحقة!

حاولت أن أُفسّر ـ وكان كلامي تبريراً أكثر مما هو تفسير ـ هذه الطريقة في الحوار. عزوتها إلى الكبت الطويل الذي عشناه في الوطن، وكيف كانت الكلمة تؤدِّي بقائلها إلى السجن إذا لم تعجب السلطة، ولذلك يلجأ الشباب الآن إلى الانتقام من هذا الماضي والتعويض عما فاتهم! وعزوتها إلى حرارة الشرق، وكيف يضطر الإنسان، نتيجة الطقس، تحديداً، إلى الرد بنزق. ولا أعرف لماذا عنَّت ببالي أيضاً طبيعة المجتمع الزراعي، وكيف أن الفلاحين عموماً يلجأون إلى الصوت العالي حين يتكلمون!

استمع إليّ رادي بصبر، وكان يهز رأسه وحالما انتهيت سألني:

ـ وكيف تفسر حركات الأيدي والأجساد، وتلك الأصوات الغاضبة؟

ـ الحيوية والانفعال. . .

وبعد قليل وأنا أبتسم:

ـ ودقة وحساسية المشاكل المطروحة!

ـ المطروحة للحل أم للتفجير؟

وفجأة وجدت نفسي أقول بسخرية وحدّة:

ـ للتفجير، للانتحار، للانتقام من النفس، وأيضاً للانتقام من الآخرين الذين كانوا سبباً لهذا الذل الطويل والخيبة الدائمة!

تذكرت تلك المناقشة، وتذكّرت غيرها، ولكن السؤال ظلّ قائماً: هذه الرسالة ألا يحتمل أن تكون فخاً يريد الطرف الثاني أن ينصبه لي ليحرضني لكي يعزز مواقعه، وبالتالي أن أكون مجرد مخلب، بعد أن استعصيت على الطرفين؟

وزكي، الدمث، الذي يفيض عاطفة ورقة، ويبدو شديد الاتزان، ألم يستطع أن ينتظر فترة قبل اتخاذ هذا القرار؟ وهؤلاء الذين يرافقونه مثل ظله، لماذا يبدون متعجلين هكذا؟

كدت، مرة أخرى أعود إلى لوقيانوس، لكي أستخرج منه الأمثلة والشواهد، وأُحاول، من بعيد، الإشارة إلى تلك العقد والأحقاد، وإلى ذلك الحنين الذي لا ينتهي للمكر والانتقام، لكن وجدت نفسي أبتسم بحزن، وبعد قليل أنظر إلى المرآة، وأقول لطالع: «لا أصدّق يا طالع أنك غبت إلى الأبد، ولا يمكن لأحد أن يقنعني أنك لا تسمع ولا ترى، ربما ثقلك قد زال، ومطالبك انتهت، ولم تعد تزعج أحداً، لكنك موجود كقبضة اليد، كالابتسامة، وأنت دافئ كصدر الحبيبة، وعيناك ماكرتان كالطفل، وتعرف أشياء كثيرة دون أن تتكلم أو تُشعر الآخرين بذلك، وكل هذا يعجبني فيك ويروق لي كالنسيم والأرغفة الساخنة وحنان الأُم، ولا بد أن أتشاور معك، قد نختلف، لكن يجب أن تفهم لماذا أتكلم هكذا؟!

«أنا متعب يا طالع، متعب وحزين، الأسى ملأ قلبي والحيرة تفتك بي، والذين يتراكضون حولي الآن إمّا كذبة خادعون أو جهلة مسخرون. الزيف ينخرهم والقدرة على المحاكمة المنطقية لم تعد من صفاتهم، تحركهم مصالح أو أوهام. كل مَن هو ليس معهم فهو خصم، وكل مَن يتساءل، وأغلب الأحيان لكي يقتنع، ينظرون إليه بشك. وصلوا إلى معادلة بدائية جداً: الأسود والأبيض، ونسوا ما بينهما من ألوان. وأنت تعرف أن المعادلات البسيطة تريح العجزة والضعفاء، وذوي العقول الصغيرة، لكنها تخلق من المشاكل أكثر ما تحل، وتعجّل بالكفر بدل أن توصل إلى الإيمان الحقيقي.

«وباعتبار أن ما يجري الآن مزاد للمصالح والمكاسب والضمائر، فقد

فضلت أن أقف بعيداً، لكي أعطي نفسي الفرصة الكافية لاختبار الأمور من جديد، ولمعرفة ما يمكن عمله. فهل أنا مخطئ يا طالع؟»

كان ينظر إليّ ويهز رأسه. حاول أن يبتسم أكثر من مرة، لكن شفتيه كانتا كلحاء الشجر اليابس تتفطران، وكان يمسح خيط الدم الذي انفجر من الشفة السفلى بلسانه. هزَّ قبضته وقال: «حين كنا معاً كنت ترى وجهاً واحداً من الصورة، ولم تكن تريد أن ترى غيره. كنت تهدر كالرعد، وتكرز كالرهبان. كنت متفائلاً وكأننا وصلنا إلى نهاية المشوار.

وقبل أيام كنت تريدني أن أصمت، لأنه لم يعد لي الحق في التدخل بشؤون الأحياء، والآن تسألني عن الخطأ والصواب؟»

صرخت: لا تعيِّرني، ولا يحق لك أن تنتقم مني يا طالع، فكلانا ضحية ومخدوع.

جلجلت ضحكته الصاخبة مثل طفل شقي، وقال بعد أن هدأ: «يمكن أن تفعل أي شيء الآن. يمكن أن تشتم أو أن تنسحب، وقد تقنع نفسك بنصف الحقيقة وتنضم لأحد الطرفين. لكن المشكلة، كما أتصور، باقية، وقد تستمر فترة طويلة، لأنَّ لها جذراً قديماً.

المشكلة، يا صديقي، بدأت حين ارتضينا، وخلال فترة طويلة، أن نكون مجرد محرضين على العنف من أية جهة جاء، وتجاه أي كان. فعندما ضرب غيرنا، وكنا نعتبرهم آنذاك خصومنا، احمرّت أيدينا لكثرة التصفيق، وبُحّت أصواتنا من مظاهرات التأييد، ولم نترك حائطاً إلاَّ وجعلناه سجلاً لأمجادنا وتاريخنا، وأيضاً سجلاً لأمجاد الطغاة! أما عندما بدأ ضربنا فقد تخلَّى الناس عنا، لأننا تخلينا، من قبل، عن الناس، وتوارى قادتنا، سافروا، وتُرك الصغار لكي يسدّدوا الفواتير المستحقة، تماماً كما يُترك الخدم بعد انتهاء الحفلة من أجل جمع البقايا والنفايات.

والآن حان الوقت لكي نضرب بعضنا بعضاً، ليس من أجل اقتسام المكاسب، فهذه غير موجودة، وإنما من أجل استمرار الوهم، وأنت تعرف أن الثور الأبيض بدأ أكله يوم ذبح الثور الأسود»!

قلت بغضب: «اتركني يا طالع من الثيران السود والبيض. أريدك الآن عوناً وليس خصماً، فقد اختصمنا بما فيه الكفاية، وآن لنا أن نصالح أنفسنا

وبعضنا والآخرين».

رد وهو يغمزني: «آن لي أن أغيب، وأرجو ألا تنتظر مني شيئاً، لأنَّ الموتى لا يستطيعون مساعدة الأحياء».

ولا أعرف كيف امتلأ سمعي بأصوات ديكة وخيول، إضافة إلى صوت طبل بدقات منتظمة أقرب ما تكون إلى دقات القلب. قلت لنفسي: «طالع ترك العبء عليّ. وولّى. . نعم ترك العبء عليّ وولّى».

وأوغل طالع في الغياب. .

وفي اليوم الرابع، بعد الزيارة، وأتذكر ذلك بوضوح لأن اندريه الذي كان يمر دورياً كل خميس، وكان يطلب أن نوقّع على أوراق معينة بشكل روتيني، ولا شيء غير ذلك، فقد اصطحب معه في ذلك الخميس رادي.

لأول مرة أرى أن المترجم يشعر بالحيرة والخجل أكثر من المتكلم، أكثر من الذي يترجم له. قال لي، لا أعرف مَن، رادي أو اندريه:

ـ نحن آسفون أن نبلغك بشروط المستشفى الجديدة: بدءاً من الأسبوع القادم سوف نجري الحساب بالدولار وعن طريق البنك، ولذلك يجب أن يتوفر لك ضمان بنكي من أجل تسديد أجور العلاج!

واندريه محاسب، سمين، أقرب إلى القصر، بارد، صارم، قليل الكلام، ولقد نسي الضحك أو الدعابة منذ فترة طويلة. يقوم بواجبه بكثير من الوضوح والاختصار.

أمّا رادي، وبعد أن ترجم، فقد بدا محرجاً، لأول مرة أراه هكذا. بعد أن ودّع اندريه رجع إليّ مرة أخرى. قال لي بحدة:

ـ لا أعرف ماذا يحصل في هذا العالم، ولا أستطيع أن أوضح أو أن أُفسّر، ومثلما تشكون من ملوككم نشكو من ملوكنا. الملوك لا يختلفون ابداً، حتى من حيث الشبه، ولذلك أرجو أن تعتبرني مجرد آلة!

قلت له وأنا أبتسم:

ـ الملوك يتشابهون، وكذلك مَن هم دون الملك، حسب الرتب. . .

ضحكت ثم أضفت بلهجة مختلفة:

ـ والناس العاديون يتشابهون أيضاً يا رادي، وهذا ما يجعلهم يلتقون بسرعة ويتفاهمون، على الرغم من بُعد المسافات واختلاف اللغات، ورغم

أنهم لم يلتقوا من قبل. إن في الأمر شيئاً يستدعي التفكير.

قال بحزن:

ـ لكن الملوك هم الأقوياء وهم الذين يقررون كل شيء!

قلت بحدة:

ـ الملوك يقررون لكن البشر ينفذون.

ـ علينا أن ننتظر فترة، وربما طويلة، لكي يزول الفرق بين القرار وتنفيذ القرار، أو يصبح الناس أقوياء بحيث لا ينفذون إلاّ ما هو عادل وصحيح!

بعد هذه المناقشات النظرية سألني رادي بقلق:

ـ هل تملك مالاً في البنك؟

ـ لا أملك أي شيء!

ـ وكيف ستتصرف ما داموا يريدون مالاً مقابل العلاج؟

ـ لا أعرف!

بعد فترة من الصمت الحزين قال، وخرج صوته مضطرباً:

ـ لدي حوالى مائة وخمسين دولاراً، وأنا لا أحتاج لها الآن، يمكن أن أضعها تحت تصرفك!

ضحكت وقلت، وربما تسرعت:

ـ هذا المبلغ يكفي لبضعة أيام، إذا اعتمدنا السعر الرسمي!

ـ وماذا ستفعل؟

ـ الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أعدك به: أن لا أفعل مثلما فعل طالع!

حاول أن يفكر نيابة عني، قدّرت ذلك من ملامحه ونظراته، وأيضاً حركاته، فقد بدا أنه لا يستطيع مواجهة مشكلة من هذا النوع، كان حائراً ومرتبكاً، ولما طال الصمت الذي امتد بيننا، قال وكان أقرب إلى الخجل:

ـ ربما ليس من حقي أن أتدخل كثيراً، لكن ما أسمعه، بعض الأحيان، أن عدداً من الأجانب (ولم يشأ أن يقول أكثر من ذلك) يتعاملون بالدولار، فهل يمكن الاستدانة منهم؟

وبعد قليل وبارتباك:

ـ لدى والدتي كمية من الكورونات وأعتقد أنها ليست بحاجة لها الآن، فهل يمكن أن نضعها عند أحد ونأخذ بدلاً منها دولارات لتسديد أجور المستشفى ريثما أحصل أنا على قرض السكن بعد ثلاثة شهور؟

ولم يتوقف عن تقديم اقتراحات بديلة أخرى، وإذا لم أستطع أن أتذكرها الآن، فلأن أفكاري كانت تطوف في عالم آخر، ولما شاهدته حزيناً مرتبكاً هكذا، قلت بسخرية وربما بخشونة:

ـ يجب أن تعرف يا رادي: أنا الآن في المرحلة الأخيرة من إقامتي في المستشفى. وغداً أو بعد غد لا بدَّ أن يوافق الدكتور ميلان على خروجي، ولذلك فإنَّ الأمور محلولة، ومعنى ذلك أن لا حاجة للبحث عن حلول.

هكذا انتهى الأمر، أو على الأقل تأجل.

في الليل وأنا أُفكِّر، وكنت في حالة من الانفعال الشديد، وقد مرّت في ذهني صور المرحلة الماضية، جاءت الأُخت جوليا. ومثلما تجرّ بعض الحشرات أرجلها المائة، في زحفها البطيء وغير المحسوس، جرّت الأُخت جوليا نفسها نحوي. سألتني بعينيها، ما إذا كنت في حالة جيدة، وهل لي طلبات من أي نوع. هززت رأسي مثل أي حكيم هندي، وقلت، وكنت أُخاطب نفسي:

ـ «أحلماً نرى أم زماناً جديداً أم الخلق في شخص أُعيدا

ابتسمت الأُخت جوليا. أضفت وكنت أترنم:

ـ «لتعلم مصر ومَن بالعراق ومَن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت وأني عتوت على مَن عتا
وما كل من قال قولاً وفى وما كل مَن سيم خسفاً أبى
ومَن يك قلب كقلبي له يشق إلى العز قلب الثوى
ولا بدَّ للقلب من آلة ورأيٍ يصدع صم الصفا
وكل طريق أتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخطا»

ولأنَّ اللحن كان سريعاً ومُرنماً فقد أخذت الأُخت جوليا تهز رأسها وتبتسم، وربما ظنّت أني أُردّد دعاء للشفاء، لأنَّ الكلمة التي قالتها بعد أن توقفت قليلاً: «آمين».

استرحت قليلاً ثم قلت، وبدا صوتي غريباً، وكأنّه صوت إنسان آخر:

ـ «على الصحة العائدة
على المخاطر الزائلة
على الأمل الخالي من الذكرى
أكتب اسمك
وبقدرة كلمة أحيا
أحيا ثانية
ولدتُ لأعرفك
لأُسمّيك باسمك
أيتها الحرية»

كانت تهز رأسها دلالة الفهم، وبدت مثل أم توافق بإعجاب على كل ما يقوله ابنها! أمّا عندما ذكرت اسم ايلوار في نهاية المقطوعة، فقد تيقظت مثل قطة، إذ أثار هذا الاسم في قلبها خواطر بعيدة. قالت دون كلمات: الله.. كم مضى من الزمن منذ أن سمعت هذا النشيد!

ورغم يقظة الذكريات كانت تريدني أن أنام، فما كاد الصمت يمتد بيننا حتى اقتربت مني، مسّدت الفراش، وقالت لي بعينيها: «يجب أن تنام» وحين مددت جسدي، كقصبة، استعداداً للنوم، سوت الفراش فوق صدري، وضغطت من الجانبين، لكي لا تنفذ الريح الباردة في الليل المتأخر، وقالت لي بكل روحها: أتمنى لك ليلة أحسن من كل الليالي السابقة!

تلك الليلة، والتي تلتها، لم أنم بسرعة. طوفت في أماكن شاسعة. استعدت وجوهاً وذكريات كثيرة، وكان بعضها بعيداً موغلاً في البعد. وفي إحدى اللحظات سمعت كلمات لا أعرف كيف نسيتها طوال الفترة الماضية: «... أنا بكل صراحة جبان. الله خلقني بهذا الشكل. أخاف من الشرطة ولا أتصور نفسي مسجوناً ولو ليوم واحد. لو سجنت أموت فوراً. ولذلك إذا أردتني أن أبقى صديقاً اتركني، لا تلحّ عليّ. أقسم لك أنني لا أقدر. أنا معك فكراً وعاطفة، لكن لا أحتمل السجن. أنت حر، افعل ما تشاء، ولكن لا تلحّ عليّ ولا تتركني. أنا معك وأنا لست معك، كيف؟ لا أعرف. يمكن

أن أُساعد في أشياء كثيرة، وتستطيع أن تعتمد عليّ والأيام بيننا».

هل كانت هذه كلمات أنيس أم أنني أخترعها الآن؟ ولماذا أتذكرها وتلحّ عليّ مرة أخرى؟

لست متأكداً من شيء، فأنا شديد الحيرة ولا أعرف كيف أتصرف أو ماذا يجب عليّ أن أفعله. أشعر أني أهوي، ولا أحد إلى جانبي، أو يمكن أن يساعدني، عدا هذا الحزين الحالم: رادي. الجميع تخلّوا عني أو وضعوا شروطاً لإنقاذي.

فجأة ينبثق من بين آلاف الوجوه أنيس، أنيس الذي أعرفه. ولكن هل بقي هو نفسه؟ ألم يغيره المال والأيام وتلك القطيعة التي تعمدتها؟ أتذكر أنني كنت أتظاهر بعدم الاهتمام حين يرد اسمه، وحين تبلغني تحياته أكتفي بأن أهز رأسي ولا شيء غير ذلك.

لكنه ظلّ بالنسبة لي مثل جرح قديم. إذا تذكرته، إذا طفا وجهه، أحس نحوه بحنين جارف، وأحس بالغضب، إذ كيف يمكن لمخلوق من هذا النوع ألاّ يكون معي؟ أن لا نكون معاً؟ وهل حقيقة يخاف السجن والشرطة إلى هذا الحد أم اعتبرهما حجة لكي يشق لنفسه طريقاً خاصاً به؟

بعد أن خرجت من السجن، وأثناء الاتصالات وبحث الأماكن المحتملة للمعالجة، خُيّرت بين باريس وبراغ. قالوا لي، بأكثر من طريقة، إن أنيس ينتظرني على أحرّ من الجمر، وقد اتصل أكثر من مرة، وكان يستوضح ويلحّ، وكان يؤكّد أيضاً أن باريس المكان المناسب للعلاج. لكنني قلت، ودون تردّد: براغ حبيبتي، وسأذهب إلى براغ!

حين تقرّر كل شيء أعطوني عنوان أنيس ورقم هاتفه، وقالوا: اتصل به.

خلال الأسابيع الأولى بعث إليّ برسالتين وبطاقة بريدية. تطلعت إلى خطه، إلى كلماته. الخط كبير ومائل، والكلمات بسيطة وواضحة، قلت لنفسي: الأغنياء يكتبون بهذه الطريقة، عكس السياسيين، خاصة الذين سجنوا، وأنا لا أملك الآن ما أقوله له. ولذلك لم أرد على رسائله!

ورغم أني اتخذت قراراً في الليلة الثانية قبل أن أنام، إلاّ أن مزاجي في اليوم التالي كان معتكراً وسوداوياً. شعرت بالندم وبحالة من الضياع. هل

أرهن نفسي من جديد، وهذه المرة ليس من أجل فكرة وإنما من أجل العلاج؟

يوم الزيارة الأسبوعية جاءني وفد من الطرف الثاني: سميح وخالد وأنور وأبو عزام والتشيكي، جاؤوا في مظاهرة صاخبة مع باقة كبيرة جداً من الورد وعلب من الشكولا والسكاكر، وأيضاً زجاجة من الخمر الجيد. كانوا في حالة من الغبطة لا يستطيعون إخفاءها، وكانت عيونهم تقول: ألم نقل لك؟ ألم نحذّرك؟ وهل تأكدت الآن من غدرهم وتخليهم وعدم اعترافهم بأية قيم؟

لم أُصدّق عيني وأنا أرى الموكب. كدت أصرخ: قفوا، إلى الخلف در، وعودوا من حيث أتيتم. كدت أتوارى، لكن كل شيء بدا متأخراً وعديم الجدوى. قلت لنفسي: الفصل الأخير من المسرحية!

هناك لحظات قاسية ومربكة، مثل اللحظات الأولى في مواجهة المحقق. وعندما يكون الإنسان متأكداً أن ما يجري أمامه، وما يقال، رغم مظاهر الجدية، لا يعدو تمثيلية تفتقر إلى كل العناصر التي تجعلها مقبولة أو ممكنة.

قالوا: جئنا فقط للسلام والاطمئنان.

قلت: شكراً لزيارتكم ولاهتمامكم، وأهلاً بكم.

قالوا: تبدو الآن نشيطاً وفي صحة جيدة.

قلت: أنا الآن على أحسن ما يرام!

قالوا: نعتذر لانقطاعنا عن زيارتك.

قلت: عذركم مقبول وأقدر ظروفكم.

قالوا: هل تأمرنا بشيء؟ هل تحتاج إلى أي شيء؟

قلت: لا آمر عليكم، ولا أحتاج الآن أي شيء!

قالوا: سيمر عليك بعض الرفاق في الأسبوع القادم وسوف يزودونك بالمطبوعات الجديدة!

قلت: لا حاجة لأن تتعبوا أنفسكم، فقد أوصاني الطبيب بالراحة التامة والامتناع كلياً عن القراءة، والابتعاد عن جميع المنغصات!

قالوا: ألا تقرأ الآن؟

قلت: أبداً.

قالوا: منذ متى؟

قلت: منذ شهور.

نظروا إلى بعضهم بعضاً. تحركوا، كانت الحركات أقرب إلى التساؤل. هزُّوا رؤوسهم، تنحنح واحد أو اثنان. قال سميح:

ـ نستأذن، رفيق، وسوف يمر عليك الأسبوع القادم خالد والتشيكي لتدارس بعض الأمور...

ضحك وأضاف بتهذيب:

ـ طبيعي إذا كنت راغباً، وكان وضعك الصحي مساعداً.

ـ أرى أن نؤجل تدارس القضايا التي تشير إليها، رفيق، إلى وقت لاحق، إلى حين موافقة الطبيب وبعدما أسترد صحتي!

ـ كما ترى، رفيق، ونحن الآن نستأذن.

ـ إذنكم معكم أيُّها الرفاق، وشكراً، مرة أخرى، لزيارتكم!

وغادر الموكب بهدوء أول الأمر، وأخذ يزداد الصخب مع كل خطوة يخطونها مبتعدين!

في هذه الليلة اتصلت بأنيس. لم يصدق. سألته بإيجاز ما إذا كان قادراً على استقبالي في باريس لاستكمال العلاج. لم يتردّد ولم يتأخر في الاجابة. بدا منفعلاً شديد الحماس.

قال لي في نهاية المكالمة!

ـ سوف أرتّب كل شيء هنا، حتى سمة الدخول سوف تجدها في المطار، وأنا بانتظارك، وغداً نتحدث مرة أخرى لكي أعرف متى يمكن أن تصل. هل أستطيع أخذ رقم تلفونك؟

ولا أعرف لماذا استيقظ فيَّ الحذر الغريزي، رددت بارتباك:

ـ صعب أن تتصل بي، أنا سأتصل بك في الأيام القادمة!

ـ أرجوك غداً، وفي نفس الوقت، لكي نتفق على التفاصيل!

اليوم التالي، الاثنين، الدكتور ميلان، ومثل عادته في زيارة بداية الأسبوع، إذ ما كاد يرى باقة الزهور الكبيرة، والمركونة في الزاوية، حتى صاح بدهشة:

ـ هذه الزهور تكفي المستشفى كلها، وتتحدى كوبكا وحديقته على مدى شهر كامل!

ابتسمت ابتسامة متحفظة ولم أرد. تابع بمداعبة:

ـ وهي إمّا من عاشقة أو من رجال شرقيين!

ـ من عاشقة!

هكذا ردّدت بمكر! فتح عينيه على اتساعهما وهزّ رأسه دلالة التأييد والإعجاب، وبعد قليل:

ـ حين يبدأ العشق ينتهي المرض!

ـ إنه مرض آخر، وربما أخطر، يا دكتور!

ـ قد يكون من أنواع المرض، ولكنه ذلك المرض الذي يعطي الجسد مناعة ويمنح الحياة طعماً ومعنى. . .

وابتسم ثم أضاف:

ـ نحن الأطباء نشجع عليه، ونريد لمرضانا أن يُصابوا به، لأنّه يزيد المناعة والمقاومة في آن واحد، إذ يجعل الإنسان أقوى على مواجهة المرض الأصلي.

بدا واضحاً، ونحن نجري هذا الحوار، كأنّنا نمهد لما بعده، وكان أقرب إلى الدعابة، وإن لم يخل من رغبات أو وجهة نظرة.

في لحظة معينة، وبعد أن ساد الصمت، قال لي الدكتور ميلان بلهجة جديدة:

ـ دعنا نقس الضغط والحرارة لنعرف مدى التقدّم.

بعد أن انتهى هزَّ رأسه وقال بوثوق:

ـ النتائج جيدة.

ـ ومتى أستطيع مغادرة المستشفى؟

تطلّع إلى عيني تماماً ليكتشف ما وراء السؤال، عضَّ على شفته، وكأنّه يوازن بين أمور عديدة، وقال بحزم أقرب إلى الحدّة:

ـ بدءاً من اليوم أنت في وضع جيد، وغداً، بعد أن نجري بعض الفحوصات الإضافية، وللتأكّد فقط، سوف أترك لك أن تقرر متى تحب أن تتركنا.

قال الكلمة الأخيرة، وضرب كتفي بمودة، وبعد قليل:

ـ أريدك أن تخرج بسرعة، ولكن أريد أن أراك أيضاً، فقد أصبحنا أصدقاء، إلاّ إذا كان العشق سيسرقك منا.

والتفت من جديد إلى الزهور في الزاوية!

في الليلة ذاتها اتصلت بأنيس وأبلغته أنني جاهز، ويمكن أن أُسافر في أقرب فرصة ممكنة.

ردَّ بفرح لم يستطع أن يخفيه:

ـ رائع، واليوم أحسن من بكرة!

وبعد قليل:

ـ قدمت طلباً لسمة الدخول، فقط أريد رقم جواز السفر وتاريخه، وغداً نحدّد الموعد بالضبط.

ـ أعطني الرقم والتاريخ.

واتفقنا على الاتصال في اليوم التالي، وبنفس الموعد، قال في محاولة لكسر الجفلة، ولكي أكون طبيعياً أكثر معه:

ـ منذ الأمس أصبحنا كالعشاق الذين يتصلون ببعضهم في ساعة محدّدة، ويتذكرون بعضهم حين يتطابق عقربا الساعة، أو وهم يرون القمر، وحين توشّ إحدى الآذان..

وبعد قليل وبمرح:

ـ إذن غداً، وفي نفس الوقت، لكي نتفق على كافة التفاصيل.

تحدّد يوم الجمعة، عصراً، موعداً للسفر!

ما كادت هذه الفكرة تكتسب قوامها وصلابتها حتى بدت لي ثقيلة، ثم أصبحت قاسية. أما ذلك الفرح الهش الذي سبق تحديد الموعد، وكان يحرضني، فما لبث لي أن تراجع إلى أن تلاشى. ومع كل ساعة تمر وتقرّب الموعد أحس بالتوتر يتسع ويزداد ليصبح اضطراباً ثم خوفاً. أنظر حولي ولا أصدّق. هل أستطيع أن أخلف كل شيء ورائي وأمضي؟ وهذه الأماكن التي كنت أفترض أنها مؤقتة، ولا تعني لي شيئاً، انتفضت أمام عيني واكتسبت صورة جديدة: زوايا الغرفة، قبضة الباب، حافة النافذة، بلاط الأرض، السرير والأغطية، حتى المزهرية التي كانت تبقى صامتة على طرف الشباك أياماً طويلة، أخذت تنظر إليّ بحزن يقرب الألم، تحوّلت إلى عين كبيرة لا تتعب من التحديق إليّ وكأنّها تطلب مني البقاء، وترجوني. كيف سأتركها وأمضي؟ حتى لون الغرفة الذي لم يلفت نظري من قبل، بدا لي ببياضه على زرقة يتغير مع ساعات النهار، ويصبح لحظة بعد أخرى محبّباً ومريحاً!

والحديقة.. الأشجار، النباتات الصغيرة، رائحة الأرض، خاصة بعد أن يُقصّ المرج أو غب المطر، وتلك الممرات الظليلة، والأحجار التي تكسوها، وهذه الخضرة الفياضة، الناصعة، المتنوعة إلى أقصى حد؛ الحديقة في ساعات الصباح الباكر وعند الغروب، وكنت أقضي فيها وقتاً يمكن من خلاله معرفة وضعي النفسي، هل أستطيع أن أخلفها ورائي وأنساها، أم أن غصّتها سترافقني حتى آخر أيام العمر؟

وإذا افترضت أن الأماكن قد تُستبدل أو تُنسى بمرور الزمن، فماذا بالنسبة للبشر؟ هؤلاء الذين قامت بيننا العلاقة فالصداقة بصمت، أغلب الأحيان، لكن بقوة، من خلال الألم والمعاناة، تماماً كما هو الحال في السجن، والذين لا يطيقون أن نبتعد أو نغيب عن بعضنا، ولو لساعات، كيف يمكن لي أن أترك هؤلاء، ليس من أجل إجراء فحوص خلال فترة قصيرة، وإنما إلى الأبد؟ أن لا أراهم مرة أخرى؟

أتذكرهم يوم مات طالع. انخطفت وجوههم. أصبحت زرقاء كامدة، وغادرت العيون محاجرها. ورغم أن الصمت الحزين ملأ المستشفى كلها، وعرّش على الأبواب والنوافذ وسدها، فإنَّ دوياً مكتوماً، أقرب إلى النشيج سرى في جميع الأنحاء، وفاض من القلوب والعيون، بحيث أن أحداً لم يستطع أن ينام تلك الليلة رغم الأدوية التي أُعطيت، ورغم تعب النهار وحزن الليل.

هل أستطيع أن أُغادر وأترك جميع هؤلاء دفعة واحدة، ولكي لا أراهم مرة أخرى؟ أي قلب يحتمل، وهل أملك من القوة ما تجعلني قادراً على البقاء ولا أتبدّد إلى آلاف القطع؟

ربما تسرّعت أو أخطأت وأنا أبلّغ أنيس برغبتي في مواصلة العلاج في باريس؛ ثم وأنا أُوافق على هذا الموعد للسفر. لو أني قدّمت الموعد، أو لو أخّرته لشعرت الآن ببعض الراحة. لكن يبدو أن كل شيء أصبح متأخراً.

حتى تلك المتع الصغيرة، راحة يوم مثلاً، والتي تتاح لجميع الناس، أصبحت أحس أنها تُسرق منّي: فكوبكا الذي تعوّد على الغياب يوم الخميس، بدل عطلة يوم الأحد، كي يبقى أثناء الزيارة الأسبوعية، وافترضت أنه سيترك لي راحة يوم الخميس، فلا أراه بين يومي اختناق، حرمني أيضاً من هذه المتعة!

ورادميلا، القاسية، الضجرة، طوال الفترة الماضية، أين كانت تخبئ كل هذا الحنان؟ وكيف تستطيع، فوق هذه السمنة، أن تحمل قلباً بهذا الحجم؟ ولماذا فضحت نفسها فجأة ودفعة واحدة؟

أمّا مايا، الحمامة، الغزالة، أنشودة البحّار الذي أمضّه الشوق، وها هو يعود إلى الوطن بعد الغياب الطويل، مايا الحزن والفرح يتعانقان، يتداخلان،

مايا العينان الواسعتان اللتان تمتلآن دوماً بالدموع والعسل، فهل يمكن أن تغيب ولا أعود أراها كل صباح؟ هل احتمل ذلك ولو ليوم واحد؟

والدكتور ميلان، هل يمكن أن أحب طبيباً كما أحببته؟ وهذا التصميم على الشفاء، ألم يكن يهدف أن أثبت له صحة نظريته وتقديراته؟ وبعد هذه الألفة، التي أصبحت صداقة، كيف أسمح لنفسي أن أقول له «في امان الله» وأمشي، وكأنَّ شيئاً لم يكن؟ مَن أعطاني الحق في أن أكون قاسياً، أو أن أُسيء للذين أعطوني أنبل ما يملكون: الثقة والحب، من أجل أن أشفى؟

ويمتلئ قلبي بالبكاء والوجع حين أُفكِّر، لثانية واحدة، أنني قادر على ترك جوليا. كيف يستطيع الإنسان أن يتخلَّى، بإرادته، عن عينيه، أو عن نبض قلبه، وكيف يتسنى لي ولو بالخيال، أن أتركها وأمضي؟ والليالي القادمة، كيف سأواجه ظلمتها وآلامها دون أن تكون جوليا فوق رأسي؟

لا أطيق أن أُفكِّر، ولا أقوى على الاحتمال.

ومع كل ساعة تمر أشعر بالاضطراب أكثر. ألوم نفسي، أحس بالتعب، أتوقع أن شيئاً ما لا بدَّ أن يقع ويغيِّر في مسارات البشر والأشياء والحياة. وأغفو على هذا الأمل!

يوم الأربعاء، عند أول المساء، رادي يمر على غرف مرضى القسم الخاص، لترتيب حفلة وداع صغيرة في اليوم التالي. أحس أن الحبل ينشدّ أكثر من قبل حول عنقي. أحس بالاختناق. كدت، في لحظة معينة، أصرخ، أن أخرج إلى الحديقة وأقول بصوت مدوٍ: يا أيُّها الناس أوقفوا هذا العبث غير المتقن وغير المحمول! أو أن أتسلّل مثل لص في الليل المتأخر، دون أن يحس أحد، وأغيب، كما فعل جانك.

وأنا أرى رادي يتنقل من غرفة إلى أخرى، ناديته بعصبية، وكنت غير قادر على إخفاء ألمي وارتباكي:

ـ تكفيهم أمراضهم وهمومهم، يا رادي، ولا يحق لنا أبداً أن نثقل عليهم..

وبعد قليل وبلهجة حزينة:

ـ وأنا لا أحب هذه الحفلات، وأراها غير ضرورية.

ـ أنت مجرد مدعو، ولا علاقة لك بأي شيء آخر!

ـ إذن سأُقاطع هذه الحفلة.

ـ لا يمكن للعريس أن يهرب ليلة الزفاف!

المشاعر التي انتابتني خلال اليومين الأخيرين من الاضطراب والعنف إلى درجة لا أستطيع أن أستعيدها، مهما حاولت أن أكون هادئاً، وحتى لو افترضت أنها تعني إنساناً آخر. لقد بكيت في ليلة الخميس كما يبكي الأطفال، بكيت من الألم، ومن فيض مشاعر الناس، ومن العذاب.

بدأ يوم الخميس هادئاً، مثل أيام كثيرة غيره.

عند التاسعة جاء اندريه، جاء هذه المرة وحده، تحدّث أو ربما كان يسأل. لم نستطع أن نتفاهم، لكن كان يردّد بعض الكلمات، قدّرت أنها تتعلق بالبنك والدولارات، أي بأجور العلاج. حين لم نصل إلى نتيجة طلب مني أن أعطيه جواز السفر، مددت يدي إلى الدرج القريب، فتحته، استخرجت الجواز منه، وسلّمته إلى اندريه، أمسك به وهزّه في وجهي عدة مرات، وقال بضعة كلمات استنتجت منها أن الجواز سيبقى عنده، سيحتجزه، إلى حين ترتيب الكفالة المصرفية. هززت كتفي بعدم اهتمام. وغادر اندريه بغضب!

حين جاء الدكتور ميلان أبلغته بما حصل. جرّ نفساً عميقاً. حاول أن يبتسم، لكن فكيه لم يساعداه. بعد أن فحصني قال إنه سيتابع الموضوع بنفسه، وسوف يهيّئ لي تقريراً طبياً يوضح فيه حالتي بالتفصيل ومراحل العلاج والأدوية التي وصفت لي، لكي يساعد التقرير الطبيب الذي سيعالجني لاحقاً.

جاءت رادميلا. كانت حزينة وفرحة في آن واحد. كانت تحمل لي هدية ملفوفة، أصرّت أن تضعها بنفسها داخل الحقيبة، وفهمت من طريقتها، وإشاراتها، أن لا أفتحها إلاّ بعد أن أُغادر. قلت لها «سأعود في وقت قريب» استعملت بعض الإشارات للتوضيح، فهمت، هزّت رأسها بحزن، وقالت أهلاً كل لحظة، لكن يجب ألاّ تكون مريضاً وستزورني في بيتي. وفي لحظة معينة بدت غير قادرة على البقاء فانسحبت. يكفيها هذا القدر من العذاب!

جاء رادي. كان غاضباً ومرتبكاً. قدّرت أن الأمر متعلق بأندريه وجواز السفر. تطلع إليّ وهزَّ رأسه، بعد فترة صمت قال بمرارة:

ـ لا حاجة لأن أقول لك أي نوع من البشر هؤلاء المحاسبين، إنهم كالثيران العمياء، وأقرب ما يكونون إلى الآلات. . .

وزفر بحزن ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ هل يمكن أن تتصل بمسؤول التنظيم لكي يتصل بمسؤوليه ويطلبوا منه أن يتصرّف بطريقة متحضرة؟

ـ لن أتصل بأي إنسان وليفعل ما يشاء!

قال بارتباك:

ـ لا أريد أن أزعجك، كل ما في الأمر لكي نختصر الإجراءات، لأنّ مثل هؤلاء لا يفهمون إلاّ بالأوامر تأتيهم من فوق!

ـ قلت لك، رادي، لن أتصل بأحد، وحتى موضوع السفر يمكن أن أُلغيه بكل بساطة.

ـ طيّب، اترك الأمر عليّ!

أصابني الغم إلى درجة أن الدنيا اسودّت بعيني، وأخذت نبضات قلبي تدق بصوت عالٍ، وهذه إشارة أعرفها، فلن تلبث حرارتي أن ترتفع، وأدخل في ذلك الدهليز الذي جهدت طوال الشهور الماضية لكي أخرج منه. قلت لنفسي بصوت عالٍ: «ربما يكون اندريه حماراً أو قاسياً، لكن المسألة تتعدى الحمرنة والقسوة، فهي مرتبطة بالأنظمة ومَن يسن الأنظمة من ناحية، ومرتبطة بهؤلاء الذين بعثوا بي إلى هنا، ودقوا على صدورهم وقالوا: «نحن سنعيد إليه الصحة والشباب»».

نهضت بانفعال شديد وبسرعة، فقد أصبحت على يقين أن بقائي في الفراش، داخل الغرفة، سيعجّل بانهياري.

ما كدت أفتح الباب وأجتاز الممر باتجاه الحديقة، حتى فوجئت تماماً: كوبكا بملابس جديدة، ملابس الأعياد، وكأنّه إنسان آخر غير الذي أعرفه. ما كاد يراني حتى هبَّ لملاقاتي. صافحني بحرارة وكأنّنا لم نرَ بعضنا منذ زمن طويل. قال بضع كلمات فهمت منها أنه لم يطق البقاء في البيت والتمتع بالإجازة ما دمت نويت السفر، ولم يبقَ على موعد سفري إلاّ وقت قصير!

كان لدينا الكثير لنتكلم فيه، وقد تأكّدت من ذلك وأنا أرقب كوبكا يرفع إليّ بين لحظة وأخرى نظرات مليئة، ويهز رأسه بأسف. حين تعذّر علينا

الكلام، ولم تكف النظرات، تقدّم نحوي، شدّ على يدي عند الزند، وقالت قبضته: يجب أن تكون قوياً وشجاعاً وذكياً! هززت رأسي بالموافقة، ضرب كتفي بأطراف أصابعه وقال: أحببتك، وأريدك الآن أن تتمتع بالحياة، وأيضاً أريد أن أسمع أخبارك. ولقد تأكّدت أن هذا ما قاله حين أخرج من جيبه ورقة كتب عليها عنوانه، وبعد قليل، وفي محاولة للتأكيد: ويمكن أن تكتب أيضاً على عنوان المستشفى. وقد ردّد اسم المستشفى مرتين أو ثلاث مرات، ودق على صدره انه هنا.

وفجأة تذكرت زجاجة الخمر. قلت لنفسي: ليس هناك مَن يستحقها غير كوبكا. طلبت منه أن ينتظرني لحظة. رجعت إلى الغرفة، تناولت الزجاجة، وضعتها في كيس وعدت. حاول أن يعتذر، تردّد، قلت بحدة:

ـ كنت أتمنى، يا كوبكا، لو أني أملك تاجاً أو صولجاناً، لو أملك غزالاً أو حصاناً، لما تردّدت لحظة في أن أقدّمه اليك، لكن كما ترى، ليس لدي سوى هذه الزجاجة، وهي لا توفي زهرة واحدة من الزهور التي كنت تحملها إليّ كل يوم.

قبلها، أخيراً، محرجاً. قلت لنفسي: إن لهذا الرجل قلباً من ذهب.

ونحن في هذه الحال هجست أن أحداً أو شيئاً ورائي يتحرك ويقترب. لم أسمع صوتاً، ولم تعلن ذلك عينا كوبكا اللتان كانتا أغلب الأحيان تتمعنان في الأرض أو تتسلقان الأشجار. قدّرت ذلك لأنّ في داخلي شيئاً أنبأني. ما كدت ألتفت حتى رأيت امرأة!

كانت تلبس تنورة رمادية ترتدي فوقها سترة كحلية، مثل تلك الأزياء التي تلبسها ممثلات الخمسينات أثناء النهار. وكانت تسرح شعرها على طريقتهن أيضاً. ما كدت أتمعن بها، وهي مقبلة نحونا، حتى عرفتها:

ـ جوليا.. لا أصدّق!

هجمت عليّ، قبّلتني كأم. وضعت رأسي على صدرها. شدّت على كتفي وكأنها تختبر مدى القدرة والصحة. قالت لي خلال ثوان ما لم تقله كلمات الدنيا كلها. حين رفعت رأسي ونظرت إليها كانت دمعة صغيرة، بلون البلور الصافي، كحبة الكريستال، تنزلق، لكنها مسحتها بسرعة والتفتت إلى الجهة الأخرى.

خلال فترة قصيرة، ولا أعرف نتيجة ترتيب مَن، بدأ التقاط الصور. التقطت صور كثيرة، وكان كل واحد يحرص على أن يكون الأقرب إليّ! والأُخت جوليا التي التقطت لها عدة صور وهي متنكرة بهذا الزي الذي لم يألفها أحد به، ما لبثت أن عادت بزيها التقليدي: كبيرة للممرضات، بوجه حازم، لكنه لا يفتقر إلى الحنان. أما حين وقفتُ بين رادميلا وجوليا، فقد علّق أحد المرضى: «كيف يستطيع الأرنب أن يفلت الآن» لما طلبت أن تؤخذ لنا صورة خاصة أنا ومايا، تعالت صرخات صغيرة فرحة ومؤيِّدة وتطلب إلينا أن نقترب من بعضنا أكثر!

حتى الدكتور ميلان الذي ظهر في نهاية حفلة التصوير، وكان متوجهاً إلى غرفتي، لكن لفت نظرهُ التجمع فأقبل نحونا، فقد مدَّ إليّ جواز السفر بثقة وقال:

ـ أرجو أن تنسى هذه الإساءة الصغيرة!

وحين لاحظ الكاميرا، قال بحيوية، وقالت ذلك يداه أيضاً: الذكريات الجميلة تبقى طويلاً في القلب، وطلب أن ينتظم الجميع لالتقاط صورة.

على الشرفة الصغيرة، في نهاية الدرج الذي يفضي إلى قسم الإدارة كان اندريه يقف. كان ينظر إلى الجميع بسخرية، وكان لا يستطيع أن يكتم غيظه!

في لحظة ما صفّقت الأُخت رادميلا، طالبة من الجميع أن يتفرق، وأن يعود كل شخص إلى غرفته، لأنَّ موعد الطعام قد حان!

بقية التفاصيل المتعلقة بليلة الخميس أو بيوم الجمعة لم تعد مهمة، لأنَّ ما تلاها من أحداث غيّر الكثير، وكأن قوة غامضة تترصد البشر وتحدّد لهم مصائرهم والمسارات التي يجب أن يسيروا فيها! وهذا ما حدث لي، مرة أخرى، بعد أن وصلت إلى باريس!

لا . . ليس الأمر على هذه الصورة تماماً، فإنَّ المشهد، بالنسبة لي، شديد الاضطراب، غائم، وأقرب إلى عدم التصديق، إذ تتداخل الصور والأصوات والأماكن والوجوه بحيث لا أعرف كيف وقعت الأحداث أو كيف تتابعت. أكثر من ذلك لا أستطيع أن أجزم ما إذا وقعت فعلاً أم أني أتخيلها أو حلمت بها!

ولكن ماذا لو رويت لكم تفاصيل يومي الخميس والجمعة وعانيتم مثلي مقداراً من الألم وذرفتم قدراً من الدموع، ألا تعتبرون ذلك تطهيراً لأرواحكم، أو احتجاجاً صامتاً وأخيراً على هذا الذي جرى؟ لو فعلت ذلك ألا أُعتبر متواطئاً، وينتهي الأمر بنوعٍ من التوافق الضمني المتسم بالرضا والتسليم، وكأنَّ كل شيء أصبح ملكاً للتاريخ يحاكمه ويحكم عليه بطريقة باردة، ويسدل بعد ذلك الستار؟

لا أريد أن أمنح نفسي، وبالضرورة لن أمنحكم، فرصة العزاء أو مصالحة النفس. كنت أنوي أن أصمت، كنت أريد أن أنسى، وأن أبدأ حياتي من جديد. صحيح أن الجروح التي تملأ أجسادنا وأرواحنا تزاحم بعضها بعضاً، وتتراكم فوقنا كالتراب، لكن الرغبة بتجاوزها كانت موجودة، خاصة

وانني لم أكن في يوم من الأيام جلاداً، ولن أكون. وأنتم الذين لم تكفوا يوماً واحداً عن أن تكونوا الضحايا، كان هذا يكفينا. كنا نعض على الجروح بانتظار أن تأتي أوقات أفضل، وأن تجد المشاكل حلولاً بشكل ما، لكن..

آه كم حلمت أن أنسى وأن أبدأ من جديد. وكم بذلت من الجهد والإصرار لكي أتجاوز كل ما حصل. كنت أصرخ في الظلمة: «نحن أبناء اليوم ولسنا عبيد الأمس» وكنت أقول: «الحقد يهدم ولا يبني، ولذلك نكون أقوى إذا نسينا بسرعة» وأنسى ولا أنسى. أهرب من نفسي، من خيالاتي. أفكر بمشاريع الغد، وأدفع بوقائع الأمس بعيداً. أنجح مرة وأفشل مرة. أضحك وأبكي في نفس اللحظة. أعطّل مراكز عديدة في ذاكرتي. استحضر اوهاماً كثيرة أراكمها فوق بعضها لعليّ أقوى على مواجهة المرض والتعب والأفق المسدود.

وتعاودني من جديد كلمات الدكتور ميلان «المرض، في حالات كثيرة، هو المريض. فبعض المرضى لديهم استعداد أكثر من غيرهم لأن يبقوا مرضى، ولفترة طويلة، وهذا بسبب رغبة داخلية أكثر مما هو نتيجة أسباب عضوية.. وآخرون لديهم استعداد لأن يتغلبوا على مرضهم».

وأُقرّر أن أشفى.

لا أنكر أني أصبحت رجلاً أقرب إلى العطب، ويجب أن أتعلم كيف أتعايش مع المرض، لكن في إحدى الليالي هزّني نداء، جاءني مثقلاً رجراجاً «المرض كالشيخوخة تعب في الجسد. أمّا الذي لا يتعب ولا ينتهي فهو الشوق. وإرادة الإنسان ورغباته، شوق دائم، فأُريدك أن لا تنسى ما امتلأت به من أشواق» وتجاوزت الحمى وكوابيس الليل، وتتالت الأحداث، بما فيها من منغصات، لكن قرّرت أن أُواصل الدرب إلى نهايته، إلى أن أشفى أو أقترب، يوماً بعد آخر، من الشفاء.

حتى أوراق طالع التي تسبّبت لي بجروح عميقة، مرة حين غرقت فيها وعرفت مدى الآلام التي عانى منها، ومرة حين جاؤوا يريدون انتزاعها، وأنكرت وجودها أو معرفتي بها، فاضطررت أن أضعها في مغلف، وأن أكتب في أكثر من موضع أنها لطالع، ولطالع وحده، لكي تبقى بعيدة عن المعارك الوهمية التي تخاض الآن، وأن لا يتم التصرّف بها، لاحقاً، إلاّ بعد

استشارة عدد من الأشخاص، سميتهم بورقة مستقلة وضعتها داخل المغلف، حتى هذه الأوراق قرّرت أن أنساها.

هكذا صمّمت على نسيان الماضي، خاصة السجن، ولو مؤقتاً، وأن أبدأ حياتي من جديد.

وزيادة في خلق المبررات للاقتناع قرّرت أن أجد عملاً، وأن أُواصل دراسة تاريخ الفن، وهو الفرع الذي بدأته قبل رحلة السجن الطويلة.

ومن حقي هنا أن أطلب عدم السخرية من هذا الاختصاص، ومن الفن عموماً. ويجب أن لا تبلغ القحة بأحد منكم أن يسألني أو أن يقول كما قال أبو مهند في واحدة من مراحل التحقيق والتعذيب، قال لي بسخرية:

ـ أريدك يا بلاّع (. . .) أن تفهمني: ما علاقة الفن بالسياسة؟ وإذا اعتبرت نفسك فناناً: تخط وترسم أو تدق اصبعتين وتهز طيزك، فأي قواد دهى بعقلك وسوّاك سياسي؟

هكذا قرّرت، أو على الأقل هكذا كنت أُفكّر فكيف يمكن أن أتخلى عن القرارات والأفكار التي تعبت حتى توصلت إليها وأتحول خلال فترة قصيرة من ذلك الشخص المسالم المتعب الذي كنته أو حاولت أن أكونه إلى الموقف النقيض؟

هل لباريس، تلك المدينة التي طالما حلمت بها، وتمنّيت أن تتاح لي الفرصة لكي أهيم في شوارعها وحدائقها ومتاحفها، دخل في هذا الجنون الذي أصابني؟ وهل بلغت بي الهشاشة إلى درجة أن أتداعى وأنهار في مواجهة أول صدمة؟

مثلما لعب القدر، أو ربما الصدفة، لا أدري، ذلك الدور في علاقتي بطالع، وغيّر الكثير، فإنَّ القدر ذاته لم يتخل عني في هذه المدينة ذات العشرة ملايين إنسان. إذ ما كدت أضع خطواتي الأولى حتى تناوشتني الصدمات الواحدة بعد الأخرى!

أي الصدمات وقعت قبل الأخرى، أو التي جعلتني مجنوناً هكذا؟ كلما حاولت أن أضع أولوية أو ترتيباً أجد أن السبب الذي استبعدته أو أخّرته أكثر أهمية من ذاك الذي أعطيته الأهمية الأساسية أو ربما كان وحده الذي دفعني لأن أتصرف هكذا!

بعد مراجعات طبية متعددة تقرّر دخولي إلى مستشفى سان باترير لاستكمال العلاج.

وصلت المستشفى بين العصر والغروب. بدا لي الجو كامداً ثقيلاً، ربما لقدم البناء ولعدم وجود حدائق للمرضى، ولتلك الحركة السريعة والخفية في الممرات، وهذا ما يجعل شعور الإنسان بعلاقته بالمكان شعوراً حذراً أقرب إلى الارتياب، وينعكس ذلك أيضاً على علاقته بالبشر، إذ ليس من السهل أن يألفهم أو يألفوه إلاّ بعد انقضاء فترة طويلة.

أذكر هذه المشاعر لأنَّ اليوم الثالث لإقامتي في المستشفى كان استثنائياً إلى درجة الرعب، ولم أتخيّل أنني قد أُواجه مثله أو أحتمله!

فعند الساعة الثالثة بعد الظهر دخلت عليّ الممرضة ماري لور، وكان في عينيها رجاء أقرب إلى التوسل!

ـ نريد أن تساعدنا في الترجمة بالنسبة لمريض عربي..

تذكرت طالع وأحسست بالمعاناة نتيجة حاجز اللغة، ودون انتظار أو تردّد نهضت بسرعة للقيام بالمهمة التي تطلبها ماري لور.

ونحن نجتاز الممر قالت في محاولة للتوضيح:

ـ أخذنا موافقته وموافقة السفارة على إجراء العملية، وبعد أن هيأناه رفض في آخر لحظة.

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ وكل يوم تأخير في إجراء العملية سيضرّه كثيراً.

موقف صعب. ماذا أقول لهذا الإنسان الذي سأُقابله لأول مرة؟ وهل الترجمة مجرد عملية آلية أم تحمل مقداراً من الضغط الخفي، خاصة عندما تتقابل العيون، وتعبّر ملامح الوجه عما يُراد قوله قبل أن يقال؟ والكلمات التي يتم اختيارها، دون غيرها، للتعبير عن طلب أو موقف، هل يمكن أن تكون محايدة؟

أتذكّر رادي. . . لم يكن يستطيع أن يخفي ميوله وعواطفه وهو يترجم. كان يبين ذلك من حركة العينين، من هزّات رأسه، ثم مدى سرعة الاستجابة وطريقة اختيار الكلمات أو النبرة. كان موقفه واضحاً، أغلب الأحيان، قبل أن يترجم.

وهذا الغريب الذي لا أعرف ملامحه، ولم يرني من قبل، كيف يمكن أن أُقنعه بضرورة أن يوافق على أن تُجرى له عملية جراحية؟ ماذا لو مات أو تشوّه ألا أُعتبر مسؤولاً بشكل ما؟ وكيف سيتقبل كلماتي، وماذا سيكون رأيه فيما سأقوله؟ وهل أنا مقتنع لكي أستعمل كلمات دون غيرها لإقناعه أم سأكون آلياً مثل مترجمي المحاكم، أو مثل اولئك المترجمين المحصورين في العلب الزجاجية في قاعات الاجتماعات الكبرى، حيث سيقومون بالترجمة من بعيد، دون أن يروا المتكلم ولا يعنيهم ما يقول؟

مرّت هذه الصور السريعة في ذاكرتي ونحن نجتاز الممر الطويل، ثم نتعطف نحو اليمين ونهبط الدرج.

سألت ماري لور، وكانت تتقدمني بنصف خطوة:

ـ هل يمكنني معرفة سبب رفضه بعد أن وافق من قبل؟

التفتت نحوي بطرف وجهها، ولم تبطء خطواتها، وردّت:

ـ ربما نتيجة الخوف، أو لأنَّ الذين ترجموا له في السابق لم يوضحوا له الأمر بما يكفي!

من هذه العبارة الصغيرة تأكّدت أن ليس هناك لغة محايدة، وأن ماري لور لا تطلب مني أن أُترجم فقط، وإنما تطلب أن أتدخل لإقناعه، ولذلك أصبحت أكثر حذراً.

وصلنا. تقدمتني ماري لور، فتحت الباب، دخلت، دخلتُ بعدها. فعلتُ ذلك بشكل آلي.

كان جسد الطبيب يحجب الجزء الأكبر من جسد المريض، بما في ذلك الوجه، ابتسم لي الطبيب، وهو يلتفت، ابتسامة ودية ومتواطئة، وأشار بيده طالباً أن أتقدم إلى الجهة الأخرى من السرير لأتوسط بينه وبين المريض.

خلال ثانية، أقل من ثانية، وما كادت عيناي تلتقي بعيني المريض، ورغم أني هززت رأسي، لا شعورياً، لكي أتأكد، فقد رأيت خلال تلك الثانية خوف الدنيا كله يتجمع في العينين اللتين تقابلاني، وزاد في هذا الخوف تعبير الوجه، لونه، حركة الجسد، ارتجاف الوجنتين، طريقة التنفس، اهتزاز الفراش، ارتفاع اليدين ثم هبوطهما السريع واليائس!

لا يمكن لأحد أن يعيد رسم المشهد، أن يتذكر التفاصيل. كما لا يمكن له أن يقول كيف التهب الجو وكيف تغيّرت رائحته.

وإذا كنت قد رأيت كل ذلك في الوجه الذي يقابلني، فكيف كنت خلال هذه الثواني؟ وكيف رآني الطبيب وماري لور، وذلك اللابد في الفراش، وكان يشبه القط الخائف والمحاصر!

تنفست بعمق في محاولة لأن أستجمع نفسي. حاولت أن أبتسم. قلت، وأنا شديد التأكّد أن صوتي ارتجف، أو كان الصوت مجرد ارتجاف:

ـ مرحبا أبو مهند!

هزَّ رأسه ولم يجب. تابعت بعد أن تنحنحت:

ـ خير إن شاء الله؟

وفجأة انبعث صوت هو خليط بين الضحك الهستيري والبكاء. كان قوياً مباغتاً، ثم هجم عليّ. أخذ يعانقني ويقبّلني، ثم أخذ يدي، وبطريقة بائسة جداً يقبّلها، ولا أستطيع سحبها منه، وفي لحظة معينة صرخ:

ـ أنا عبدك وداخل عليك!

ـ بسيطة يا أبو مهند، المهم الآن، أن تستريح!

ولأنه كان خائفاً ولا يصدق الكلمات، وكانت دموعه تنهمر بغزارة، فقد قلت بحزم:

ـ المهم صحتك يا أبو مهند.

قال الطبيب بطريقة هي مزيج من التساؤل والاستغراب:

ـ من أقاربك أو من أصدقائك، ولا تعرف أنه هنا؟

تطلعت إليه بطرف عيني وأنا أحاول إعادة سالم عطيوي إلى فراشه، وما ان استطعت ذلك، حتى أخذ يرتجف كقصبة. كانت أسنانه تصطك، كما أن برودة مفاجئة سيطرت عليه، إضافة إلى الخوف. قال الطبيب للممرضة همساً:

- حالته الآن لا تمكّننا من إجراء العملية.

لم ترد الممرضة.

ولا حاجة لأن أقول أي شيء الآن، دعوني أستريح..!

قد أكون ساخراً إذا قلت لكم إن من جملة هواياتي في السجن: السياحة! ولكن هذا ما كان يحصل في أحيان كثيرة، فما أن أجد نفسي ضيق الصدر، محاصراً، حتى أحمل حقيبة الحلاقة، ودون تردّد أتوجه إلى المطار لأستقل الطائرة وأسافر.

سافرت إلى مدن عديدة، وفي معظم القارات. كان يروق لي أن تكون الرحلة قصيرة، وأن تتخللها المفاجآت وبعض المتاعب، وحتى الأخطار، على أن لا تكون قاتلة أو تترك تشوهات دائمة، ومن شروطها أيضاً الضياع في المدن من أجل اكتشافها!

لقد فعلت ذلك مرات كثيرة وأنا في السجن من خلال الخيال. أما الآن، وقد وصلت باريس بالفعل، فقد وجدت نفسي مدفوعاً لاكتشافها.

كنت أهيم لساعات طويلة كل يوم في هذه المدينة التي ليس لها بداية أو نهاية. كنت أعرف أسماء عدد من الأماكن، وكم شعرت بالغبطة، وكانت أقرب إلى فرح الأطفال، حين أكتشف شبهاً، وليس تطابقاً، بين مكان تخيلته أو قرأت عنه، وبين هذا الذي أراه متجسداً أمامي.

لا أريد أن أغرقكم الآن، أو أن أثقل عليكم، باستعراض الهوايات التي شغلتني. الأهم من ذلك أنني كنت أتمشى ذات صباح بالقرب من قوس النصر. كنت أتطلع إلى الأبنية والأشجار، كان الجو منعشاً، والحياة تتدفق، وفجأة رأيت رضوان!

التقت نظراتنا بسرعة. لم نصدق. أو بالأحرى أنا الذي لم يصدق. كان

مع اثنين. بدا أنيقاً معافى. رآني، لكنه واصل سيره. خفق قلبي بشدة. توقفت. نظرت إليه بإصرار لكي أتأكّد. بعد أن سار عدة خطوات التفت. كانت نظراته بهدف الاكتشاف. حين التقت نظراتنا من جديد لم يستطع أن يتجاهل. لما وجدني واقفاً وقف واستدار بنصف دائرة. صرخت، ولا أعرف لماذا كان صوتي نزقاً:

ـ رضوان!

تعانقنا. تبادلنا القبل. سألني عن صحتي ولماذا أنا هنا. كنت أنظر إلى عينيه، كان يهرب. قلت له: لا أُصدّق أن نلتقي في باريس. ضحك بعصبية وقال: العالم أصبح صغيراً. عرضت عليه أن نجلس في مكان وأن نشرب القهوة معاً. ردَّ بأنَّ طائرته إلى لندن ستقلع بعد ساعة ونصف، ولا يعرف ما إذا كان الوقت الباقي يكفي لأن يصل إلى المطار أم لا. وفي محاولة للاعتذار قال:

ـ أعطني رقم تلفونك وسوف أتصل بك ونرتب كيف نلتقي، ومتى!

لم أسلم بسهولة. طلبت منه تأجيل السفر، إلغاءه، ليس بدافع الشوق والذكريات فقط، وإنما لنتحدث عمَّا يجري في الوطن والتنظيم، خاصة بعد الانقسامات الحادة والخلافات والاتهامات المتبادلة. بدا محرجاً، وغير راغب في مواصلة الحديث، وكان، بين لحظة وأخرى، ينظر إلى اللذين يرافقانه، وكأنَّه يعتذر!

في لحظة معينة سحبني جانباً وهمس في أذني:

ـ لدي مهمة في لندن لا تحتمل التأجيل، وسأعود خلال أيام ونلتقي، أتفهمني؟

فهمت، ولكن كيف يتسنى لي أن أتركه يفلت منِّي هكذا! إنها الفرصة التي كنت أنتظرها منذ شهور، لكي أعرف أية مصائب حلّت بالوطن، وأعرفها من شخص تربطني به علاقة طويلة، زادها السجن قوة.

عرضت أن أُرافقه إلى المطار، وخلال الطريق يمكن أن نتحدث، ارتبك قليلاً وقال:

ـ لدي مع الإخوان بعض الأشغال التي لا تحتمل التأجيل. . .

وبعد قليل، وهو يحاول الابتسام:

ـ سأعود بعد عدة أيام، ونقعد ونسولف!

وافقت في النهاية، مع وعد باللقاء خلال أيام!

وتعاقبت الأيام دون أن أسمع صوت رضوان. التمست له اعذاراً كثيرة. قلت لنفسي: القادة يتنقلون بحذر وخفاء، وكثيراً ما يضطرون لتغيير وجهات سفرهم للضرورة أو لأسباب أمنية!

سوف أترك تفاصيل كثيرة الآن. ربما رجعت إلى بعضها في وقت لاحق، لكن لتتأكدوا أنني لست سادياً، ولا أنوي إيذاء أحد، ولتعرفوا ما الذي جعلني هكذا عصبياً نزقاً غضوباً، وأريدكم أن تصبحوا مثلي. ما جعلني هكذا أنني بعد دخولي المستشفى بعشرة أيام أو أسبوعين، وأثناء إحدى زياراتي لأبي مهند، بعد أن قطعوا له رجله عند أعلى الساق، نتيجة استفحال مرض السكري، في هذه الزيارة رأيت رضوان!

ما كدت أدخل حتى نهض، وكان معه معاون الملحق العسكري، واستأذن، لأنَّ طائرته ستقلع بعد قليل!

لا أستطيع هنا أن أضيف أية كلمة. سوف أدعكم قليلاً، قبل أن أزف إليكم نبأ صدمة أخرى!

ذات ليلة، قبل دخولي إلى المستشفى بيومين أو ثلاثة ايام، قال لي أنيس:

ـ سيزورنا بعد قليل شخص قد تفاجأ به. . .

تطلع إليّ وهو يبتسم، وكان يقيس رد فعلي. لم أسأله ولم أتكلم. تابع:

ـ كان يمكن أن أستقبله في المكتب، ولكن حين عرف بوجودك أصرَّ على زيارتك!

وفي محاولة لإغاظة أنيس أكثر لزمت الصمت، لم أسأله ولم أتكلم!

زفر وهو يهز رأسه، ولم تفارق الابتسامة شفتيه، وتابع بصوت مختلف:

ـ يبدو أن رغبتك في تطليق الماضي لا توازيها إلاَّ رغبة حكامنا في التشبث بكراسي الحكم. .

وأتبع هذه الكلمات بضحكة عالية. وبعد أن هدأ:

ـ سيزورنا الليلة سامي أيوب، وأظنك تعرفه أو على الأقل سمعت الكثير عنه!

ـ سامي أيوب؟

ولا بد أن يكون شكلي قد تغيّر، وظهرت على وجهي انفعالات واضحة. ردَّ أنيس:

ـ نعم سامي أيوب. .

وخلال ساعة أو أكثر قليلاً، أي إلى حين وصول سامي، روى لي أنيس أشياء لم أُصدّقها.

فسامي الذي يحمل على كتفيه حكمين بالإعدام، والذي كان مثل

المشجب تعلق عليه وتنسب إليه مسؤولية الكثير من القضايا باعتباره غائباً، ولا يمكن لسلطات عمورية أن تطاله، والذي كان اسمه يتردّد على كل شفة... سامي الآن، ومعه أطفاله الخمسة، وزوجته، يسكنون في غرفة واحدة، في إحدى الضواحي الباريسية الفقيرة، ولديه من المشاكل ما لا يقوى على حملها عدة رجال معاً!

ـ والسبب؟

هكذا سألت أنيس بانفعال وغضب، ردَّ، وكان صوته هادئاً وعميقاً:

ـ علاقتي به كانت محدودة ومن بعيد، إلى شهور، وقد عرفت وسمعت من أصدقاء أنه اختلف مع التنظيم، أو كانت له أفكار واجتهادات لم ترق للبعض، ولذلك أُنهيت علاقاته أو أنهاها بنفسه، وبعد ذلك تدهورت أموره كلها: انتقل من البيت الذي كان يسكن فيه وسط المدينة. لم تعد لديه موارد مالية. وربما تعرف أن أحد أبنائه معوق ويحتاج إلى رعاية صحية دائمة...

وتنفس بعمق وأسى وأضاف:

ـ ولازم تعرف أن الرجل، وهذه شهادة لله، لم يتحدّث لي حول الموضوع أبداً، وأنا لم أجرؤ على سؤاله أو الخوض في هذه التفاصيل، لأني وجدت ذلك تطفلاً، وربما يحرجه. ورغم أن علاقاتنا توثّقت خلال الفترة الماضية، لكن أحاديثنا، أغلب الأحيان، تبقى في العموميات، عدا مرة واحدة، شرب خلالها، وبدا أن لديه ما يريد أن يبوح به، وما كاد يبدأ حتى انتبه لنفسه فكسر القدح وغرق في موجة من البكاء!

أمّا كيف توثقت العلاقة بيني وبينه فمن خلال أحد الأصدقاء، إذ سألني هذا الصديق إذا كانت لدي مواد للترجمة من الفرنسية إلى العربية، وحين أكّدت له أن مثل هذه الترجمات قليلة، ولدينا مَن يترجم، فقد طلب بإصرار توفيرها، لأنّ الأمر بالغ الأهمية والحساسية، ويعني أحد أصدقائه، فعرضت أن أقدّم تبرعاً لمساعدته، فردَّ عليّ: «تموت الحرة ولا تأكل بثديها والمسألة أولاً وأخيراً متعلقة بسامي أيوب!» وهكذا تعرفت عليه حين أعاد المواد بعد أن ترجمها، واستمرت العلاقة وقويت!

وهكذا، بعد أن تعرفت على سامي أيوب، وعرفت أشياء كثيرة، وبدأنا نفكر في الماضي والمستقبل، ما كان وما يجب أن يكون. وكيف كانت مواقف

الكبار والقادة، هنا أو في الوطن، في الظاهر والعلن، وسامي يعرف الكثير الكثير، فقد أصبحت أقرب إلى حالة التمزّق والجنون، ولا أملك تفسيراً لما يقال وما يجري على الأرض، في الواقع، وهذا ما دفعني لأن اتكلم، لأن أنشر بعض الأوراق!

أعرف أن المسألة لا تخلو من خطورة، لكن أقول لنفسي لقهر التردد: يجب أن تكون الحقيقة ملك الجميع، لأنها وحدها قاربنا الأخير للإنقاذ، ثم أن الكثيرين يملكون حقائق ومعلومات أخطر مما لدي، ولا بد أن يتجرأوا ذات يوم على قولها، أو على كتابتها وإيداعها لدى أصدقاء، وحين تعرف، حين تنشر، فإنَّ أشياء كثيرة سوف تتغير!

حرائق الحضور والغياب

الأوراق التالية شهادتي، أنا طالع العريفي، أحد الذين عاشوا في سجون موران، لمدة عشر سنين متوالية. قد لا يحتاج الأمر إلى التنبيه أنني سجين سياسي، وإنني قضيت هذه المدة كلها دون محاكمة قانونية ودون حكم. وهذه الحالة الأخيرة لا تقتصر عليّ، إذ إن جميع السجناء، وقد مرَّ على بعضهم زمن يزيد عمَّا قضيته، وربما ضعفه، موجودون دون أن يعرفوا المدة التي سيقضونها في السجن، ولا يعرفون ما يخبئ لهم الغد.

أكتب هذه الأوراق بعد أن رُحّلت من موران، وبعد انقضاء فترة طويلة، نسبياً، على مغادرتي للسجن. ومعنى ذلك أنني الآن أقل انفعالاً، وربما أقل حقداً، وأحاول، قدر ما أستطيع، أن أرسم صورة لما حصل منذ لحظة القبض عليّ، وحتى إبعادي عن موران.

ليس الهدف من الكتابة إثارة الشفقة أو استعراض بطولات فردية، كما ليس هدفها توجيه الشتائم لحكام موران، أو الانتقام من الجلادين بتسميتهم وفضحهم، لأنَّ المشكلة، كما تبدو لي، أكبر من ذلك وأخطر، إذ إنها تتعلق بطبيعة النظام وتركيبه، مما يتطلب أن نتعامل مع ظاهرة السجن والجلاد ليس من منظور شخصي، وإنما باعتبارها نتيجة خلل عميق، وإفراز لعلاقات غير متكافئة، إضافة إلى فهم خاطئ لطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ولحقوق وواجبات كل منهما.

ربما ليس من حقي، هنا، أن أُقدّم تنظيراً أو شروحاً لظاهرة القمع، كيف بدأت وكيف تطورت، وما هي بواعثها، وأخيراً احتمالاتها، لأنَّ تنظيراً

من هذا النوع مهمة الباحثين والمفكرين، وأنا، وأشكر الله على ذلك، لست واحداً من هؤلاء؛ أكثر من ذلك قد أخطئ في تفسير هذه الظاهرة، وقد أخلط، وبالتالي أسيء، بين عرض التجربة وهذا ما أستطيعه، وما هو مطلوب مني أيضاً، وبين ردّها إلى جذورها وأسبابها الحقيقية.

وملاحظة أخرى: أنا الآن أكتب من الذاكرة، في ظل ظروف صحية دقيقة، ولذلك يحتمل أن تكون كتابتي، أو أجزاء منها، مضطربة أو متداخلة، وقد تفقد تسلسلها في بعض الأحيان، لأنَّ ذاكرة الإنسان أعجب وأخطر شيء في تكوينه، ولذلك يمكن أن تفوتني بعض الأمور الهامة، أو أعطيها أهمية أقل أو أكثر مما تستحق وهذا مجرد تقدير شخصي.

وملاحظة ثانية جديرة بأن تسجل: أن حجم العذاب الذي قد يلمسه مَن يقرأ هذه الأوراق، والقسوة التي قد تصطدمه، وأيضاً الوحشية التي تقابله في سلوك الأفراد، يجب أن لا يخلق الخوف، أو التردّد، وربما أُبالغ وأقول: يجب أن يخلق موقفاً معاكساً، أي أن يحفزنا على استثمار هذا الحقد وتوجيهه في الاتجاه الصحيح، ليس ضد أفراد وإنما ضد حالة، لأنَّ هذه الحالة هي التي خلقت مثل هؤلاء الأفراد المشوهين.

أنا على يقين كامل أن عدداً كبيراً من الجلاّدين هم أيضاً ضحايا. لا أتحدث هنا عن المرضى، والمعطوبين، أو مَن لهم مصلحة، ولكني أتحدث عن الإنسان الموجود في داخل كل جلاد، وكيف استطاعت حالة القمع التي أريد لها أن تنتشر وتعمّم، جعلت هذا الإنسان الموجود في الداخل يغفو أو يصم أذنيه، وبمرور الوقت خُدّر أو أصبح عاجزاً عن المقاومة.

لقد أردت لهذه الأوراق أن تكون شهادة صادقة ومحايدة قدر الإمكان، وأن تجعل كل مَن يقرأها يزداد قوة ورغبة في تدمير القمع وهدم السجون، والمساهمة في خلق وضع إنساني يمكن أن يعيش فيه الناس دون أن يقتل بعضهم بعضاً، ودون أن يصبح الدم لغة الحوار الوحيدة.

وهنا أصل إلى الفقرة الأخيرة في هذا المدخل: هذه الأوراق ما كانت لتكتب لولا وجود محرض جمعتني به المأساة في مستشفى كارلوف. إنه عادل الخالدي. فهذا الرجل لديه قناعة تصل حدود اليقين أن الكلمة يمكن أن تترك

تأثيراً كبيراً، وإنها أساس كل تغيير، ويجب أن تكون سلاحنا الأساسي في المرحلة الراهنة.

لقد ظلّ عادل يلاحقني ويلح عليّ من أجل تدوين تجربتي عن السجن، ورغم تردّدي الذي استمر أسابيع عديدة، فقد اقتنعت، أو اقتربت من الاقتناع، أن تدوين مثل هذه التجربة أمر غير ضار، إذا لم يكن مفيداً، وهذا ما جعلني أكتب الأوراق التالية!

ولا حاجة لأن أقول، كما يفعل المؤلفون الإنكليز بشكل خاص، إن كل خطأ أو تقصير، وأيضاً كل تعبير نابٍ في هذه الأوراق، أنا وحدي مسؤول عنه، ولا أحد غيري.

أمّا الشكر فلعادل الخالدي، هذا الإنسان الحساس والشديد الرهافة، عاشق الكلمة، والواهم أيضاً أنها طريقنا، الآن، للوصول إلى الحرية!

أتذكر.. قبضوا عليّ وكنت خارجاً لتوي من سوق الحلال!

كان الوقت حوالى الظهر، في يوم من أيام أيار المتأخرة. وفي مثل هذا الفصل قبل دخول الصيف الكبير، يكون الجو عادة رضياً مقبولاً، ويكون السوق هادئاً أقرب إلى الركود، إلاَّ أن شتاء تلك السنة انقضى دون أمطار، وتبعه ربيع قصير مغبر، وبدءاً من الأيام الأولى لأيار اشتدت الحرارة وثقل الجو، وتدفقت، على غير انتظار، الرعايا من البادية، ومعها الوجوه المتجهمة والغضب، وامتلأ سوق الحلال بالذين يريدون بيع أغنامهم ودوابهم بأسرع وقت، وبعد أن تعذر عليهم إطعامها أو تأمين العلف لها، وتخوفهم أيضاً من الرعايا التي سوف يتزايد وصولها يوماً بعد آخر، وكان المشترون يتردّدون ويتأخرون ويطيلون المساومة، ويرافق ذلك، الفوضى والخلافات.

وإذا كانت العادة أن يبلغ السوق ذروته يوم الخميس، فقد كانت أيام ذلك الشهر خميساً متصلاً، وهذا ما جعل المخبرين يقيمون في السوق لا يغادرونه، ورغم الزحام والأصوات العالية وحركة الناس الثقيلة، مما يجعل السوق كله كتلة يصعب اختراقها أو تحديها، إلاَّ أن هؤلاء المخبرين الذين ظلوا على أطراف السوق يراقبون ويتابعون، ويتنصتون إلى ما يدور، بدأوا يخافون مما يتردّد على ألسنة الناس من الشتائم والتحديات، وحين انتقلت تلك الشتائم إلى الرؤساء ثم إلى القصر، فإنَّ الخوف زاد أكثر من قبل، مما أدّى إلى حملة واسعة من الاعتقالات، شملت الكثيرين.

وهكذا كنت أحد الذين قبض عليهم!

صحيح أن اعتقالي لم يكن متوقعاً، إذ لم أكن معروفاً لا بالاسم ولا بالهيئة، خاصة واني حديث الإقامة في موران، لكن تردّدي على السوق باستمرار، ولأنّي لم اشترك في عمليات البيع والشراء، أو حتى المساومة، فقد أصبحت، دون أن أدري، موضع رقابة عدد من المخبرين.

كان المخبرون يكتفون بالمراقبة، وينشغلون أكثر ما يكون بالغرباء والأخبار التي يحملونها، وبعض الأحيان بفضّ المنازعات التي تقع فجأة نتيجة عمليات خداع وتدليس برع بعض دلالي السوق فيها، خاصة مع البدو الذين يصلون السوق لأول مرة. ولأنّ هؤلاء المخبرين يشغلهم أكثر من همّ، إذ كانوا حريصين على تحصيل «ديون مستحقة» لهم عن خدمات سابقة قدموها، فلم ينسوا أن يستفيدوا من هذه الفترة أكثر من فترات سابقة بعمليات البيع والشراء، نظراً لتدنّي الأسعار، ولذلك كانت تظهر عليهم ملامح التجار أكثر من صفات المخبرين، الأمر الذي جعل سوق الحلال مصيدة بدل أن يكون غطاء لبعض المهمات التي كنا نقوم بها، وكان هذا ما أوقع بي. إذ ما كدت أصل أسوار السوق حتى اعترضني ثلاثة أشخاص، وبهدوء، لكن بحزم، طلبوا إليّ مرافقتهم. رفضت، حاولت أن أُقاوم، طلبت منهم أن يبرزوا لي ما يثبت صفتهم والأسباب التي تستدعي القبض عليّ؛ قال لي المسؤول، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ امش معنا برضاك أحسن ما تتبهدل وينكسر راسك!

بعد أن تلفتُّ هنا وهناك، ولم أجد أحداً يعرفني، أو يمكن أن يقف إلى جانبي، اضطررت إلى مرافقتهم!

على مسافة غير بعيدة من السوق كانت تنتظرنا سيارتان، وبخفة وبراعة دفعوني في السيارة الأولى، وجلس إلى جانبي اثنان، واحد من كل جهة، وانطلقت السيارتان بسرعة، وأخذنا طريق العوالي.

كانوا صامتين، وكنت، خلال ذلك، أُفكّر بالاحتمالات والإجابات الأفضل. ورغم التوتر، فقد أحسست أن الإنسان إذا اعتقل بمفرده أفضل من أن يعتقل مع الآخرين، خاصة الفترة الأولى، إذ يستطيع في هذه الفترة أن يهيئ نفسه، أن يحضّر الإجابات الأكثر ملاءمة، بدل أن ينشغل بحل التناقضات التي تنشأ من الإجابات المتعددة والمتباينة. قلت لنفسي بنوع من

العزاء: «لو أني اعتقلت مع بعض الذين التقيت بهم في سوق هذا اليوم لوقعت مصيبة لا يمكن تلافيها!»

الصمت قوي شامل ونحن نجتاز موران، وما عدا الأنفاس وصوت محرك السيارة، لم يكن يُسمع أي صوت.

بعد أن قطعنا بضعة كيلومترات، وأصبحنا خارج المدينة، استخرج الذي كان يجلس إلى يميني قطعة من القماش وعصّب عيني. فعل ذلك دون كلمة، وبطريقة آلية متقنة.

استدارت السيارة أكثر من مرة. انعطفت في طرق جانبية، وبعد نصف ساعة تقريباً توقفت. أمسكوا بيدي وأنزلوني. قادوني بضع خطوات ثم صعدنا درجاً. فُتح باب غرفة، دُفعت إلى داخلها. وغابوا.

فعلوا ذلك بطريقة آلية، وبصمت. قلت لنفسي: «الصمت، بعض الأحيان، لغة خطرة وشديدة التعبير». كنت أسمع، بين فترة وأخرى، ومن بعيد، وقع أقدام أو أصواتاً، لم أكن استطيع تمييزها بوضوح. بعد عدة دقائق تجرأت على نزع العصابة عن عيني: غرفة واسعة، في جانب طاولة كبيرة حولها، من جهة واحدة، عدة كراسٍ، وفي الجانب الآخر من الغرفة سرير عسكري. ولم يكن في الغرفة نوافذ، والضوء الكهربائي دائم الاشتعال.

لم يتركوني طويلاً. جاؤوا. كانوا ثلاثة: شاب بجسم رياضي، نظيف، واثق من نفسه وقوته، والآخران أقرب إلى الكهولة، ويبدو أنهما مرؤوسان للأول. بعد أن طلب مني ذلك الشاب الجلوس على كرسي في طرف الطاولة، وجلسوا هم وراءها، قال لي، وكان صوته محايداً:

ـ نحن نعرف عنك كل شيء، نعرف مَن أنت ولماذا أنت هنا. ولذلك يجب أن تعترف، لأنَّ النجاة في الصدق.

قال ذلك بثقة، وبعد قليل:

ـ سوف أوجّه لك أسئلة وأنت تجيب. لن أقول لك أين صدقت وأين كذبت، لكن يجب أن تكون متأكداً: نحن نعرفك جيداً، ونعرف كل شيء عنك!

وبدأت أسئلته. كان وحده يسأل، والاثنان الآخران لا يفعلان شيئاً سوى مراقبتي، دراستي، النظر إلى عيني مباشرة، في محاولة لاكتشافي،

لمعرفة مَن أكون وأيضاً لإرهابي من خلال تلك النظرات التي تندقّ في أنحاء حساسة من جسدي وكأنها المسامير. كانت النظرات تنزلق إلى ما تحت الجلد، كانت بارعة لاذعة، وكنت أشعر بالارتباك مع كل كلمة.

تركزت المعركة الأولى حول أمور محددة: مَن أكون، أين أسكن، لماذا أنا في موران!

أجبت عن الأسئلة باختصار. ذكرت أنني من روضة المشتى، وأنني بعد أن عجزت عن تأمين رزقي هناك جئت إلى موران بحثاً عن عمل أو صيغة للحياة. أمّا عن اقامتي فأنا أنام في المساجد، وفي بعض المضافات، بعد أن نفدت نقودي، وإن كنت قد أقمت في بعض الفنادق الصغيرة خلال فصل الشتاء!

في لحظة ما تطلع إليّ وابتسم بسخرية. وقال:

ـ أنت كذّاب أشر..

وبعد قليل، وهو يمزق الأوراق التي كتبها:

ـ كل ما قلته لا أصدّقه، ومع ذلك، سوف أعطيك فرصة هذه الليلة لتفكر وتعود إلى عقلك وإلا ستندم، ستندم كثيراً.

ودون تردّد أو انتظار نهض، ونهض الآخران، قال وهو يتركني:

ـ انتبه جيداً سأعود غداً، وأريدك أن تعترف بكل شيء... وإلاّ!

وخرجوا!

في وقت ما جلبوا لي طعاماً. بدا لي أن الطعام تمّ شراؤه من السوق، فقد كان نظيفاً متنوعاً. حمله إليّ رجل مقنّع. وضعه أمامي دون أية كلمة وخرج.

إنها الجولة الأولى في معركة طويلة. بدا لي الأمر واضحاً منذ لحظة القبض عليّ، لكن كنت أريد أن يمر بعض الوقت، إذ بمجرد مروره لا بدّ أن يعرف أنه قُبض عليّ، وسيتأكد ذلك لغيابي عن البيت، لعدم حضوري بعض الاجتماعات أو المواعيد، وأيضاً من خلال أخبار أهل السوق، فالناس رغم أنهم لا يتدخلون في بعض الحالات، إلاّ أنهم يروون ويتكلمون، وعند ذاك لا بدّ أن تصل الأخبار.

وكنت أفترض أيضاً أن انقضاء الوقت سوف يساعدني نفسياً للتحقيق

والتعذيب، لأنَّ المفاجأة تجعل الإنسان مرتبكاً وخائفاً، وأي من هاتين الحالتين تؤدّي إلى جملة من الأخطاء قد لا يستطاع تلافيها في وقت لاحق.

والجولة الأولى بالنسبة لهم مجرد اختبار لمعرفة وتحديد أهمية المعتقل، والطريقة المناسبة للتعامل معه. ولذلك فإنَّهم يلجأون إلى إيهامه بأنهم يعرفون عنه كل شيء، والأفضل بالنسبة له الاعتراف، لأنَّه الوسيلة التي تختصر العذاب. ويحاولون، قدر الإمكان، اختبار أكثر من أسلوب، مرجئين التعذيب، لأنَّ الاهانة التي تلحق بعض المعتقلين من خلال التعذيب تجعلهم أكثر عناداً وإصراراً.

في اليوم التالي جاءني المحقق الشاب وحده:

ـ إسمع.. تكون مجنوناً إذا تصوّرت أنك تستطيع إقناعي من خلال الأوراق المهترئة التي تحملها أنك من موران وأنك متسبب.

وبعد قليل وهو ينظر إلى عيني بتحديد:

ـ في الصدق النجاة، وأفضل لك ألف مرة أن تعترف، لأنَّك إذا اعترفت لي يمكن أن أُساعدك، يمكن أن أُخفّف عنك، أمّا إذا بقيت عنيداً، وتصوّرت أن هذه الطريقة في الإجابة عن الأسئلة تنقذك فأنت واهم وغلطان.

تنفس بعمق وسأل:

ـ من أين حصلت على هذه الأوراق؟ مَن أرسلك إلى موران؟ ما هي المهمات المكلف بها؟ أريدك أن تجيب عن الأسئلة... وإلاَّ

ـ كما ذكرت لك أمس: أنا رجل متسبب، فقير، وبعدما ضاقت بي السبل ولم أجد عملاً أو مكاناً لنفسي: ليس لك إلاّ موران يا ولد، فهي مدينة كبيرة، والأشغال فيها كثيرة، ومثلما وفرت العمل والحياة للآلاف لا بدَّ أن توفر لك.

ـ هذا الكلام يمكن تقوله في سوق الحلال لبدوي لا يعرف راسه من رجليه، لعلّه ينزّل لك كم قرش براس غنم تريد تشتريه منه، أمّا عليّ فيفتح الله!

ـ والله الكلام اللي قلته لك أقوله للكبير والصغير، اللي أعرفه واللي لا أعرفه، وما أريد أخدع أحد.

قال وهو يضحك:

ـ وغير هذا الكلام عندك كلام؟

ـ ابد، الله يسلمك!

ـ هالحين راح اتركك تفكّر، تحسب وتوازن، تضرب أخماس بأسداس، وباكر إذ جيتك وسألتك وجاوبت مثل ما جاويتني اليوم ترى ارفع يدي واسلمك لمن يعرف يخليك تطّلع كل اللي ببطنك، فأحسن لك ولنا أن تعترف أمامنا لأننا نقدر نساعدك، نخفف عنك، أمّا إذا استلموك الجماعة فاقرأ على روحك الفاتحة...

ولما وجدني صامتاً، وربما مصراً، أضاف بلهجة مختلفة:

ـ راح اتركك هالحين، بس تفطّن زين اللي قلته لك، وغداً لناظره قريب.

وتركني وخرج!

وجاء في اليوم التالي وكان برفقته مساعداه اللذان جاءا معه في اليوم الأول. نظر إليّ طويلاً، وكان صامتاً. سألت عيناه ما إذا كان لدي ما أقوله، وحين تأكّد أنه لم يجد ما يريد جاءت كلماته:

ـ ها... عسى أن الله فتح عليك؟

وحين اعتبرتُ أنه لم يسأل، وليس مطلوباً مني جواباً، فقد صمتُّ. هزَّ رأسه عدة مرات وسأل:

ـ متسبب، فقير، بياع شرّا، تنام بالمساجد والمضافات، هذه سوالف لا تقنع أي إنسان، والأسئلة اللي سألتك أمس وأول امس: من أين حصلت على هذه الأوراق؟ مَن أرسلك إلى موران؟ ما هي المهمات المكلف بها؟ أين كنت تسكن منذ أن وصلت وحتى الآن؛ هذه الأسئلة إذا أجبت عنها بصدق تنقذ روحك، تأمن أن راسك سالم، فما هو قولك؟

تنفست بعمق. تطلعت إليه بمسكنة، في محاولة لأن أُقنعه بصدق إجاباتي، وقلت:

ـ مثل ما ذكرت لك أول مرة: أنا رجّال مسكين، على باب الله، أدور خبزتي وأترزق الله، وما أدور طلايب وما عندي طلايب، ويجوز انكم تدوّرون على غيري!

ـ لدينا معلومات أكيدة انك من الدواحس، وانك مكلف بمهمة، فإذا اعترفت خلّصت روحك، وإذا ظليت منكر ترى مثل ما قلت لك امس: أرفع يدي، وبعدها الله يستر، فشنهو قولك؟

ـ الله يسلمك مثل ما قلت لك أمس وأول أمس!

ـ الله لا يسلّم فيك عظم يا ابن الحرام.

وبعد قليل:

ـ يبين عليك: مقطّع موصّل، وما تجي إلاّ بكسر الراس، يا ابن الحرام!

وفي هذه اللحظة دخل عدد من الأفراد، لا أعرف كيف استدعاهم، قال لهم بحزم أقرب إلى الأمر:

ـ خذوه!

لا أعرف أين كنت أو إلى أين سيأخذونني، إذ ما كاد المحقق يغادر الغرفة، حتى ربطوا العصابة حول عيني، وأحكموا شدّها، وكانوا أكثر عداء وشراسة، وأخذوني إلى مكان آخر، يبعد عن المكان الأول بمقدار ساعة في السيارة!

أدخلوني إلى مكان، طلبوا منّي أن أبقى واقفاً ومشدود العينين، وابتعدوا!

المكان الذي أنا فيه هادئ ساكن؛ على مسافة غير بعيدة أسمع أصواتاً وضوضاء. لا أستطيع أن أقدّر المسافات أو تحديد مصدر الضجة، ولست متأكداً ما إذا كنت وحدي أو أن أحداً يرقبني، ولذلك لم أجرؤ على نزع العصابة أو تغيير موقعي. كنت مربوطاً دون حبل. كنت أرى من خلال أذني، ولا أعرف ما هي الخطوة القادمة.

فجأة امتلأ المكان بدوي مكتوم. بدأت أسمع وقع أقدام تتجه نحوي. كان القادمون صامتين، لكن كنت أحس اقترابهم. هل يقصدونني؟ يمرون في المكان؟ كم عددهم وما هي أشكالهم؟ لم أستطع أن أقدّر. الأقدام تقترب والصمت. أخذت الأقدام، وهي تقترب أكثر، تصبح أكثر حذراً، وكأنّها تحاول التخفي، وأحسست في لحظة معينة وكأن بعضها تجاوزني، وفجأة، وكما تقع الزلازل، أو كما تنفجر البراكين، وبطريقة شديدة البراعة، والإتقان، وجدت أن أبواب الجحيم فتحت عليّ: الضرب، اللكمات، بالأيدي، بالأرجل، بالرأس والأكتاف، كلها انصبت عليّ. كانت القبضة،

لأنها قوية ومحكمة، توقعني أرضاً، وكانت القفزة فوقي تجعلني أمتزج بهذه الأرض، وما ان إستقر لحظة في حالة حتى تنتزعني يد مدرّبة وشديدة الجبروت من تلك الحالة وتطوح بي في الهواء، وقبل أن أصل إلى حائط أو إلى الأرض تتلقاني ضربة أقوى منها فأرتدّ!

إنني الآن، ورغم مرور سنين طويلة، لا أتصور أن استقبالاً يمكن أن يُجرى لإنسان يماثل ذلك الاستقبال. وربما كان عددهم يزيد على السبعة، وكانوا أقوياء ومدرّبين، وكنت بينهم كالكرة.

في لحظات كثيرة افترضت أن الغاية أو النتيجة المؤكّدة لهذا الضرب أن أموت. لقد بلغت أكثر من مرة حدود الموت، فخلال فترة تزيد على الساعة بدا لي أن الموت ليس احتمالاً وإنما حالة أعيشها، خاصة وأن طريقتهم، الأماكن التي يتخيرونها، الشدة والسرعة في الضرب، الحماس الذي يزيد ويتعالى مع مرور الوقت، جعلني على يقين أن الأمر يتجاوز التعذيب، وأن الهدف أن أموت بين أيديهم!

لم يسألوني عن أي شيء. لم يكونوا يريدون شيئاً سوى قتلي، أو على الأقل أن يوصلوني إلى الموت تاركين لغيرهم أن يستعيدني من هناك إذا كان ذلك ضرورياً. كانوا في لحظات معينة، وبكلمات قليلة، يطلبون من بعضهم أن يجربوا ضربات بذاتها، فما أن يوقفوني على رجلي، بعد سقطة من قبضة، حتى أحسّ أن قدمين، وبقفزة بارعة، طوّحت بي لا أعرف أين، فإذا طال ترنّحي هبطت عليّ قفزة من نوع آخر لكي تعجن جسدي بالأرض، لكي تسويه معها! كنت أتمنى أن أراهم، أن أعرف خصومي، لكن احتمالاً مثل هذا لما بدا ممكناً، في لحظة حاولت خلالها أن أُقاوم، فقد قيدوا يدي إلى الخلف، وأحكموا، بطريقة مجنونة، ربط العصابة حول عيني. كما أنهم لم ينسوا إحكام العصابة بين فترة وأخرى، وكأنَّهم يخافون أن أراهم، أن أعرفهم. في مرات عديدة، وهم يشدون العصابة، كنت أتصور أن الهدف أن يفجروا رأسي، أن يقسموه إلى نصفين، وكنت أحس، وهم يشدون بهذه الطريقة، وكأنّ رأسي أصبح كالبيضة المسلوقة، إذ لن يلبث أن ينعجن، أن يفقد استدارته وصلابته ويتحول إلى شيء آخر!

لو أن الأمر اقتصر على الضرب، بأشكاله غير المحدودة، لوجدت له

تفسيراً من نوع ما! ربما كانوا يتمرنون أو يتبارون، وربما كانوا يتراهنون، ولكن ماذا إذا ترافق مع كم هائل من الشتائم البذيئة؟

حتى تلك الليلة لم أكن أتصور أن هناك هذا الكم من الشتائم التي يمكن أن تستعمل، أن يقولها أحد في مواجهة إنسان آخر. كانت شتائمهم تتوالى وهم يضحكون، وكأنَّ أحداً يكركرهم. كانوا شديدي التمتع وهم يطلقونها، وربما اعتبروها من صيغ التحريض أو توزيع الأدوار، إذ ما تكاد تتوقف الشتائم حتى يبدأ دوي الأيدي والأقدام، ومعها أصوات أقرب إلى أصوات الحيوانات، حتى إذا سقطت، اصطدم رأسي بالجدار، أسمع طريقة جديدة في الشتم، مع ضربة لم أكن أتوقع مكانها أو طريقتها!

طبيعي أنني مثلما حاولت المقاومة بيدي وساقي، وسرعان ما شلُّوا اليدين على الأقل، حين ربطوهما إلى الخلف، وأصبحت الساقان كأنَّهما من طين بعد الضربات التي انهالت عليهما، وبعد أن فقدت توازني نتيجة ربط اليدين، فإنَّ لساني حاول المقاومة إلى النهاية، لكنه كان كسمكة صغيرة، مثل أسماك الزينة، في خضم هذا البحر من الحيتان العمياء.

في وقت متأخر، حين كنت أستعيد حفل الاستقبال الذي جرى، وأتذكر بعض الشتائم التي كنت أرد بها على ضرباتهم وشتائمهم، لا أتمالك نفسي من الابتسام! لقد كان قاموس شتائمي فقيراً محدوداً، وليس فيه أي إبداع أو خيال، ولا أُبالغ إذا قلت إنه مثل ابرة تريد أن تحفر جبلاً. ليس ذلك فقط، كانت تلك الشتائم تثير سخريتهم، وكانوا يردون عليها بإحدى طريقتين أو بالطريقتين معاً: بشتائم تفوق حجماً عشرات المرات، وأيضاً بطريقة عملية، إذ بعد أن ينتعظوا كانوا يحتكون بي بطريقة معينة، أو يركبون فوقي، وكانوا يقولون لي، لأنفسهم، لبعضهم: هكذا تكون الشتائم، وهكذا تكون الأفعال يا أيُّها الطفل الأبله!

هذه الليلة لا يمكن أن توصف. قدّرت أن تكون ليلتي الأخيرة، ولذلك قرّرت أن أحرمهم من الفرح: يجب أن لا أطلب شيئاً، يجب أن تموت كلمات الاستغاثة والتوسل. يجب أن أموت دون أن يسمعوا الكلمات التي كانوا ينتظرونها!

وإذا كان الإنسان، أي إنسان، يتعب، يملّ، في لحظة معينة، من

رياضة أو عمل، ويحاول أن يتوقف أو يستريح، فإنّهم كانوا كالقردة أو مثل أسماك القرش، مع نزف الدماء، مع تلاشي الخصم أو تراجعه، يزدادون شراسة وعنفاً. وكانوا، في أحيان كثيرة، كالدراويش، ما أن تزداد الشتائم وتعنف الضربات حتى يدخلوا في حالة من العنف أعلى من التي سبقتها وأشد. وإذا جسدي لم يحتملني إلى النهاية، إذ بدأ يتخلّى عني جولة بعد أخرى، فإنّ لساني لم يضعف، ولم يتراجع. أكثر من ذلك بدأ لساني يعوي مثل كلب: «قتلة مجرمين، قتلة مجرمين، قتلة مجرمين» ولأنّي أصبحت أردّد هاتين الكلمتين بالذات، وكأني اسطوانة مشروخة تدور في نفس الدائرة، فقد صرخوا:

ـ غيّر يا ابن ستين كلب.

وينهالون عليّ أكثر من قبل، وأدور في عالم شديد السواد والجنون، وحين يسمعون شتيمتي تتردّد بنفس النغم، لكن بوتيرة تعلو وتهبط، تبعاً لقدرة جسدي وإمكانيته في أن يقف إلى جانبي، كانوا يصرخون:

ـ إذا كنا قتلة ومجرمين. . . خذ يا ابن الشرموطة!

ـ قتلة مجرمين، قتلة مجرمين، وأنا أشرف منكم ألف مرة!

في وقت ما، وحين بدأ جسدي يغادرني، يتركني وحدي أُصارع هؤلاء القتلة، أخذوا يرشون عليّ الماء. كنت أعود من المكان البعيد الذي وصلت إليه نتيجة الماء البارد، نتيجة الماء الساخن، إلى أن غبت تماماً عن الوعي، ولا أعرف متى اكتشفت نفسي في المكان الآخر.

في وقت ما أفقت. بصعوبة حاولت أن اكتشف المكان الذي أنا فيه، أن أتبين معالمه. بعد جهد، وبعد فترة غير قصيرة بدأت صورته تتكامل في عيني: إنه يشبه الممر، طوله ثلاث خطوات وعرضه خطوتان. إلى اليمين دكة بارتفاع شبرين، عليها حشية من القش، فوقها بطانية لا يمكن لأحد أن يحزر لونها الأصلي. من الأعلى، ومن خلال بلاطات زجاجية، يتسرّب نور باهت هو الذي يعلن قدوم النهار أو انتهاءه، ويستطيع الإنسان على أساسه أن يحدّد بأن يوماً آخر قد انقضى. في صدر القفص دورة المياه، والتي لا تكف عن نفث رائحة قاسية، وتصدر عنها أصوات كأنها التجشؤ، لارتباطها بدورات المياه في الزنزانات الأخرى، وأيضاً لارتباطها بالدورات العامة، وراء الجدار، حيث يشكل الجدار نهاية الدهليز، وفيه ساحبات الهواء التي تصب روائحها في المكان كله، خاصة الزنزانات.

الحنفية قريبة من دورة المياه، واطئة، ويتسرّب منها الماء باستمرار بوقع ثابت كأنّه دقات الساعة، لا يمكن للإنسان أن يستعملها إلاّ إذا باعد بين ساقيه، فهي أعلى من قامة الجالس، وأكثر انخفاضاً من قامته إذا وقف، ولأنّها لا تتوقف عن التنقيط فكأنها لا تكفّ عن البكاء أو تعلن عن زمن سرمدي دائم الجريان!

لم أستطع أن أتأكّد من مواصفات هذا القفص إلاّ بعد مضي عدة أيام، وبالتدريج أيضاً. فالآلام التي كنت أُعاني منها لم تترك لي فرصة الالتفات أو التركيز، يضاف إلى ذلك: الصمت الذي يسيطر معظم الوقت، مما يجعل

السجين في حالة أقرب إلى الترقّب أو الخوف.

طعام الأيام الأولى لم تمتد إليه يدي، ولا أتذكر متى جيء به أو مَن حمله إليّ. وما عدا قطرات من الماء، أو سائل ساخن، تسرّبت إلى حلقي فجوفي، ولا أعرف مَن فعل ذلك، فلم أذق طعم أي شيء.

لما بدأت أصحو شيئاً فشيئاً أخذت أميّز الدم والبراز، ثم رأيت الجرذان. أما حين أصبحت قادراً على التركيز أكثر فقد اكتشفت أنواعاً عديدة من الحشرات تدب في كل الأنحاء، وكان هدفها الأساسي الطعام!

مع تزايد الصحو، وخلافاً للآلام نتيجة الضرب، فقد بدأت أحس أن صدري من الداخل يتعبني، وبالتدريج أصبحت أربط بين هذا الألم والهواء المحبوس الكثيف والمثقل بروائح خانقة.

الصمت المسكون بالانفجار يملأ المكان كله، ويجعله خطراً.

صلتي بالعالم الخارجي مجرد كوة وسط الباب، تفتح إلى الخارج، ومنها تمتد يد لترمي رغيفاً في الصباح ومعه بضع حبات من التمر، ومثله في المساء، أمّا وقت الظهيرة، فإنَّ اليد، وبعد أن تفتح الكوة، تطلب بحركة معينة، وغالباً دون كلمات، صحن الألمنيوم المسود الجنبات، لتضع فيه كمية من الفاصولياء أو الفول، وبعض الأحيان أنواعاً من الخضرة لا يمكن معرفة أصولها. تفعل ذلك بصمت وسرعة، يعقبها إغلاق الكوة حتى يحين الموعد الآخر!

هكذا كانت صلتي مع العالم الخارجي. أمّا عالم الزنزانة، الذي بدا لي خاوياً أول الأمر، فقد أخذ يمتلئ يوماً بعد آخر، ويصخب! فالمخلوقات الصغيرة التي لا أعرف أين كانت أخذت تزحف في كل مكان، وقد حرّضها على ذلك توفر الطعام ورائحته، والجرذان التي لم تكن تظهر إلاّ في الليل، وكانت تقترب بحذر بالغ لالتقاط الطعام، تجرأت يوماً بعد آخر، أخذت تقبع في الزاوية، ولا تتردد في أن تبادلني النظر دون خوف. ولأني أصبحت أشارك هذه المخلوقات ما ترميه لنا اليد التي تفتح الكوة ثلاث مرات في اليوم، بعد أن أخذت آلامي تخف، وأصبحت بحاجة ماسة للغذاء، فقد تغيّرت علاقاتي بهذه الكائنات، وتغيّرت العلاقات فيما بينها أيضاً. فالطعام الذي كانت تحتكره وتتقاسمه، وتنقل ما تبقّى منه لا أعرف إلى أين، لم يعد

كافياً أو موجوداً، وهكذا أخذت تدخل في صراع فيما بينها بالغ الحدة والعنف، إذ ما أكاد أرمي بقطعة من الخبز حتى تشب متصارعة يريد الواحد أن يمزق الآخر، قبل أن يستولي على تلك القطعة. وربما وقع الشيء ذاته فيما بين الكائنات الأدنى، دون أن أستطيع رؤيته!

ما أوسع هذا العالم، وكم فيه من الصراع الدامي!

ولأن الصلة مع العالم الخارجي كانت تلك اليد المشعرة التي تفتح الكوة ثلاث مرات في اليوم، ويعم بعدها الصمت، فقد افترضت أني وحدي في هذا المكان المعزول. ولأنَّ الجو أخذ يزيد ثقلاً بتقدم الأيام الحارة، حيث يتوقف الهواء، فإنَّ الرائحة الكريهة، وهي مزيج من المياه الآسنة الخانقة، وعرق الجسد وبقايات الدم اليابس، تجعل الإنسان في حالة من الخدر أقرب إلى التلاشي، يفقد القدرة على التفكير، على الحركة، وتضمحل الرغبات أيضاً.

ذات مساء، أثناء توزيع وجبة العشاء، وعلى غير توقع، انفجرت أصوات بكاء ونحيب، وهذه الأصوات، رغم أنها بدأت غير واضحة أول الأمر، وكأنّها آتية من أمكنة بعيدة، لكن استمرارها، ثم ارتفاعها جعلتني أُميّز بالتدريج:

ـ أنا بعرضكم ودخيل عليكم.

ـ مظلوم والله مظلوم.

ومن مكان آخر، أقرب، أو أبعد، لا أعرف، يرتفع صوت آخر:

ـ أنا مستعد أقول كل شيء، بس خلصوني!

وهكذا اكتشفت وجود بشر آخرين مثلي. كنت إلى ما قبل انفجار تلك الأصوات، وربما حتى اليوم السادس أو السابع، أتصور نفسي وحيداً في هذا العالم النائي.

ورغم أني توصلت إلى هذا الاكتشاف فقد أخذ يساورني الشك من جديد: «ألا يُحتمل أن تكون هذه الأصوات مسجلة، ولم يريدوا أن أسمعها إلاّ بعد أن حان موعد التحقيق معي مرة أخرى؟ هل يريدون التأثير عليّ لأضعف وأنهار قبل أن يبدأوا التحقيق؟».

وأُحاول أن أقنع نفسي بالشيء ونقيضه «لو أرادوا أن يؤثروا عليّ لبدأوا

في فترة مبكرة، ولماذا اختاروا وقت توزيع الطعام بالذات؟ وهذا الذي بكى وصرخ، إنه لم يفعل ذلك في وقت آخر ربما لأنه لن يجد مَن يسمعه أو ينقل رسالته، ولذلك اختار هذا الوقت.

مشاعر الإنسان حين يتأكّد أنه ليس وحيداً تصبح شديدة التعقيد، إذ بمقدار ما يشعر بالثقة والقوة، فإنَّ الشعور بالظلم يصبح أكبر وأقوى، فهو يحس أن دائرة الظلم العمياء مثلما طالته طالت الآخرين أيضاً. أما الشعور بالقوة الذي جعله يصمد، ربما نتيجة العناد والتحدِّي، فإنَّه الآن يتعرض للامتحان الصعب وهو يسمع البكاء والنحيب، فهذا الذي يصرخ طالباً أن ينقلوا استعداده للاعتراف، لم يفعل ذلك نتيجة الضرب والتعذيب، وإنما لأنَّه لم يعد قادراً على احتمال الزنزانة، وهكذا يسأل كل إنسان نفسه: «وأنا، إلى متى، أستطيع الاحتمال؟ ولماذا لا أختصر العذاب ما دمت سأعترف في النهاية؟ وهذا الذي صرخ الآن، كم مضى عليه وهو في الزنزانة، ولماذا لم يصمد أكثر؟».

لقد انفجر عالمي هذا المساء، ولذلك قررت أن أصمَّ أذني مهما علا الصراخ، ومهما كانت النتائج.

لأول مرة أكتشف، فجأة، أنني لست وحيداً!

فالأسبوع الأول الذي امتلأ بالصمت، وجعلني، بالإضافة إلى الآلام، لا أقدّر وجود الآخرين، وبالتالي لا أحس بهم، لكن نحيباً أقرب إلى العواء انفجر فجأة عند أول المساء وغيّر الكثير.

لقد حصل ذلك بعد أسبوع من وجودي في الزنزانة، فتأكّدت أنني واحد من مجموعة، وأوضاع هذه المجموعة لا تختلف عن وضعي. ربما مرّت على بعضهم فترات طويلة، ومع ذلك لا يزال عدد منهم صامداً. ولكن كيف أفسّر هذا البكاء الأقرب إلى النحيب، والذي انفجر هكذا؟ صحيح أنه خفت تدريجياً إلى أن انتهى، ومع ذلك ظلّ له رنين يمكن التقاطه دونما خطأ، فانتصب الحزن كشبح في زنزانتي، وربما في كل زنزانة، ومن الحزن بدأت تفرّخ الأفكار والمخاوف والذكريات، ومعها الأسئلة أيضاً!

وإذا كانت الصلابة، وهي مزيج من العناد والتحدّي، تغري وتنتقل إلى الآخرين، فإنّ سريان الضعف أسرع، أو هكذا يكون في بعض الأحيان، خاصة في مثل هذه العزلة.

وبدأت الأسئلة: لماذا نحن هنا، وإلى متى سنبقى؟ وهؤلاء الموجودون في الزنزانات الأخرى. ما هي التهم الموجّهة إليهم، وكم مضى على وجودهم؟ وهل سيخرج أحد أو يأتي آخرون؟ والعالم الخارجي.. الأهل والرفاق والأصدقاء.. والناس في المقاهي والشوارع؟

إن الإنسان دون خيال ودون ذاكرة لا يقوى على مقاومة الزنزانة!

لم تبقَ صورة أو ذكرى، لم تبق كلمات أو وجوه إلاّ واستطعت استحضارها إلى هنا، ليس مرة واحدة وإنما مرات ومرات. كانت حياتي الماضية تنداح أمام ناظري، وكأنّها لا تستعاد فقط وإنما تتكوّن من جديد. وكنت قادراً على أن أجمد لحظات ومشاهد معينة فترة غير قصيرة من أجل إعادة فحصها والتأكّد من التفاصيل الصغيرة. كانت تعود إليّ الصور والكلمات ذاتها، كيف قيلت ومَن قالها، ومعها رائحة الدخان وتعابير الوجوه وابتسامات العيون أو غضبها.

وأن تمر، الحياة من جديد، هكذا، فإنّ الزمن يصبح شيئاً مختلفاً، لا يعود انتظاراً لشيء ما، يتحول إلى حالة من الاستغراق لا تفسدها إلاّ تلك اليد السمينة، وهي تطرق الباب أولاً، ثم وهي تفتح الكوة، لتلقي بالرغيف ومعه شيء ما، وهذا يعني أن وقتاً انقضى، وآخر حلّ مكانه.

ويضطرب الزمن من جديد، يتمدد، فيعود الإنسان من الأمكنة التي كان فيها، خاصة حين تنفجر تلك الأصوات التي تطالب برجاء ذليل أن تمثل أمام المحقق مرة أخرى، وانها مستعدة للاعتراف بكل شيء. وحين لا يستجاب لها تختلط أصوات البكاء بالشتائم. وقد تستبد بآخر حالة من الهذيان فيتداخل البكاء بالغناء بالخطب والشتائم فتبدو الحياة عندئذ وكأنّها في نهايتها!

في مثل هذه الليالي، والتي بدأت تتقارب وتتكرّر، ربما نتيجة الحرارة الشديدة، والتي جعلت الزنازين أقرب إلى الأفران، لا يتغير مزاج الإنسان فقط، وإنما يصبح إنساناً آخر، أقرب إلى الجنون، فهو مستعد لأن يكون في منتهى القوة، ربما إلى درجة التهور، أو جباناً خائفاً يرتعد من عيني الجرذ وهما تحدّقان اليه، وقد ينهض فزعاً مرعوباً إذا دبت فوق وجهه حشرة من حشرات الليل، ويتعذر عليه النوم بعد ذلك.

وتصرفات الإنسان في مثل هذه الليالي تتغيّر أيضاً. فالرغبة في الغناء أو البكاء لا يمكن التحكّم بها أو السيطرة عليها. وحنفية الماء التي كانت قطراتها تنحدر كالإبر، في ذلك السكون، تتحول إلى مجال للتسلية وقتل الوقت حين يبدأ بعدها، أو حين يفتح الحنفية إلى أقصاها. أمّا الحشرات التي

كانت تموج دون أن يلتفت إليها أحد أو يزعجها فلا تلبث أن تصبح هدفاً للانتقام الذي لا يعرف التوقف أو الرحمة!

لكن مثلما هي الحياة نزوة، وقد تكوّنت نتيجة الصدفة، فإنَّ معظم ما توحي به أو تصنعه نزوات أيضاً. فبعد هذيان الليل، والذي ولّد أحزاناً كثيفة ربضت على الصدر بثقل، وكأنّه حالة اختناق، لساعات مستمرة، في اليقظة والمنام، فإنَّ النور الضعيف المتسرب من بلاطات السقف، والذي يعني أن يوماً آخر قد بدأ، يحمل معه أفكاراً وأسئلة تختلف عن أفكار الأمس وأحلامه. يصبح الحفاظ على الجسد أمراً بالغ الأهمية من أجل الاستمرار ومن أجل مواجهة الأيام القادمة، ولذلك فإنَّ «الرياضة»، بمقدار ما تسمح به الزنزانة (!) هي الصفة الأساسية لبدء نهار جديد. وأن يكون الإنسان رياضياً فمعنى ذلك أن يتحول إلى طفل، وهكذا، فمع الحركات وأحلام الأطفال ونزقهم، فيتذكر نفسه حين كان طفلاً، ثم حين سُرقت منه طفولته وتاه في هذا العالم الوحشي. ومع حبات العرق التي تتساقط، وبسرعة تزيد يوماً بعد آخر، يدرك أنه لم يعد شاباً أو قوياً، وأن ما سُرق منه أكثر من الطفولة والشباب!

وهكذا إذا بدأ كل يوم جديد برغيف وبضع حبات من التمر أو الزيتون، تمدها يد محايدة أو معادية في نفس الوقت، فإنَّ ذلك اليوم الذي بدأ هكذا ما لبث أن أخذ مساراً جديداً.

كان يوم الجمعة، بداية الشهر، وكان قد انقضى على وجودي في الزنزانة مدة تزيد عن ثلاثة أسابيع، ولأول مرة أسمع كلام إنسان:

ـ عصّب عينيك واستعد!

قالها الحارس من وراء الباب، وقبل أن يفتحه!

خلال لحظات لا يمكن قياسها لفرط دقتها المتناهية، ومن كلمات قليلة، يتغيّر تفكير الإنسان ومزاجه، تحتشد الصور والاحتمالات إلى درجة لا يعرف كيف يمكن لزمن مثل هذا، وبمجرد كلمات من إنسان مجهول، أن تفجّر، ثم أن تراكم كل هذه الأفكار والمخاوف والتساؤلات، وأيضاً مشاعر التحدّي.

هل جاء وقت التحقيق مرة أخرى؟ هل تجمعت لديهم معلومات تمكّنهم

من النظر إليّ بسخرية، بعد أن يضعوا أمامي تلك المعلومات لتقول: كم أنت كاذب، وكم نحن أقوياء وقادرون؟

والتعذيب، هل يكون مثل المرة السابقة؟ وخصومي، هؤلاء الذين يضربون دون رحمة، هل سأكون قادراً على أن أنظر في عيونهم ومعرفتهم؟ وهل يحتمل أن يواجهوني برفاق اعترفوا عليّ؟ وماذا سيكون موقفي وردي عليهم؟

لم يقتصر الأمر، خلال تلك الثواني القليلة، على الأسئلة والاحتمالات التي احتشدت في عقلي، فقد بدأت أشعر بآلام في أجزاء متعددة من جسدي: الرقبة والساقين والجنب الأيسر من الظهر. ولا شعورياً وجدت يدي ترتفع وكأنّي أُحاول اتقاء ضربات بدأت تنهال عليّ.

ومثل طفل مطيع وخائف وضعت العصابة حول عيني، وبدأت أنتظر!

لم تمر إلاً فترة قصيرة حتى سمعت المفتاح يخشّ في الهواء أولاً، وقد انفصل عن حزمة من المفاتيح الأخرى، ثم سمعته يصرّ داخل القفل. طق مرتين، ثم انفتح الباب إلى الداخل بقوة وضرب كتفي الأيمن.

أمسكَ بيدي اليمنى وجرّني. لم تكن قبضته قوية ولم تكن ودودة، كانت فقط ثقيلة، ربما هي نفس اليد التي ترمي لي الأرغفة، أو تمد صحن الألمنيوم المسود الأطراف. ساقني، بصمت، عبر الدهليز. لم أكن أرى من تحت العصابة، وباتجاه الأسفل، إلا مواضع أقدامنا. كانت أرضية الدهليز زرقاء قاتمة أو خضراء، ولم تكن رمادية، ربما هذا الكم من النور هو الذي يعطيها ذلك اللون. وأحسست، دون أن أرى، على طرف الدهليز، من جهة واحدة، أن مجموعة من الزنازين تصطف الواحدة بعد الأخرى. قد يكون صدى الخطوات، صدى خطواته هو، ما أعطاني هذا التقدير.

في لحظة ما، وبعد أن مشينا ثلاثين أو أربعين خطوة، شدَّ يدي إلى الأسفل، وقبل أن يتكلم أو يتركني عرفت ما يجب عليّ: وقفت.

لم أتذكّر كيف قادوني إلى الزنزانة أول مرة. لا أتذكّر الطريق ولا المسافات التي قطعناها. كنت في حالة من الألم أقرب إلى فقدان الوعي. فهل وقوفنا، هنا الآن كي يفتح البوابة، أو كي تُفتح له، وننتقل إلى عالم آخر؟ وهل اليد التي شدّت يدي قبل قليل، وبدا فيها أمر أكثر مما فيها طلب،

وكانت أقرب إلى الحزم، هي إحدى الأيدي التي اشتركت تلك الليلة في ضربي، وتستعد الآن لكي تعود إلى سابق وظيفتها؟

وجاء صوته إليّ أولاً:

ـ قف عندك ولا تتحرك!

وبعد قليل سمعت نقراً على بابٍ، ثم صوته مرة أخرى:

ـ عصّب عينيك واستعد!

ماذا.. هل يحتمل أن يكون أحد الذين اعترفوا عليّ ويريد أن يقودنا معاً: الجريمة والشاهد؟ ولماذا تُوكل المهمات كلها إلى واحد؟ أين أولئك الذين تجمعوا عليّ تلك الليلة كما تتجمع النسور على فريسة؟

وسمعت خطواته تقترب مني، ثم جاء صوته:

ـ عندك عشر دقائق، ولا دقيقة أكثر، للحمام!

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ ومن أول دقة أدقها عليك تعصب عينيك وتستعد، سمعت؟ يا الله!

وبدت يده، وهو يقودني من جديد، أكثر خشونة وحزماً.. وما كاد يفتح الباب حتى جرّ ذاك الذي ينتظر بيد ودفعني باليد الأخرى!

كيف تنفتح أبواب الجحيم؟ كيف لو دفع الإنسان في مرجل من الماء المغلي والقذر في آن واحد؟ وعين دارم الكبريتية، والتي زرتها ذات يوم، ألا تعتبر رائحتها مسكاً وعنبراً قياساً لهذا الحمام العابق بروائح الدم والبول والقذارة؟

يهجم البخار المشبع بكل هذه الروائح فيُغشي العينين ويملأ الصدر والرئتين، فيصبح الإنسان بحالة أقرب إلى الاختناق. تنعدم الرؤية ويضيق النفس، وتنزلق القدم وهي تحاول أن تجد مكاناً أقل قذارة من الأمكنة الأخرى. أمّا الجرنان الحجريان فلا يمكن أن يقترب منهما الإنسان، لأنهما يشعّان لهباً والمياه تنصب فيهما!

كيف يمكن احتمال هذه الحرارة في مثل هذا الفصل من السنة؟ وهل يقوى أحد من السجناء على الاستحمام بهذا الماء المغلي؟ وألا يعتبر الحمام طريقة إضافية للتعذيب؟

وهذا النوع من الصابون الرخو، والذي تنبعث منه رائحة كريهة أقرب

ما تكون إلى رائحة الفطائس، كيف يمكن أن يضعه الإنسان على جسده ولا يتقيأ؟

وتلك المناشف الرطبة، والتي تشبه أكفان الفقراء، لقذارتها واهترائها، ألا تزيد وسخ الإنسان إذا استعملها؟

بعد أن نزعت ملابسي أغمضت عيني، ودون أن أنظر إلى المنشفة، والتي كانت رطبة أقرب إلى البلل، ومسحت جسدي عدة مرات، وحين قربتها من وجهي داهمتني رائحة القذارة واللزوجة، وربما كانت مليئة بالمخاط أو المني، وبتقزز وسرعة بدأت بارتداء ملابسي من جديد، وحين سمعت النقر على الباب، صرخت بغيظ:

ـ حاضر!

عصبت عيني بسرعة، لأنّي كنت متلهفاً للخروج من هذا المستنقع القاتل. كنت على يقين أني سأموت اختناقاً إذا ظللت فترة أطول. ما كاد يفتح الباب حتى تنفّست هواء الممر كله. كان رطباً ولذيذاً. أعطيت يدي للحارس كما لو أعطيها لامرأة ومشيت إلى جانبه وقد ملأني إحساس بالدوار والقذارة معاً!

هكذا كانت أول رحلة خارج الزنزانة! وفي هذه الرحلة اكتشفت عالماً جديداً: الممر، الأرضية، وجود زنزانات أخرى، وأخيراً الحمام والذي لا يختلف عن الزنزانة أيضاً! وحاولت أن أكون سجيناً عبقرياً، ففي طريق العودة جعلت خطواتي واسعة ومنتظمة لعلي أستطيع أن أقيس المسافة تماماً من بداية الممر حتى نهايته، عند ذاك سوف أستنتج عدد الزنزانات، وربما عدد البشر، لكن اليد السميكة الحازمة حدّت من خطواتي. قال لي الحارس وهو يشد يدي:

ـ شايفك طاير. . . وين رايح، لحضن مرتك يا ابن الحرام!

ومثل مَن يفخر بنكتة يريد أن يضحك لها الجميع فلا يضحك لها أحد، شعرت بالتخاذل، فصوّبت عيني إلى الأرض لكي أكتشف لونها الحقيقي، فقالت لي اليد دون كلمات: توقف!

وصلت إذن، وما كدت أنزلق إلى الزنزانة وأزيح العصابة عن عيني حتى بدأت أرسم، في الخيال، مصوراً للمكان كله، وكأنّي قائد عسكري

يخطط للاقتحام ويريد أن ينقذ الأسرى بأقل الخسائر أو دون خسائر! حسبت عدد الزنازين، عدد المحتجزين، الأبواب الرئيسية، أبواب النجاة، وقت تبديل الحرس، ولا أعرف أية تفاصيل أخرى ضرورية لنجاح العملية! . . توصلت إلى بعض النتائج! اعتبرتها بداية هامة ويمكن أن تقود إلى تطورات أهم في المستقبل، خاصة إذا طالت الإقامة هنا!

تماديت أكثر وقلت: يجب أن أتخيل السجن كله، ولأبدأ بالذين مرّوا قبلي في هذه الزنزانة.

كانت ملامحهم، أوّل الأمر، مشوشة، متداخلة، لكن وأنا أمعن النظر إلى الجدران، بدأت الملامح تتضح، فالكلمات المكتوبة تقول كيف كان كل واحد منهم. الخطوط الهادئة، المحفورة بثقة، ربما بمسمار حاد، تؤكّد على الصمود، وتطلب من كل جديد أن يتحمل ويتماسك، لأنَّ السجن مهما طالت أيامه لا بدَّ أن ينتهي. وكلمات أخرى تقول إن الجلاد جبان وغدّار. وكانت هناك شتائم بذيئة وأدعية، ولاحظت أن كلمة تتكرّر أكثر من غيرها وهي: الصمود!

وعلى الجدران أيضاً رسوم. كانت خطوطاً وأشكالاً فجة أقرب إلى البدائية، لكنها كلفت وقتاً حتى أصبحت هكذا. كنت أقترب وأبتعد، بمقدار ما تسمح الزنزانة، لكي أراها بشكل أفضل. ولم أتردّد في أن أميل رأسي، أن أضع راحة يدي أمام عيني لأحجب جزءاً من «اللوحة» في محاولة للتمتع بها أكثر، ولتحديد مدى الإتقان والتناسب بين أجزائها! وتجرأت أكثر من مرة لأن أُضيف إليها، وأن أُغيّر بعض التفاصيل، وأغلب الأحيان كنت أتوصل إلى لعبة يمكن أن تحوّل السجين إلى فنان، وتجعله يقضي وقتاً ممتعاً وطويلاً دون أن يحس بالزمن!

أمّا الأسماء التي قرأتها على الجدران فقد جعلت ملامح الذين مرّوا تتضح وتبين أكثر من قبل. قلت لنفسي بفرح، وقد اكتشفت شيئاً خطيراً: «ما دام كل هؤلاء خرجوا من هذه الزنزانة فلا بدَّ أن أخرج» طربت لهذه النتيجة وصفقت!

تمددت على السرير، لم أشعر منذ أسابيع أنني نشيط كما أنا الآن، ربما زالت طبقة سميكة من القذارة عن جسدي، وقد تمَّ ذلك بفعل البخار.

تفتحت مسامي وعرقت. ولأول مرة أغرق في نوم عميق خلال النهار!

لم أصحُ من نومي إلاّ على دقات وجبة العشاء!

ما كدت أفتح عيني، وأميّز ما حولي، حتى سمعت صوتاً كالعواء، كان نحيباً متواصلاً تتخلله، بين فترة وأخرى، كلمات توسل مليئة بالاستعطاف. وما تكاد تخبو أو تتلاشى حتى ينفجر البكاء من جديد. هكذا بدأ، وما أن مرّت دقائق حتى سمعت صوتاً آخر كان بين الغضب والتحدّي:

ـ حاكمونا واحكموا علينا بالاعدام يا اولاد الكلب، أما أن تتركونا هكذا فلا!

ويمتد الصمت ثقيلاً موجعاً، لكن هذا الصمت لا يطول، إذ يرتفع صوت البكاء مرة أخرى، ثم يعود صوت التحدّي:

ـ إذا كنتم شجعاناً فلنحتكم إلى الشعب..

وبعد قليل:

ـ ولا بدّ أن تعرفوا، يا أيُّها المجرمون، أن حكم الشعب لا يرحم!

وعندما يصل إلى هذه القناعة، ويطمئن إليها، يدوي صوته:

ـ «إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر»

وأسمع أصواتاً متفرقة، متباعدة، وأيضاً غير واضحة، ثم يأتي صوت البكاء مرة أخرى!

ظلّ الأمر كذلك لبعض الوقت، ولأنّ أحداً من الذين وراء الأسوار لم يسمع ولم يستجب فقد تطامن صوت التحدّي إلى أن توقف، وتراجع صوت البكاء إلى حد لم يعد يُسمع.

ولأنّ وضعي في ذلك اليوم يختلف عن الأيام السابقة، نتيجة «الحمام»، أو ربما للحرارة التي تضاعفت عند أول المساء، وكأنها موجة كثيفة حطت وطغت على كل شيء، فقد قدّرت أن الآخرين لا يختلفون عن وضعي، فالأجساد، في مثل هذه الحالات، رغم ما يبدو عليها من رخاوة، تشتعل من الداخل، تتحرك فيها أشياء كانت نائمة أو ساكنة، وهذا ما يدفعها لأن تتصرف هكذا!

ومثلما رسمت صوراً للذين سبقوني إلى هذه الزنزانة، بدأت أرسم صوراً للذين حولي.

قدّرت أن عددنا يتراوح بين العشرة والخمسة عشر. ولا أعرف لماذا بدأت أُفكّر بهذا الذي لا يكفّ عن البكاء. قدّرت أن عمره بين العشرين والثلاثين، قمحي اللون، سمين أو أقرب إلى السمنة، مربوع الطول. من مواليد برج العقرب! الأوسط بين أخوين، كان متزوجاً واختلف مع زوجته، وهما مطلقان أو على وشك الطلاق (حين قبض عليه). يحب الأكل والنوم، وحين يصحو لا يعرف ماذا يفعل. قلق وأقرب إلى الكآبة، ولا بد أن حفلة استقباله كانت قاسية أو لم يتوقعها، مع أن جسده يحتمل. مضى عليه بين الشهرين والثلاثة، ولم يعد قادراً على الاحتمال أكثر، ولذلك فإنَّ وسيلته إلى الخروج هي البكاء!

وقدّرت أن الذي يتحدى تجاوز الثلاثين ببضع سنوات. أسمر، طويل القامة، ناحل الجسد. من مواليد برج الثور! وهو أكبر اخوته. متزوج وله ثلاثة أطفال. أمّه لا تزال حية وقوية، وهي على وفاق مع زوجته. اشتغل في عدة أعمال وفشل نتيجة عدم الحرص، والثقة الزائدة بالآخرين. ولا بد أن يكون من عائلة كبيرة أو عشيرة قوية!

ولا أعرف إلى أين وصلت وأنا أستعرض شخصيات الزنازين الأخرى، لكن شعرت أنني أصبحت أقرب إلى هذا العالم، وبدأت أتعرف إليه أفضل من قبل، قلت لنفسي، وأنا استعد للنوم: «سيصبح كل هذا في يوم من الأيام جزءاً من التاريخ، والتاريخ لا ينسى ولا يرحم أو هكذا يجب أن يكون!».

اليد

ذاتها، أو أخرى تشبهها تماماً، هي صلتي الوحيدة مع العالم الخارجي. فلهذه اليد أوقات ثابتة لا تغيرها، حين تدق الباب، وهي تفتح الكوة، ثم وهي تلقي الطعام وتمضي دون كلمة!

من خلال هذه الصلة كنت أحس أن العالم الخارجي، العدو، لا يزال موجوداً. ولأنَّ حرارة الصيف تزداد يوماً بعد آخر، ومع الحرارة التعرّق، يضعف الجسد ويخبو، و«الرياضة» التي كانت متعة ونزقاً، وأيضاً لمواجهة المرحلة القادمة! لم تعد فيها تلك المتعة، ولا يمكن ممارستها، لأنَّ الجسد، ومنذ ساعات الصباح الأولى، يبدو متعباً. أمّا الهواء الذي كان يصل في أوقات سابقة، رغم نتانته، فقد أصبح الآن مثل غيمة رصاصية، أو مثل مَن تربط على وجهه خرقة مبلّلة كريهة الرائحة، يضيّق النفس، فتلوب الروح، ويحس الإنسان أنه منهك وفاقد لأية رغبة. حتى الكلمات المحفورة على الجدران، وكانت تسلية لا تنتهي، بدت الآن أخاديد جافة أقرب ما تكون إلى العبث، وأن من خطها كان ينتقم من الجدار الأصم ومن نفسه، وهو يحفر بذلك الدأب والإصرار.

أمّا الزمن الذي كان دائم الجريان، فقد تحوّل، بتقدم أيام الصيف، إلى ما يشبه المياه الآسنة، لا يتحرك ولا يتقدم إلاّ بتثاقل، فالنور المتسرب من بلاطات السقف يابس أقرب إلى الجمود، لا يتغير ولا ينتهي. حتى مواعيد تقديم الطعام اختلطت وتداخلت إلى درجة لا يعرف الإنسان هل ما يقدم له رغيف الإفطار أم رغيف العشاء!

والهذيان والبكاء في هذا الصيف ازدادا إلى درجة أن الخوف بدأ يتسرّب إليّ. وإذا كان لهما توقيت في الفترة السابقة يترافق مع وصول حامل الأرغفة، فلم يعودا يرتبطان الآن بأي توقيت. كان الهذيان أو البكاء ينفجر في الليل المتأخر أو في ساعات الصباح الأولى. وصدف عدة مرات أن استيقظت فزعاً على أصوات نواحٍ مرٍ مجنون، وقد امتزج باللطم على الوجه أو الصدر. كانت مثل هذه الموجات تطول وتتنوع، ولم تعد مهمتها التنبيه أو الاحتجاج.

إن البكاء، في مثل هذه الأوقات، وبالطريقة النائحة المتواصلة، يترك في الروح ندوباً لا تزول، ويولّد حالة من التوتر تمنع النوم أو التفكير بأي شيء سوى متابعته وانتظاره. كنت أقول لنفسي، بعد أن يهجرني النوم وأجلس على الدكة كالمعاقب: «هؤلاء الناس يبكون أنفسهم قبل أن يموتوا!».

وأُحاول نسيان هذا الجو، مغادرته، لكن ما أكاد أستدعي وجهاً أو ذكرى، إلاّ ويملأني إحساس لا يختلف عن إحساس الراعي الذي لمح ذئباً وينتظر ظهوره في كل لحظة ليبدأ بنهش الغنم، ولذلك يتعذر عليّ أن آنس بوجه أو أن أسترسل في ذكرى، لأنّي لا أعرف متى ينفجر صوت النواح من جديد!

ولأنّ الزنزانات منفصلة، وجدرانها سميكة وكتمية، وباب الواحدة بمواجهة جدار الأخرى، وهذا ما اكتشفته في رحلتي الثانية إلى الحمام، فقد تأكدت أن الإمكانية لأي حديث مع سجين آخر متعذرة. حتى الدق على الجدران، والوصول إلى تلك اللغة العالمية للتفاهم، يبدو متعذراً وغير مجدٍ، لأنّ الصوت يتبدد وتتشربه الجدران قبل أن يصل.

ليس هذا فقط فإنّ خوفاً غريزياً من «آخر» زُرع بشكل مقصود، جعل كل واحد ينطوي على نفسه كالسلحفاة، فلا يحاول أن يعرف ساكن الزنزانة المجاورة أو التهمة التي أُوقف من أجلها، ولذلك كان العالم الداخلي هو الرفيق الوحيد للسجين، منه ينطلق وإليه يعود.

وأن يكون الإنسان مدخناً ويحرم من التدخين لا يقل صعوبة عن التعذيب الجسدي. لكن السجين يتعود تدريجياً في الزنزانة على ما هو متاح،

وينسى عاداته القديمة، وإلاّ فإنّ معاناته ستزداد، وسوف يضطر إلى تنازلات إضافية.

أتذكّر الشهيري: أشعل سيجارة ورمى علبة السجائر على الطاولة باستهتار، أصبحت العلبة بيني وبينه، نفث الدخان في وجهي وقال، وهو يبتسم:

ـ دخن سيجارة، فأنا أعرف أنك تدخن!

ـ توقفت عن التدخين!

هكذا رددت بصلابة، وأنا أحاول عدم استنشاق الدخان. قال بسخرية:

ـ إذا نفخت سيجارة فليس معنى ذلك أن تعود إلى التدخين، ويمكن للسيجارة أن تريح أعصابك وتجعلنا نتفاهم بطريقة أفضل!

ـ شكراً، لا أريد!

ـ أنت هاوي عذاب، تحب أن تعذّب نفسك وتعذّب الآخرين!

وضحك بتشفٍ ثم أضاف:

ـ وإذا كنت تظن أن السجائر مشكلة فابشر، بدل العلبة علبتين يومياً!

ـ قلت لك: تركت التدخين ولن أعود إليه مرة ثانية!

في الأيام الأولى، بعد أن خفّت الآلام، كنت أفترض أنني سأكون أقوى على احتمال الزنزانة لو استطعت تدخين ثلاث سجائر يومياً: واحدة بعد الفطور، والثانية بعد الغداء، والأخيرة قبل أن أنام. كانت هذه الأمنية تراودني كثيراً، لكن نظراً لاستحالتها فقد حاربتها بشراسة. كنت أقول لنفسي: «ليس أكثر ذلاً للسجين من أن تسقطه سيجارة، ولذلك عليّ أن أتخلى عنها دون أسف». وفي محاولة لإقناع نفسي أكثر بدأت أتذكر مضار التدخين، والأمراض التي يسبّبها! ولم أنسَ تلك القصة التي لم ينفك عمّي يردّدها على مسامعنا، في محاولة غير مباشرة لإقناعنا بضرر التدخين: «لما كنت أبني بيتاً كان معلم البناء، أبو نديم، لا تنزل السيجارة من بين شفتيه. كان يولع سيجارة من طيز سيجارة دون أن يستعمل الكبريت. كانت عادتي أن أُحاسب العمال أسبوعياً، كل يوم خميس. سألت مرة معلم البناء: كم تصرف على شراء السجاير يا اسطه؟ فقال كذا. قلت له هذا يعني في الأسبوع كذا.

حسمت هذا المبلغ وأعطيته الباقي. استغرب، نظرت إليه وابتسمت، وبعد أن انتهيت من محاسبة جميع العمال التفت إليه وقلت: اعطني كبريتاً يا اسطة. مدّ إليّ بعلبة الكبريت. استخرجت عُوداً وأشعلته وقرّبت الورقة النقدية التي تعادل ثمن السجائر في أسبوع من عود الكبريت. صرخ أبو نديم: «حرام يا حاج تحرق الرزق». رميت عود الكبريت على الأرض وقلت له: وأنت يا اسطة، ماذا تقول فيمن يحرق فلوسه ويتلف صحته؟» وينهي عمّي قصته بأن يقول: «ومن ذاك اليوم توقف أبو نديم عن التدخين نهائياً!».

وإذا كان من الصعب، وربما من المستحيل، التعوّد على الزنزانة أو التآلف معها فلا بد من احتمالها كأمر واقع، ويجب أن لا يبلغ الضيق بالسجين إلى درجة يعتبرها عدواً لا بدَّ من التخلص منه بأي ثمن وبأي شكل.

حتى هؤلاء الذين كانوا يبكون ويستغيثون في أواخر الليل، أو حين توزع الأرغفة، كانت ترفض توسلاتهم، لأنَّ الهدف أن يسحقوهم أكثر مما فعلوا حتى الآن، لكي يجبروهم على تقديم تنازلات أكبر، وليعطوا الآخرين درساً حياً عمّا ينتظرهم!

كنت في لحظات كثيرة أحس بالغضب إلى درجة القهر، وتصوّرت نفسي قادراً على القتل لو أنني أملك سلاحاً. سأقتل أكبر عدد من الجلادين ثم سأقتل نفسي، أما أن أُسلّم بما يريدون، أن أعترف، فهذا لن يفرحوا به مهما أحاطوني بأولئك النوّاحين والذين سقطوا، وينتظرون فقط عطف الجلاد كي يخرجوا من هذا المكان.

لقد أدركت منذ لحظة القبض عليّ أن ما ينتظرني الكثير، وتأكّدتُ لدي هذه الحقيقة والشهيري يقول لي:

ـ نحن نعرف عنك كل شيء، ولكن نريد منك أن تطلّع كل اللي ببطنك، وحنا وياك والزمن طويل، يا حديدان!

ولأنّي لم أتكلم فها هم يجربون أسلحتهم الواحد بعد الآخر، لكن يجب أن أثبت لهم كم يحتمل هذا الجسد الضامر، ومن أكون!

لقد أتاحت لي الزنزانة ميزة واحدة، إذا صحَّ مثل هذا الوصف، وهذه الميزة تتلخص بالتالي: مراجعة كل شيء، واستعادة وتقييم المواقف التي ترفع

رأس الإنسان أو تذله.

تذكرت الكلمات التي تتردّد بيننا عن الذين اعترفوا وسقطوا، وكيف كنا نعاملهم وكيف كان ينظر إليهم الناس. كنا نطلق عليهم: الجثث المتحركة، أو موتى برسم الدفن، وكنا، نتجنبهم كما يتجنب الإنسان الطاعون. وحتى الناس البسطاء الذين لا يعملون بالسياسة كانوا لا يجلسون معهم، وحين يسألون عن ذلك يردّدون:

ـ إذا خانوا جماعتهم وانكروا الخبز والملح فشنهو اللي ترجوه منهم؟

ومرت صور الذين عملوا مع «الجهاز» بعد أن اعترفوا، ظلّ الجهاز لا يثق بهم، يتعامل معهم بحذر، وهم في محاولة لإثبات جدارتهم في العمل الجديد كانوا يندفعون إلى أقصى حدود التطرف والمبالغة، ومع ذلك ظلوا أبناء الجارية!

أتذكّر لما سقط عوض واعترف، إذ بعد أن رفضت توبته ولم تقبل عودته للتنظيم، ولم يقتنع أو لم يستطع أن يكون واحداً من «الجهاز»، فقد اختار يوم الخميس، وفي السوق، عند الظهر، وأنهى حياته. انتحر أمام المئات. وبعد أن حمل من المكان وغطيت بقع الدم بالتراب، وبعد أن عُرف سبب انتحاره، فقد قال الكثيرون، وكأنهم يخاطبون أنفسهم:

ـ الحكومة تذبح الجمعة، بعد الصلاة، وهذول اللي لا دنيا ولا دين، واللي صاروا مثل معايدي القريتين، يذبحون أرواحهم بأيديهم يوم الخميس.. وقبل الصلاة!

وتذكّرت ابن رشود، فبعد أن سقط أُصيب بالانهيار ثم جن، وظل يدور في الشوارع ويشتم الحكومة ويشتم نفسه لأنه اعترف، إلى أن سحقته سيارة مجهولة وقتلته!

وأضاءت الزنزانة وامتلأت بروائح الربيع حين تذكرت عثمان المصلح. ظلوا يعذبونه ليل نهار لكي يقر بما اعترف عليه الآخرون، ولكنه لم ينكر ما يقولونه فقط أنكر معرفته بهم. وحين وضعوا أمامه الصور التي تجمعه ببعضهم، قال كلمة نقلها عنه الكثيرون، قال:

ـ كنت أعرف هؤلاء، ولكن هؤلاء ماتوا، وهذه الصور ليست للذين أمامي!

استمروا بتعذيبه ثلاثة أيام بلياليها، ولكنه لم يعترف، وكل يوم تعذيب إضافي يجعله أكثر إصراراً وعناداً. في اليوم الثالث، عند الغروب، مات!

وموران التي شيّعته كما لم تشيع واحداً من أبنائها، ظلت تردّد كلماته، وتشيد بصلابته. قال ابن غريفة لما وصله الخبر:

ـ الموت، يا أولاد الحلال، حق، وما من أحد يفلت منه؛ لكن الفرق بين موت وموت، أن موت يرفع الرأس، وموت ما يذل راس الميت وحده يذل عشيرته وديرته إلى قيام الساعة. . .

وظلّ يردّد لنفسه ولمن حوله بصوت خافت:

ـ ومَن لم يمت بالسيف مات بالحذا أو بالعصا وموت ابن مصلح، يا جماعة الخير، يتمناه كل ابن حرة!

تذكرت هذه القصص وتذكرت غيرها، وتوصلت، بهدوء إلى نتيجة حاسمة: الزنزانة، مهما امتدت أيامها، لن تهزمني!

ولأنّ حرارة الصيف تزداد يوماً بعد يوم وتتضاعف حرارتها في الزنزانة، ولأنّ أيام الصيف أخذت تطول ولا تكاد تنتهي، لذلك بدأت الإبحار إلى الداخل، الأمر الذي جعلني لا أترك حادثة أو علاقة إلاّ وحاولت أن أحاكمها وموقفي منها. كنت أتساءل كيف كان سلوكي وعلاقاتي مع الآخرين؟ هل أسأت لبعض الناس أو ظلمتهم في فترات سابقة، ولماذا؟ والآخرون. . . كيف كانوا ينظرون إليّ وكيف تعاملوا معي؟ تذكرت قصصاً كثيرة، بعضها حزين وبعضها الآخر جعلني أبتسم ثم أضحك. وأن يحزن السجين فأمر طبيعي، وليس بحاجة إلى أسباب تحرضه، أما أن يضحك. . .

لقد قبضت على نفسي مرات عديدة وأنا أضحك بصوت عالٍ. وأن أكون هكذا، وفي هذا المكان، أشعر بنوع من الفخر والاطمئنان، أقول لنفسي، وهزات رأسي تتوالى كأي حكيم «الإنسان مخلوق جبار، قوي وذكي، لأنه قادر على تحمل المصاعب، وتجاوزها» وحين أقلب نظري في الزنزانة أجر نفساً عميقاً وأضيف: «والإرادة وحدها هي القادرة على مقاومة الزنزانة». هكذا كانت الأيام تتوالى.

وانقضى الصيف كله وانقضى الخريف.

باب الزنزانة يفتح مرة واحدة في الشهر، توضع العصابة على العينين،

ويبدأ المشوار إياه إلى الحمام. وإذا كانت المياه المغلية عقاب أشهر الصيف، فإنَّ المياه الشديدة البرودة أصبحت عقاب الأيام الأخيرة من الخريف ثم الشتاء الذي تلاه.

ذات يوم، بعد الحمام بأسبوع تقريباً، وفي غير ساعات توزيع الأرغفة، سمعت النقر على الباب، ثم الصوت:

ـ عصِّب عينيك واستعد!

إلى أين هذه المرة؟ هل سحقت بما فيه الكفاية وحان وقت التحقيق؟ هل تجمعت لديهم الأدلة الكافية لكي يواجهوني بالوقائع وبالشهود ثم لإصدار الحكم؟ وهل حصلت أحداث في العالم الخارجي تستدعي سؤالي؟ وعشرات الأسئلة الأخرى خطرت.

ومثل برق خاطف لم أفوت على نفسي فرحاً أو وهماً بالفرح: ماذا لو انتهى هذا النظام وجاء نظام صديق؟ لكنني لم أسترسل في هذا الوهم أكثر من لحظة، قلت لنفسي: «الأصدقاء يتعاملون بطريقة مختلفة، وهؤلاء لا يزالون أعداء وسيبقون كذلك حتى النهاية».

عصبت عيني ووقفت أنتظر! ومثل المرات السابقة: انفصل المفتاح عن الحزمة، دخل القفل، انفتح الباب. لكني ابتعدت عنه هذه المرة لكي لا يلطم كتفي. أمسك الحارس بيدي وجرّني. كانت قبضته قوية ومعادية. قدّرت أن النية سيئة وما ينتظرني لا يبشر بخير. تأكّد عندي هذا التقدير حين تجاوزنا الحمام ببضع خطوات، لما انفتح الباب، ربما بإشارة من الحارس، بدأت أسمع أصواتاً. كانت الأصوات غير واضحة وجافة. بدأ جسدي يتصلب وينشد، إذ يحتمل أن تتهاوى عليّ الضربات في أية لحظة.

اجتزنا الباب ثم باباً آخر. شدَّ الحارس يدي إلى اسفل. وقفت كما تقف دواب الحمل إذا شدّت أرسانها. قال، وكان صوته امراً:

ـ قف عندك، لا تتحرك ولا تلتفت!

أسمع أصواتاً ونداءات. الساحة مكشوفة لأنَّ الهواء الخريفي يتدفق بغزارة ومن جميع الجهات. أسمع حركة حولي لكن لا أستطيع أن أميزها بدقة من أين تأتي وإلى أين تذهب. وهذا المكان الذي أقف فيه... هل هو ساحة التعذيب أم ساحة الرمي أو ربما محطة صغيرة بين مكانين؟

سمعت دحرجة برميل. جفلت. اقترب البرميل كثيراً مني قبل أن يتوقف. سمعت أصوات سكاكين أو ما يشبه ذلك. همس غير بعيد، ثم خطوات تقترب. ماذا. . . هل يريدون ذبحي وها هم الآن يسنّون سكاكينهم؟ ولماذا الهمس وتلك الحركات المحاذرة؟

اقترب مني الحارس، ولا أعرف أن كان هو الذي قادني إلى هنا أم واحد آخر، وبطرف عصا أو قضيب حديدي وخزني بقوة وقال:

- إنزع العصابة!

هل يريدون أن أراهم وهم يطلقون النار، لأنّي بعد لحظات سأكون المسافر إلى الأبد، ولن أستطيع نهائياً أن أكون الشاهد الذي ربما يخافون منه إذا بقي حياً؟ هل يتلذذون وهم يرون الضحية تنظر إلى عيونهم لحظة الذبح؟ ولكن ماذا لو أطلقوا النار بسرعة وانتهوا من هذا الواجب الثقيل دون أن تلاحقهم تلك النظرات التي لن ينسوها حتى آخر يوم في حياتهم؟

تراكمت الأسئلة والانفعالات وأنا أزيح تلك العصابة السوداء عن عيني. ما كادت الشمس تدهمني حتى شعرت بانفعالات غريبة ومتلاحقة: الحزن والفرح معاً، الرغبة في التحدّي والاستسلام إلى الضوء الباهر والهواء الذي يملأ الساحة كصيغة من صيغ الاندماج بالحياة وأن أصبح مرة أخرى جزءاً منها، النظر إلى عيونهم دون خوف، ومحاولة رسم ملامحهم وحملها معي إلى آخر الدنيا، وتحت التراب، لتكون مصدراً لحقد قد تولّده شجرة تقوم ذات يوم فوق قبري ويأكل من ثمارها إنسان، ويعرف كم من المرارة والقسوة عانى بشر تلك الفترة!

كانوا ثلاثة: الحارس الذي قادني أو واحد مثله، يقف إلى جانبي مثل ديك هرم: ملابسه مهترئة رغم عنايته بها، ووجهه فقير. حارس آخر يقف عند البوابة البعيدة مقابلي، وثالث لا يمكن أن تكون له أوصاف ثابتة، ولقد تأكّد لي ذلك حين بدأ العمل.

تقدّم هذا الشخص نحوي. كانت خطواته بطيئة، وربما كان أقرب إلى العرج. جسد ضامر وكأن الملابس التي يرتديها عثر عليها بالصدفة وفي آخر لحظة قبل أن يدخل الساحة، فقد كانت فضفاضة يخب فيها بصعوبة. دون كلمات أشار إليّ لكي أجلس، كان يحمل بيده مقصاً وآلة حلاقة قديمة صدئة.

يريدون أن يقصوا شعري ويحلقوا لحيتي؟ عجيب أمر هؤلاء الناس!

لم أصادف في حياتي إنساناً يكره العمل الذي يقوم به قدر هذا الحلاق. كان له ثأر مع شعري، مع لحيتي، وقد ساعدته على الانتقام مني تلك الأدوات التي يحملها!

ليس ذلك فقط، كانت ركبته وسيلته في التعبير. إذ ما كاد يبدأ بجز شعر رأسي، ونتيجة القذارة الشديدة، والتي تراكمت خلال شهور متلاحقة، بحيث كان من الصعوبة على المقص أن يدخل في هذا الشعر المفتّل واليابس، حتى يضطر لأن يلكزني بركبته من أجل أن آخذ وضعية تساعده على أن يجمع حزمة أكبر من الشعر، وبعد أن يلويها حول كفه، يمرر المقص لكي يجزها. ولأنه يريد أن يتحكم بالرأس، لا بدَّ أن يقترب مني إلى أقصى درجة لكي يكون قادراً على السيطرة، لكن رائحتي، رائحة الجسد ورائحة الملابس، تجعله يدوخ، ولذلك يلكزني، مرة أخرى، بركبته، لكي أُتيح له وضعاً أفضل!

عدة مرات انفصل عنّي لأنه لم يعد يطيق رائحتي. كان يبتعد خطوات لكي يستنشق هواء نقياً، وأسمعه يتمتم، ولا أعرف إن كان يشتمني أم يقدم مجرد وصف:

ـ ريحة الخنزير أحسن من هذه الريحة. اف!

ويقترب ببطء، لكن حركة يده السريعة تريد أن تخلص من هذه المهمة الشاقة، ومقصه الأعمى لا يطاوعه، وشعري المفتول يعاند!

لا أستطيع أن أقدّر عدد الجروح التي تركها في رأسي. كنت أحس آلاماً في مواضع متعددة، وكنت أرقب المقص وهو يتعثر، ثم الماكنة وهي تهمد بعد أن تعذر عليها الاستمرار، فيضطر لأن يفك البراغي وينفخ بقوة لكي يزيل عنها الشعر والأوساخ التي علقت بها.

وهو يزيّن لي لحيتي كنت أرقب عينيه الحاقدتين القلقتين. حالما تلتقي نظراتنا كان يشدّ شعر اللحية، كما لو أنه يشد لحية تيس، لكي أخفض رأسي أو أرفعه قليلاً. كان يروق لي، في بعض اللحظات أن أضحك، أن أمسك يده، أن أقوم نيابة عنه بهذه المهمة، لكن الصرامة التي كانت تميز حركاته، وتلك الملامح الجامدة، كانت تجعلني أُتابع الشعر المتساقط، وأتحسب للآلام المتوقعة في كل حركة.

قال للحارس، بعد أن انتهى:

ـ جزّ صوف الغنم أسهل ألف مرة، ورائحتها أحسن من هذه الجيف!

حين رأيت شعري وقد أصبح كومة أمامي، شعرت بالبرد، وبأني إنسان آخر. قلت لنفسي: «كلانا كان في غنى عن هذا العذاب»!

وبدأت تثور الأسئلة من جديد: وماذا الآن؟ وأية فائدة لهم في أن أظل كما كنت أو أن أصبح حليقاً؟ وهذا «الحلاق» الذي أتعبته هكذا، وأصبح لي عدواً، ألم يكن الأفضل لنا لو تجنبنا هذه اللعبة السمجة؟

والحارس الذي كان غائباً في عالمه الخاص طوال فترة الحلاقة، وقد سمعت خطواته تبتعد، وربما انتحى مكاناً وأخذ يدخن، انبثق فجأة، كما لو أن الأرض أخرجته:

ـ انهض. عصّب عينيك واستعد!

لم أعرف كيف أُعصّب عيني هذه المرة بسرعة، وكأن زوال الشعر غيّر في التضاريس كلها، انزلقت العصابة بعد أن افترضت ثباتها. وخزني بعصا أو بقضيب في جنبي وصرخ:

ـ عصّب عينيك مثل الأوادم يا خنزير!

قدّرت أن ما ينتظرني سيكون صعباً، لأنّ لهجة الحارس أصبحت معادية وأكثر حدة. قلت لنفسي بسخرية: «الذين سيستقبلونني الآن يريدونني كالعريس: نظيفاً، معطراً، مهفهفاً... ونير وخضير وعريس الزين يتهنا!»

أمسك بيدي وجرّني. انفتح باب، دخلناه، سرنا مسافة عشر خطوات أو أكثر قليلاً، شدّ يدي، ومثل كل مرة وقفت. قال وهو يتركني:

ـ لا تتحرك ولا تلتفت!

أحسست أننا أصبحنا تحت سقف، لأنّ صوت الأقدام اختلف، والدفء الذي كان يملأ الساحة غاب. الصمت يشمل المكان. سمعت من بعيد باباً يفتح. عاد إلي بعد قليل وجرّني. مشينا عشرين خطوة. شدّ يدي، وقفت. دق باباً وفتحه. دخلنا. شدّ يدي. وقفت. تركني وسمعته يتحدّث إلى شخص همساً. قال لي بحزم:

ـ انزع العصابة!

نزعت العصابة ونظرت. كنت في غرفة. الغرفة معتمة قليلاً وباردة.

رجل مسنّ يضع نظارات سميكة على عينيه، وتغطّي أكمامه، حتى الكوعين، لفافات سوداء وُضعت فوق القميص. كان وجه الرجل محايداً، وكأنّه جزء من الغرفة!

أشار الرجل بيده إلى الحارس أن يبتعد قليلاً. اقترب مني، نظر إليّ نظرة باردة. قال:

ـ قف هكذا ولا تتحرك.

ذهب إلى الزاوية، وفجأة اكتشفت وجود آلة تصوير. صوّر ثم اقترب مني مرة اخرى، أدارني كما يدير الإنسان حجراً، فلما أصبحت بوضع جانبي، قال:

ـ قف هكذا ولا تتحرك.

التقط الصورة الثانية؛ اقترب مني وأدارني، من جديد بشكل معاكس، فعل ذلك بحزم لم يبلغ درجة القسوة، وقال:

ـ لا تتحرك!

بعد أن التقط الصور، أشار بيده، دون كلمة، إلى أنه انتهى. صرخ الحارس، وكأنّه يؤذن:

ـ عصّب عينيك، واستعد.

فعلت ذلك، لكن العصابة أبت إلاّ أن تعاند، وكأن الصورة، بعد زوال الشعر، جعلتني أتغير. انزلقت العصابة حين بدأنا نتحرك. وخزني بعصا أو بقضيب حديدي وصرخ:

ـ قلت لك عصّب عينيك يا ابن الكلب.

فعلت ذلك، وزيادة في الحيطة ظللت أمسك العصبة باليد الطليقة طوال المسافة إلى أن وصلنا إلى الزنزانة مرة أخرى!

بدخول فصل الشتاء أخذت الأمور تزداد تعقيداً وصعوبة، بدأ المرض، أو بالأحرى أخذ يشتد ويقوى قياساً لفترة سابقة، وما جعله أكثر حدة: البرد ثم الجوع.

وإذا استطعت أن أُخفف من وقع المرض، أو أن أحتمله، فقد أصبح لا يطاق، وشديد القسوة، في المرحلة الجديدة.

لا أعرف من أين كان ينبع كل هذا البرد أو كيف يتدفق. فالهواء لا زال ساكناً ثقيلاً، لكنه امتلأ ببريق حاد وخّاز كأنّه الانصال، فما أكاد أُخرج يدي من تحت البطانية حتى ترتد وكأنها لامست حديداً محمياً. أما قطرات الماء التي أُبلّل بها يدي لكي أمسح وجهي في الصباح فإنّها تتساقط في راحتي كالحجر. والفراش الذي كنت أكره رائحته، ولم أتعودها أبداً، مع أن جزءاً منها أنا، لم أعد قادراً على مفارقته. حتى البطانية التي كانت طوال الفترة الماضية عدواً، واضطررت إلى دفنها تحت الفراش طوال الصيف، وخلال الفترة الأولى من فصل الخريف، استخرجتها باحتفال لائق عندما هجم البرد هكذا. وإذا كنت قد فردتها على طولها في الأيام الأولى، فقد اضطررت لأن أجمع نفسي وأجمعها على طبقتين!

والجوع، نعم الجوع الذي تراكم يوماً بعد آخر طوال الشهور الماضية، أصبح الآن عدواً لا يرحم.

كنت حين أستلم «الأرزاق» وهي في الغالب بضع حبات من التمر أو الزيتون، مع رغيف الخبز، أمسك بها كما أمسك قبّرة. كنت أتطلع إليها

بخوف ومحبة. كنت أقول لها برجاء: «أريدك أن تشتعلي في داخلي وأن تحركي دمائي». وما ان أبدأ بالأكل، وكنت أفعل ذلك بكثير من الهدوء، حتى أشعر أن كل شيء انتهى بسرعة لم أكن اتوقعها، ولم أكن أحبها! كانت التمرات تذوب، تنتهي، دون أن أحس. وأعاود مص النوى واحدة واحدة فأزداد جوعاً!

ولأنَّ الجوع أصبح يحاصرني هكذا فقد امتلأت الزنزانة بروائح الأكل، لم أعد أحلم إلاّ بالأكل الذي كانت تهيئه أمي، خاصة في أيام الشتاء، كانت الأبخرة المتصاعدة من الموقد، أبخرة شوربة العدس وهي تطيّب على نار هادئة، وقطع اللحمة التي تشوى في طرف الحوش، وتوضع في أرغفة ساخنة، ثم رائحة الليمون التي تفوح مع صنفين أو ثلاثة من البهارات.. هذه الروائح تدوخني.

كان يروق لي أن أقضي ساعات وأنا أتذكّر تلك الأطعمة، وإذا صدف أن مرَّ موقف احتجاج في يوم ما على نوع من الأكل، أو على مذاقه، أتذكّر كلمات أمي وهي تقول:

ـ الأكل، يا ابني، حشو مصران، فإيّاك أن تدنّي نفسك، والبني آدم يقدر يعيش من حبة تمر أو حفنة تراب!

لكن في هذه الزنزانة كل شيء معادٍ، ولا يمكن نسيانه!

وإذا كنت طوال فصل الصيف، ثم جزءاً من الخريف، أهرب من الفراش، وأُحاول في تلك المساحة أن «أمشي»، فقد أصبحت، مع تزايد البرد، أتحصن كالخلد بالفراش لا أُغادره. وإذا كنت أهرب من رائحة البطانية إلى أكل أُمي، في محاولة للدفء والنسيان، فإنَّ الروائح المتخثرة والمتفسخة، والتي تتولد من البطانية والأنفاس تجعلني أختنق، وما أكاد اخفف منها، بعد أن أصبحت روحي مثل فراشة لائبة، حتى يهجم البرد من جديد، كانت لسعاته كالدبابيس!

في ليلة من ليالي كانون استيقظت على صوت بكاء. كان البكاء يشبه عواء كلب جريح. بعد أن فركت عيني لأتأكّد، وحين انفجر الصوت من جديد، لم أستطع أن أنام. جلست على الدكة وأحكمت وضع البطانية حولي بانتظار الصرخة التالية. ابتعد صوت البكاء أو غاب. ارتخت البطانية وسقطت

عن كتفي، قلت لها برجاء «البرد قوي لكن الدم أقوى. وأنت فيك شيء له علاقة بالحياة، أو هكذا افترض، فالذين احتموا بك أعطوك شيئاً من نفوسهم، ولا بدّ أن تعترفي بالجميل وأن تردّيه إليّ... أو، وهذا افتراض آخر: أنت من مخلوقات حية، من تيس أو معزة، من خروف أو نعجة، وهذه المخلوقات لا تبخل بجلدها ولحمها ولبنها، ولذلك يجب أن تفعلي مثلما تفعل تلك المخلوقات، لأنّ مَن ينكر أصله لا أصل له» وتظل البطانية يابسة بليدة، وكأنّها عين الجلاد، فأقول لها بغضب «المواد الملفقة قصيرة الأجل، والزيف لن يطول».

وتزداد عداوتي للزنزانة يوماً بعد آخر، للجدران والفراش وللبلاطات في السقف أيضاً. أنظر إلى كل شيء باحتقار وغضب، ولأنّي كنت على يقين أنهم يرونني، ولقد تأكّدت من ذلك في المرات التي سمعت خلالها أصوات أقدام محاذرة، ثم من تلك الثقوب السوداء في الجدار، والتي لم أحبها أبداً، ولم أستطع تفسير وجودها، فقد صممت منذ البداية أن أتصرف داخل الزنزانة كما لو أنني تحت الأضواء. كنت، في أحيان كثيرة، آخذ سمات رجل صارم أو لا مبالٍ، وفي تلك المساحة التي لا تزيد عن ثلاث خطوات كنت «أتمشى»!

ولأنّ أحداً قال لي ذات يوم إن السجين الذي يكلم نفسه بصوت عالٍ يكون أكثر استعداداً للاعتراف أو للجنون، فقد قررت أن أضع على شفتي طبقة من الصمغ، وهذه الطبقة لا ترفع إلاّ وقت الطعام!

أمّا الآن والمرض يشتد، وفي محاولة لتحريك لساني، فقد حوّلت آهات الألم إلى شتائم. كنت أشتم بطريقة فذة، بطريقة لا يفهمها سواي!

ما كدت أصل إلى هذا المستوى حتى افترضت أنني جننت أو في طريقي إلى الجنون، قلت لنفسي:

«أكره الوعاظ، وحاملي المسابح، والحكماء الصغار، ولاعبي الورق، والمشعوذين، وأولئك النادمين الذين فاتهم قطار السفر، وغيرهم الذين ينتقمون من شيء ما لا يعرفونه، لكي يشعروا برغبة الانتقام!»

في منتصف الشتاء، ودون موعد الحمام أو الرغيف اليومي، وبعد البرد والجوع والمرض، قالوا لي: تعال.

في أحد أيام شباط، وبعد رغيف الصباح والتمرات، قالوا: تعال!
ومثل كل مرة دق الحارس الباب للتنبيه، ولما وجدني هادئاً صرخ:
ـ حضّر نفسك وحضّر زهابك..
كان يريد أن يقول: حضّر سلاحك، فقد تعوّد أن يخاطب جنوده هكذا، لكنه استدرك في اللحظة الأخيرة. وفي محاولة لأن يضفي على نفسه أهمية إضافية تنحنح وقال بلهجة جديدة:
ـ خلال دقيقة تكون في حالة الجاهزية ومعصوب العيون!
وماذا الآن؟ وماذا بعد؟
لم يكن لدي أي شيء أحمله من الزنزانة. هل سأُنقل إلى زنزانة أخرى؟ إلى مكان آخر؟
كلامه واضح ولا يحتمل أيّ تأويل.
نهضت. نظرت إلى الزنزانة نظرة أخيرة. تأسفت أني لم أكن أحمق بالمقدار الكافي لكي أخط اسمي على أحد الجدران. لو أني كتبت اسمي لعنى شيئاً ما، في وقت من الأوقات، لإنسان آخر: «لقد مررت من هنا. ظللت قوياً وصامداً حتى النهاية، قضيت في هذه الزنزانة سبعة شهور وبضعة أيام. لم أضعف، لم أعترف، ومثلما دخلت إلى هذه الزنزانة خرجت منها مرة أخرى. الإنسان أقوى من الزنزانة، أكبر منها». صحيح أنني فقدت من وزني الكثير، فقدت عشرين كيلوغراماً، لكن هذه الكيلوغرامات لم تغيرني، ربما كانت زائدة، وربما لا أحتاجها بهذا القدر، ولذلك أترك الزنزانة دون أسف، لكن أتذكرها جيداً، لن أنساها. أعرف زواياها كلها، رغم قلّتها. أعرف أيام الصيف القاسية وأعرف أيام البرودة. أعرف نهاراتها كلها وأعرف الليل، وها أنذا أُغادرها كما فعل كل الذين سبقوني. سيحل فيها واحداً آخر، ربما لا يعرفني، لم يرني، وقد لا يراني، لكن تركت هنا أياماً وذكريات، ولا بد أن يكتشفها بطريقته الخاصة، وربما يتعلم منها درساً.
وخشّت المفاتيح ثم دخل واحد منها في القفل. ولأنيّ تعلمت كيف أقف لم يمسني الباب وهو يُفتح! أمّا حين مددت يدي الباردة إلى الحارس لكي يقودني إلى المكان الآخر، فقد اكتشفت أن يد الحارس باردة أيضاً!
قلت لنفسي: أيدي الفقراء والوحيدين تكون باردة في الشتاء!

سألني المحقق قبل أن أخلع ملابس السجن، وكمحاولة أخيرة في أن يكون له دور:

ـ ماذا تقول الآن؟

ـ عن أي شيء؟

ـ هل تريد أن تتكلم؟

ـ عن أي شيء؟

قدَّم لي علبة السجائر. هززت رأسي دلالة الرفض. ابتسم وقال:

ـ أعطيك الآن الفرصة الأخيرة لكي أُخلّصك من عذاب الجحيم: إمّا أن تتكلم، أو أن أُسلّمك لمن يستطيع أن يجعلك تتكلم كالببغاء!

قلت وأنا أنظر إلى عينيه:

ـ قلت كل شيء، وليس عندي ما أُضيفه.

هزَّ كتفيه، وقال لي، وكان يعني الآخرين أيضاً!

ـ أعطيناك كل الفرص، لكن يبدو أن رأسك أعند من رأس التيس، ولذلك أتركك الآن لمن يجعلك تترحم على الأيام التي كنت فيها هنا...

ولم يتوقف، أضاف بلهجة آمرة:

ـ خذوه، وهذه اضبارته!

لم يقل لي، ولم يقل للآخرين، إلى أين أنا ذاهب، لكن الآخرين يعرفون، وها نحن، وقبل أن نصل، يبلغونني بالبشارة: إلى سجن العبيد!

حتى تلك اللحظة كنت أخدع نفسي، أمنّيها بأوهام. الآن أُواجه الحقيقة كلها، ويجب عليّ أن أعرف كيف أتصرف لكي أحمي في داخلي الإنسان الذي لا يريد أن يسقط.

في ليالي الزنزانة الطويلة كان يروق لي، بعض الأحيان، الافتراض أنهم سيتعبون مني ذات يوم، أو سيحتاجون الزنزانة لنزيل آخر، ولذلك سيطلقون سراحي. وتعزّز لديّ هذا الوهم لأنَّ جلسات التحقيق التي أجروها معي لم توصلهم إلى أية نتيجة، وتأكّد لي ذلك أكثر حين كنت أرقب المحقق. كان في أحيان كثيرة لا يستطيع أن يداري حيرته أو شعوره بالضيق. كان يتركني ويذهب لا أعرف إلى أين، وحين يعود أرى القلق في عينيه، وكنت أرى الرجاء.

ـ من مصلحتك يا طالع أن تعترف. وأن تعترف لي أفضل لك ألف مرة، لأنيّ إذا يئست منك سوف أرفع يدي، وبعدها سيأتي مَن يجعلك تعترف بكل شيء. وعند ذاك سوف تجر آه، وتقول: ليتني أعترفت قبل أن أصل إلى سجن العبيد!

ويغيّر أساليبه مرة بعد أخرى. كان يفعل ذلك بعض الأحيان، في ذات الجلسة، كان يأتي بشهود يثيرون السخرية: يدق الجرس ويطلب مجيء الشاهد رقم 4، كصيغة من صيغ التمويه لئلا أعرف اسم ذلك المخبر، وما يكاد يدخل المخبر، ويتطلع إليّ بإمعان حتى يقول:

ـ نعم، يا سيدي، هذا هو، إنه نفسه!

وحين أبتسم يحاول ألا ينظر إليّ، يقول للمخبر:

ـ الله يعطيك العافية، انصرف!

ويلتفت إليّ ويقول:

ـ لدينا عشرات الشهود، لكن أريد أن أسمع منك!

كانت التهم تتغيّر فترة بعد أخرى، الأمر الذي جعلني أتأكّد أن معلوماتهم عني مشوشة ومضطربة إلى حد كبير. يعرفون بعض الأشياء، لكن ليست واضحة أو مؤكّدة، ولذلك فهم يحاولون بأكثر من أسلوب، وبإلقاء مجموعة من التهم، لعلهم يصطادونني بواحدة منها.

وأخيراً وصلوا إلى نتيجة محدّدة: الزنزانة، وبهذه الشروط، يمكن أن تسحقني، أن تحولني إلى إنسان أُسلّم بكل ما يريدون وأعترف بكل شيء!

وحتى يصلوا إلى النتيجة، فإنَّ عامل الزمن لمصلحتهم، إذ لا بدَّ أن يقع خلال تلك الفترة صيد في شباكهم يمكن أن يكون مفتاحاً لكشف هذا العالم المجهول والمحيّر في نفس الوقت، إذا لم تكف الزنزانة وحدها للوصول إلى ما يريدون!

ولأنَّ تلك الفترة انقضت دون أن أدق الباب، دون أن أتوسل، ولاعتقادهم أن المرض هدّني، إضافة إلى النحيب الذي تزايد خلال الفترة الأخيرة، فقد حان الوقت لأن أُمتحن.

قال لي المحقق، وقد بدا أنيساً، وحريصاً عليّ:

ـ حرام أن تعذّب نفسك هكذا، يا طالع!

وبعد قليل وبنفس اللهجة:

ـ ولمصلحتك، ومن أجلك أريد أن أقفل هذه القضية، ولا أستطيع إلاّ إذا ساعدتني، يا طالع!

لم أجب، نظرت إليه وابتسمت ابتسامة صغيرة، تابع:

ـ انظر إلى نفسك، إلى صحتك، ألا ترحم روحك!

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

اقترب مني، رغم الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث من ملابسي، من جسدي، وقال:

ـ أريدك أن تقول كل شيء: مسؤولياتك في التنظيم، علاقاتك، مَن تعرف، ما هي المهمات التي قمت بها، مَن هم الأشخاص الذين يرتبطون بك.

وحين رأى ابتسامتي، وكانت أقرب إلى السخرية، لم يتابع، تراجع خطوتين إلى الخلف، هرباً من رائحتي، ولكي يكون على مسافة تمكّنه من قراءة معنى هذه الابتسامة.

سألني بحيرة:

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد قلت لك كل شيء، وأُكرّر الآن: لا علاقة لي بأي تنظيم، وربما كنت تبحث عن واحد غيري، ووقعتُ في طريقك!

ـ لكّ، يا ابن ستين كلب، تريد تضحك عليّ؟

وابتسم بتشفٍ ثم أضاف:

ـ ولك أنا أضحك على أجداد أجدادك، ومثلك شفت كثير، لكن يبدو أنك متيّس ولا تفهم إلاّ بالعصا، مثل الحمير.

ودار حول نفسه وهو يهزّ رأسه، وسأل:

ـ اريدك تفهمني شنهو اللي ناوي تصيره: وزير؟ أمير؟ أو سوّاق للحمير؟

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ ولك ارحم نفسك وصير عاقل، لأنّ يباسة الراس لا تفيد، وهذول اللي قالوا لك يمكن تصير كذا أو كيت يضحكون عليك. هذول باعوك

وباعوا غيرك، وعندنا في «الجهاز» منهم كثير، ومن هذي اليد ياخذون قريشاتهم، وأنتم مساكين لا تعرفون، الواحد منكم مثل ثور الله ببرسيمه. فاريدك تخلص من هذا العذاب وتطلع من عندي لأهلك!

ـ أنا لا أريد هذا العذاب، ولم آت إلى هنا برغبتي وعلى رجلي، أنتم جئتم بي!

ـ وهالحين تريد تطلع يا ابن الحلال؟

ـ اي نعم!

ـ إذن اعترف.

ـ قلت كل اللي عندي!

ـ طلّعت روحي يا ابن الحرام يا طالع، بس ما يخالف. باكر أو اللي عقبه تشوف، وراح تترحم على ايامك هنا!

الآن، وهم يزفّون إليّ بشارة سجن العبيد، ويزفونني اليه، انقطع الشك باليقين، فتلك الأحلام الصغيرة التي راودتني انهارت تماماً لتبدأ بعدها رحلة العذاب الطويلة!

في القسم الشمالي الغربي من موران، على طريق العوالي، مكان محظور على الناس الاقتراب منه، إذ تحيط به أسلاك شائكة ثم أسوار عالية، إضافة إلى نقاط للحراسة تمنع الوقوف أو المرور.

كان هذا المكان ذات يوم سرداباً، أو بئراً، «ويؤكّد» بعض المتحذلقين من مزوري التاريخ أن أولاد يعقوب اختاروه ليلقوا فيه أخاهم الصغير يوسف، المدلّل من أبيه، لكي يتخلصوا منه نهائياً. وبمرور الأيام، وبعد أن أنقذ الصغير وكبر وأصبح نبياً مشهوراً، وتحوّل الجب إلى سجن لا نهاية له! كان يسجن فيه العصاة والذين يقطعون الطريق، ثم بدأ يُسجن فيه الذين «خانوا» العهد، وأيضاً كل مَن له رأي يخالف السلطان.

كان ذلك يجري وموران بلدة صغيرة، أمّا حين اتسعت وامتدت فيؤكّد الذين يعرفونها كيف كانت وكيف هي الآن، أن الامتداد والاتساع شملا الجهات كلها عدا الجهة الشمالية الغربية، لأنّ هناك تقع قصور السلطان. ويؤكّد مَن يعرفون أكثر من غيرهم أن الامتداد لم يشمل تلك الجهة لأنّ فيها حرس السلطان ومعسكراته. أمّا الذين يعرفون أكثر من الجميع، ونادراً ما يتكلمون، فإنّهم على يقين أن امتداد المدينة في تلك الجهة مستحيل لوجود سجن العبيد!

فالسلطان الذي كان شديد الخوف والتحسب من أعدائه، تعوّد على «استضافة» مَن يقع منهم في الأسر عنده، فكان سجن العبيد المكان الذي ينزلهم فيه، إلى أن يقرّر أمرهم. فبعد أن يستنطقهم، وغالباً ما كان يفعل

ذلك بنفسه، يحدّد لهم آجالهم، فيقتل مَن يرى ضرورة قتله، ويترك الآخرين لكي يقتلهم السجن!

الذين قتلوا، بعد أن قضوا فترة قصيرة في سجن العبيد، كثيرون. والذين ماتوا كمداً، أو بالسم الذي يُوضع في الطعام، لا يُحصى عددهم. أمّا الذين قدّر لهم أن يخرجوا من السجن فقد صدف أن ماتوا بعد فترة قصيرة! رغم أن السلطان زارهم بعد خروجهم في بيوتهم، أو بعث إليهم موفدين ليزوروهم، وحمّلهم الهدايا والاعتذار والحزن لما حصل، وأنه لم يقصد ذلك أبداً، لكن. . . ولا يجد الموفدون ما يضيفونه سوى مبلغ من المال، هدية من السلطان تعبيراً عن المودة!

مفتاح السجن كان دائماً مع السلطان، وقيل إنه كان يربطه إلى حزامه، وحين ينزع ثيابه يضعه تحت وسادته! فإذا سافر أو شغلته أمور كبيرة أودعه لدى أحد رجاله الموثوقين. ويؤكد واحد من المقربين أن السلطان في إحدى معاركه، وقد وقعت بشكل مفاجئ، استبقى المفتاح معه، أو ربما نسيه، الأمر الذي أدّى إلى موت جميع السجناء، إضافة إلى ثمانية من الحرس، صدف أن كانوا داخل السجن لما تحركت الحملة!

القصص التي تروى عن سجن العبيد كثيرة إلى درجة أن الإنسان يتردّد في تصديق بعضها ويتساءل: هل يمكن للحكّام أن يكونوا بهذه الدرجة من القسوة والغلظة وموات القلب؟

وإذا وجد الناس عذراً أو سبباً لقسوة السلطان تجاه أعدائه، فقد حاروا أشد الحيرة وهم يسمعون الأخبار عن اختفاء بعض رجاله! إذ ما تكاد معركة من المعارك تنتهي، إلاّ وينتهي بعدها بفترة قصيرة عدد من رجال السلطان، خاصة أولئك الذين أبلوا في المعركة بلاء حسناً، ولهج الكثيرون بذكر شجاعتهم وتضحياتهم! ولأنّ السلطان اعترف لهؤلاء بما قدموه، وأشاد بهم أمام الكثيرين، ولم يتردّد في أن يقدم لهم العطايا، وأن يزوجهم أيضاً، فإنّ الإشاعات التي تطال السلطان وتتهمه بالتخلص منهم، لا تجد مَن يصدقها، بل أكثر من ذلك كان مَن يروجها يعتبر عدواً، أو وقع فريسة للأعداء، ولا بد من تأديبه، ولذلك كان يوضع في مكان غير بعيد عن سجن العبيد، تمهيداً لمعرفة ما إذا تأدب أم يحتاج إلى طريقة إصلاح أفضل!

أمّا كيف اختفى هؤلاء، وإلى أين ذهبوا، فقد كان يشط بالكثيرين الخيال إلى درجة لا تصدّق، كان يقال إنهم دخلوا الصحراء تكفيراً عن قسوتهم في المعارك، وقيل إن الصحراء استدرجتهم ثم غيّبتهم وانتقمت منهم، إذ أماتتهم عطشاً، «وكان ذلك جزاء وفاقاً لما قاموا به، دون علم السلطان ودون إذنه!» كما أكّد خطيب مسجد موران الكبير حين سئل ذات يوم. وغيرهم اعتزلوا الناس في الضياع التي أقطعهم اياها السلطان. وآخرون انتبذوا الحياة الدنيا وانصرفوا إلى النسك والتعبد انتظاراً ليوم الأجل، بعد أن زهدوا بكل شيء!

هكذا كان يجري الحديث، إذا جرى، عن الذين غابوا. وكان رجال السلطان يسمعون ويراقبون وينقلون، وحين يتكلمون فعن العطايا التي قدّمها لهم السلطان وعن الكلمات التي قالها فيهم. وإذا استمر الحديث أو التساؤل فلا بد أن يذكروا المهمات السرية التي يكلف بها السلطان عادة الرجال الذين يثق بهم، والأسفار التي يضطرون للقيام بها! ويختمون الحديث في هذا الموضوع، وهم يقولون ويبتسمون: «.. ليس كل ما يُعرف يُقال، والمجالس بالأمانات».

كان ذلك يقع زمن المعارك والفتوحات؛ أمّا بعد أن انتهت المعارك، ولم يعد مسموحاً بالفتح، فقد أصبح سجن العبيد مكاناً للتأديب وإظهار الغضب. قيل إن السلطان أدخل عدداً من أولاده إلى السجن، وقضوا فيه بين ثلاثة وخمسة أيام، لأنّ هؤلاء الأولاد قتلوا اثنين من خيوله الكريمة في مراهنات بينهم وهم يتبارون بالنيشان! وقيل إن أولاداً آخرين سجنوا لمدة عشرة أيام متوالية نتيجة نزاعات استعملت فيها الأسلحة النارية، وكانت هذه النزاعات قد بدأت بين النساء!

ويؤكّد بعض الذين عملوا في القصر خلال تلك الفترة أن عدداً من كبار رجال السلطان دخل إلى السجن، وقد حصل ذلك مرة بعد ملاسنة حادة فيما بينهم، ومرة أخرى بعد أن شتم أحد الشيوخ إمام مسجد موران الكبير!

إن ذلك جزء من تاريخ موران غير المدوّن، ويمكن لمن يرويه أن يفعل ذلك بالطريقة التي تروق له، رغم تأكيده المتزايد أن هذا ما شهده، أو ما سمعه من رجال ثقاة!

وهذا الراوي الذي ينقل للآخرين ما رآه أو ما سمعه، يفعل ذلك بتصرف لا يلبث أن يزداد مرة بعد أخرى، ويساعده الآخرون في أن يضيف أو أن يحذف، حسب ما يرون ذلك أكثر ملاءمة، وهو في الحالين لا يشعر أنه أخطأ بالإضافة أو بالحذف!

بعد أن انتقل السلطان من القصر، ولأنَّ الضرورة تقضي ببقاء سجن العبيد، فقد تقرّر أن يحل بالمكان وزير الداخلية، ثم حلَّ مكانه نائبه، إلى أن سُلِّم إلى المخابرات العامة.

لما تسلمت المخابرات العامة المكان كان السلطان الأول قد مات، وعزل ابنه، وجاء السلطان الجديد. وكانت موران قد كبرت واتسعت عشرات المرات، وكانت المخابرات قد قدمت مئات المذكرات أن المكان قد ضاق، ولم يعد كافياً لاستيعاب أعمالها أو نزلائها!

في هذه الفترة، كما في فترات سابقة أيضاً، اضطر المسؤولون عن سجن العبيد إلى حفر أنفاق إضافية، وإلى وضع بوابات حديدية، وإلى توسيع المكان من جميع الجهات. أما السجناء غير الخطرين من القتلة والسراق، والذين يخطفون الأطفال، وأولئك الذين يستعملون الأسلحة في قطع الطرق، فلا بدَّ من ترحيلهم، وإبعادهم، «لأنَّ هؤلاء لا يؤبه لخطرهم بالمقارنة مع أولئك السياسيين الذين لا يعرف كيف انشقت الأرض وأخرجتهم فجأة». وهكذا تمَّ ترحيل السجناء العاديين، وسلّموا إلى إدارة السجون، وبقي سجن العبيد للمخابرات وللسجناء السياسيين.

كتب قنصل النمسا في يومياته، بعد أن قضى في موران عشر سنين، والسبب في بقائه هذه المدة الطويلة أنه كان يتقن اللغة العربية بلهجة أهل موران، ولأنّه كان يهيئ كتاباً عن هذا البلد، وقد مدّدت له حكومته فترة إقامته أكثر من مرة، نتيجة هذا السبب، كتب هذا القنصل كتاباً قرأته في المدة الأخيرة، يقول في إحدى صفحاته، اعتماداً على اليوميات: «. . . وشملت الاعتقالات عدداً كبيراً من الموظفين، من مستويات متعددة، وعدداً أكبر من الطلاب والعمال، إضافة إلى مجموعة من الضباط، وقيل إنهم أُودعوا جميعاً في سجن العبيد!».

«وسجن العبيد، بكلمات قليلة، يلخص تاريخ موران المعاصر، إذ رغم أن أحداً لا يتكلم عنه بصوت عالٍ، وغالباً ما يذكر تورية، أو بإشارات غير مباشرة تدل عليه، إلاّ أنه كابوس حقيقي، إذ بالإضافة إلى انتفاء الشروط الصحية، لأنّه يقع بمجموعه تحت الأرض، فإنّ الوسائل التي تتبع داخله للتعذيب تجمع بين عصرين مختلفين، إذا لم نقل عدة عصور مختلفة. فالوسائل البدائية جداً، من الضرب بالعصي، إلى الربط بالجدران، إلى التجويع، إلى تقييد المسجون، ممدداً، بجذوع النخيل، فإنّ الوسائل الحديثة تزداد يوماً بعد آخر، ويتسع استعمالها».

ويضيف القنصل في مكان آخر: «. . . وهذا نتيجة الاستبداد الشرقي الذي يضرب جذوره في تاريخ هذا البلد. فالاعتقالات تتم نتيجة الوشايات، ولا حاجة لأية أدلة، وفي أحيان كثيرة بهدف الانتقام. كما أن المعتقل لا يملك الحق في محاكمة علنية وعادلة، ولذلك فإنّ أغلب الذين يلقى القبض عليهم يقضون فترات طويلة في السجن دون أحكام، وهذا أحد أسباب قلق السجناء وذويهم».

«إن شعور أهل موران بضرورة الولاء لحكامهم لا يقابله هؤلاء الحكّام بمنح المواطنين الحقوق التي يتمتع بها المواطن الغربي، وقد يكون هذا راجعاً إلى ضعف مبادرة الأفراد، وعدم مطالبتهم بحقوقهم، إضافة إلى الاعتماد على القاعدة الدينية التي تقول إن الإنسان الذي يُغبن في الدنيا لا بد أن يجازى في الآخرة، أي بعد الموت، أضعافاً مضاعفة، وهذا اعتقاد شرقي راسخ».

يمكن للقناصل أن يبعثوا بالتقارير، أن يؤلّفوا الكتب، وكذلك يستطيع السفراء والرحالة ورجال الأعمال، وربما أيضاً بعض الجواسيس، قد يتحدثون عن موران الجانب الآخر، موران أيام الربيع وأيام الخريف. في ساعات الشروق أو ساعات الغروب، بعد أن يرتفع الأذان، وتحل تلك الساعات الشجية، والطبيعة تنتقل من النهار إلى الليل أو من الليل إلى النهار في ذلك الجو الشديد الصفاء، إذ تتداخل الألوان وتمتزج بتفاعل قد لا تدركه إلاّ عين الرسام، ولا تلتقطه إلاّ روح هائمة شاعرة ترى الأشياء في تواليها وتعاقبها، كما لو أن يداً خالقة شديدة البراعة هي التي تعيد صناعة الأشياء!

ويمكن لهؤلاء أن يروا الصحراء في لحظة هدوئها وتألقها خلال إحدى

رحلات القنص التي ينظمها أمير من الأمراء. وقد يفيضون في الحديث عن جمال مطلق وكلي، وكأنّهم في حلم من الأحلام!

لا اعتراض على ما يكتبه قنصل من القناصل، لأنّه هكذا رأى، أو هذا ما يفيد بلده، خاصة وأن ما كتبه هؤلاء يكاد يكون وحده المنشور، بعدما أصاب الخرس أهل موران أو جعلهم لا يتكلمون إلا همساً أو بالإشارات. ولذلك فإذا غاب أهل البلاد لا بدّ أن يتولى مهمة الكلام أحد آخر نيابة عنهم، ومن حق هذا الآخر أن يرى الأشياء، أن يفسرها، كما يشاء. ويجب أن لا نغضب إذا وجدنا شيئاً غير دقيق أو لا نحبه، لأنّنا لم نقل ما هو الشيء الصحيح، ولم نقل ماذا نحب!

هذا الكتاب، كتاب قنصل النمسا، والذي قرأته في الأيام الأخيرة، وبكثير من العناية والحياد أيضاً، إذا جاز لي إن أكون محايداً، إضافة إلى تحريض عادل الخالدي، جعلني أكتب عن..

ولكن كيف أستطيع أن اكتب عن تلك الأيام، عن تلك العذابات والآلام دون أن أتحول إلى غضب ماحق؟ وهل يجب أن أصبح مستشرقاً بملامح غربية لكي أتكلم ويستمع إليّ الآخرون؟ وهل عليّ أن أتحول إلى مزوّر أم محايد لأكون أكثر اقناعاً؟

الحياد، في أي شيء، أكذوبة كبيرة. فالإنسان يحب ويكره، يفرح ويحزن. ولأنّه تعلم النظر إلى الأشياء بطريقة معينة فإنّه يقيّم هذه الأشياء وفقاً لتلك الطريقة. والذين قضوا الشهور والسنين، شهراً وراء آخر، سنة بعد سنة، في ذلك المكان العاتي الرجيم، في سجن العبيد، ولا تزال على جدرانه بقع من دمائهم وأجزاء من لحومهم، إضافة إلى صرخات الألم وآهات الأحزان، أن هؤلاء الناس لا يمكن أن يكتبوا عن سجن العبيد بحياد أو بدم بارد!

أمّا كيف كنا نتصور سجن العبيد، وما هي نظرتنا، فإن ذلك مزيج من الخوف، والحنين والتحدّي معاً. وأريد أن أُغامر وأقول: كالحب، أو مثل العلاقة الجنسية، إذ بمقدار التهيب، والذي يصل إلى درجة الارتباك، فإنّ رغبة جامحة وخفية تدفع الإنسان إلى المغامرة، وعندما يصلها ويقترب منها

تتولد داخله شجاعة لم يكن يتصور وجودها، أو أنها بهذا القدر. هذه الشجاعة الممزوجة بالعناد ورغبة التحدّي والبقاء، تجعله ليس فقط قادراً على الاحتمال وإنما أيضاً على التجاوز والاستمرار.

إنني بمجرد الاقتراب من هذا الجو، استعادته، أشعر أن كل شيء داخلي يتغير. يتوتر جسدي وأُصاب بحالة من الشراسة قد أرتكب معها الحماقات كلها، بل وأصبح مستعداً للحرب حتى لو كنت وحدي.

لكن باعتبار أن الأمر أصبح علامة وذكرى فلا أقل من العودة بهدوء إلى تلك الأيام، من أجل أن يراها الإنسان كيف وقعت ولماذا وقعت، وكأنها تعني واحداً آخر، خاصة وأن هذا الآخر هو الضحية القادمة، فإذا لم يستعد لها بما يكفي فلا بد أن تأكله وتجعله غير قادر على اكتشاف شجاعته، وكيف يستطيع أن يعبر ذلك النفق المظلم من جهة إلى الجهة الأخرى.

رغم الهواء الطري الذي انتشر وملأ كل شيء حولي، فقد تصلّب جسدي وزادت حرارتي وأنا أتذكر سجن العبيد: عادت إليّ دفعة واحدة الصور السوداء المليئة بالدم والعذاب ورائحة الموت، وزادتها حدة خدوش الشهور الأخيرة. ولكي أضع حداً لخوف لا أعرف كيف دهمني فجأة، قلت «مَن احتمل سبعة شهور بأيامها ولياليها في تلك الزنزانة، وما زال حياً وفيه قوة، لا يخشى عليه، وسوف يصمد!»

كانوا يثرثرون، يتابعون أحاديث سابقة أو يتبادلون اسراراً؛ وكانت بعض التعليقات تريد كسري: «. . . وتشوف الواحد منهم عنتر، سبع، لكن إذا وصل سجن العبيد صار جريذي، وين ذيك النفس الحامضة مولانا؟ ليش تنازلت؟ ويخرس، وبس يترجى ويبوس الحذيان». ويلكزني واحد منهم بكوعه، فينغرس الكوع في خاصرتي، يسأل بسخرية:

ـ رأيك مولانا؟

لم أجب، فقد كان من الجنون أن أتحاور معهم!

قادوني إلى مكان، بعد أن نزلنا أكثر من درج، وقالوا:

ـ اقعد: لا تتحرك ولا تلتفت!

وصلت إذن، وأخيراً، إلى سجن العبيد!

ذاكرتي تستيقظ، تصاب، برعاف مجنون، تمتلئ بالتحريض والخوف والتحدّي: «هذا يومك يا طالع كل ما مضى بكفة وما تواجهه الآن بكفة ثانية. إمّا أن تكون رجلاً أو تنتهي إلى الأبد. لا يكفي أنك صمدت طوال

الشهور الماضية، كما لا يشفع لك تاريخك أو نضالك. كل ما كان مضى وانقضى، وعليك أن تعرف: أنت الآن في مواجهة التحدي الكبير، إمّا أن تصمد أو أن تسقط». ويشمخ في داخلي نداء عاتٍ، صوت كأنّه الطوفان: الإنسان لحظة قوة، وقفة عزّ، فاحذر!

الله.. كم في الإنسان من قوى غير قابلة للكسر أو للإلغاء!

في تلك الوحدة، وأنا جالس على الأرض، في مواجهة الحائط، ووسط جموع عمياء نتيجة العذاب والصراخ، والندم أيضاً، شعرت أن الامتحان، رغم قساوته وتحديه، يستحق أن يخاض.

لم يغيبوا طويلاً. وخزتني عصا تحت إبطي، وكأنّها سكين، ثم جاء الصوت:

- انهض وامسك بالعصا!

نهضتُ، بحثت يدي، في الظلمة، عن العصا العدوة، وجدتها. أمسكت بها. قادوني. سمعت أصواتاً كثيرة حولي، لكن وقع الأقدام كان أكثر. ومثل مَن يمشي في الفراغ أو الحلم مشيت. ما كادت العصا تتوقف حتى توقفت. ثم فجأة، ولا أعرف كيف، أو من أين، بدأت تنهال عليّ الضربات من كل جانب، بالأيدي، بالأرجل، كانت تنهال مع صرخات فرحة أقرب إلى النشوة، كنت أطير في الهواء، وأسقط، كان رأسي يصطدم بالجدار، بالأرض، لكن الأيدي القوية تنتزعني لأقف مرة أخرى، ثم هجمة ثانية، أشد من الأولى، ثم صرخات محذرة: «قف.. قف» وبعد لحظة صمت، أحسّ هواء ولّده ركض من بعيد، ثم ساقين قويتين تنغرزان في بطني، فينطوي جسدي وانداح في الفضاء، لا أعرف إلى أين، لكن أمتلئ قناعة أكيدة أنني تبعثرت، أصبحت أشلاء. وما يكاد رأسي يصطدم بالجدار حتى ارتدّ. تنهضني أيدٍ عدوة كأنّها الكلابات، وحين أقف تلك الوقفة المترنحة العمياء تهوي على وجهي صفعات متوالية ببطن اليد وظهرها، فينخلع عنقي، ويصبح الوجه كتلة من الجمر. أصرخ، أشتم، لكن الضحكات التي تتوالى والمعجونة بشبق عارم مفضوح تطغى على صوتي، تذيبه، وتنقضّ يدان قويتان على لحيتي فأحس أنني اقتلعت من جذوري، أو كأنّني مربوط إلى هذه اللحية. أمّا حين تبدأ الشدات المعاكسة لشعر رأسي فأصبح على يقين أنّني

سأنقسم فوراً إلى نصفين غير متساويين، لكن في اللحظة الأخرى يفلت رأسي أو لحيتي، فأتدحرج، مثل كرة على الأرض، وأتلقى ركلات مجنونة في كل مكان، وأصرخ، خاصة وأن رائحة الدم حوّلتني إلى حيوان وسيلته الوحيدة في الدفاع هي أن يصرخ. ويضحكون، يضحكون، يتراءى لي وكأنّهم تحولوا إلى مجرد أصوات، هل كانوا يردون على صراخي بصراخ أقوى منه؟ هل كانوا يخافون صوتي ويحاولون أن يحجبوه بأصواتهم؟ وشكلي.. هل كان مضحكاً إلى هذه الدرجة؟

كم مرة وقعت وانتزعوني من الأرض، كم مرة اصطدم رأسي بالجدار ونهضت؟ وإلى متى سوف تستمر هذه الحفلة؟

لم أمت، وسوف أعرف في وقت لاحق، أن هذه «الحفلة» هكذا يسمونها، عربون الوصول إلى سجن العبيد! وهذه الجوقة، أو جوقة مثلها، تستقبل كل من يصل إلى هذا السجن بنفس الطريقة إيذاناً بالتدشين لهذا الوصول العظيم!

في لحظات كثيرة كنت متأكداً أنني لن أتخطى هذه الغرفة، ولن تتاح لهم الفرصة، مرة أخرى، لكي يمارسوا عليّ أي نوع من العذاب، إلاّ إذا كانوا يمارسون التعذيب أيضاً مع الموتى! كنت متأكداً أن هنا، والآن، سوف تكون النهاية. لكن جسد الإنسان يحتمل الكثير، ويمكن أن يُرمّم أيضاً!

لم يسألوني عن أي شيء، لم يطلبوا منّي شيئاً. فهذا النوع من المخلوقات ليس مطلوب منه، أو لا يحسن في هذه الحياة إلاّ: الضرب والضحك، والصراخ الأعمى، وربما لا شيء غير ذلك!

عندما تكومت مثل جثة، مثل كرشة مليئة بالدماء والقيء، تركوني.

بعد وقت لا أستطيع أن أقدره جاء واحد ورشقني بماء بارد، دلقه عليّ، لما أفقت سمعت صرخته:

- انهض يا ابن ستين كلب!

بعد محاولات عديدة استطعت أن أقف. وخزني بعصا، وقال:

- امسك بالعصا.

بصعوبة مشيت. كان جسدي يرتجف، كان يصرخ من آلام لا أعرف من أين تنبع. قادتني العصا إلى أن وصلنا إلى مكان، قالت العصا: قف،

فوقفت، وجاء صوته:
ـ اقعد ولا تلتفت لا يمين ولا يسار!
ومثل شوال يسقط في حفرة تداعيت على الأرض، لم أكن قادراً على الجلوس بأي شكل. حين ارتخيت أكثر دفرني برجله وصرخ:
ـ اعتدل!
حاولت أن اعدّل تلك الكومة من الأعضاء التي كنتها، تعدلتُ قليلاً لكنها لم تستقم. كنت أريد أن أتقيأ، أن أنام، أن أغيب، لكن الأنين الذي حولي، صرخات الألم، ثم تلك الصفعات المفاجئة التي لا أعرف من أين تأتي، وليس لها مواعيد ثابتة، جعلت أعضائي مشدودة دائماً نتيجة التوتر، ولانتظار الضربة التالية!
في وقت ما جاؤوني بالأكل قال لي وهو يضع أمامي صحناً معدنياً:
ـ ارفع العصابة، لكن لا تنظر إلاّ إلى الصحن، وإذا التفت يمنة أو يسرة لا تلوم إلاّ روحك!
طعام؟ أية سخرية كاوية أشد من هذه السخرية؟ مَن يفكّر بالأكل؟ مَن يستطيعه؟
لا أعرف كيف عبّرتُ عن رفضي، وأنني لا أشتهي. وخزتني عصا من وراء ظهري، وجاء صوت آخر:
ـ كل يا خنزير...
وتغيرت النبرة:
ـ وإذا ما اكلت برضاك تأكل غصب عنك!
هل مددت يدي؟ هل فتحوا فمي ووضعوا فيه الأكل؟ أتذكّر أنني تلقيت عشرات الوخزات، وكل واحدة أقوى من الأخرى؛ وأتذكّر أن الرّجل التي خلفي كانت تحاورني أكثر من الكلمات!
كنت فقط أريد أن أنام. كان النوم الأمنية الوحيدة، لكن...
ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ لم تر عيناي النوم، أو لم يتح لي أن أنام إلاّ كما ينام عصفور في مواجهة حيّة. كانت الصفعات تتوالى حين يسترخي جسدي، حين يميل رأسي، فإذا رفرفت تلك الوسنة وطارت، فإنَّ الأنين حولي يجعلني، لفترة طويلة، في حالة من التوتر تمنعني من النوم مرة أخرى. فإذا

تداعى رأسي أو تخاذل العنق، وحينما أغيّر جلستي بحثاً عن طريقة تخفف الألم، فلا بدّ أن تأتيني وخزة أو دفرة لتقول لي: نحن نراقب كل شيء!

في هذا الممر الذي لا تهدأ فيه الحركة ليل نهار، والمملوء بالأنين والنواح والصراخ والألم، مع الوخزات والصفعات، يهيئون القادم الجديد، نفسياً، ويشعرونه بما ينتظره خلال الأيام القادمة، لأنَّ النداءات الخشنة التي كانت تتردّد ساعة بعد أخرى، وهي تطلب من واحد من المنتظرين أن ينهض، كانت أكثر من مجرد أوامر:

- انت، اي نعم، انت، انهض.

وبعد قليل وبلهجة مختلفة، لكن لا تقل خشونة.

- جاء دورك الآن، وراح نشوف بطولاتك!

حتى الذهاب إلى المرحاض، وقد رفعت يدي، كما أُمرنا من قبل، لم يُسمح لي إلاّ بعد وقت طويل. كادت مثانتي تنفجر، وكدت أُبوّل في مكاني. قال لي وهو يقودني، بعد أن أعطاني طرف العصا:

- دقيقة واحدة؛ أكثر من دقيقة اكسر راسك!

وأن يحتقن البول، وأن يستعصي، لا يولّد الألم فقط، يجعل الجسد كله في حالة من الاختناق. صرخ، وأنا أحاول بصعوبة، وكان يقف على بُعْد أمتار، وكان الباب مفتوحاً:

- وتكذب يا ابن الحرام، بس تريد تعذبني... ها؟

كانت أمنيتي في تلك اللحظة أن أتبول، أن أتخلص من ذلك الاختناق الذي بدأ يصل إلى رقبتي. لما انتهيت وضعت يدي الاثنتين على طرفي الباب تعبيراً عن الراحة. صرخ مثل ذئب:

- عصّب عينيك يا خنزير!

ومثل دودة عمياء مشيت وراءه. لما وصلت إلى مكاني جلست، قال لي، وهو يركلني بطرف حذائه المدبب، وفي الخاصرة تماماً:

- إذا أردت تضحك عليّ، نوبة ثانية، اشعل أجداد أجدادك، سمعتني؟

هذا الممر، الذي اكتشفتُ أنه طويل، وربما طويل جداً، بداية الجحيم. ففي جانب، وعلى طول مئات الأمتار، غرف المحققين. وفي الجانب الآخر، بالإضافة إلى الجدار الأصم، كانت هناك ممرات فرعية تقود إلى

الزنزانات. أبواب غرف المحققين تنفتح بين فترة وأخرى لتنتزع واحداً من الذين ينتظرون، ووجوههم إلى الجدار، وتغيّبه في الداخل، حتى إذا انفتحت مرة ثانية فلكي تلقي به كومة من الدماء والأعضاء المكسورة أو المسحوقة. كانت تلقي به بقوة فيصطدم بالجدار، بأحد الموقوفين، وتفوح رائحة الدماء أو رائحة القيء. وبعد ذلك إمّا أن يبقى هامداً في مكانه، لا تصدر عنه إلاّ الآهات والأنين، أو أن يُرفع كما ترفع الجثة ليلقى به في إحدى الزنزانات. كان باب الزنزانة يصرّ صريراً قاسياً موجعاً إعلاناً عن استقبال وافد جديد، أو لسحب واحد طال عليه الانتظار!

وتستمر الحركة في هذا الممر، وبعض الأحيان تتواصل ليل نهار. كانوا يريدون من كل واحد أن يستوعب الدرس جيداً قبل أن يدخل الامتحان. إذ بالإضافة إلى المشاهد الإجبارية التي يريدون للقادم الجديد أن يراها، حتى من وراء العصابة التي لا تفارق عينيه، فقد كانت الأصوات، ومن الجانبين، تثير الفزع، أصوات الشتائم والضرب، والأبواب وهي تفتح أو حين تغلق، ثم أصوات المجلودين، اليائسة أغلب الأحيان، وربما المصنوعة، التي تتعالى في كل وقت، طالبة باستغاثة الماء، أو أن يسمح لها بالمثول مجدداً أمام المحقق، لكي تعترف بكل شيء، ومن أجل أن تعلن توبتها الكاملة والنهائية. هذه الأصوات إذا لم تكف، فلا بد أن تُستكمل من خلال الهمسات السرية. كان الواحد منهم يقرفص قريباً مني ويسأل ببراءة:

- ما هي تهمتك؟

أو

- لماذا جاؤوا بك إلى هنا؟

وحين أنفي وجود أية تهمة، أو أني لا أعرف لماذا جيء بي إلى هنا، كنت أتلقى لكمة أو ركلة مع مجموعة من الشتائم! وبعد دقائق قليلة يتحلقون، ويقول الواحد للآخر، ويريدني أن أسمع كلماته: «اي نعم.. هذا هو» «لا تنس، لازم تتوصى به» «هذا ما جاء دوره بعد» ولكي لا يقع خطأ لا بدَّ من وخزة قوية بالعصا أو ركلة، لكي تؤكّد مَن هو المقصود!

هل جعلتني هذه الأيام الثلاثة أقرب إلى الذهول أو الجنون، ومستعداً للاعتراف؟ لقد تداعى جسدي، أصبحت غير قادر على التحكم به. لكني

أصبحت، في الوقت نفسه، بحالة من العناد الممزوجة بحقد أشد سواداً من القطران، وبدأ يتضاعف هذا الحقد مئات المرات، آلاف المرات، وصرخات طفل رضيع حادة متواصلة كأنها الشفرات تحز القلب مباشرة أو تدخل باطن العين، وهي تملأ الممر كله!

لم أفطن، أو لم أميّز، خلال الساعات الأولى، وجود نساء في الممر، وأنهن ينتظرن دورهن للتحقيق، تماماً مثل الرجال! أمّا بعد أن أخذت الصرخات تنفجر وتتوالى، وحين تجرأت في اليوم الثاني، أو الثالث، لم أعد أتذكر، ونظرت صوب المكان الذي كان يأتي منه الصوت، في لحظة سهو الحراس، ورأيت تلك المرأة وهي تحتضن الطفل، فقد قرّرت أن أبقى مجنوناً إلى النهاية!

ربما في تلك اللحظة، ومن خلال نظرة خاطفة كالبرق، مثلما تتقاطع النيازك في السماء، شعرت أنني أكون تافهاً منحطاً لا أُساوي شيئاً إذا لم أتخذ موقفاً، قلت لنفسي: «لو هبطت السماء على الأرض، لو قُطّعت إلى آلاف الأجزاء، لو فعلوا بي أي شيء، فلن ينالوا مني كلمة واحدة» في تلك اللحظة لم أكن أُدافع عن نفسي، عن جسدي، كما لم أكن أحس بالألم. كنت أمتلئ بشيء غامض، لكنه طاغ وكثيف، وقد افترضت أن أية تضحية في سبيل هذا الشيء ليست مقبولة فقط بل وضرورية إلى أقصى الحدود.

إلى وقت متأخر، وربما إلى الآن، لم أستطع أن أُحدّد طبيعة هذا الشيء الذي أُدافع عنه هل هو الكرامة الشخصية؟ الإنسانية؟ هل هو اليأس أو الاستقالة الكاملة من الحياة؟ أو هل هو الدفاع عن حرية البشر وحقهم في الحياة؟

تلك المرأة المكسورة، المليئة بالألم، والشديدة الحزن والسواد، حرّكت في داخلي شعوراً جامحاً لا يمكن أن تقف في وجهه أية قوة، شعور الغضب والحقد والتحدّي، وأيضاً الاستعداد لأي شيء وفي الوقت الضروري.

وذاك المخلوق الصغير الذي لا يعرف غير الصراخ، وكان صراخه معبراً وقوياً، كيف يمكن أن يؤتى به إلى هنا ولا يجد أحداً يحميه ويدافع عنه؟

حين أستعيد الآن اللحظات الصعبة، وأُحاول تفسير مواقفي تجاهها، أجد أن الجانب البدائي، جانب الحيوان فيّ هو الذي حماني. كان العناد سداً

في مواجهة الكوارث التي اجتاحت عدداً كبيراً، ولو أن الآخرين امتلكوا عناداً مثل عنادي لظلّوا أقوياء وشامخين إلى الآن! فالفرق بين السقوط والصمود لحظة، ممر ضيق، وهذا ما ينساه أو يتناساه الكثيرون!

لا أريد أن أكون فيلسوفاً لكي أُفسّر أو أُبرّر مواقف البشر، وأعتقد أن لا ضرورة لذلك ابداً. كل ما كنت أبحث عنه نقطة ارتكاز، ولقد وجدتها. يمكن أن أُسمّيها العناد، وربما يسمّيها غيري القناعة أو التحدي. المهم أنني وجدت تلك النقطة، وهي التي حملتني، جعلتني عصياً على كل قوى الأرض، وأقسى من الصوان.

ربما أفسدت عليكم المتعة، فأنتم بحاجة لأن تتابعوا كيف كنت أتلوى وأصرخ من العذاب والألم، لا أن تسمعوا وعظاً أو خطابات فلسفية بائسة. واني إذ أتفق معكم، ولو مؤقتاً، أقول لكم شيئاً قد تستغربونه: لم يعلمني هذا العناد أي إنسان، لم أرضعه من ثدي أُمّي، ولم أقرأه في كتاب، كما لم أدرسه على شيخ، ولم يرشدني إليه بشر. لقد تعلّمته من وردان! ووردان لما بدأت العلاقة بيننا كان لا يزال كلباً صغيراً كالدمية، كان لا يعرف حتى العواء. إذا مشى ترنح، وإذا رفعت يدي خاف وهرب. لكنه كبر وقوي بسرعة. أردت له تربية تليق بجنسه الأصيل وبالمهمة التي نذرته لها. لكن ما كان يروق لي لا يعني أنه يروق له دائماً. اختلفنا، لكن تعايشنا. كان يحب أن يلعب حين يريد وليس حين أُريد أنا. وكان يحب أن يركض في أماكن لا أعتبرها الأكثر ملاءمة، وبسرعة لا أطيقها؛ ويحب أن يغفو أو يستريح حين أكون راغباً في أن يتحول إلى كلب من كلاب السيرك. أمّا وقت الأكل، خاصة إذا كانت ضمن وجبته عظام، فيجب أن أحتفظ بمسافة أمن كافية، فلا أقترب ولا أتدخل؛ فإذا تجاوزته في بعض الأحيان، أو ما اعتبره ذلك، وضربته فكان يعضني!

وردان الذي ربّيته بطريقة فذّة، لكي أصل معه إلى تفاهم لا تدانيه الكلاب الأخرى، يعرف في أحيان كثيرة كيف يغضب ويحتج، ويعرف أيضاً كيف يرفض ويقول لا.

هذه اللا هي سر الكون كله!

هذه الكلمة الصغيرة إلى درجة التلاشي هي التي غيّرت الكون والبشر

والحياة، وهي التي غيّرتني، ومثلما جعلت الإنسان إنساناً حين يعرف كيف يستعملها ومتى وفي مواجهة مَن، جعلتني أجرؤ على استعمالها!

ففي اليوم الرابع، في جو الذهول والألم والبعد، تلقيت ركلة مفاجئة ومختلفة، ثم سمعت صوتاً:

ـ استعد!

للحظات لم أتصورها أنها تختلف عن عشرات الركلات السابقة، لكن الحركة حولي، وكانت أكثر من عادية، جعلتني أتأكد! وخزتني عصا من نوع مختلف، وجاءني صوت مختلف:

ـ انهض!

بصعوبة نهضت.

ـ امسك بالعصا.. واتبعني.

أمسكت بالعصا ومشيت. مشينا مائة متر، ربما أكثر من ذلك أو أقل، فقد كنت في حالة لا أُفكّر باقتحام سجن العبيد ولا تحرير السجناء، كنت أُفكّر كيف أستطيع أن أواجه الخطوة التالية، كيف أصمد وأن أتحدَّى!

بعد تلك المسافة وخزني في صدري، وقال كلمة صلبة:

ـ قف.. ولا تتحرك!

تركني هكذا في الفراغ، تماماً كما يقف إنسان على حافة جرف. ذهب. شعرت أنني بحاجة إلى أحد، بحاجة إلى أي إنسان، إذ ربما جنبني السقوط في الهاوية. حاولت أن أنظر، لكن العصابة كانت شديدة، وقد تعمّدت أن أشدّها هكذا لعلها تكون طريقتي إلى الرؤية الأخرى، إذ بعد أن عانيت من الرخاوة، والتي تجعل كل شيء ملتبساً، قرّرت أن أحكم إغلاقها لعلها تساعدني على السفر البعيد: إلى حيث أريد، مترفعاً عن هذا الاستفزاز الذي يحاولون أن يطوقوني به في كل لحظة.

حاولت أن أُسافر، سافرت، لكنه سفر قصير أقرب إلى الحلم. عدت بسرعة، كما يعود مسافر طلب إليه العودة لأسباب قاهرة، لموت، أو لمرض لم يكن متوقعاً.

جاء مرة أخرى. قدّرت ذلك من الضجة التي تقترب نحوي، وخزتني العصا، قال لي الصوت ذاته، لكن برخاوة هذه المرة:

ـ امش معي، وهالحين راح نشوف المنفخة وبباسة الراس ماذا تفعل بصاحبها!

نزلنا أدراجاً، كانت الضجة الكثيفة ترافقني، فالوقع القاسي للأقدام، والاحتكاك، وبعض الهمسات، تولد أصواتاً إضافية ورهبة. كنت متوتراً أكثر مما كنت خائفاً، وكنت، في كل لحظة، متوقعاً شيئاً غير عادي: أن يدفعني أحد وأنا أنزل الأدراج، أن يضع ساقه أمامي فأتدحرج، أن أتلقى ضربة قوية ويختل توازني فأسقط. لاحظ توتري، ربما من العصا التي أخذت تتموج بيننا لعدم تناسب حركتنا، دفعها في صدري وقال:

ـ أشوفك بدأت ترجف قبل ما نصل إلى غرفة التحقيق!

لم أجب ولم أتغير. تابعنا سيرنا. قطعنا مسافة غير قصيرة. دخلنا إلى غرفة، بدت أكثر دفئاً من الخارج، أو هكذا تصوّرت.

رغم الصمت كنت أحس أن عدداً من المخلوقات حولي. هل تبدأ الحفلة الآن؟

بعد فترة بدت طويلة وقاسية جاءني صوته:

ـ لازم تعرف، أنت الآن في سجن العبيد..

وبعد قليل، وبلهجة واثقة ومرحة:

ـ ولازم تعرف أننا هنا نقدر نسوّي كل شيء، لا أحد يسألنا ولا أحد يحاسبنا، شورنا من راسنا. نحن نقدر نخلّي البلبل ينهق والحمار يغرد، وما مرّ أحد من تحت ايدنا إلاّ واعترف، وقال حتى بأي شيء كان يفكر أو يحلم.

وتغيرت اللهجة.

ـ وهذا الكلام اللي قلته هناك ما يفيدك، كله كذب وما أشتريه بفلس، وهالحين اسألك سؤال بسيط: تريد تعترف وتتكلم، وتقول كل شيء، كل شيء، من يوم وعيت لهذه الدنيا وحتى هذه الساعة، أم تريد تجرّب قوتك وكم تقدر تتحمل قبل ما تعترف؟

أجبت، وقد حاولت أن أكون بسيطاً وواضحاً:

ـ أنا قلت كل اللي أعرفه، كل اللي عندي!

ـ وغير هذا الكلام؟.

ـ يمكن أنتم غلطانين، وتدوّرون على واحد غيري!

ـ لك، اسمع. . .

وربما تحرّك من مكانه، فقد اقترب مني صوته وتغيّر. حتى ظننت أن الحفلة ستبدأ فوراً، تابع:

ـ مثلك شفت آلاف، والواحد منكم يسوّي روحه مسكين، البسّ ياكل عشاه، لا سمع شيء ولا يعرف شيء، لكن بعد ما ينسحق، بعد ما تتكسّر عظامه، يبوس الايدين والرجلين ويبصم بالعشرة. وهالحين ما اريد اقول لك مَن هو الشهيري وشنهو اللي يقدر يسويه، لأنّك راح تشوف بعينك، بس قبل ما اوسخ يدي بجزّك وسلخك اسألك لآخر مرة: عندك كلام غير اللي قلته هناك أم لا؟

ـ كل ما عندي قلته!

ـ والله، يا ابن الحرام، لأخليك تاكل أصابعك ندامة، وراح اسويك علم على راسه نار، ما يذكرك أحد إلاّ ويقول: اعترف أحسن ما يصير بي مثل ما صار بطالع العريفي، وراح تشوف بعينك!

لم أتكلم.

أحسست أن شيئاً سوف يحصل في تلك اللحظة، خاصة وقد خيّم الصمت. اقترب مني، سمعت الخطوات، ثم لفحتني الأنفاس، وخزني بعصاه، تراجعت قليلاً، قال بصوت رخو وحاقد، موجهاً الكلام إليّ، ثم إلى آخرين:

ـ أن ترى خير من أن تسمع. . تفو

بصق عليّ وقال:

ـ خذوا هذا الزنديق!

الزنزانة في سجن العبيد قبر: صغيرة، باردة، فارغة، أقرب إلى الظلمة، وتنبعث منها أيضاً رائحة الموت. وإذا كان الصمت «هناك» سيداً فإنّ الصراخ هنا، بكل أشكاله، من البكاء إلى الرجاء، من الأوامر إلى الشتائم، وفي كل وقت، في الليل والنهار، هو الملك. وحين لا يكفي صراخ البشر، فإنّ أبواب الزنزانات وهي تفتح أو حين تغلق، تضفي على الجو حالة من الرهبة تشبه لحظة الاحتضار.

صرّ باب الزنزانة، وكأنّه احتكاك عظام، لما فتحه. دهمتني رائحة عفنة

مليئة برطوبة فاسدة، قال لي بلهجة ساخرة:

ـ تفضل. . مولانا!

صرّ الباب أكثر وهو يغلق. ظلمة لا تمكّن من الرؤية الواضحة. بعد وقت غير قصير تعودت على الظلمة وبدأت أميّز. ليس في الزنزانة كلها إلاّ وسادة، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة من الاسفنج لا تزيد على نصف متر طولاً وهو ضعف عرضها. إنها الفراش والغطاء معاً!

الآن تبدأ الرحلة الجديدة.

حذفت من ذهني جميع الرغبات والأفكار، كنت فقط أريد أن أنام. فبعد هذه الأيام الطويلة في ممر الجحيم، كنت أشتهي الغرق في سبات عميق. بدأت أهيئ نفسي، لكن الصرخات التي لم تنقطع، والحراس الذين يمرون بين لحظة وأخرى، بأقدامهم الثقيلة والمفاتيح التي ترن، ثم وهم يفتحون الشرّاعات ليتأكدوا أن ضحاياهم لا تزال على قيد الحياة، إضافة إلى الرهبة في مكان لم يتعوده الإنسان، يجعل النوم بعيداً أو مستحيلاً. إذ ما أكاد أسهو، ولا أقول أغفو، حتى ينفجر صوت من نوع ما فيسرق النوم من عيني لفترة طويلة.

كنت متعباً إلى درجة افترضت أن لا شيء يمنعني من النوم، خاصة بعد أن توقفت الركلات والصفعات، لكن تلك الأصوات التي تتتابع وتتوالى، وكان يمكن للإنسان أن يتعود عليها لو أن لها وقعاً منتظماً، أو رتيباً، فقد كانت تتغير باستمرار، تزدحم بصرير البوابات، بالشتائم، بأصوات الضرب، فتجعل النوم كابوساً مروعاً لا يعرف الإنسان كيف يتخلص منه.

بين رغبة النوم والوصول إلى النوم مسافة لا يمكن اجتيازها في سجن العبيد، وهم يراهنون على هذه المسافة. فالتحقيق لا يبدأ إلاّ حين يتأكدون أن النار الهادئة أنضجت «الضحية» أي حين يصبح المعتقل غير مستعد سوى للاعتراف، وعند ذلك يبدأون!

بعد خمسة أيام من محاولة النوم وعدم القدرة على الوصول إليه، جاؤوا:

ـ عصّب عينيك واستعد!

كنت متلهفاً لبداية المرحلة التالية، أياً كانت، فقد أصبحت على يقين أن المرحلة الجديدة تلغي ما قبلها، وتدفعني إلى أخرى تليها، ولذلك من الأفضل

أن تتوالى وأن تتسارع.

عصبت عيني وانتظرت. وخزني بالعصا، دون كلمات، إشارة إلى أن الرحلة تبدأ الآن!

أخذوني إلى الشهيري مرة أخرى. عرفت ذلك من صوته، قال لي برخاوة، وربما كان يلوك شيئاً في فمه:

ـ ها، يا ابن العريفي، عندك شيء جديد تريد تقوله؟

ـ لا

ـ متأكّد؟

ـ اي نعم متأكد!

ـ زين.. زين، وهالحين تعرف وين راح تروح؟

ـ لا

ـ راح تزور، الله يسلمك، السرداب!

وضحك، وسألني:

ـ تعرف شنهو السرداب؟

ـ لا

ـ ولا سمعت عنه؟

ـ لا

ـ ما أحد سولف لك شنهو السرداب، والشهيري يصول به ويجول؟

ـ لا

ـ هذه «اللا» اللي تعرفها زين، يا ابن الحرام، راح تنساها حتى بالصلاة!

وبعد قليل، وكان يوجه الكلام إلى آخرين بغيظ.

ـ خذوه قدامي إلى هناك!

أخذوني. سرنا في طريق طويل، ثم نزلنا درجاً. كانت خطواتنا تدوي، وكأننا ننزل إلى بئر أو إلى باطن الأرض. في لحظات كثيرة توقعت يداً تدفعني فأهوي إلى مكان سحيق، وهناك تكون النهاية... «هذا هو السرداب إذن»، هكذا قلت لنفسي! لكن الدرج انتهى، وسرنا بضع خطوات أخرى، ثم فُتح الباب، دُفعت إلى الداخل، وقال لي صوت:

ـ اجلس!

ـ جلست، غادروا المكان نهائياً، ولقد تأكدت من خلال الصمت الذي امتد واستطال، وترافق مع دوي مكتوم، وكأنّه أصوات مياه بعيدة تجري في مكان عميق باطن الأرض. تلفتُّ إلى أكثر من اتجاه وأنا معصوب العينين. لم يعترض أحد. لما تأكّدت أني وحيد تجرأت على أن أرخي العصابة. رأيت كما يرى الحالم: غرفة واسعة، شديدة الإنارة، في جانب دكة عالية، يتوسطها كرسي بلون نبيذي له مساند. الدكة كأنها خشبة مسرح ديكورها الوحيد هذا الكرسي. في وسط الغرفة طاولة بأرجل اسمنتية مثبتة بالأرض، وسطحها ألواح خشبية غير منتظمة وغير مصقولة، وتتدلى منها حبال وسيور جلدية. في أرضية الغرفة مجموعة من الأحذية والقمصان والعصي والكابلات، مجموعة غير منتظمة، أقرب إلى الفوضى. أما الجدران فقد كانت ملطخة بالدماء، دماء قديمة وأخرى لم تجف!

هذا هو السرداب إذن؟

هكذا تساءلت. ثم تجرأت فنظرت إلى الباب، بعد أن تأكدت أن لا أحد في الغرفة.

ربما تركوني وحيداً، وتركوا لي وقتاً، لكي أستوعب آخر الدروس، قبل أن يبدأوا، لعلِّي أخاف أو أقدّر ما ينتظرني، فأُحاول، منذ اللحظات الأولى، أن أختصر عذابهم!

قلت لنفسي: «من العار، بعد هذا الإذلال والعذاب، أن اقدّم لهم لحمي عشاء شهياً يتمتعون به، ثم أني أُدافع عن قضية عادلة وبسيطة. حقي وحق الآخرين في الحياة والحرية، وهم يدافعون عن امتيازاتهم وعن السلاطين والشيوخ الفاسدين، ولذلك يجب أن أكون أقوى منهم، لأنَّ قضيتي هي المشروعة».

لا أعرف كم من الوقت مرّ حين أتوا. سمعت وقع الأقدام وهي تدوي. عصبت عيني من جديد وبدأت أستعد!

اعتلى الشهيري خشبة المسرح. قدّرت ذلك من خلال الصوت.

ومثل أية مسرحية بدأوا:

ـ ارفع العصابة.

رفعتها. كانوا جميعاً مقنّعين، كانوا يضعون على وجوههم أغطية أو جوارب، وكنت الوحيد المكشوف الوجه! حتى الشهيري الذي جلس على العرش وسط المسرح بدا مثل دمية. لأول مرة أراه قصيراً سميناً، ومرتبكاً أيضاً.

وضعوا أمامي دورقاً كبيراً من الماء. قال لي الشهيري بسخرية:

ـ لازم تشرب هذا كله!

كان في الدورق ماء يكفي أو يزيد لعدة أشخاص عطاش. نظرت إلى هذه الكمية باستغراب، ولكي لا يترك مجالاً لمناقشة طويلة صرخ:

ـ تشربه كله بلا سين وجيم!

وحين رأى الاستغراب والدهشة أشار بيده فركلني أحدهم بحذائه، ثم هدر صوته:

ـ اشربه أحسن لك!

قدّرت أن الاختلاف والعناد في هذه المرحلة، وحول هذا الأمر، مضيعة للوقت، ولا يعتبر شيئاً، ولكن كيف أستطيع شرب كل هذه الكمية؟

بصعوبة بالغة، وعلى عدة مراحل، وبعد عدد من الركلات والصفعات، شربت الماء كله. أحسست نفسي كالطبل، ولا بد أن أنفجر في أية لحظة. حين انتهيت قال لي الشهيري بمرح:

ـ بالهنا والشفا.

وبعد قليل وبلهجة حازمة، لكن لا تخلو من سخرية:

ـ وهالحين، الله يسلمك، عصّب عيونك، وخلنا نشوف دربنا!

امتثلت. قال، يخاطبهم:

ـ ركبوه!

رفعوني إلى الطاولة. كنت مربكاً لنفسي ولهم. بعد عدة توضيحات أخذت الشكل «الصحيح»! وجهي إلى أسفل عند الحافة، ويداي متدليتان لكي تربطا بقوة إلى قائمتي الطاولة، والساقان منفرجتان ليسهل تقييدهما عند الكاحلين وبشكل عمودي إلى القوائم الخلفية. أما الظهر الذي تقوّس قليلاً، نظراً لخشونة سطح الطاولة وللفراغات بين دف وآخر، ولتباين المستويات

أيضاً، فقد تولّى تقويمه واحد منهم، حين «هبط» بقوة وبشكل مفاجئ فوق ظهري!

عملية التربيط والتقييد بداية الدخول في نفق الموت. كانت الحبال وهي تشدّ على كاحلي كأنّها أسلاك النار، تصورت، في لحظات كثيرة، أنهم لا يريدون تقييد الساقين أو تثبيتهما، وإنما الهدف أن تُقصّا عند نهاية القدم. أما اليدان، وقد رُبطت كل منهما بقيد، وشُدَّ القيد إلى قائمة الطاولة، فقد كنت على يقين أن أية حركة إضافية من قبلي تعني انتزاع اليدين عند الكتفين. والحبل الذي التف حول خصري، بعد أن قوّم الظهر بتلك الطريقة، جعلني أحس الماء الذي امتلأت به لا بد أن ينفجر، ومن مكان محدد، من العيون بالذات!

استغرقت العملية وقتاً غير قصير، رغم البراعة والإتقان، وبدا، بعد هذا الاستعداد، أن المهمة ستكون شاقة، تماماً مثل مَن يستعد لسفر طويل!

خيم صمت رصاصي ثقيل.

سمعت نحنحة تجلو الحنجرة، ثما جاء صوت الشهيري مصقولا:

ـ اسمع، يا ابن العريفي، أنا لن أسألك، ولن أتكلم، وأنت حين تريد أن تتكلم، أن تعترف، وتقول كل اللي تعرفه، تحرّك السبابة...

وبعد قليل وبسخرية:

ـ لكن أنت كافر، ملحد، ويجوز إذا قلت لك: اللي تتشاهد بها لا تعرف، فعلّموه عن سبابته!

وأمسك أحدهم بذلك الإصبع بقوة كاد يكسره، وبعد قليل قال الشهيري:

ـ هذه هي السبابة، فإذا حرّكتها أعرف أنك صرت آدمي ورجع عقلك لراسك.

وخيم الصمت، وبعد قليل جاء الصوت مرة أخرى، لكنه بدا مختلفاً تماماً، كان أقربَ إلى الدعاء أو الترنيم:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم.

محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، صدق الله العظيم».

تنحنح، مرة وأخرى، ثم تابع بتوسل:

- «يا إلهي، ربنا الذي في السماء عرشه، ربنا الذي في السماء تقدّس اسمه، أمرك ماضٍ في السماء والأرض، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، إنك أنت الغفور الرحيم.

ربي وإلهي أنت تعرف أنه من أجلك ولخدمتك ومرضاتك ولإعلاء كلمتك في الأرض نضرب هذا الملحد الكافر الزنديق، لأنه كذب ولم يصدق، ودخل الشيطان إلى قلبه ولم يخرج. فساعدنا، يا قوي يا جبار، في رده إلى الصراط المستقيم.

يا إلهي فرّج عني ما ضاق به صدري، وعيل معه صبري، وقلّت فيه حيلتي وضعفت له قوتي، يا كاشف كل ضر وبلية، ويا عالم كل سر وخفية، يا أرحم الراحمين وأُفوّض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم».

سمعت تمتمة غير واضحة بعد هذا الدعاء، ثم انفتحت عليّ ابواب الجحيم!

في لحظات معينة، والشرر يتطاير من عيني، ونوافير الدماء تتقافز كالجنادب من القدمين، من الساقين، كادت السبابة تتحرك. ولكن وأنا أتذكر ذلك الله الذي حدّثتني عنه أمي حين كنت صغيراً، جعل السبابة يابسة كأنّها جذر قديم، لا تستجيب ولا تتحرك. أتذكّر الله ذاك رحيماً يحب الفقراء ويكره القسوة والظلم والناس الفاسقين، فهل أستجيب للنداء الذي في داخلي أم أستسلم لهؤلاء الذين ينهالون عليّ، باسم الله، بهذا الشكل الأرعن، والذي يزداد لحظة بعد أخرى، وكأنّهم دخلوا في حالة من الجنون؟

كان العناد الرفيق الذي لم يتخل عني لحظة واحدة، كان يسندني بقوة، كان يصرخ: «احتمل وسوف يتعبون».

لكنهم لم يتعبوا، ولم يهدأوا. كانوا يزدادون ضراوة وجنوناً، وكنت أزداد عناداً وشراسة. وبعد الشتائم التي كانت وسيلتي الوحيدة في الدفاع خلال الفترة الأولى، وكانت ضرباتهم سريعة وغير منتظمة، أصبحت أُردّد، لا أعرف كيف أو لماذا، وقد انتظمت الضربات، عبارة بذاتها: آخ يُمّه، آخ يُمّه.

كانت هذه العبارة، ومعها العناد، مثل أيدٍ تتلقى عني الضربات، أو تخفف منها. كنت أسمع لهاثهم، كانوا يلهثون كالكلاب. كانوا يريدون أن يقضوا عليّ. لكن تلك الأقدام التي طالما قطعت شوارع موران من شرقها إلى غربها، من شمالها إلى جنوبها، في الليل والنهار، اكتسبت من الأرض قسوتها وقدرتها على الاحتمال. كنت أحس أقدامي في لحظات كثيرة أنها انفصلت عني، أنها تشتعل ولا بد أن تطير، وكنت أتمنى أن تفعل ذلك، لكن والألم ينتقل مثل حريق الزيت لينتشر في كل مكان، ثم ليتركز في العيون بالذات، جعل كل شيء فيَّ يلتهب، يصرخ. ومرة بعد أخرى أعود إلى الشتائم، إلى الصراخ، ثم إلى ذلك النداء: آخ يُمّه، آخ يُمّه. وتتراءى لي أُمّي من بعيد، كطائر يفرد جناحيه، تمد يديها، وكأنَّها تحاول أن تأخذني إلى هناك، حيث الصمت والسكينة، وحيث لا أحد يعتدي على الآخرين، وحيث الله الحقيقي، وأغيب عن الوعي.

وفي لحظات أخرى أحس المياه الباردة وقد أغرقتني، ومن خلال المياه أحس جمراً يشتعل في جسدي كله، جسدي يتحول إلى فحم محموم ينفث وهجاً دون توقف. القيء تتصاعد رائحته، الدماء مثل نجوم تنبعث أضواؤها من ثقوبٍ وشروخ ملأت القدمين والساقين وملأت جو السرداب.

في وقت ما تركوني. كنت بين الحياة والموت. هذا ما سأقدّره في وقت لاحق، لأنّي لا أعرف متى أوقفوا الضرب أو لماذا، ولا أعرف كم بقيت فاقداً الوعي. كل ما أتذكره: الصمت والنيران. كان الصمت يملأ السرداب الذي بدا كأنّه مكان عُزل عن العالم كله. وكان جسدي يشتعل بالحرارة والألم. أما الرائحة التي انتشرت حولي فكانت مزيجاً من القيء والرطوبة والدماء، وربما أيضاً رائحة دواء يمنع تقيح الجروح. هكذا قدرت دون أن أعرف شيئاً، دون أن أرى أي شيء.

لا أزال مقيداً إلى الطاولة، وربما أصبحت جزءاً منها، لأنَّ أية حركة، مهما كانت صغيرة، تضاعف الألم عشرات المرات، تماماً كما لو أن الإنسان يحاول سلخ جلده. والدفوف غير المنتظمة وغير المستوية تداخلت مع جسدي، خاصة بين الأضلاع، وأية محاولة للانفصال عنها، لإقامة صيغة جديدة للعلاقة معها، تحرك جنوناً في الجسد لا يمكن احتماله.

كيف يتحوّل الجسد إلى جزء من الأشياء، مهما كانت هذه الأشياء قاسية أو عدوة؟ إنه يفعل ذلك كما تتحرك السوائل في الفراغات وتملأها، هكذا تداخل جسدي مع الطاولة والتحم بها.

حين تنفست بعمق لأتشرب رائحة الأشياء حولي عرفت أنني لا أزال حياً، أمّا حين حركت السبابة فقد تأكّدت أنني لا أزال قادراً على الحياة رغم جميع الآلام. ولكن شعرت فوراً بالندم وأنا احرك السبابة «ماذا لو كان الشهيري موجوداً ونصب لي هذا الكمين من الصمت والغياب ليشعرني بعدم وجوده، ثم ينقضّ عليّ في اللحظة المناسبة»: «بعدما عرفت شنهو السرداب، ومن هو الشهيري، وبعدما حركت السبابة، فنحن الآن بانتظار أن تقول كل شيء».

بعد أن صحوت، وبدأت أستعيد كيف حصلت الأمور، وكانت الصور والأصوات شديدة التداخل والاضطراب، وبين فترة وأخرى كان يفتح الباب، تأكّدت أنني كنت وحيداً. أما إذا تبادل الذين يأتون الكلام، وكان هذا الكلام بين الشتائم والأسئلة، فقد أصبحت على يقين أن الجولة الأولى انقضت دون أن اعترف، دون أن أنهار. كنت أسمعهم يقولون:

«هالإبن الحرام ولا كلمة» «ما عنده إلاّ آخ يُمّه، آخ يُمّه».

وأغفو، أو يعاودني الخدر، فلا أحس إلاّ بطبقة كثيفة من النيران تشتعل في داخلي وتنتشر في جميع أنحاء جسدي، وأحسّ أن القدمين والساقين مصدر هذه النيران التي تتفجّر بين فترة وأخرى كما ينفجر ينبوع انحبست مياهه مدة طويلة وها هو يفيض ليملأ كل شيء.

النار. النار في كل مكان. نار تتفوق على نفسها في كل لحظة. تتزايد. لونها البرتقالي يحمرّ شيئاً فشيئاً، يصبح على زرقة، وتمتد من الساقين إلى الظهر حتى إذا وصلت إلى الكتفين انتشرت صعوداً ونزولاً لتتركز أخيراً في العينين والخصيتين، وحين تتركز هناك يغادرني الخدر ويصرخ ألم حاد كأنّه الأسياخ في كل مكان من جسدي، فأتمنى أن أغرق في ماء بارد بارد، وأن أبقى هناك فلا أخرج أبداً. أتمنى أن أصبح قطعة من جليد غير قابلة للذوبان نهائياً، لعلّ جزءاً من هذا الألم يتلاشى!

كانوا يطلّون عليّ بين فترة وأخرى، هكذا كنت أحس، من الكلمات، من اصطفاق الباب. هل كانوا يريدون التأكّد من موتي؟ أنني لا أزال على قيد الحياة؟ هل يريدون مني شيئاً آخر؟ هل أقوى على احتمال أكثر مما احتملت؟

وأصحو، مرة أخرى، على موجة جديدة من القيء. أحس أنني سأنقذف كلي إلى الخارج، إلى ما وراء جسدي، وأن حيوانات عمياء كانت محبوسة في الداخل تريد أن تخرج، ولأنها لا تعرف طريقها، ولا ترى، فهي تتدافع بقوة، بجنون، بحثاً عن وسيلة ما للهرب. وحين أتحرك فاسحاً لها المجال تصرخ أضلاعي من الحركة، من الاحتكاك بتلك الأخشاب التي تشدّني بقوة. أما الكاحلان المربوطان إلى القوائم الخلفية للطاولة فلم أعد أحس بهما.

في وقت ما جاؤوا مرة أخرى!

لم أتأكّد، رغم الأصوات، إلاّ حين هوى الكابل على ظهري، ارتعشت أو صرخت، لا أعرف، وسمعت صوتاً يأتي من بعيد:

ـ استعد!

في وقت لاحق، ومتأخر جداً، وكنت أستعيد وقائع تلك الأيام، سأكتشف أن كلمات كثيرة يردّدها مثل هؤلاء الناس لا تعني أي شيء، وأنهم يردّدونها بشكل آلي، لأنهم هكذا لُقّنوا، ولا يعرفون استعمال غيرها، إذ قد لا تليق بهم أو بالمهمات التي يقومون بها!

ماذا يعني أن أستعد؟

ربما تحركت أو تململت، فانتشر الألم مثل موجة عاتية. وجاءني الصوت أقرب من المرة السابقة:

ـ راح نفكّ يدك اليمنى حتى تتسمم!

وبعد قليل وبلهجة ساخرة:

ـ وهذا الأكل لازم تاكله!

هذه المخلوقات، بالإضافة إلى الضرب، تعرف كيف تسخر، وتعرف متى تفعل ذلك!

فكوا القيد، نزعوا العصابة عن عيني، وضعوا على كرسي صغير، قريباً من فمي، صحناً. هكذا قدّرت من الرائحة، لأنّي لم أقو على رؤية أي شيء.

حين لم يجدوا أي رد فعل، ولم أستوعب ما يريدونه مني، هبط واحد منهم على ظهري كما تهبط صخرة. غاصت أضلاعي في حفرة بين لوحين صرخت:

ـ كفار.

أتذكّر هذه الكلمة بالذات لأنّ الضحكات، الأقرب إلى القهقهة، ملأت جو السرداب، وكانت ترجع على شكل صدى، وكانت مليئة باللذة والشبق.

كنت أُحاول أن أجمع نفسي، أن أُركّز لعلي أراهم. في لحظة ما رأيت أشباحاً، كانوا يدورون حولي كما يدور الثور المربوط، أرى أرجلاً، كتلاً سوداء، أسمع أصواتاً، ورغم حدّتها إلاّ أنها تصطدم ببعضها وتتكسر، لا تصلني إلاّ أصداؤها. كانوا يضحكون، يتبادلون حديثاً، وحين يلتفتون إليّ فلكي لا ينسوا المهمة التي جاؤوا من أجلها!

تعبوا منّي. لم أفطن للأكل، فإذا ذكّروني به تصدر عني صرخة أو حركة تجعلهم يتأكدون أنني لن أمدّ يدي، ولا أُفكّر أبداً بهذا الأمر.

أخيراً، وتنفيذاً للواجب، أطعموني بالقوة! كانوا يدسون البيضة في حلقي كما يدسّ العلف لخراف الشتاء. كان الواحد منهم يلوي رأسي، والآخر يدس البيضة، فإذا أصرّ فكاي على الصمت يضغط الثالث على ظهري بطريقة معينة، أحسّ معها أنني على وشك الاختناق، فيتحرك الفكان، وبهذه الحركة الاجبارية القصيرة تنزلق أجزاء من البيضة إلى البلعوم، لكن الحيوانات العمياء في داخلي كانت تشكل سداً يمنع استمرار التقدم. إذ ما كادوا يفترضون أنهم قهروني، وأنهم استطاعوا إطعامي بالقوة، وتراجعوا قليلاً، حتى هجمت تلك الحيوانات المنتظرة، فتقيأت، أخرجت من جوفي أضعاف ما حاولوا أن يضعوه فيه!

رغم النار التي تشتعل في داخلي، نتيجة الألم، ونتيجة سخريتهم المرّة السوداء، وفي لحظة خاطفة، استطاعت عيني أن ترى ذاك الذي يلوي عنقي، ورأيت الآخر الذي يزقني كما تزق الطيور الصغيرة، كانوا يضعون على وجوههم الأقنعة!

هل كانوا يخافون مني؟ لا يريدون أن أعرفهم؟

لا يهم، ولكني تشجعت، أحسست أنني لا زلت أعني لهم شيئاً، وربما لا زلت قوياً!

تعبوا، ملوا، ثم يئسوا، خاصة وأن القيء تزايد، وكأن شيئاً حرّض الحيوانات التي في داخلي، فقرفوا، ابتعدوا، أصبحوا يحاذرون وهم يقتربون مني، وهم ينقلون خطواتهم هنا أو هناك.

في لحظة صحو سمعت الصوت واضحاً:

ـ طبّة مرض اكل أو عمره ما ياكل!

وبطريقة أقرب إلى التواطؤ، وبكلمات قليلة، غير واضحة، اتفقوا على ترك هذه المهمة الشاقة، وغادروا.

خيّم الصمت من جديد. لا أعرف إن سهوت أو غفوت، لكن أتذكر أن سوطاً أيقظني. فززت كما تفز الطيور الخائفة، فقد كان مفاجئاً، قوياً، قاسياً إلى درجة أنه يريد أن يقتلني لا أن يوقظني. صرخت:

ـ يا أولاد الكلب!

جاءتني ضحكة الشهيري. كانت أقرب إلى القهقهة، تماماً مثلما يفعل الأب حين يكتشف أن قاموس ابنه قد اغتنى وامتلأ بكلمات لم يكن يتوقع أنه وصل لها. قال بعد أن هدأ:

ـ بسيطة، ما يخالف، باكر أو اللي عقبه راح نشوف!

وتغيّرت اللهجة وهو يضيف:

ـ إذا كانت هذه المرة فاتت على خير، وبعدك حي، فحضّر نفسك للجاية وحدها، وما أقول للجايات، لأنّ اللي ما ينصاد أول نوبة ينكس على رأسه في الثانية، والشهيري أبد ما يعرف الثالثة، وإن غداً لناظره قريب...

وخاطب الذين معه:

ـ فكوا هذا الخنزير الكافر!

بعد أن فكّوا القيود والحبال صرخوا بي:

ـ انزل!

للحظات، وربما طويلة، لم أستوعب ماذا يريدون مني، فقد كنت بعيداً ومملوءاً بالألم والخدر، أمّا بعد أن لسعني السوط بين الكتفين، مع صرخة أقوى من الأولى، فقد أدركت. جمعت بقايا قوتي وإرادتي وحاولت النزول، لكن لم أستطع، إذ انفجر الألم بين أضلاعي وعند الكتفين ووسط الصدر، فارتخيت. حاولت أن أرفع يديّ وأن أستعين بهما لكنهما لم تطاوعاني. وحين هوت الرِجل اليمنى، مع دفعة قوية من الجهة المعاكسة، فقد تدحرجت، سقطت في مستنقع الدماء والقيء وبقايا المياه، كما تسقط سمكة. كان للسقوط صوت يشبه طشة جسم ندي في زيت مغلي، إذ انتفض الجسد نتيجة الصدمة ثم ما لبث أن همد.

لم أكن قادراً على أن أُميّز شيئاً أو أحداً. الدوي يملأني، والألم ينتشر ويفيض كالحرائق. كنت على تخوم الوعي والغياب، لا أقوى على الصحو ولست بعيداً عمّا يجري حولي. أمّا حين انفجر الصوت من جديد: «انهض»، ومثلما تستجيب الحيوانات للأصوات، وإن تكن لا تميز دلالاتها، فقد تململت في محاولة للنهوض. امتدت لي يد وانتشلتني من تحت الإبط. حاولت أن أقف، لكن ما كادت أقدامي تلامس الأرض حتى أُصبت بحالة من العواء المجنون: «آخ . . آخ يمه آخ يمه» وهويت!

كانت القدمان تشتعلان، تلتهبان، وكان اللهب يمتد بسرعة خارقة إلى

كل أنحاء الجسد، يصبح حريقاً أسمع صوته وهو يأكل الأعصاب، يذيبها، يجعل كل شيء بلون قرمزي، وكأنّه اكتنز حرائق الدنيا كلها، ولا يتوقف، إذ ما يكاد يصل الصدر ثم الرقبة، ويلمع بقوة وحدّة داخل الجمجمة، حتى يرتد من جديد كأنّه الزوبعة المجنونة التي لا يمكن لشيء أن يقف في طريقها.

صرخوا من جديد طالبين مني أن أقف، حاولت، لكن لم أستطع. فرقع سوط في الهواء، في محاولة للتهديد أو التخويف، لكن الأمر لم يتغير. جاء صوت، ربما صوت الشهيري:

ـ شيلوه!

دحرجوني على بطانية، وتقابل اثنان على حملي. فُتح باب السرداب، ثم فتح باب آخر على بعد خطوات من الأول، وأُلقيت هناك، وغابوا!

لا أعرف كم انقضى من الوقت حين جاؤوا مرة ثانية؛ جاؤوا يحملون سخريتهم المرّة من جديد: جاؤوا بالطعام!

كانوا مجموعة وكانوا مقنعين أيضاً. بعد أن بذلوا «جهداً» كبيراً من أجل استعادتي من المكان البعيد الذي كنت فيه، بالصفعات والركلات والماء البارد، عدت. بصعوبة عدت، القليل مني هو الذي عاد.

من خلال الصراخ وتقاسم المهمات قدّرت أنهم ثلاثة، وإذا كنت قد استعصيت عليهم في السابق من خلال العجز والألم، فقد جاءت الحمى الآن لتجعل كل الأشياء حولي أقرب إلى الأشباح، ولتجعل الأكل عملية مستحيلة!

ومثل المرة الأولى، وكواجب ثقيل، فتحوا فمي، كما تفتح أفواه الخيول لمعرفة أعمارها، ودلقوا شيئاً فاتراً، ولمّا تعذّر دخوله، أمسك واحد منهم بالرقبة وخلخلها، شعرت أنه يريد خنقي، يريدني أن أموت في اللحظة، انتفضت، فانزلق ذلك السائل الفاتر إلى الداخل وإلى الخارج، كما يفيض المحقان إذا دُلق فيه أكثر مما يحتمل! فعلوا ذلك مرتين أو ثلاثاً، ولما اعتبروا أن ما فعلوه كافياً نفضوا أيديهم وغادروا!

قدّرت بتوالي الأيام أنهم يريدون أن أبقى حياً لكي يقتلوني بأنفسهم، فهم لا يوافقون أن أموت كما يموت آلاف البشر الآخرين، وإذا فعلت ذلك سوف يحزنون، خاصة الشهيري. كيف أجرؤ على أن أغدرهم وأُغادر؟ ومتى

كان للسجين حرية أن ينهي حياته بنفسه؟

بعد تلك الوجبات، وحين أصبحت أميِّز ما حولي قليلاً قليلاً، وخلال فترات الصحو، أخذت الآلام شكلاً مختلفاً. فالجروح التي كانت ساخنة، وتنفجر على شكل ومضات، ثم تغيب، أصبحت الآن هذياناً مقيماً، لعنة لا تفارق، كالحكة المجنونة أو مثل وجع الأضراس. وأصبح الألم الآن وجعاً لا يزول، فكل حركة، حتى من خلال النَفَس، تولّد موجات متلاحقة من الآلام، فإذا أضيفت إليها العين فعندئذ يتحوّل الوجع إلى حالة من الجنون!

باطن الساقين جمر. الأمعاء أسياخ نافرة. العيون مسابر للداخل بدل أن تكون نافذة للخارج. وماذا أيضاً؟ الغيظ، الحقد، الأنين الذي إذا توقف بدأ بعده الهذيان، لكن ماذا إذا رأى الإنسان أنه أخذ يتحول بين نظرة وأخرى؟

حين بدأتْ عيناي تميزان، ونظرتُ إلى ساقي لم أُصدّق: هل استبدلوا الساقين؟ هل يمكن أن يتحول الإنسان بهذا المقدار أو إلى هذا الشكل؟

زرقة الساقين تبدأ لكن لا تنتهي. في وقت متأخر، بعد أن استعدت القدرة على التدقيق وقراءة الألوان كنت أدهش: الركبتان قاتمتان، ثم ما يليهما قتام كامل، فصفار ـ أقرب إلى لون التراب المحروق، يليه حمارات متنوعة ومتدرجة إلى أن تصبح بنفسجية، ثم سوداء!

لو أن الأمر اقتصر على الألوان لوجدت له تفسيراً سريعاً، كأن أقول: الاحتقان، أو مواقع الضربات؛ وإذا تجرأت أكثر، ودون معرفة كافية بالطب يمكن أن أُفسّر الأمر بالأوردة والشرايين، وبالتالي أُفسّر ما حصل على ضوء مسارات الدماء في الجسد، لكن حين تصبح الساقان بضخامة سيقان الفيل، ولا تتوقفان عن التغير، فإنَّ العينين تصبحان نافذتين للخوف. من أين جاءتني هذه السمنة، وأين كانت تختبئ كل هذه الألوان؟ تذكّرت الغريري والحرباء ولكن إذا كان الأول يسمن بالضرب فإنَّ الثانية تغيّر ألوانها بنفسها، كطريقة للدفاع أو للتكيف مع المكان الذي تعيش فيه. أمّا بالنسبة لي فلم أتصوّر أبداً أنه يمكن خلال بضع ساعات أن أسمن بهذا المقدار، أو أن تتغير ألواني بهذا الشكل!

ولكنهم لم يتركوني أنعم بهذه الاكتشافات!

في اليوم الثالث أو الرابع، لست متأكداً، لأنَّ مقاييس الزمن اختلطت

بالنسبة لي إلى درجة لم تعد حتى وجبات الطعام قادرة على تحديدها؛ فالضوء الكهربائي الذي لا ينطفئ أبداً، وعلى هذا العمق في باطن الأرض، يقتل الإحساس بالزمن، يجعله مختلفاً تماماً، وإذ ظللت قادراً على التمييز في الزنزانة القديمة من خلال بلاطات السقف، فقد انقطعت صلتي بزمن البشر وبزمن الله منذ أن وصلت إلى سجن العبيد.

في اليوم الثالث أو الرابع إذن سمعت ضجة غير عادية، من وقع الأقدام أولاً ثم الأصوات. قدّرت أنهم جاؤوا لأخذي مرة اخرى. تطلعت إلى ساقي الممدودتين، وكانتا اشبه بباذنجانتين شيطانيتين من حيث الحجم وعدم الانتظام، وتطلعت إلى السبابة أيضاً. قلت لنفسي: «عذاب ساعات ولا ذل العمر كله، والرهان بيننا، وسوف يرون» حركت السبابة وقلت لها «أنت لي ولا تعترفين بأحد سواي، ولذلك لا تتلقين الأمر إلاّ مني، وها أنا أقول لك، ويجب أن تعرفي ذلك جيداً: لن تتحركي أبداً منذ الآن وحتى نعود إلى هنا مرة أخرى» ولا أعرف لماذا شعرت بالزهو وأنا أضيف مخاطباً السبابة «وسوف أصنع لك، ذات يوم، تمثالاً من ذهب!».

الضجة لا تزال حولي لكن لم تصلني بعد. انفتح باب، ربما باب السرداب. الضجة أعلى من قبل والأصوات أكثر وضوحاً. بصعوبة ميّزت صوت الشهيري أو آخر يشبه صوته: «اركبوه».

إلى ما قبل هذا اليوم كنت أسمع أصوات المجلودين عن بعد. كانت تفصلني عنهم مسافة، أمّا اليوم فإنّ الشهيري يريد أن يلقنني درساً جديداً.

حين بدأت الكابلات تنهال على القدمين، على الساقين، واشتعلت معها الصرخات، قبضت على نفسي في حالة من الخوف لا يمكن أن تخفى، أو أن يسيطر عليها: انكمش جسدي كله وأخذت ساقاي بالارتجاف، وزادت دقات قلبي أيضاً! لقد حصل ذلك دون إرادة. ورغم أني لمت نفسي كثيراً، وبقسوة، مرة بعد أخرى، وجدت أن لجسدي ردود فعله الخاصة به، وغير العاقلة. كان يتقلص مع كل ضربة تنهال، كان ينتفض لكل صرخة.

مرّ وقت طويل والضربات تتوالى والصراخ يعلو، وفي لحظة من اللحظات سمعت صوت الشهيري يطغى بفرح على جميع الأصوات:

ـ وقفوا... وقفوا... على مهلكم، الرجّال يريد يعترف!

واختلطت الأصوات وتداخلت، لكن لم أعد قادراً على متابعة ما يدور، وإن ظللت مشدوداً متنبهاً. في وقت ما سمعت خطوات تقترب، قلت لنفسي: جاؤوا! ضربة قوية على الباب، ثم الصوت:

ـ عصّب عينيك.

وضعت العصابة وتهيأت. انفتح الباب. من الصوت عرفت أنه الشهيري:

ـ كيف حالك يا ابن العريفي؟

ـ مثل ما تشوف عينك!

ـ أريد أن أسمع منك.

ـ ما عندي شيء.

ـ يباسة الراس ما تفيدك يا طالع...

وتغيّرت اللهجة، أصبحت ساخرة ومتكبرة:

ـ وهذا خويك، وظنّي أنك سمعته، اعترف عليك وعلى غيرك وقال كل شيء!

رددت بسخرية:

ـ ما عندي شيء حتى يعترف عليّ هو أو غيره!

ـ حزين وواعي، يا ابن الحرام، وتعرف كيف تفتي وتدافع عن روحك، لكن مزاميرك هذي، يا ابن العريفي، تقرأها على واحد غيري، ما هو عليّ.

قلت بمسكنة مخاتلة:

ـ ما عندي، الله يسلمك، مزامير أو أناشيد، وأنا متأكد انكم مشتبهين، واللي تريدونه واحد غيري!

ـ ما نريد إلاّ انت، وإذا ما اعترفت اليوم تعترف باكر أو اللي عقبه، وإذا كنت رجال احمل!

وبعد قليل وبغيظ:

ـ احذر وتوق يا ابن العريفي ترى البيضة ما تلاطم الحجر!

وانسحب!

هل وجدني لا احتمل ولذلك أجّل تعذيبي إلى فترة لاحقة، أم أنه يريد

مراكمة الدروس لكي أسقط في النهاية كالتمرة الناضجة؟ ولماذا كان واسع الصدر، خلافاً لمرات سابقة، وأخذ يحاورني بهذه الطريقة؟

قلت لنفسي في محاولة أخيرة لحسم التساؤلات «ربما لا يريد أن يفقد متعة النصر التي حققها في السرداب مع واحد غيري، ولذلك اتبع هذا الاسلوب.. ثم أن للمحقق عشرات الأساليب، ومن الغباء اعتماد أسلوب واحد».

ولكي لا يفقد الشهيري المبادرة لم يغب طويلاً.

في اليوم نفسه، أو بالأحرى في الليل، إذا افترضت أن الجولة الأولى جرت في النهار، سمعت الضجة والأصوات في السرداب، ظننت أن دوري جاء، لكن حين استمرت الحركة قدّرت أن الضحية واحد آخر، ومع ذلك بعث يطلبني هذه المرة.

دقات قوية على الباب ثم الصوت.

عصّب عينيك واستعد!

ـ عصبت عيني، ولأنّي اضطررت خلال اليومين الأخيرين الوصول للمرحاض مستنداً إلى الجدار، ومستخدماً كعبي القدمين، دون أن يلامس باطن القدم الأرض، فقد فعلت كذلك هذه المرة. انفتح الباب ومُدّت إليّ العصا. أمسكت بها، لكن إيقاع الخطى اختلف بيني وبين الذي يقودني. سقطت، وخزني بقوة على ظهري وصرخ:

ـ تقوم وإلاّ أكسّر راسك؟

بصعوبة نهضت. أمسكت بالعصا مرة أخرى، حاولت أن أمشي على إيقاع مشيته، كانت الخطوات العشر إلى السرداب أطول وأصعب رحلة في حياتي! كنت كمَن يدوس جمراً أو زجاجاً مكسوراً، كمَن يمشي على شفرات حادة وغير منظمة. كدت أصرخ، كدت أتوقف، لكن حزم العصا الممتدة وضجة الآخرين في السرداب، لم يتركا لي أي خيار، ثم ماذا تعني هذه الآلام قياساً لما ينتظرني بعد لحظات؟

طُلب مني الجلوس، فجلست. سمعت صوت الشهيري، قال يخاطبني دون أن يذكر اسمي:

ـ لأنّك عزيز علينا قلنا لأرواحنا لازم تشاركنا هذه الحفلة!

وتغيّرت نبرة الصوت:
ـ ومثل ما قلت لك: إذا أردت أن تعترف وتقول كل شيء ترفع السبابة!
كان الأمر شديد الالتباس بالنسبة لي: المشاركة، الحفلة، وأخيراً السبابة. الحفلة لي أم لغيري؟ وكيف ستكون هذه المرة؟ وجاء صوته من جديد:
ـ توكلوا على الله!
وبدأت الكابلات، لكن على رِجلي واحد آخر مربوط إلى الطاولة. لم تكن تهوي على رجليه أو ساقيه فقط، كانت تهوي في باطن عيني، فكل ضربة أحسّها مثل سيخ النار داخل العين، وسط القلب تماماً. أما حين بدأت تتوالى صرخاته فقد شعرت أن مجنوناً أعمى وبيده زجاجة مكسورة يطعن كل ما يجده أمامه، وكنت الوحيد الذي ظفر به وأخذ يوجه إليّ كل الطعنات. تمنيت أن أكون المجلود ولا أسمع الضربات تنهال عليه ثم تليها الصرخات، فالذي يُضرب يمكن أن يغمى عليه، ويستطيع أن يشتم، أما الذي ينتظر دوره، الذي يشهد التعذيب رغماً عنه، فإنّه يعاني أضعاف ما يعانيه المجلود ذاته.

كانت الضربات تتوالى كمطر غزير، وكانت الصرخات تزيد عليها. كانت الصرخات ترتفع وتتنوع، إلى أن أخذت وقعاً: «آخ، مظلوم، والله مظلوم. آخ، مظلوم، والله مظلوم» ولا يسمعون، ولا يهدأون، ولا يتعبون.
ظلوا كذلك وقتاً طويلاً. لم أشعر طوال حياتي أن الزمن يمكن أن يكون عدواً كما شهدته في هذه «الحفلة». ولم أشعر أن الإنسان قادر على الحقد مثلما شعرت الآن ورغم أن سنوات مرت فلا أعرف لماذا كنت رخواً وجباناً ولم أفعل شيئاً سوى أن أكون الشاهد الأخرس. لماذا لم اصرخ؟ لِمَ لم أدخل معهم في معركة؟ وهل كنت عاقلاً إلى درجة أن أبقى جالساً مثل سعدان مذعور أرقب الأشياء دون أية قدرة على الاحتجاج أو الصراخ؟
هل رفع هذا المجلود إصبعه وقرّر أن يعترف أم أنها مسرحية جديدة للشهيري؟
كنت متأكداً أن شيئاً ما يدبر لي، ولذلك يجب أن أصمد، أن أُقاوم،

ويجب أن أشكّ بكل شيء.

قال الشهيري بطريقة فخمة:

ـ العاقل اللي يعترف حتى يخلص، لأنّ يباسة الراس ما تفيد...

وضحك بقهقهة، ثم أضاف كأنّه يخاطب نفسه والفريق الذي معه:

ـ هنا الدجاجة تطير وتعلّي، والصقر، أبو القوادم والجناحين، يهوي ويركع، ومثل ما تشوفون!

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ لكن، سبحان الله، الواحد ما يعرف حتى يجرب. نقول له هذي نار، يا ابن الحلال، لكن أبد ما يصدق، فإذا انكوى، إذا مسته، صاح. قال إن الله حق! والواحد أبد ما يتعظ، ومثل ما قالوا: الله بالعين مانشاف لكن بالعقل انعرف، لكن الواحد منهم يلزمه يشوف حتى يعرف وبعدها يعترف!

ولا بد أنه أعطى إشارة، لأنّ الموكل بي وخزني بعصاه وقال:

ـ انهض!

كانت رحلة العودة من السرداب أطول وأكثر قسوة، إذ بالإضافة إلى سرعة الذي يقودني، فإنّ حالة من الهياج، الأقرب إلى الإثارة، استبدت بهذا «القائد»، إذ ما كدت أهوي على وجهي بعد خطوتين أو ثلاث خطوات، حتى وجدته يدوس فوق كتفي بثقله كله ويشتمني:

ـ نازك مثل الشوكولاتا يا ابن القحبة، خطوتين ما تقدر تمشي، ها؟

ويدوس أكثر، وبعد قليل يصرخ:

ـ قم يا ابن الكلب، قم!

بصعوبة نهضت، وخزني بالعصا، طالباً أن أمسك بها. مشينا مرة أخرى، عند باب الزنزانة وقعت. فتح الباب، وقال بسخرية وهو يدحرجني بيديه ورجليه إلى الداخل:

ـ داده يا الله ويا الله، داده ويا ما شاالله...

وبعد قليل وبغيظ:

ـ كأنّه، ابن الحرام، بعده ما انفطم: أنت لازم توكله، وأنت لازم تدرّجه؛ ما باقي إلاّ أن نحفّظك يا ابن ستين كلب.

وتفل عليّ وخرج!

تركني الشهيري تلك الليلة لكي أستوعب الدرس جيداً، ولكي أقدّر ما ينتظرني فيما لو استمر الإنكار. ولكن لم يتركني طويلاً، إذ يريد أن يستثمر النتائج الجسدية والنفسية التي تحققت حتى الآن.

في اليوم التالي، بعد الظهر جاء ومعه عدد من جلاوزته، جاءني إلى الزنزانة بنفسه:

ـ كيف أنت يا ابن العريفي؟

ـ مثل ما تشوف.

ـ أشوفك أصفر ومعلول!

ـ من بركات الله وبركات الأجاويد!

ـ خير الله كثير وأبد ما راح نقصر معك...

ضحك بسخرية وسأل بلهجة جديدة:

ـ وهالحين.. تريد تتكلم وتعترف أم تريد تشوف ما قسمه الله!

ـ اللي قسمه القسّام مكتوب على الجبين ولازم تشوفه العين!

ـ هذا الكلام ما يفيدك، وما يوكل خبز، يا ابن العريفي، والأخير أن تعترف.

ـ اعترفت بكل شيء.

ـ والله، يا ابن الحرام، لأخليك تزوّع مصارينك وتقول إن الله حق!

وصرخ مثل ذئب:

ـ قم يا ابن الكلب!

وتلقيت عدة ضربات متوالية. ضربات بكابل، بعصي، بالأرجل. كنت معصوب العينين ولا أعرف من أين تأتيني الضربات. وقفت. وقفوا. قال الشهيري:

ـ تعال وخذ ما قسمه الله، والمشي هرولة!

أخذوني لا أعرف إلى أين، كنت خلال هذه المسافة لا أمشي على قدمي وإنما على عيني بالذات، لأنَّ الضربات التي كانت تتوالى وتتسارع لم تترك لي حتى فرصة السقوط. كانت تنهال كالأمطار الغزيرة، كالصواعق، وكانت تتناسب مع معدل السرعة، فإذا أسرعت تقل وإذا تباطأت تزيد، أما إذا وقعت على الأرض، وكثيراً ما كنت أقع، لأني لا أدري كيف أتحرك أو إلى

أين، فإنَّ الصرخات والضربات تتسارع إلى درجة توقعت أن أموت بين أيديهم. كنت أحاول حماية رأسي بيدي، لكن الضربة التي تنزل كالمحراث في الجانب الأيمن أو الأيسر، عند الكليتين، تجعلني على يقين أن مَن يضرب بهذه الطريقة يريد أن يقضي عليّ، ثم الصرخات المجنونة التي تطلب مني أن أقف، أن أتابع الركض، تضطرني لأن أفعل ذلك، على وهم أن محاولة مثل هذه قد تنجيني من ضربات إضافية.

استمرت هذه «الحفلة» دهراً، لأنَّ الثانية الواحدة، الجزء من الثانية، هنا، أضعاف زمن البشر الآخرين. هنا لا يثبت هذا النوع من البشر أنه مجرد حيوان دنيء، وإنَّما لم يصل إلى المملكة الحيوانية بعد. لأن الحيوانات، الكبيرة والصغيرة، وحتى الدنيا منها، حين تتقاتل فمن أجل أمور حيوية، لأهداف محددة تماماً، ولوقت محدود، لكي تؤمن حاجاتها للبقاء والاستمرار. أما أن يتحول الضرب إلى متعة، إلى نشوة، وأن يكون مقصوداً لذاته، فلا أتصور أن هناك مخلوقات يمكن أن تكون حمقاء بهذا القدر!

في وقت ما تهاويت ولم أعد قادراً على الوقوف. انهالت الضربات أكثر من قبل، ومعها صرخات مجنونة، لكن قرّرت أن لا أقف، أو بكلمات أدق: أصبحت عاجزاً عن الوقوف حتى لو أردت. وحين أصبح الموت وشيكاً وحالاً، وفي لحظة وعي براقة، ومن خلال الدماء صرخت:

ـ سوف أموت، لكن حذائي سيبقى أشرف منكم، أيُّها القتلة!

هل قلت هذه الكلمات؟ توهمتها؟ وصلت إليهم؟

أتذكّر أن صمتاً خيّم على المكان، ربما نتيجة الكلمات التي قلتها أو بإشارة من الشهيري، لأنَّ بعد ذلك الصمت جاءت كلمات الشهيري:

ـ والله يا ابن الحرام لأموتك ألف موتة قبل ما ادفنك، ولأخليك تحكي مثل الببغاء!

وبعد قليل وبحزم:

ـ رجعوه هالحين إلى مكانه!

ولكنه استدرك:

ـ لا . . . خذوه للعشبرين.

وضعوني ببطانية، كما توضع الجثة، وأخذوني إلى حيث أمرهم!

احتجت إلى وقت غير قصير لكي أُرمّم ذاكرتي ومعرفة كيف تتابعت الأمور منذ أن أُلقي بي في الغرفة عشرين. وإذا كنت قد حشدت نفسي لكي أُقاوم حينما كانت تنهال عليّ ضرباتهم، وحاولت أن أبقى ممسكاً بما قد يذكّرني، ربما لأكون شاهداً، يوماً ما، على ما يفعلون! فقد غبت عن كل شيء منذ اللحظة التي أصبحت فيها مثل كومة داخل البطانية. لا أتذكر كيف حملوني، وكم ساروا بي، وإلى أين أُخذت. كانت تمر بي لحظات، وإن تكن متواصلة ومضطربة، أسمع أصواتاً من حولي، لكن لم أكن قادراً على التمييز أو التركيز. أما محاولات إطعامي فكنت أُقاومها أو أستسلم لها، وكأنّها تجري في الحلم!

لا أعرف كم من الأيام مر وأنا في وضع أقرب إلى الغياب، لأنَّ التهدم الذي حلَّ بي لم يتوقف، فما أخطأته ضربات الكابلات والعصي والركلات، تولته الحمى ثم الالتهابات. إذ ما أكاد أفيق من التماعات الألم حتى تمسكني الحمى. أحس نفسي وقد تحولت إلى خرقة ممزقة في ريح عاتية. كنت أسمع لأسناني دوياً وهي تصطك، وكانت نوبات الحرارة والبرودة تتلاحقان في سباق لا نهاية له. أمّا إذا نمت فإن الأشباح والصرخات كانت تتعقبني، تتشبث بي، كانت تنفجر في كل لحظة، تظهر وتغيب في تناوب لا يتوقف، فكنت أهذي، وكنت أبكي إلى أن تأتي أُمّي، كانت تحتضنني، تمسح على رأسي، تطلب مني السكوت، فأسكت، واطمئن. لكن حين تريد أن تغادر أصرخ وأتشبث بها، فتضطر لأن تأخذني معها، وهكذا نذهب سوية لا أعرف إلى أين، وبعد أن نمشي ونمشي، فجأة تغيب، أبحث عنها، أُنادي، أصرخ،

لكن لا أحد، وحين أصرخ أكثر من قبل أفيق!

كان ذلك يتكرر كثيراً، في الليل والنهار، ولا أتذكر أنني نمت مرة واستيقظت إلاّ على فراق أمّي! في إحدى المرات، بعد أن أضعت أمّي واستيقظت وجدته أمامي!

لا أعرف مَن هو أو لماذا هو موجود هنا. حين التقت نظراتنا، واستطعت أن أميّز وجوده، ابتسم لي. لم أُصدّق أن إنساناً معي في نفس المكان، وأنه يبتسم، ولم يكن مقنّعاً! ربما هو الإنسان الأول، بعد المصور، الذي أراه منذ شهور طويلة!

أغمضت عيني لأني لا أريد أن أصدّق. في العتمة والصمت سمعت تنفسه؛ إذن هو إنسان حقيقي! إنسان من لحم ودم، ويختلف عن الآخرين الذين حولي!

فتحت عيني من جديد ونظرت إليه، ابتسم، حاولت أن أبتسم له. قال لي بهمس:

ـ هل تحتاج إلى شيء؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟

هززت رأسي. ابتسم لي وقال:

ـ أنت الآن أفضل، كيف ترى نفسك؟

هززت رأسي موافقاً لأشعره أنني أفضل من قبل. ظللت أُحدّق إليه بتساؤل. ابتسم أكثر من قبل، اقترب منّي وقال بهمس لا يكاد يسمع:

ـ أنا موقوف واسمي حمد.

تطلعت حولي، تطلعت إلى نفسي. الغرفة واسعة، قياساً للزنزانات، الضوء الكهربائي يشع، وفي الزاوية المرحاض، وهو دون باب، وجداره في مواجهة الغرفة. كنت مستلقياً على فراش هو عبارة عن قطعة من اللباد والغطاء بطانية ربما لونها أسود. الجروح تغطي أجزاء عديدة من جسدي، الساعدين والساقين وبالتأكيد الظهر. الورم في رجليّ أكثر من السابق، وإن كمد اللون وأصبح يميل إلى الزرقة الحائلة. الأقدام، بمقدار ما استطعت أن أرى، لا يمكن تحديد ما حلّ بهما، أو كيف أصبحتا الآن، لأنّ الألم يمنع حتى من تدقيق النظر!

قدّرت أن رفيق الغرفة اعتنى بي طوال الفترة الماضية، لأنَّ بقايا الخرق الملطخة بالدماء لا تزال قريبة من الفراش، إضافة إلى بعض الأربطة للساعد الأيسار، وأخرى لكاحل الرجل اليمنى.

بعد هذه الجولة السريعة، وحين تأكّدت أن مَن أراه أمامي رجل حقيقي، سألته وخرج صوتي متعباً ومخنوقاً.

ـ هل ضربوك؟

ـ ضربوني مرة واحدة ثم توقفوا لأنّي مريض.

ـ كم مضى على وجودك هنا؟

ومثل الصاعقة المفاجئة سمعنا أقدامهم تملأ المكان خارج الغرفة، ثم الصوت:

ـ حمد.. عصِّب عينيك واستعد!

وأخذوا حمد. انتزعوه بقوة وقسوة كما تنتزع رؤوس الذرة، كان عددهم كبيراً وكانوا مقنّعين أيضاً، إذ لا تظهر إلاّ عيونهم. وغاب حمد نهائياً!

في وقت لاحق سأعرف أن هؤلاء القتلة، إذا لم ينته الإنسان بين أيديهم، أو لا يستحق أن يرسل إلى المستشفى لإعادة ترميمه، يوكلون لأحد الموقوفين العناية به، لأنّهم يستنكفون عن القيام بمثل هذه المهمة، وحالما يستعيد المجلود القدرة للعناية بنفسه، ولئلا يحصل على أية معلومات، يفصلونه عنه، وهم يعتمدون، بالإضافة إلى المشاهدة اليومية، على مراقبة الحرس، ويسترقون السمع، وقد تكون لديهم وسائل حديثة أيضاً!

في اليوم التالي، بعد الظهر، جاؤوني بشخص آخر. سمعت الجلبة أولاً. كانوا يصرخون ويشتمون أكثر من المعتاد، وكانوا يضربون أيضاً، ثم فتحوا البوابة ودفعوه بقوة، وذهبوا. نزع عن عينيه العصابة وجلس، ولفترة غير قصيرة لم يرني أو لم يلتفت نحوي، ولما اكتشف وجودي قطّب جبينه ونظر إليّ بعداء، وبعد قليل أخذ يشتم ثم انخرط في البكاء! كان بكاؤه أجشاً، لكن لا يصل إلى حد النحيب، ولم يكن حزيناً!

في لحظة فراغه من البكاء أو توقفه، قلت له:

ـ البكاء لا يناسب السجين...

Twitter: @ketab_n

كنت أريد أن أُتابع، رغم الإرهاق الذي يسببه لي الكلام، ولكن رده كان سريعاً وجاهزاً:

ـ وماذا يناسبه. . . أن يموت من الضرب؟

ـ وهل ضربوك كثيراً؟

ـ ألم تسمعهم؟ إنهم يضربون بلا رحمة حتى لو أدّى الضرب إلى الموت.

نظرت إليه ونظرت إلى ساقيّ لأُقارن. لم أستطع أن أصل إلى نتيجة! قلت لنفسي «لا يُفترض أن تظهر الآثار كلها، كما أن قدرة الناس على الاحتمال تتفاوت، وربما وضعوه في جو نفسي أثّر عليه».

لم أكن في وضع يمكّنني من المتابعة، قلت في محاولة لإنهاء أية مناقشة:

ـ سوف نتحدث في الموضع في وقت آخر. . .

وبعد قليل استدركت:

ـ إلاّ إذا أخذوك كما أخذوا الذي كان قبله!

سأل بذعر:

ـ إلى أين أخذوه؟ وماذا فعلوا به؟

وحين صمتُّ، وربما صدرت عنّي حركة تشير إلى عدم المعرفة، قال بانفعال:

ـ بالتأكيد قتلوه، فهؤلاء يقتلون الإنسان كما يشربون الماء. .

وبعد قليل وبذعرٍ أقلّ:

ـ رأيتهم يقتلون الكثيرين. نعم يذبحونهم كما تذبح الغنم، أنت لا تعرفهم، اسألني أنا. . .

كان يريد أن يتابع، لكن قطعت عليه الطريق:

ـ لا يموت الإنسان إلاّ إذا جاء أجله!

رد بانفعال:

ـ أنت لا تعرفهم، ثم أنك في سجن العبيد، وهنا كل شيء مسموح به!

قلت برخاوة:

ـ الحياة والموت بيد الله!

هزّ رأسه أكثر من مرة وهو يبتسم بسخرية. كان واضحاً أنه لا يتفق معي، وكان يريد أن يتابع، لكن حالة من الإرهاق والألم جعلتني غير قادر على الاستمرار، كما انتابني شعور أن في داخل الرجل شخصاً آخر يتكلم، قلت بتعب:

ـ الصباح رباح، وسوف نتكلم!

سحبت البطانية إلى أعلى الصدر استعداداً للنوم، تساءل بخوف وسخرية معاً:

ـ ومَن يضمن أننا سنبقى حتى الصباح؟

ـ وكلّ الله يا رجل، فالله أكبر وأقوى من الجميع، وقد تتغير الدنيا بين غفلة عين وانتباهتها.

استدرت قليلاً، أو لم أعد أنظر اليه، استعداداً للنوم، قال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ طبيعي، الناس الذين لا يحسون، الذين لا يهمهم: عاشوا أو ماتوا، لا ينظرون إلى غيرهم!

ولم أجب لكن لم أنم تلك الليلة.

لا أستطيع أن أُفسّر الأمور، إذ بالإضافة إلى الوجع الذي لا يغيب لحظة واحدة، فإنّ هاجساً ملعوناً ركبني وسيطر عليّ: هل جاء هذا الرجل ليكسرني؟ هل جاء ليختبر مدى قدرتي على المقاومة والتحمل؟ وإذا كان هكذا، جباناً خائفاً، فماذا يعنيني من أمره؟ هل أنا مسؤول عن نفسي أم أنا أب لجميع البشر؟

السجين إنسان مليء بالشك والحذر، لا يأمن لآخر بسهولة، ولا يثق بأمر، لأنه يتوقع، بين لحظة وأخرى، أن يتغير الإنسان، أو يتغير الموقف منه، وعند ذاك عليه أن يبدأ من جديد. أمّا مَن يكون أو يبدو قوياً وثابتاً في مكان آخر، فإنّه في سجن العبيد عرضة للتغير في كل لحظة. وهذا ما سيتأكّد لي في وقت لاحق، حين تتوالى السنين وأنا في هذا السجن وأتعرف على تفاصيله وخفاياه!

لم أنم، نتيجة الألم والشكوك؛ أمّا حين خيّم الصمت، ووجد أنني غير

قادر أو غير راغب في أن نتحدّث أكثر مما فعلنا، فقد نام. وخلال فترة قصيرة أصبح شخيره قوياً حاداً، وكأنّه في أقصى حالات الطمأنينة! حتى التنفس، إذا اختفى الشخير، نتيجة انقلابه من جهة إلى أخرى، كان تنفس إنسان غير متعب ولا يشعر بالقلق!

في صباح اليوم التالي، حين استيقظ، وكنت أتظاهر بالنوم، تطلّع إليّ ليتأكد أنني لا زلت حياً، وبعد قليل ارتفع صوته:

ـ طالع.. يا طالع..

فتحت عيني ونظرت إليه، قال دون أن ينتظر:

ـ الحمد لله أن الليلة انقضت على خير ولم يذبحونا..

وتغيّرت لهجته، أصبحت خائفة:

ـ وأنا أعرف دعاء إذا ردّدناه ثلاث مرات سيكشف الله كربنا ويفك أسرنا.

ولكي لا يترك لي مجالاً أضاف:

ـ سأقوله وتردّد ورائي!

وبنغم حزين وخائف بدأ:

ـ «يا مَن تحل به عقد المكاره، ويفل حد الشدائد، ويا مَن يلتمس به المخرج، ويطلب منه رَوْح الفرج، أنت المدعو في المهمات، والمفزع في الملمات، لا يندفع منها إلاّ ما دفعت، ولا ينكشف منها إلاّ ما كشفت، قد نزل بي ما قد علمت، وقد كادني ثقله، وألّم بي ما بهظني حمله، وبقدرتك اوردته عليّ، وبسلطانك وجهته اليّ، ولا مصدر لما أوردت، ولا كاشف لما وجهت، ولا فاتح لما أغلقت، ولا ميسر لما عسرت، ولا معسر لما يسرت، فصل اللهم على محمد، وعلى آل محمد، وافتح لي باب الفرج بطولك، واحبس عني سلطان الهم بحولك، وأنلني حسن النظر فيما شكوت، وأذقني حلاوة الصنع فيما سألت، وهب لي من لدنك فرجاً هنيّاً عاجلاً، وصلاحاً في جميع أمري سنياً شاملاً، واجعل لي من عندك فرجاً قريباً، ومخرجاً رحباً، ولا تشغلني بالاهتمام عن تعاهد فروضك، واستعمال سنتك، فقد ذقت ذرعاً بما عراني وتحيّرت فيما نزل بي ودهاني، وضعفت عن حمل ما قد أثقلني هماً، وتبدلت بما أنا فيه قلقاً وغماً، وأنت القادر على كشف ما قد وقعت

فيه، ودفع ما منيت به، فافعل بي ذلك يا سيدي ومولاي، وإن لم استحقه، وأجبني إليه وإن لم أستوجبه، ياذا العرش العظيم»[1].

حين انتهى بدا متعباً، ولما وجدني لا أُردّد وراءه اكتفى بالدعاء مرة واحدة!

لم أجد ما أقوله، خاصة وقد أصبحت أكثر شكاً: «من أين عرف اسمي، علماً بأنّه لم يسألني؟» ربما قرأ شكوكي أو أحس بها، ظلّ فترة صامتاً، نظر إليّ عدة مرات وابتسم. وإذا كانت العادة بين السجناء أن يحتفظوا بمسافة بينهم وبين القادم الجديد، إلى أن يتأكدوا، فقد كان مختلفاً:

ـ لماذا أنت موقوف؟

هززت كتفي وقلت دون اهتمام:

ـ لا أعرف!

ـ لا تعرف؟ ما هي التهمة؟

ـ علمي علمك، ولا أعرف لأي سبب أوقفوني!

ـ لا بدّ أن أحداً اعترف عليك..

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ إذا كان هناك اعترافات الواحد ما يخلص مهما انكر؛ والله يساعد اللي عليه اعترافات!

لم أُعلق. بعد فترة من الصمت تابع وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ هذا، يا عمّي، اسمه سجن العبيد، الداخل مفقود والخارج مولود، وياما مات ناس وناس في هذا السجن، لأنّهم لم يعترفوا...

وانخرط في موجة من البكاء. بدا لي أنه أجبر نفسه عليها، إذ التفت إلى الجهة الأخرى فجأة وارتفع صوت البكاء، وكأنّه لا يريدني أن أرى دموعه!

لا أعرف لماذا أصابتني حالة من القسوة واعتبرت بكاءه، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، موجهاً ضدي، وأن هذا الرجل أُرسل إليّ بشكل مقصود.

---

(1) التنوخي، الفرج بعد الشدة، الجزء الأول، دعاء الفرج، (4) تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت 1978.

وتأكّدت ظنوني أكثر وأنا أُحاول الزحف لأصل إلى المرحاض، إذ لم يكلف نفسه مجرد كلمة للمساعدة، رغم أنه التفت بذعر حين رآني أتحرك. ربما أقنع نفسه أنه حزين ومنصرف إلى البكاء، وأمر مثل هذا لا يعني له شيئاً. أما حمد فقد فعل من أجلي الكثير، لا أتذكر، لكن ما أراه حولي يؤكّد لي ذلك.

لما حملوا إلينا الطعام امتنع عن الأكل، أول الأمر بحجة أنه يريد أن يموت! لم أسأله ولم أطلب إليه أن يأكل، ولكن حين رآني آكل بشهية، وحين تساءلت عيني، قال بمرارة:

ـ الموت أهون من هذا السجن...

وبعد قليل.

ـ وكل ما مر الزمن تصبح القضايا أكثر تعقيداً، لأنّهم إذا لم يقضوا عليك بالضرب فإنّهم يصلون إلى نفس النتيجة بالنسيان، ولا بدّ أنهم نسوني!

قلت وأنا أنظر إليه بطرف عيني:

ـ لا أظن أنهم نسوك، وإلاّ لجاؤوا بواحد آخر إلى هنا!

اقتنع وأخذ يأكل! صحيح أن الطعام في منتهى السوء، إذ لا يزيد عن بضع حبات من الفاصولياء مع كمية من المرق، ونصف رغيف من الخبز، إلاّ أن شروط الجائع محدودة جداً، خاصة حين يكون سجيناً، وفي سجن العبيد بالذات!

وإذا كان قد أخذ يسألني عن الاحتمالات التي يمكن أن أتعرض لها، والأحكام التي ربما تصدر فيما لو اعترفت أو لم أعترف، فقد تأكّدت، أكثر من قبل، أن مهمته دفعي إلى السقوط.

في لحظة ما افترضت سوء النية، قلت لنفسي: «إذا كانت أقدامي تشققت من كابلات الشهيري وأصبحت أزحف لكي أصل إلى المرحاض، وبعد أن قضيت شهوراً طويلة في الزنزانة المنفردة، ولم أتكلم فلماذا أصبح غبياً وأتكلم أمام هذا البكّاء الضعيف حتى لو كان إنساناً بريئاً؟ ربما استغلوا ضعفه لكي يعذبني، وأرسلوه لهذا السبب، ولذلك يجب أن أتحول إلى صخرة!»

بعد الغداء، ورغم أنني حاولت النوم، فقد ظلّ يترصدني. ما ان رآني أتململ وأفتح عيني حتى بدأ:

ـ أسمعت يا طالع؟

هكذا سألني بخوف، وأضاف:

ـ كانوا يحومون حولنا، وربما يريدون قتلنا!

نظرت إليه بلوم وزفرت، تابع دون اهتمام:

ـ كانوا كثيرين، وقفوا وتشاوروا ثم ذهبوا راكضين، ألم تسمعهم؟

قلت بنفاد صبر:

ـ ليركضوا إلى الجحيم، المهم أن تكون أنت قوياً.

صرخ بحدة:

ـ ماذا تفيد قوة واحد في مواجهة ألف؟

ـ واية شجاعة في أن يقتل الألف واحداً إلاّ إذا كانوا جبناء ويخافون منه؟

ـ أنت مجنون يا طالع!

قال هذه الكلمات وهو ينظر إلى عيني. كانت كلماته بين الخوف واللوم، ولم أكن واثقاً ما إذا كان خائفاً أو لئيماً، وماذا يهدف من هذا الكلام. قلت بحدة:

ـ امسك الأرض يا رجل. صحيح أنهم أقوياء، ويمكن أن يقتلوا، لكن المسألة أكبر من القتل وأخطر!

ـ أنت تريد أن تموت وأنا غير مستعد للموت!

صرخت:

ـ اخرس.. كفى!

في ذلك اليوم، ثم في الأيام الثلاثة التالية، لم نستطع أن ندخل في أي حوار. حاول، حاول كثيراً وبوسائل متعددة، لكن كنت عازفاً عن أي حديث، واقتنعت أكثر من قبل أن السلاح الذي أستطيع به مواجهة الآخرين، وربما الانتصار أيضاً هو: الصمت!

في اليوم الرابع، منذ الصباح، أخذوه.

جاؤوا، مثل المرة السابقة، لكن لم يذكروا اسماً، إذ بعد أن دقوا الباب، صرخوا:

ـ عصّبوا عيونكم.

عصبنا عيوننا. وخزني أحدهم وسألني:

ـ ما اسمك؟

ـ طالع العريفي.

ـ أنت راح تخّ وتموت في سجن العبيد!

قال هذه الكلمات مع مداعبات قاسية: ركلات وضربات بالأيدي وكمية كبيرة من التهديدات والشتائم، وتوجهوا إليه:

ـ انت. . نعم انت، امش معنا!

وأخذوه!

تركوني بضعة أيام ثم جاؤوا. سمعت أصوات أقدامهم، كانوا كثيرين. أمّا حين وصلوا وتوقفوا فقد عمّ الصمت، وما عدا حزمة المفاتيح التي خشّت وحدها، فإنّ الصمت كان قوياً ثقيلاً.

لم يطلبوا مني أن أُعصّب عيني، أو أن أستعد!

فُتح الباب، ودخل الشهيري وحده!

دخل بهدوء وثقة. كان أقرب إلى المرح المشوب بالزهو. اجتاز الغرفة أكثر من مرة، وهو يتطلع بعناية وكأنّه يتفقدها ثم تطلع إليّ:

ـ ها، يا ابن العريفي، بعدك ميبّس راسك أم تريدنا نصير أصحاب؟

لم أجب. كنت مستلقياً. البطانية تغطي القسم الأكبر من جسدي، حتى الصدر، والآلام مثل بقعة الزيت: ممتدة، شاملة، لكن لم تكن حادة. كنت، في تلك اللحظة، أُفكّر بذلك الشخص الذي مرّ مثل طيف: لماذا أرسلوه إليّ، ولماذا لم أسأله حتى عن اسمه؟ وهل هو فخ أم ضحية؟

لم أجب الشهيري لكنني تأملته: كان سميناً إلى درجة أنه يزن اثنين أو ثلاثة مثلي. صحيح أنه قصير بعض الشيء، لكنه هذا النوع من القصر الذي تضخمه السمنة. الذراعان عبلان، وكأنهما ذراعا امرأة في منتصف العمر، والوجه قوي، مرتاح، مشدود، مما أكّد لي أنه يأكل جيداً وينام نوماً عميقاً دون قلق. لون البشرة ناصع، أمّا اللحية فكانت مشذبة ولا تخلو من جلال، وهي بالتأكيد معطرة، ومرّ تحتها البخور!

الشيء الوحيد الذي يستوقف النظر في هذا الوجه: العين اليسرى!

هل كانت بيضاء؟ مطفأة؟ ليست موجودة؟

لأول مرة أرى الشهيري هكذا!

لما وجدني صامتاً، بعيداً، غارقاً في تأمّله، أو في تذكّر أشياء بعيدة، سألني، لكن بطريقة لا تخلو من مظاهر الود:

ـ لازم تعرف، يا ابن العريفي: ترى للصبر حدود، ولولا أني حريص عليك، وما اريدك تروح بول بشط، مثل ما يقولون، ماجيتك ولا شفتك، فما اريدك تخيبني.

تململت، تحركت ثم قلت:

ـ أنت متوهم وتبحث عن واحد غيري...

وتابعت بلهجة غير عدائية:

ـ انت، الله يسلمك، تتصورني سياسي وشخص مهم، وأنا إنسان بسيط، على باب الله، لا أهتم بالسياسة ولا أشتريها بفلس، ولذلك تعذبني وتعذّب نفسك!

ردَّ بحقد، وهو ينظر إلى عيني تماماً:

ـ أنت تكذب...

وبعد قليل، وبحقد ومكر:

ـ اسمع، يا ابن العريفي...

وضحك لكي يبعد نظراتي عن عينه، وليركزها على الأسنان، والتي كانت قوية:

ـ الصمت أبد ما كان شجاعة، وتتوهم إذا تصوّرت أن الذي يصمت شجاع...

ضحك أكثر من قبل وأضاف:

ـ ولو ردت اتحاور معك كمحقق لعرفت كيف أجيلك، لكن، هذي المرة، ويجوز الرأفة دخلت قلبي، قلت لروحي: طوّل بالك يا رجل، وحاول تتفاهم...

تنفس بعمق وسأل:

ـ فما قولك؟

تركت فترة تمر وسألت ببراءة:

ـ قولي بأي شيء؟
ـ اريدك تعترف عن مسؤولياتك في التنظيم. . .
ابتسم ثم تابع بمكر:
ـ معلوماتنا تؤكّد أن لا علاقة لك بالجناح العسكري، وهذه وحدها خلّصتك من الإعدام، فإذا تعاونت معنا واعترفت، فالمدة التي قضيتها بالتوقيف تكفي وتوفي، وبعد كم سؤال وجواب نغلق القضية ونقول لك: في أمان الله. أمّا إذا بقيت معنّد وميبّس راسك ترى لا تلوم إلاّ روحك، يمكن نعدمك على الشبهة، وأنت تعرف: عندنا قدرة وعندنا صلاحية، ولا أحد يقدر يخلصك، فاعقل يا ابن الحلال وخلصنا!

ظللت صامتاً. مرت، كبرق، صور كثيرة، صور الذين أعرفهم: الأصدقاء الذين وثقوا بي، الذين اعتمدوا عليّ، صور بيوتهم وأطفالهم. هل أخون كل هؤلاء وأعترف عليهم، لكي يأتوا بهم إلى هنا، بعد أن ينتزعوهم من فراشهم؟ وإذا اعترفت على أحد، على شيء، هل يكتفون بذلك، أم أنها سلسلة لا تتوقف، ولا بد أن تمتد وتتواصل إلى النهاية؟ وهل يعني الاعتراف أنني سأخرج من سجن العبيد، وإذا خرجت كيف ينظر إليّ الناس وماذا سيقولون؟

ربما تكلم وجهي أو تكلمت عيناي، لأنَّ الشهيري أصبح عيناً كبيرة مشرعة فوقي كأنّها المظلة، تنتظر كلمة، مجرد كلمة. فلما وجدني صامتاً تحرّك، اقترب مني أكثر، وقال:

ـ وانا، يا طالع، وخذها من هذا الشارب، راح أساعدك، تقدر تعتمد عليّ، ومن هنا إلى بيتك!

لم أتكلم، قدّر أن صمتي يحمل موافقة ضمنية، وأن كلامه ووعوده أثرت عليّ؛ واصل:

ـ والكلام اللي يجري بينا ما يطلع من هنا، وهنا يندفن، لا أحد سمعه، ولا أحد يدري به.

وتغيّرت النبرة، كوسيلة إضافية للضغط:

ـ ولازم يكون ببالك: كلهم اعترفوا، كلهم تكلموا، وإذا تريد اخليك تقرأ كل اللي قالوه عليك!

قلت برخاوة:

ـ اللي عندي، الله يسلمك، قلته، وما عندي أي شيء أضيفه!

ـ الله لا يسلّم فيك عظم يا ابن الحرام...

وبعد قليل وبغيظ لم يستطع أن يخفيه:

ـ يعني هذا قولك الأخير؟ ما عندك شيء تقوله؟

قال وجهي وهزات رأسي أن لا جديد. صرخ بحدة:

ـ والله، يا ابن الحرام، لأخليك تشتهي الموت وما تحصله؛ وهالحين حضّر نفسك!

طلبوا أن أُعصّب عيني، فعلت ذلك بسرعة وتحدٍ، فقد أصبحت على يقين أن هذا اليوم سيكون الأخير، ولذلك يجب أن أثبت لهم مَن يكون طالع العريفي!

هناك لحظات وحالات يصبح معها الموت شغفاً ورغبة، يفقد الإنسان الخوف ويتحول إلى حالة من العناد أقسى من الصخر. قلت لنفسي وأنا أشد العصابة إلى اقصى حد: «الموت سيطال كل إنسان ولا يمكن لأحد أن ينجو منه، لكن أجمل موت، إذا كان هناك جمال من أي نوع، أن يجعل الواحد أعداءه تعساء، أن لا يحسوا بالفرح عندما يموت، وهذا لا يتحقق إلاّ إذا عرفوا أن الموت لا يعني له شيئاً، وأنه ليس عقوبة أيضاً، وهو ما سأحاوله، وهذا ما أريد الوصول إليه».

لا أعرف كيف اشتدت ساقاي، وأنا أقف متأهباً ومنتظراً مجيئهم، دستُ بقسوة وقوة على الأرض بباطن القدم. للحظات شعرت أن الدنيا اشتعلت، وأن الألم مثل أسياخ النار انفجر، صرخت، لكن ضغطت أكثر، لعل هذا الجنون الذي تسببه القروح يدمرني أو ينتهي. كنت أرفع قدماً بعد أخرى بسرعة تفوق سرعة البرق، لأنّ كل ثانية على تلك الأرض تشبه الوقوف على حديد محمي، كنت أتصور أن رائحة الشواء ستملأ الغرفة، وأن الدخان سيحجب كل شيء. تأخروا. بدأت أنقّل القدمين بجرأة رياضي لا يعرف الهزيمة ولا يقبل بها. لما تعبت، وتأخروا أكثر، جلست. ولكي لا أترك الرخاوة أو البرودة تتسلل إليّ تعمدت أن أجلس مقابل الحائط، وأن أضغط بكل قوتي. كنت أتألم، أصرخ، لكن حالة من التحدي سيطرت عليّ!

جاؤوا أخيراً. مشينا في الطريق إلى السرداب. ودون أن أرى، لكن قدّرت. كنت مثل الغراب بتلك المشية المتكبرة، غير الموزونة، وأنا أنقل خطواتي بسرعة، أو مثل المحكوم عليه بالإعدام يمشي وسط ثلة التنفيذ، حيث يكون وحده الأكثر جرأة وتميزاً، أو الأكثر غياباً، ويكون الآخرون خائفين مرتبكين من هذه المهمة غير المريحة.

لم يعد الطريق، من أين مشينا، أو كم مشينا، يعني لي شيئاً. لكن أحسست، وقبل أن نصل السرداب، أن له رائحة لا تخطئ: القيء والدم والآهات، وأيضاً أنفاس المجلودين الذين احتملوا أكثر من الآخرين. قلت لنفسي: «ساحة معركة؛ وفي ساحات المعارك لا مجال للندم، لأنَّ الإنسان يحاول أقصى ما يستطيع، لكنه ليس متأكداً ولا يضمن النتيجة» ولا أعرف كيف تذكّرت فجأة مفردات أخرى لعدد من المعارك، قلت لنفسي بتحدٍ: «أنا مثل طارق بن زياد: حرقت سفني كلها، وليس أمامي إلاَّ أن أُحارب!»

ومثل المرة السابقة، وأكثر قليلاً: صحن من الرز وفوقه فخذ من الدجاج، ثم ذلك الدورق من الماء:

ـ بدون سين جيم: تأكل هذا كله، وتشرب هذا كله!

بذلت جهداً خارقاً كي أكمل الصحن، أما الماء فقد شربت معظمه. نظروا إليّ بحقد، وبصعوبة وافقوا.

لما انتهيت قال لي الشهيري، الذي كان يجلس على العرش:

ـ إذا عندك، اليوم وصية أو شيء تريد تقوله؛ فالأحسن هالحين، لأنك إذا ما اعترفت راحت عليك، فأنت اليوم مودّع.

وتغيرت لهجته، وكان يخاطب الآخرين، بعد أن طلب إليّ أن أُعصّب العينين:

ـ ركّبوه!

ومثلما فعلوا في المرة الماضية رُكّبت، وبدأوا!

كانت جروحي لا تزال طرية، ورغبتي في الغياب كانت أقوى. فما كادت الكابلات تنهال على قدمي ثم الساقين حتى تفلّعتْ. طش الدم وتبعه القيء، وتتابعت الشتائم. كنت أُريد أن أنتقم من الشهيري بشكل خاص قبل أن أُغادر، لذلك لم أترك شتيمة أو وصفاً، إلاَّ وتحرّك به لساني. والشهيري

الذي تعوّد على حالات مثل هذه لم ينفعل إلاّ في وقت متأخر. فقد صرخ أكثر من مرة، طالباً وقف الضرب، لأنّي أريد أن أعترف! وبعد أن يتوقف الضرب للحظات ويسألني، وأقابله بالصمت أو بالرفض الصريح، يعود الضرب أقوى من قبل.

في لحظة ما نزل الشهيري عن عرشه! أمسك بالبطانية التي كانت عادة توضع فوق هذه الطاولة، وكعم بها رأسي، ثم استعان بطرف منها وحاول أن يخنقني. كنت أحس غيظه مثل طوفان. كان في لحظات معينة يصرخ:

ـ نهايتك، يا ابن الحرام، على يدي. راح تموت فطيس مثل كلب، لا من شاف لا من سمع، وإذا ما كان اليوم غير يوم، لكن أبداً ما راح تخلص!

كان يحاول بيديه الاثنتين، وكانت الكابلات تنهال كالمطر، ومعها الشتائم مني ومنهم، إلى أن أغيب. كان الغياب جميلاً وجليلاً، لكن المياه الباردة، رائحة الأدوية المنبهة، تعيدني من بعيد، من حيث كنت. وتتواصل الأسئلة ثم الضربات.

في وقت ما، وكنت بين الصحو والغياب، توقفوا. أتذكّر أنهم فعلوا ذلك بعد أن طلبوا إليّ التنفس من الأنف، وقد كمّ واحد منهم حلقي، وحين عجزت عن التنفس، وكدت أختنق تماماً، توقفوا. فكّوا الحبال عن ساقي وعن ظهري وأبقوا الجامعة (تصوروا هذا الاسم!) في يدي اليمنى، وتقابل اثنان لكي يرفعاني عن الطاولة أولاً ثم ليجراني إلى زاوية في السرداب؛ ومثلما تُعلّق الذبائح، رُفعتُ، وربطتْ الجامعة إلى حلقة في الجدار، وخلال ثوانٍ قليلة غابوا!

في لحظات الصحو، والتي كان يفجّرها الحريق والعطش، كنت أتصور نفسي أطير، ومما يجعل هذا التصور طاغياً أن رجلي لا تلامس الأرض إلاّ خطفاً. كانت الملامسة خفيفة تشبه النسيم! وكان جسدي يتأرجح على محور نصف دائرة، تماماً مثل بندول الساعة، إذ ما يكاد يبلغ نقطة معينة حتى ينوس، للحظة أو اثنتين، ثم يبدأ بالعودة مرة أخرى، ويصل، في الجهة المقابلة، إلى نقطة مماثلة ثم ينوس عندها لكي يعاود الرجوع من جديد.

كنت في تلك اللحظة، لحظة الاقتراب من الصحو، أريد أن أشرب، أريد ماءً، ولا شيء غير الماء. كنت راضياً أن أبقى هكذا معلقاً إلى الأبد إذا

حصلت على الماء! كنت أريده ماء بارداً مثل ذاك الذي كنا نغمّس فيه رؤوسنا ذات يوم في عين الصفا، ونتبارى في أي منا يستطيع أن يبقي رأسه فترة أطول من الآخرين. لو أني في عين الصفا الآن لما تركت رأسي يرتفع من النبع ثانية واحدة، وهناك يطيب لي أن أحيا أو أن أموت!

الحريق يمتد، يتسع، يصبح قوياً مستبداً، فيتردّد في صدري خوف وحيد: ما أبشع أن يموت الإنسان محترقاً. ويندلق القيء، يملأني، يملأ الأرض، وأحس لساني جافاً كأنّه حطبة تملأ الحلق، ويكاد يخنقني، وأغيب!

وفي الغياب، الذي ليس له وقت وليست له حدود، أعاود الطيران والبكاء والصراخ حتى تأتي أمّي! كانت ترفعني قليلاً عن الأرض، لأنها لم تعد قادرة على حملي مثلما كانت تفعل لما كنت صغيراً. وحين تتعب تضع راحتيها تحت أصابع قدمي لكي تسندهما، ولما ترى الدماء تسيل من بين الأظافر تحاول أن تمسح هذه الدماء فأتقيأ ويصيب الرشاش صدري ورأس أمّي والأرض، لكنها لا تأبه، تواصل مسح الدماء بيد وتسندني بيد، فأصرخ طالباً منها أن تترك كل شيء، وأن تأتيني بالماء، وحين تهبّ لحمل الماء أعود إلى الصحو من الغياب!

الصمت، الصمت، ولا شيء غير الصمت. لكنه صمت محسوس، له دوي، شديد الثقل وله أنياب حارقة. وحين يكون كذلك يصبح عدواً لئيماً.

أتذكر أنني صرخت: «يا ظلاّم. عطشان، أريد ماءً!»

ارتد الصوت وتبعه الصدى، ولا أحد. لساني يتدلى كلسان الكلب، الحريق يبدأ من أظافر القدمين ويمتد ويمتد، ومع كل شبر يزداد التهاباً، حتى إذا وصل إلى الوجه والعينين والشعر أحسّ أن جلدة الرأس بدأت تقبقب وتتحرك، ولا بد أن تدخن ثم توجّ. فأهز جسدي في محاولة لمنع الحريق، لتأجيله، وأصرخ من جديد: «ماء، ما أريد غير الماء، يا ظلاّم» لكن لا أحد.

ويأخذني الغياب بعيداً، أغيب، أتيه، لا أعود إلاّ على صفعاتهم:

ـ افتح حلقك يا خنزير، يا كافر.

أرى أشباحاً، أرى سواداً، وأسمع أصواتاً تأتي من بعيد:

ـ لازم تاكل!

وأراهم يقتربون ويبتعدون. يقتربون لأداء هذا الواجب الثقيل،

ويبتعدون من الرائحة والقيء والدم الذي تخثّر تحت قدمي.

في لحظة صحو، وبطريقة غريزية أصرخ، وأسمع صوتي كأنّه ينبعث من باطن القدمين!

ـ أريد ماء، بس ماء، يا ظلاّم، يا أولاد الحرام!

ويفتحون فمي بالقوة، يدسون البيضة، وتندس وراءها إصبع لكي تدفعها؛ أنتفض كما ينتفض طير على وشك الذبح، تنخلع يدي المشبوحة وتهتز القدمان كالمشنوق، وبهذه الحركة غير الإرادية تنزلق البيضة إلى الداخل، ازدردها كما الحية حين تبتلع عصفوراً، أتلوى، أُحرّك جسدي في محاولة أخيرة قبل الاختناق لكي تواصل طريقها فلا أموت!

ومع الحركة تصرخ الآلام كلها، تتفجر، حتى إذا بلغت حداً معيناً أغيب.

تناوب عليّ الصحو والغياب كما تتناوب الفصول وكما تتداخل. كان يأتي الصحو على شكل آلام حادة، كأنّها المسامير تُدقّ بالعظام، ويأتي من القيء حين أحس معدتي تريد أن تغادرني، أن تفر مني، ويأتي من اللطمات القوية المفاجئة لكي أتناول وجبة جديدة!

وبين صحو وصحو يكون الغياب، لا أعرف كيف أدخله، أو كيف ينزلق عليّ. كان في حالات معينة يتسلل كالمياه الخفية، كالهواء، وكان في حالات أخرى قوياً صاعقاً كأنّه ضربات مطرقة، خاصة حين يلتوي الجسد في محاولة للبحث عن شكل للوقوف أو الاستناد أقل عذاباً، إذ فجأة أدخل في غيبوبة كما يدخل الهواء في الرئتين. لا أعرف كيف يحصل هذا أو بأية سرعة، لكن أحس أن الخدر تكاثف ثم عبق في عيني وأنفي إلى أن أفقد صلتي بكل ما حولي.

جسد الإنسان صخرة، طاقة لا تنضب ولا تعرف الانتهاء. والإرادة، رغم أنها تبدّدت وخبت، إلاّ أن ذلك الفتيل الباقي يجعل كل شيء قابلاً للاشتعال من جديد. لا أعرف ماذا سأفعل لو أنهم جاؤوني في لحظة التبدّد والتلاشي هذه، هل سأعترف لو أنهم أعطوني ماء؟ هل سأتكلم لو أنهم فكّوا معصمي وتركوني أتداعى على الأرض لكي أغرق في نوم أبدي؟ وهل أقوى على الاحتمال أكثر مما احتملت؟

جاؤوني في إحدى المرات. لا أعرف إن جاؤوا في المواعيد التي حدّدوها لأنفسهم أم جاؤوني لكي ينتهوا من هذا الصراخ والأنين.

فمثل مرات سابقة، وبعد أن ملأت السرداب صراخاً وشتائم، في طلب الماء، ولم يستجيبوا، لا أعرف كيف غرقت في ذلك الدعاء الأبدي: «آخ يمه، آخ يمه، تعالي يا يمه وشوفي هذول الظلاّم، تعالي يا يمه» وجاؤوا!

فكّوا القيد وسقوني كأساً من الماء. ارتويت ولم أرتو. كان الحريق لا يزال يملأني، والجفاف يقشّر جسدي. كنت فارغاً وممتلئاً في الوقت نفسه. ما كدت أرتاح دقيقة واحدة حتى شعرت أني إذا لم أصل المرحاض فسوف أتبرز وأبوّل في مكاني. خرجت الكلمات من بين أسناني طالباً أن أذهب إلى هناك. أشاروا إلى المرحاض. ومثل الفقمة المسنة الزاحفة على الجليد زحفت، لكن قبل أن أصل انتهى كل شيء!

ظللت، للحظات، في مكاني. ظللت فوق بقاياي، إلى أن سمعت الشتائم. ومثل كلب يشعر بذنبه عدت، تراجعوا بقرف، لطموني بأرجلهم، وبسرعة ربطوني كما كنت، وذهبوا.

لم أخجل مما فعلت، أكثر من ذلك شعرت أنني أهينهم بهذه الطريقة، وأقول لهم، من خلال هذا التصرّف، مَن هم وماذا يعنون بالنسبة لي!

ربما أتوهم، أو هذا ما فكّرت فيه خلال فترة لاحقة، لأنَّ الأمر أخذ يتكرّر في الأيام التالية، لم يعد يعني لي شيئاً، فما داموا قد فعلوا بي هكذا، ولم أعد قادراً على المشي أو الانتقال إلاّ كما تفعل بعض الحشرات ذوات الأرجل القصيرة، فقد أصبحت أتدحرج مثل برميل من أجل الوصول إلى المرحاض، وأصل، ولا أصل في بعض الأحيان!

ثلاثة أيام قضيتها بين الأرض والسماء. أطراف أصابعي تلامس الأرض ويدي تمتد إلى السماء. أتذكر أنها ثلاثة أيام من وجبات الطعام والصفعات. وحين تركوا يدي ترتخي لأذهب إلى المرحاض، وبعد أن عدت، صرخوا بي لكي أتدحرج إلى مكان آخر، ربطوني إلى ماسورة مياه، وذهبوا!

هل فعلوا ذلك لأنَّ المكان الذي كنت فيه تحوّل إلى زريبة من الدم والقيء والبقايا، أم لأنهم رأوا الزرقة الداكنة ملأت جسدي من الرأس حتى

باطن القدمين، وأي تعليق إضافي سيؤدّي إلى الموت، وهم لا يريدونني أن أموت الآن؟

ربما سأجهد نفسي لتفسير هذه التصرفات في وقت لاحق، أمّا في اللحظة التي ربطت إلى ماسورة المياه فقد غرقت في النوم. لقد انقضت دهور لم يلامس جسدي الأرض وحين لامسها شعرت بحنان الأرض، بحب لها لا يوصف، كنت أريد أن أمتزج بها، أن أكون، مرة أخرى، جزءاً منها، وأغرق.

أتذكّر أن وقتاً طويلاً مرّ منذ أن رُبطت إلى تلك الماسورة. لست متأكداً، ولا يمكن أن أتذكر، فالنوم امتزج بالغياب، بالألم، وامتزج أيضاً بتلك الرغبة في أن أمضي بعيداً وإلى الأبد. كانت تتراءى لي، في بعض اللحظات، وجوه، وتتناهى إليّ أصوات، لكنها من التداخل والسواد أو لأنّي غير قادر على التمييز، بحيث كانت أقرب إلى الغياب، ولا تحدّد شيئاً أبداً.

ظلّ الحال كذلك وقتاً.

في إحدى المرات أحسست دبيباً، ثقلاً، فوق ساقي، فتحت عيني، وجدت الشهيري بكل ثقله يقف فوق الساق، ويهتز. قال لي لما رآني أعود من النوم أو الغياب البعيد:

ـ غريب، بعدك حيّ؟ بعدك ما مت؟

نظرت إليه ولم أجب. نزل. أخذ يتمخطر أمامي، ذهاباً وإياباً، ولا يكاد يرفع عينه عني. وبمقدار ما كنت أُميّز رأيته قوياً وحائراً معاً. لم يكن يريد أن يتكلم، ولم يكن قادراً على السكوت. في لحظة ما قال، وخرج صوته مغيظاً حانقاً:

ـ وبعدين معك يا حيوان، راح تظل متعّب روحك ومتعّب الناس معك؟

بصعوبة استطعت أن أجمع كلماته وأُعطيها معنى ودلالات. لم يتوقع جواباً مني، أو هذا ما كان يرجحه، تابع بنفس اللهجة:

ـ وشنهو قصدك أو اللي رايد تصله من هذه الحيونة ويباسة الراس؟

ولم ينتظر، أضاف بسخرية:

ـ تريد تصير بطل؟ مشهور؟ تريد الناس يقولون إن ابن العريفي دوّخ

جماعة سجن العبيد وما قدروا عليه، وإنه طلع مرفوع الراس؟
في لحظة صمت قلت، وخرج صوتي مخنوقاً.
ـ كل ما أريده. . . الماء. اعطني ماء!
ـ حنا يا ابن الحرام نريد نخلّصك، نريدك تدوّر دربك وأهلك، وأنت تريد زق، وما عندك إلاّ: اعطني ماء!
الله يخزيك، لكن مثل ما قالوا: مَن به طبع ما تركه!
قلت لإغاظته أكثر، أو ربما لم أكن أرى أو اشتهي سوى الماء:
ـ اعطني ماء، وبعدها نسولف!
صاح، وكان صوته كالدوي، إذ تردّد في السرداب، وربما هزّه:
ـ هات الماء، يا ولد!
وجاؤوني بالدورق إياه أو أكبر منه. وضعوه أمامي، قرفص الشهيري مقابلي، أخذ ينظر إليّ كما ينظر إلى حيوان غريب. قال بسخرية وتحدٍ.
ـ تريد الماء. . ها؟ دونك، وما راح أقول لك، هذه المرة، اشربه كله، اشرب إلى أن ترتوي، وبعدها أريد أشوفك شلون راح تسولف.
لأول مرة أشرب قدر ما أريد أو أكثر قليلاً، لكن برغبة. وزيادة في التمتع تركت مقداراً منه يسيل على لحيتي، على صدري. كان ناعماً لذيذاً. وكان الشهيري ينظر إليّ باستغراب. ربما قال لنفسه: ما أصغر رغباته وما أحمض نفسه. ما أقواه وكم هو هش وضعيف. وربما قال أشياء أخرى أو فكّر فيها!
ولا أعرف كيف تملكتني الرغبة لأن أغسل وجهي، خاصة العينين. بعد أن وضعت الدورق إلى جانبي، حاولت أن أملأ كفي بالماء، لكنه دفع الاناء برجله فانسكب على الأرض كل ما فيه، قال بسخرية وغيظ معاً:
ـ احك. سولف هالحين!
وجاء صوت من بعيد، وكأنّ واحداً في داخلي يتكلم نيابة عنّي:
ـ ما عندي شيء!
قال وخرجت الكلمات من بين أسنانه:
ـ لحد اليوم، يا ابن ستين كلب، كنت تخوّض ببولك وخراك؛ لكن والله لأخليك اليوم تخوّض بدمك، وتشوف.

ركلني على خاصرتي بقوة، وتفل عليّ، ثم غادر!

ولم يتأخروا كثيراً:

فكّوا يدي المربوطة إلى الماسورة وعصبوا عيني.

سمعت أقداماً كثيرة تقترب، ربما أكثر من أية مرة سابقة؛ كانت خطوات وأصداء، ربما نتيجة الفرق في المسافة، وهي بسبب الرتبة والأهمية بكل تأكيد!

إذ بعد أن خيّم الصمت، جاءني صوت أجش ومختلف:

ـ اسمع يا طالع العريفي.

بعد أن تأكّد لمجلس الشرع، بالقناعة والبيّنة، أنك كافر ومرتد، وإنك كذبت على المحققين ولم تصدق، وبعد أن أعطيناك فرصاً كثيرة لتتوب وتعود إلى رشدك ولم تفعل، فقد خولنا الأخوة المحققين، وفوضناهم، باسم الشرع والدين، ولمصلحة المسلمين، ولإعلاء كلمة الحق، ولمحاربة الكفار والزنادقة والملحدين، خوّلنا الأخوة المحققين أن يتبعوا معك كل الوسائل حتى لو أدت إلى الموت، فإمّا أن تتوب وتعود إلى الحق أو أصبح دمك مباحاً.

وصمت قليلاً ثم أضاف بلهجة جديدة:

ـ هل سمعت وفهمت وتبلّغت يا طالع العريفي؟

وحين لم أجب تابع، وجاء صوته على شكل دعاء:

ـ «ما شاء الله قضى، ليس وراء الله منتهى، توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلاّ وهو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم. اللهم إن هذا عبد من عبيدك، خلقته كما خلقتني فاكفني شره، وارزقني خيره، واقدح لي في قلبه المحبة، واصرف عني أذاه، لا إله إلاّ أنت سبحان رب العرش العظيم، وصلى الله على النبي الكريم»(*).

وجاءني صوت الشهيري:

ـ أسمعت ما قاله شيخنا، يا طالع العريفي، ووعيته؟

لم أجب، تابع الشهيري:

ـ بارك الله فيك يا شيخنا، وسوف نتولى أمر هذا الزنديق كما أمرنا

(*) التنوخي صفحة 180.

الشرع وكما أمرتنا، ونطلب من الله، جلّ شأنه، أن يصلحه أو أن يأخذه!

ولا بد أن الموكب غادر كله، فقد استدارت الخطوات وأخذت تبتعد، وخيّم صمت لم أحس بمثله من قبل.

لقد امتلأت، في تلك اللحظات، بمشاعر كثيرة، لم يكن الخوف واحداً منها. شعرت بالغيظ والفرح واللاجدوى، وشعرت بالظلم.

مَن أعطى الحق لهؤلاء في أن يقتلوا البشر؟ في أن يذلوهم؟ وحياة الإنسان، هل هي رخيصة لهذه الدرجة؟ وهذا الذي كرز عليّ الخطب والأدعية، ومضى، ألا يعتبر موبوءاً مثل بقة؟ أليس هو الذي يجمّع النساء الصغيرات كما يجمّع النمل الغذاء لأيام الشتاء؟

آه لشدّة ما في الحياة من قسوة ومفارقات!

وحين استمر الصمت قوياً شاملاً، وفي لحظة قشعريرة، أحسست يداً حانية رطبة تمسكني عند الساعد. لم أشك أبداً أنها يد أُمّي. وسمعت صوتها، كان بعيداً وله أصداء «أنا أنتظرك وستأتي إليّ يا طالع. لا تصدّق ما يقولون. إنهم لا يعرفون الصدق أبداً. فابق رجلاً. واعلم أن موت الرجال تغني له الصبايا وتبكيه العجائز ويهز الرجال رؤوسهم لوعة ويتذكره الصغار لآخر أيام العمر. فما أجمل أن ألقاك وسط الزغاريد وغناء الصبايا، وما أقوى أن تبقى ذكرى في قلوب كل الذين سيظلون أحياء بعدك... فلا تنس ما أقوله لك، يا ابني، يا طالع».

ولا أعرف كيف بدأت تهل عليّ ألوان زاهية، كانت تتساقط كالمطر، واللون الأبيض يغلب عليها كلها. كانت الألوان تمتد مثل جدول لا نهاية له، كان الجدول بارداً ولا يتوقف لحظة واحدة، عن الغناء!

ظل الصمت، وظلت هذه المشاعر تتلاحق وتتراكم، وحين سمعت وقع أقدامهم ثم أصواتهم، عدت من الأمكنة البعيدة التي كنت فيها. أمّا حين انفتح باب السرداب ودخلوا مثل الجراد، فقد شممت رائحة الموت. ارتجفت، لكن لم أشعر بالخوف. بعد أن اصطفوا بشكل ما، هكذا قدّرت، وخيم سكون ينذر بالانفجار، سمعت الشهيري يخاطبهم، لكنه يريدني أن أسمع:

ـ وهذا ما ينراد له لا غسل ولا تكفين؛ وحتى القبر لا تتعبوا بحفره؛

فبعد ما يموت تلقحوه بالفلا، واللي ما تاكله كلاب الأرض تتناوشه نسور السماء، وهذي نهاية كل ملحد زنديق!

تنحنح الشهيري وقال بصوت قوي، ليشعرني أن ما قيل من قبل لم أسمعه:

ـ لا بد وسمعت اللي قاله الشرع، يا ابن العريفي...

توقف قليلاً، جرّ نَفَساً وتابع:

ـ وحنا، اليوم، راح ننفذ كلام الشرع، تسمعني؟

لم أحر جواباً ولم أنطق بكلمة، تابع:

ـ فإذا عندك كلام، وحتى ما نتحمل خطيتك، أُعطيك آخر فرصة حتى تعترف، وقد أعذر مَن أنذر..

واستمر الصمت. كان صمتاً مشحوناً دبقاً، وكان الجميع يحسونه ثقيلاً ويريدون أن ينتهي. سأل الشهيري:

ـ عندك شيء تريد تقوله يا طالع؟

وحين لم أجب قال:

ـ ركّبوه!

ولا أعرف من أين واتتني القوة والجرأة وأنا أُسابقهم وأسبقهم في ركوب الطاولة. ربما ظهرتُ كعفريت أشعث الشعر وأنا أتخبط في طريقي إليها. لاحظ الشهيري، وربما خاف، فقد صرخ:

ـ وين رايح يا ابن الكلب، رايح على عرس أُمّك؟

ـ رايح على ديرة ما تحلم تشوفها يا عدو الله!

ـ الكفار أبد ما يشوفون الجنة.

ـ الكفار أنت وأمثالك، ويجي يوم تدفع ثمن دمي. وتذكّر!

ـ تخسا.

ـ اللي يخسا أنت وأمثالك ويجي يوم تكون فيه أذل من إبليس يوم عرفه، وتشوف!

ـ ركّبوه وخلونا نخلص منه ومن جعيره!

شعرت، وأنا أركب، كأنّي عدت سنيناً إلى الوراء، إلى ذلك اليوم الذي لم يُسمح لي بركوب الحصان، فهيأت لي أُمّي من بقايا المهد حصاناً خشبياً، بدا

لي آنذاك أجمل من الخيول الأخرى. الآن، وأنا أعتلي حصان الشهيري، أشعر أني أقوى من كل الذين حولي، وأنهم يخافون مني بشكل ما، وأيضاً يخافون موتي. كانوا يتمنون، في أعماقهم، لو أتكلم، لو أكف عن العناد، لأنّي بذلك سأريحهم، لكن القاعدة التي تعلمتها من أُمّي، في ذلك اليوم البعيد، وهي تقول بطريقتها الخاصة: حياة تسرّ الصِديق أو موت يفري أكباد العدوين، انفتحت أمام ناظري، ملأتني، ولذلك كنت متعجلاً لكي أغيظ هؤلاء المنهمكين بالتقييد والتربيط، وأولئك الذين يستعدون للضرب، وذاك الذي ينتظر على عرشه: الشهيري.

الضربات الأولى كانت على باطن القدمين، وما كادت القدمان تتفلعان، وتنزان دماً وصديداً، وأصبح رشاشهما يطال الوجوه والأرض، حتى توقف الضرب، وبالتأكيد بإيعاز من الشهيري، توقف قليلاً، ويبدو أنه كان يوجّه أوامره عن طريق الإشارات، إذ ما كدت أجرّ نَفَساً استعداداً لما سيأتي، حتى هوت على ساقي، عند القصبة، ضربة بخشبة كبيرة. خلال ثوان قليلة، وبعد أن قذفت النَفَس الذي كنت أجره، واستوعبت الصوت، وسرى الألم مثل دورة كهربائية من مكان الضربة ليعم الجسد كله، حتى غبت عن الوعي نهائياً. ولم أعد أتذكر شيئاً مما حصل بعد ذلك.

لا أعرف كم مرَّ عليّ وأنا في حالة من الغياب، لكن حين استعدت وعيي، أو اقتربت من ذلك، اكتشفت، شيئاً فشيئاً، أنني في مكان جديد.

لفترة غير قصيرة ظللت أُحاول التمعن والتدقيق، لأنني لا أُصدّق: هل أنا نفسي؟ ألا أزال حياً؟ وما الذي حصل لي بعد تلك الضربة؟

الخدر، والذي يشبه حالة من التلاشي، يجعلني غير قادر على الإحساس أو التركيز. العينان اللتان تحاولان الاكتشاف تنطفئان وتصمتان بتناوب يشبه الشهيق والزفير، إذ تتراوح الصور التي تعكسها بين السواد المنطفىء والبياض الهش، فلا أعرف هل أنا في حقيقة أم في غياب، وهل ما أراه، أو أُحاول أن أراه، شيئاً مادياً أم طيفاً من الأطياف، خاصة وأن الخيالات لم تكن تفارقني خلال الفترات الأخيرة؟

حتى الصوت الذي يمكن للإنسان أن يشق من خلاله الطريق، حين تعجز الأعضاء الأخرى، لم يعد يطاوعني، إذ أصبحتُ غير قادر على التحكم به. هل استطاع الشهيري أن ينتزع مني آخر الأسلحة التي كنت أُحارب بها؟ حاولت أن أُحرّك لساني، أن أتكلم، لكنه خذلني، خانني، فما أكاد أدفع الصوت إلى الخارج حتى يصطدم بلهاثي ويرتد، كان يتراجع مثل كرة، ليسقط في داخلي.

لماذا لا أكون ميتاً؟ وهل أنا متأكد أن الموتى لا يكونون كما أنا الآن؟ لم أُجرّب الموت من قبل، ولا أعرف كيف يصبح الإنسان حين يموت، لكن على الأغلب لا يختلف عن وضعي في هذه اللحظة: أليس الموت هو حالة التوقف أو العجز؟

Twitter: @ketab_n

لم أستطع أن أستمر، ضعت، ثم غبت!

في وقت آخر، لا أعرف متى، بدأت الصور تتضح أكثر من قبل: أنا الآن أنام على سرير حقيقي. الرائحة التي تطوقني تختلف عن الأماكن الأخرى. أربطة تلفّني من قمة رأسي إلى باطن القدمين، وكأنّي أصبحت مجموعة من القطع إذا لم تُربط بعناية يمكن أن تتساقط وتتبعثر. الرجل الذي يقف مقابلي وينظر إليّ لا يشبه الذين كانوا حولي. ألتفت، أرى إلى جانبي سريراً ثم سريراً ثانياً. الغرفة تختلف عن الغرف التي كنت فيها خلال الفترات السابقة!

... وأخيراً، اكتشفت أنني في مستشفى السجن!

يبدو أنهم استعادوني من الموت، مؤقتاً، وهذا ما سوف أتأكّد منه في وقت لاحق. فالجهود التي بُذلت من أجل إنقاذي كانت كبيرة، وظلت متواصلة حتى وقت خروجي. تبينت ذلك بنفسي، إضافة إلى بعض الملاحظات، والتي كانت على شكل أسئلة بين الأطباء، وهم يتشاورون، أو على شكل دهشة حين يفكون جرحاً من الجروح. وفي وقت لاحق من تعليقات الدكتور زياد.

لا أستطيع، الآن، أن أُحدّد كيف حصلت الأمور وكيف كانت ردود فعلي. فبعد الضربة التي انهالت عليّ تلك اللحظة، ولا أعرف إن كانت ضربة خشبة ضخمة، أم ضربة فأس أو بلطة، وكان لها رنين يشبه وقوع قدر هائلة، وبزاوية تجعلها في حركة لفترة طويلة، حيث سمعت صوت الشرخ الذي حلّ بي، فمزقني تلاه ذلك الرنين المتوالي، بحدة، أول الأمر، انطلاقاً من المركز، ثم المتناقص تدريجياً إلى أن تلاشى تماماً؛ بعد تلك الضربة، وذلك الرنين، غبت، ولا أعرف أي شيء حصل بعدئذٍ.

الآن، وأنا أكتشف أنني ما زلت حياً، لا أعرف حقيقة مشاعري، هل أنا راضٍ ومقتنع؟ وهل ما يفعله الشهيري حالياً، إذ يريدني أن أبقى على قيد الحياة، محاولة لإنقاذي أم عقوبة إضافية يوجهها إليّ؟ لماذا يصرّ على أن أبقى حياً، ألا يزال يؤمل أن ينتزع مني كلمة؟ أن يواصل ساديته فيجعلني أشتهي الموت ولا أدركه؟ ألا يحتمل أن الندم نغّص لياليه، ويحاول إصلاح أخطائه من خلال إصلاحي؟ لا أعرف كيف كنت، وما هي حقيقة المشاعر التي كانت

أقوى من غيرها، لكن ذلك الحرص المبالغ فيه لم يعجبني، أو بالأحرى جعلني أنظر إلى الأشياء بشك أقرب إلى الخوف.

سأعرف يوماً بعد آخر أن عدة عمليات أُجريت لي خلال الفترة الأولى. وسوف أكتشف أن الإصابات التي أوقعوها بي في «الحفلة» الأخيرة تفوق أية إصابات سابقة، وأنهم كانوا يضربون ليس إنساناً بهدف حمله على الاعتراف وإنما يضربون جثة، وإلاّ من أين أتت تلك الإصابات في الرأس والساعدين والأصابع، بما فيها سبابة اليد اليمنى؟ وحين أرى الأطباء وهم يعالجون الجروح، في باطن القدمين والأظافر ثم الساقين، وحين أسمع تعليقاتهم القصيرة السريعة، أعجب من قوة الإنسان وقدرته على التحمل، وابتسم، بحزن، من قسوة هذه المخلوقات التي لم تتوقف عن ضربي إلى أن تأكّدت أنني وصلت إلى الضفة الأخرى: إلى الموت!

كنت، في بعض الأحيان، أرى جروحي في عيون الأطباء. كان الدكتور زياد، وهو يضمّد القدمين، يقول لنفسه، وربما يريدني أن أسمع:

ـ حتى الوحوش لا تصل إلى هذه الدرجة من القسوة!

ويوجه أوامره إلى عاشور بحزم أقرب إلى العداء:

ـ والكمادات الباردة تتبدل كل عشر دقائق، أتسمعني؟

وبعد قليل:

ـ وإذا ارتفعت حرارته، فوراً تتصل بي، مهما كان الوقت!

وحين يتجمع الأطباء حولي، ويتبادلون المعلومات والتقديرات، فغالباً ما يكونون أقرب إلى الدهشة والاستغراب، كيف أن الساقين لم تقطع، وأن الالتهابات توقفت عند هذه الحدود ولم تواصل تقدمها إلى أجزاء أخرى من الجسد!

كنت أسمع، وبعض الأحيان أرى، وأغيب.

ويعاودني السؤال: هل لا زلت حياً أو راغباً في الحياة؟ وهؤلاء القتلة ما هي الفلسفة التي تجعلهم يقتلون، أو يبلغون حد القتل، ثم يحرصون، كل هذا الحرص، من أجل استعادة أولئك التعساء الذين بعثوا بهم إلى الموت؟

كان يتناوب الجلوس على كرسي مقابلي اثنان، عرفت بمرور الوقت اسميهما: عاشور ومسعد، مهمتهما: كمادات الثلج والماء البارد، ربما ليس

كما أمَرَ الدكتور زياد، ولكنهما لا يتوقفان عن تغييرها. أحس ذلك من خلال تفاوت الحرارة، ثم من يد مسعد الثقيلة، والتي تحمل بغضاً لا تستطيع أن تخفيه وهي تمر على جبيني. هل هما ممرضان أم حارسان؟ وهل ينفذان أوامر الأطباء أم أوامر الجلاوزة، خاصة الشهيري؟

عندما بدأ يتراجع الخطر، ثم حين زال، أخذ الاثنان يغيبان فترات ليست قصيرة!

وإذا كنت خلال الأسابيع الأولى عاجزاً عن الالتفات إلى النزيل الآخر، في الغرفة أو الحديث معه، فقد أصبحت الآن في وضع أفضل، لكن ذلك الحذر الغريزي من أي غريب لم يفارقني. ومع هذا بدأت كما يبدأ الخائف أو كمَن يسير في الظلمة. فبعد أن سألني أكثر من مرة ما إذا أصبحت أفضل، وكنت أُجيبه باختصار، وبعض الأحيان بطريقة مبهمة، وازاء حذري المبالغ فيه، فقد انكمش تاركاً لعينيه أن تتكلما...

وحديث العيون يتعبني وأخشاه كثيراً، وربما تسرَّبت أولى دروسه إليّ من أُمّي، إذ كانت تستطيع أن تقرأ في العيون كل شيء: الحب والفرح، الحزن والقلق، وكانت تعرف ما إذا قلت الحقيقة أم لا، وتذكر ما حصل لي قبل أن أتفوه بكلمة! هذه الصفة من أُمّي جعلتني أخاف عيون الآخرين وأتجنبها، أو أُحاول وضع حاجز بيني وبينها. ولشد ما أحسست بالقوة وهم يحققون معي، لأنَّ عيوننا لم تلتقِ. كانوا يلفعوننا بالعصابات، أو يتوارون منا وراء أقنعتهم المضحكة، لكي لا نراهم، وكانت هذه إحدى وسائلي في الدفاع!

الآن وزميل الغرفة ينظر إليّ بهذه الطريقة يربكني. أحس في عينيه الدفء والحنان، وأحس أيضاً رغبة الكلام، لكن الحذر، ثم ذلك الانقطاع الطويل عن البشر، والغباش الذي ولدته العصابة والظلمة، إضافة إلى الآلام التي توالت عليّ، فقد أصبحت في شك، وأصبح الغرباء، أياً كانوا، الكمين الباقي، وربما الأخير، الذي يريد الشهيري أن يوقعني فيه، ولذلك كنت أحرص على هذه المسافة بيني وبين أي إنسان آخر.

لكن العيون بمقدار ما تتكلم فإنّها قادرة على الاستماع، إذ ما كاد يراني منزعجاً متضايقاً، وكنت في الحقيقة أنتظر مجيء عاشور لكي يساعدني في

الوصول إلى الحمام، وقد تأخّر كثيراً، ما كاد يراني هكذا حتى يسأل بقلق:

ـ هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟

رددت بغضب:

ـ حين يكون الإنسان سجيناً وفقيراً يجب أن يتبول في فراشه، لأنّ المرضين يغيبون في الوقت المناسب.

قال والابتسامة تفترش وجهه:

ـ ليتهم يغيبون إلى الأبد، وعندها سنكون بألف خير!

ـ ولكن هذه مهمة الذين يتقاضون الرواتب في نهاية الشهر، وهم يتقاضونها لكي يساعدوا المرضى!

ـ حط بالخرج، يا صاحبي، واعطني يدك.

بصعوبة أجلسني على العربة. دفعها نحو الحمام، ولما أصبحت في وضع يمكن أن أنتقل، غادر، أغلق الباب وراءه، وظلّ ينتظر.

كانت هذه البداية لعلاقتي بهلال معتوق!

وأن تقوم علاقة من هذا النوع، وأن تتوطد، بمقدار ما تولّد الثقة والاعتزاز، فإنّها تثير الأسى، بل ويتمنى الإنسان لو أنها لم تقم، أو على الأقل لم تستمر!

أصبح هلال بالنسبة لي، رغم أنه أصغر مني سناً، أباً وأخاً وصديقاً، ولا أُبالغ إذا قلت إنه الذي شفاني، وجعلني أكثر قوة، ربما دون أن يدري!

فعاشور الذي اكتشف إفلاسي في وقت مبكر، وتأكّد أنه لن يستطيع أن يحصل مني، أو عن طريقي، على أي شيء، وبعد أن خفّت الرقابة، نتيجة زوال الخطر المباشر، لم يعد حريصاً على رؤيتي أو الوصول إلى غرفتي. أمّا مسعد، وكان بليداً قاسياً ومخبراً أيضاً، وغالباً ما تكون نوبته في الليل، فحين يجيء تسبقه وترافقه كمية كبيرة من النصائح والتهديدات، إضافة إلى الشتائم.

ـ يا عيني على سياسيين آخر زمان: شوفة حال وبباسة راس، والعشرة منهم ما يسوون نواة!

يضحك، يقهقه لنكتته، ويضيف:

ـ الواحد منكم يحب العلية ولو على خازوق!

يتوقف قليلاً وكأنّه أضاع الفكرة، أو لا يعرف كيف يواصل، فقد

قيلت له أفكار، وطلب منه أن يوصلها، لكنه يفضل طريقته الخاصة، وها هو بعد أن بدأ بداية حسنة، كما يفترض، لا يدري كيف يتابع. حين يرانا نتطلع إليه، نستمع، يضرب طرف السرير، كما لو أنه يجلد مسجوناً ويصرخ:

ـ ليش تناظروني كذي، ما عاجبكم، ما مالي عيونكم؟

وحين لا نجيب، ويفترض أن هذا الاختراق أمدّه بالقوة، تتغير لهجته وهو يتابع:

ـ حمير، تيوس، فسافس، صيّع، مجانين، أولاد حرام، سرسرية، وبعد شنهو؟

وتتغير اللهجة، تصبح ساخرة:

ـ وأيضاً سياسيين، وأيضاً تفكرون بالثورات والانقلابات، لكن تخسون!

ويضرب السرير بقوة:

ـ والله العظيم، والله العظيم، لولا انكم نصف موتى لما خليت فيكم عظم صاغ، لكن بسيطة باكر أو اللي عقبة تتعافون وتشوفون!

وتراوده نفسه، من جديد، أن يلجأ للعنف، لكنه غير مفوض، ويخشى النتائج، يقول بسخرية:

ـ مَن أنتم حتى يتنازل مسعد، أبو فتيخان، ويسولف وياكم؟

وتتغير النبرة:

ـ لكن الله بلاني بكم ورماكم عليّ!

بهذه الطريقة تناقصت «خدمات» مسعد، أبو فتيخان، إلى أن توقفت، تقريباً.

الكسور في ساقي وفي الأضلاع، وحاجتي إلى المساعدة أقل من السابق، لكن دون المساعدة لا أستطيع شيئاً. ورغم أن هلال يقوم بهذه المهمة برحابة صدر ومودة تزيد يوماً بعد آخر، إلاّ أني أشعر بالحرج. قلت للطبيب ذات يوم:

ـ لو توصيهم، يا دكتور، لأنهم توقفوا تماماً عن مساعدتنا!

ـ سوف أُحاول، لكن هذول شورهم من راسهم أو من المعلمين فوق، ولا أحد يقدر عليهم!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ يلزم تحطون بأيديهم كم قرش!

وتستمر عمليات الترميم، بالنسبة لنا نحن الاثنين؛ فهلال الذي كسرت قدمه، وهو بالأساس، معطوب الكلية، كان يستعمل العكاز في تنقلاته، ويريد أن يبقى أطول فترة في مستشفى السجن، ربما من أجلي؛ وهم لا يكتفون بإلقاء نظرة علينا كل يوم، لكي يتحققوا من مدى شفائنا، كانوا يلاحقون الأطباء أيضاً. حتى مسعد الذي يبدو، في أحيان كثيرة، نكرة، ولا تتجاوز مهماته تنفيذ ما يطلبه منه الأطباء، أخذ يتنمر، قال للدكتور زياد بلهجة لا تخلو من تكبر وسخرية، لما طلب منه أخذي لقسم الأشعة، لتصوير القفص الصدري:

ـ ولازم ناخذه، يا دكتور، إلى حمام السوق وإلى المزيّن، ما دام هي روحة روحة!

نظر إليه الطبيب طويلاً، جرّ نَفَساً عميقاً، ولم يتكلم. أمّا حين رأى ابتسامته وقد اتسعت، فقد قال له:

ـ أنا المسؤول عن صحة المريض، وأنا الذي أُقرّر ما يلزمه، أما إذا كنتم تنظرون إليه باعتباره مجرد سجين فسوف أرفع يدي، وعندها تتحملون المسؤولية!

رد مسعد، وهو ينسحب:

ـ لازم اتلقى الأوامر من الملازم غانم، وبعدها يفرج الله، أمّا قبلها فيفتح الله!

رد الطبيب بقرف وحقد، وبصوت خافت أيضاً، بعد أن انسحب مسعد:

ـ وقح، ادب سيز، وفوق هذا جلاد ومجرم!

قال لنا الدكتور زياد، بعد أن تأكّد من غيابه، وأغلق الباب بنفسه:

ـ من أسابيع وهم يضغطون عليّ لكي أخرّجكم. . .

زفر مثل حوت وأضاف:

ـ الله بلاني وكانت قسمتي في هذا «المستشفى» المنكود. . .

وبعض لحظات، وبحزن:

ـ المنكود بالنسبة لي ولكم. . .

وأضاف كأنه يخاطب نفسه، لكنه يريد أن تصلنا الرسالة:

ـ لكن ما لنا إلاّ الصدق والصبر. . . وفرج من رب كريم!

ولم أصل إلى قسم التصوير، وظلّت أضلاعي، رغم مرور شهور طويلة، لا تؤلمني فقط، وإنما أحس أن روحي تخرج مع كل نَفَس. وفي محاولة لكي يخفف عليّ الدكتور زياد، وأيضاً ليبرّر موقفه، فقد قال لي بعد أيام:

ـ الأضلاع لا يمكن تجبيرها، فإذا كان فيها كسور أو رضوض، فاصبر وتحمّل، وهي وحدها ستلتحم!

وبدلاً من أن أصل إلى قسم التصوير، فقد جاءنا الشهيري!

كان مرحاً وقوياً، وكان ساخراً:

ـ أخاف صدّقتم انكم وجعانين وأن عندنا اجزخانة تداوي المفاليس!

كنا في وضع محايد تقريباً، كنا مضطجعين ونفكر بأشياء كثيرة، وقد تبادلنا أنا وهلال الأفكار والأحلام، والحيل أيضاً، وبالتالي كيف نواجه الأيام القادمة، ولذلك لم نكن مستعدين لأن نخاف أو أن ننفعل.

حين رآنا هكذا، طلب من هلال أن ينهض وأن يسير في الغرفة. لم يتردد هلال، نزل، التقط عكازه ومشى مرة وأخرى، قال الشهيري بفخامة:

ـ زين. . زين، صرت صاغ سليم، وهالحين يمكن تتزوج، ولازم نفرح بك!

وطلب مني نفس الطلب، لكني لم أستطع أن أؤدّي الدور، إذ بالإضافة إلى الرِجل المكسورة، فإنّي لا أستطيع التحرك بسهولة، فلما رآني هكذا، وكان مستعداً للانتظار، فقد قال بنزق وسخرية:

ـ كل شيء بوقته حلو، فراح اتركك كم يوم وأرجع، وعسى أن ألقاك بخير وسلامة!

قبل أن يخرج قال لهلال:

ـ حضّر روحك يا هلال، لأنّ على وجهك يمكن نشوف هلال العيد!

كان لدى هلال بعض الدراهم، استخرجها من جيب بنطاله، حاول أن يقنعني بأخذها، وحين تعذّر عليه ذلك، وضعها تحت الوسادة بقوة أقرب إلى

القسوة وهو يقول:
ـ أنا متأكد أنك ستحتاج إليها، حتى تخلص من الترجي وبذل ماء الوجه!
وبعد ذلك، وفي محاولة لتوضيح الموضوع، قال، وكان صوته حزيناً:
ـ أنت تعرف، هؤلاء الجلاوزة: الفلس أو الضرس، إما تعطيهم أو تطعميهم، حتى تأمن شرهم... وعسى الله يكفيك غدرهم.
وأخذوا هلال!
لم يقتنع عاشور أن يصبح مفيداً إلاّ بعد يوم طويل وشاق، وحين تأكّد أنني أملك مالاً! أمّا مسعد أبو فتيخان، فلم أستطع أن أصل معه إلى أية لغة للحوار. ظلّ واعظاً غبياً ومتعباً:
كان يأتيني بعض الليالي، ورغم الآلام والضيق، والحاجات الإنسانية، فهو يريد أن يتكلم، أن يخطب:
ـ وجهك، هذا الليلة، بارد، مثل طيز السقا، ويعلم الله كأن أجلك جا وراح تموت!
وحين أهز رأسي بعدم اهتمام يتابع بلهجة ناصحة:
ـ لك، يا حمار، يا ابن الأوادم، أحسن لك تعترف وتقول، بدل ما تظل معاند وميبس راسك!
وأصمت، لا أعتبر أن كلامه يستوجب الرد، يقول بحقد:
ـ يا ابن الحرام...
ولا يعرف كيف يتابع أو ماذا يقول. يضرب السرير مرة، ومرة ثانية، ويضيف:
ـ مية مرة قلت لكم: بطّلوا السياسة. صيروا أوادم. صيروا ناس وعالم، لكن الواحد منكم بطيزه دودة...
ويضحك، ويهز رأسه، يتطلع إليّ بريبة، يفكّر، ثم يضيف:
ـ بعدك، يا ابن الحلال، بأول عمرك، يمكن تتاجر وتكسب، يمكن تتزوج وتخلف، ويمكن تصير واحد زين وابن حلال، فشنهو اللي دهاك؟
وحين لا أجيب، أو لا أجد ما يستحق الرد، ويتأكد من ذلك، ينظر إليّ بحقد، ويقول:

ـ أنت حيوان. جمل أجرب، حمار مدبّر، ثور مطلوق؛ أنت واحد صايع وحرام فيك الخبز اللي تاكله، وعلم الله إذا حرّجوا عليك ما أحد يسومك بقرش أو قرشين، وفوق هذا وذاك متعّب روحك ومتعّبنا معك، لكن والله لأكسر خشمك واسوي بك اللي ما يتسوى إلى أن تتوب وتصير مثل الخلق والعالم، بس اصبر عليّ كم يوم!

وأسأله بسخرية:

ـ كم يوم يا أبو فتيخان؟

ـ وتعرف القشمرة ها؟

ويهجم عليّ، وحين يصلني يتذكر أن ضربي ممنوع في هذه الفترة، ومع ذلك لا بد أن يؤذيني بشكل ما، فيعضني. كانت العضة قوية إلى درجة أنه فزع من صرختي، وظلت علامة فارقة عند الكتف شهوراً طويلة!

وعاشور الذي تأكّد من وجود النقود يريد أن يستولي على «الثروة» بأسرع وقت، فبدل الزيارة الواحدة عدة زيارات في اليوم. وحين تأكّد أنني أنقل «الثروة» معي إلى الحمام، وقد بحث عدة مرات في الفراش ولم يجدها. بدأ يفاوضني على رؤية النقود فقط، مع أيمان غليظة أنه لن يمد يده إلى قرش واحد منها! وحين أذكر له رقماً يقول بلهفة:

ـ أنا أصدق كل ما تقوله، بس اصدّق عيوني أكثر!

ـ وماذا لو رأيتها؟

ـ قلبي من جوا يفرفح، وأفرح واجد إذا شفت الفلوس!

ـ هي لك ولغيرك أولها وتاليها!

ـ لغيري؟ مَن هو ابن الحرام اللي يقدر يمد يده وعاشور حي؟

ـ اتفقنا، هي لك وحدك، لكن تأخذها على أقساط، كل يوم اللي يقسمه الله.

ـ بس لو تخلي عيوني تشوفها، يا عمي!

قلت وأنا لا أستطيع أن أخفي سعادتي:

ـ الله يلعن الزمان اللي صرت فيه عمك يا عاشور!

ينتبه لموقعه وللدور الذي يستطيع أن يقوم به، تتغير هيأته ولهجته معاً:

ـ اسمع يا ابن العريفي. . ترى إذا صار معك قرشين لا ترفع خشمك،

ولا تقول فلاني وتركاني، لأنّ روحك بيدي، وأنا أقدر اسوّي ما يتسوى، وفلوسك كلها ما تفيدك. . .

ـ هي لك يا ولد العم!

ـ لا والله، هي للي تبرد كبده وتدفي قلبه!

ـ تعرف يا عاشور ما بيننا فرق، وإذا كانت معي اليوم فهي لك ثاني يوم!

ـ إذا شوف ما تشوّفني فكيف تريدني أصدّق وآمن؟

وينتهي هذا الحوار بأن أُعطي عاشور مبلغاً إضافياً زيادة على ما قرّرته لقاء المساعدة التي يقدمها لي. يقبل على مضض، مع تأكيد يردّده بإصرار:

ـ إذا وافقت معك اليوم تراها واقعة بينا باكر إذا ما ناظرت الفلوس بعيني!

لم أكن بارعاً في التعامل بالنقود أو كيفية التصرف مع الآخرين، لكن كلمات هلال، قبل أن يغادرني بدقائق قليلة، وقد بدأت دموعه تتساقط بغزارة للفراق، شدّتني، قال، وكان صوته مثقلاً بالحزن والدموع:

ـ ترى هذول ما يتأمنون، يسرقون الكحل من العين، فلا تعلمهم بالفليسات اللي معك، وعطهم قرش ورا قرش، وإلاَّ أخذوها لهف، وبعدها ما يبولون على يد مجروح، فاحرص منهم وتوق!

ولأنّ المبلغ بذاته قليل (إلاّ أنه في عالم السجن يبدو كبيراً وخطيراً) ويذوب يوماً بعد آخر، وقدّرت أن الإقامة هنا لن تطول، بعد تهديدات الشهيري، فقد بدأت أُهيّئ نفسي لاحتمال الانتقال. بعد أسبوعين على مغادرة هلال جاءني الشهيري مرة أخرى:

ـ ها، يا ابن العريفي، جاك عقل الرحمن أم بعدك متوّر؟

نظرت إليه وحاولت أن أبتسم، وفي محاولة لإغاظته قلت:

ـ أنا متأكّد انكم تدوّرون على واحد غيري، ومشتبهين بي، ويوم من الأيام راح تكتشفون الحقيقة وبعدها تندمون!

صرخ وقد أصبح كتلة من الغضب:

ـ اخرس، وكل خرا. . .

وبعد قليل وهو يتقدم نحوي:

ـ تريد تضحك عليّ؟ أنا أضحك على أجداد أجدادك!

صمتُّ وهززت رأسي، انتقل إلى الجهة الأخرى وجلس على سرير هلال، قال وخرج صوته مختلفاً:

ـ اسمع يا ابن العريفي. . .

كل هذي الأيام التي تعيشها زايدة، وأنت تعرف أن الحكم باعدامك صدر، وسمعته باذنك من شيخنا، وهذا الحكم راح ينفذ إذا ظليت ساكت مثل البومة، أما إذا حكيت فلكل حادث حديث، ومن رأيي أن تتكلم. . .

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ومن قبلنا قالوا: اقطع راس تموّت خبر، وأنا إلى هالحين مطول بالي، وأقول لنفسي اصبر يا رِجّال، لأنَّ العناد يوم والعقل كل يوم، ولا بد ابن العريفي يرده حليبه ويصير عاقل وآدمي ويعترف، أما إذا ظليت كديش ومحرّن فلا تلوم إلاّ روحك. . .

ولكي لا يدخل معي في مناقشة سريعة، نهض وهو يقول:

ـ اعرف أنك مقرّم، وما تقدر هالحين تحك راسك، فراح اخليك بعد كم يوم تفكّر وتدانش روحك، وبعدها إذا جيتك راح نذبحها على قبلة!

واقترب مني، قرصني من خدي بقوة لا تقل عن عضة مسعد، أبو فتيخان، وكأنّه يريد أن ينتزع قطعة من الخد، وقال قبل أن يغادر:

ـ يجوز بعد ما عرفتني يا ابن العريفي. . .

وحين ابتسمت بامتعاض، نتيجة قرصة الخد، وأيضاً استخفافاً بتهديده، أضاف:

ـ خذ بالك زين يا طالع: لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء، كما يقول الشاعر، فاحذر وتوق. . . وإلاّ!

قلت لنفسي بهمس، ثم بصوت عالٍ بعد أن خرج:

ـ اللي يطلع بيدك يطلع بطيزك، وأكثر من القرد الله ما مسخ!

اكتشفوا، ذات ليلة، أنني أصبحت قادراً على ترك العربة بمفردي واستعمال العكازتين! فبعد أن أصبحت على يقين أن إقامتي في المستشفى لن تطول، أخذت أتدرّب وأُهيِّئ نفسي للمرحلة القادمة. كنت أختار وقتاً اقدّر أن لا أحد سيجيء فيه، وغالباً ما أفعل ذلك ليلاً، إلى أن كانت تلك الليلة، إذ فتح مسعد الباب، مثل لص، وما كاد يراني أنقل خطواتي بصعوبة وبطء حتى شهق ثم جاءت كلماته الباردة:

ـ تاري المي جارية جوانا وحنا ما ندري!

وبعد قليل، وحين التقت نظراتنا:

ـ صار الفلو يسابق أُمّه ويسبقها! ها؟

وهزّ رأسه عدة مرات، ثم غادر.

في اليوم التالي جاءني الشهيري:

ـ عسى أن الله هداك؟

وحين صمتُّ تابع وهو يهز رأسه بأسف:

ـ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي مَن يشاء وهو أعلم بالمهتدين، صدق الله العظيم.

ثم فجأة تغيّرت لهجته، وكأنَّ إنساناً آخر، في داخله، أخذ يتكلم:

ـ وبعدين معك يا ابن العريفي، تحسبني ما أقدر أذبحك؟ تتصور نفسك قوي ولا أحد يقدر عليك؟

لأول مرة أرى الشهيري مغتاظاً وحائراً هكذا. قدّرت أنني إذا بقيت

صامتاً لا بد أن يرتكب حماقة أكبر من كل المرات السابقة، ولذلك لجأت إلى المداورة:

- والله، يا ابن الحلال، لو كان عندي شيء لقلته وخلصتك، وما كان عذّبت روحي ولا عذبتك، بس أنتم تريدون أعترف بشيء مالي علاقة به!

- لا تقول إلاّ اللي تعرفه، اللي لك به علاقة.

- اللي اعرفه، الله يسلمك، قلته.

هجم عليّ، لطمني بقفا يده على خدي لطمة قدحت الشرر من عيني، كنت جالساً في سريري فارتميت. قدّر أني لا أحتمل، ويمكن أن أموت بين يديه، وهو لا يريدني أن أنتهي في هذه المرحلة، إذ سوف تفشل جهوده كلها خاصة بعد هذا الترميم؛ تراجع إلى الخلف وهو يسحب نَفَساً عميقاً وحاقداً. قال وكأنّه بيّت أمراً:

- أنت أكبر كذّاب مرّ عليّ، لكن ما يخالف، أنا وياك والزمن بيننا...

ويعد قليل وهو يهز رأسه!

- حضّر روحك وعصّب عينيك!

بعد فترة قصيرة وُضعت على العربة ودُفعت. سارت العربة في دهاليز، قطعت مسافة طويلة، وصلت إلى مكان، فُتح باب، ومثلما تلقى القمامة: أمالوا العربة إلى الأمام وألقوا بي، ثم ألقوا ورائي العكازتين، أغلقوا الباب، وغابوا!

هذه الزنزانة لا تختلف عن غيرها سوى أنها أكبر قليلاً، وفيها فراشان متقابلان. بصعوبة زحفت حتى وصلت إلى الفراش القريب، وكان لا يتعدى قطعة من اللباد وبطانية شديدة القذارة ومليئة بالثقوب. الرائحة القديمة ذاتها، والضوء الكهربائي الذي لا ينطفئ ابداً.

كنت على يقين أن الشهيري اختار لي هذه الطريقة لكي أموت. سوف يتركني هنا بضعة أيام، ولأنّي عاجز عن القيام بأي شيء بمفردي، فلا بدّ أن أجف، وسأنتهي. قلت لنفسي: «هذه الطريقة للموت أرحم من غيرها» وتذكرت موتي السابق، قلت: «سأجبر نفسي على النوم، لأنّ الموت إذا جاء خلال النوم يكون أسهل وأكثر راحة!»

Twitter: @ketab_n

اضطجعت استعداداً للموت. أثناء الاستعداد تذكرت أشياء كثيرة، ولا أبالغ إذا قلت إنني تذكرت كل شيء، منذ أن كنت طفلاً صغيراً وحتى اللحظة التي غادرت فيها المستشفى. ابتسمت عدة مرات وأنا أتذكر، وحزنت عدة مرات أيضاً. لا أعرف كم مرّ من الوقت حين سمعت الضجة. انتبهت وتحفزت، كانت الأصوات والشتائم وبعدها فُتح باب زنزانتي وأُلقي فيها بشخص. نظرت إليه بإمعان، فتحت عيني أكثر لأتأكد، اكتشفت، أخيراً، أنه هلال معتوق!

إنَّ علاقات الناس داخل السجن تختلف عن أية علاقات غيرها. وإذا قدّر لاثنين أن يصبحا أصدقاء فإنَّ لهذه الصداقة جبروتاً يجعلها حالة من الوجد، وأقرب ما تكون إلى الاتحاد. حتى حالة الضعف التي يمكن أن تدمّر الإنسان في عالم الناس العاديين، فإنَّها في السجن تتحول إلى قوة خارقة. فأنا الذي اضطجعت منتظراً الموت، لم ألبث أن اكتشفت في داخلي قوة لا أعرف أين كانت ثاوية، وهي التي ساعدتني على تضميد جراح هلال أولاً، وساعدتني أيضاً لكي أتماسك وأُصبح إنساناً أقوى من قبل!

وهلال الذي ضربوه على ساقه السليمة، وجاء ينزف، وقد تورّمت هذه الساق، لم يتأخر لكي يستعيد قوته، حين عرف أنني شريكه في الزنزانة!

قد يكون صحيحاً ما قيل من أن الإنسان في السجن يُولد ويموت كل يوم، والولادة والموت قدر ما فيهما من مشقة ومعاناة، فإنَّهما يساعدان على الصمود والتحمل، لأنَّ الخلايا الجديدة تكون في حالة من العنفوان تستطيع

معها أن تقاوم، أن تتعامل مع كل طارئ، وتستطيع أن تطرد الخلايا التي هدمت ولم تعد قادرة على الاستمرار.

أصبحت يدا هلال السليمتان، لنا نحن الاثنين، وأصبحت أرجلنا السليمة، أو ما تبقى فيها من قوة، كافية لأن توصلنا إلى «الحمام». إذ حين تتماسك الأيدي ونبدأ تلك الرحلة الشاقة والطويلة، وكانت أقرب إلى رقصة العميان والعرجان معاً، إذ كنا نحجل، نقفز مثل الطيور، نستعين بالجدار، فقد كنا قادرين على الوصول. ولو قدّر للشهيري أن يراقبنا ـ ولا بد أنه يفعل ذلك ـ فسوف يضحك كثيراً، وبغيظ، حين يرانا هكذا!

وأن يكون إلى جانبك أحد في السجن تزداد قوة وذكاء مئات المرات، خاصة إذا كان ذلك الشريك من نفس القناعة وبنفس التماسك. كما أن خبرة الإنسان تزداد بوجوده مع الآخرين.

وضع هلال خلال اليوم الأول، وحتى منتصف اليوم التالي، كان صعباً، فلم يتكلم؛ لكن حين فعل، في الليل المتأخر، اكتشفت أنه أجّل ذلك بشكل متعمد. فقد كان على يقين أنهم يتنصتون علينا، ولا بد أن يقول لي أشياء ربما تكون وسيلتهم للدخول والانقضاض!

إنها الرسالة الأولى إذن، أو بالأحرى الثانية، وربما الثالثة:

فأن يختار الشهيري هلال ليكون رفيقي في المستشفى، وأن نبقى معاً فترة، وقد تأكّد من المساعدة التي قدّمها إليّ، ثم العلاقة التي قامت بيننا، وأن ينتزعه قبل شفائه.. ثم يعيده إليّ هكذا!

وأن يتركز التحقيق معه حول هذه الفترة وحولي: مَن أكون وأية أفكار أحمل وما دار بيننا من أحاديث، ماذا قلت له، وعن أي شيء سألته، لعل إجابته أو واحداً منها يفتح الطريق...

وأن يُجلد بسببي، وهو المريض وبهذا الوضع، ثم أن يؤتى به، مرة أخرى، إلى نفس الزنزانة، فلا بد لواحدٍ من هذه الطعوم أن يلقط ويصيد.

هكذا خطط الشهيري، وهو الآن ينتظر!

كانت إجابات هلال على أسئلتهم أنه كان مريضاً موجوعاً، وأنني كنت معظم الوقت نائماً، وفي لحظات الصحو ليس لدي سوى الأنين، نتيجة الآلام، ولذلك لم نتبادل أكثر من التحية، ولولا مسعد لما استطاع أن يعرف

حتى اسمي. . . إن إجابات من هذا النوع، رغم براءتها، لا يمكن أن تقنع أحداً، أو كما قال له الشهيري:

ـ هذا الكلام تقنع به الأولاد الصغار وليس رجالاً شابت قلوبهم ورؤوسهم مثلنا!

ولم يُتعب الشهيري نفسه كثيراً: بعد الجلد، وأن نكون في نفس الزنزانة، لا بد أن يؤدي إلى شيئين اثنين: الحقد والشك، وأن واحداً منهما فقط يكفي! إذ لا بد أن يمتلئ هلال حقداً عليّ، لأنيّ كنت السبب في ما ناله من أذى، وسوف ينتقم بشكل ما. وأن أبقى أنا في حالة من الشك يمكن أن تخلف فجوة قد يستطيع الشهيري أن يتسلل منها!

تركونا فترة، فقد كنا أقرب إلى الجثث، لا نتحمل أية «حفلات» جديدة، وربما كانت لدى الشهيري أعمال أخرى شغلته عنا! وما عدا التهديدات التي كان يتبرع بها الحرس، أو يكلفون بنقلها، وكانت تقترن، بعض الأحيان، بالنصائح أيضاً، فإنها إحدى فترات النقاهة التي مرّت علينا في سجن العبيد.

وإن نشعر بهذا المقدار من الراحة، وأن يكون لدينا هذا الوقت الطويل، لا بد أن نجد ما نتحدث فيه.

ذات ليلة بدأتُ حديثاً عن قضية. كنا مضطجعين ووجوهنا متقابلة، وما كدت أسمّي بعض الأسماء، وأذكر بعض التفاصيل، حتى اعتكر وجه هلال واحمرت عيناه، هكذا رأيت، أو هذا ما افترضته في وقت لاحق، إذ صرخ وهو يضرب الأرض بقبضته:

ـ كفى!

للحظات لم أستوعب هذا الموقف. جفلت. تطلعت إلى الباب وتطلعت حولي، قال هلال، وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ هذه الأحاديث مملة ولا تعجبني!

وساد بيننا صمت ثقيل.

لأول مرة أشعر أنني غير مفهوم، خاصة من قبل رجل افترضت أن أشياء كثيرة تجمعنا، وأثق به إلى هذه الدرجة. حين رآني هكذا ابتسم ابتسامة صغيرة، وقال، وخرج صوته همساً:

ـ من الأفضل أن نتحدث عن أمور مسلية، حتى نستطيع أن نوازن عالم السجن بعالم الأفراح الخارجية وإلاّ ضاعت علينا الدنيا والآخرة!

ظللت حائراً، ماذا يريد أن يقول هلال، وأي شيء حصل لكي يتكلم بهذه الطريقة؟ اقترب مني أكثر، لم تعد تفصل بيننا إلاّ مسافة قصيرة. تنصت جيداً، لما تأكّد، قال:

ـ اسمع يا طالع: لدي من الهموم ما يكفي ويزيد، ولذلك إما أن تصمت أو أن تغيّر الموضوع، لأنّي لا أطيق!

ولكي لا أبقى في نفس الدوامة ضرب كتفي بمودة وقال:

ـ ما رأيك لو نغني؟

وأخذ يغني. كان صوته جافاً، لكنه لا يخلو من حنان وحزن، ولم يكن حافظاً كلمات الأغنية بدقة، أو ربما كان يحوّرها لكي تبدو أكثر مرحاً!

بعد فترة، وحين رآني بعيداً، وقد امتلأت بالتساؤلات والظنون، قال، وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ أفضل شيء أن ننام، والصباح رباح!

ولم يمهلني، التفت إلى الناحية الثانية، وخرجت الكلمات من فمه بشكل آلي:

ـ تصبح على خير!

انقضت سنوات طويلة، وقد تنقضي أخرى، ووجه هلال، عيناه بشكل خاص، لا تفارقني. كان صغير الحجم، لكنه يحمل نبالة الإنسان وقوته وجدارته. يعرف كيف يتكلم، كيف يوصل فكرته، ومتى يجب عليه ذلك. لا يتعب، والابتسامة دائماً على شفتيه، لا يعرف الملل؛ يفعل من أجل الآخرين كل شيء ويشعرهم أنه لم يفعل شيئاً أبداً!

هكذا كان هلال، ولا أدري لماذا أتكلم عنه الآن بصيغة الماضي، فهو شديد الوجود، حاضر أبداً، وكأنّه جبل لا يغادر مكانه.

المهم أننا نمنا تلك الليلة، وفي الصباح لعبنا لعبتنا اليومية بكفاءة أعلى من الأيام السابقة، إذ أصبح الواحد منا بحاجة إلى الحد الأدنى من مساعدة الآخر. ولا أعرف لماذا فضّل الصمت طوال فترة الصباح، أمّا بعد أن وزع علينا الغداء، وقبل أن تمتد يده إلى صحنه بدأ يتكلم:

ـ ربما يكون هذا الوقت أنسب الأوقات للكلام، فالجميع مشغولون بالأكل أو بما له علاقة بالأكل...

وبعد قليل وبهمس:

ـ لديهم قناعة أنك شخص مهم، ولديك معلومات كثيرة، وهذا ما جعلهم يحرصون عليك إلى الآن. إنها مجرد تقديرات وشكوك. هذا ما لمسته من خلال التحقيق، ولذلك أريدك أن تبقى صامتاً، كما كنت حتى الآن، سواء أكنت كذلك أم لا.

تطلعت إلى هلال باستغراب مازجه بعض الشك، هل يحتمل أن يكون قد أجّل لعبته حتى الآن، ويريد أن يعرف رد فعلي؟ كيف سأتصرف؟

ولم يتأخر:

ـ حتى الآن لم يستطيعوا أن يأخذوا مني شيئاً، لكني أبقى إنساناً، ولا أعرف إلى أي حد يمكن أن أحتمل، ولذلك لا أريدك أن تقول لي ما تعرف، لكي لا أحمل عبئاً جديداً، هل فهمت سبب غضبي أمس؟

وهكذا تعلمت درس الصمت مرة أخرى، وكان بالنسبة لي أهم الدروس على الإطلاق!

لم تمضِ أيام حتى جاؤوا:

ـ طالع العريفي عصّب عينيك وحضّر نفسك!

وضعوني في عربة المعوقين، وأخذوني إلى السرداب.

الرائحة ذاتها، والصمت خشن ومختلف عن المرات التي خلالها كنت في السرداب وحدي، أجلسوني في مكان، وتكررت تحذيراتهم:

ـ أبداً لا تتحرك ولا تلتفت!

بعد أن غابوا أحسست أنني لست وحيداً، قدرت ذلك من الأنفاس، من الحركة، وأيضاً من آهاتٍ صعدت بلوعة ثم تبعها دعاء بصوت صاخب:

ـ يا مَن تسمعون. «نحن الآن في منازل البلوى وقبور الأحياء وتجربة الصديق وشماتة الأعداء»[1] فاصبروا، لأنَّ الحق معنا والشعب معنا والله معنا!

---

(1) الدينوري، عيون الأخبار، ص 59.

وبعد أن هلّل وكبّر، وكاد يتابع، سمعنا الركض والهياج والصراخ: لقد وصل الجلاوزة! وقبل أن يتأكدوا مما حصل انهالوا بالعصي والكرابيج، وبكل ما وصلته إليه أيديهم، على هؤلاء الجالسين المعصوبي الأعين. كانوا يضربون ويصرخون كالوحوش. لم يوفروا أحداً، ولم ينج أحد، وبعد أن تعبوا وهدأوا قليلاً وصل الشهيري.

لا أعرف ما إذا أُبلغ بما حصل أم لا، فالصمت الذي انفجر رأساً أعطى للسرداب قوامه كاملاً وأعطاه الرائحة إيّاها. أما عندما بدأ صوته، فكان كالقائد الذي يستعرض غنائمه، أو كالمفتش الذي يداهم مدرسة ابتدائية:

ـ هذول اللي ما يجون بالكلمة الزينة والمرحبا راح يشوفون شيء ما شافوه بحياتهم كلها، وراح الواحد منهم يقول: ليتني مت قبل هذا!

هل كان يوجه إليّ الكلام؟ يعنيني بالدرجة الأولى؟

دون كلمات، ولا بد أنه أشار، اقتادوني إلى الطاولة إياها. ربطوا قدمي، لكنهم فعلوا ذلك بطريقة مختلفة عن أية مرة سابقة، وتركوا يدي دون قيود!

ما كادت أولى الضربات تقع على قدمي، حتى صرخ الشهيري بطريقة مسرحية غاضبة:

ـ هذا ما جاء دوره، يا أولاد الحرام، خلوه، هالحين!

فكُوني عن الطاولة، وفكُوا العصابة عن عيني.

كان في السرداب أربعة رجال وامرأة. رأيتهم جميعاً، ورأيت الجلادين، ورأيت الشهيري ايضاً!

سوف أحتاج إلى ملكة خارقة لإعادة رسم البشر الحقيقيين، والمخلوقات الشائهة، والملوك المزيّفين. أعترف أنني غير قادر، لأنَّ أشياء بهذه الكثافة، بهذه القباحة، وبهذه القسوة لا يمكن أن تُصوّر أو أن تنقل، ولو بشكل تقريبي، فقد كانت حالة من الجنون لا تتوقف، ولا يمكن أن توصف!

كنت متلهفاً لمعرفة صاحب الدعاء. حاولت أن أقدّر، كانوا متشابهين إلى درجة استحال عليّ معرفة أي منهم، وتأكدت هذه الاستحالة، أصبحت مطلقة، بعد أن رُبطوا، الواحد بعد الآخر، وانهالت عليهم الكابلات.

والمرأة.. هل يمكن أن يجلدوها أيضاً؟ وبنفس الطريقة؟ كنت خائفاً من هذا الاحتمال إلى درجة الرعب!

كان وجهها بين الأحمر القاني والبنفسجي، لكثرة ما تلقت عليه من الصفعات. كانت فتية، عبلة، وكان صوتها قوياً كالجرس.

إذا قُدّر لي أن أرزق يوماً ما بابنة فإنَّ اسمها جاهز: سلوى.

لا أستطيع أن أقول الكثير عن المجلودين. الأول كان قوياً كأنه سمكة طازجة. ساعدته صحته لكي يحتمل الكثير، وكانت إرادته جزءاً من هذه الصحة. حين أنزلوه عن الطاولة كان بين الحياة والموت، جروه من يده كما تجر الجثة.

الثاني، وبعد الجلدات الأولى، هرَّ كثمرة لم تجد أي مبرر للبقاء فوق الشجرة، فسقطت مع أول ريح. قال الشهيري بفرح لم يستطع أن يخفيه:

ـ إذا جاك العقل وتريد تعترف فخذوه، وانا، بس أخلص مع الجماعة، وراكم!

قام مفزوعاً يبحث عن طريق لكي يهرب. مدَّ يديه، على طولهما، في الهواء، طالباً أن يقبضوا عليه، وأن لا يخطئوا، فهو يريد أن يصل إلى هناك!

أمّا عندما جاء دور المرأة، وكانت تعرج قليلاً، فقد شعرت أن الدنيا تشتعل. لم يبق كوكب في هذا الكون إلاّ وتزلزل، ولم تبق نجمة إلاّ هوت وتفحمت. كانت الدنيا ترتج وتصطخب، وزادها أكثر ذلك الكبرياء الذي شق الهواء مترافقاً بصلابة لا يعرفها إلاّ الشجعان.

حين بدأت تمشي زادها العرج في رجلها حزناً وبهاء. والعنفوان الذي أرادوا كسره وإذلاله بدا شامخاً مليئاً ومعافى. سارت معهم قوية وكأنّها الحياة.

رُبطت مثل الآخرين على الطاولة.

كنت في تلك اللحظات، أنظر إليها وأنظر إليهم. كنت أتمنى، في تلك اللحظات، لو أمتلك قدرة خارقة للتدمير، أن أدمّرهم أو أن أُدمّر نفسي، وإذا لم أستطع فلا أقل من أن تمتلك عيناي وذاكرتي طاقة على رصد ذلك الذي يجري، وإمكانية استعادته دون توقف وإلى الأبد!

كنت وأنا أراها تُرفع إلى الطاولة هكذا، وكأنَّ ذلك العظيم يمتطي

البراق، أو تشبه الخضر على حصانه، ولا تختلف أيضاً عن متعب الهذال وهو يعتلي ناقته ويمضي!

سوف تمر ألف سنة والسؤال الذي لا يبرح خيالي، والذي يجعلني مسلوباً حائراً، ومملوءاً بالذنب إلى آخر الأيام، هو: كيف استطعت أن أرقب كل هذا الذي جرى أمامي ولم أنبس بكلمة؟ كيف بقيت صامتاً ومذعوراً طوال تلك الساعة السوداء؟ كيف لم أصرخ؟ لم أبكِ؟ كيف..

وهؤلاء القتلة لم يكونوا يضربون ساقين، قدمين، جسداً... كانوا يجامعون، يستمنون، كانوا يشعرون بلذة لا يخفونها. رأيت ذلك في عيونهم، وكانوا كثيراً ما يلتفتون، وكانوا أيضاً يمدون شفاههم، فتبدو مثل المجاديف! وكان جسد سلوى، وقد عرفت اسمها حين نادى عليها الشهيري أكثر من مرة، كان جسدها يهتز، يتحرك، يتغير كما هي الحياة. كانت سلوى تصرخ، كانت تصرخ، مثلي: «آخ يمه... آخ يمه».

آه كم كنت جباناً، ولا أريد أن أقول نذلاً. كانت الضربات مثل الصعقات الكهربائية. كنت أغيب، أشعر باقتراب الموت، برغبة التقيؤ. وكانت وجوه القتلة، خاصة الشفاه، كالأعضاء الجنسية. وكان ذلك الملك الأشوه، العربيد، يشير بيده، وكأنّه نسيني تماماً، بأن تُضرب على ردفيها، وضربة من هذا النوع تجعلها تهتز كحية، كزلزال، ويبدو أن ذلك يجعله يشعر بلذة أكبر!

يجب أن أمتلك قدرة استثنائية ليس لتصوير ما حصل، وإنما لاستعادته. فكلما تمثلت لي سلوى أحس أن الدنيا توشك أن تنتهي.

كيف يمكن لإنسان، لحيوان، لمجرد كائن، أن يتعامل مع امرأة بهذه الطريقة؟ كانوا أربعة جلادين، اثنين يتقدمان واثنين وراءهما، لكنهم كالنسور، كنت أرقب أرجل اللذين في الخلف، تحفزهم، انتظارهم للدور.

وسلوى، حبة العين وروح القلب، وكل الأمل، سوف تمر دهور قبل أن تتمخض الحياة عن امرأة مثلها. كانت قوية كصخرة، كانت صامدة كجبل، وكانت أيضاً امرأة تبكي. كانت تصرخ بحزن، بفرح: آخ يمه آخ يمه.

بعد أن سال الكثير من دمها، وملأت الأرض قيئاً، وحين قدر

الشهيري احتمال موتها، أو حين انتهى من استمنائه عليها، أمر بأن تُفك عن الطاولة.

كيف أستطيع أن أصل إلى بعض الكلمات التي تقول أي هول أصابني، أية آلام نزلت بي، وأي جنون؟

وإذا كنت قد حفظت بعض الدروس، ليس من المعلمين الرسميين، وإنما من أُمّي وجيراننا، من أولئك الناس الذين غابوا، من الحياة، ثم من هلال معتوق، وأخيراً، لا. . لن يكون هذا الدرس الأخير، من سلوى، فكيف أستطيع أن أبقى بعد ذلك صامتاً كشيطان أخرس، أو أن أبقى عاقلاً كما لو أني اقرأ كتاباً أصفر أو أستعيد حلماً قديماً خابياً؟

لتهبط السماء بكل ثقلها وغضبها على هذه الأرض الصفراء الكابية، لتجعلها رماداً؛ لأنها لم تتعلم كيف تنتفض بين مدة وأخرى وتجدد نفسها. لتحل اللعنة على ناس هذه الأرض لأنهم تردّدوا وخافوا من قول لا للظالم، للمجرم، لذاك الذي يقتل البشر دون أن يرف له جفن؛ لينقطع المطر سنة وراء سنة عن هذه الديار حتى يهجرها ساكنوها ويهيموا، من جديد، في البلاد الغريبة، لأنهم لم يعرفوا كيف يحافظون على كرامتهم، وكيف يدافعون عن أنفسهم.

لكن كل ذلك، تحقق أو لم يتحقق، شأن يخص الله والمستقبل، أمّا أنا فقد ظللت كسلحفاة خائفة أُحاول أن أتقي نظرات الشهيري، وإذا تجرأت فأوجه إليه الشتائم بصوت لا يخرج من اللهاة، وادعو الله أن يحل المشكلة نيابة عني وعن جميع البشر، وأشارك، بالقلب وحده، سلوى وهي تتلوى، ثم وهي تُسحب، وحين قال الشهيري، كإله سومري، «اعيدوه» شعرت بالفرح لأنيّ نجوت!

ما كادت بوابة الزنزانة تُغلق ورائي حتى غرقت في موجة من البكاء لم تنته إلى الصباح. وهلال الذي كان لابداً في فراشه مثل قط، منتظراً عودتي، ما كاد يراني في هذه الحالة حتى أصيب بالخوف، وبدل أن يسألني ماذا حصل معي أخذ يقلبني كما يقلب خروفاً، في محاولة لتضميد جراحي، لرتق الشروخ وسد الثقوب: لقد تركز اهتمامه حول جسدي، أما روحي التي كانت تطير في كل مكان، ولا تعرف كيف تتوقف أو تستقر، لأنّها تحس كل

شيء حولها، تحتها، جمراً فإنّه لم يكتشف هذه الروح إلاّ في وقت متأخر!

من بين دموعي والنحيب عرف أن الذي يجعلني مجنوناً حزيناً، ولا أكف عن البكاء، هو أني رأيتهم يجلدون امرأة، وبنفس الطريقة! وكيف أن المرأة صمدت واحتملت، في الوقت الذي سقط رجل ربما كان عمره ووزنه ضعف عمرها ووزنها. لما عرف صرخ، ربما في محاولة ليعيدني إلى حالة طبيعية:

ـ أنت بسيط، ولا أريد أن أقول كلمة أقسى، إذا افترضت أن «الشباب» يفرّقون بين رجل وامرأة. إنهم جلادون...

وربما ضحك وهو يحاول أن يوضح أكثر:

ـ ولا تستغرب أبداً إذا رأيتهم يجلدون بعضهم، وربما بقسوة أكبر. إنهم يفعلون ذلك كأوامر، في البداية، ثم كواجب، وأخيراً يحترفون!

ولأنّي لم أكن في حالة يمكن أن أُناقش هلال، بالاتفاق أو بالاختلاف، فقد تابع وحده وكأنّه يلخص أفكاره كلها:

ـ أكثر هؤلاء أصبحوا مرضى، ومعطوبين، ولذلك يجب أن نتعامل معهم بالفضح والتحدّي، وأيضاً بحقد إنساني، إذا صحّ مثل هذا التعبير.

وبعد قليل وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ لقد كان هؤلاء أدوات لغيرهم، ولكنهم شيئاً فشيئاً بدأوا يعملون لحسابهم أيضاً!

في وقت ما، وبعد أن تأكّد هلال أن المشكلة غير عضوية، فقد قال بطريقة لا تخلو من استفزاز:

ـ طالع... القضايا التي تشغل البشر أكثر أهمية وصلابة من مجرد جلد امرأة.. فتماسك!

وبعد قليل وبمحبة:

ـ طالع، يا عيني، يا حبيبي، إسأل أية امرأة كم تلاقي من الجلد في هذه الحياة، وفي كل يوم. إنها تُجلد منذ لحظة الميلاد، اللحظة التي يُقال فيها: «بنت» ثم من طريقة المعاملة، وأخيراً من خلال اعتبارها مجرد مجالٍ حيوي أو صيغة للخدمة المجانية والمتعة!

ربما كانت أفكار هلال جديرة بالاهتمام، بغض النظر عن مدى

صحتها، لكنني كنت في عالم آخر: هل يمكن أن تبلغ القسوة والخسة ببعض الناس ليصلوا إلى هذا المستوى؟ هل هم مرضى؟ أليس لهم أخوات وزوجات، وهل يرضون أن يعاملن بهذه الطريقة؟ وإلى متى ستبقى الأمور هكذا؟ حين رآني ملتاعاً حزيناً، والدموع في عيني، قال لي بنزق:

ـ طالع.. إذا بقيت هكذا سوف تهزم أية فكرة وكل شجاعة في نفسك ولدى الآخرين...

وحين نظرت إليه باستغراب، قال، وهو ينظر إلى الجهة الأخرى:

ـ المنطق، العدالة، الإنسانية، والمثل التي تفكر فيها، رغم أهميتها، وأيضاً ضرورتها، فإنّها لا تعني هؤلاء، ولذلك يجب أن نفكر بطريقة أخرى..

وحين صرخت بانفعال، وكانت في صرختي بقايا دموع، فقد ردّ:

ـ الأفضل أن نناقش هذا الموضوع غداً..

ولم يترك لي مجالاً، قال بحدة:

ـ تصبح على خير!

ـ أي خير نترجى أو ننتظر يا هلال!

ولم يجب!

كنت خلال هذه الفترة أكثر رغبة في الموت، أو بكلمات أدق، لم تعد الحياة تعني لي شيئاً مهماً وخطيراً، خاصة بعد العذاب الذي عانيت منه، وبعد الذل الذي سحقني.

كما أصبحت مشغولاً بهؤلاء الجلادين: أي بشر هم؟ هل يمكن أن يأكلوا بالأيدي ذاتها التي كانوا يضربون بها؟ وكيف تخرج الضحكات من نفس الأفواه التي قذفت هذا الكم الهائل من الشتائم البذيئة؟ وتجاه مَن؟ تجاه أُناس ممزقين، غائبين عن الوعي: رجال بائسين وامرأة عرجاء توشك أن تموت؟ بعد أن يقوم الجلادون بمثل هذه الأعمال، كيف يمكنهم أن يغازلوا نساءهم، أن يهدهدوا أطفالهم؟

كانوا يبدون لي في أحيان كثيرة بشراً مشوهين مخترقين، السوس نخرهم والعطب أتى عليهم فأصبحوا رجالاً من التبن: ضخاماً، بأصوات عالية، لكنهم في الداخل مجوفون، يحتقرون أنفسهم، وربما جبناء أيضاً، وإلاّ كيف لا يجرؤون على ضرب أي واحد إلاّ بعد أن يقيّدوا يديه وساقيه؟ وأية بطولة أو شجاعة في قتل البشر بعد ربطهم!

كانت الصور وهي تتبدى لي، وهي تتلاحق، تجعلني أحس بالغيظ إلى درجة البكاء، فإذا قدّر لي أن أعيش، أن اصبح حراً مرة أخرى، فسوف أقول لجميع الناس، بصوت عالٍ، وربما ببعض القسوة واللوم: الجلاد لم يولد من الجدار، ولم يهبط من الفضاء، نحن الذين خلقناه، نعم نحن الذين فعلنا ذلك، وبإصرار أبله، تماماً كما خلق الإنسان القديم آلهته؟ خلقناه، في

البداية، رغبة في النظام السهل، ثم تواطأنا معه لإخافة الصغار والغرباء والأعداء، إلى أن أصبحنا نتساءل عن مدى قدرته، ومدى الحاجة إليه، وعند ذاك بدأنا ننظر إليه بحذر ونصمت، ثم بدأنا نخاف منه ونعلن، إلى أن وصلنا إلى الامتثال والطاعة والرضا، وأخيراً إلى التسليم!

ومثل الإله، بعد أن خُلق استقل وابتعد. ثم أخذ يخلق لنفسه رموزه وشخوصه وطريقته في التعامل مع الآخرين، أصبح وحده الذي يمنح البركة، ووحده الذي ينزل العقاب. وكل مَن يتساءل أو يعترض فهو الآبق المارق الهرطوق؛ وهكذا توالت التقديمات له، ثم الأضاحي والنذور، ومنه تطلب المغفرة ثم الرضا فالبركة، ومَن لا يمتثل أو مَن يختلف فلا بد أن يُقاطع، ثم يرجم، ثم يحجر عليه، وهكذا وُلد السجن!

ومثلما بنى الإله أول سجونه دون أسوار، فإنَّ الإله الجديد بنى سجوناً لا عدَّ لها وسوّرها.

وتماماً مثلما الإله سخّر هذا الكم الهائل من الملائكة لكي تتجسس على البشر، وتنقل إليه ليس فقط ما حصل، وإنما ما يدور في القلوب والعقول من رغبات وأفكار، وقبل أن تصبح فعلاً، هكذا تعلّم الأقوياء أنهم بهذه الطريقة وحدها يمكن أن يحموا أنفسهم، وأن يواجهوا أولئك الذين يريدون هدم ما شُيِّد خلال فترات طويلة! ولذلك بدل السجن الواحد أُقيمت مئات السجون، وبدل قوي واحد وُجد أقوياء كثر، وحسب حجوم تتلاءم مع أهميتهم. بهذه الطريقة توالت السجون واتسعت وامتدت، فطغت على المدن وتجاوزتها إلى ما ورائها، وتزايدت إلى درجة بنى كل إنسان لنفسه سجناً صغيراً يذهب إليه يومياً، وبمحض رغبته، للتعبد والتعود، ولكي ينتهي من هذا الواجب الذي يثقل ضميره!

ومثلما للحارس حارس آخر، وللاثنين آمر للحرس، فقد زاد الحراس إلى أن ملأوا المدينة. وكان هؤلاء يتقاضون أجورهم من المحروسين. من الطحانين ودباغي الجلود وبائعي الدجاج والباحثين عن عمل، وأيضاً من الزّراع والحاصدين والذين يبنون المراكب، ولم ينسوا الرعاة والصباغين ومرممي البيوت والذين يعملون في الحراج. كانت الأجور على شكل أموال ومواد. ويمكن أن تقبل الخدمات أيضاً لكن يوماً بعد آخر أصبح الحراس هم الذين

يفرضون ما يريدون، فملأوا المدينة صمتاً وضجيجاً، وملأوها طرباً وبكاء، وأصبحوا وحدهم الذين يحسب لهم كل حساب!

حين وصلت الأمور هذا الحد، قال الناس: وصلت النار إلى بيوتنا! وبذلوا كل ما يستطيعون من أجل إطفاء النار وإرضاء الذين يوقدونها في الليل لكي يوجهوها إلى أماكن أخرى، إلى جهات أخرى، لعل الحظ يسعفهم فلا تصل إلى بيوتهم. لكن إذا وافق الذين يشعلون النار، فإنّ الريح قوية وعصية على أي ترويض، وهكذا بدأت النار تصل إلى كل البيوت. وأغلب الأحيان بشكل مفاجئ، لأنّ لا أحد يحزر على الزوابع أو يتحكم بها، ولأنّ هؤلاء الذين يوقدون النار تتغير أمزجتهم!

ثارت حرائق كثيرة، قتلت أناساً لا عدّ لهم. وأُطفئت حرائق كانت كبيرة، وقيل إن أمطار السماء تدخلت في الوقت المناسب وساعدت على إطفائها! ووقعت حوادث كثيرة نُسبت إلى مجهولين، وطويت؛ وقيل إن حوادث غيرها وقعت، وحين لم يُعرف فاعلوها نسبت إلى مَن يحتمل أن يكونوا «الفعلة أو المحرضين» واقتص منهم!

وهكذا أصبحت موران مدينة الحرائق والمغدورين!

لا بدّ أن أتوقف. يجب أن أصبح حجراً، أو صندوقاً فارغاً، أو أتحول إلى قنفذ يعرف جيداً كيف يخبئ نفسه لحظة الخطر، وإذا تجرأت أكثر مما ينبغي فلا بد أن أتعلم كيف يتحول الإنسان إلى مخلوق أخرس أو فاقد للذاكرة؛ وإذا اضطررت للكلام فعليّ أن أتكلم كالخرفين الذين هدّتهم الأيام ومتاعب العمر ونقص التروية!

لقد نظَرت لما يكفي جيشاً مهزوماً قوامه خمسون كردوساً، وفيه قادة كبار، وأصحاب نياشين كثيرة؛ وقلت ما يزيد أو يحتاجه ثلاثة أجيال، من عصور مختلفة.

هل أنا الذي رأى، كما قال جلجامش؟

أغلبنا رأى وجميعنا نعرف، لكن الخَرَس أصابنا والجبن هدنا، ولذلك لا بد من الطفل الذي رأى عري الملك فصرخ، لا بد أن نصرخ، أن نحتجّ.

وإلاّ كيف خرستُ كثعلب لابدٍ للفريسة، كدب ميت، كعنقود جاف، ولم أقل كلمة، كلمة واحدة، وهم يجلدون سلوى؟

لأصبْ بلعنة لا تفارقني؛ لأصب بالبرص وبالجذام، وأيضاً بالسعال طوال كل الليالي؛ ولترافقني الكوابيس حتى آخر أيام العمر، أنا الذي حاولت أن أهرب من الموقف الحقيقي، وليمتلئ جسدي كله بالبثور وبالحك الدائم، ولا أستطيع أن أستعمل أظافري، لعلّي أعوض، أنا الشقي، أو لعلّي الآن أكفّر، بأن أكون شجاعاً، ولو مرة واحدة في العمر!

كانوا يجلدون سلوى وأنا صامت. كانوا يجلدونها وأنا لا أتحرك. كانوا يفعلون ذلك دون خوف دون تردّد، لأنهم لم يجدوا أحداً يخافونه، لم يسمعوا كلمة، نأمة، نظرة غاضبة!

يقول لي عادل الخالدي: اكتب.

أرد عليه بمداعبة: الكلمة الأصح: اقرأ.

يهز رأسه ويجيب: اكتب لكي يقرأوا!

ماذا يمكن أن أكتب يا عادل؟

أتريد أن تمزّقني أكثر مما أنا ممزق؟ أن تجعلني راية قديمة، حذاء لم يكلف أحد نفسه النظر إليه؟

إذا تحوّل الإنسان إلى شاهد أخرس، إلى شاهدة قبر، إلى شيء عقيم، فعندئذ يفقد مبرراته كلها!

هل أنا فيلسوف أو منظّر؟ وماذا أريد أن أقول لكم؟

يجب أن تمتلكوا مقداراً كافياً من الشجاعة، وأن تقولوا لي: اخرس أيُّها الجرذ المسكون بظلمة الخوف، لأنك لم تتكلم في الوقت المناسب، والآن تحاول أن تبيّض صفحتك وتبيض علينا!

هل أحب التنظير وإعطاء المواعظ والدروس؟ وهل وصلت بي الوقاحة لأن أفعل ذلك؟

الحق أقول لكم: كنت جباناً إلى درجة لا أغفرها لنفسي، وإذا أردت أن أشعر بالعزاء والأمل، فلا بد أن أطلب منكم شيئاً واحداً: لا تكونوا مثلما كنت. اقهروا الخوف في داخلكم، وإذا استطعتم أكثر من ذلك فاقتلوه!

ومع ذلك، يجب أن تعرفوا، يا أيُّها الناس: آدم من ضلعه خلق المرأة، لأنَّها وجهه الآخر، خياله في الظل والمرآة، أما نحن، أبناء المتوسط، في هذه المرحلة، وفي محاولة لأن نقلد أبانا القديم، فلم نستطع أن نخلق سوى

الجلاد، فتحنا له الطريق وتلقيناه بكل الرضا.

والآن كثيراً ما أقول لنفسي: حين يتغير البشر، حين تتغير الحياة، يختفي الجلاد!

مرة أخرى أُحاول أن أكون منظراً لكن رغم أنفي، وكصيغة من صيغ الحرية التي تسري في عظامي؛ أُحاول أن أُفسّر، نظرياً وكأمنيات، وجود الجلاد، وربما طريقة التخلص منه، لعلي أصل إلى حالة من التوازن مع هذا الواقع الذي لا يتوقف لحظة واحدة عن التغير!

احتملتم مني الكثير، أعرف ذلك، ولنبقى على قدر من الثقة والود، إذا أمكن، فاسمعوا ما حصل في اليوم السابع بعد جلد سلوى، لتعرفوا سبب جنوني:

كان يوماً ربيعياً، أقدّر ذلك فيما لو حسبت المدة التي قضيتها في تلك الزنزانة، ثم ما تلاها من أيام، بما فيها فترة المستشفى؛ وأقدّر ذلك أيضاً من تلك النضارة الطافحة على وجه الشهيري وهو يدخل الزنزانة. كان متألقاً، ولا بد أنه خرج قبل وقت قصير من حمام دافئ، إذ كانت تفوح منه رائحة عطرة هي مزيج من الصابون وزهر الليمون وربما البخور أيضاً.

أتذكر، كان اليوم سبتاً، دخل يلوّح بمسبحة صغيرة لونها أحمر مقتول، والأغلب أنها من المرجان، تطلّع إلينا في محاولة قراءة أخيرة. هزَّ رأسه عدة مرات وسأل:

ـ ها. . صرتم أوادم أم بعدكم حمير؟

صمتنا، لم نجب، ولا أعرف ما إذا ابتسم هلال تلك اللحظة أم تراءى ذلك للشهيري، أو ربما ادعاه لكي يستفزه ويجد مبرراً. تقدم نحوه بغضب وسأله:

ـ وتضحك، يا ابن القحبة، ما عاجبك، ها؟

وبكل قوته ضربه بكعب رجله على صدره، فاصطدم رأسه بالجدار. دوى الجدار وأضاء لقوة الضربة وارتدادها. هزَّ هلال رأسه أكثر من مرة، وكأنه يستعيد نفسه من مكان بعيد، وحين تمالك نفسه من جديد، قال، وكانت الكلمات راجفة وغاضبة:

ـ أنا أُمّي شريفة، يا شهيري، وأنت تعرف من هو ابن القحاب.

ـ وعندك لسان تحكي، يا منافق، يا كذاب ها؟

وهجم عليه، لكنه توقف في اللحظة الأخيرة، إذ التفت نحوي فجأة، وكأنّه لم يتوقع وجودي، أو ربما صدرت عنّي حركة فجفل وتحسب!

تراجع قليلاً وبحرج. فتح الباب الذي كان نصف مغلق، وصاح:

ـ يا دريبي، يا فتيّح، تعالوا.

ومثلما تسري الكهرباء سرت نداءاته وطلباته. وخلال ثوانٍ قليلة كانوا يسدّون بوجوههم باب الزنزانة! ومثل الديك الذي يتبختر بدلٍ وغوى بين دجاجاته، قطع الشهيري الزنزانة مرة وأخرى. كان يوزع نظراته بيننا وبين رجاله. يبدو بعيداً وقريباً في آن واحد. وهو بمقدار ما يريد أن يفاجئنا يريد أن يدهش الذين يرقبونه. في لحظة ما توصّل إلى ما يعتبره المفاجأة المدهشة:

ـ هالحين صار لك لسان. يا ابن معتوق، وتشتم، ها؟

ابتسم بسخرية وأضاف:

ـ تتصور أنك إذا ما حكيت، إذا ما نطقت: خبر ومات؟ لا مَنْ حَسّ ولا من دري؟ ما تعرف أن جماعتك، مثل طير الهدهد، يأخذون خبر ويردون خبر؟ هالحين تشوف بعينك.

والتفت إلى رجاله وطلب بجفاء:

ـ هاتوا لنا محيسن!

ولم يتأخر محيسن، كان أصفر، مسلوباً، أقرب إلى الدمية، ما كاد يرى الجميع حتى بدأ يرتجف. طلب منه الشهيري أن يجلس مقابلنا وغير بعيد عنا. بعد تردّد جلس: عيون زائغة، والعطش يكاد يقتله، وظل يرتجف أيضاً سأله الشهيري:

ـ مَن هو هذا؟

وأشار إلى هلال

ـ هلال معتوق، سيدي؟

ـ متأكد!

ـ اي نعم، سيدي!

ـ زين. . زين وهذا هلال معتوق شنهي وظيفته بتنظيمكم الزق؟

ـ كان مسؤول منظمة الأطراف.

ـ وشنهو يعني الأطراف، يا محيسن؟
ـ الأطراف، سيدي، المنظمات الموجودة خارج مدينة موران!
ـ وعلاقتك به؟
ـ كنت عضو ارتباط، وكان يكلفني بمهمات.
ـ ما قولك، دام فضلك، يا ابن معتوق؟
ـ........
ـ وهذا الاعتراف اللي قلته هالحين يا محيسن قلته بمحض إرادتك ورغبتك ودون ضغط أو إكراه، أم أن أحداً فرضه عليك؟
ـ بإرادتي، سيدي!
ـ سمعت يا ابن معتوق؟ هذا خويك، وناظره زين، اعترف وقال، ومثله مثايل..
وبعد قليل وقد تغيّرت لهجته:
ـ شنهو قولك هالحين، تعترف أم تظل ثور متنّح؟
ـ........
ـ زين.. زين، تقرّب منه يا محيسن وتفاهم معه بالتي هي أحسن، وإذا تريد نتركك أنت وهو، وحدكم!
التفت محيسن إلى الشهيري برجاء عبّرت عنه العينان المتوسلتان والصوت الكابي أن لا يتركه على انفراد مع هلال. قال، وفهمت كلماته بصعوبة:
ـ بوجودكم سيدي، لأنك لا تعرف شنهو اللي يوسوس له الشيطان!
هزّ الشهيري رأسه أكثر من مرة، ثم فجّر مفاجأته:
ـ عندما كان رئيسك لا بد أنه أهانك، شتمك، سوّى بك اللي ما يتسوى، فأريدك، هالحين، تنتقم منه، فقم وسنّعه: بكف، بدفرة، بتفلة، حتى يعرف قيمته ويحصد اللي زرعه!
وحين أبدى خوفاً وتردّداً صرخ فيه صرخة شقته تماماً، قام كما يقوم السكارى، وتفل وهو يقول:
ـ كله منك يا هلال!
كانت البصقة جافة، سقطت في حوض هلال، الذي تحوّل إلى صخر

كتيم أصم، كان لونه بلون النحاس المحروق، وعيناه بلون الليل الحزين.

في يوم ما، إذا خلق فنان في بلادنا، وعرف معنى القهر والغيظ معاً، ولحظة التحدّي أيضاً، فسوف يجسد لحظاتٍ لا يمكن أن تتاح لأي فنان آخر في العالم!

بعد هذا المشهد أخذ محيسن يرتجف، وبدا شديد الحيرة والخوف معاً، فهو لا يعرف ما إذا انتهت مهمته أم لا، لا يعرف مدى رضا الشهيري ومدى اكتفائه بما تم أم أنه يريد منه المزيد، ولا يقوى، في الوقت نفسه، على مواجهة هلال.

انتهى المشهد بأن قهقه الشهيري، وقال بثقة ورخاوة معاً:

ـ الله يعطيك العافية، يا محيسن، وهالحين رح، في أمان الله، وخلنا نشوف تاليها مع ابن ها الحرام، خويك، ابن معتوق!

يجب أن أتوقف، أن اخترع وسيلة للتعبير، جديدة ومختلفة عن كل ما هو موجود، لأنَّ اللغة، هذه العاهرة التي يتداولها الجميع، لا تسعفني، لا تقول، أبداً، ما حصل.

ومع ذلك، لأحاول أن أقول شيئاً، وإن يكن كسيراً بائساً شديد الفقر.

بعد أن سُحب محيسن، كما يسحب المتسول، وبقي الباب مفتوحاً، ويحتشد فيه الجلاوزة، ضحك الشهيري فجأة، وقال بطريقة مسرحية:

ـ هالحين أريد اعطيك الفرصة الأخيرة يا هلال.

ظلَّ هلال مطرقاً، غائباً، بعيداً، عصياً، وكأنَّه تمثال من عصور قديمة. لم يتحرك، لم يلتفت، لم يهتز.

تابع الشهيري بنفس اللهجة:

ـ صرت بالنسبة لنا مثل راحة الكف: مكشوف؛ وحقك، هالحين، رصاصة لكن الرصاصة بك حرام، وما اريد اوسّخ يدي بدمك.

وقهقه، كما لو أن أحداً يكركره، وبعد أن استراح أضاف:

ـ وهذا خويك الثاني، ابن العريفي، حطّينا بظهرك حمل حمار حتى تحكي عليه كلمة فرفضت، فتخير واحد من اثنين: إما تشتمه وتطلّعه من طيز كلب، أو تسطره بكف والثاني، وبعدها، وخذها من هذا الشارب، أخليك تعيش العمر كله. . .

استراح قليلاً ثم أضاف:

ـ يمكن أن أنساك، افترض أنك مثل حجر، اخليك بمكان وارجع بعد سنة أو ميّة، والقاك، فشنهو قولك؟

ظلّ هلال على حاله، لم يتحرك ولم يتغير.

والشهيري، إذا تعلمت شيئاً عنه خلال الفترة الماضية، فإنّ الصمت يستفزه، يقتله. سأله من جديد:

ـ اسمع مني زين.. زين، يا ابن معتوق: إذا أنت عنيد شبر أنا عنيد ذراع، وإذا تصوّرت روحك جمل فاللي قدامك جبل، فخلنا نفضّها على خير...

وتغيّر، أصبح عصبياً أقرب إلى الهستيريا:

ـ قم، يا ابن الحرام، قم وسنّع هذا المطي، اللي تتصوره خويك، كف والثاني، وعفا الله عما مضى. وإذا ما سويتها، والله لأسويك خبر بعد اثر، ولأخلي كل مَن يصل سجن العبيد يتذكر معتوق مثل ما يتذكر اسمه!

في وقت متأخر، وفي محاولة لاختراق هذا الجدار الأصم، افترضُ أن هلال، أثناء هذا الحديث، كان ميتاً، فلم يتحرك ولم يتغير. وإلاّ فإنّ شيئاً ما كان يمكن أن يحدث!

لكن هذا الظن البائس، وربما لشفاء علّةٍ في داخلي، لا يقوى على الصمود، ويعجز عن الدفاع. فحين أشهر الشهيري مسدسه، ثم حين عمّره، ظلّ هلال على حاله، لم يتحرك ولم يتغير. أمّا وهو يتقدّم نحوه، ولما وضع فوهة المسدس عند صدغه، ولا بد أنه ضغط بقوة، فقد رفع إليه عينين لا يمكن لأي كلمة في الكون أن تقولها، أن تعبر عنها. كانت النظرة احتقاراً، استهتاراً، تجاوزاً، وكأنّها لا تراه!

في هذه اللحظة بالذات تأكّدت أن هلال معتوق لم يكن حياً فقط، كان مملوءاً بقوة البذرة التي تعرف أنها تواجه الشتاء لكن لا ترى سوى الربيع. وأيضاً بتفاؤل شجرة التين التي تترك أوراقها تتساقط، لأنّ أوراقاً أخرى، فتية وشديدة الخضرة، تنتظرها وستأتي!

إن نظرة هلال الخاطفة، الساخرة، المتسائلة، الفتية، وخلال ثوانٍ، أو أقل من ذلك بكثير، قالت كل شيء. كانت ثابتة، مستقرة، وشديدة

اللمعان. وقالت ما لا يمكن أن يقوله أي شيء على هذه الأرض.

الشهيري لم ير، لم يستوعب. كان مثل ديك مخصي، يرفع رِجلاً ويضع الأخرى، وينظر إلى جلاوزته، إلى أعماقه، ويريد أن يفعل شيئاً. وحين ظلّ هلال صلباً كعود الرمان، قوياً كخيط الحرير، وثابتاً كالأرض أو الجبال، ومسترسلاً كالأنهار، فقد اعتبر الصمت تحدياً أكبر من كل الكلمات، ورأى هذا الصامت أمامه مثل مسلة في عينه.

فجأة صرخ مثل امرأة على وشك الوضع:

ـ اسمع يا ابن معتوق: اعطيك هالحين، آخر فرصة، إما أن تصير آدمي، أو...

وبعد قليل وهو يرتجف:

ـ راح اعد للثلاثة، فإذا ظليت معنّد، والله لأخلي دماغك يفرش الحيط كله!

ومط «ثلاثة» كما يمط اللعاب في حلقه الجاف، وهو يعد، لكنه فجأة انفعل.. ولا أعرف أي شيء حصل بعد ذلك!

أتذكر أن طلقة، ثم ثانية. أتذكّر أن شيئاً انفجر، وكان أقوى من الطلقة، ثم انحنى جسد هلال، انطوى، كما لو أنه يركع للصلاة، كما لو أنه يوشك على النهوض، ومثل ضوء يملأ الفضاء. أتذكر أن شيئاً مثل هذا وقع، وأتذكر أيضاً أن الشهيري بعد أن دوت رصاصاته، غادر بسرعة، وربما كان يركض، وربما فعل الآخرون مثله.

غبت بعد الطلقات، وبعد أن هرب الجلاوزة. وحين أفقت في وقت ما، وجدت أن الباب كان مردوداً ولم يكن مغلقاً. لكن وجدت أيضاً أن هلال لم يكن موجوداً. وكانت بدلاً عنه كومة من الفراش وآثار من المياه، وعلى الحائط بقايا من دماء وأشياء أخرى!

ليس لدي إلاّ القليل لأقوله بعد هذا!

صحيح أن فترة السجن استمرت لعدة سنوات أخرى، وكان بعضها قاسياً صعباً، لكن لم تعد شيئاً بالنسبة لي منذ اللحظة التي قرّرت فيها التحدي من خلال الصمت.

أتذكر أن الشهيري جاءني بعد شهر من اغتيال هلال. لم يأت وحيداً، كان يحيط به عدد من رجاله، ومع ذلك كان مرتبكاً:

- ها، يا ابن العريفي، فتح الله عليك أم بعده عامي قلبك؟

نظرت إليه بسرعة ولم أجب، تابع:

- الظاهر بعده: الحصان خالك، وظني أنك أبد ما راح تصير آدمي...

ابتسم ثم أضاف وهو يهز رأسه:

- إذا ظليت ميبّس راسك ترى دواك عندي، والدوا، هذه المرة، ما هو فشكة، وكفى الله المؤمنين القتال.. لا، راح أموتك ألف موتة، راح أموتك كل يوم!

رددت بسخرية مبطنة:

- تقدر تسوي كل شيء، بس أنا اللي عندي قلته، وأعتبر نفسي مظلوم.

- كلكم تردّدون نفس الاسطوانة، لكن يجي يوم تبينّ فيه القرعة من اللي عندها شعر. والعجلة من الشيطان..

وبعد قليل، وهو يبتسم:

ـ وحنا، الله يسلمك، بالنا طويل!

هزَّ رأسه عدة مرات وكأنَّه استعاد لحظات انفعاله آخر مرة، قال، وبدا أقرب إلى الناصح.

ـ حتى ذاك المسكين جنى على روحه، وعناده هو اللي قتله...

زفر وصدرت عنه أصوات أقرب إلى التأوهات، ثم تابع:

ـ اي نعم، عناده اللي قتله، وأنا أبد ما كان ببالي أن اذبحه، لكن بعدما اعترف عليه خويه، وأنت سمعت وشفت بعينك وبعد ما أنكشف السر كله، ظلت عينه مثل عين القحبة لا ترف ولا تنكسر، ولو أنه قال كلمتين ثلاث كان عفينا عنه، وكان إلى هالحين حي يرزق. لكن:

وحين لم يجد لدي أي تعليق تغيّرت لهجته:

ـ وهالحين شنهو قولك يا ابن العريفي، تريدني أساعدك أم تريد تموت موتة كلب؟

نظرت إليه ولم أجب.. هزَّ رأسه وقال بنفاد صبر:

ـ هذا آخر كلام أقوله لك يا طالع، واسمع مني زين: إذا عندك شيء تقوله فأنا كلِّي آذان، أما إذا لا فحضّر روحك، لأنَّك من هنا تروح لزنزانة الموت!

أُخذت إلى زنزانة الموت، وهي أصعب من الزنزانات التي قبلها؛ قضيت هناك سنة وثلاثة شهور، ولكني احتملتها، وخرجت.

أُعدت مرة أخرى إلى سجن العبيد، أجروا معي تحقيقاً جديداً، لم يكن الشهيري المحقق هذه المرة، كان واحداً آخر. وقرروا في النهاية أن أُرسل إلى المهاجع.

حين أعطوني ملابس السجن، وأصبح لي رقم، ثم حين دخلت إلى المهجع وأصبحت مثل السجناء الآخرين، شعرت أنني أُولد من جديد!

قضيت في المهاجع خمس سنين، عرفت خلالها الكثير وتعلمت الكثير. عرفت أن الشهيري قُتِل في حادث سيارة، وقيل إنه انتحر! وعرفت أشياء أخرى كثيرة جعلتني أنسى غيرها وأتيه بعيداً. نسيت لحظات العذاب التي

وقعت عليّ، وتذكّرت أن الآخرين تعذبوا أكثر مني، وبعضهم مات تحت التعذيب. تذكّرت سلوى أكثر من أية فترة سابقة، وتذكرت هلال، وكنت، كل ليلة، قبل أن أنام، أغنّي لهما الأغاني التي تعودت أُمّي أن تغنيها لي لما كنت طفلاً صغيراً!

وفي هذه الفترة بدأت تقلقني الأخبار التي تصل من الخارج: الخلافات، الصراع، الانقسامات! ولذلك بذلت، مع الكثيرين، أقصى الجهود لكي نحافظ على أنفسنا أقوياء، وأن نبقى بعيدين عمّا يجري خارج السجن، ما دمنا غير قادرين على تغييره.

انقضت خمس سنين نُسينا خلالها. لكن موران تلك المدينة التي تعرف كيف تصبر وتتحمل، جاءتها في ذلك الربيع نوبة من نوبات الجنون، ولذلك اضطرت إدارة السجن أن تضاعف نزلاء كل مهجع، وحين لم تكفِ المهاجع لاستقبال القادمين بعثت بعدد كبير إلى السجون الأخرى، وكنت من الذين ارسلوا أوّل الأمر إلى السجن المركزي، ثم إلى سجن الأجانب؛ وفي هذا السجن قالوا لي:

ـ أنت بالأساس لست من موران، لم نجد لك قيداً، ولم نجد لك أصلاً، ولا يشرفنا أن تبقى بيننا، ولذلك سوف تُسفّر!

وهكذا سُفّرت. طوفت في أماكن عديدة، إلى أن وصلت إلى هنا!

لم أُفكّر بالكتابة، ولست متأكداً ما إذا كانت مفيدة أم لا، خاصة بعد أن تردّت الأحوال إلى هذه الدرجة، ولكن عادل الخالدي، هذا الفأر القارض، الذي لا يعرف الراحة، والمملوء بأوهام الكلمة، يتصور أننا إذا تكلمنا جميعاً، إذا كسرنا جو الصمت، وعرف الناس ما يجري حالياً، وما قد يجري لكل واحد منهم غداً، فلا بد أن تتغير الأمور!

استطاع عادل الخالدي أن يقنعني بأوهامه وحملني على الكتابة؛ عدت إلى أيام وحالات كنت أتمنى لو أنساها، أن أتجاوزها، لكن ما ذنبي إذا كانت هكذا؟ وأي عيب فيما لو رأى الناس جروحي وملابسي القذرة؟ وماذا لو سمعوا الصرخات والآهات!

في محاولة لأن أتوقف أقول لنفسي: «يجب أن نتحرر من أسر الماضي، وأن ننظر إلى المستقبل، أمّا أن نظل نقتات من الذكريات، وأن نعرض عيوبنا

وتشوهاتنا أمام المارّة، وكأنّنا نستنجدهم. فإنّه لا يليق برجال يحترمون أنفسهم».

حين أقول لعادل شيئاً قريباً من ذلك يصرخ:

ـ ولكن ما هو الإنسان إذا لم يكن له تاريخ وذاكرة؟

يصمت قليلاً مفكراً حزيناً، ثم يتابع:

ـ أهم صفات الإنسان أنه حيوان له تاريخ، وأنه الوحيد من بين المخلوقات الذي يتعلم الكثير من تاريخه، معتمداً على ذاكرة يمكن أن يورثها للآخرين؛ ومن الجنون أن يُدفع ثمن ما هو مدفوع سابقاً...

وبعد أن يتمشى في الغرفة يجلس على طرف سريري، ينظر إليّ بعينين مليئتين باللوم، ويتابع:

ـ إذا كتبنا عن معاناتنا، عن ذلك الوكر الأسود المشؤوم، فلا لكي نظهر بطولاتنا، وإنما لكي نساعد الآخرين، ونجنبهم ما عانيناه، فنحن على وشك أن نمضي، وهم سيبقون بعدنا، وهذا ما يدعونا لأن ننبّه، لأن نحذّر، قبل فوات الأوان، وأنت تعرف أن الحياة دون حرية، دون كرامة، لا تستحق أن تعاش.

وأهز رأسي موافقاً، لكنه لا يقتنع، يؤكّد بإصرار:

ـ إذا سُجّلت تجارب البشر بصدق، وعرفت البدايات والنهايات، فلن يجرؤ أي إنسان، نعم أي إنسان، لأن يكون جلاداً أو سجاناً، إذ سيعرف ماذا يمكن أن يحل به إذا أسقطه جلاد أو سجان آخر.

ورغم قناعتي بما يقوله عادل، فأنا أخاف من الوجه الآخر:

ـ وماذا لو خاف الناس وتحسبوا بعد أن يروا هذا الكم الهائل من الموت والقيء والدماء؟

ـ يجب أن يروا ذلك وأن يعرفوه جيداً لكي يعملوا من أجل وقفه، من أجل منعه!

ـ وهل يستطيع ذلك الخائفون؟

ـ الخوف، أغلب الأحيان، لحظة وينتهي، وبعد ذاك يبدأ الغضب.

ـ ولكن الخوف، يا عادل، في أحيان كثيرة، يشل الناس، يمنعهم من الحركة، وفي أحيان كثيرة يبالغون فيما ينتظرهم، وربما هذا ما يريده الجلاد!

ـ يمكن أن نتفلسف إلى ما شاء الله يا طالع، ومقابل كل حجة تأتيني بمثلها، وينتهي العمر ولا نفعل شيئاً سوى الندم!

ـ لا أعرف، لست متأكداً، ربما لأنّي متعب، وأقرب إلى اليأس!

ـ هل بدأنا نتبادل الأدوار؟

وبعد قليل غام وجهه، سافر بعيداً، وجاءني صوت وكأنّه لم يكن صوته:

ـ نخطئ كثيراً يا طالع إذا تخلينا عن آخر الأسلحة التي نملكها، الكلمة، ولا بد أن نحسن استعمالها؛ إذ ربما تكون وسيلتنا الأخيرة، وقد تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الأسلحة الأخرى، ولذلك فإنَّ المهم أن تكتب، أن تقدم شهادة، أن تقول أي شيء كان السجن، لكي يعرف الناس ماذا ينتظرهم غداً أو بعده إذا لم يبادروا ويفعلوا شيئاً!

استسلمت أخيراً، استجبت لما أراده عادل، لكني لست راضياً، ومع ذلك سأسمع ما يمكن أن يقوله عن هذه الأوراق، سوف نتناقش طويلاً، وفي كل الأمور، وعندما تبدأ رحلة الجبل، وفي فترة النقاهة سوف أعيد الكتابة مرة أخرى، وربما ثالثة، لكي يعرف الناس ما هو السجن، وحين يعرفون لا بد أن يفعلوا الكثير من أجل أن ينتهي عصر السجون!

ولكن ماذا عن السجون الأخرى، السجون التي في داخلنا، والتي نحملها معنا أينما ذهبنا؟

عليّ أن أستريح، أشعر بالتعب، وأشعر بالمرارة، ولا بد أن أستريح الآن!

هوامش أيامنا الحزينة

«لقد آن أوان القول»

وأنا المثقل بالحزن والهم حتى حواف الروح، آن لي أن أقول، أن أتكلم. قد أُخطئ، وربما لا أكون واضحاً، قد يساء فهمي، وربما تدور حولي الظنون، لا يهم، إذ لم يعد هناك شيء أحرص عليه، ولم يبق لي شيء، ولم يتبق مني، فلماذا أظل صامتاً؟

لست متشائماً، رغم الحزن الذي يحاصرني. أُحاول أن أجد قمراً أو نجمة، أبحث عن أمل وعن بشر، ولا بد أن أجد وأن أصل، وقبل أن أمضي لا بدّ أن أعضّ، كما يقول رامبو، على بنادق الجلادين القتلة، أعرف أنهم أقوى مني، أكثر شراسة، وسوف لا يترددون في أن يطلقوا عليّ الرصاص، إذا تلقوا الأوامر، وقد يفعل واحد منهم ذلك متبرعاً، بحجة أني شتمت الدولة، أو بدون حجة، لكن لا بد أن يأتي مَن يأخذ بثأري، مَن ينتقم. وإلى أن يصل الآخذون بالثأر، المنتقمون، يجب أن أقول، أن أتكلم!

ولكن ما فائدة الكلام؟ وهل لا يزال هناك متسع من الوقت؟

أسأل نفسي السؤال الذي طرحه عليّ طالع، وأجيب كما أجاب هملت:

«آه، ليت هذا الجسد الصلد يذوب
وينحل إلى قطرات من ندى
يا ليت الأزلي لم يضع شريعته
ضد قتل الذات، رباه، رباه.

ما أشد ما تبدو لي عادات الدنيا هذه.
مضنية، عنيفة، فاهية، لا نفع فيها
ألا تباً لها، تباً لها».

لا أريد، على الأقل الآن، أن أقتل نفسي، رغم تعب الجسد وسأم الروح، ولا بد أن أحسن التصرف بما تبقى لي من قوة ومن أيام، ويجب أن أستفيد من وجودي في هذه المدينة.

حلمت كثيراً، حلمت طويلاً أن آتي إلى باريس. كنت في ليالٍ كثيرة، أُغافل الحرس وأنسلّ، دون حقائب وبلا جواز سفر، وأتنقل بين مدن العالم التي قرأت عنها. كنت أحرص على أن تكون باريس محطة لي في الذهاب والعودة. كنت أريد أن أحمل مقداراً كبيراً من جنونها وجرأتها، وأن أتعلّم منها كيف استطاعت، وبوسائل لا حدود لها، بالقوة مرة، وبالمكر مرات، أن تروّض حكامها، أن تفتح ثغرات في عقولهم وقلوبهم. أمّا الذين لم يستجيبوا، الذين أبوا واستكبروا فكانت ترسل بهم إلى المقاصل والمنافي ليتعلموا هناك آخر الدروس، ولقد تعلّم غيرهم أكثر مما تعلموا!

وكنت أيضاً أريد أن أتعلم من بشر هذه المدينة: كيف يفكرون، كيف يتصرفون، ولماذا أصبحوا هكذا، ولماذا ظلّت عمورية مدينة للصمت والموت والانتظار، وناسها احترفوا الصبر وهجروا الحياة وامتلأوا حنيناً إلى جنة السماء!

هكذا كنت أحلم وهكذا كنت أُفكّر.

الآن تبدو لي باريس مدينة مثل باقي المدن: مغلقة، قاسية، ولا تخلو من سخرية مترفعة. صحيح أنها لا تمانع في استقبال الغرباء، بمَن فيهم المهزومين، لكنها تفعل ذلك بعدم اهتمام، أو تفعله بوقار يصل حدود الجلال، ولا تتردّد في أن تستفسر أو تتساءل، وببرود غالباً: لماذا أنتم هنا وإلى متى؟ وتسأل أيضاً بسخرية ودون أن تنتظر الجواب: وماذا تستطيعون أن تفعلوا هناك من هنا؟

والسؤال حين يكون جافاً، أو وهو يلقى دون اهتمام، يصبح عدواً ساخراً. والغرباء، خاصة إذا كانوا من المرضى أو اليائسين، حين يسألون هكذا، أو حين لا يجدون مَن يستمع إليهم، يشعرون أنهم ثقلاء وزائدون. أما

إذا كانوا، فوق ذلك، من الفقراء، أو الباحثين عن عمل، ولا يملكون من المواهب سوى شهادة السجن، فعندئذٍ يصبحون مكروهين وغير مرغوب فيهم!

وفي أية مدينة غريبة، لكي يكون الإنسان مقبولاً أو مرغوباً، يجب أن يكون قوياً أو غنياً، لا يهم مقدار الغنى أو حجم القوة، الأكثر أهمية أن يحسن إظهارهما، وأن يعرف كيف أو متى يستعملهما!

وهكذا أصبحت في باريس أكثر ضياعاً!

لكن أنيس لم يترك لي فرصة للتردّد:

ـ المهم الآن أن تشفى.

ـ والمهم أيضاً أن تبعدني عن مستشفيات الدرجة الأولى، كما أُحب أن أكون في الغرفة مع آخرين، لأنّي سئمت الوحدة.

ـ لك ما تريد!

ـ ثم أن ما تدفعه اعتبره ديناً، ولا بد أن أُسدّده، وفي أقرب فرصة.

ـ موافق.

قالها وهو يبتسم ويتطلع إليّ بنوع من العتاب. ولأن دروس الماضي، خاصة أيام السجن، أعطته فكرة كافية، فقد تصرف بحصافة، وهكذا توصلنا إلى معادلة مقبولة.

لكن باريس، هذه المدينة الآكلة، فإنّها بمقدار ما تعطي نفسها، فإنّها تبقي بينها وبين الغرباء مسافة، ولا تتردّد، بعض الأحيان، أن تكون جافة وشديدة الخيلاء، خاصة حين يتأبط الغرباء أحزانهم وهمومهم ويدورون في الشوارع وكأنّهم يعرضون أنفس ما يملكون!

كنت وأنا أتيه في شوارع المدينة، وينظر إليّ الناس ولا يرونني، أشعر بالتعاسة والحزن، لكن اكتشفت، بمرور الأيام، أن الناس لا يرون إلاّ ما يريدون، وهم ليسوا معنيين بهموم الآخرين وأحزانهم، لأنّ عندهم، ربما، ما يكفيهم منها أو ما يشغلهم عنها، وهكذا فرض الحل المنطقي نفسه:

عالمان وأمتان. فعمورية تبقى هناك وباريس هنا، وعلى أهل عمورية أن ينتزعوا أشواكهم بأيديهم، لأنّ ليس مَن ينتزعها لهم!

وبمقدار ما أُحاول نسيان الماضي، والبدء من جديد، فإنّ الماضي

يطاردني، يتلبسني، يضع يده في يدي، كعاشقين، ويجبرني على أن نرتحل معاً كل يوم!

أحاول أن أهرب منه، أن أضيعه في أزقة الحي اللاتيني، لكن ما أكاد أخطو بضع خطوات، إلاّ وأراه كامناً لي في واحد من المنعطفات! كان يمد لي لسانه بسخرية وتشف كأي صبي قليل التهذيب، ونترافق من جديد في شارع أو اثنين، وفجأة ألتفت إليه، وأقول له بنزق أقرب إلى الشتيمة: «اتركني يا أخي، حلّ عني» وما نكاد نفترق، متخاصمين، وقد شعرت ببعض الحرية، لأني تخلصت من هذا العبء، حتى أجده ينتظرني على كرسي في الحديقة العامة التي قررت أن أستريح فيها، وحين تلتقي نظراتنا نبتسم لبعضنا، نشعر بضعف، بشوق لا يوصف، وخلال ساعة أو تزيد نستعيد الأحزان والذكريات، ولا نترك يوماً من الأيام القديمة إلاّ ونجره من شعره ليكون ضيفنا، فإذا انتبهت أقول لنفسي بقسوة: «احذر أيُّها الرجل الهالك، يجب أن تنسى، أن تقطع. كن حازماً، ولو لمرة واحدة، كي تستطيع أن تبدأ من جديد، وإلاّ أصبحت مستودعاً للأحزان والشؤم والخراب». وأقتنع، وأبذل جهداً لعلّي أنسى الماضي، أن أخلفه ورائي، لكنه، بمقدار الوداعة التي تميزه وهو يوافق على كل ما أطلب وأقول، فإنّه شديد البراعة وهو يموه نفسه بأشكال وصور لا حصر لها، فقط لكي يبقى معي. إنه مثل الهواء أو مثل ملامح الوجه، لا يمكن أن ينتهي. ربما لا أراه في بعض اللحظات، وقد يسهو أو يغيب، لكن لا بد أن يعود. وإذا استطعت طرده أو نسيانه خلال النهار، فإنّه في الليل، وبحجة أنه يخاف الظلمة والأمكنة الغريبة، لا يتركني، يتشبث بي كطفل طالباً مني أن أهدهده وأن أحميه، فأُوافق!

أتذكّر أنني قلت لنفسي وأنا أضع قدمي على سلم الطائرة مغادراً براغ: «وداعاً أيُّها الماضي، وداعاً لا لقاء بعده». كنت أعني الكلمات في تلك اللحظة، كنت صادقاً ومصمماً، وكنت حزيناً أيضاً. وشمخت وجوه أصدقاء المستشفى وأصواتهم: جوليا ومايا ورادي، الدكتور ميلان ورادميلا، تذكرت كوبكا، صرخت: «انسى يميني إن نسيتك أيُّها الرجل ـ الأرض، يا مَن تعطي الآخرين أغلى ما تملك» وتساءلت: كيف يمكن للإنسان أن يتخلى ويقطع بهذه الحدة؟ وإذا أراد هل يستطيع؟ والأشياء الصغيرة التي ساهمت في

أن أكون هكذا، والتي تراكمت عبر آلاف الأيام والليالي، الأفكار والأحلام والذكريات، وذلك الدفء الإنساني الذي كان في فترة ما، وأيضاً الجنون الذي عربد في رأسي خلال سنين وسنين، هل يمكن أن ينسى كل هذا أو يتم التخلّي عنه؟

وبين محاولة نسيان الماضي، والبدء من جديد، ضعت. صحيح أن المدينة الجديدة سيطرت عليّ وسحرتني، وتهت في معالمها وتاريخها، لكن كنت أحس دائماً أنها مدينة الآخرين، مدينة الذين ولدوا فيها وتوارثوها أباً عن جد، لأنهم هم الذين صنعوا كل شيء فيها، وبالمقابل كانت عمورية البعيدة الغارقة في أحزانها لا تفارقني. وإذا كانت عمورية هكذا الآن، فلا بد أن تأتي أيام وتتغير، تصبح أكثر رحمة بأبنائها والذين يأتون لزيارتها أو يلجأون إليها، لأنّ المدن، بالنتيجة، وبالدرجة الأساسية: البشر. وما دام بشر عمورية الآن يحملون هذا المقدار الهائل من الأحزان والقهر والمذلة، فإن الروح غائبة أو هامدة، والأجساد متعبة، والهواء الثقيل لا يزال يملأ جنباتها كلها، لذلك لا تقوى عمورية على إعطاء أنبل ما عندها.

وأكتشف باريس أكثر، أتعرّف عليها، ولكن أظل أتذكّر عمورية باستمرار. آه يا مدينتي، كم قسا عليك البشر، وبشرك بشكل خاص، كانوا ينتقمون من أنفسهم وهم ينتقمون منك، وكانوا يوجهون إليك السهام في الوقت الذي كان يفترض أن توجه لصدور بذاتها، لأنّها هي التي أذلّت المدينة والناس، لكن «الناس في بلادي» لا يعرفون، لا يدركون إلاّ في وقت متأخر، وهم كثيرو التسامح حتى تجاه مَن أساء إليهم! يفتخرون بهذه الميزة الرديئة، يفلسفونها، ولا يتردّدون، بعض الأحيان، في أن يعتبروها شعاراً!

إذا قدّر لي أن أستعيد صحتي، كما أكّد الدكتور ميلان، «سوف تتحسن، لكن يجب أن تعرف: لن تعود كما كنت، وعليك أن تتعايش مع الحالة الجديدة» فلا بد أن أكرّس جزءاً من وقتي واهتمامي إلى دراسة: علاقة الإنسان بالمدينة!

هل معنى ذلك أن أتخلّى عن السياسة؟ لا ولكن عليّ أن أفهم السياسة ضمن منظور مختلف. فهذا الهيجان اليومي، وتلك النظرة الحالمة، من وراء دخان السجائر، وهي تعيد رسم الكون، والأوامر الصارمة، وكأن الثورة على

الأبواب، والسوقية في كل شيء، في الألفاظ والأكل والسباب والثياب، في محاولة لأن نكون أقرب إلى الشعب، هذه النظرة جعلت عمورية مدينة مسبية يتعاقب عليها الأقوياء والماكرون، ولذلك لا بدّ أن تتغير، وأن نتغير قبل ذلك.

ولكن مَن أنا حتى أتصدّى لمهمة بهذه الأهمية وبهذا الحجم؟ وكيف أُعطي لنفسي الحق لإصدار أحكام ليس على إنسان أعرفه وإنما على مدن وبشر وتاريخ؟ يجب أن أتحلّى بالتواضع وأعرف ما أستطيع القيام به دون ادعاء، لا أن أصبح مثل القادة الذين يحسنون كل شيء إلى درجة الإتقان وتعليم الآخرين!

ها أنذا أُسلّي نفسي لكي أنسى الماضي، لكي أهرب. لكن في اللحظة التي تذكرت فيها عبقرية القادة تذكرت أيضاً عبقرية زكي أثناء زيارته الأخيرة لي في المستشفى، ثم ذلك الفرمان الذي أصدره بعد أيام قليلة. كيف أستطيع أن ألوم الآخرين ما دام قائد المعارضة في هذا المكان البعيد، وفي هذا الحيز الضيق، والذي اسمه براغ، لم يحتمل بضع كلمات، وهذه الكلمات لم أقلها أنا وإنما قالها رجل قبل الفين من السنين؟ لم يقتصر الأمر على ذلك، كان زكي يضحك، يمزح، وطلب أيضاً الحصول على كتاب لوقيانوس لكي يقرأه!

لدي أفكار كثيرة يجب أن أدوّنها؛ لا أدّعي أنها ثمرة الدراسة والغرق في الكتب والمدونات، ولكنها نتيجة المراقبة، وأغلب الأحيان دون أن يحس الطرف الآخر، وقد تحصلت من السجن بالدرجة الأولى ثم من المستشفى، وقبلهما من الحياة. كنت شغوفاً بمراقبة الناس، بمعرفة طريقتهم في التصرّف وردود أفعالهم تجاه أشياء الحياة اليومية. تكوّنت لدي ملاحظات، معرفة، وأيضاً توصلت إلى نتائج، وهذه تستحق أن تدوّن، أن تناقش، وسأحاول أن أفعل ذلك يوماً ما!

وعليكم أن تنتبهوا هنا، فأنا الإنسان المضطهد، السجين سابقاً، المريض حالياً، الحائر بين الماضي والمستقبل، ماذا كنت أفعل خلال فترة طويلة، وفي أماكن عديدة: في السجن والمستشفى وفي الحياة عموماً؟ كنت أُراقب الناس!

هل أستغرب اذن ما وصلت إليه الأمور؟ إنه مجرد سؤال!

ثم مَن أكون حتى أضع مدونة تتناول سلوك البشر وأمزجتهم وطريقتهم

في التصرف؟ ماذا أملك من المعارف والمعلومات لا لوضع مثل تلك المدونة، وإنما لمجرد التفكير بحماقة من هذا النوع؟

يبدو أن ارتداءنا للعباءة لم يذهب عبثاً فقد ترك آثاراً عميقة، ولا أريد أن اقول: لا تنمحي؛ يظهر ذلك في العقل والسلوك، في هشاشة الفكر ورخاوته، وفي الخفاء الذي يميز الكثير من التصرفات، وإلاّ كيف يمكن أن تجري أشياء كثيرة دون أن يُحسّ بها ودون أن تُرى؟ وكيف تسوء الأحوال إلى هذه الدرجة، ويعم الفساد والظلم دون أن يكون هناك أي رد فعل؟ دون أن يجرؤ الناس على الشكوى والاحتجاج، إذا لم أقل لِمَ لا يثورون؟

وهؤلاء الذين يحكمون، أبناء الفقراء، وقد كانوا إلى الأمس القريب مضطهدين ملاحقين، ثم بين يوم وليلة، ولأسباب لا تزال بالنسبة لي غير واضحة، قفزوا، وصلوا، وبدل أن يغيّروا ما كانوا يشكون منه، تغيّروا! أصبحوا هم الجلادين الذي يضطهدون الناس، يعذبونهم، وبقسوة تفوق الجلادين الذين سبقوهم، ودون مبرر وبلا أسباب، أغلب الأحيان. وأصبحوا أيضاً يستبيحون كل شيء: المال والأعراض، ولا يترددون في أن يسرقوا جهاراً نهاراً! فماذا حصل لهذه الدنيا؟ كيف تغيّرت بهذه السرعة وبهذا المقدار؟ وكيف تغيّرت النظرة والمقاييس والسلوك.

أتذكّر...

أترون كيف لا أستطيع من الماضي فكاكاً؟ ما كنت أريد أن أتذكّر عمورية وحكّامها، ولم أكن أنوي تذكّر سجونها بشكل خاص، لكني وجدت نفسي أتزحلق، وتدهمني الوقائع والوجوه، وتأكلني الخيبة.

وماذا إذا تذكّرت أو لم أتذكّر؟ وهل أنا أب لجميع البشر، كما يقول شاعر أبله؟ تكفيني السنوات العشر التي قضيتها في سجون عمورية، ومجموعة الأمراض التي ستلازمني إلى آخر أيام العمر. لم أترك سجناً يعتب عليّ، زرتها جميعاً، أو بالأحرى زوّروني، مع كثيرين، تلك السجون الواحد بعد الآخر، تماماً كما يفعلون مع كبار الضيوف، بفارق بسيط: إذا كانت للضيوف رغبات يمكن أن تعدل البرامج المعدة سابقاً، فقد أعفونا من هذا العبء، إذ كانوا يتولون وضع البرامج وتنفيذها بدقة، وكنا شديدي الاستجابة والطاعة! كنا نُنقل من سجن إلى آخر تأديباً أو حين تنتهي فترة

التأديب؛ كنا نُنقل إلى الشمال في الشتاء، ونُرحّل في الصيف إلى الجنوب، عكس رحلة الطيور! وكنا نُجلب، أفراداً أو مجموعات، من أجل محاكمات عاجلة، بعد أن تظهر أدلة جديدة أو بعد الاعترافات، لكي تلقى على أكتافنا مجموعة من السنوات الإضافية، في الوقت الذي كان من السهل أن يوفروا على أنفسهم هذه الأعباء ويمنحونا تلك السنوات دفعة واحدة، ودون حاجة لأية محاكمات!

لقد انزلقت إلى موضوع السجن دون تخطيط ودون قصد، في الوقت الذي كنت مصمماً على النسيان! ولكن ماذا في عمورية غير السجون والجوع والمذلة والآلام؟

أين ضاعت عمورية التي نحبها، عمورية الحمامة، ليالي القمر، أغاني الأعياد، عمورية المحبة والأيدي الدافئة والمسافرين العائدين؟

عندما كنا صغاراً، وفقراء أيضاً، كان يهجم الربيع ويحمل معه نباتات الأرض وروائح الصيف، ورغم أنّا لم نكن نشبع، فقد كان للأكل مذاق لا ينسى، وكانت هدايا السماء لا تتوقف، حتى إذا دخل الصيف الكبير تمتلئ البيوت، كل البيوت، بالضحكات والأغاني والأطعمة، وتبدأ الصباحات بالحصاد وجمع المحاصيل، وتصبّح الليالي بالأعراس والأغاني، ونظرات العشق الأولى.

هكذا كانت عمورية فترة طويلة من الزمن. صحيح أن أشياء سوداء كثيرة كانت تقع بين فترة وأخرى، وكان الأقوياء والأغنياء يحصلون على الكثير، ولكن القليل الذي يبقى يكفي الفقراء أو يمنع عنهم الموت، وكان الفقراء يعرفون كيف يساعدون بعضهم، وكيف يقاومون ويستمرون.

عمورية هذه انتهت إلى الأبد. قامت أخرى مكانها، تحمل نفس الاسم ولها نفس الملامح، لكن عمورية الجديدة تختلف عن التي كانت: البشر، والحياة، حتى طعم المياه اختلف. المتفائلون، وأنا لست منهم، يقولون: لقد اتسعت عمورية وامتدت؛ امتلأت بالعمارات الكبيرة والشوارع الدوّارة، وفيها من المطاعم والفنادق ما يكفي لاستقبال الآلاف المؤلفة... ولا بد أن يتذكروا عمورية القديمة: «وتتذكرون: لم يكن في عمورية كلها فندق يليق باسمها، ويمكن أن ينزل فيه السائح دون أن يشتمنا ألف مرة، أما المطاعم

فكانت. .» ويضحكون، لأنهم لا يجدون وصفاً يفي بما يريدون!

لا شك في أنكم لاحظتم كيف انتقل من موضوع إلى آخر، وليس بين هذه الموضوعات صلة، وهي أقرب إلى الثرثرة، وكأنيّ أخاف من الصمت، أو أخشى أن يقودني إلى منزلق كنت أُحاول الابتعاد عنه.

قد أحتاج إلى مَن يحرّضني للتركيز على موضوع معين، كما كنت بالنسبة إلى طالع، وعند ذاك قد أكتب شيئاً مفيداً، أمّا أن أبقى كالعصفور أتنقل من غصن إلى ثانٍ، موهماً نفسي أنني أقوم بعمل نافع، فلا أزيد عن كوني أدحرج البرميل، ولن أصل إلى أية نتيجة، وقد أسيء أيضاً لطالع العريفي فيما لو اعتبرت هذا الهذر يستحق أن يقرن بما كتبه، أو أن يكمله. ومع ذلك أريد أن أسترسل، أن أبقى دون قيود، وبعد أن أنتهي يجب أن أُقرّر، وربما أعفيكم من شتمي، لأنّكم لن تعرفوني، ولن تروا صورتي، وسوف لن تمر عيونكم فوق هذا الكلام الذي أُسجّله الآن.

لكي أصل معكم إلى نقطة اتفاق، أو على الأقل لكي تفهموني دون أخطاء، أو بأقل قدر من الأخطاء، لا بدَّ أن أقول دون خوف، ودون تبجح أيضاً، أنني أشعر بخيبة تصل إلى حدود المرارة، وهذا الشعور لم يولده السجن وسنوات العذاب الطويلة، وليس نتيجة التشرّد والبحث عن مكان للإقامة ومصدر للعيش، وإنما، وبالدرجة الأساسية، لأنيّ أكاد أفقد اليقين، أو بالأحرى لأنّ اليقين الذي امتلأت به طوال سنوات العمر، الحياة كلها، يوشك أن يغادرني، أن يفلت مني. أحس في لحظات كثيرة وكأنيّ وحيد، وسط العراء، في مواجهة كل الرياح، دون قدرة على المقاومة أو الرغبة في البدء من جديد، وأن هؤلاء الساسة الذين أسلمت لهم قيادي خدعوني، تخلُّوا عنّي، أو كما قال شاعر في الغربة: «الساسة المحترفون ينجرون خشب التابوت، وأنت في الغربة لا تحيا ولا تموت»؛ فهل أتركهم يواصلون ذلك؟

لست متأكداً ماذا ستصنع الأيام القادمة، أريد أن أبقى عنيداً، وإذا مت فأجمل موت أن يموت الإنسان واقفاً، والأفضل أن يفعل ذلك وهو يبتسم بسخرية أيضاً!

Twitter: @ketab_n

من المعالم الأساسية التي حرصت على زيارتها خلال الأيام الأولى لوصولي إلى باريس: الباستيل! أريد أن أرى السجن الذي صنع الثورة، وغيَّر معالم الكون، وربما لا يزال!

وأنا أستعد للنزول في محطة المترو التالية، محطة الباستيل، قلت لنفسي، وكنت أبتسم بحزن:

«لا أعتقد أن في العالم مكاناً يحوي عدداً من السجون كما هو الحال في ضفتي المتوسط، الشرقية والجنوبية؛ ولا أعتقد أن في العالم عدداً من السجناء كما في هاتين الضفتين؛ وثورة الباستيل التي تجاوزت فرنسا لتعم العالم كله، يبدو أنها لم تصل بعد، ولم تصل أصداؤها وأخبارها أيضاً إلى هذه البقعة من الأرض، وإلاَّ كيف نفسّر السجون التي تشاد يوماً بعد يوم؟»

لم أرَ من السجن إلاَّ أسماء شهدائه وأبطاله؛ كانت الشمس الساطعة تملأ جنبات الساحة الكبيرة، وكان العمود، وسطها، يحكي تاريخ سجن كان هنا وانتهى إلى الأبد.

وتذكّرت تلك الصورة المخيفة عن سجن الباستيل: خلال أربعة قرون، من تاريخ بنائه، وحتى لحظة سقوطه، لم يزره سوى ستة آلاف! وفي ذروة الجبروت الملكي، أيام لويس الرابع عشر، لم يكن فيه ما يزيد عن ثمانمائة سجين! أما الذين لم يقضوا فيه أكثر من ستة شهور فهم نصف العدد! وحين اقتحمه الثوار لتحرير السجناء لم يكن هؤلاء النزلاء يزيدون عن السبعة!

وتذكّرت فولتير، كان وجهه قوياً كأنّه الفولاذ وقد خرج لتوه من يد النحات

حين وصل الباستيل، أمّا وهو خارج منه فكان الوجه أقرب ما يكون إلى الرغيف الساخن!

قلت لنفسي بأسى: «أراهن، وأدفع حياتي مقابل هذا الرهان: في أي وقت، خاصة وقت الاستقرار، وفي أية عاصمة عربية، إذا لم يكن في سجونها أضعاف ما كان أيام لويس الرابع عشر! وافحصوا أي سجين خرج من تلك السجون، كم من العاهات والعلل يحمل؟»

وأنا أتجول في ساحة الباستيل، ثم في الشوارع المتفرعة عنها، حلمت كثيراً وتذكّرت وتساءلت، ولا أعرف لماذا تشبثت بعقلي الأفكار الصغيرة: سجون عمورية، معظمها، كلها، تنفتح على الغرب والشمال، وكان الباستيل ينفتح على الشرق والجنوب، فهل هذا يعني شيئاً؟ وسرداب التعذيب في سجن عمورية المركزي أول ما يطالع «الزائر»، وكذلك المشنقة، في الوقت الذي كانت زنازين التعذيب في الباستيل، في القسم الخلفي، والمقصلة كانت في الباحة الداخلية!

وتذكّرت وردة، الكلبة الجعارية، وقد وضعت جراءها خلال فصلين مختلفين في الخرابة المجاورة لبيتنا: في الصيف وضعت في الجهة الشمالية الغربية، وأثناء فصل الشتاء وضعت بمواجهة الجنوب الشرقي، فمن أين اعتمدت عقول الجلادين العموريين اتجاهات مخالفة للطبيعة؟ قلت لنفسي بغيظ، وكانت أسناني تصرك: «ستبقى السجون وسوف تتسع إذا ظلّ الناس في بلادنا يفخرون بصبرهم واحتمالهم، وأن مَن يعاني أكثر في الدنيا لا بد أن يجازى في الآخرة؛ وإذا استمروا أيضاً ينتظرون طيور السماء لكي تنقذهم!»

وأتذكّر...

بعد عدة شهور في المنفردة والتحقيق، ولأنّي لم أعترف، لفقوا لي محاكمة وشهوداً وخطوطاً نسبوها إليّ، واثنين اعترفوا عليّ؛ والنتيجة: حكم بسبع سنوات، وأُرسلت إلى السجن المركزي.

كان الاستقبال يليق بسجين محكوم، ومزود أيضاً بتوصية المخابرات: «عنصر خطر، ولم يعترف؛ نوصي بمعاملته بما يتناسب مع خطورته وأهميته، وموافاتنا بتقارير دورية عنه».

ما أن تمّ استلامي، وبعد أن قرأ رئيس القلم الحكم مع التوصية حتى نظر إليّ طويلاً وقال بسخرية:

ـ أنت هو عادل الخالدي. . .

وبعد قليل:

ـ إذا الجماعة هناك ما عذّلوك، فدبارك، يا عادل أفندي، عندي!

قيدوا قدمي بسلسلة طويلة، وقيدوا اليدين. استغرقت العملية وقتاً، خرج رئيس القلم أكثر من مرة، وبعد أن اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، تطلع إليّ وهزّ رأسه، وأصدر أوامره:

ـ إلى السرداب، ومعاملة اكسترا!

بعد أن اجتزت الباب الأول، ووصلنا إلى الباحة الداخلية، كانت المشنقة ناحية اليمين، وكان درج السرداب ناحية اليسار، وبينهما كان الباب الذي يؤدّي إلى السجن، قال لي آمر الحرس وهو يشير ناحية اليمين:

ـ خذ لك شمّة أو نظرة يا عنتر!

كانت السلاسل، وهي تنتقل مع الخطوات، تُحدث ضجيجاً أقرب إلى الموسيقى! كنت مشغولاً بالحالة الجديدة، بدءاً من وضع القيود، ثم وقوفي بعد أن انتهوا من وضعها، إلى التساؤل عن كيفية التصرف بعد أن وضعوها، وما هي الآثار التي ستترتب على وجودها، وأخيراً صوتها وهو يتغير ويضطرب حسب طريقة نقل الخطوات واتساعها.

هكذا كنت وهو يستوقفني ويسألني. فوجئت بالسؤال. تطلعت إلى حيث أشار: عرفت ولم أعرف. هززت كتفي دلالة أني لا أعرف. ابتسم، وقال بسخرية وهو يشير إلى المشنقة.

ـ إذا واحد الله غضب عليه، ويريد ياخذ روحه، فهذه يد عزرائيل، تخلّص عليه وتخلصنا منه، فشوفها أحسن ما تغلط!

ومشينا من جديد. كنا ونحن ننزل الدرج، أشبه بالجنازة: الصمت، ما عدا رنين السلاسل، والارتباك، خاصة مني، إذ لا أعرف كيف أنقل خطواتي، وهم يتقدمون وينظرون، والظلمة تزداد وتتكاثف خطوة بعد أخرى. أما حين دخل المفتاح الكبير بالباب الحديدي فكان أشبه بصوت مساعد الشيخ وقت الدفن، إذ نبّه الجميع وجعلهم أكثر استعداداً وتحفزاً. مع

انفتاح الباب هفّت رائحة من الداخل لا يمكن أن تجد وصفاً أو اسماً يحدّدها أو يقربها، فهي مزيج من العفونة والرطوبة ورائحة البول وروث الدواب والمطهرات القاسية والفطائس، ولا أعرف أي شيء آخر!

كانت الظلمة شديدة، رغم أننا كنا في منتصف النهار. ومن نوافذ صغيرة جداً ومواربة؛ كانت تتسرب أضواء لا تُرى إلاّ بعد فترة من التعود على الظلمة!

أوقفني آمر الحرس في زاوية، وأصدر أمراً مثل أوامر كثيرة تعوّد على إصدارها:

ـ يا الله يا شباب: المربط رقم ثلاثة!

وبطريقة آلية فك الجنود الأربعة سراويلهم وبدأوا يعصرون ويبولون حيث أمرهم. كنت حتى تلك اللحظة لا أُصدّق عيني. ألا تكفي رائحة البول، والروائح الأخرى، التي تملأ المكان؟ وكيف يستطيعون أن يبولوا عندما يطلب منهم ذلك؟ وأية نتيجة يمكن أن يؤدّي إليها هذا البول؟

يجب أن اعترف، ويجب أن أظل أعترف، أنني شديد البساطة، وربما أقرب إلى البلاهة. كنت أتصور أنهم يريدون أن يعطروا المكان أكثر مما فيه من عطر! كنت أتصور إهانة إضافية توجه إلى السجين. وتصورت، للحظة، أن هذا المكان هو الذي يبول فيه الحرس! أما حين انتهوا، وبعد أن تركوا بقعة كبيرة من البول، فقد جُررت إلى المربط رقم ثلاثة. ربطت إلى الجدار، وكانت المساحة التي يمكن أن أتحرك فيها لا تزيد عن طول السلاسل. هنا يجب أن أكون! ليس فقط للوقوف، وإنما للنوم والأكل، وأي شيء آخر!

انتهوا من مهمتهم بسرعة، لأنهم لا يطيقون أن يبقوا هنا فترة أطول، أغلقوا الباب، وذهبوا، بعد أن أدُوا هذا الواجب الثقيل!

ثلاثة أيام في نفس الموقع، هل أكلت؟ هل نمت؟ أين تبرزت؟ لا أريد أن أتذكّر!

بعد الأيام الثلاثة أخرجوني. قال رئيس القلم، وهو يضع أصابعه على أنفه:

ـ هذا مجرد استقبال، قهوة أهلاً وسهلاً! فإذا صرت آدمي، وحلبت معنا صافي، تقضي محكوميتك وتمشي، أما إذا تحيونت، إذا تصرفت تصرف

خطأ، وإذا قلت يصير وما يصير، فترى السرداب ينتظرك، والله يخلصك المرة الثانية!

فكّوا قيدي في وقت قصير. كانوا يريدون أن يخلصوا من رائحتي، مما علق بي من أوساخ، كانوا ينظرون إلى الجهة الأخرى وهم يفكون القيود. أما حين دفعوا إليّ الملابس والبطانيات الثلاث، فقد قال لي رئيس القسم، الذي خرج طوال فترة العمل:

- الملابس والبطانيات عهدة، ولو كنت مؤبد لازم مثل ما استلمتها تسلمها، تسمعني؟

هززت رأسي دلالة الفهم والموافقة. أضاف بحزم:

- بوجهك للحمام..

وابتسم وأضاف:

- لكن انتبه، وإذا نسيت السرداب، فعلى يمينك، وأنت داخل، عزرائيل، وهذا لا ينسى أحداً، فخلنا أصحاب من أول يوم، والأحسن ألا تريني وجهك.

والتفت إلى آمر الحرس، اياه:

- أبو سمير، المهجع رقم 17.

السجن المركزي في عمورية عالم من الصخب والعجب والجنون، وهو أشبه ما يكون بمركب كولومبس أو سفينة نوح!

نماذج لشتى أنواع البشر والمخلوقات: القتلة وكبار اللصوص، اللواطيون ومزيفو النقود والأوراق الرسمية والآثار، المتقاعدون والباحثون عن عمل! وفيه أيضاً أعداد كبيرة من السياسيين، يمثلون جميع الأحزاب والأفكار. فيه الواقعيون الصارمون الذين يعرفون، نظرياً، ما يريدون بدقة متناهية، ولكن يعتبرون أن حظهم العاثر هو الذي أوصلهم إلى هنا، ويهزون رؤوسهم، إذا سُئلوا، ويؤكدون أنهم لن يقعوا في نفس الأخطاء في المرات القادمة، والأغلب أن هذه المرات لن تتاح لهم! وفيه أيضاً من السياسيين الحالمين عدد وفير، وهؤلاء يعرفون شيئاً واحداً: «هذا العالم شديد السوء والتعاسة ولا بد أن يتغير»، ولا يعرفون أكثر من ذلك!

وفي السجن المركزي أناس متدينون أقرب إلى الدروشة، يفخرون أنهم أحفاد الرفاعي والبدوي وعبد القادر الكيلاني، دماً وانتساباً، ولا يترددون في إقامة الطقوس والشعائر، وفي إحياء الليالي المباركة، والتبشير أن هذه الدنيا دار عبور وأنها زائلة!

وغير بعيد عن هؤلاء: الزنادقة والهراطقة، وهم لا يتعبون من الحديث عن المادة وأصل الخليقة، ولا يترددون في القول إن الدين أفيون الشعوب، ويبذلون جهداً من أجل إقناع أبي عبدالله دركل زعيم المتصوفة بذلك!

ويوجد في السجن الأغنياء، ومَن كانوا كذلك، ومَن لا يملكون أي

شيء في هذه الحياة، وليس لهم أهل أو أصدقاء، ويعتبرون السجن منزلهم ووطنهم، والمسجونين اخوتهم الوحيدين.

أمّا أصحاب الشهادات العالية، وغالباً ما يخطئ السجناء في تسميتها أو تحديد ترتيبها، وإن كانوا لا يشكون في أهميتها، إن هؤلاء من حيث العدد والاختصاصات، يتفوقون على أي تجمع بشري يماثله في العالم. إذ تجد الضليعين في الفيزياء والذرة والطب والتاريخ، إلى جانب كبار المحامين والقادة العسكريين. يقابل هؤلاء عدد كبير أيضاً، تقتصر مؤهلاتهم على شهادتين فقط: شهادة فقر الحال المصدّقة والممهورة بالأختام والتواقيع، وشهادة خلوهم من الأمراض السارية!

ومن حيث الأعمار، فإنَّ المسنين الذين لا يروق لهم الحديث إلاّ عن العسكر العثماني والحرب العمومي والسفر برلك، يجاورون الشبان الذين لم تظهر شواربهم بعد، رغم ما يبذلون من جهد لاستنباتها!

وفي السجن عدد غير قليل من المرضى، وقد مات بعضهم نتيجة تأخر الطبيب أو أخطاء المرضين.

ولم ينس الأجانب، المقيمون والعابرون، أن يبعثوا، ولو رمزياً، بمَن يمثلهم أو ينوب عنهم! أما المجانين فهم كثر، وكان عددهم يزيد فترة بعد أخرى!

وللنساء جناح في السجن المركزي، له باب جانبي، ولم نكن نعرف عن هذا الجناح إلاّ القليل، عدا الأصوات التي تصل، خاصة في بعض الليالي!

وفي السجن مجموعة كبيرة من الحيوانات: الكلاب والماعز والدجاج. أمّا القطط فلا يمكن اعتبارها من ممتلكات السجن، رغم وجودها، إذ كثيراً ما تغادره مؤقتاً أو تهجره تماماً، مع توفر الأكل والعطف، لأنَّ هواية عدد من النزلاء التفنن بتعذيبها، وقيل إنها كانت واسطة لنقل الرسائل أيضاً! ولقد تسبّب وجودها أو غيابها بمعارك كبرى بين السجناء، أو مع الإدارة!

بالقرب من المكاتب، في الباحة الخارجية للسجن، يقوم قفص كبير لطيور متعددة الألوان والأصوات، وكانت أصوات هذه الطيور تسمع في الصباحات المبكرة! وكان لدى آمر السجن غزالان، ذكر وانثى. وقد بذل جهوداً خارقة ليحملهما على الإنجاب، لكنهما لم يفعلا، فقال أبو عبدالله

دركل «إرادة الله» وقال دواد شما البيطري: «بعض الحيوانات لا تنجب في الأسر!»

أمّا المخلوقات الأدنى فلا أحد يستطيع أن يحصي أعدادها أو أنواعها، لكن أكثر المخلوقات وجوداً وكثافة في السجن المركزي: القمل! حتى أن نزلاء السجون الأخرى كانوا يطلقون عليه «سجن القمل وملحقاته»، وكانوا يبالغون في وصف أحجامها وشراستها، ويؤكّدون أن لهذه المخلوقات أسناناً قاتلة، مما يجعلهم لا يوافقون على استقبال أي زائر جديد آت من السجن المركزي إلاّ بعد أن يخلص من مرافقيه!

الجدران هي التي تجمع هذا الخليط من الناس، ويجمعهم أيضاً، في بعض الأحيان، الموقف تجاه الإدارة، وما عدا ذلك فإنّهم مجموعة من الجزر، وكثيراً ما تنقطع المواصلات ما بين هذه الجزر!

إذا تجاوز القادم الجديد الباحة الداخلية، لا بد أن يأخذ واحداً من ممرين: اليسار وسيؤدّي به إلى القسم السياسي (تصوروا هذا الحرص وهذه الدقة) واليمين لذوي الجرائم العادية!

بعد أن وقّعت على استلام «العهدة» وهي ملابس السجن والبطانيات، واستحممت، أخذت ممر اليسار، وقبل أن أُدخل المهجع رقم 17، وعلى طريقة الحرس في الاستعراض وإظهار القوة والنفوذ، طلب مني أبو سمير أن أجلس في زاوية من النظارة، وهي المكان الذي يطلق عليه السجناء المطهر أو المصيدة، حيث تجري عمليات الجلد والنقل والتفتيش، وقد يطول الانتظار قبل السماح بالدخول، ويتوقف ذلك على مجموعة من العوامل يقررها آمر الحرس.

في هذا المكان، وقد بقيت من الضحى إلى ما بعد العصر، التقيت بأقدم سجين سياسي في السجن المركزي: مصطفى اوغلو!

وهذا السجين كان ضمن مجموعة من الثوار أو قطاعي الطرق، وقد استطاع وحده اجتياز حدود عمورية، بعد أن قُتل أفراد مجموعته أو أُسروا، وباعتبار أنه اجتاز الحدود فقد ظنَّ أنه نجا، لكن حكومة عمورية اعتبرته مخالفاً، فقرّرت معاقبته، ثم تسليمه، ولكن الأمور سارت بشكل مختلف تماما!

لقد حصل ذلك قبل ثلاث وعشرين سنة! وآمر السجن آنذاك، وقيل

إنه كان رجلاً متديناً، لاحظ أن مصطفى اوغلو مصاب بكسرين، الأول في القفص الصدري، والآخر في اصبعين من رجله اليسرى، ولا يليق ببلد مثل عمورية أن تتهم بمثل هذه الإصابات فيما لو سلمته، وهو على هذه الحال، ولذلك قرر إحالته إلى مستشفى الغرباء لمعالجته قبل أن يُسفَّر!

ما كاد يصل إلى مستشفى الغرباء حتى اعتبر الطبيب المسؤول أن «ابن اوغلو» كما كتب اسمه، ثم كما وصفه «رجل مختل، ولا يمكن إجراء معالجته في مستشفانا، نظراً لخوفه غير الطبيعي من الأجهزة الطبية، الأمر الذي يستدعي إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية، لتجري معالجته هناك».

في مستشفى الأمراض العقلية عُولج من الكسور، وأصبح أقل خوفاً من الأجهزة الطبية! لكن لاحظ أطباء المستشفى «أن الوضع الصحي لابن اوغلو يؤهله لإعطاء كميات من الدم بين فترة وأخرى، ونظراً لحاجتنا الماسة لذلك، فقد قرّرنا استبقاء المريض لدينا، خاصة وأنه بحاجة إلى معالجة عقلية قد تمتد إلى بضعة شهور».

وهكذا بقي مصطفى اوغلو كل تلك المدة، تحت المعالجة، والمراقبة! وربما أيضاً نتيجة النسيان. وكانت الفترة تمدّد مرة بعد أخرى، لأسباب صحية!

وخلال فترة بقائه في مستشفى المجانين حصل مصطفى اوغلو على لقب «حاج»! لا يعرف مَن أطلقه عليه أو لماذا، ولكن اللقب غلب على الكنية، وأصبح لا يعرف إلاّ بالحاج مصطفى! واكتسب أيضاً هوايات جديدة: تعلّم كل الشتائم، خاصة البذيئة، مع إشارات توضيحية شديدة التعبير، وتعلّم التحشيش، إذ أصبح لا يعرف الراحة أو الهدوء إلاّ إذا حصل على الكيف، وكان، بوسائل شديدة المكر، يحصل عليه؛ وتعلّم أيضاً أن يحب وطنه أكثر من أي شيء في العالم، وتمثّل له هذا الوطن في العلم.

إنه أول سجين أُقابله في السجن المركزي!

ما ان التفت ورآني حتى ابتسم وغمز لي بعينه: أن انتظر؛ وقد قالت حركاته وتصرفاته إنه رجل مهم!

كان إلى جانبه موقوف آخر، بدا وكأنهما يتسامران، يتبادلان معلومات خاصة، وكانا بين فترة وأخرى يضحكان، وكأنّهما تذكّرا شيئاً أو أحداً.

كنت، أغلب الوقت مشغولاً عنهما، أُفكّر بما ينتظرني، فإذا ارتفعت أصواتهما التفت، إلتقط بعض الكلمات، ثم انشغل عنهما من جديد.

في لحظة ما، وبشكل مفاجئ، نهض الحاج مصطفى بغضب، ركض إلى الجانب الآخر، نزع حذاءه بسرعة وقذفه باتجاه صديقه. لم يصبه، نزع الحذاء الآخر، لكن الحرس نهروه، صرخوا بقوة فتوقف في آخر لحظة. كان يرتجف وقد بلغ أقصى حالات الانفعال، وأخذ يصرخ وهو يشير:

- كافر، دين سز، يا جماعة..

وبعد قليل وباستغاثة:

- هذا قتله حلال لأنّه كافر.

وحاول أن يضربه بالحذاء من جديد، لكن الحرس الذين اقتربوا منه أخافوه، قال ودموعه تتساقط:

- يسكر ويخمر وتدافعون عنه؟

- والحشيش، يا حاج مصطفى؟

هكذا سأله واحد من الحرس. ردّ وهو يمسح دموعه:

- أنا مذنب وسيعاقبني الله، هذا شيء مؤكّد، لكن الفرق كبير بين الحشيش والعرق، لأنَّ الحشيش مكروه والعرق حرام!

بعد فترة قصيرة أُخذ «السكران» إلى غرفة جانبية في النظارة، لأنَّ العادة إجراء «تحقيق اداري» مع أي موقوف، ومهما كانت الأسباب، من الناحية السياسية، ويكون عادة بمجموعة من الأسئلة: الجريدة التي يقرأها، أي الأحزاب التي يفضلها على غيرها، ما إذا كان له سجناء أقرباء أو أصدقاء، وغير ذلك من الأسئلة التي تحدّد وجود علاقة أو ميول للموقوف، وبعد ذلك يُقرر مصيره!

اقترب مني الحاج مصطفى:

- السلام عليكم.

- عليكم السلام.

- سياسي؟

- . . . . . .

- محكوم؟

- . . . . .
- انطق أحسن لك، لأنّي افيدك قبل ما تتورط!
- ما عندي شيء!
- أنت خنزير وادب سيز. أنت طيزي. أنت تستاهل الإعدام!

نظرت إليه وأنا أبتسم، فقد بدا منفعلاً، وخشيت أن يتصرف معي بنفس الطريقة التي تصرف بها مع صديقه السابق، قلت برجاء، وبصوت خافت:

- الله يخليك اتركني ودوّر على غيري!
- لك. . اكبر شرف ان الحاج مصطفى يتنازل ويكلم واحد مثلك، تفهم؟

هززت رأسي موافقاً، لكن هذه الموافقة لم ترق له، صرخ:

- إذا تنازل الحاج مصطفى وتكلم، لازم تأخذ تمنّي، لازم تقف مثل مسمار، لازم ما ترف عينك، تفهم؟

انتظر أن أجيب، أن أعلّق، لما وجدني صامتاً، وقف، وصرخ:

- قف!

لم أقف، نظرت إليه، كان يبدو مثل هرم من رماد. كان ضخماً، لكنه شديد الصفرة والهشاشة. والحرس الذين كانوا يرقبون المشهد بلذة، توقعوا أن يعتدي عليّ، صرخ واحد منهم لثنيه أو لتحريضه:

- حاج مصطفى. . . هذا سياسي ما هو سكران!
- هذا أخرا، لأنّ السكران يلوّص بروحه وبخراه، وهذول يلوصون بأرواح غيرهم، وهذول. . .

وتوجه إلى المكان الذي كانت فيه فردة الحذاء. تحسب الحرس، قال أحدهم بحدة:

- اسمع يا حاج مصطفى، والله لأخلّي المعلم يسويك شاويش!
- دخيل أبوك، اشتغل كناس ولا أصير شاويش!

هكذا ردّ الحاج مصطفى، وهو يتراجع، ولأنه لم يعرف مَن الذي هدّده من الحرس، وكانوا كثيرين، ويجدون متعة في مداعبته، فقد قال أحدهم:

- نريد تقول لنا يا حاج، أي أحلى عمورية أو استانبول؟

ضحك بسخرية، هزَّ رأسه أسفاً لجهل الذين يسألونه، فلما وجد العيون تتابعه قال:

- استانبول، افندم، بحر وشختورة، بوسفور وسمك طازا، عسل ولبن غير مغشوش، استانبول ايا صوفيا وسركجي وشنق قلعة، في الدنيا كلها مثيل لها يوك، استانبول، افندم، تشوك غوزال، وعمورية...

ضحك بصخب، وكأنَّ أحداً يكركره، وبعد أن استراح قليلاً قال:

- الله بلا ورسن، عرب يلزمه وقت، وقت طويل، حتى يصير مثل الناس!

سأله واحد من الحرس بخبث:

- معنى كلامك أنك تهاجم عمورية وأهل عمورية، ها؟

- افندم، الكلام الصحّ أحسن من كلام الكذب، وأنا، الله في السماء محمود، يعرف كلام واحد، هذا هو الحاج مصطفى، عجبك ما عجبك بلط بحر.

- شايف حالك كثير، يا حاج مصطفى، وكأنَّ أولاد العرب ما هم مالين عينك؟

ابتسم وقال بسخرية:

- افندم، الخشب لا يصير ملقط، وابن العرب لا يصير باشا!

والتفت إليّ وقال يخاطبني ويخاطبهم معاً:

- وهذول اللي يشتغلون سياسة أفهم مني ومنك وأنا أُوافق أن يكون القاضي!

قال واحد من الحرس لكي يحرضه:

- لكن قبل دقيقة أنت قلت له طيزي، نسيت؟

هزَّ رأسه بأسف ورد:

- أنتم عرب ما يعرف إلاّ الفتنة، ومجنون اللي يتدخل بينكم!

وبدأ يغني، فلما تعب افترش الأرض ونام!

كان الحاج مصطفى من أبرز معالم السجن المركزي، وهو الوحيد الذي يحق له الانتقال بين أقسامه دون اعتراضات أساسية، في النهار لا بد أن يزور قسم المجرمين العاديين، رغم ما يتعرض له هناك من أذى، فقد كان السجناء

يطوقونه، يسخرون منه، ولا يترددون، في أحيان كثيرة، من ضربه بقشور البطيخ أو الأحذية. كان يزور هذا القسم ويقضي فيه وقتاً طويلاً، وكان أيضاً يوافق على كل شيء: يغني للسجناء، يرقص لهم، يشتم، فقط لكي يحصل على الحشيش! يصل مرة ويفشل مرات، وحين يرجع إلى النظارة، ثم إلى القسم السياسي، يقول وجهه، وتقول تصرفاته، دون كلمات، فيما إذا وصل إلى ما يريد ام لا!

كانت أغانيه، بعض الأحيان، تسبقه، وتقول إنه في واحدة من أحسن حالاته. والسياسيون الذين يتعاملون معه بطريقة مختلفة، بالفهم والعطف، كان يروق لهم أن يمازحوه:

- عمّرتها حجي؟

- الله اللي يعمّر كل شيء ويعطي كل واحد على نيته!

- ولكنك تخالف الدين بهذه الطريقة.

- الله غفور رحيم.

- الله شديد العقاب!

- الله يعرف ما في القلوب!

- ويعرف كم مجّة سحبت.

يتطلع في الوجوه، ويتطلع حواليه بحذر، ثم يجيب:

أعرف أن الله كبير، ويعرف كل شيء، لكن الله ما عنده إلا حجي مصطفى؟

- عنده الحاج مصطفى وعنده غيره!

يضحك بلذة، يهز رأسه موافقاً ويقول:

- إذا وصل إليّ الدور أنا جاهز. سوف أقول له: يا رب يا قوي يا عارف ما في القلوب، وما في الجيوب، أنت تعرف كل شيء، فحاسب الناس قدر ذنوبهم...

ويضحك مثل حصان يصهل ثم يضيف:

- عشرين سنة وأكثر بلا ذنب، وأنا ساكت يا رب، فسامحني إذا

أخطأت، إذا لوّصت، واحسب لي هذي السنين!

لقد عرفت الكثير من التفاصيل بعد أن أصبحت واحداً من نزلاء السجن المركزي، أما في ذلك اليوم، وبعد أن نام الحاج مصطفى وقتاً طويلاً، ولم توقظه الأصوات والحركة الدائبتين حوله في النظارة، فقد استيقظ على رائحة الأكل. فتذكّرت قصة الحداد والكلب: كان الكلب ينام ملء جفونه لا يزعجه ولا يوقظه ضرب المطارق، أما المضغ الخفيف فإنّه يجعله في منتهى الصحو والاستعداد!

لما انتهى أبو سمير من أمور كثيرة داخل السجن، أو لأنّه تذكّرني، ولا أعرف لماذا عنّ له، وقد رأى الحاج مصطفى، أن يداعبني قبل أن أدخل المهجع:

ـ يا الله يا حاج. . الآن جاء دورك.

تطلّع إليه الحاج مصطفى، بتساؤل أبله، تابع أبو سمير، ولم يكن يستطيع أن يخفي ابتسامته:

ـ هذا من الأفندية، يتصوّر أن الصرماية ما تطول راسه، شايف حاله كثير، فأريدك تقول له كم يسوي. فقم اضربه كفين ثلاثة!

خاف الحاج مصطفى، تراجع مذعوراً وكأنّه لم يفهم أو لم يصدّق ما طلبه منه أبو سمير. صرخ فيه من جديد:

ـ يا الله، قم واضربه.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

ـ قم أحسن لك.

ـ حاج مصطفى لا يضرب بدون سبب، بدون ذنب!

ـ هذا أمر.

ـ أمر لمأمور افندم، وأنت عندك مأمور!

وأشار إلى الشرطة، وكأنّه يعدّهم. صرخ أبو سمير بغضب:

ـ يعني ما عندك نيّة تنفذ الأوامر؟

ـ الله امان افندم، وحاج مصطفى امره هذا وهذا. . .

وضرب على صدره، موضع القلب، ورفع يده إلى فوق، إشارة للسماء!

قال له أبو سمير، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ إذا كان هيك بسيطة، الظاهر أن جلدك يحككك ولازم لك كم خيزرانة، وحتى اخلص من هذا الجحش ارجع لك ونشوف. . .

وصرخ بي أن أمشي أمامه، والتفت إلى الحاج مصطفى وقال له:

ـ وإلى أن أرجع وقف على الحيط ارفع يديك ورجلك اليمين.

وبهدوء واقتناع، ربما نتيجة العادة، وقف الحاج مصطفى بالقرب من الجدار رافعاً يديه ورجله اليمنى، وفي اللحظة الأخيرة، وأبو سمير يدير المفتاح داخل الباب، التفتُّ. كان الحاج مصطفى يبتسم بسخرية، وربما رأيت أيضاً عينه وهي تغمزني، ودفعني أبو سمير، وأصبحت واحداً من نزلاء السجن المركزي!

المهجع رقم 17

عش للدبابير العمياء، للحقد، ولا يخلو من كوى صغيرة للأمل بعض الأحيان.

لقد اختاروا لي هذا العش كبداية لعلاقتي بالسجن المركزي. فبعد التحقيق والتعذيب، ثم المحاكمة الصورية، حملت سنواتي السبع التي حكمت بها وتوجهت إلى السجن المركزي. وباعتبار أنني سمعت من الكثيرين الذين سبقوني أن الموقوف بعد الحكم، وفي السجن، يعد أياماً بانتظار الافراج، ولا يمكن مقارنة حياة السجن بحياة أقبية المخابرات والزنزانات المنفردة، إلاّ أن استقبال جودت يعقوب، رئيس القسم، جعلني أشك أنني غادرت المخابرات! أمّا حين استلمني أبو سمير، وكان رجلاً مختزلاً، وكأنّه حبل، نظراً لضموره، ولأنّ كل شيء فيه له شكل طولاني، فقد افترضت أن الرجل من الضعف إلى درجة يفضل السلامة والغياب، وأنه لا يقوى على فتح باب السجن أو حمل مفاتيحه!

للحظة تبادل الرجلان النظرات، تماماً مثل كرة ترتد بسرعة إذا اصطدمت بسطح قاسٍ.

الشيء الوحيد الذي يوازن هذا الطيف الجسدي والحركة العصبية: الصوت. كان صوته خشناً ابحاً مليئاً بالخدوش، حتى يبدو وكأنّه مجموعة أصوات لم يحسن جمعها وتنسيقها، وقد أُعطي إليه كما تعطى جوائز الترضية في مطلع كل عام جديد!

حين استوقفني أول مرة، وهو يشير إلى المشنقة، ظننت أن واحداً آخر هو الذي يخاطبني، إذ لم أتصور أن هذا الصوت يمكن أن يصدر من هذا الجسد. أما حين أصدر أوامره بأن يبول الحرس في المربط رقم 3، فقد تأكّدت أن ذاك الصوت يخرج من هذا الاهاب. وأصبح تأكّدي يقيناً لما طلب من الحاج مصطفى الوقوف مقابل الحائط رافعاً يديه ورجله اليمنى. أمّا وهو يدفعني في المهجع رقم 17، بتلك اليد التي تشبه المسلة، فلم يستطع أن يخفي فرحه:

ـ افرحوا بعبكم، يا أولاد الكلب، جاكم رزق من السماء!

استراح قليلاً تاركاً لهم أن يتفرسوا بوجهي، ثم أضاف بنبرة مختلفة:

ـ هذا لغداكم وعشاكم.. وعشا حميركم، والباقي تسلوا به!

ودون هذه التوصية وُجد في المهجع مَن عرفني. وبأسرع من البرق، وقبل أن يزول ارتباكي، انتشر بينهم خبر مَن أكون!

ظلوا صامتين، نظروا إليّ، رأوني ولم يروني. لم يحركوا ساكناً. قال أبو سمير، وهو يغلق باب المهجع، ولكي لا يترك أي شك عمن أكون:

ـ أنت الآن، يا ابن الخالدي، في أحضان أمك وأبوك، أنت بأيدٍ أمينة وحنونة.

وذهب.

للحظات طويلة ظلّ الصمت يدوي. وتحولت النظرات من الاكتشاف إلى التساؤل، إلى السخرية فالعداء. قالت عيونهم الكثير. أمّا حين رفعت وجهي وبدأت أنظر إليهم، فقد رأيت احتقاراً أقرب إلى الحقد. ولكي يضعوا حداً لنظراتي، وكما بدأ الصمت فجأة، وهم يستقبلونني، بدأ الدوي، وكأنّ طاحونة أوقفها عطل مفاجئ عادت مرة أخرى للدوران. ظلوا مثلما كانوا، لم يغيروا مواقعهم، لم يتحركوا، وظللت عند الباب، قريباً من تل الأحذية والقباقيب، واقفاً.

لم يفسحوا لي مكاناً، لم يتكلموا، أكثر من ذلك افترضوا أنني زائد وغير مرغوب فيه. وحين بدأت أزيح تل الأحذية قليلاً، لأجد لنفسي فرجة، ولو محدودة، سمعت همهمة أقرب إلى التساؤل: «ضيف وبيده سيف». تظاهرت أني لم أسمع. استطعت أن أوسع الفرجة لكي تصبح فسحة صغيرة، تراخيت

فوقها، بعد أن وضعت البطانيات، وأصبحت واحداً من النزلاء!

دارت الطاحونة مرات كثيرة، وفجأة ارتفع الأذان!

خلال فترة الصلاة، رتبت وضعي أفضل من قبل، أبعدت الأحذية ووسعت المكان، أصبح أكثر ملاءمة وأكثر اتساعاً!

بعد أن انتهت الصلاة نظروا إليّ بازدراء: كيف أجرؤ فلا أستجيب للصلاة أولاً، ثم كيف تبلغ الوقاحة بهذا الوافد الجديد أن يستغل صلاتهم وفترة انشغالهم ليغير في مواصفات المهجع؟

بصمت، لكن بتصميم، بدأوا حربهم: بالمقاطعة، بالتجاهل، بنظرات التحدي والسخرية، ثم بالتعريض، إلى أن وصلنا إلى المجابهة.

كلما أستعيد تلك الأيام أقول لنفسي، وبصوت عالٍ: «الله كم لدى الناس من الحماقة!» كنا، جميعاً، صغار العقول إلى درجة يرثى لها. كنا نُجرّ للتفاهات واستفزاز الحرس وللوشايات الكاذبة. كنا نملك، تجاه بعضنا، مقداراً من الحقد يكفي لتدمير ممالك. أمّا ردود أفعالنا لكلمة، لنظرة، فلم يكن يوازيها إلاّ تصرفات المجانين. كيف غاب العقل خلال تلك الأسابيع أو أين اختفى؟

كان ذلك القزم، أبو سمير، الرفاس، كما أطلق عليه نزلاء المهجع 3، مثل مربي الديوك، إذ ما يكاد يوعز بكلمة، بتصرف ما، حتى ننطلق، تماماً كالخيول المحبوسة، وكان يعرف متى وكيف يثيرنا، ونحن مستعدون للاستجابة!

قد لا يكون من المناسب أن أُعدّد المرات التي تعرضت فيها للقتل، إذ لو مت في تلك الفترة فلن يتعدى الأمر: تخلّص الحمقى من واحد زائدٍ بينهم! ولا أعرف من أين تولدت لدي هذه الروح الشريرة لكي أتحدّى أكثر من عشرين دفعة واحدة. لم يكونوا عشرين فقط، كانوا شديدي التعصب، لا يتحملون رأياً آخر، رأياً مخالفاً.

في وقت ما، ولا أعرف إن حصل ذلك نتيجة لحظة صحو أم لحظة جنون، قررت أن أغيب. هل حصل ذلك بسبب الخوف أو التعب؟ هل له علاقة بنبل يغفو في داخل كل واحد منا؟

قال لي أبو سمير، بعد أن مرت بضعة أيام توقفنا خلالها عن العراك،

ولم تعد تستهوينا المناقشة:

ـ الظاهر أن الجماعة كسروا، راسك، وصرت مثل الأرنب!

ـ أفضل من أن يكسره غيرهم!

ـ وتعترف أنك صرت حريمة!

ـ صرت سيد نفسي وما عدت عبد لغيري!

ـ سمعتم يا جماعة الخير! شفتم بعيونكم؟

سمعت همهمة وانكسرث. لم يستطع أبو سمير أن يواصل لعبته هذه المرة، تراجع ثم انسحب انتظاراً لفرصة مناسبة. كنت، تلك اللحظة، مصمماً على أن أحرمه من الظفر، ألاَّ أجعله يفرح، فقد بدا بنظري أن اقصى فرح يمكن أن يحققه مربي الديوك حين يراهن على بعض الديوك وتظفر!

تحملت الآخرين كما تحمل أيوب ديدانه. كنت أقول لنفسي بحزن أقرب إلى الأسى: «نحن السجناء، كلنا معذبون وأذلاء، وهؤلاء الذين وضعونا هنا جميعاً هم الخصوم، خصومنا كلنا، فكيف نكون حمقى بهذا المقدار وننشغل ببعضنا عنهم، وننساهم؟»

الآن وبعد أن ابتعدت تلك الأيام، أشعر بآلام لا حدود لها. لقد كنا مجموعة من الحمقى. مخدرين وسريعي الإثارة، وكنا مستعدين أيضاً لكي نساق كما يريد الآخرون. ومَن هم هؤلاء؟ الحثالة، الذين يريدون رؤوسنا، والذين عُجنوا على كراهيتنا كلنا، لكنهم برعوا في إخفاء هذه الكراهية، في توزيعها على مَن يريدون ومتى يريدون. وكنا نحن المحصورين في هذا المهجع، وربما في المهاجع الأخرى، مع اختلاف بسيط في التفاصيل، والخصوم، شديدي الانقياد والاستجابة، تذكرت كلب بافلوف، وتذكّرت القصص التي تروى عن الناس المضبوعين، قلت لنفسي في البداية، ثم قلت لناس المهجع:

ـ أيُّها الأخوة، وأرجو أن تنتبهوا لما سأقوله...

بعد هذه البداية ارتبكت، رغم أني هيأت نفسي، وكنت أُعيد ما أريد قوله في الليالي السابقة. لما رأيتهم يتطلعون إليّ بتساؤل، أضفت، وكان صوتي متلجلجاً:

ـ لا أعرف كيف أقول ما أُفكّر فيه، ولكن علينا أن نتذكر دائماً أننا

سجناء، وأن أبا سمير وغيره هم الالسجانون. قد تختلف آراؤنا، لكن إذا كنا شجعان وأذكياء فيجب أن نؤجل هذه الخلافات الآن، لأنَّ ليس هنا مكان حلها، وإنما تحلّ في ظل الحرية وبين رجال أحرار.

رأيت استجابة، أو ما يشبهها، في العيون، تابعت بحماس أكبر:

ـ وأعطيكم عهداً، وهذا ليس نتيجة الخوف، وأنتم تعرفون، أنني لن أكون ضد أي واحد منكم. ولن أسيء لأحد، أي كان، ما دمت سجيناً وما دام هو في السجن مثلي، لأنَّ الآخرين يريدون تصفيتنا جميعاً، والجوائز التي تُعطى، إذا صفى أحدنا الآخر، هي جوائز وهمية، وعلينا ألاَّ ننخدع!

لا أعرف إلى أي حد أوصلت ما أريد، لكن شعرت أن الجدار الذي بيننا فُتحت فيه كوى صغيرة. كانت عينا خالد، وكان ينام غير بعيد عني، تضحكان، وإن بتحفظ، وتقولان لي: اصبر، تحمل. كنت أُبادله النظرات، وأرجوه، دون كلمات، أن يجنبني هذا الحقد الذي يطوقني من كل الجهات.

في الليل، ورائحة الأحذية تزكم أنفي، كنت أقول لنفسي بحزن: «أفضل طريقة لبقاء السجن وأن يظل السجان هو الأقوى، أن يكون هناك مَن هم مستعدون لأن يتعاركوا بلا سبب، وأن يعطوا الجلاد الحجة لكي يكون حكماً ثم قاضياً ثم سجاناً». وتذكرت بعض قصص كليلة ودمنة قبل أن أنام، وحلمت بعدد منها في تلك الليلة ثم في الليالي التالية!

بعد أن انقضى أكثر من أسبوع دون خلافات، وقد تأكّد جودت يعقوب من الحرس، قرر أن يطلق سراحي من هذا المهجع.

أربعة أسابيع وعدة أيام ونحن، كما يقولون، نخض الماء ونجرب. لم نتأكد أنه ماء إلاّ في اللحظات الأخيرة، مع أن الأمور كانت واضحة لحظة لقائنا، قبل أن نلتقي. لكن يبدو أن هذا الكم من الحماقة الذي يرقد في قلب الإنسان يجعله يفكر بطريقة حمقاء أولاً، ويدفعه لأن يتجاوز البديهيات بعد ذلك. وإلى أن يقتنع، وبعد أن يدفع ثمناً، وغالباً ما يكون كبيراً، وفي بعض الأحيان حياته، يتعلم، لكن الوقت يكون متأخراً!

في اللحظات الأخيرة، وأنا أُغادر المهجع 17، شعرت أنني أُولد من جديد.

فشفيق ساعدنا، ولا أعرف إن كان هذا اسمه الحقيقي، أم أنه لقب

اكتسبه في السجن أو يضفيه عليه أتباعه، وكان يجلس دائماً في صدر المهجع، وأغلب الأحيان صامتاً، يسبح ويهز رأسه، وشفتاه تتمتمان، لا يعرف بأية أدعية، وقد شعرت، في بداية وجودي في المهجع، أن أي موقف تجاهي لا يكون إلاّ بإيعاز منه، أو على الأقل بموافقته، ثم بتغاضيه، حيث كان يغمض عينه ويغرق في الأدعية... شفيق ساعدنا، بعد أن أخذت الأمور نسقاً مقبولاً في الأسبوع الأخير، وحين شعر أني سأُغادر، بعد أن جاء أبو سمير وطلب مني أن أستعد، ترك شفيق مكانه، ربما لأول مرة، وجاءني:

- ليغفر الله خطايانا وليساعدنا.

وبعد قليل وبحزن:

- الإنسان ضعيف ومعرّض للزلل. ربما أخطأنا معك، يا ولدي، وسبحان مَن لا يخطئ، فسامحنا...

بدأت دموعه تتساقط، وأضاف بصوت متهدج:

- أعرف أنك بعيد عنا، لكن الله يهدي مَن يشاء. ربما أسأنا إليك، ربما ظلمناك، لكن كنا نريد أن نهديك، أن تكون واحداً منا، ولا نعرف إن كنت ستحمل ضغينة علينا أم ستسامحنا، كل ما نأمله ونرجوه أن تسامح...

ولم يستطع أن يتابع. قبّلني على رأسي عدة مرات، وقال وهو يتراجع، تاركاً لأتباعه فرصة وداعي:

- ليبارك الله الناس الشجعان، وليهدهم إلى سواء السبيل!

وتبارى الآخرون في وداعي. كانوا يقبّلونني بطريقة حازمة جداً، لكنها شديدة اليأس أيضاً، فعلوا ذلك لكي لا يبدوا ضعفاء، ولكي يخفوا القسوة التي بدرت منهم في وقت سابق!

حين ودعني خالد قال لي بصوت خفيض، وكأنّه يبلغني سراً:

- الرجال، مهما كانت الخلافات، يلتقون، أما الجبال فإنّها لا تغادر أماكنها!

قال أبو سمير، وهو يشهد الجزء الأخير من الوداع:

- الله.. الله.. على هذا الزمن الخرا.

هزّ رأسه عدة مرات ثم أضاف:

الظاهر أن الدنيا في نهايتها، فإذا صار يرعى الذيب مع الغنم، وصار

الاخوان مع الشيوعيين فدبّر راسك يا أبو سمير!

ظلّ يراقب ويتابع، وكأنّه نسي مهمته. وحين رأى بعض الدموع، وتلك القُبَل والوداع الحار صرخ:

- إلحق حالك يا جودت افندي. . .

وبعد قليل، وكأنّه يخاطب نفسه:

- اولاد الكلب: بوس ومجق، وكأن كل اثنين منهم توم، نسوا كل شيء، وتعال ضبط السجن يا أبو سمرة!

صرخ في محاولة لأن يعيد للسجن هيبته:

- يا الله يا ابن الخالدي، لأن أيام السرور قصار، والسرداب بعده في محله ما طار!

وحملت أمتعتي، مع حبتين من البرتقال، واتجهت إلى المهجع رقم 5.

ما كادت أيام قليلة تنقضي على وجودي في السجن المركزي، وفي المهجع رقم 17، حتى عُرف الخبر. لا أدري مَن نقله أو كيف تسرّب. إن ذلك جزء من حياة السجن الداخلية! وانتقال الأخبار لا يتعلق بوصول أحد السجناء أو الإفراج عنه فقط، وإنما يتجاوز ذلك إلى معرفة أشياء كثيرة تخفى على الكثيرين. ولا يقتصر الأمر على ما يدور في هذه المساحة المعزولة من عمورية، وإنما يتسع ويمتد إلى ما يجري في العالم الخارجي من أخبار وأحداث، غير تلك التي توردها الإذاعات والصحف. صحيح أنها تصل ببطء، أو متأخرة، وربما بعض الأحيان على شكل أجزاء صغيرة، لكنها في النهاية تتجمع لتصبح قصصاً تُروى، تماما كما تتجمع قطرات المطر لتصبح سيولاً!

هذا الجانب من حياة السجن لم يحن الوقت لأن يخاض فيه أو لأن تُكشف أسراره، فما دامت سجون المتوسط تزخر بهذه الأعداد الهائلة من البشر، فيجب أن تكون لهؤلاء الفرصة والقدرة للدفاع، وأن يمتلكوا وسائل لا تستطيع الإدارة أن تكتشفها بسهولة، خاصة وأن تلك الوسائل يتم تعلمها داخل السجن، وبشكل عملي، تماماً كما يتعلم الطفل لغة آبائه.

المهم ـ وهذا التعبير الذي سيتكرر على لساني كثيراً، تعلمته من المهجع رقم 5، ومن رضوان فرج! لما غادرت المهجع رقم 17، ومعي كمية من الأسى والتساؤلات وحبتان من البرتقال، التقيت بالحاج مصطفى. كان مثل عادته ينتقل من مكان إلى آخر. لما رآني ابتسم، لكن بطريقة مختلفة عن المرة

السابقة، توقفت لحظة، ريثما أتمكن من وضع البرتقالتين بين يديه، رفض أن يأخذ أول الأمر، ونتيجة إلحاحي، وبعد أن التفت إلينا أبو سمير بنظرة غاضبة، اكتفى بواحدة، وساعدني في حمل البطانيات مرة أخرى، وشدَّ على يدي عند الساعد!

ما كدت أصل المهجع رقم 5، وبعد أن فتح أبو سمير الباب، وهو يقول:

ـ اللي ترميه السما تتلقاه الأرض. . .

وبعد قليل، وكان يبتسم بسخرية أقرب إلى الهزء:

ـ هاكم ابن الخالدي، رفيقكم وحبيبكم، سولفوا معه وعيشوا بالكلام، والأوهام إلى الصبح، إلى أن تنشق طيازكم، لكن راح تتندمون، والأيام بيننا!

سُمع كلامه أو لم يسمع، لأن الاستقبال الذي مازجه الفرح والهرج طغى على كل شيء. وخلال وقت قصير، وجدت نفسي في صدر المهجع، في مكان يشابه الذي كان فيه شفيق ساعدنا، والجميع يسأل، ينظر بلهفة، يبتسم، وأنا بين الإجابة، والرد على الابتسامات، ومحاولات تذكر الوجوه والأسماء، لا أصدّق ما يجري داخلي وما يجري حولي!

إن الفرحات الصغيرة التي قد لا تعني شيئاً بالنسبة للناس في الخارج، هي وحدها التي تجعل السجناء، هؤلاء التعساء المنسيين، يتماسكون ويستمرون، وتجعل لحياتهم معنى وجدوى.

في الليل وأنا أحدّثهم عن مراحل التحقيق والتعذيب، وقد حاولت أن أختصر كثيراً، وأتجاوز بعض المواقف، كنت أرى في عيونهم فرحاً يفيض على كل شيء، وكانوا يكتشفون صمودهم في صمودي، وآلامي هي آلامهم. ولكي لا يطغى هذا الموضوع ويغرقنا، فقد ارتفع في لحظة مناسبة صوت بالغناء، وارتفع صوت ثانٍ، ثم اندمج وشارك الجميع. كانت الأغاني فرحة سريعة، ونتيجة التحوير، لم تخل من دعابة ومزاح. إنها نفس الأغاني التي تردّد في الخارج، في الأعراس وأيام الحصاد، حتى يظن مَن يسمعها وكأن الفرح يفيض من قلوب هؤلاء الناس، وإنهم لا يعرفون الهموم!

بعد أن قضينا وقتاً في الغناء، ثم في أحاديث متنوعة، واستعدنا تذكر الكثيرين، وكان طابع تلك الأحاديث السرعة وتتخللها الدعابة، ولم ننس

أيضاً تقليد المحققين والحرس، لا أعرف لماذا ملأت رأسي شخصية الحاج مصطفى، سألتهم عن هذا الرجل مَن يكون ولماذا هو هنا؟

ذُكرت عنه أشياء كثيرة، إلى أن قال أبو مكرم، وكان من أقدم السجناء في السجن المركزي:

ـ «أتذكر أنني رأيت الحاج مصطفى، بعد وصولي بشهرين أو ثلاثة، أي قبل أربع عشرة سنة. جاؤوا به إلى السجن المركزي لكي يسفّر، وأعتقد أنها كانت المحاولة الأولى لتسفيره...

«في تلك المرة قلب السجن بصياحه وشتائمه وتحديه. كان قوياً ومجنوناً، ولكم أن تتصوروا كيف كان يتعامل مع الحرس، وكيف يتعامل معه الحرس...

«وباعتبار أن اختلاله كان نتيجة الضرب والتعذيب، بعد أن اجتاز الحدود، ولأنهم ضربوه بقسوة في المرة الثانية، فربما تذكر، إذ فارقه هدوؤه ووداعته وتحوّل إلى وحش! أتذكّر أن الحرس هربوا، أغلقوا الأبواب ولم يتجرأوا على الاقتراب، ومن خلال مكبرات الصوت، وبالاستعانة ببعض المجرمين العاديين استطاعوا الاحتيال عليه وتقييده مرة أخرى...

«كانت أيام مشهودة في السجن. وبعد أن وُضع في السرداب مدة شهر، وباستعمال بعض المخدرات في الطعام، أولاً، ثم بالحقن، أمكن تهدئته، وأُعيد من جديد إلى مستشفى الأمراض العقلية!

«وبعد سنة أو أكثر قليلاً جاؤوا به للتسفير من جديد، وسُفّر فعلاً، لكن نقطة الحدود التركية رفضت استقباله أو استلامه، لأنّها لا تعترف به ولا تريده، وهكذا أُعيد، مرة أخرى، إلى عمورية، وإلى السجن المركزي، لكن لم يبقَ فيه إلاّ أياماً، إذ استعادته مستشفى الأمراض العقلية للمعالجة وللتبرع بالدم أيضاً! كانوا يعلفونه كما تُعلف الدواب، لكي يأخذوا منه أكبر كمية من الدم. كان آنذاك شاباً وقوياً، وظلّ مفيداً بالنسبة لهم.

«أمّا بعد أن أصبح متعباً ومسناً، وأصبحت تكاليفه أكثر من الفائدة التي تُجنى منه، فقد أصبح الاستغناء عنه ضرورياً، وهكذا رأيته في السنين الأخيرة يأتي مرة أو مرتين في السنة إلى السجن المركزي، لكي يُسفّر. كانوا يأخذونه ويعودون به، وأنتم كما ترون الآن: بحاجة للأكل لكن لا يُعطى إلاّ

الفضلات، وهو بحاجة لِمَن يتبرع له بالدم، إذ كثيراً ما يُغمى عليه، خاصة وأن المخدرات استنزفته، لكن لا حياة لِمَن تنادي. . .»

وانتهى أبو مكرم وهو يقول: «ولا تستغربوا إذا وجدتموه في يوم قريب ميتاً»، فالإدارة تعمل بكل الطرق لكي تتخلص منه، بما في ذلك تحريض المجرمين على قتله!

قال أحد السجناء بمرارة:

ـ إنه يغني وينتظر العودة للوطن، ولا يدري شيئاً عن الخازوق الذي يهيأ له!

وتتابعت التعليقات حوله ثم أخذ الحديث مساراً آخر!

في اليوم التالي بدأنا نتأقلم مرة أخرى مع جو السجن. فالقدامى استمروا ضمن منطق العادة، والجدد لا بدَّ أن يتعودوا، خاصة إذا زال الاستفزاز، وإذا خيمت على السجن حالة من الاسترخاء والتسليم، إلى أن يحدث ما يغيرها، كاستقبال أفواج جديدة، أو نقل بعض السجناء تأديباً، وربما جاءت بعض المناسبات لكي تخفف الأحكام، ويطلق عدد من السجناء، خاصة من القسم الآخر!

هكذا كانت الحال، وهذا ما كان متوقعاً. لكن لم يكد يمر أسبوع على وصولي إلى المهجع رقم 5، حتى بدأت في الليل المتأخر، قبل الفجر بقليل، واحدة من حملات التفتيش المفاجئة.

صحيح أن مثل هذه الحملات كانت تجري بين فترة وأخرى، وليس لها في الغالب مواعيد ثابتة، لكن ما رافقها من إرهاب وتحدٍ هذه المرة، إضافة إلى أن الحملة التي سبقتها لم يمر عليها أكثر من شهرين، أشعرت الجميع أن في الأمر ما يتطلب التنبه والحذر.

فالنقيب جودت الذي لا يصل المهاجع إلاَّ نادراً، إذ يفضل أن يستدعي ضحاياه إلى عنده، كان على رأس الحملة. ولكي يكون في أحسن حالاته شرب تلك الليلة كمية إضافية، حتى يستعمل يديه، إذا اقتضى الأمر، لأنه في الأحوال العادية يعتبر لسانه كافياً، ويقرف من اقتراب السجناء، أو من «معالجتهم» بنفسه.

أمّا أبو سمير فقد لبس بذلة جديدة، والعصا الخيزران التي كان يحملها

باستمرار استبدلها بأخرى، رسمية، وهي عصا سوداء مفضضة الرأس، وثخينة، إضافة إلى السير الذي يدخل إلى اليد كسوار، بحيث يصعب سحبها منه، وكان أيضاً يلبس حذاء كعبه أعلى من الأحذية العادية، بحيث يبدو طويلاً ومائلاً باستمرار إلى الأمام، كما يرفع ذلك الحذاء ردفيه بشكل معين.

وإلى جانب هذين كوكبة كبيرة ومختارة من جنود السجن: الأقوياء، الشرسين، البذيئي اللسان والشرهين أيضاً!

وفي محاولة لتأكيد الإرهاب، ولكي يدللوا على مدى الظفر الذي حققوه في جولتهم، فقد جروا معهم أسراهم. كان ضمن الأسرى: شفيق ساعدنا واثنان من رجاله، وثلاثة من مهجع آخر، إضافة إلى الحاج مصطفى، وقد كانت شفته السفلى مدماة وربما مشرومة.

والتفتيش يعني أن يغادر جميع النزلاء مهجعهم، وأن يصطفوا قريباً من الجدار، ويبقوا صامتين، إلاّ إذا سألهم النقيب أو أبو سمير. وغالباً ما يسألون عن «الممتلكات والأدوات الجرمية»!

امتثلنا للأمر. خرجنا إلى الباحة المقابلة للمهجع. وقفنا قرب الجدار صامتين. دخل الجنود. قلبوا محتويات المهجع كلها. اخرجوا «الممنوعات»: الراديوات، ألعاب التسلية، عدداً من الكتب، إضافة إلى حبل، وعدداً من أدوات الطبخ واثنين من بوابير الكاز!

قال النقيب جودت، وكانت كلماته تخرج ثقيلة:

ـ لن نسألكم مَن هو صاحب الراديو والكتب، فأنتم سرسرية وكذابين، وكل واحد منكم راح يقول هذا لي، وأنا ما عندي مكان في السرداب إلاّ لكم واحد منكم يا حلوين، فمَن يحب أن يشرف معنا؟

ولما خيّم الصمت، أشار وهو يقهقه: انت.. وانت. أشار لحامد زيدان وسامي وردة. وحين تقدما خطوة، وقبل أن تكتمل تلك الخطوة، تقدم الآخرون. قال النقيب وهو يتراجع ويضحك:

ـ ما شاء الله كلكم فدائيين...

وبعد قليل:

ـ أنا قلت انت.. وانت، يا الله معنا يا شباب...

واستدرك وكأنّه يعتذر:

Twitter: @ketab_n

ـ الشاب واحد، هذا، وأمسك بثياب أبي مكرم، اختيار كرنيب، أو أنا غلطان عمو؟

صرخ أبو سمير، وقد أخافت صرخته الكثيرين:

ـ خلال دقيقة، الجميع داخل المهجع، عدا اللي شخّصهم سيادة النقيب!

والتفت إلى جنوده:

ـ قيدوهم!

وبدأت عصاه، كعصا الراعي، تتلاعب، وبدأ الجنود يدفعون السجناء إلى داخل المهجع. كانت هناك مقاومة، لكن لم تصل إلى حد الاصطدام، وكان أبو سمير يريد أن يتجنب ذلك أيضاً، وحين دخل معظم السجناء، بدا الشرطة أكثر شراسة وحدّة. والحاج مصطفى الذي كان مقيداً ومدمى، وبدا شديد الحزن ولم يفطن لأمور كثيرة، انتبه في لحظة من اللحظات، خاصة حين تبدت شراسة الجنود، وكأنَّ وعياً مفاجئاً اجتاحه، صرخ، موجهاً الكلام للنقيب:

ـ افندم. . . أنتم حكومة، أنتم قوة، وأنا حاج مصطفى. . .

أخرج أحد الجنود صوتاً من بين شفتيه دلالة الاستهزاء. سمعه الحاج مصطفى، التفت إليه بطرف عينه لكنه تابع موجهاً الكلام إلى النقيب:

ـ يمكن تقتل، يمكن تعدم، لكن الحق حق. .

تعثر قليلاً، لم يستطع أن يعبر. صرخ مثل ثور:

ـ الله امان يا ربي!

سُمع الصوت مرة أخرى. تطلع الحاج مصطفى إلى مصدر الصوت، هزَّ رأسه عدة مرات وقال:

ـ اسمع افندم: إذا أنت شايف حالك كبير الله أكبر، الله أقوى.

والتفت من جديد إلى الجهة التي خرج منها صوت الاستهزاء:

ـ أنت دودة. أنت كلب أعور. أنت ششمة. . .

تلقى ضربة من أبي سمير، ثم صرخ به:

ـ اخرس يا مجنون.

ابتسم الحاج مصطفى بحزن، وخرج صوته واثقاً:

ـ الحاج مصطفى مجنون، تمام، لكن أنت طيزك مدود، أنت جحش، تيس بلون واحد، قط شباط، أنت لا تساوي بشلك، وتشوف!

تركه أبو سمير ريثما أغلق باب المهجع، فقد كان خائفاً من ثورة السجناء، من ردود أفعالهم. لما اطمأن، هجم عليه، وهجم معه بعض الجنود، وبدأوا يضربون الحاج مصطفى، بالأرجل، بكل ما وصلوا إليه من أدوات. وكان هو لا يتوقف عن الشتيمة والصراخ. كانت شتائمه بذيئة، ولم تترك أحداً أو شيئاً، وكان يحاول الدفاع عن نفسه بيديه المقيدتين وبرجليه.

حين اشتد الهياج ورافقه صراخ النساء، خاف النقيب وتحسب للنتائج، صرخ بأعلى صوته:

ـ قف أنت وهو...

وحين خيم الصمت في الباحة، وكانت الدماء تنزف من الحاج مصطفى، وكان يرتجف، التفت إلى النقيب وصرخ:

ـ وانت، ضابط افندي، كس الكلبة أشرف منك، كيف تخليهم يضربوا ناس مساكين؟

ـ بسيطة حاج مصطفى، بسيطة، امش قدامي وراح تشوف.

ـ أنتم عرب يقول: الله أكثر من القرد ما مسخ، والحاج مصطفى ما يخاف إلاّ من الله!

أخذوا الأسرى، أخذوا الممنوعات، وانسحبوا!

تركونا مع أول أضواء الفجر.

كان ذلك اليوم من أصعب الأيام في حياتي. فالعذاب الذي عانيت منه طوال شهور في أقبية التعذيب لا يعادل لحظة من هذا العذاب. والذل الذي أحسه الآن أقسى وأشد من أي موقف واجهته. أمّا الهياج والصراخ اللذان بدرا من السجناء فقد تطامنا مع شروق الشمس ثم مع ارتفاعها. وبعد أن زال الانفعال أو تراجع، قال رضوان فرج، وكان يوجه الكلام إلى الجميع، لكنه يقصد هشام زينو:

ـ المهم... بعد اليوم كل يوم لازم تصير حفلة مثل هذه أو أكبر منها...

ولأنَّ أحداً لم يجبه، لم يعلق، فقد تابع بلهجة منفعلة:

ـ كان رأيي أن نقاوم. أن نحرق السجن، لكن أول اللي غابوا عن القيادة القادة!

تطلع إليه هشام بنظرة عتاب وقال:

ـ طوّل بالك يا رضوان، وهذه ما هي آخر معركة.

ـ أول معركة هي أهم معركة، لأنَّ خطط الإدارة ستبنى على رد الفعل، وراح تشوف!

ـ راح نشوف أشياء كثيرة يا عم رضوان!

انفعل رضوان أكثر من قبل، فقد أحسَّ أن هشام يعرّض به:

ـ طبيعي راح نشوف أكثر، إذا حضراتكم قيادتنا... المهم.

وبعد قليل وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لكن الحق عليّ، لو قاومت، لو رفضت الدخول إلى المهجع، لأخذت الأمور مجرى آخر.

قال واحد لم يظهر وجهه:

ـ اتركونا من الردح، المهم الآن ما هي الخطوة التالية؟ كيف سيكون ردنا؟

ردَّ رضوان بحدة:

ـ إذا كان هذا ردح فمعنى ذلك أن نستسلم لكل شيء، لكل ما تريده الإدارة، واليوم ضربوا الحاج مصطفى أمام أعيننا حتى يعطونا درساً حتى يقولوا ماذا ينتظرنا، ماذا ينتظر كل واحد منا غداً، فإذا كان حضرتك لم تفهم الدرس افهمه!

قال نجيب:

ـ يجب أن نرد، وبأسرع وقت ممكن.

قال أحمد:

ـ يجب أن نعلن الإضراب عن الطعام.

قال صابر:

ـ من المبكر اتخاذ قرارات الآن، يجب أن نعرف دوافع الإدارة أولاً، وماذا حصل للجماعة ثانياً، وعلى ضوء المعلومات نحدد الخطوات التالية.

سأله رضوان بسخرية:

ـ المهم. . وحسب رأيك، هذه المعلومات المطلوب الحصول عليها تحتاج إلى شهرين أم ثلاثة شهور؟

قال هشام بحزن:

ـ الأفضل أن نهدأ ونفكّر بما يجب اتخاذه من خطوات!

تابع رضوان بنفس السخرية:

ـ استرخوا يا شباب، حطوا أيديكم على خدودكم واصفنوا، يمكن الله يفتح علينا، ونصل إلى الحل النموذجي! والحل النموذجي، حسب قناعتي، لن يرضي أحداً ولن يحل أية مشكلة!

كادت الأمور تفلت حين أخذ النقاش هذا المسار، فقد بدأت تغلب عليه الحدة والسخرية، قلت في محاولة لوقف هذا التدهور:

ـ ربما ليس من حقي التدخل، باعتباري جديداً في السجن، ولا أعرف طبيعة الإدارة والناس، لكن اقترح أن يتم التشاور مع المهاجع الأخرى، خاصة المهجع رقم 17، لأنّهم أخذوا أبرز شخص في ذلك المهجع، شفيق ساعدنا، ويحتمل أن يكون لدى الجماعة هناك مواقف أو اقتراحات مناسبة.

تمت الموافقة على الاقتراح، وبدأت المحاولات للاتصال بالمهاجع الأخرى، خاصة المهجع رقم 17، والمهجع رقم 9، وبدأت أيضاً الشبكة الداخلية بتقصي أخبار الگدارة، وأخبار الذين أُخذوا إلى السرداب، ولم ننس بطبيعة الحال الحاج مصطفى.

في الليل، قبل أن ننام، وقد اضطررنا، خلافاً للعادة، أن ننام مبكرين، ربما لتجنب المناقشات، أو لأن الحزن كان ثقيلاً كثيفاً، ولم يشأ أي منا أن يبدو حزيناً أمام الآخرين. . . في الليل وأنا أُغطّي رأسي تبدى لي وجه حامد زيدان. وتبدّت وجوه الآخرين، قلت لنفسي، وأنا أُخاطب تلك الوجوه «أنت يا أبا مكرم زيتونة، والزيتون دائم الخضرة ودائم العطاء، آمل أن تبقى قوياً وأن تحتمل السرداب، لأنّنا نستمد القوة من الجذور، ممن هم أكبر منا». وقلت لسامي وردة «أعرف أنك لن تبتسم هذه الليلة مثل الليالي الماضية، لكنك قوي وكل شيء فيك قوي ومضيء!»

وبدا لي وجه شفيق مضيئاً قلت له: «يجب أن يؤمن الإنسان بشيء ما، لأنَّ الإيمان جذر القوى كلها، وبدونه لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً وأن يستمر إلى النهاية» وحين تراءت لي دماء الحاج مصطفى، ثم دوي صراخه، قلت لنفسي بحزن، وربما سقطت دموعي أيضاً «لا بد من وجود الأطفال والمجانين، لأنَّ هؤلاء لا يعرفون الخوف، ولا تعني لهم شيئاً الحسابات التي تقيد الكبار والعقلاء، ويمكن لمثل هؤلاء الناس أن يعلموا الآخرين الكثير: الشجاعة، والتحدي، والنظر في عيون الجلادين مواجهة».

وقبل أن اغفو قلت، وربما سمع الذين حولي الكلمات التي قلتها:

ـ وأنت، يا مَن أتيت من بعيد، كنت اليوم قوياً كوتد، حاداً كنصل، حراً كالغزال، فهل يتاح لك أن ترى وطنك وأهلك مرة أخرى؟

لا أريد أن أكتب تاريخاً للسجن المركزي، فتاريخ من هذا اللون يجب أن يكتبه الغضب وأن توشيه الدماء. وإذا تذكرت بعض أحداث ذلك السجن، فلكي أستعيد أول معرفة لي برضوان فرج. كيف تعارفنا، ثم تزاملنا وكيف انتقلنا، أكثر من مرة، من ذلك السجن، ثم عدنا إليه، إلى أن أفرج عنه.

بعد شهور من ليلة التفتيش، ولأن الإدارة أخذت تتشدّد وتحرم السجناء من أبسط الحقوق التي كانوا يتمتعون بها: حقهم في الزيارة الشهرية، وتلقي رسائل الأهل، وحقهم في الاستحمام كل أسبوع، ومراجعة الطبيب عند الضرورة، ولأنّها قلّصت فترة التنفس إلى النصف، وساء الأكل أيضاً، فقد بدأ التفكير بإعلان الإضراب عن الطعام.

قال أبو مكرم، عندما سُئل عن رأيه في الإضراب، وكان يتطلع إلى الأعلى ويبتسم:

ـ سامحونا، يا جماعة الخير، إذا حكينا مثل الاختيارية. . .

وتحوّلت الابتسامة إلى قهقهة قصيرة ومحببة، ثم أضاف:

ـ كلما تقدّم الإنسان في العمر تصبح القضايا الماضية بالنسبة له مغرية أكثر، وتكتسب معاني ودلالات لم تكن لها حينها. . .

اهتزّ رأسه بطريقة حكيمة، وكأنّ حشد الذكريات يزحمه تماماً:

ـ أول إضراب عن الطعام كان في السنة الثانية لوصولي إلى السجن المركزي. كان إضراباً مجيداً، لأنّ السجن كله، بقسميه، شارك فيه، ولأنّ

السجون الأخرى سبقت السجن المركزي أو رافقته في هذا الإضراب. . .

وبدا وجهه فرحاً وهو يتذكر:

ـ والناس، نعم، الناس خارج السجن، كانوا معنا في الإضراب، بالضغط بالعرائض، بالاحتجاجات. كل يوم الأمهات والزوجات في وجه وزير الداخلية، في وجه رئيس الوزراء: قتلوا أولادنا، قتلوا أزواجنا، وأنتم تتحملون المسؤولية. الدولة كلها انخضت، وبعد ثلاثة أو اربعة أيام استجابوا لجميع المطالب!

توقف قليلاً، هزّ رأسه عدة مرات، وتابع بصوت مخدوش:

ـ والكثير من المكاسب التي تحققت لسجون عمورية من ذاك الإضراب. اي نعم، كان إضراب يرفع الراس. . .

وتذكّر أشياء أخرى، قال بحدة:

ـ الإضراب، يا جماعة الخير، إذا كان بوقته، والناس معه، أقوى سلاح، يمكن يسقط حكومة ويغير نظام. . .

وتغيّرت اللهجة:

ـ أما إذا كان فشة خلق، أو كان للتهديد، ويُرفع كل ما دق الكوز بالجرة، ترى يفقد قيمته وأهميته، وبلاه أحسن!

ويبدو أنه تذكّر شيئاً خاصاً، غيّر جلسته وهو يتابع:

ـ وأتذكر دعوات الدريسي للإضراب. . .

هزّ رأسه وقال:

ـ الدريسي اليوم، مثل ما سمعت، قنصل أو سفير لعمورية في واحدة من الدول الأوروبية. . .

أخذ نفساً عميقاً وحزيناً، وتابع:

ـ أما عندما كان معنا، في هذا السجن بالذات، فكان الإضراب على لسانه مثل التسبيح: إذا ضرب أي سجين عصا، أو قضى ليلة في السرداب، إذا تأخروا في الأكل أو وجد سوسة في حبة الفول، إذا صرخ في وجهه نجم ـ وكان نجم مثل أبو سميرنا ـ أو وضعه في النظارة: يا الله يا شباب: إضراب عن الطعام. راح يوم وجاء يوم، أصبح الإضراب مسخرة!

وبدا أبو مكرم حزيناً مهموماً، وبعد قليل:

ـ بالحقيقة هو الذي أفسد فكرة الإضراب، وعلى الأغلب بالاتفاق مع الإدارة، وما استطعنا نعيد للإضراب اعتباره إلاّ بعد عدة سنوات، وبعد ما ترك السجن.

وانتهى أبو مكرم، وقد عاود وجهه الابتسام:

ـ لذلك، يا جماعة الخير، أنا ذكرت لكم بعض الوقائع حتى تستفيدوا منها، وأنتم قرروا!

سأله نجيب:

ـ ذاكرتك قوية يا أبو مكرم، بس مثل ما قالوا من قبل: إذا ردت تحيّره خيّره، وأنت بدل ما تفيدنا بخبرتك وتجربتك تحكي لنا قصص، ونحن نريد رأيك.

ـ أنا قلت رأيي يا أستاذ نجيب!

قال رضوان بحدة:

ـ عليّ الطلاق ما فهمت أي شيء، كلها سوالف وحكايات: قبل عشر سنين، قبل عشرين سنة، وتعال افهم! لازم نجيب منجم مغربي حتى يفك هذه الطلاسم!

رد أبو مكرم وهو يقهقه بتلك الطريقة المحببة:

ـ النجار المضبوط، يا رضوان، يقيس سبع مرات ويقص مرة واحدة، وانا، لما حكيت عن الدريسي، فحتى أقول لكم أن الإضراب شيء ما هو سهل.

ـ يعني أنت ضد الإضراب؟

ـ أنا لم أقل هذا الشيء!

ـ يعني أنك معه؟

ـ ولم أقل هذا!

ضحك رضوان بسخرية وضرب الجدار بقبضته وقال موجهاً الكلام إلى الجميع، بعد أن هزّ رأسه عدة مرات:

ـ مثل ذاك المثل، يا جماعة: مقسوم لا تاكل، صحيح لا تقسم، وكل حتى تشبع! هذا رأي أبو مكرم، أو أنا غلطان؟

ردّ أبو مكرم بثقة:

ـ غلطان، يا سيدي!

قال رضوان، ولم تزايل كلامه السخرية:

ـ فهّمني غلطي، عليك نور!

ـ الغلط والصح يا رضوان أشياء نسبية. غلط اليوم كان في يوم سابق، أو عند ناس آخرين، منتهى الصحّ، والعكس صحيح!

ـ وبرأيك ألا نحتاج إلى منجم مغربي؟

ـ نحتاج إلى عقل يفرز ويقدر ويتخذ موقفاً!

ـ عليك نور.. وهذا ما نسألك عنه!

ـ هذا الموضوع لا أبتّ فيه، للمهجع مسؤولين، وله لجنة، وهذول عندهم معلومات، واتصالات وعليهم تقدير الموقف واتخاذ القرار، وأنا أول مَن ينفذ القرار، أما إذا كنت تريدني أنوب عن الآخرين حتى أقف معك، حتى أؤيّد رأيك، فهذا لا تتوقعه!

قال نجيب بحدة:

ـ نحن الآن، وقبل اتخاذ القرار، متساوون، ولكل واحد منا رأيه، وما يجري بيننا مجرد تشاور ومن حقنا إبداء الرأي، لا أن نكون مثل الغنم ننفذ ما يريده الراعي!

قال رضوان، وكأنّه يحدث نفسه:

ـ أنا مع الإضراب ولازم نضرب...

وبعد قليل وبتحدٍ:

ـ وأنا مستعد اضرب حتى لو كنت وحدي!

واتُخذ قرار بالإضراب. أضرب قسم من السجن المركزي، استمر الإضراب سبعة عشر يوماً، ولكنه انتهى، دون أن يحقق النتائج. أكثر من ذلك، رُحّل القسم الأكبر من نزلاء المهجع رقم 5 ورقم 9 إلى سجن العفير.

الرحيل حالة قلّما يعيش السجن مثلها. فالعداوات التي كانت تظهر بين السجناء وبين المهاجع لأقل الأسباب، وكانت في أحيان كثيرة تسمم الجو وتجعله أقرب إلى التوتر، تراجعت هذه العداوات أو زالت تماماً، لتحل بدلاً عنها حالة من الحزن الشفيف الأقرب إلى الأسى. والعواطف التي خفيت فترة طويلة، حتى على مَن كانت في صدورهم، وأولئك الذين تجلدوا وتكتموا

على ما في قلوبهم متعمدين، لم يستطيعوا أن يستمروا كذلك. كانت لحظات الصمت منذرة، والحركات عصبية، والعيون تهرب وهي تلتقي، وشابت الأصوات رجفة واضحة، شديدة الدلالة، وكأنها تسبق لحظة البكاء.

أما عندما أصبح الانتقال قريباً ومؤكداً، فقد طغى الحزن، وكان أشبه بحبل أو بيد قاسية تطبق على الرقبة.

ورغم أن المنقولين كانوا أكثر انشغالاً، وأكثر حزماً، إلاّ أنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا طويلاً، إذ ما كادت الأيدي تمتد، ويتبادل المقيمون مع الراحلين تحيات الوداع والقُبل، حتى هجم البكاء، وقد أحرج ذلك الكثيرين، فارتفعت الأناشيد، وشاب لحظات وداع أخرى المزاح، أما عندما بدأ مكبر الصوت يدوي منادياً على المنقولين، وطالباً منهم التجمع خلال دقائق في النظارة، فقد خيّم شعور قوي بالموت.

إنها لحظات تشابه تلك التي يُحمَل خلالها الميت لمغادرة البيت، إذ رغم الاعتراف بالموت، بمشاهدته، فلا أحد يستطيع أن يوقف انفجار الأصوات الرافضة والمتحدية، ومعها الأصوات المنكرة التي لم تعترف بما حصل، وأيضاً الأصوات المستسلمة الباكية، والتي تبكي نفسها من خلال بكاء الآخرين، وكأن حالة من التخلّي، الأقرب إلى الخديعة، ما يقع تحت الأنظار وأمام العيون!

لكن في اللحظة التي غيّبت بوابة السجن آخر المنقولين، ارتفعت الأناشيد الحماسية وملأت الفضاء كله، وشكلت ما يشبه المظلة التي تحمي الذين بقوا والراحلين!

بدأت المسيرة بعد أن انتصف الليل، في واحدة من ليالي شباط الباردة والصاحية. كنا محروسين بعدة سيارات مسلحة، وكانت حركات الحرس محاذرة وخائفة في آن واحد، وبدت الأجواء مشحونة إلى درجة أن أي خطأ أو تحدٍ يمكن أن يفجّر الوضع كله.

قال لي رضوان، وهو يحاول أن يتقي الريح الباردة، بأن يخفض رأسه اقصى ما يستطيع:

ـ إذا كان برد عمورية بهذا الشكل فإنّ برد العفير سوف يقتلنا!

وبعد قليل، وقد مال عليّ، وبهمس:

ـ سأهرب، لقد قرّرت، وسوف أقفز من السيارة في أول فرصة، ومهما كانت النتائج!

لم أستطع أن أُميّز وجهه في الظلمة لأتبين مدى جدية الكلمات التي قالها، قلت وخرج صوتي حاداً:

ـ مجرد التفكير بالهرب جنون، فلا تحاول، ولا تعرض المجموعة للخطر!

خلال أقل من ساعة دخلنا الجحيم: بدأت الصحراء.

والصحراء في مثل هذه الليالي، ليست إنذاراً بالموت، هي الموت بعينه، فالمدى المفتوح، وتلك السماء البعيدة لا ينفثان برداً، بل روح البرد، خلاصته المصفّاة الكاوية، حتى ليحس الإنسان، وكأنّه أصبح مجموعة من الأعضاء المنفصلة، لا يمكن لأية حرارة أن تلحمها مرة أخرى.

وسجن العفير لم يكن سجناً، كان قلعة وسط الصحراء، كان مخفراً متقدماً لمنع تهريب الأسلحة، لفض خصومات العشائر، لجبي الضرائب، وقيل إنه كان معبداً للجن في تاريخ قديم! لكن عبقرية الساسة في عمورية جعلته مكاناً للتأديب، ثم سجناً للخطرين من الخصوم السياسيين، إلى أن أصبح مزاراً يجب أن يصله كل مَن تسوّل له نفسه معاداة النظام في عمورية أو تغييره! ولذلك كان يُرسل إليه السياسيون لكي يزوروه ويقضوا فيه أياماً، أو ليبقوا فيه سنيناً متتالية، إلى أن ينسوا ما كانوا يفكرون فيه، وتختلط أحلامهم مع يأسهم، وخلال ذلك ينساهم الناس أيضاً!

ظلّ البرد حاداً خطراً، إلى أن بدأت الشمس بالظهور، ثم لما ارتفعت في السماء. أمّا حين ظهرت قلعة العفير، فقد بدت من بعيد وكأنّها دملة متقيحة، بلونها الأصفر الكامد، وأقرب ما تكون إلى مربع متسخ لفرط ما مرّ عليه الزمن، مع نتوءات أُضيفت على عجل.

رغم الصورة المنفرة التي كانت في ذاكرة كل مَن يعمل في السياسة، أو له صلة بها، عن العفير، فإنّ صورته وأنت تراه في هذا المدى يبعث على الرهبة. مَن شيده؟ كيف جاءت حجارته ومن أين؟ مَن يستطيع أن يعيش في هذا المكان المعزول؟ وعشرات الأسئلة الأخرى!

كنا في موكب من ست سيارات، وكان عددنا حوالى الثلاثين. ما أن اقتربنا وبدأنا نميّز الأماكن والبشر، حتى بدت القلعة أكثر قسوة ودمامة. كان يروح ويجيء حولها أشخاص أقرب ما يكونون إلى الزواحف أو النمل ذوي اللونين: الأسود والبني. تطلعنا إلى القلعة، وتطلعنا إلى بعضنا. كانت القلعة تكبر وكنا نغيب تحت ذرات الرمل التي لم تكف تتراكم طوال الطريق الصحراوي، فغطت وجوهنا بكاملها، وبدت العيون، وهي تنفتح وتنطبق، وكأنّها سلاحف صغيرة ترفع رؤوسها دلالة الحياة كلما شعرت بالأمن!

توقفت السيارات على مسافة من القلعة. رأينا صفين من الجنود عند الأسلاك الشائكة. قال الضابط الذي كان يقود الموكب:

ـ تفضلوا يا شباب...

قالها بطريقة مليئة بالسخرية، وبعد قليل:

ـ تغبّرتم كثير في الطريق ولازم لكم تنفيض!

كان صفا الجنود منتظمين، ويمتدان من البوابة إلى ظلال القلعة، وكان علينا أن نسلك الطريق الوحيد المؤدّي إلى هناك. حين رأى الضابط تردّدنا، صرخ:

ـ اتركوا الأغراض وهرولوا.

ومثلما يقود الكبش الغنم، كان رضوان أولنا الذي يدخل الدهليز، وكنا وراءه على مسافات متقاربة. ما كدنا نقع بين الصفين حتى بدأت تنهال

علينا الضربات من كل مكان، بالعصي، بأعقاب البنادق، بالأحزمة العسكرية، بالأرجل، كانت تنهال كالأمطار، كالشهب، على الرؤوس على الأكتاف، على قصبات الأرجل، على الظهور. فإذا زدنا سرعتنا قليلاً يضيق الدهليز ليحدّ من هذه السرعة، ليمنع تدفق البشر، فإذا ضاق أكثر مما ينبغي، وحدَّ من إمكانية الضرب أو قوته، انفرج قليلاً ومع الضرب الشتائم، الأصوات الغاضبة، التحدّي!

لقد كان دهليزاً للموت، أكثر منه طريقاً إلى القلعة فالسجن. وما كدنا نجتازه حتى بدأت الآلام تدوي، تنبع من الجروح، من الكدمات؛ وربما حتى الآن أستغرب أننا نجونا. صحيح أن الآثار ظلت أسابيع وشهوراً بالنسبة لعدد غير قليل من السجناء، إلاّ أنَّ السؤال: كيف قدّر لنا أن نبقى أحياء، وأن نشفى؟

كان في العفير عدد قليل من السجناء، من أولئك المنسيين. وإلى ما قبل وصولنا كان عدد جنود البادية يفوق عدد السجناء، وكان هؤلاء الجنود من المبعدين، المغضوب عليهم، ولذلك اكتسبوا إضافة إلى ما كان عندهم، شراسة وسوءاً لا يمكن أن يوصفا. كانوا يتفنّنون في إيذاء السجناء، في إهانتهم، وكانوا شديدي القسوة، وكأنّهم ينتقمون من كل شيء، من رؤسائهم، والمجتمع والآخرين، في محاولة لإظهار أهميتهم وتفوقهم، ولم يكونوا أيضاً يخضعون لأي حساب.

فإذا تأخرت رواتبهم يوماً واحداً، فالسجناء هم المسؤولون عن التأخير، ولا بد أن يضاعف ذلك في حجم الأذى الذي يقع عليهم. وكذلك الحال إذا تأخّر المطر! أما إذا هبت عاصفة رملية، وحملت معها خيرات الصحراء، فالسجناء هم السبب، لأنَّ وجوههم حملت الشؤم من كل عمورية إلى هذا المكان! وإذا مرض أحد الجنود فلا بد أن تكون عين شريرة لأحد السجناء هي التي أمرضته، وعلى الجميع أن يدفعوا الثمن!

أما إذا قلَّ الطعام، فإنَّ أية كمية تكفي السجناء، ولا حاجة للقلق أو البحث عن كميات إضافية!

أما الحفر التي حُفرت في هذه الصحراء اللعينة، ثم رُدِمَت، ليطلب منا حفرها من جديد، وردمها مرة أخرى، فإنَّ عددها يزيد يوماً بعد آخر،

ويتضاعف شهراً بعد شهر.

من أين اكتسب هؤلاء الجنود القسوة والسادية وهذا الكره للآخرين؟ وكيف تحولوا إلى مخلوقات شوهاء لا تعرف الرأفة أو الرحمة؟ وهل يمكن استعادة الإنسان الذي خبا أو مات في داخلهم؟

يكرهون القراءة، الكلمة المكتوبة، النبتة الخضراء، المكان النظيف؛ يكرهون أن يضحك إنسان، أن يتحدّث إلى آخر، أن ينظر إليهم، أن ينظر إلى شيء؛ يكرهون أن يُسألوا، ويكرهون أكثر الجواب! كيف تعلموا هذا الصمت كله، أين تعلموه؟ وهذا السواد المشرئب الذي يبرز في العيون والهيأة ورد التحية من أين أتاهم؟

يقول أبو مكرم، حامد زيدان، الذي وصل إلى العفير ست مرات، وقضى فيه أربعين شهراً:

ـ لا أملك تفسيراً موثوقاً لتصرفات هؤلاء الجنود، وأعتقد أن أي تفسير بعامل واحد، أو نتيجة سبب محدد، لا بد أن يؤدّي إلى الخطأ...

يمكن أن يكونوا حثالة، أناساً منبوذين، ويحملون عقدهم وعقد أجيال من العبيد، لكن هذه الصفة في البشر يجب أن تدفعهم إلى التضامن مع الآخرين الذين يعانون مثل معاناتهم، وإلى مساعدة المظلومين والمهانين مثلهم...

يمكن أن يكونوا معاقبين، نتيجة أخطاء ارتكبوها، أو نتيجة قسوة الرؤساء وفساد النظام، لكن المعاقب لا يصل إلى حقوقه بمعاقبة الآخرين، خاصة الذين لم يكونوا سبباً فيما وقع عليه، فلماذا يتركون الأعداء الحقيقيين ويتجهون إلى الضعفاء؟

كما أن الجهل ليس سبباً، فالذي كان غارقاً في الصحراء، ولم ير البشر والمدينة، يبدي استعداداً للمعرفة وللتعلم. أما هؤلاء فقد انقطعت صلتهم بالصحراء منذ وقت طويل، وأصبحوا مدنيين أو أقرب إلى المدينة، بالسكن والعلاقات والمعرفة، لكن يبدو أنهم لم يكتسبوا من المدينة إلاّ أسوأ ما فيها: خدمة الضباط، وطلب رضاهم، إضافة إلى تعلم شتائمهم، وشرب بقايا الويسكي الذي يتركونه في الزجاجات المرمية.

وانتهى أبو مكرم، وهو يقول باستغراب وأسى:

ـ اعتقد أن هؤلاء الجنود نمط خاص من البشر، وهم نتيجة أسباب كثيرة متداخلة ومعقدة، وربما أصبحوا مادة لعلماء النفس العرب: دراسة النفس المشوهة نتيجة عدم التوازن. لأنَّ الأمر لا يتعلق بصدمة الحضارة، ولا يمكن أن يُفسّر بعقدة الدونية، كما أنه يتجاوز عقدة الاضطهاد، إنها عقدة بدماتولوجيا، أي عقدة البدو والموت والتكنولوجيا.

وقبل أن ينتهي، قال أبو مكرم:

ـ قد تحسبني ساخراً، لكني أعني هذه التشوهات، ولا أعرف متى يتصدى العلماء لدرسها، تمهيداً لمعرفتها... ثم حلها، إذا استطاعوا أن يجدوا لها حلاً!

مَن عرف سجن العفير لا بد أن يتفق مع حامد زيدان، أو على الأقل يشاركه جزءاً من أفكاره، فهؤلاء الناس، بدل أن يتغيروا، أصبحوا قادرين على تغيير الآخرين!

يمكن للبدوي أن يقسو على النبتة الخضراء، إذ ربما لا يعرفها، أو لأنه محروم منها، ولذلك ينظر إليها بطريقة شديدة التعقيد، فهو بمقدار ما يحبها ويشتهيها، فإنَّه شديد القسوة عليها، ليقينه أنه سيفقدها، أو لن يجدها مرة أخرى، ولذلك يحاول أن يصفي حسابه معها مرة واحدة وإلى الأبد، تماماً كمَن يحب امرأة، ويعرف أن لقاءه معها سيكون الوحيد والأخير، ولذلك يريد أن يترك أثره فيها وعليها حتى لو كان بالموت!

لقد ابتعدت كثيراً، فأنا أسرح، في هذه الصحراء وحدي. أحفر وأردم. أبني ممالك وأُهيّئ جيوشاً لاجتياحها. أرقب النجوم وأعد أياماً، وأعدّ ظهري أيضاً لاستقبال الضربات العمياء وهي تنهال عليه أثناء ذهابي للحمام، لاستقبال الأرزاق، للتمشي، وأعود لأقرأ بعض الكتب الصفراء التي سمحوا لنا بها، بعد الكثير من الرجاءات والتنازلات.

وماذا لو صارحتكم بشي غريب: كنت أُفكّر أن تطول إقامتي في سجن العفير، كي أدرس ظواهر عديدة تلفت نظري: ابن القرية، والذي يعيش على ما تنتجه الطبيعة، بالدرجة الأولى، يتحول إلى معادٍ إلى الخضرة والطبيعة!

كان سالم العطيوي (تصوروا الاسم) ابن قرية طيبة الوادي، معادياً لكل ما هو أخضر! فنحن السجناء ليس لدينا إلاّ الوقت، وكنا نحاول أن نتعامل

معه بشكل عقلاني: أن نقرأ أن نغسل ملابسنا، أن نزرع.

كنا نقضي الأيام، تتلوها الأسابيع، ونحن ننقل التراب، نبعد الحجارة، نمهّد الأرض لكي نزرع بعض النباتات. ما تكاد هذه النباتات ترتفع قليلاً حتى يسرّح سالم الغنم فيها. ما تكاد حبات الفول تكتنز وتبشر بموسم، ويكون للجنود فيها الحظ الأكبر، نعم الجنود، ثم السجناء، حتى يدوسها بقدميه، كان يطحنها، يحولها إلى ركام تأنف حتى الغنم من الاقتراب منها أو اكلها.

كنت أُفكّر أن أدرس هؤلاء البشر، أن أعرف الأسباب والدوافع التي تجعلهم هكذا.

حتى الآن لا أجد تفسيراً. لا أعرف لماذا يفكر هؤلاء الناس بهذه الطريقة، وأية فائدة أو متعة يجنونها. إن في الأمر ما يستعصي، كما يقول حامد زيدان، على التفسير الواحد أو السريع. ولذا كنت أتمنى أن أقضي فترة أطول، لكن «امنية من هذا النوع ليست متاحة». إنهم يقررون كل شيء!

ولأنّي لا أنوي أن أكتب عن العفير، فقد تأكّدت أن ثلاثة أو أربعة من رفاقنا سوف يفعلون ذلك، فأريد أن أقول: عمورية منطقة موبوءة: إنها خليط من الثقافات والحضارات، لم تستطع، أو ربما لم يتح لها، أن تجد شخصيتها، أن تكون هي: بنت المكان، والجذور، والعصر، لكي تدب فيها الحياة. وإذا ظلت كذلك فإنّ الموت ما ينتظرها، سوف تتآكل وتتداعى ثم تسقط، لتصبح كتلة من المواد غير المتجانسة، غير القابلة للهضم، ثم تعصف بها رياح الموت فالنسيان!

كان رضوان يقول لي بنوع من العتاب الممزوج بالمرارة:

ـ من الخطأ أن يذهب الإنسان بعيداً في تفسير الأشياء. فهؤلاء الناس أبناء اليوم، وليس لهم علاقة بالتاريخ والجغرافيا، فإذا حاولنا أن نبحث عن الأصول، كالآثاريين أو علماء الأجناس، نتعب ولن نصل!

وحين أقول له:

ـ وكيف نفسر تصرفات هؤلاء البدو المساكين، وأولئك الذين جاؤوا من القرى الفقيرة؟

يتطلع إليّ بنظرة مشفقة ويجيب:

ـ إنها تصرفات مساكين، وبدو أيضاً، ولا حاجة لأن نبحث أكثر من ذلك، لكي نصل إلى قوانين!

ـ والطريقة التي يجب أن ننقذ بها هؤلاء الناس، لأننا بانقاذهم ننقذ أنفسنا أيضاً؟

يميل عليّ، يلامسني تماماً، رغم أننا نحفر ونردم بعيدين على الآخرين، ويقول:

ـ تريد رأيي الحقيقي؟

أهزّ رأسي أن هذا ما أريده تماماً، فيتابع:

ـ فالج لا تعالج...

وبعد قليل:

ـ هؤلاء الناس لا فائدة منهم. اغسل يدك تماماً. لا حياة لِمَن تنادي. لا فائدة... نعم لا فائدة!

ـ ولكن كيف؟ هل نتركهم؟ وإذا تركناهم هل سنتخلص من شرورهم، هل تنتهي المشكلة؟

ـ يا سيدي..

ويضحك بحزن ثم يضيف:

ـ نحتاج إلى عشرة أجيال، وربما أكثر، حتى يتغير بشر هذه البلاد، ولذلك لا تتفاءل ولا تتوقع!

وبعد أن يخيم الصمت فترة غير قصيرة، يخرج صوتي حزيناً مشروخاً:

ـ لو افترضنا جدلاً أننا مضطرون للانتظار عدة أجيال، فهذا الجيل البعيد الذي تبشر به، هل يأتي وحده، أليست نواته في ظهور رجال هذه الأيام وأرحام نسائها؟

ـ إنه جيل آخر مختلف، مغاير تماماً، ولا أتصوره أنه سيولد من أصلاب هذه المخلوقات الشائهة التي تراها تدب حولنا الآن.

ولم نصل إلى نتيجة، لكن أحسست أن رضوان ينوس بين التعب والتشاؤم. قلت لنفسي «إن مجرد بقاء الإنسان حياً في هذا المكان بطولة، ولذلك نكون مبالغين، وأيضاً غير واقعيين، إذا طالبناه بالتفاؤل».

ذات مرة، كنا نتحدث هكذا، مرَّ سالم لكي يتفقد إنجازات الحفر

والردم، وخز رضوان بعصاه وقال بسخرية:

ـ والله حرام فيك الأكل، ولو كنت محل أبوك لذبحتك بيدي قبل ما اخلي العفير يخلص عليك، لأنك لا للخل ولا للخردل، لا رفعت راس العائلة ولا تعرف تشتغل!

والتفت إليّ وقال:

ـ الظاهر أن مستقبل العالم شاغلكم تماماً، ومن اليوم راح نشغلكم بالقطعة، لأنّ شغل الساعة لا يناسب هيك اوادم!

هزّ رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ وبدل حفرة بحش وحفرة ردم، لكم اكرامية اليوم، كل واحد بدل الواحدة ثنتين، سامعين؟

وصرخ على العسيلي، فلما اقترب منه جندي البادية قال له:

ـ أعطينا الجماعة اليوم علاوة، بدل الواحدة. . .

وأشار باصبعيه إلى المطلوب، وتابع:

ـ واريدك تلعّب عصاتك على كتافهم إذا تراخوا، إذا قصّروا، أمّا إذا نسيوا فأذبحك إذا ما ذبحتهم، سامع؟

ولم يكن العسيلي بحاجة إلى أية توصية، فقد كان أشرس الجنود وأكثرهم بذاءة، إذا ما كاد العطيوي يمضي مواصلاً تفقده للآخرين، حتى تلْقينا عدة ضربات من خيزرانته. كان يضرب بالذهاب والعودة، تماماً مثلما يضرب بوجه اليد وبباطنها، وكان العسيلي يفخر أنه بارع بهذه الطريقة، واتبع الضربات بالتهديد:

ـ والله لاقعد لكم ركبة ونص، يا أولاد الكلب، واللي يخلصه غيركم بساعة لازم تخلصوه بدقيقة، سامعين؟

وانصرفنا بحمية كبيرة لإنجاز ما طُلِب منا!

إذا كان لجميع السجون «قوانينها» بغض النظر عن مدى قسوة هذه القوانين، فإنّ العفير يترفع أن يكون له أي قانون! وحتى الأعراف التي يمكن أن تسود نتيجة العادة، أو لأنّ السجناء السابقين فرضوها، فإنّ أي نفر من جنود البادية قادر هنا على تجاوز أي عرف وفرض ما يريد!

كان ذلك يجري كل يوم، حسب المزاج، تبعاً لأحلام الليلة السابقة، وربما نتيجة اسم السجين أو شكله، أو لأنّ رقمه كان فردياً، أو مزدوجاً أثناء التعداد!

أحد الأيام، بعد انقضاء شهور، وكنا في طريقنا إلى الورشة، إذ حُوّلنا إلى عمال ننقل الرمل والاسمنت من أجل بناء جناحين جديدين، وكان العمل شاقاً إلى درجة كبيرة، خاصة وأن جنود البادية كان يروق لهم أن يتحولوا إلى مراقبي بناء شديدي الانتباه والنشاط، فتخلوا عن الكلام إلى العصي! أصبحوا أُناساً لا يطاقون. قال لي رضوان وكنا نقترب من الورشة وكان صوته مليئاً بالقهر والمرارة:

ـ سأهرب اليوم أو غداً.

ـ ستهرب؟

ـ اي نعم، لأنّي لم أعد احتمل!

ـ ولكن كيف ستهرب وإلى أين؟

ـ سأُدبّر أمري!

ـ أنت مجنون، لأنّك ستموت في الصحراء!

ـ لا تخف، اتفقت مع أحد الرعاة على مبلغ من المال وسيتكفل بي!

نظرت إليه بإمعان لأكتشف ما إذا كان يعني ما يقوله. كانت عيناه شديدتي الحزن واليأس. وكان مرهقاً. قدّرت أن توصيات العطيوي تنفذ بدقة، وأن جنود البادية حولوا رضوان إلى هدف، باعتباره ابن عائلة مرموقة، وكان أبوه وإخوته يرون في عمله السياسي نزوة وسبة، ولا بد أن يتوقف، وفي أقرب فرصة، لذلك تواطأوا، بشكل ما، مع السلطة في أن تقسو عليه، لبعض الوقت، لعله يتوب ويتراجع.

قلت، بعد أن تأكدت من تصميمه

ـ اسمع يا رضوان: العفير صعب، لكن الصحراء أصعب. الآلاف الذين وصلوا إلى هنا عادوا، أمّا الصحراء، فإنّ الآلاف الذين حاولوا تحديها ابتلعتهم، ولم ينج إلاّ كل طويل عمر، ولذلك أرجوك أن لا تفكّر أبداً بهذه المغامرة.

قال بتحدٍ:

ـ لابد أن أفعل!

رددت بنزق وضيق:

ـ وما يدريك أن يكون الراعي جندي بادية متنكراً؟

للحظة، وكأنّ هذا الهاجس لم يخطر بباله، نظر إليّ بتساؤل، فتابعت:

ـ هؤلاء البدو، خاصة الرعيان، على فرض أنك رتبت أمورك مع واحد منهم، ألعن من الأبالسة: يأخذ منك ويأخذ ممن يسلمك إليه، فلا تغلط ولا تتورط!

ضرب على كتفي بمودة زائدة، وليؤكّد بساطتي أيضاً، وقال:

ـ أخوك أبو فرج دبّر الأمور فلا تقلق ولا تخف!

ـ أنا خائف يا رضوان، وأرجوك أن تؤجّل الموضوع على الأقل..

كان سالم العطيوي لابداً في إحدى الزوايا. رآنا منهمكين في الحديث، برز لنا كما تبرز الأرانب تحت الأضواء. حين تأكّد انّا رأيناه تقدم خطوة إضافية وابتسم. لما اقتربنا وكدنا نلامسه قال باستهزاء:

ـ انشاء الله انحلّت معكم مشاكل العالم؟

لم نجب، حاولنا المرور، وخز رضوان بعصاه وقال:

ـ اللي يشوفك يقول: يستحق الصدقة. . .
وبعد قليل وبنبرة مختلفة:
ـ تركت العز والنومة الهنية ولحقت الزعران والسرسرية!
ولأنيِّ أحتُجزت وراء رضوان، فقد التفت إليّ وقال بسخرية:
ـ أنت داشر، أباً عن جد، كلكم سرسرية، وما في العائلة، حتى عاشر جد، واحد يرفع الراس. . .
وضحك بصخب، وأضاف، وكأنّه اكتشف أمراً خطيراً:
ـ ومخول، يا ابن الكلب!
وبدل أن يضربني بالعصا ضربني برجله. كانت الضربة كأنها حد السيف، فقد تركّزت على قصبة رجلي اليسرى، وحين تقدّم رضوان خطوة، وتبعته، وإن يكن بصعوبة، فقد جاء الشلوت الثاني على طيزي، بين الإليتين، وقارب الخصى. شعرت، للحظات، وكأنيِّ كرة، وأنيِّ أطير، لكن من الألم!
صرخ بنا ونحن نهرول باتجاه الورشة:
ـ دواكم عندي يا بشوت يا أولاد ستين كلب!
في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة، لم يحصل شيء غير عادي.
في اليوم التالي غاب رضوان.
أكتُشف غيابه عند العد المسائي. لم أفطن للموضوع طوال النهار، فقد كان معلم البناء جندياً سابقاً في سلاح البادية، وكان أحرص من الجنود على الانتهاء من بناء جدران المهجعين، ولذلك ملأ الدنيا ضجيجاً، الأمر الذي فوّت عدداً من «الأعراف» التي كانت سائدة في العمل.
في المساء، وحين استلمت دورية الليل من دورية النهار، اكتشفت أول الأمر وجود النقص. واكتشاف من هذا النوع مثير للخوف والقلق، حتى قبل أن يُعرف مَن الذي هرب، وكم عدد الذين هربوا!
كانت أمنسية، ثم ليلة، شديدة القسوة. إذ بمجرد اكتشاف النقص تحوّل السجن إلى خلية نحل: الركض، الإنذار، التحفز، تعمير الأسلحة، والتردّد لآخر لحظة والخوف من إبلاغ الإدارة! إذ يمكن أن يكون مجرد خطأ عددي، ويمكن أن يتأخر أحد في المراحيض! ويحتمل أن يكون أحد السجناء ـ العمال نام في الموقع، أو تأخر في مكان ما!

بعد أن جرى تعداد السجناء أكثر من مرة، وتبينّ أن النقص موجود، جيء بالسجل، ونُودي على السجناء بالأسماء. ورغم أن هذه الطريقة لا تخطىء، فإنّ مساعد الضبيان، آمر الحراسة الليلية، لا يصدّق، لا يعترف. لجأ إلى العد مرة أخرى، وإلى المناداة على الأسماء مرة أخرى. كانت حالة من الارتباك لا يمكن أن تنسى، ولا يمكن أن تتكررا

كنت متأكداً، بمجرد أن تسرّب الخبر، أن رضوان نفّذ تهديده، وهرب!

لم أكن مهتماً فيما إذا كان العدد صحيحاً أم لا. واعتبرت أن مساعد الضبيان أقرب إلى البلاهة وهو يجمعنا في الساحة، وهو ينادي على الأسماء. كنت أتخيل رضوان في رحلته الصحراوية. هل يستطيع أن ينجو؟ هل يكون البدو والرعيان الذين وثق بهم صادقين ويمكن أن يساعدوه فعلاً في رحلته الصعبة؟ وهل يستطيع أن يبقى حياً؟

قبل عصر اليوم التالي قبضوا على رضوان فرج وجاؤوا به من جديد!

وإذا كان العفير جحيماً دون أية أسباب، فإنّ هرب أحد السجناء سبب كافٍ لأن يحوله إلى جحيم مجنون! «فالاستقبال» الذي أعدّ لنا لحظة وصولنا لا يعتبر شيئاً قياساً للاستقبال احتفالاً بوصول رضوان! لم يتركوا واحداً منا إلاّ وخلّفوا في جسده علامات دائمة، وفي روحه ذكريات لا تزول. ولم يبق أحد، حتى معلم البناء والرعيان، إلاّ وساهم في هذا الاحتفال! واكتشفنا أحقاداً جديدة لم نكن نتصور وجودها، خاصة عند أولئك الذين بدوا لنا في فترة سابقة أكثر طيبة!

كيف جُررنا إلى المهاجع؟ مَن فعل ذلك؟ متى؟ لا أُبالغ إذا قلت أن لا أحد يتذكر. نُقلنا وكنا بين الموت والحياة؛ وربما انقضى أكثر من يوم حين بدأنا نصحو ونستعيد بعضاً من الوعي والقوة. أمّا حين أصبحنا، أو أصبح بعضنا، قادراً على الاجابة عن الأسئلة التي توجه إلينا فقد بدأ التحقيق: كيف يمكن أن يهرب أحد السجناء ولا ندري؟ كيف لم نبلغ عنه؟ وهل يُعقل أنه هرب دون موافقة أو ترتيب؟

كان سالم العطيوي ديكاً، ولا بد أن يعرف كيف دُبّرت المؤامرة، ومتى، ومَن هم الشركاء. وحين يقسم السجناء بأغلظ الأيمان أنهم لا

يعرفون، يضحك، وكأنَّ أحداً يكركره، ويقول:

ـ لا أُصدّق هذه الأيمان كلها، لأنّكم زنادقة، ولا تعترفون بها!

فإذا سأله أحدهم:

ـ بماذا تريدني أن أُقسم حتى تصدّق؟

يرد بسخرية:

ـ القسم الوحيد الذي يقنعني هو الاعتراف، ولا شيء غير الاعتراف!

وحين يقول السجين أنه لا يعرف شيئاً، وليس له علاقة بعملية الهرب، ولم يسمع بها إلاّ بعد أن انكشفت، يرد سالم:

ـ هذه العملة تصرفها في بنك المفلسين، وإذا عبّرتها على غيري، مع محقق غبي، ما راح تعبرها عليّ!

لما جاء دوري نظر إلي وابتسم. هزّ رأسه عدة مرات، وقال:

ـ ستقول مثل الآخرين: لا أعرف، ها؟

وأكّدت له أنني فعلاً لا أعرف، وإلاّ لهربت معه أو منعته من الهروب، فردّ عليّ بسخرية:

ـ يمكن اللي منعك تهرب أن بيضك ارتخى من شلوت البارح، ولأنّ عظمك فارغ ولا تحتمل المشي!

بعد هذا التحقيق فرز أربعة: هشام زينو، رضوان فرج، حامد زيدان وأنا.

قال سالم العطيوي لمساعد الضبيان، وكان يهز عصاه:

ـ الليلة انفرادي، وبكرة المحرقة!

الانفرادي كان سهلاً، فقد بلغ بنا الإنهاك درجة كنا مستعدين لأن ننام في أي مكان، دون اعتراض وبلا أية شروط!

في اليوم التالي، وأتذكّر أنه كان الخميس، ساقونا مع شروق الشمس.

الهواء الرطب، الخفيف، يملأ الصحراء. مشينا إلى مسافة تزيد قليلاً عن الثلاثمائة متر، قرب الأسلاك الشائكة التي تحيط القلعة، من ناحية الشرق. كانت هناك مجموعة من. . .

لا أعرف ماذا أقول أو كيف أصف تلك الأشياء. ليست بروجاً للمراقبة، إذ لم تكن تتعدى قامة الإنسان. ليست مراحيض، فالناس هنا

يبولون ويتبرزون في أي مكان، وبالتالي لا يبحثون عن الستر! وليست أيضاً غرفاً من أي نوع، ولكنها موجودة. لم تلفت نظري في وقت سابق، وإن كنت قد رأيتها، ولا أعرف كيف أقنعت نفسي أنها صناديق وليست أي شيء آخر.

الآن، ونحن نساق تجاهها، بدت لي بشكل مختلف: إنها من الزنك القوي، مسقوفة، لها أبواب، أو بالأحرى جوانبها بمثابة باب، وهي على مسافات متقاربة، إذ لا يزيد بُعد الواحدة عن الأخرى أكثر من عشرين متراً.

وُضع كل واحد منا داخل علبة من هذه العلب. المكان يكفي للوقوف، وإذا أراد الإنسان أن يجلس على الأرض ويمد رجليه قليلاً فإنّه يستطيع إذا لم يكن طويلاً، ولم يفرط في فرد الساقين!

وضعونا هناك وذهبوا!

قلت لنفسي بنوع من التعزية «ليست المرة الأولى في الانفرادي، ومهما تكن ستنقضي».

كانت الوقفة فرصة للتفكير والتذكُّر واستعادة المرحلة الماضية. كان الجو منعشاً، أقرب إلى الإثارة، فقد انقضت شهور طويلة لم أختلِ بنفسي، لم أكن وحيداً، والإنسان مع الآخرين، وبشكل دائم، يصبح له سلوك وطريقة في التعامل تفتقر إلى العفوية، وتجعل ردود فعله آلية، ولا تخلو من خشونة. فكّرت في أشياء كثيرة: رفاق العلب، الذين في المهجع، ووصلت إلى السجن المركزي. تذكّرت الحاج مصطفى، قلت لنفسي «لو تعرّض لهذا الضرب لقضى بين أيديهم، لكن قبل أن يمضي لا بد أن يكيل لهم شتائم لا ينسونها طوال العمر!» وتذكّرت ابا سمير، بدا لي وكأنّه لا يحسن المشي، إنه يقفز كالغراب. وتذكّرت الأهل والأصدقاء في عمورية. قلت في نفسي «هل يعرف هؤلاء الناس ما نعاني؟ هل يتذكروننا مثلما نتذكرهم؟» وكدت أستسلم لتلك الهواية الملعونة: السفر، ولولا أن هبت ريح فسفّت الرمل من أسفل وهزّت العلبة قليلاً لسافرت! لأول مرة اكتشف أن العلبة تنهض على قوائم، وليست مغروسة في الأرض، فقدرت للذين صمّموها بهذا الشكل بقايا النبل في قلوبهم حين تركوا مسرباً للهواء!

ما كادت الشمس ترتفع ذراعين أو ثلاثة في السماء حتى بدأت الحرارة

تدفئ العلبة، أما بعد أن مرت ساعة فقد أصبح الدفء ثقيلاً، وتحوّل إلى لزوجة، وحين حلَّ الضحى وصل الدفء إلى درجة القسوة، ثم، وبمرور الوقت، دقيقة فأخرى، فقد أصبحت الحرارة أنصالاً تتهاوى من كل الجهات وتنبع من كل مكان.

لم أسمع، أو لم أهتم حين سمعت كلمة «المحرقة» التي نطق بها العطيوي أمس. افترضت أنها كلمة مثل كلمات كثيرة تعوّد مثل هؤلاء الناس أن يطلقوها، كوسيلة للضغط. أما الآن والحرارة تتفجر وتتدفق لا أعرف من أين، فقد شعرت أنني أتخاذل، أذوب، أتلاشى، وحين أدور من جهة إلى أخرى، في محاولة لاتقاء هذا الجحيم، أحس أن الجهة السابقة، التي تركتها، أكثر رحمة، لأنَّ الوهج الذي كان ورائي يتحول في هذه الجهة إلى جمر.

افترضت أن الجلوس يمكن أن يبعدني عن السقف الذي تنصبّ منه تلك الحمم. جمعت نفسي وهبطت إلى الأرض. مست يدي جدار العلبة فانكوت، سحبتها لا شعورياً واتكأت على الجدار الآخر، ونظراً للعرق الذي يزخّني والذي كان يفيض من كل المسامات، فما أن اتكأت على ذلك الجدار حتى شعرت أن يدي تلتصق بالصفيح، وأشم رائحة احتراق اللحم. أمّا وأنا أتداعى على الأرض وتلامس الاليتان الرمل، فقد تأكّدت أنني فوق صاج محمى، قفزت في محاولة لاتقاء الحريق، لكن الجوانب لدغتني من هنا ومن هناك. قلت وأنا أشتم: «لا أتصور أن هناك مجرماً عبقرياً يفوق مَن اخترع هذه العلب ووضعها في هذا المكان».

أدور من هذه الجهة إلى الجهة المعاكسة، إلى الجهة الجانبية، لكن الفرن بحرارة واحدة من كل الجهات. العرق يتساقط، وداخلي يغلي. بدأ الونين في الأذنين واليباسة في الحلق. شعرت أنني أمتلئ تعباً وأتهاوى. قلت لنفسي «لا يمكن أن أحتمل وأصل إلى الظهر، حين تصبح الشمس عمودية، وتنصبّ منها شلالات الجحيم» تساءلت عن وضع رضوان وحامد وهشام تجرأت وصحت:

ـ رضوان.. يا رضوان، كيف أنت؟

ردَّ بصوت، حاول أن يجعله صلباً:

ـ ماشي الحال، وأنت يا عادل؟

ـ ماشي الحال بصعوبة، شاعر أني أختنق وأحترق. . .

وبعد قليل:

ـ يا أبو مكرم، يا أبو مكرم.

ـ ايوه!

رد بثقل وصعوبة.

ـ كيفك. . . كيف وضعك؟

ـ قادر أتحمل بعد شوية.

ـ حاولنا، قاومنا، لكن وصلنا في لحظة من اللحظات إلى حالة من التلاشي، بدأ الدّق، بالأرجل، على الجدران. كانت دقاتنا، في البداية، قوية صاخبة. بدأنا نصرخ طالبين الماء. كنا نضرب ونصيخ السمع، هل جاء أحد؟ هل وصلت صيحاتنا ويمكن أن يستجيبوا لها؟

إن الزمن في مثل هذه الحالات لا يُعدّ بالدقائق والثواني، بل بأجزائها، لأنّ اللهيب الذي يزداد ويتكاثف ثانية بعد أخرى له مفعول المخدر، إذ تتراجع القوى بسرعة، ويفقد الإنسان قدرته على التحكم، وتصبح للأشياء أشكال وألوان مختلفة.

وما يكاد واحد منا يبدأ الدق إلاّ ويتبعه الآخرون، ومع دقات الأرجل الصياح، ثم الصمت. وحين يمتد الصمت، أملاً بجواب، ولا يعقبه شيء، تعاود الأرجل الدق من جديد، ومعها فقط طلب الماء، ولا جواب، فتبدأ الشتائم والمناداة، لكن لا أحد ولا جواب!

أنهكنا الدق والصياح، قال بصوت لا يكاد يُسمع، وكأنّه استغاثة:

ـ يا جماعة راح أموت.

قالها أبو مكرم وخبا صوته. واصلنا، نحن الثلاثة، الدق والصياح أكثر من قبل، مرت فترة والحرارة تزداد واللهب يعبق ويتكاثف من الداخل والخارج. تأكّدت، أو بالأحرى كان هذا شعوري، أن الموت سيقتحم العلبة في أية لحظة، ولا بد أن يطبق على الرقبة. مددت لساني لأثبت لنفسي أنني لا زلت قادراً على التحكم بقواي، بجسدي. بصعوبة طاوعني اللسان، كان ثقيلاً رخواً. حاولت أن ابتلع ريقي، لم أستطع، شعرت أن في داخلي شيئاً يتمزق. ارتميت على الأرض في محاولة لأن أجعل موتي هادئاً!

أتذكر أنني كنت في لحظة أقرب إلى الغياب حين انفتح الباب. رأيتهم ينظرون إليّ من فوق، مدوا لي خرقة مبلولة، وسمعت أو تخيلت أنهم يقولون: خذ لك قطرة. حين لم أستطع تقدَّم مني أحدهم وعصر القطعة فوق وجهي، على شفاهي، تحرّك فيّ شيء واهتز، أمسكت بالقطعة المبلولة، قرّبتها إلى وجهي، وضعتها في فمي، شعرت أن في داخلي شيئاً يقفز، يتمزق، يستجيب!

حملوني إلى سيارة قريبة، بصعوبة استطعت أن أُميّز الآخرين. كان رضوان مجرد عينين. كانت عيناه بارزتين، وكأنهما على وشك أن تغادرا موضعهما، وفيهما فقط يمكن أن تُميّز الحياة. أما أبو مكرم فكان غائباً عن الوعي، وكان هشام كالمذهول.

ألقت بنا السيارة قرب بيت الشعر، والذي كان يسمر فيه الجنود ويشربون القهوة، وكانت تظلله شجرة كينا زرعها في وقت بعيد سجناء سابقون. جُررنا إلى داخل بيت الشعر. كنا فقط نريد ماء ولا شيء غير الماء. نظروا إلينا دون اهتمام، مرت دقائق كانت أطول من دهور، قال رضوان بصعوبة، وقلت: ماء، ماء.

بتمهل زائد، وكأنهم مخلوقات آلية شديدة البطء، ولا تعرف الاستجابة، قدموا لنا كيلتين من المعدن فيهما قليل من الماء، وفوق الماء كمية من التبن. بصعوبة، وبعد جهد وصل الماء إلى الحلق فالحنجرة، كانت العملية شديدة التعذيب، ولا يمكن أن تروي، مددت يدي إلى داخل الكيلة، جمعت التبن ورميت به، لكن بقيت أعواد منه. شربت كل ما في الوعاء، وظلّ العطش مسيطراً مستبداً.

فعل رضوان مثلما فعلت وكذلك هشام، أما حامد زيدان فقد نقطوا في حلقه الماء، إلى أن بدأ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً. كان متعباً إلى درجة الإرهاق، بعيداً إلى درجة الغياب. لما أفاق تطلّع إلينا وابتسم. قالت ابتسامته: لا زلنا أحياء!

جاء العطيوي

ـ كيف كان الحمام الشمسي؟

لم نجب، لم نكن قادرين على الإجابة حتى لو أردنا.

ـ هذا الدهليز، والموت بعدكم ما شفتوه.
لم نتكلم ولم نتطلع إليه. تغيّرت لهجته:
ـ كلّه منك يا شيبة النحس، ما عندك إلاّ تقرا على روس هالصبيان، تقرا وتجوّد، وهم عقولهم مثل العصافير، جوزتين بخرج...
وتغيّرت اللهجة من جديد، أصبحت تمثيلية تماماً:
ـ وفي سنة كذا، وفي المكان الفلاني، قامت الثورة، وكان يقودها الفقراء، وبعد أن قتلت الحكام واستولت على القصر، رفعت راياتها وانتصرت... وهكذا انتصر الحق وزال الظلم!
وعاد إلى اللهجة الأولى:
ـ هذا اللي تقوله صبح وعشية، وللا أنا غلطان؟
ولم يرفع إليه أبو مكرم نظره، وربما لم يسمعه، فالتفت إلى رضوان:
ـ وأنت يا خنزير، تتصور الهريبة من قلعة أبو مهند مثل الهريبة من المدرسة: لا من حسّ ولا من دري؟ تتصور أنك من هنا إلى بيت أمك وأبوك بدون سؤال بدون دستور؟
أخذ نَفَساً عميقاً، وصمت قليلاً ليختار طريقة لائقة يواصل بها هجاءه:
ـ كان الحق علينا ونحن نركض وراك طوال الليل، كان لازم نتركك للضباع والذياب تتغداك أو تتعشى بلحمك المربرب اللي تعب أبوك وهو يسمّن، وعلى ظنه أن ابنه الصغير براسه خير، ما عرف أن ابنه سرسري..
وابتسم وهزّ رأسه عدة مرات وتابع:
ـ لو أكلك ذيب أو ضبع كان دعا لنا بالخير، وطول العمر...
وبعد قليل بلهجة أقرب إلى السؤال:
ـ تتصور أنك إذا افلت من وحوش الفلا تخلص من قيظ السما؟ فإذا ما مت من ضربة شمس تموت من العطش، وإذا لا هذي ولا هذي تموت تايه، لكن عقلك عقل افندية!
ربما تعب من الوقوف ومن إلقاء الدروس، جلس، قال لأحد الجنود:
ـ صب قهوة.
صب له وحده، شرب الفنجان الأول، ثم الثاني، التفت إليّ:
ـ ها يا خالدي... راسك بعده يابس أو ليته المحرقة؟

لم أجب، مدّ رجليه وقال:

ـ الجماعة وصُّوا بك يا عادل، قالوا: نبعث اليك عادل فاعدله أو اقتله، قلنا لهم سمعاً وطاعة، ولا بد أن ننفذ الأوامر!

وتغيّرت اللهجة تماماً:

ـ إذا أجبت عن سؤال واحد، وهذا رضوان موجود. ارجعك إلى المهجع، وعفا الله عما مضى، أما إذا بقيت ميبس راسك، فهذه الشمس اللي شفت طرفها اليوم، راح أخليها تسوّح دماغك، وتسوّيك خبر بعد اثر..

توقف تاركاً لي الفرصة لاستيعاب ما قاله ثم تابع:

ـ والسؤال: اعترف أن رضوان خطط للهرب وبحث معك الموضوع؟

قلت بحدة لأقطع الطريق تماماً:

ـ لا أعرف أي شيء عن الموضوع، وليست لي علاقة!

ـ متأكد؟

نظر إليّ بتحديد ليقرأ في عيني الجواب قبل أن يقوله لساني. أجبت، وربما بدا صوتي مرتجفاً:

ـ اي نعم متأكد!

ضحك بصخب، وقال كأنّه يكلم نفسه:

ـ مجنون يحكي وعاقل يفهم. أنت ورضوان طيزين بلباس واحد، لوريل وهاردي، الواحد وظله، وبعدين.. يمكن تقنعني أنك لا تعرف ومالك علاقة؟

والتفت إلى رضوان وسأله:

ـ موافق على كلامه يا سيدنا؟

ـ موافق!

ـ قل موافق على كلامه وعينك بعيني، لا تدفن راسك بالرمل مثل النعامة!

صرخ رضوان موجهاً كلامه إلى أحد جنود البادية:

ـ اعطونا ماء وخلصونا!

ضحك سالم بمرخ وعلق:

ـ طبيعي الكذب ينشف الريق، فأعطوه ماء وخلنا نشوف!

وقدمت إلينا وجبة من الماء دون قش. بعد أن شربنا، وشربنا كمية كبيرة، تابع العطيوي بسخرية:

ـ لا تملوا بطونكم ماء يا شباب لأن بعد وراكم الأكل!

وبعد قليل، موجهاً الكلام لرضوان:

ـ رأيك، سيدنا، تعترف أو ترجع مرة ثانية للمحرقة؟

ردّ رضوان بحدة:

ـ أنا وحدي المسؤول ولا أحد له علاقة!

ـ أعرف أنك المسؤول، وراح تنال علاوة سنتين، أو ثلاثة على عملك، ويجوز يمنحك الجماعة وسام الشجاعة لأنّك حاولت أن تقطع الصحراء! لكن سؤالي هو: هذا الداشر السرسري ـ وأشار إليّ ـ على علم بالهرب أم لا؟

ـ أنا وحدي المسؤول، ولا أحد له علاقة!

ـ لا ترفع صوتك يا كلب!

وخيّم الصمت.

قام سالم، وقال موجهاً الكلام إلى مساعد الضبيان:

ـ للانفرادي!

انقضت الليلة وانقضى القسم الأكبر من اليوم التالي، وكدت أفترض أن لا شيء يمكن أن يحدث، لكن حين مالت الشمس قليلاً نحو الغرب جاؤوا:

ـ يا الله!

طلبوا منا نزع أحذيتنا وأن نتركها في مكانها، وما كدنا نفعل حتى طلبوا منا التوجه إلى العلب ذاتها!

ومثلما يتفتت الزمن إلى ذرات لا نهاية لها، فقد بدت المسافة بيننا وتلك العلب غير قابلة للاجتياز ضمن أي مقياس. فاللهب الذي ينبع من الرمل يجعل السير شاقاً إلى درجة الاستحالة. كان اللهب فيضاناً بلا انتهاء، أسياخ نار تندفع بسرعة الطلقة بدءاً من باطن القدم حتى قمة الرأس. كنا نصرخ كالقطط المخنوقة، نقفز كالجراد، وكنا نرتمي على الأرض في محاولة للاستراحة، أو لتوزيع الألم على مساحة أوسع لعله يكون محمولاً أكثر، لكن ما تكاد الأيدي أو الأجساد تلامس الرمل حتى تتبعها الشهقات، وكأن مسامير دقت فيها!

تلقينا ضربات العصي، في محاولة لإنهاضنا، أكثر من وقعاتنا!

لم أكن خائفاً على نفسي قدر خوفي على حامد زيدان، فالسنين التي يحملها فوق كتفيه، ثم عذاب اليوم السابق، جعلاني أقدّر أن الأمور ستكون سيئة، وكنت أحس، لا شعورياً، أن عليّ بذل أقصى ما أستطيع من أجل حمايته. وكنت أقدّر، في نفس الوقت، أن رضوان، رغم تعب الرحلة الصحراوية، وما خصّوه من امتياز أثناء حفل الاستقبال، أقدر على التحمل، وكذلك حال هشام.

في لحظة ما، بعد أن قطعنا نصف الطريق إلى العلب، صرخ أبو مكرم بطريقة استفزازية:

ـ اركضوا يا جماعة!

ركضنا كالجمال الهائجة، إذ ما دمنا مضطرين لقطع المسافة والوصول إلى تلك العلب، فإن قطعها ركضاً أنسب الحلول رغم صعوبته.

كنا نركض فوق المسامير، فوق زجاج ملتهب، على أجفاننا، إلى أن وصل كل واحد منا إلى علبته!

وقفنا إلى أن وصل الجنود. كانوا مسرورين إلى درجة الغبطة. تطلعوا إلينا، وقال مساعد الضبيان، وكان مرحاً:

ـ حتى تقولوا إن الله حق!

وما كاد يمد يده إلى القفل ليفتح الباب حتى سحبها، وكأنَّ أحداً ضربه عليها، صرخ:

ـ والله لألعن والديكم يا أولاد الكلب!

وتفل على رضوان، كأنه ينتقم منه لما أصابه، ثم أخرج من جيبه خرقة طويلة، ولا يُعرف أن كانت منديلا أم حبلاً سابقاً، طواها عدة مرات وأمسك القفل، وبعد أن فتحه دفع كل واحد منا داخل علبة وذهب والذين معه!

منذ ذلك اليوم، ولسنوات لاحقة، وربما إلى نهاية العمر، سوف تبقى تلك الصورة محفورة في ذاكرتي: العلبة مثل موقد ينفث ناراً، إنها أكثر من فرن، وأصعب من حالة الاختناق، إنها حالة الموت!

ولكي تكتمل الصورة وتظل راسخة في الذاكرة إلى الأبد: ما أن زال وهج الشمس وتلاشى سراب الرمال، وأصبحت العين قادرة على التمييز،

حتى فوجئت بعدد من العقارب الموجودة داخل العلبة. كانت تتحرك تلك الحركة المجنونة، لأنّ أحداً أفسد عليها قيلولتها. ما أن رأيتها حتى شعرت أن كل ما فيّ من قوة أو قدرة على المقاومة ينهار ويتلاشى!

هل جاؤوا بها إلى هذا المكان لتنجز ما عجزوا عن إنجازه؟ هل يمكن جمع هذا العدد من العقارب ووضعها في مكان واحد؟ أم أنها جاءت إلى هذا المكان وحدها، باعتباره أرحم الأمكنة الموجودة في هذه الصحراء الملعونة؟

لا يمكنني أن أجيب، وحتى فترة متأخرة كنت عاجزاً عن استيعاب هذا المشهد!

والإنسان حين يقع بين مجموعة من الأعداء فإنّه يواجه أخطرها، فإذا تمكن من قهر هذا الخطر، فإنّ الأخطار الأخرى تبدو أقل صعوبة.

بعد أن استعملت كعبي في الضرب على القريب منها، واستعملت المشط في تعفير الأخرى، ولأنّ الحركة المفاجئة والسريعة أفزعتها، فقد تراكضت، وكان ركضها الأعمى أكثر ما يثير الرعب. لقد تراجع جحيم السماء، قليلاً لمواجهة جحيم الأرض، ونسيت الشمس والحرارة فقد لأنجو من هذه المخلوقات العمياء الكريهة. كان سوادها المغبر، وحركتها اللولبية، ثم قفزاتها غير المتوقعة، تجعل الإنسان مجرد قدم. تتركز حواسه وقواه هناك، وتتفجر فيه قوى لا يعرف أين كانت كامنة، أو كيف كان يمتلكها!

في وقت ما بعد أن قضيت على عدد من العقارب، وهرب عدد آخر، تحوّلت عيناي إلى عيني صقر تمسحان العلبة في كل ثانية، لمواجهة أي غزو جديد محتمل. وأصبحت حواسي كلها كالرادار لا تتوقف عن الدوران. وفي وقت متأخر اكتشفت أنني كنت خائفاً، وأن قلبي تضاعفت دقاته، ولو رآني أحد لما تردّد في أن يعيد عيني إلى محاجرهما، ويؤكّد لي أنني مصاب باليرقان، لأنّ مرضى اليرقان وحدهم يملكون وجهاً أصفر كالذي كان فوق كتفي!

لقد كان الذين صنعوا هذه العلب عباقرة وحكماء، لأنهم تركوا جوانبها مفتوحة، وهذا ما سمح بهرب عدد من العقارب! وسوف أقول لنفسي، في وقت لاحق، ولا أعرف إن كنت ساخراً أم لا، إن هذه الجوانب المفتوحة بالذات هي التي جاءت بهذه المخلوقات، لأنني لا أستطيع أن أتصور إمكانية جلب هذه العقارب ووضعها في هذا المكان وأن تبقى كما يريدون!

وسوف أشعر بالغبطة، في وقت لاحق أيضاً، لأنَّ الجلادين، ومن خلال الفلقة بالذات، صلَّبوا قدمي، خاصة الكعبين، وافترضت أنني أتفوق على آخيل من خلال هذه الميزة!

عندما بدأت الشمس تنحدر ثم تنطوي قلت لنفسي: «هؤلاء الذين عبدوا الشمس، في يوم من الأيام، لا بد أن يأتوا إلى هنا، لا ليعيدوا النظر، وإنما لكي يكتشفوا كم كانوا أغبياء» لكن ما أن بدأ الظل يتحوّل إلى غبش، وبدأت معه ألواح الزنك ترتاح من الاضطهاد الذي لم يتوقف خلال ساعات النهار، ثم تحوّل الغبش إلى ما يشبه بداية الظلمة، فقد بدأت أحس أن قدمي تتحولان، من جديد، إلى مجسات شديدة الحساسية. وبدأ الخوف وبدأت معه التساؤلات: هل تعود العقارب مستغلة الظلام؟ وكيف يمكن أن أراها أو أن أميزها؟

ومثلما كانت ظلمة العلبة المفاجئة الأولى مع هذه المخلوقات، فقد أحسست أن كل شيء يتحول إلى نوع من الخصومة. إذ بمقدار ما كانت الشمس عدواً فإنَّ الظلمة لا تقل عن ذلك. وإذا كانت الشمس تحمل هذا المقدار من العداء، فإنَّ الظلمة تجعل الإنسان عاجزاً، مسلوباً، منتظراً، وأيضاً عبداً لقوة مجهولة. قلت لنفسي في محاولة لأن أصل إلى توازن من نوع ما: «متى يصل الإنسان إلى الحرية». ضحكت بسخرية وقلت: «الحرية لا تأتي وحدها الحرية ذهاب دائم، وأغلب الأحيان إلى المجهول، وهي حالة بحث لا تعرف التوقف أو الهدوء، وكل وصولٍ ليس أكثر من محطة يعقبها سفر آخر إلى نهاية الحياة!»

في وقت ما استخرجونا من العلب. أُخذنا مرة أخرى إلى المضافة. كان العطيوي مرتدياً ملابس البدو هذه المرة، خلافاً لجميع المرات السابقة. وكان يستند على ركاب فوقه مخدة. بدا مسروراً وواثقاً وهو يستقبلنا. ما أن استقر بنا المكان، وقد أجلسونا في بداية الخيمة، ونظرت إلى رفاقي حتى خفت. كانت العينان جاحظة والوجوه شديدة الشحوب، وكان شيء ما لا يبدو طبيعياً في نظراتهم وحركاتهم.

قال العطيوي، بعد أن أمر لنا بالماء:

ـ غريبة...

وبعد قليل:

ـ الظاهر أن حظكم من السماء، لأنكم عدتم جميعكم سالمين. كنت متصور أن واحد أو اثنين منكم راح يفطرز أو على الأقل ينتفخ مثل القربة بعد لدغة عقرب أو حية.

وضحك وأضاف بصوت مختلف:

ـ لا بد أن لكم حسنة عند الله، ولا بد أن الواحد منكم مسوي خير في يوم من الأيام، وإلاَّ كنا الآن نقول: الله يرحم فلان.. والله يرحم فلان.

بقينا صامتين، وكأن الكلام موجه إلى غيرنا ولا يعنينا، وكانت نظراتنا إذا التقت نشعر أكثر من قبل بالخوف.

في لحظة ما تطلعت إلى هشام فرأيته يضحك! تطلعت إليه من جديد لأتأكد، رأيته يضحك أكثر من قبل، ثم بعد فترة قصيرة انكمش بحدة وكأنَّه يعاني ألماً داخلياً لا يقوى على مقاومته، تماماً مثل معاناة مريض الكلية أثناء سقوط البحصة. استمر ذلك فترة. تطلع إليه العطيوي وتطلع إلى رجاله وكأنَّه يسألهم دون كلمات. قال مساعد الضبيان:

ـ لا تخف، طال عمرك. لو أنه ملدوغ كان بيّن عليه، لكنه مشموس!

هزَّ سالم رأسه موافقاً وتطلع إلى ساعته، بدا وكأنَّه ينتظر ضيوفاً غيرنا، وأهم منا، لكن لئلا يشعرنا أنه غير مهتم، قال:

ـ الليلة راح نخليكم ترتاحون، تتعشون وتنامون...

وضحك وهزَّ رأسه أكثر من مرة وتابع:

ـ وباكر، بالخير والسلامة، تسولفون بين بعضكم، وموعدنا اللي عقبه، فإذا ما اعترفتم ترى نهايتكم بالمحرقة... هناك تظلون إلى أن تجيفوا، سامعين؟

والتفت إلى مساعد:

ـ المهجع الشمالي...

وبعد قليل بدعابة:

ـ ولا تنس تعشوهم زين يا مساعد!

القينا أجسادنا المنهوكة على البطانيات القذرة في محاولة للنوم، لكن لم ننم إلاّ في وقت متأخر، ولم نتكلم أيضاً، كان لدينا الكثير لنقوله، لنسأل عنه، لكننا لم نفعل. فحالة الذهول الأقرب إلى الغياب جعلت كل شيء دون جدوى. وكانت هذه الحالة تتبدى أوضح ما تكون في وجه هشام وتصرفاته!

قلت لنفسي، وربما كل واحد منا قال ذات الشيء: «هذا النوع من التعذيب لا يقصد منه الوصول إلى المعلومات قدر ما يهدف إلى إذلال الإنسان، والإنسان الذليل لا يعرف إلاّ الامتثال والاستجابة وهذا ما يريدونه».

عندما سقطت في النوم، ولا أدري متى حصل ذلك، بدأت العقارب تطاردني من جديد. كانت كثيرة، مختلفة الأحجام، وبألوان متعددة. كنت أسمع دبيبها وهي تقترب وتطوقني من كل ناحية، فأُحاول أن أهرب منها، أن أرفع قدميّ لتجنبها، لكن ما أن تسقط من مكان حتى تتسلق من مكان آخر، تهجم بضراوة، تريد أن تلتصق بي لتفرغ كل سمها، فأصرخ وأنتفض، وأستيقظ من النوم.

وينقضي وقت طويل قبل أن أستطيع النوم من جديد. وخلال ذلك ألتفت إلى الذين حولي، وأكتشف أن ما كان يفزعهم في أحلامهم يفوق ما كان يفزعني! أسمع صرخات الرعب القصيرة الحادة، أسمع الاستغاثات، وأرى الأيدي وهي تحاول الدفاع: الأكف المفتوحة، القبضات القاسية

المتشنجة، وأيضاً تلك الانتفاضات العصبية. أمّا الكلمات التي كانت تتدفق فهي مزيج من الشتائم والشتائم، ولا شيء غيرها. قلت لنفسي وأنا أرقب حامد زيدان، وقد مدَّ يديه الاثنتين في محاولة لحماية وجهه: «كيف يجرؤون على ضرب رجل في عمر آبائهم؟ أي نوع من البشر هؤلاء، وكيف يمكن أن يكونوا مفيدين لأي مخلوق؟ وإذا نفذوا أوامر من هذا النوع فهل تصعب عليهم أوامر تطال آباءهم وإخوتهم وأقرب الناس إليهم في وقت آخر؟» جررت نفساً عميقاً وحزيناً، انقلبت على الجانب الآخر، لعلَّ النوم يكون أقرب، وقلت، ربما بصوت مسموع: «مَن يهن يسهل الهوان عليه ـ ما لجرح بميت ايلام.. وهؤلاء الناس مات في داخلهم أهم ما يملكون: الضمير، ولذلك لم يعد هناك أمل باستعادتهم».

ونمت مرة أخرى، لكن لم يكن أهنأ من المرة السابقة. أما في الصباح فقد استيقظت مبكراً على صياح هشام.

كان حامد زيدان يحاول أن يهدّئه، كان يضع على جبينه خرقة مبلولة، ويضغط على الكتفين لكي يبقيه نائماً، ويحاول هو، بالمقابل، أن يفلت، أن ينهض. لما بلغت الأمور حداً معيناً صرخ، فاستيقظ واستيقظ رضوان.

تعاونّا جيعاً لتهدئته، لمساعدته على تجاوز الحمى. كان يستجيب لحظة، لكن في اللحظة التالية يهب كالعاصفة، كموجة مجنونة. من أين له هذه القوة؟ وكيف لا نستطيع، نحن الثلاثة، أن نسيطر عليه؟ «ماذا لو وقف؟ لو تركناه؟» هكذا تساءلت، أمّا حين صرخ، وبدأت شتائمه تتوالى، فقد قلت بحدة:

ـ اتركوه، يا جماعة، وخلونا نشوف آخرتها معه!

وكأنّهما كانا ينتظران أمراً من هذا النوع، إذ ابتعدا عنه قليلاً، تاركين له أن يفعل ما يريد.

وقف. نظر إلى كل واحد منا بإمعان. كان حازماً، أقرب إلى العداء. بعد أن استعرضنا، خطا خطوتين أو ثلاثاً إلى الخلف، مبتعداً عنا، وسأل بمنتهى الجدية:

ـ أريد من كل واحد منكم أن يبرز لي هويته، لأعرف ما هي صفتكم، قبل أن تقبضوا عليّ!

حين ظللنا صامتين تابع بنفس الجدية:
ـ أنا أعرف بوجود الأجهزة، لكن هناك مَن ينتحلون صفات ليست لهم. . .
ولما استمر صمتنا تابع وهو يبتسم:
ـ الآن كشفتكم، فأنتم تنتحلون صفة، والمادة 713 من قانون العقوبات تعاقب مَن ينتحل صفة، خاصة إذا كانت تتضمن احتجاز حرية الأفراد والإضرار بالمصالح، بعقوبة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، وفي حال المعاودة يعاقب. . .
وضحك بمرح وسأل:
ـ أتعرفون عقوبة المعاودة؟
لم نجب. كنا ننظر إليه غير مصدّقين. أضاف وقد استعاد وجهه الحزم:
ـ في حالة المعاودة عقوبته الإعدام، فاحذروا!
بدأ يتمشى في المهجع، قال له حامد زيدان برجاء:
ـ هشام. . يا حبيبي، يا عيني، لازم تستريح.
ردّ، وهو يضرب الأرض بقدمه:
ـ أولاً، أنا لا أسمح لك أن تناديني بالاسم المجرد، فأنا الأستاذ هشام، وإذا تنازلت: السيد هشام، مع أن لقبي الرسمي: هشام بك، أما أن تصبح الأمور شوربة، ويختلط الحابل بالنابل فهذا لا أسمح به أبداً.
وثانياً، أنا لا أعرفك ولا تعرفني واللّا أنا غلطان؟
وتحول إلى السخرية:
ـ أخي: لاعب أنا وياك دحل في يوم من الأيام؟ كنا بفريق رياضي سوا؟ معرصين مع بعض؟
ردّ حامد بحدة:
ـ كافي. . . كافي يا هشام، ولازم تستريح. . .
والتفت إلينا:
ـ الظاهر أن الحمى مؤثرة عليه.
رد هشام وهو يتقدم:
ـ اسمع أيُّها الرجل الطاعن في السن: أنا لا أعرفك ولم أرك من قبل،

وأي ادعاء مخالف منك يدل على سوء النية، ولا بد أن تكون لك نوايا شريرة للإيقاع بشخصية مهمة، مثلي..

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

ـ ويجب أن تعرف: لدي صلاحيات استثنائية، ودون مراجعة النائب العام، في إيقاف أي إنسان لمدة أسبوعين، فاحذر!

والتفت إلينا، وقال، وقد خفض صوته:

ـ انتبهوا، هذا الرجل يحاول أن يتظاهر أمامكم أنه يعرفني، ربما لتمرير مصالح، وقد يكون تقاضى منكم أموالاً، فأنا أقول لكما، لأنكما أكثر طيبة وبساطة منه: إنني براء من هذا الرجل، لم تره عيني من قبل، ولا يمت لي بأية صلة...

واقترب منا، أنا ورضوان، وقال بصوت هامس:

ـ وإذا تقاضى منكما أموالاً لقاء دعوة موهومة، فيمكن أن تستردوها الآن، وأنا موافق!

وحين رآنا صامتين ومدهوشين، فقد تراجع. قال وهو يبتسم، وكانت ابتسامته أقرب إلى القهقهة:

ـ سوف نقبض عليه فوراً...

وصرخ، بعد أن اتخذ موقفاً حازماً وعسكرياً:

ـ اسمع، ايها الرجل المنتحل صفة، باسم العدالة والقانون، وبموجب المادة 607، أقبض عليك فلا تتحرك ولا تقاوم وإلاّ ضاعفت العقوبة...

وتوجه إلينا، وهو يغمز بعينه:

ـ فتّشوه، شلحوه، العنوا أجداد أجداده، فهذا النكرة، المدعي، المنتحل صفة، والذي يريد أن يبتز الجماهير الفقيرة من خلال ادعائه أنه يعرف المسؤولين، ويستطيع أن يمشّي المصالح، لا بد أن ينال عقاباً صارماً، ويجب أن يكون عبرة لكل ذي عقل وضمير ووجدان، وإذا لم نفعل ذلك خربت الدنيا وساد الظلم وتعربش الأدعياء والأوباش والسرسرية وأبناء الزواني وأهل النفاق وكتّاب التقارير والدهماء...

ضحك بفرح وسأل:

ـ ما رأيكم، أيها الجمهور، بكلمة دهماء؟ ألا ترونها قوية ومؤثرة وذات معنى ودلالة؟

ولفّ حول نفسه مرة وثانية، وقال:

ـ أحسنت يا أبو الشباب، إن لك عقلاً خصباً مليئاً فعالاً قوياً مشتعلاً، وتعرف كيف تضع الأمور في نصابها...

هزّ رأسه وسألنا وهو يقترب:

ـ الأمور في نصابها... أتعرفون معنى نصابها؟

غمز بعينه وابتسم، ثم قال:

ـ بس رجاء لا تشكّلوا... خلُّوا الأمور على رسلها!

ابتسم باستغراب وسأل:

ـ أتعرفون معنى رسلها؟

وبعد قليل، وبطريقة مسكينة تماماً:

ـ إذا أردتم الصراحة أنا لا أعرف معنى رسلها، لكنها كلمة مثل آلاف نستعملها، فرجاء لا تؤاخذونا، وأهل السماح ملاح، والله يجعلكم طيبين وسالمين!

وفجأة تغير هشام. جلس على الأرض، ووضع رأسه بين يديه وغرق في الصمت. تبادلنا النظر وتساءلنا، ولم نستطع أن نقول أو أن نفعل شيئاً، لكن حزناً كثيفاً خيّم علينا. في لحظة ما قام حامد زيدان نحوه، وخاطبه بطريقة أبوية:

ـ هشام.. حبيبي هشام، لازم تتمدد وتستريح.

ما كاد يلمسه حتى انتبه وكأن عقرباً قرصه. قال له بحزم:

ـ ابتعد عني يا أيها الرجل الطاعن في السن، وإياك أن تلمسني، فلا بد أن تكون المخابرات المركزية قد زوّدتك بكميات وفيرة من السموم القاتلة، وقالت لك: عندك مهمة واحدة: التخلص من هشام زينو، لأنّه رجل خطر ويهدد مصالحنا في المنطقة...

وابتسم قليلاً، وأضاف:

ـ وربما قالوا لك إنني خطر على العالم كله، خاصة المتحضر!

والتفت نحونا:

ـ الجواسيس كالحرباء. . .

تغير قليلاً، بدا محرجاً لكنه تابع:

ـ أرجو أن تعذراني، فكلمة جواسيس جمع وحرباء مفردة، ولا أدري أيّهما أصح، أن تُجمع على حرباوات أم حرباءات؟

وهزّ رأسه بحكمة وجاء صوته عميقاً:

ـ حيّرونا أولاد الكلب: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة؛ أهل المغرب وأهل المشرق؛ الأندلس وجماعة العدوة؛ هكذا قالت العرب؛ ويجوز فيها الوجهان؛ وماذا أيضاً، يا أيُّها السادة، من مواد مخدرة؟

لأول مرة أقتحم هذا الجو المحموم، قلت بحدة:

ـ كفى يا هشام، وخلصنا من هذا الدور!

تطلّع إليّ بتعجب شديد. هزَّ رأسه عدة مرات، وسألني:

ـ من أين تعرفني. . . أيُّها النمس؟

ولم ينتظر جوابي، التفت إلى حامد زيدان وسأله:

ـ وهذا أيضاً من جماعتكم؟ يكتب تقارير ويتقاضى راتباً؟

قلت وأنا أضحك:

ـ يا هشام: الدنيا بعدها بخير، وأكبر خدمة تقدمها لنا ولنفسك أن تستريح.

رد بسخرية:

ـ أنا مرتاح، ولكن لا يمكن أن أتخلى عن واجبي: يجب أن أُراقب بعناية لكشف الجواسيس والعملاء، ويجب أن أعرف الانتهازيين والمؤلفة قلوبهم، وكذلك العرجان والبرصان، والذين يعرفون من أين تؤكل الكتف؟

وضحك بصخب، وبعد أن هدأ سألني:

ـ أسألك سؤالاً محدداً وجوهرياً، ولا أريد أن أسيء لأحد: هل في الكتف ما يؤكل؟ وهل هو ما يسمونه لقمة الصياد؟

ابتسمت وقلت له:

ـ سوف نتحدث حول هذا الموضوع في الأيام التالية. المهم أن تستعيد صحتك، وأن تكون قوياً.

ردَّ بحدة:

ـ اسمع. . . أنا من هذه الناحية حديد، أقوى من الحديد، لكني غير متفائل، أشعر أني حزين. . .

وبعد قليل:

ـ أتعرف معنى أن يكون الإنسان حزيناً؟

وحين هززت رأسي أنني أعرف قال بسخرية:

ـ إن كنت تدري فتلك مصيبة إأن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم.

وأضاف بلهجة مختلفة:

ـ من شكلك، وكلامك تبدو رجل حكمة ومهذباً، فهل أطمح بالتعرف عليك؟

وقبل أن أجيب أضاف:

ـ رجاء: الاسم، المهنة، المؤهلات، العمر، الحالة الاجتماعية، العلامات الفارقة، ولا مانع من ذكر الأسفار والهوايات، وأيضاً، وهذا إلزامي، قراءاتك. نعم الكتب التي تقرأها، لأنَّ أحد الحكماء قال: قل لي ماذا تقرأ أقل لك مَن أنت؛ وأنا في اطار العلاقات التي أقيمها مع الآخرين أحرص على معرفة أدق التفاصيل، لكي أكون على بيّنة، ولا أترك لأحد فرصة خداعي، رغم أن هذا الاحتمال ضئيل جداً. وهكذا ترى أنني رجل حصيف، بعيد النظر، شديد الحرص، وإن كنت، بعض الأحيان، قليل التهذيب. . .

ولم يترك لي فرصة للإجابة، تابع بنفس الحمية:

ـ بعض الناس يستحقون الإهانة، وبعض الناس يستحقون الاحتقار الشديد، وبعضهم يجب أن يُضرب بالحذاء، لأنهم مدّعون وأغبياء وعديمو الموهبة، ولكنهم، مع ذلك يفرضون أنفسهم ويجلسون على رأس المائدة! ربما نتيجة الوراثة أو نتيجة خداع الآخرين، أو لأنهم قساة لا يعرفون الحلال والحرام، ويمكن أن يفرطوا بأقرب الأصدقاء، المهم بالنسبة لهم أن يبقوا على رأس المائدة. . .

وضحك، ثم سأل من جديد:

ـ لا أتذكر، هل أجبتني، أيُها الرجل، عن الأسئلة التي طرحتها عليك؟

وحين ابتسمت وصمتُّ، سأل من جديد:

ـ لا أحب التفاصيل أبداً، أجب بلا أو بنعم..

وبعد قليل وقد تغيّرت اللهجة:

ـ هل تحب نفسك كثيراً؟ كم من الوقت تقضي أمام المرآة؟ أي الألوان تحب؟ أي الفصول المفضلة بالنسبة لك؟ والمرأة التي تحبها هل تنظر إلى عينيها أم إلى شيء آخر؟

وحين ابتسمت لغرابة الأسئلة قال بثقة:

ـ لقد كشفتك أيُّها النمس، أنت تحب نفسك أكثر مما تحب الآخرين، لأنك تحب النظر إلى سيقان المرأة أكثر مما تحب أن تعرف ما في قلبها، ولذلك أرشحك إلى منصب في الخارجية، لأنك لا تصلح لوزارة غير هذه...

وضحك بصخب، وأضاف:

ـ ولا تحاول أن تلجأ إلى الواسطة، مالاً أو جاهاً أو معارف، فأنا صخر، جلمود قاس، صدّاع، لا يمكن أن أتراجع عن قراراتي، ولا يمكن لأحد أن يؤثر عليّ..

تغيّر تماماً، قال بجدية:

ـ لعلمك: وجهي لا يضحك للرغيف الساخن، وضميري يقظ وقلبي جامد، فلا تحاول!

التفتُّ إلى رضوان وحامد، وقلت بصوت خفيف:

ـ يجب أن نحاول شيئاً.

حين دق حامد زيدان باب المهجع بقوة طالباً مجيء الحرس، كان العطيوي وراء الباب يتنصت، ربما من فترة طويلة، وخلال لحظات كان داخل المهجع ومعه عدد من رجال البادية بعصيهم. ما أن رآهم هشام حتى جلس في الزاوية وقد امتلأ ذعراً، وبعد قليل أخذ يرتجف وتصطك أسنانه.

بعد أن تملى العطيوي المشهد كله تطلّع إلينا ليقرأ الآثار. قال له حامد:

ـ الرجل مريض ويحتاج إلى علاج.

ـ مريض أو متمارض؟

هكذا تساءل، وبعد قليل وبسخرية:

ـ يجوز الخوف هدّ ركبه..

وتوجه إلى هشام بلهجة بدوية متكلفة:
- ها يا رِجّال، علامك؟ شنهو اللي دهاك، مضبوع ولاّ مسبوع؟
ظل الخوف في عيني هشام ولم يجبه. التفت إلينا العطيوي وقال:
- هذا قضيته بسيطة. الأهم قضيتكم أنتم، فما تقول يا ابن الخالدي؟
- أكدت لك أن لا علاقة لي ولا أعرف أي شيء.
ابتسم وهزّ رأسه بسخرية وقال:
- سبحان الله، كلكم تعيدون نفس الجواب مهما كان السؤال، وكأنكم راضعينه من حليب امهاتكم!
وانت يا شيبة عندك ما تقوله؟
- سلامتك.
ردّ بحقد وسخرية:
- الله لا يسلّم فيك عظم، توقعنا الشوبة تجيب أجلك لكنك مثل الصل!
وهزّ رأسه عدة مرات وهو يتابع:
- الظاهر أنك بحاجة لحفلة جديدة حتى يرتخي لسانك!
ودار دورة كاملة، وكانت عينا هشام تتابعانه بخوف، وسأل رضوان:
- وانت، يا قاطع الصحراء، هل تريد أن تعترف على شركائك والمتعاونين معك أم لا؟
- قلت لك إني المخطط والمنفذ والمسؤول الوحيد عن العملية.
- عفاريم، يعيش الأبطال الصناديد!
هكذا هتف أبو مهند، وأضاف بلهجة تهديد:
- بسيطة، راح اعطيكم فرصة إضافية اليوم وبكرة لعلّ الله يفتحها عليكم!
استدار يريد أن يغادر المهجع، فسأله حامد زيدان برجاء:
- والمريض؟ ما راح تعالجوه؟
ردّ باستعلاء وثقة:
- نحن الذين نقرر، وأنت انتهى دورك بأنك أبلغتنا، ولم تعد لك علاقة..

وتغيّرت اللهجة، أصبحت ساخرة:

ـ نعالجه.. نتركه يموت.. ينهبل.. ترتفع حرارته، هذا شغلنا، ولا يحق لأحد أن يتدخل بشؤون الإدارة؛ والإدارة تعالجه اليوم، بعد شهر، بعد سنة، هذا ما هو شغلك ولا علاقة لك به، وأي كلمة زايدة أو ناقصة، من أي واحد، يصير مثله، تسمعني؟

بعد ساعات من مغادرة العطيوي ظلَّ هشام في ذات المكان، وظلّت نظراته المذعورة ذاتها. حين نتقدم نحوه، في محاولة لوضع اليد على جبينه من أجل معرفة حرارته، كان يُصاب بالفزع، وكانت عيناه بتوسل حزين، ترجوان أن لا نؤذيه. أمّا عندما جاؤوا بالأكل فقد جاؤوا لهشام بثلاث حبات من الاسبرين، وطلبوا، وبتأكيد، حسب توصيات الممرض، أن يتناول الأولى بعد الأكل!

في وقت ما نام.

وإذا كنا عازفين بالأمس عن أي كلام، وغير قادرين عليه أيضاً، فإنّنا الآن بمواجهة مشكلة لا يمكن أن تؤجّل، ولا نعرف كيف نتصرف. قلت:

ـ إنها الحمى، ولا بد أن تزول.

قال أبو مكرم، وكان شديد الحزن:

ـ أتمنى أن تقتصر على الحمى، لكن أخشى أن تكون أخطر من ذلك، لأنَّ هذيان الحمى لا يكون بهذا الوعي المضاد، وبهذا الوضوح والحدة.

قال رضوان:

ـ لو كنت أتصور أن هربي يمكن أن يقود إلى هذه النتائج لما هربت..

وبعد قليل وبحزن:

ـ ولا بد أن نفعل شيئاً من أجله. يجب أن يُعالج وبأقصى سرعة ممكنة.

تساءلت:

ـ وإذا لم يستجيبوا ولم يفعلوا شيئاً؟

ردَّ رضوان، وكان صوته حاداً:

ـ أنا مستعد للإضراب، وحتى الموت!

ابتسم أبو مكرم ابتسامة خفيفة، لكن لم يرفع رأسه، وقال، دون أن يوجه الكلام لأحد:

ـ يجب أن نفكر بهدوء، وأن نحاول دون استفزاز، فالمهم إنقاذ هشام.

في وقت ما، ورغم مراقبتنا له، استيقظ دون أن ننتبه. تنصت إلى ما كان يدور بيننا، وفجأة صرخ صرخة قوية مثل تلك التي يطلقها ممثلو السينما وهم يمثلون دور الأبطال، وقف فوق رؤوسنا، وقال:

ـ بالجرم المشهود قبضت عليكم متلبسين، فارفعوا أيديكم!

نظرنا إليه بتعاطف وحزن، لم يأبه، واصل:

ـ الجاسوس والمخبر، مهما حاول أن يخفي نفسه فإنَّ العين الثاقبة تميزه. ويجب أن تتأكدوا: عيني عين صقر، ومتى أضع العمامة تعرفوني يا خدم الامبريالية والذين يصطادون في المياه العكرة، ويا مَن يحبون نساء غيرهم!

قال حامد زيدان برجاء:

ـ يا هشام لازم ترتاح، لازم تهدا...

وتغيّر صوته، وكأنّه يكلّم نفسه:

ـ أبو الحرارة وأبو يومها.

وأمسك بيد هشام يريد أن يجلسه إلى جانبه، لكن هشام سحبها بقوة وشراسة، وقال وهو يتراجع إلى الوراء:

ـ وأستطيع أن أُميّز عيون اللصوص الصغار من اللصوص الكبار، والذين يسرقون في الليل عن الذين يسرقون في النهار. ولا بد أن تعرفوا: أن الله يوزع العقول والأرزاق كما يشاء، وذاك الذي رفع يديه وقال: «يا رب هذا حمار وله دابة وأنا إنسان وليس لي حمار» يجب أن يجلد، لأنّه لم يراجع الله إلاّ في وقت متأخر، اي بعد انتهاء الدوام الرسمي، وهذا خطأ، وأنتم تدركون!

صرخ في وجهه رضوان لعله يعيده إلى رشده:

ـ اقعد هشام أحسن لك، وإلاّ كسّرت رأسك، تسمعني؟

ضحك هشام بشكل هستيري، ولما هدأ:

ـ أرأيتم كيف يتطاولون على الجماهير، على الشعب؟ هل تؤمن بالدستور؟ أتحب الشاي بارداً؟

وحين وجدنا نتطلع إليه بتلك الطريقة فقد صرخ:

ـ إذا كنت لا تعرف ألف باء التكنولوجيا فكيف تتوقع أن تقوم الثورة العالمية، وكيف يمكن أن تنتصر الطبقة العاملة؟

لم تنته هذه المناقشات إلاّ حين جاء العشاء. إذ ما كاد يأتي جند البادية حتى لبد هشام، مثل قط، في نفس الزاوية التي جلس فيها حين جاء العطيوي صباحاً. حاولنا أن نقنعه بتناول العشاء معنا، بتناول جزء منه، لكنه رفض. أمّا حين حمل إليه أبو مكرم الصحن، فقد مدّ يده، لا شعورياً، والتقط بعض حبات الفاصولياء!

ظلّ كذلك وقتاً ثم قرّر أن ينام. قال لنا بكثير من الود: «تصبحون على خير»، وغطّى رأسه تماماً وراح في النوم. في وقت لاحق تأكّدنا من نومه حين سمعنا تنفسه العميق، وفي بعض الأحيان، سمعنا شخيراً خفيفاً.

لم نتحدث، وإن تبادلنا بعض التعليقات، وبصوت خفيض، لئلا يستيقظ، ونمنا!

في وقت ما، ولا يمكن أن أُحدّد هذا الوقت، أيقظتنا صرخة، كانت مفاجئة وقوية: عقرب! عقرب!

حين نهضنا فزعين رأينا هشام وبيده حذاؤه. كان يتطلع إلى الأرض بحذر وخوف، يتلفت في كل لحظة، وفي جميع الاتجاهات. تطلعنا، مثله، إلى الأرض، إلى الزوايا بشكل خاص، إلى الجدران، لم نرَ شيئاً. قلّبنا أطراف البطانيات، قلّبنا الأحذية، نفضناها، فعلنا ذلك مرة أو اثنتين، وقد عاودنا الخوف فعلاً من وجودها، لم نجد شيئاً. تطلعنا إلى هشام، كان يمشي على أطراف أصابعه، رافعاً الحذاء، وبين فترة وأخرى يصرخ، وبأشكال متعددة: عقرب.

بعد أن بحثنا طويلاً، ولم نجد شيئاً، جلسنا، الواحد بعد الآخر، على الفراش. كان لا يزال يدور ويبحث ويحذّر. حين التفت ورآنا جالسين، تطلع إلينا باستغراب، والحذاء مرفوع بيده، وقال بتهديد:

ـ الآن تأكّدت أنكم جواسيس. . .

وصرخ بشكل مفاجئ وقوي:

ـ انهضوا أيُّها النيام، أيُّها الساهون اللاهون الساقطون المنهارون الأغبياء!

تطلّع إليه كل واحد منا بطريقة معينة، لكنها جميعها كانت نظرات إشفاق وحزن، تابع دون أن يهتم لنظراتنا:

ـ العقارب تسرح وتمرح، تملأ الخراب والعمار، والناس لا يدرون! تباً لكم من قوم تحملون موتكم على أكتافكم بمباهاة الملوك والحواة وبائعي أوراق اليانصيب.

نفض رأسه بحزن ويأس وأضاف:

ـ كم نبهت قومي، كم قلت لهم، لكن لا حياة لَمن تنادي! تنابل، سرسرية، طرشان، عميان.. وقليلي الحياء. انظروا كيف يعاملون نساءهم، كيف يعاملون الرجال المسنين! لقد أضاعوني وأي فتى أضاعوا! قلت لهم البحر وراءكم والعدو أمامكم؛ قلت لهم الحياة والموت وجهان لعملة واحدة، أو رغيف خبز. قالوا لي الأحذية تبقى بعد البشر، وتبقى الطرابيش والفؤوس. انظروا...

وصرخ فجأة:

ـ انهضوا بسرعة: عقرب.

وقفنا فزعين، تقدّم بخطوات محاذرة وضرب الأرض عند قدم حامد، وضرب مرة ثانية بقوة، وبصق ثم تركنا وذهب إلى الزاوية. أنزل سرواله، أخرج عضوه، وقال بصوت خافت:

ـ يجب أن تبول في الأمكنة المناسبة!

تطلع إلينا وهزه باتجاهنا، وقال يخاطبنا ويخاطبه:

ـ هؤلاء الأوباش لا يعرفون كيف يقتلون العقارب، فهل تستطيع أنت؟ أنا أثق بك واعتمد عليك، فماذا تقول؟

وبال حيث كان، على الجدران، على الأرض، ولو استطاع لوصل إلينا، قال له أبو مكرم:

ـ يا هشام يا حبيبنا ونور عينا، لو تستريح، لو تأخذ لك غفوة!

ردَّ بحدة:

ـ وهل يمكن أن يطبق لي جفن والثورة العالمية لم تكتمل؟ أتريدني أن أكون خائناً...

وبعد لحظة وهو يقترب، ولا زال سرواله مرخياً:

ـ لم أتعرف على الأخ مَن يكون ومن أين أتى؟ فالرجاء أن تعرّف نفسك! صرخ رضوان بحدة:

ـ استحِ يا حيوان، ارفع لباسك، وخليك آدمي، وإلاّ . . .

هجم عليه بقوة وهو يرفع حذاءه ويصرخ:

ـ الجواسيس والعقارب لا يمكن أن يخفوا أنفسهم، الله كم هم مكشوفون ويحتاجون إلى ختم . .

وحاول أن يضرب رضوان بحذائه على الجبين. أمسك رضوان يده، لواها، وأنزله إلى الأرض، حين أصبح تحته قال له بغيظ:

ـ لك نام وخل الناس يناموا، لا تظل حيوان تبعبع، تسمعني؟

قال أبو مكرم بأسى:

ـ طول بالك يا رضوان، لأنَّ الزلمة خالص!

بصعوبة أعدناه إلى فراشه. قلنا لبعضنا: لا بد من أن ينام، وأن يبقى واحد منا حارساً!

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ لا يمكن لأحد أن يعيش مثلها!

في اليوم الرابع وصل إلى العفير حمدان فرج، والد رضوان.

ربما نقل إليه أحد خبر هرب رضوان، أو جاء بزيارة بعد أن منع نفسه فترة طويلة، وربما أيضاً بالاتفاق مع السلطة.

قضى معنا بضع ساعات، من الضحى إلى ما بعد الظهر. كان العطيوي مرافقاً وأنيساً وناصحاً. وبعد أن سمع ورأى، وبعد أن اختلى برضوان وقتاً طويلاً، خرج بنتيجة: سوف يصطحب معه، في سيارته، وبمرافقة قوة من البادية، هشام، لأنَّ الطبيب الذي كان في زيارة للعفير أيضاً قرّر أن المريض يحتاج إلى معالجة سريعة، أمّا رضوان، وكما قال أبوه، وعلى مسمع من السجناء الآخرين، «فإنّه يحتاج إلى فركة أُذن وإلى تأديب، حتى يعرف اللي يصير واللي ما يصير».

لا أستطيع أن أستعيد تلك الفترة دون أن اشعر بحزن كاوٍ، بلوعة لا يمكن لأحد أن يتذوق مثلها. كانت أياماً شديدة الكآبة وبالغة الصعوبة، وكان الإنسان عاجزاً عن عمل أي شيء!

بدا هشام زينو في حالة من الاستسلام وهو يقاد إلى سيارة حمدان فرج. تطلّع إلى الوجوه والأمكنة، تطلع إلينا واحداً واحداً، ولم يقل أية كلمة. أما وهو يتجه نحو السيارة قبل أن يصل الأسلاك الشائكة، فقد هجم على شجرة الكينا. اندفع نحوها كما يندفع عاشق. احتضنها، قبّلها، احتك بها، تماماً كما تفعل الحيوانات. حاول أن يجلس تحتها، لكن الأصوات التي نهرته جعلته يتوقف. امتثل لما يريدون. كانت عيناه الكبيرتان مثل سراجين، وكانت تطفحان بالشوق والرغبة في أن يبقى هنا، أن يبقى معنا!

أما حين دُفع من هناك باتجاه السيارة فقد تطلع إلى كل شيء، ثم فجأة أخذ يدوس الأرض بقوة وهو يصرخ:

ـ انتبهوا. احذروا. إنها عقارب!

وحين دفع إلى السيارة، في المقعد الخلفي، فقد جلس إلى جانبه. من كل ناحية، جندي من جنود البادية. وجلس حمدان فرج إلى جانب السائق. وتبعت تلك السيارة إحدى سيارات الجيب التابعة لقوة البادية.

شعرنا، والسيارة تنطلق، أن هماً قد سقط عن أكتافنا، أما والسيارات تبتعد، والغبار يتطاير، فقد شعرنا أننا فقدنا الكثير. نظرت إلى حامد زيدان فرأيته يبكي، أما أنا فقد ارتميت على الفراش صرخت:

ـ إلى متى، نعم إلى متى؟

مرّت الأيام تبعتها الأسابيع، بدأنا نتعود من جديد على سجن العفير، ونصبح جزءاً منه، واستطعنا بأساليب لا حصر لها، أن نقيم علاقات، لا أقول جيدة، وإنما أذاها أقل من السابق، مع جند البادية؛ كنا نرشيهم بالسجائر، بالنقود، بتقديم بعض الخدمات، ولذلك أخذوا يتساهلون في تنفيذ التعليمات، ويغضون النظر عن بعض الواجبات التي كنا نُطالب بها في البداية. وسالم العطيوي، الذي يتظاهر أنه لا يعرف ولا يرى، حين يقدّر أن الاسترخاء وصل حداً يجب أن لا يتجاوزه، أو حين يُبلّغ بقرب وصول هيئة من هيئات التفتيش، أو التحقيق، فإنّه يعود بسرعة إلى سيرته الأولى، ويبالغ كثيراً في ذلك: عمليات تفتيش وعقوبات جماعية، إضافة إلى السخرة، والعمل الذي يحتاج بضعة أيام لكي ينجز يجب إنجازه في ساعات وأقصى حد خلال يوم واحد. كان يقول، وهو يهز العصا:

ـ هذا الشغل لازم اليوم ينتهي، أما كيف فدبّروا روسكم، واصلوا الليل بالنهار، مددوا اليوم حتى يصير أكثر من اربع وعشرين ساعة، استأجروا فعلة على حسابكم، المهم: الشغل لازم يخلص، وأنا غير مستعد لقبول أية حجة، سامعين؟

ونواصل العمل في بناء السور، إحدى المرات، مع أضواء الفجر الأولى! ولكي ننتهي من تنظيف الساحة نضطر لمواصلة العمل حتى ساعة متأخرة من الليل. وصدف أكثر من مرة أن استمر العمل فترة تزيد على ثلاثين ساعة، لم نتوقف خلالها إلاّ لتناول الطعام!

ورغم أننا بذلنا جهوداً غير محدودة من أجل تنظيم حياتنا الداخلية، والاستفادة من الوقت، سواء بوضع برامج تعليمية وتدريس اللغات، أو الاهتمام بالحديقة لتأمين بعض المحاصيل، كما بذلنا جهداً لتوفير بعض الكتب، لكن أياً من هذه الخطط لم يدم إلاّ فترات قصيرة، إذ ما نكاد نصل إلى ترتيب أولي حتى يقلبه العطيوي فوق رؤوسنا. أكثر من ذلك كان الأنفار، في أغلب الأحيان، ولأسباب طارئة أو غامضة، يثارون إذا رأوا أحداً منا يقرأ كتاباً، وصدف عدة مرات أن صادروا الكتب، ولم يتردّد واحد أو اثنان في تمزيق عدد منها.

لا أعرف متى دخل الربيع وكيف انتهى، لأننا انتقلنا فجأة من الشتاء القاسي إلى الصيف الأكثر قسوة. وما كنا نهرب منه في الأيام الباردة أصبحنا نحنّ إليه في أيام الصيف الملتهبة، والمليئة بالمشقة والغبار والذباب. كنا نحاول أن نسرق الهواء من السماء بكل الوسائل: نبدل ملابسنا لعلها تولد شيئاً من الرطوبة، نجلس في الممر لعلّ الهواء يمر من هناك. أما إذا دخل الليل ودخلنا إلى المهاجع وأغلقت الأبواب فكنا نصل إلى حد الاختناق. كان النوم لا يقترب من أجفاننا إلاّ في أواخر الليل، وبعد أن تنهك قوانا ونسقط في حالة من الخدر تقودنا إلى غفوات قصيرة، بالغة القسوة والاضطراب.

بعد أن بلغت الحرارة حداً لا يطاق، ولم نعد نستطيع النوم ما دامت البوابة مغلقة، لم نجد حلاً إلاّ أن نخترع مروحة من المواد التي بين أيدينا، وهكذا ربطنا حبلاً وضعنا في وسطه بطانية، وأدخلنا فيها عصا، وربطنا العصى بحبل آخر، وأصبحت هذه المروحة لا تتوقف عن الحركة. كنا نتناوب على شد الحبل، خاصة في الليل، لننتزع من الطبيعة المعادية حركة أو نسمة، لا تزيد عن قبضة من الهواء الذي أخطأ ووصل إلينا!

وحتى هذه «الاختراعات» البدائية الفقيرة كنا نحرم منها في بعض الأحيان. لما رأى العطيوي أول مروحة أقمناها نظر إليها بإمعان، ونظر إلينا، هزّ رأسه، ابتسم وقال:

ـ الظاهر انكم تعودتم على الرفاه. . .

وبعد قليل وهو يجر المروحة ليختبرها:

ـ وباكر طالبونا بماء بارد، وبعده يجوز تطالبون بثلاجة وكنديشين.

قال الكلمة الأخيرة على طريقة البدو، ولأنّه لمح ابتسامة، أو لمزيد من السخرية تساءل:

ـ ما هو اسمه كذا أو أنا غلطان؟

وحين صمتنا جر الحبل بقوة فأطاح بالمروحة. وتغيّر وجهه ونبرته:

ـ تريدون خلق المشاكل لأنفسكم ولنا، يا أولاد الحرام، ها؟

وأضاف بمزيج من القسوة والسخرية:

ـ حبال.. ها؟

بعد أن سقطت المروحة ظلّ الحبل في يده، شده ليختبر قوته، لما وجده قوياً قال بلهجة رضية، أقرب إلى الجد:

ـ هالحبل، يا أولاد الكلب، يشنق بعير، يعلّق ثور.

وتغيّرت اللهجة قليلاً، شابتها السخرية:

ـ وإذا واحد منكم شنق نفسه، أو شنق غيره، مَن هو المسؤول، وشلون راح نخلص!

وتغيّرت اللهجة مرة أخرى:

ـ ونبلش معكم بكرة: تحقيقات وسؤال وجواب، ومَن هو المسؤول؟ وين كنتم؟ وهذي الحبال كيف دخلت إلى المهاجع؟ ويقولون، وما عندنا جواب: كنتم نايمين؟ كنتم ساهين؟

وشدَّ الحبل إلى أقصى حد، مزّق البطانية من خلال استخراج العصا، سأل دون أن ينتظر أو يتوقع الجواب:

ـ بعد اليوم إذا دخل حبل إلى مهجع راح اشنق اللي يدخله، تسمعوني؟

وينتهي تموز ويليه آب. وإذا كانت الحرارة في تموز قاسية فإنّها في آب كاوية ولا يمكن لأحد أن يتحملها، أن يتآلف معها. فقد هجم هذا الشهر كما تهجم الوحوش الكاسرة. ونحاول أن نراوغ، أن نحتال على الحرارة، فنقيم مروحة أخرى، يراها الجنود لكنهم يصمتون، يتظاهرون أنهم لم يروا شيئاً، لأن العرق الذي يزخّهم وهم تحت بيت الشعر، أو في ظل شجرة الكينا، والذي يصاحبهم في الليل، رغم أنهم ينامون في العراء، تحت السماء مباشرة، وأغلب الأحيان فوق الأسطح، يجعلهم يقدرون الصعوبات التي نكابدها في الليل وفي النهار، ولذلك يتغاضون، يتساهلون، ونبدأ نعد أيام

آب القاسية كما يعد التلميذ أيام العطلة، أو كما يعد العريس الأيام الباقية للعرس، فنقول لأنفسنا، في محاولة لتفسير جنون الطبيعة:

العشرة الأولى من آب اللهاب تحرق المسمار في الباب، والعشرة الثانية تنضج التمر والأعناب، والعشرة الأخيرة تفتح على الشتاء باب. وننتظر الأيام العشرة الأخيرة من هذا الشهر الملعون أن تأتي، وقبل أن تصل تذبل الزهور التي حاولنا، بكل الوسائل، أن نبقيها حية كرمز اخير للمقاومة. وبصعوبة وببطء السلحفاة يزحف آب يوماً في اثر يوم، لكنه بكل تأكيد أطول كل الشهور، حتى إذا انتهى ولم ينفتح للشتاء أي باب، أية نسمة، نقول أن شيئاً ما قد تغيّر، وحين ندور كالحيوانات المربوطة، يقول حامد زيدان بدعابة ليخفف عنا:

ـ آب لم ينته، يا شباب، لأنَّ آب الفلاحين غير آب الأفندية!

يبتسم ويضيف كعالم:

ـ أن الفلاحين في بلادنا يصدقون أنفسهم أكثر مما يصدقون الكتب، وهم يعتبرون أن حسابهم للشهور أدق من التقاويم، ولذلك أطلب منكم أن تنتظروا أسبوعين، وبعدها نتحدث!

وظل العفير قاسياً ثقيلاً، فلما انتصف أيلول لانت السماء وهدأت الشمس، وأصبحت الأماسي أكثر رحمة، كما أخذت تتدفق انسام جديدة من الهواء: زرقاء، وخضراء ومزيج من اللونين، ثم جاءت الرطوبة، خاصة بعد أن تنكسر الشمس وتتوارى، وأصبحت الليالي خفيفة وشديدة الخصوبة.

قال حامد زيدان يحذرنا في أواخر شهر أيلول:

ـ انتبهوا، يا شباب، لبرد آخر الليل، لأن البرد صار يغدر!

ضحك، وكأنّه تذكر شيئاً، وأضاف بعد قليل:

ـ في مرة سابقة، في العفير، وكنت بعمركم، وكان آب اللهاب يخيم كحجر الرحى فوق رؤوسنا، اجتهدت: رششت البطانية بالماء، وغطيت نفسي بها. وفي الصباح التالي أحسست أن الرطوبة مست عظامي، ورغم ذلك لم أمرض في تلك الفترة، لكن مرّ يوم قاس في أيلول ففعلت ذات الشيء، وقبل أن يصبح الصباح شعرت أني وقعت، وأن الرطوبة تمكنت من عظامي، ولم يقو جسدي على التحمّل، وقال لي شيخ بدوي حُبِسَ معنا: برد

الشتا توقّه وبرد الصيف تلقّه، وحنا في أول الشتاء! وقد أعطاني ذلك الشيخ أدوية استطاعت أن تجعلني معكم الآن.

ابتسم حامد زيدان وقال كأنّه يخاطب نفسه:

ـ على الإنسان أن يتعامل مع الطقس بطريقة حكيمة!

وجاء الشتاء أو لم يجىء، لأنَّ تلك السنة اختلطت حتى على رجال البادية فبعد أن انتهت التشارين، وبدأ كانون ولم يصل المطر، فقد نظروا إلى السماء، وقالوا لأنفسهم، لكننا سمعنا: «تشرين وتشرين، وهذا كانون، ولا قطرة؟» وحاولوا أن يؤملوا، لكن بعضهم لم يتمالك نفسه، قال واحد منهم:

ـ الله إذا غضب على البشر فمعنى ذلك أن البشر فسقوا!

وبعد قليل وكأنّه يكلم نفسه:

ـ طبيعي إذا الظلم بلش يطال الزرع والضرع، لكن أساسه البشر!

ورغم أن الجنود بدأوا يتحسبون لانقطاع المطر، فقد أصبح سلوكهم مضطرباً وشديد الغرابة: مزيج من الطيبة والقسوة، أو كانت هاتان الصفتان تتناوبان بشكل غير طبيعي وتؤثر على سلوكهم وتصرفاتهم، فمرة يبالغون في التساهل، وأخرى يسرفون في القسوة لدرجة التحدّي والاستفزاز، الأمر الذي جعلنا نحار في كيفية التعامل معهم، وقد اضطررنا ازاء هذه الحالة أن نعطيهم أرقاماً بدل أسمائهم، وبمجرد أن يميز واحد منا وضع جندي من جنود البادية حتى يهمس: 8 شعيرة، و5 قمحة! ونحاول أن نتصرف بما يلائم ذلك الوضع!

في منتصف كانون الثاني طُلب إلينا، بشكل مفاجىء، أن نستعد. وطلبٌ من هذا النوع يحتمل الكثير من التوقعات: تفتيش المهاجع، أعمال سخرة خارج السجن، إضافة إلى احتمال تحقيق جديد نتيجة ظهور وقائع لم تكن معروفة قبل القبض على مجموعة جديدة!

جاءنا سالم العطيوي. تطلع إلينا بإمعان وهزَّ رأسه عدة مرات قبل أن يتكلم:

ـ لازم تعرفوا: الله سبحانه وتعالى نجّاكم هذه المرة، الله وضع الرحمة في قلبي وقال لي: ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء، ولهذا السبب مثل ما استلمناكم راح نرجعكم، بدون نقص، راس براس...

استراح قليلاً وتابع بلهجة حازمة!

ـ لكن لازم يكون ببالكم: اللي يصل منكم، مرة ثانية، للعفير، ما راح يخلص، ما راح يرجع سالم، اللي ما يروح حريق يروح غريق، والله يستر!

كان، وهو يخطب، يتطلع إلى وجوهنا، وكان يقرأ مدى تأثير كلماته، وفي لحظة اكتشف حامد زيدان، وتذكر أنه زار العفير أكثر من مرة، فقال بما يشبه المداعبة:

ـ وأنت الله خلصك يا شيبة الخرا، ولو تذكّرتك، أو لو ما غبت عن فكري، لكنت اليوم تحت التراب، لكن بسيطة، صرت شايب وايامك معدودة، وأن تندفن بمكان ثاني أحسن ما توسخ الفلا اللي عايشين فيها، فاذهب اليوم فأنت عتيق، لكن أبد لا تخلني أشوف وجهك، تسمعني؟

هزّ حامد زيدان رأسه دلالة الموافقة وابتسم!

ولم يطل الأمر حتى وصلت السيارات، وبدأنا نتحرك تجاهها. كانت السماء ملبدة بالغيوم، والرطوبة تملأ الجو، وما كدنا نُوزّع عليها ونأخذ أمكنتنا فيها حتى بدأ المطر، ضربني أحد الجنود بعقب بندقيته وقال بحقد:

ـ درب ياخذ ما يرد!

وبعد قليل:

ـ خلصنا منكم يا وجوه النحس!

وأُخذنا إلى سجن «القليعة»!

وصلنا القليعة عند أول المساء!

كان الطريق إلى هناك شديد الوعورة، وفي أغلب الأماكن ضيقاً، وجاءت سيول الخريف، ثم أول الشتاء، لتخرب أجزاء عديدة منه، الأمر الذي اضطرهم لإنزالنا بضع مرات لدفع السيارات، لوضع الحجارة أو ألواح الخشب تحت عجلاتها، لتقوى على اجتياز الحفر الكبيرة، أو لمنعها من الانزلاق.

لما وصلنا وفُتحت البوابة لدخولنا، وبعد أن ألقى آمر السجن نظرة، واكتشف كثرتنا، قال ببرود يوازي برودة الجو المحيط بنا:

ـ الاستلام والتسليم صباحاً!

وحرّك يده بطريقة قاطعة، أن لا مجال لأية مناقشة. تطلع إلينا مرة أخرى وقال بسخرية:

ـ بارك الله وما شاء الله، كأنّهم قطيع ماعز!

كانت ثيابنا وأجسادنا ملطخة بالوحل، نتيجة العمل الشاق الذي أُجبرنا عليه في الطريق، وكانت وجوهنا متعبة، لا تكاد تبين في الأضواء التي وُزعت في عدة أنحاء من الباحة الأمامية، لكن الضباب والرطوبة امتصا جزءاً كبيراً من نورها، فبدت وكأنّها تضيء نفسها أكثر مما تضيء للآخرين.

حاول مسؤول الحراسة الذي جاء بنا إلى هنا أن ينتهي من هذه المهمة، لكن آمر السجن كان قاطعاً وحازماً في رفضه:

ـ يظلون بعهدتكم إلى الصباح، والصباح رباح!

وأضاف بعد قليل في صيغة توضيح أخير:

ـ وأولها وتاليها أنتم نايمين هنا، لأنَّ عودتكم بالليل مستحيلة في مثل هذا الجو.

ردَّ مسؤول الحراسة بطريقة توحي أنه يوافق إذا تلقى مقابلاً:

ـ إذا أصريتم على العشا مع كاس عرق فعلى خيرة الله!

ـ حلّت البركة..

هكذا ردَّ آمر السجن، وبعد قليل، وبلهجة مرحة:

ـ يا شيخ احنا ندوّر على واحد يسكر معنا!

وضحك... وهو يضيف:

ـ نريد نشوف البشر ونسمع الأخبار، ونتزوّد بِكَم نكتة مونة لهذا الشتاء الطويل!

وهكذا، بعد أن تمَّ الاتفاق على بقاء مجموعة الحراسة، استوضح قائد المفرزة عن المكان الذي يمكن أن «تُخزن فيه البضاعة إلى الصباح»، هكذا قال، واقترب أكثر من آمر السجن، وهمس في أذنه بضع كلمات، لم نستطع أن نقدّرها، لكن تأكدنا منها بعد أن فُتح لنا عنبر في الجهة الشمالية ودفعنا إليه! إذ لا بد أن سأله عن طعام لنا، خاصة وأننا لم نتناول شيئاً منذ الصباح، فكان الجواب هزة رأس نافية ونهائية. أما حين أصبحنا داخل العنبر فقد قال أحد الجنود الذين رافقونا:

ـ ما لكم هاسّع إلاّ تسوّا مثل الغنم أيام المربعانية، تنفّخون بوجوه بعضكم إلى أن تدفوا!

وحين جاءه صوت من وسط المجموعة:

ـ والأكل؟ ما راح تعشونا؟

ردَّ وهو يضحك:

ـ الأحسن كلوا هوا وناموا!

وأغلقت البوابة بإحكام ومضوا.

كان العنبر مليئاً برائحة الدواب والرطوبة، وفيه بقية تبن وأعلاف،

وكان مظلماً أيضاً. بصعوبة بالغة، على ضوء أعواد الثقاب، ثم وجدنا شمعة عند طرف افريز، قرب الباب، رتبنا أمر منامتنا على ضوئها. بعد ذلك بدأنا نفكّر ونواجه العدوّين الآخرين: البرد والجوع، وقد كانا متلازمين ويحرض أحدهما الآخر، إذ ما كدنا نرتمي على البطانيات التي فردناها، في محاولة للنوم، حتى بدأت امعاؤنا تقرقر، خاصة وقد أخذت تتناهى إلى أسماعنا أصوات إعداد الطعام في الباحة الخارجية، ومعها الحركة النشيطة التي دبت في أنحاء عديدة، وكانت تصلنا أيضاً أصوات السمر ورائحة اللحم الذي يشوى!

خلال الفترة الأولى حاولنا أن نتغلب على الغيظ بإطلاق النكات، بالمزاح، ولم نتردد في إطلاق الشتائم، لكن أياً من هذه الوسائل لم تنسنا الجوع، ولم تخفف من البرد، إلى أن بدأ كل واحد منا يواجه هذين الخصمين بطريقته الخاصة، حتى غرقنا بالنوم.

في اليوم التالي، مع أول أضواء النهار، بدأت الأجساد تتململ، وربما حرضها الجوع، إلى أن استيقظ الجميع، لكن لم يغادر أي منا فراشه، وإن تبادلنا النظرات والابتسامات. أما ونحن نجيل أبصارنا في المكان فقد تأكدنا أن العنبر مربط للدواب، من خلال الحلقات المثبتة بالحائط، ولوجود بعض السروج في إحدى الزوايا؛ إضافة إلى أن رؤية التبن والأعلاف يزيد رائحتها، ويعطي المكان قوامه الحقيقي والغرض الذي أعدّ له!

تركونا فترة طويلة قبل أن يفتحوا البوابة ويطلبوا منا الاصطفاف في الساحة، تمهيداً لإجراء عملية التسليم. كان البرد شديداً، ويزيده الجوع شدة، فقد مضى أكثر من أربع وعشرين ساعة لم نتناول خلالها شيئاً، وكانت ملابسنا رقيقة لا تتلاءم وهذا الطقس.

أمّا حين وصل الآمران، ومعهما مجموعة الحراسة وقسم الاستلام في السجن، فكان الوقت تجاوز الضحى، وكان مطر خفيف يتساقط، مما جعلهم يأمرون بنقلنا إلى باحة داخلية مسقوفة. ولأنّ مدحت عثمان، آمر السجن الحالي، وقد استلم بعد عملية الهرب التي جرت من سجن القليعة جاء لكي يضبط الأمور ويفرض نظاماً حديدياً، لذلك رفض استلام السجناء بقائمة

واحدة، وبالعدد، وأصرّ على أن تنظم استمارة استلام لكل واحد على انفراد، مشترطاً أن تتضمن الاستمارة بعض التفاصيل، كالطول، ولون الشعر والعلامات الفارقة، إن وجدت. وهذا ما اقتضى نقلنا إلى المكان المسقوف، لكي يتمكن كاتب السجن، أنور نور الدين، أن يدوّن المعلومات اللازمة!

كان مدحت عثمان وهو يستلمنا يشبه تاجر الخيول: ينظر إلى كل واحد بتدقيق وإمعان، ليتأكد من الأوصاف ثم يمليها على أنور نور الدين. وكان يحاول اكتشاف العلامات الفارقة، إذا لم تلتقطها العين مباشرة، إذ يطلب من كل واحد أن يستدير، أن يتمشى، لعله يكتشف أو يلتقط فيه ما يميزه عن الآخرين، فإن لم يجد يطلب من كاتبه وتخرج الكلمات من بين أسنانه بغيظ أن يدوّن: «بلا وسم»!

عند الظهر انتهت عملية الاستلام. قال لنا بطريقة خطابية فخمة:

ـ سجن القليعة لا يُشبّه، ولا يوصف، وأن تروا بأعينكم خيراً من أن تسمعوا مني...

أطربته هذه البداية، ابتسم وتطلع إلى المسؤول الذي سلمنا، وتابع، بعد أن تنحنح:

ـ الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود، فإذا كنتم تريدون أن تخرجوا فالأمر سهل: النظام.

ومَن لا يريد الخروج فالأمر سهل: أن يخالف النظام. وكما قلت، وأؤكّد مرة ثانية: أن تروا خيراً من أن تسمعوا!

لم نكن نحتاج إلى خطب، فقد هدّنا البرد والجوع، ثم جاء تعب الوقوف. كنا نريد أن ننتهي بسرعة، وبعدها يمكن أن ندبّر أمورنا، لكنه، وكجزء من الديباجة التي تعوّد عليها، طلب من كاتبه أن ينادي على كل واحد منا، وبعد أن يتقدّم الذي يُنادى عليه، بطريقة عسكرية، إذ يترك مكانه ويتقدم خطوة إلى أمام، يسأله ثلاثة أسئلة ولا بد أن يجيبه نفس الإجابات:

1 ـ أتعرف أين أنت؟ فيجيبه: في سجن القليعة، سيدي!

2 ـ أتعرف مَن الذي يخاطبك؟ فيجيب: النقيب مدحت عثمان، آمر سجن القليعة، سيدي!

3 ـ أفهمت ما قلته؟ فيجيب: نعم، سيدي!

كنا، خلال ذلك، نريد فقط الذهاب إلى المراحيض، وقد عبّر حامد زيدان بلساننا جميعاً حين قال، وخرج صوته مازحاً:

ـ يا سيادة النقيب، إذا كان عندكم تعليمات إضافية فيمكن تأجيلها، لأنني عايز اطيّر مي!

ابتسم مدحت عثمان لهذا التعبير، لكنه زمّ شفتيه بسرعة لئلا يوحي بالتساهل، وقال:

ـ الظاهر أن الاختيارية ظهرهم محلول، فاركض قبل ما تعملها تحتك!

ابتسم الجنود وشاركناهم، الأمر الذي جعل النقيب يمنحنا فترة تنفس ننقل خلالها إلى المهاجع، وانسحب بعد أن أعطى تعليماته إلى خليل خيرو بتوزيعنا إلى ثلاثة مهاجع حدّدها له.

بعد أن أصبحنا نزلاء رسميين بدأنا نتعرف على سجن القليعة:

يقع على قمة جبل من أعلى جبال السلسلة الشمالية لعمورية. كان يوماً ما حصناً مطلاً على طريق القوافل، لكن بمرور الوقت، ونتيجة تقلبات أرضية وتغيّر طرق التجارة هُجر، ثم تهدمت أجزاء عديدة منه، وفي وقت لاحق رمّم أمير متمرد، انفصل عن الحكومة المركزية واستقل، القسم الشرقي من الحصن واتخذه مقراً، إلاّ أن السلطة لم تدم له طويلاً إذ غدر به أحد أقربائه، وقيل إنه ألقى به من الحصن إلى الجرف الشرقي الحاد، وما أن وصل الوادي، وكان يسمّى وادي الموت، حتى أصبح مجموعة من الأشلاء الممزقة والمعجونة!

وحكم وريثه الحصن إلى أن فتك به حرس الأمير السابق، بعد أقل من سنة، وألقوا به من نفس المكان وإلى نفس الوادي! ودبَّ الخلاف بين الذين جاؤوا من بعده، وقيل بتحريض من الحكومة المركزية إلى أن تمت استعادة الحصن، وقام الجنود المنتصرون بتهديم السور الشمالي وعدد كبير من غرفه، بعد أن حملوا ما يستطيعون حمله.

بعد عدة عقود تحوّل الحصن إلى وكر لعصابة خطيرة كانت تقطع الطريق وتداهم القرى لتتقاضى الاتاوات من الأغنياء.

وظلت تتناوب على الحصن عصابة بعد أخرى، وكانت العصابات الأخيرة تناوئ السلطة وتحتمي بالحصن أكثر مما كانت تقطع الطرق أو تداهم القرى؛ وظلّ الأمر كذلك إلى أن جاء الاستقلال، فأودع في الحصن عدد من الأشقياء الذين تعاونوا مع الأجنبي، ولم يستطيعوا أن يسافروا معه، أو فضّلوا البقاء في الوطن! وما كادت بضع سنوات تنقضي حتى صدر عفو بيّض السجون كلها، بما فيها سجن القليعة، فهُجر من جديد وامّحى ذكره من الأذهان، ولم يعد يرد اسمه إلاّ على ألسنة المسنين، حين يذكرون بعض الأشقياء الذين دوّخوا عمورية في سنوات قديمة، ثم غابوا إلى الأبد. ويُذكر الحصن أيضاً إذا ذكرت الحصون. وإذا ذُكر الغدر يُذكر. أمّا إذا جرى الحديث عن البرودة فإنَّ الكثيرين يقولون إن مياه الشلالات هنا تتجمد طوال شهور الشتاء وبعض شهور الربيع!

هكذا لخّص لنا عدد من الذين سبقونا تاريخ الحصن، مع تحويرات وإضافات تتفاوت من واحد لآخر. وكان السجناء القدامى يطلبون من الذين يصلون حديثاً أن يرفعوا أيديهم إلى السماء، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء، لعله يستجيب ويفك أسر الجميع! وفي محاولة لإقناعهم يؤكدون بثقة متناهية، وبقناعة لا تقبل الشك: «هنا أعلى مكان في عمورية كلها، وإذا كان الله يحب عمورية ويحب ناسها، فمن هذا المكان يمكن أن يسمع، لأنّه أقرب الأماكن إلى السماء، ولأن المظلومين هم الذين يتوجهون إليه بالدعاء»!

أمّا القصص التي تروى عن السجن في سنواته الأخيرة، وقد رواها مَن شهدها أو سمعها ممن لهم صلة بها، فهي كثيرة، ويختلط فيها الخيال بالرغبة، الواقع بما أُضيفت إليه من تفاصيل للإدهاش والدلالة على الشجاعة والتحمل، ثم ما تبع ذلك من تحدٍ وقسوة وآلام لم ينج منها أحد.

من هذه القصص ما وقع لسامي أيوب!

وقصة سامي أيوب متعددة الجوانب والمراحل، وإذ يعرفها الكثيرون في عمورية، فإنَّ أغلب ما يُروى منها جانب أو مرحلة من المراحل. يرويها نزلاء سجن القليعة بطريقة تختلف عن الناس خارجه، ويرويها الذين لا يعرفون عنه إلاّ القليل بطريقة مغايرة عمّن يعرفونه أو الذين لهم به صلة. وحتى هؤلاء،

خاصة مَن يعتقل منهم، وتتوفر وقائع عديدة لإدانتهم، كانوا ينسبون الكثير من الوقائع والمهمات، وحتى الحاجات، لسامي، باعتباره غائباً، ولا يمكن للسلطة أن تصله أو تقبض عليه، ولذلك كانت أغلب الخيوط والوقائع، تنتهي عنده، ولا يمكن للمحقق أن يواصل طريقه بعد ذلك!

لم تمضِ أيام على وصولنا إلى سجن القليعة حتى أُمرنا أن نتجمع في الباحة، أو بالأحرى جُمعنا كما تُجمع الغنم. وجاء آمر السجن مدحت عثمان، وكان إلى جانبه، على مسافة قصيرة منه، أنور نور الدين. أمّا الجنود فكانوا على مسافة أبعد.

حدّق بعينين فيهما حمرة واضحة، ربما من السهر والسكر، إلى كل واحد منا، والتفت إلى كاتبه، وبنظرة، دون كلمات، فتح الكاتب السجل وبدأ يقرأ أسماءنا، ومثلما طُلب منا أول مرة حين نوديَ علينا، يجب على مَن يسمع اسمه أن يتقدم خطوة إلى الأمام.

كان يتمعن بكل واحد، يقرأه، وبعد أن ينتهي ينقر بعصاه على الطاولة بجانبه طالباً أن يُنادي على الاسم الذي يليه، وبصوت حاد، يقع تماماً بين صوت المرأة والرجل، ينادي أنور على الاسم، وهكذا إلى أن أصبح طابورنا كله متقدماً خطوة، وحين نقر مدحت عثمان نقرة إضافية جاءه صوت أنور الحاد:

ـ التعداد تمام، سيدي!

نقر على الطاولة مرة وثانية، وأمسك بالعصا، من طرفيها، بيديه الاثنتين، وقال:

ـ أنا رجل عسكري...

بدا له أنه لم يقل شيئاً، فقد ظهرت عصبيته من خلال أنزاله العصا بسرعة وقوة، وكأنَّ هذه البداية لم تسعفه. تابع بطريقة أخرى:

ـ ومثل ما قلت لكم: لا أحب الكلام، لأنّه مضيعة للوقت ووجع للراس...

ربما وجد المفتاح المناسب، فقد أعاد العصا كما كانت، وتابع براحة أكثر:

ـ درست سجلاتكم وعرفت مَن أنتم...

توقف قليلاً، هزّ رأسه عدة مرات، وهو يتطلع إلى وجوهنا وانفجر:

ـ ديمقراطية وكلام فاضي ما عندي؛ أغلبية ورأي جماعي كلام يقال لغيري، لأنَّ الشيء الوحيد اللي أفهمه: النظام، نعم النظام، والنظام لا يكون إلاّ بتنفيذ الأوامر، أتسمعون؟

وحين لم يرد أحد منا، أضاف بطريقة جديدة:

ـ أقول لكم هذا الكلام لأنَّ واحداً من جماعتكم، سامي أيوب، وكلكم تتحملون مسؤوليته، هرب من هنا، ولكن لا بد أن تقبض عليه السلطات ذات يوم ولازم يرجع إلى القليعة، نعم يجب أن يرجع. فإذا وصل إلى هنا فالجواب واضح...

ابتسم بعصبية، دق على الطاولة المجاورة، وتوجه إلى خليل خيرو، وأصدر أوامره:

ـ السور الشرقي!

أُخذنا إلى هناك. كان النقيب قد سبقنا، وقف في مكان مناسب، حيث أجزاء من السور مهدّمة، والوادي يبدو طرف منه. حين صفونا قال بطريقة فخمة:

ـ لازم كل واحد منكم ياخذ له نظرة...

ومُرّرنا قرب السور، حتى إذا انتهى الرتل، وعدنا إلى مكاننا السابق تقريباً، قال كأنّه يشرح لزوار، أو كأنّه قائد يحذر جنوده:

ـ هذا اسمه وادي الموت، وأشار بعصاه إلى الوادي، ومن هذا المكان، وأشار إلى الفتحة المطلة: الله أعلم، كم واحد مشى في الهواء كما مشى بهلول فوق الماء، وإذا كان الله نجّى بهلول وواصل طريقه، فمَن مشى من هنا وصل إلى العالم الآخر، وإذا لم تصدقوا اسألوا ضباع الوادي!

وضرب طرف السور بعصاه، وأضاف:

ـ وهكذا صاحبكم، سامي أيوب، إذا وصل إلى يدي لازم يركب هذا الطريق...

وبعد قليل، وهو يهدّد:

ـ أريدكم مثل الساعة: تنفيذ الأوامر والطاعة والنظام وإلاّ...

وأشار بعصاه إلى الوادي، وإلى الفتحة بشكل خاص، وقال بسخرية:

ـ وإذا كان أي منكم يريد أن يمشي على هذا الطريق، فهذا الطريق مفتوح!

بعد هذه التهديدات والجولة أعدنا إلى المهاجع!

وإذا كان النقيب قد غاب عنا بعد هذه «الدروس»، إذ لم نعد نراه إلاّ إذا وقعت أحداث استثنائية في السجن، وصدف أن جاءنا مرتين أو ثلاث مرات أواخر الليل، بحجة التفتيش، وكانت الأحزان، في الحقيقة، هي التي طوّحت به نحونا، بعد أن تعتعه السكر، لكي يندب حظه وغدر الاخوان وقسوة الزمان... إذا كان النقيب مدحت قد غاب، فإنَّ الآمر الفعلي للسجن هو المساعد خليل خيرو!

كان هذا المساعد ثوراً حقيقياً، من حيث القوة والجسد، وكان فناناً في الشتائم والاستفزاز. يحب مهنته إلى درجة العشق، ويفضل أن يمارس أعباءها بنفسه. لقد اختير، في البداية، لصفاته الجسدية والعقلية، ولأنّه أثبت جدارة ارتقى في السلم الوظيفي إلى أن أصبح مساعداً، ثم أُرسل إلى القليعة ليؤدّب المشاغبين وليدرّب «العناصر». ورغم أن معظم العناصر تعتبر نفسها منفية ومعاقبة في هذا السجن النائي، فإنَّ خليل خيرو لا تخامره مثل هذه المشاعر، أكثر من ذلك يحس أنه ملك لا ترد له كلمة!

جنوده المقربون يطلقون عليه وينادونه أبا غائب، والجنود الذين لا يحبونه، لكنهم لا يجرؤون على إظهار ذلك، يطلقون عليه المساعد، أما السجناء فيسمونه فيما بينهم خ.خ، وينادونه المساعد خليل.

ما ينغّص حياة المساعد، وينعكس بالتالي على السجن، أن الولد الذكر الذي ينتظره المساعد وزوجتاه وأصدقاؤه لم يأتِ بعد، رغم أن الجميع، بمَن فيهم السجناء، ينتظرونه منذ وقت طويل! لقد أنجبت الزوجة الأولى خمس بنات، مما دفعه لأن يتزوج أخرى، لأنّه أصبح على قناعة أكيدة «أن السبب منها وليس مني». أمّا حين أنجبت الثانية بنتين فقد بدأ الشك يراوده، ثم تحوّل الشك إلى هم. فلما وصلنا إلى سجن القليعة أبلغنا السجناء القدامى «ان

زوجة خ.خ معشّرة وعلى وشك الولادة، فإذا جاءه غايب راح نضحك بعبنا، وإذا جاءت أخت غايب راح ناكل خرا، فادعوا الله أن يبعث له بخنثى، حتى ينشغل بها وينسانا».

ليس ذلك فقط، فالسجناء القدامى اجزلوا العطاء لمنجم نوري، ومنذ بداية الصيف، وطلبوا منه أن يؤكّد للمساعد «ان الولد على الطريق، ويجوز بدل الواحد اثنين». وهكذا انقضت شهور الصيف ثم شهور الخريف والمساعد في أبهى حالاته، عدا فترات قصيرة، مما جعل الكثيرين ينسون شراسة المعاملة وقسوتها بعد الولادة الأخيرة. وهذا ما جعلنا نخطئ أيضاً خلال الأسابيع الأولى لوصولنا إلى سجن القليعة، في تقدير طبيعة الرجل. كان يمر علينا، ينظر إلينا بعينين قلقتين، ولا يتردّد في أن يبتسم بعض الأحيان. كما أنه استجاب عدة مرات حين طلبنا مزيداً من الحطب لمواجهة البرد القارس!

لم تكد أسابيع تمر حتى جاءته بنت أخرى!

ومثلما تغضب الطبيعة ثم تُجن، وبعد غياب ثلاثة أيام، عاد خليل خيرو مجنوناً. لم تكن هناك حاجة لسؤاله عن جنس المولود، فقد أجابت تصرفاته قبل أن يُسأل!

وإذا كان لا يجرؤ أي إنسان على التحرُّش بالسجناء العاديين، لأنَّهم من عتاة المجرمين، وهم بالإضافة إلى الأحكام الطويلة التي يفاخرون أنهم محكومون بها، فقد أُرسلوا إلى هنا بعد حوادث شغب قاموا بها في السجون التي جاؤوا منها، ولذلك فإنَّهم الآن في حالة من اليأس والتوتر يمكن أن يقوموا معها بأي شيء، مما حمل الإدارة على تجنبهم، وفي حالات أخرى محاولة استرضائهم!

الآن، وقد وصل خليل خيرو، وفي صدره غيظ لا يستطيع أن يتحمله أو أن يخفيه، بدأ يفتش عن ضحايا مناسبة. مرَّ على مهاجع السجناء العاديين، وكان فقط يريد أن يشعرهم بعودته، لكن استقبلوه بالسؤال الذي لا يجرؤ غيرهم على أن يسأله:

ـ بشّر... بشّر يا أبو غايب...

وحين ينظر إليهم بحقد ويصمت، يتابعون:

Twitter: @ketab_n

ـ سميت المحروس غايب أو اسم ثاني؟

ويشتم بصوت خفيض ويتركهم متوجهاً نحونا. حين وصل المهجع الأول صرخ، وخرج صوته كالرعد:

ـ والله لألعن أجداد أجدادكم يا أولاد الكلب. . .

وتغيّرت اللهجة:

ـ قاعدين تسولفون. . ها؟ مكوعين وهات يا سوالف ويا حكي، ها؟ أنا شغلتي أعلف تنابل وخنازير، ها؟ يا الله قم أنت وياه يا أولاد الشرموطة!

للحظات، ربما طويلة، لم نستطع أن نفهم ما حصل، ولم نستطع أن نفسر هذه الثورة المفاجئة، امتثلنا لما طلبه منا، نهضنا، ساد الصمت انتظاراً للخطوة التالية، قال وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ أنا ما عندي: أكل ومرعى وقلة صنعة، لا، راح اخلي الواحد منكم يعوّض عن الدنيا والآخرة!

وفرز مهجعاً لجلب الماء من الوادي، والثاني لجلب الحطب، أمّا الثالث فلإعادة ترميم جزء من السور الشمالي!

لم يكن السجن بحاجة للماء، فالبئر في الباحة الخارجية تكفي، خاصة وأن البركة القريبة امتلأت وتكاد تفيض من أمطار الشتاء، وسوف تحوّل، بعد ترقيدها إلى البئر. أما الحطب، وكان يُسمح للسجناء بكميات قليلة منه، وغالباً لقاء رشوة، فإنّه يملأ المستودع تحت الباحة المسقوفة، وكان جافاً سريع الاشتعال، وأي حطب يجلب من الغابة الآن لن يُستطاع الاستفادة منه إلاّ بعد وقت طويل. حتى البغال التي كانت تنعم بالراحة والدفء فقد تعرضت للاضطهاد أيضاً حين أُخرجت من الاسطبل لتبدأ رحلة الشقاء. أما الجنود الذين يجب أن يرافقوا السجناء إلى قعر الوادي، وصولاً إلى النبع، ثم ارتقاء الجبل من جديد، مرة بعد مرة، وأولئك الذين سينتظرون ساعات طويلة وسيراقبون هؤلاء «الحطابين الجهلة والكسالى» فإنّهم كانوا في حالة من الغليان والانفعال إلى درجة لم يخفوا غيظهم، بل وحقدهم أيضاً.

كنت من الذين فرزوا للتحطيب.

أُخذنا إلى طرف الغابة، والتي تبعد عن السجن مسافة خمسة

كيلومترات. كنا تسعة أشخاص ومعنا أربعة من الجنود المدججين بالسلاح ويمتطون البغال في رحلة الذهاب!

ما كدنا نصل إلى أطراف الغابة، وكنا مقيدين، إذ وضعت «الجامعة» بيد واحدة، وتركت الأخرى طليقة، وقد قدّرنا لهم في البداية هذا الكرم، لكن ونحن ننحدر إلى الوادي ثبت لنا أن هذه الطريقة وحدها يمكن أن تجنّب الجنود والبغال خطر الانزلاق! إذ شدّت الجامعة بسلسلة وربطت السلسلة بالسرج، وهذا ما جعل سقطتنا لا تؤثر عليهم، إذ كنا نتلقى الأرض باليد الطليقة لكي لا نتدحرج.

وصلنا طرف الغابة منهوكي القوى إلى درجة التلاشي، فبعد هذه الفترة الطويلة من الجلوس، ولأنّ أياً منا لم يرتق جبلاً أو يهبط إلى وادٍ منذ سنوات، فقد أصبحنا في حالة من الاعياء الشديد، ومما زاده أيضاً أننا كنا مضطرين إلى مسايرة البغال في سيرها، وكثيراً ما لجأت إلى السير خبباً لتدفىء نفسها، أو لأنّ الجنود كانوا يلكزونها بمهاميزهم حقداً على هذه المهمة، وربما لمداعبتنا أيضاً!

عندما فُكّت أيدينا، ودون اتفاق، تهاوت أجسادنا على الأرض، كما تتدفق المياه المحجوزة، وبقينا هكذا فترة غير قصيرة، ولما تعالت صيحات العريف ادريس، وهو قائد الحملة، فقد سمعناها وكأنّها تصلنا من مكان بعيد، أما عندما اقترب واستعمل عصاه في مخاطبتنا، فقد رأيناه، أول الأمر، كشبح، ثم أخذت تتضح صورته شيئاً فشيئاً، وأتذكّر أنه قال، والواحد منا ينهض بعد الآخر:

ـ لا ما شاء الله... الواحد منكم زلمة وحطاب أباً عن جد!

أما حين أخذت الفاروعة «تهوي» على الشجرة فقد كانت ترتدّ بسرعة، مما جعل العريف ادريس يردّد بسخرية، ولم يكن يخفي مرحه:

ـ يا حبيبي يا عيني، بسم الله وما شاء الله...

وبعد قليل:

ـ مثل ما قالوا: ضرب الحبيب زبيب...

وتغيّرت اللهجة مرة أخرى، اصبحت غاضبة:

ـ شدّ يا ابن الكلب أنت وهو!

وعاد إلى اللهجة الساخرة:

ـ قالوا إنكم عايزين تغيّروا العالم وتقلبوا حكومات، اي بالله يطلع لكم ويطلع منكم، لأنّ مثل هذا العزم يكفي ويوفّي!

لما عدنا قبل المساء كنا بقايا بشر، وكانت الحصيلة مجموعة من الأعواد التي جمعت أكثر من التي تمّ احتطابها. نظر المساعد إلى الاحمال بسخرية وقال:

ـ والله يا أولاد الشرموطة لاكسّرها على جنابكم، بسيطة!

ولم يكن حال المهاجع الأخرى أحسن من حالنا؛ وفي تلك الليلة، ثم في ليالٍ أخرى لاحقة، نمنا بعد العشاء مباشرة، وكنا عاجزين عن تبادل حتى التحيات!

بعد التحطيب، والذي استمر حوالى عشرة أيام، وكانت أياماً طويلة، قاسية، شديدة البرودة، نقلنا المساعد خليل إلى تكسير الحجارة، ثم إلى تنظيف الاسطبل والعناية بالبغال!

السجناء العاديون يرقبون، ينظرون إلينا بإشفاق، ولا يخفون تعاطفهم، بل ويعلنون استعدادهم للوقوف معنا إذا اقتضى الأمر. أكثر من ذلك أخذوا يتحدّون المساعد ويسخرون منه، إذ ما يكاد يمر، أو يسمعون صوته، حتى يبدأوا وبنغم واحد:

ـ ديك رومي مات مات ما خلّف إلاّ بنات!

والمساعد الذي لا يستطيع أن يحتك بهؤلاء السجناء، أن يواجه تحديهم، يتحوّل إلينا:

ـ والله لأشعل أمواتكم يا أولاد الحرام..

يهزّ رأسه ويضيف متوعداً:

ـ كله منكم: حافظين كم كلمة وداشرين في الدنيا. لولاكم ما كان الواحد منهم يعرف كيف ينطق اسمه، لكن ظليتم وراهم، تقروا بروسهم: ديمقراطية وشعب وأغلبية، حتى طمّعتموهم فينا، ها؟

ويتحين الفرص لكي يعاقبنا، لكي يعاقب كل واحد منا. ولأنّه كان بعيداً ونحن نحتطب، فها هو الآن يعوّض عن ذاك الغياب. أصبح لا يفارقنا ونحن نكسّر الحجارة، ونحن نرفع السور، أو أثناء تنظيف الاسطبل! فما أن يرفع الواحد منا المهدّة الثقيلة، في محاولة لكسر كتلة من الصخر، حتى يخرج

المساعد صوتاً، هو بين العفاط والشخير، وتخرج كلماته من أنفه:

ـ نواعم ومنزنزين يا أولاد الكلب، لأن اثقل ما شلتوا القلم، لكن أبد ما تنازلتم عن كلمة ثورة وديمقراطية، فخلنا نشوف فعلكم بالحجارة والدبش!

ويهوي بعصاه على الكتف. تبرق العينان، وكأنّ أسياخاً من النار، اخترقت الجسد كله! وتهوي مرة أخرى، وفي مكان مختلف، غير متوقع، فيشتعل الجسد من جديد وتشيغ الروح، لكن كنا مضطرين لأن نصمت!

كان يفعل ذلك وحوله عدد من العناصر «للتدريب»، ولحمايته من رد فعل السجناء، خاصة بعد أن دفع ثمناً، وثمناً غالياً، عندما اتبع هذه الطريقة مع السجناء العاديين، الأمر الذي جعله يقلع عنها معهم ويقصرها على السجناء السياسيين!

وبمقدار الأذى الذي يلحقه بنا يتحداه السجناء العاديون، يستفزونه، خاصة وأنهم يعرفون الكثير من أسراره وقصصه.

ما يكاد يقترب حتى تبدأ القصص:

ـ سمعت آخر نكتة يا أبو فلان؟

ـ لا.. هات، احكِ

ـ قال، كان في واحد لا يخلّف إلاّ بنات، وكان فقيراً مهتوكاً، فلما جاءته البنت الثامنة تطلع إلى السماء وقال: شكراً يا رب، لأنّك لا تنسى أحداً من عبيدك، لقد أنعمت وأفضت وفتحتها على عبدك الذي صبر فظفر!

ـ فتحها عليه؟ ما شبعت عينه؟ كيف؟

ـ لأنّه فتح تياترو، وصار يدق على الدف والبنات يخلعن!

وتدوي ضحكات السجناء، وبعد أن يهدأوا قليلاً يرتفع النغم من جديد:

ـ ديك هندي، ديك رومي، ديك شامي.. مات مات ما خلّف إلاّ بنات!

وما تبقى من عقل، من قدرة على الاحتمال لدى المساعد خليل يفقده وهو يسمع الضحكات ثم النغم الذي يليها. وحتى لو كان بعيداً، حين يسمع ضحكات من هذا النوع، فلا بد أن يقول لنفسه:

«الجماعة نازلين فينا وما لهم إلا سيرتنا» وبدل أن يتوجه إلى مهاجع السجناء العاديين يتجه نحونا:

ـ هذي لساناتكم لازم تنقطع لأنَّ من وراها جاءت كل الشرور والمصايب...

وينتظر اللحظة المناسبة، حين يكون الواحد منا رافعاً الحجر ليناوله لِمَن يبني السور، إذ يشعر أنه انتقم لكرامته المهدورة، ويعلق:

ـ شفت العرق يزخ منك فحنيّت عليك، وقلت لازم يبورد الأفندي!

ويحرضنا السجناء العاديون، يتجرأون أكثر من قبل على المساعد خليل، لكن المساعد لا يراهم، يسمعهم ولا يجيبهم، فقط ينظر إلينا بعينين مليئتين بالشر والعدوان. وترتفع في عقولنا وقلوبنا فكرة الإضراب عن الطعام، فقد بلغ التحدّي درجة أننا بتنا نفضل الموت على الحياة، إذ بدأت قوانا بالانهيار، وأصيب عدد منا بأمراض غامضة هي مزيج من الآلام العضوية والشعور بالقهر. كان يفترض أن يكون رضوان مبادراً مثل مرات سابقة، لكنه أُصيب بحالة من الحمى جعلته لا يواصل الدعوة بنفس الحماس.

قال حامد زيدان، في محاولة لأن يجعلنا أكثر تعقلاً:

ـ يا جماعة الخير.. نحن الآن في آخر تلفات الدنيا، ونحن آخر السجناء الذين وصلوا إلى هذا المكان، وتعرفون أن التموين والبريد يصل مرة في الشهر، فإذا كان الاضراب للاحتجاج، لإسماع صوتنا، لمنع التعديات، فإنَّ مَن سيسمع هذا الصوت سيسمعه بعد موتنا بشهور!

وحين تواجهه النظرات الرافضة وكلمات الاحتجاج، يرد بحزن:

ـ الإضراب عن الطعام في بلد متحضر يعطي نتائجه فوراً، لأنَّ الإنسان يعني لهم شيئاً، أمّا في هذا البلد، وفي هذا المكان بالذات، فإنَّ الإنسان لا يعني أي شيء، فاحذروا!

وتُعدّد الاعتداءات والتجاوزات، خاصة من المساعد خليل، وضرورة وجود طريقة لمواجهتها والتصدي لها.

يرد حامد زيدان، وقد تخلل الغضب صوته:

ـ لا أطلب من أحد أن يوافق أو يغفر، وخيانة أن ننسى. وما أقوله لنفسي أقوله لكم الآن: علينا أن نقاوم، لكن من الجنون أن نموت مجاناً!

قال رضا الدوحي:

ـ يا عم حامد أنت أكبرنا ونعتبرك ضميرنا وحريصاً علينا، لكننا لم نعد نحتمل، ولا بد من عمل شيء ما للوقوف في وجوه الجلاوزة...

قاطعه رامز فرحان:

ـ طز على هالحياة وطز علينا كلنا إذا أصبحنا إلى هذه الدرجة جبناء!

ردَّ عليه رضا بغضب:

ـ خلينا نكمل وبلاش مزاودة!

تدخل حامد زيدان قبل أن يتطور الموقف:

ـ يا جماعة الخير أنا لست ضد الإضراب، ولا تفهموني غلط، لكن قبل ما نضرب خلونا نتفق مع السجناء العاديين، خلونا نطلب مقابلة النقيب، خلونا نصطدم مع المساعد، يمكن الدملة تنفقي قبل ما نصل إلى الإضراب.

قال السجناء العاديون، وهم ينظرون إلينا بدهشة أقرب إلى الإنكار:

ـ جوع كلاب اتركونا منه، هذا مثل الضراط على البلاط، فالشرطة يسرقون خبزتنا عينك عينك، لا حس ولا خجل، ويتمنون أن نضرب...

وقال محيي الدين الأحدب أعتق سجناء القليعة:

ـ هذا شغل أفندية، شغل طلاب مدارس، ما هو شغل رجال عايزين يدافعوا عن حقوقهم...

وضحك ثم أضاف:

ـ قبل عشر سنين أو أكثر، جماعة مثلكم، سياسيين، أضربوا عن الأكل، تعرفوا شو صار معهم؟

وحين تطلعت إليه العيون متسائلة، ضحك، هزَّ رأسه كأنَّه يتذكر، ثم قال:

ـ انتظروا يوم، أسبوع، ولا واحد قال لهم مرحباً. تحملوا، استمروا، وبعدين، وقبل ما يطبّقوا الشهر حلّسوا، صاروا مثل الكلاب يترجوا الصغير والكبير وما أحد يسمع لهم، علماً بأنّه طلع على لسانّا شعر ونحن نحكي معهم وننصحهم...

وبعد قليل، ولكي يحسم الموضوع:

ـ اتركونا من هذا الموّال يا جماعة الخير، لأنّ ما منه نتيجة، ويكسر العين!

قال صادق الداوودي، وهو الذي حصر المساعد ذات يوم في المهجع وكاد يقتله، لولا أن تدخّل السجناء الآخرون لإنقاذه، قال بسخرية أقرب إلى الاحتقار:

ـ أغرب شيء فيكم، أنتم الأفندية، السياسيين، أن كلامكم حلو، يملّي الراس، أما أفعالكم، ولا تآخذونا إذا حكينا بصراحة، فإنّها ما بتسوى، بتحكوا شيء وبتسووا شيء..

ردّ عليه محيي الدين الأحدب وهو يضحك:

ـ تذكر المثل المصري، يا أبو عبدالله؟ المثل يقول: اسمع كلامك يعجبني أشوف أفعالك أتعجب، والأفندية حالهم مثل هذا المثل!

قال رضا الدوحي، بطريقة فلسفية:

ـ نحن، حتى الآن، نتكلم بلشفيك ونطبّق منشفيك!

وضرب الحائط بغيظ ثم غطّى وجهه بيديه!

بعد أن فشل الاقتراح الأول لحامد زيدان، بدأت المحاولات للاتصال بالنقيب.

أبلغ المهجع الأول المجند حسن، وأبلغ المجند العريف ادريس، وأبلغ العريف المساعد خليل، وتوقفت الرسالة عند هذا الحد، لا، لم تتوقف، جاء المساعد مثل الديك:

ـ نحن ما نملي العين؟ ها؟

يستريح قليلاً، ينظر إلى الوجوه بإمعان ليكتشف مَن وراء المؤامرة. يتابع بطريقة لا تقبل الخطأ:

ـ لعلمكم، يا أولاد الشرموطة، ما في شيء يتم في القليعة دون ما يمر على أبو غايب...

وبعد قليل، وبانفعال أشد:

ـ أبو غايب في القليعة الكل في الكل، وأي واحد يريد يلعب من وراء ظهري ما يلوم إلاّ نفسه، سامعين؟

يردّ حامد زيدان بحكمة الشيوخ وسخريتهم:

ـ انت، يا مساعد خليل، الكل في الكل، لكن رأيين أحسن من رأي واحد، فلازم نشوف النقيب ونتشاور معه.

ـ النقيب مشغول وما هو فاضي للقيل والقال وسفائف الأعمال!

وحين يلمح السخرية على وجوهنا، لأنّه يحاول تقليد النقيب في اختيار الألفاظ وطريقة الكلام، يتابع بحدة:

ـ إذا عندكم شيء احكوا.

ـ نريد نتطمن على صحة النقيب، يا أبو غايب!

هكذا قال رضا الدوحي بسخرية. للحظة ارتبك المساعد، سأل بقلق:

ـ اي شرطي ابن شرموطة قال لكم إن النقيب مريض؟

وحين صمتنا ولم يجب أحد، أضاف بصوت خفيض كأنّه يكلم نفسه:

ـ أعرفهم، ما في منهم واحد شريف؛ الواحد يرتشي بسيجارة، بكلمة...

وتغيّرت اللهجة:

ـ وانتم، يا أولاد الكلب، تأخذوا سرارهم من زغارهم ها؟ تزحلقوهم وتسألوهم، ها؟ لكن بسيطة!

وبعد قليل:

ـ الحق ما هو عليكم، الحق على الخروات اللي عندي!

واسترحنا من المساعد لبضعة أيام، لكن، بالمقابل، أصبح كل عنصر بديلاً عن المساعد. فالكمية القليلة من الحطب المخصصة لكل مهجع حُرمنا منها؛ والأكل السيّئ الذي كان يقدّم لنا ازداد سوءاً، إذ كانت تضاف إليه في اللحظة الأخيرة كميات كبيرة من الملح تجعل تناوله في منتهى الصعوبة؛ هذا عدا عن الشتائم والمعاملة القاسية الفظة. كانوا ينظرون إلى الوجوه ويسألون، دون كلمات، عمّن وشى بهم، وكانوا يرقبون كل حركة ويشكّون بكل إنسان.

لما بلغت الأمور حداً لم نعد نطيقه صرخ حامد زيدان بأحد العناصر بعد أن رأى معاناة رضوان:

ـ نادِ لنا النقيب، يا ابني، لأنّ عندنا مريض راح يموت!

ومن الشرطي إلى العريف، ومن العريف إلى المساعد، وجاء المساعد خليل:

ـ سمعنا أن عندكم واحد راح يفطس، فمَن هو الذي جاء أجله؟

وبعد قليل وبحقد ساخر:

ـ أما إذا كنتم عايزين تجرجروا فينا كل ما دق الكوز بالجرة، وتعال يا مساعد، وتعال يا نقيب إذا واحد منكم عطس أو وجعه راسه، فوالله لأسلخ جلودكم.

وتقدّم إلى وسط المهجع:

ـ مَن اللي راح نقرا على روحه الفاتحة؟

أشرنا إلى رضوان. كانت الحمى قد أنهكت جسده، وبدا مصفراً متعباً. سأله المساعد:

ـ قبل كم يوم كنت مثل الصلّ، وكان لسانك شبر، فما عدا مما بدا؟

والتفت إلى حامد وسأل:

ـ هذا ما هو ابن فرج؟

هزّ حامد زيدان رأسه بالإيجاب، فقال المساعد بضيق:

ـ ما جاء على بال الأفندي يمرض إلاّ في هذا الوقت، كيف راح نجيب الطبيب والدوا في هذا البرد اللي يقصّ المسمار؟ وليش صابكم الخرس وما أحد منكم حكى لما كان الطبيب أول امس هنا؟

وبعد قليل بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لو ما كان ابن الفرج..

جيء بالطبيب في اليوم التالي، وتبينّ أن الجميع مصابون بسوء التغذية وبأنواع من الروماتيزم، نتيجة البرودة والرطوبة معاً، وحين طلب من الطبيب أن يفحص بعض المرضى في المهجع الثالث، قال بنزق لم يستطع أن يخفيه:

ـ نفس العلة ونفس السبب، والدوا هو نفسه!

وأضاف كأنّه يخاطب نفسه:

ـ إذا لم يتم التخلّص من السجن والحرب لا يمكن أن يصبح الإنسان جديراً بهذه الحياة...

التفت ليرى إن كان المساعد يسمعه، لما رآه بعيداً ومشغولاً بقداحة أحد

السجناء يجربها وينظر إليها باهتمام، أضاف هذه المرة ويريد أن يسمعنا:
ـ يضربون الواحد حتى يكسّروه وتعال يا طبيب داوي الكسور والجروح، وكأن الأمراض التي تفتك بالبشر لا تكفي!
في الليل جاءنا مدحت عثمان!
كان مزهواً منتعشاً بعد الكؤوس التي تناولها. نظر إلى وجوهنا ليقدّر مدى ما نعانيه، قال، وكان لا يقوى على إخفاء سخريته:
ـ قال لي الطبيب إن بعضكم مرضى، قلت له: يستاهلون، لأنَّ الله خلق لكل إنسان عقلاً يفكر، وهؤلاء الناس يحلمون ولا يفكرون. فهل في كلامي أي شيء غلط؟
لم يرد عليه أحد، تابع بعد أن جلس على أقرب فراش إليه:
ـ ويقول الطبيب: الشروط غير صحية، التغذية سيئة، النظافة معدومة...
ضحك وهو يهزّ رأسه، ثم تابع وقد تغيّر صوته:
ـ هذا سجن يا حكيم، هذا مكان للتأديب يا افندي، هذا ما هو مصيف ولا فندق خمس نجوم..
وضحك أكثر من قبل، وبنفس السخرية:
ـ وقال سيادته إن السجناء يشكون من الاكتئاب والقلق والحنين، تشرفنا! الظاهر أن هؤلاء الأطباء، مثلكم، مجانين، وما هم عارفين الدنيا ولا عارفين روسهم من أرجلهم، وإلاّ ما حكوا هذا الحكي!
غيّر جلسته قليلاً، مدّ رجليه وأضاف:
ـ أنتم الأفندية، رأس مالكم الكلام. ويا ليته كلام نافع ويسلي، لا، كله خيال ويكرب النفس، ولو أن الله خالقكم غرباناً أو بغالاً لأحسن إليكم وأفاد غيركم، لكن لله في خلقه شؤون!
وتغيّرت اللهجة:
ـ والمشكلة أنه خلقكم حتى تكونوا هماً ومصيبة لغيركم...
وبعد قليل:
ـ أنا كنت في عمورية في أحسن حال وأهدأ بال، من الثامنة حتى الثانية، وبعدها لا همّ ولا غمّ. ولولا كم واحد سرسري من أمثالكم كان

بعدني هناك، لكن الديمقراطية التي تنادون بها، والاشتراكية التي تحلمون بها، والثورة والجماهير، خوّفت الحكومة، والحكومة مثلكم أفندية، عقولهم صغيرة، كلمة تأخذهم والثانية تردهم، وهات يا اعتقالات، وشغّلوا الناس، هذا هنا وهذا هناك، ولأنكم أتعس خلق الله بعثوا بكم إلى القليعة، وبعثوا بمدحت عثمان حتى يسرح بكمّ مجنون. . .

وبعد أن استراح قليلاً أضاف بلهجة جديدة:

ـ بشرفكم، إذا كان عندكم شرف وناموس، ما هو حرام أن تتعبوا حالكم وتتعبوا غيركم؟

وحين لم يرد عليه أحد تابع:

ـ ولأنيّ زهقت منكم ومن أمثالكم، ولا أريد أن أُوسّخ يدي بتأديبكم، تركتكم للمساعد خليل، فإذا سمعت أية كلمة، أي انتقاد، لا يلوم الواحد إلاّ نفسه!

بعد هذه المحاضرة، وبعد أن غادرنا النقيب، تطلعنا إلى حامد زيدان وتطلعنا في وجوه بعض، وامتلأنا غماً وتحسباً للأيام التالية!

لم تمض أيام قليلة حتى بدأ التعذيب من جديد: تنظيف السجن، بما فيه المراحيض يومياً، رياضة إجبارية من السجن إلى قعر الوادي مرتين في اليوم ونحن نحمل الأوساخ في الذهاب والماء في العودة، علماً بأنَّ لا حاجة للماء الذي نحمله، إذ كان يتفنن المساعد في سفحه. هذا إضافة إلى العقوبات الجسدية لأقل نظرة أو تأخر. أمّا الطعام فإنّه يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

ومن جديد بدأت المشاورات مع السجناء العاديين: «لم نعد نطيق أو نتحمل، فماذا تشورون علينا»؟

ـ يا جماعة الخير هذول جماعة بجم، كل ما رخيتم شدّوا، وكل ما تساهلتم ركبوا، ولذلك لازم تتحدوهم وتقفوا في وجوههم.

وحين نسألهم عن الطريقة، يرد صادق الداوودي:

ـ اقرفوا رقبة أبو البنات!

قال محيي الدين الأحدب وهو لا يخفي ابتسامته:

ـ يا أبو عبدالله، خلينا الآن من قرف الرقاب، لأنَّ هذا الحمل أكبر من

الجماعة، وإذ ما عاوناهم ما راح يطلع بأيديهم، فمن رأيي خليهم يجربوا زحلقة المساعد.

- اترك هذا الحكي يا أبو راشد، لأنَّ الخرا ابن الخرا ما راح يماسك معنا، ولا يفيد معه إلاَّ أن تنكسر عينه...

كان يريد أن يتابع لكن ضحكة محيي الدين الأحدب جعلته يتوقف.

قال محيي الدين:

- يا رجل، المساعد عقله صغير، وينضحك عليه بكلمتين، ومثل ما سوينا فيه مع البنت الثامنة خلي الشباب يزكزكوه بالتاسعة، وما راح يخسروا شيء!

قال صادق الداوودي، وهو يتراجع خطوة ثم أخرى:

- يا سيدي أنا مالي علاقة، لأنَّ الحمار يكون أذكى منه إذا تزحلق!

قال محيي الدين الأحدب لحامد زيدان، بعد أن طلب منه الاقتراب:

- سوِ حالك لا علم ولا خبر، وحتى إذا جاء يترجى اعتذر أول مرة، ثاني مرة، لكنّا راح نقنعه، وعن طريق جماعته، أنك أشطر مَن يقرأ الكف ويكشف الغيب...

وضحك ضحكة خفيفة، وأضاف:

- وباعتبار أنه ينتظر المحروس، وهذا الشي اللي حارق قلبه، فشوف كيف تلعب معه، وكيف تدوخه!

قال لنا حامد زيدان، وهزَّ رأسه، وبدا غير متأكد:

- يا جماعة...

توقف، وكأنّه لا يريد أن يتابع، إلى أن قال، وبدا صوته بعيداً:

- مثل ما قالوا في قصص الجدات: طلب أحد الملوك، مَن يعلّم حماره الكلام، فإذا علّمه له جائزة كبرى، أما مَن يحاول ويفشل فيقطع رأسه. فتقدم له رجل مفلس مبدياً استعداده، وحين لامته زوجته وأصدقاؤه ردَّ عليهم أنه سيطلب فترة طويلة من أجل القيام بهذه المهمة، وخلال هذه الفترة لا بدَّ أن يموت واحد من ثلاثة: أنا أو الملك أو الحمار، وإلى أن يأتي ذلك الوقت يفرجها رب كريم...

ضحك مثل مَن وصل، وأضاف:

ـ واللي قاله الأحدب ما هو غلط . . . يا جماعة!
وبعد قليل وبلهجة ساخرة:
ـ سألبس جبة وأحمل مسبحة، بس رايد منكم العون، وما اتصور أن أحداً منكم يتخلى عن أبو مكرم. . .
تطلّع إلى الوجوه وهو يبتسم، وكأنّه يريد الموافقة، ثم بعدها التأييد، وكان خلال ذلك يفكّر أيضاً. لما وجدنا أقرب إلى السلبية، وانّنا نعتقد بعدم جدوى هذه الخطة، خاصة، بعد أن نجّم له النوري في السنة الماضية، قال، وخرج صوته أقرب إلى اليأس:
ـ ما راح نخسر لو جربنا هذه الطريقة، وأكثر من القرد الله ما مسخ!
ولعب محيي الدين الأحدب اللعبة جيداً مع واحد من المقربين من المساعد. هكذا عرفنا فيما بعد، إذ لم تمض أيام حتى جاء المساعد خليل:
ـ سمعت الشباب ينادونك أبو مكرم. . . أو أنا غلطان؟
ـ لا . . فمكرم عمره الآن عشرين، عشرين وكم شهر!
ـ الله يخليه. . .
وتطلع بارتياب إلى حامد وسأله:
ـ وانشاء الله ماله علاقة بالسياسة؟
ـ علمي علمك يا أبو غايب، فالولد كبر وأنا عندكم، بين سجن وثاني. . .
وابتسم بحزن، ثم أضاف:
ـ وجيل هذي الأيام غير شكل عن جيلنا، يجوز الآن يسبني ويحكي عليّ لأنّي اشتغلت بالسياسة، فلازم نترك لكل جيل حريته لأنّه أقدر على معرفة مصلحته!
ـ أنت تورطت، الله عماك، أو يجوز أولاد الحرام دهوا براسك، يا أبو مكرم؟
ـ كل شيء جائز يا أبو غايب. . .
وبعد قليل وبحزن:
ـ ومثل ما يقولون: اللهم حسن الختام، واللهم اغفر لنا وسامحنا!
قال المساعد وهو يغادر:

ـ الله يسامحنا كلنا!

وبدأ شهر العسل بيننا وبين سجن القليعة!

طبيعي لم يبدأ بسرعة أو دفعة واحدة، فلو حصل كذلك لا بدّ أن يلفت النظر، وقد يؤدّي إلى عكس المطلوب. ولهذا لجأ المساعد إلى الغياب فترات تطول يوماً بعد آخر، وأخذ يستدعي حامد زيدان إلى غرفته، كما أن أعمال السخرة والتعذيب بدأت تقل إلى أن توقفت!

بعد عدة أسابيع، وعلى اثر زيارة قام بها أبو مكرم لغرفة المساعد، جاءنا وهو لا يقوى على إخفاء فرحه:

ـ علقت السنارة، يا شباب!

فرك يديه وقال:

ـ بعد ما نشّفت ريقه وأنا أرفض قراءة كفه، وافقت اليوم، وقلت له كم خبرية طيّرت عقله، لكنا لم نبشره بعد بالمحروس!

وروى لنا أبو مكرم كيف بدا المساعد كطفل وهو يرجوه ويتوسل إليه لكي يقرأ له المستقبل، وهذا ما يهمه أكثر من الماضي، «لأنَّ الماضي مضى وانقضى» كما قال المساعد، «والذي أتشوق إليه الآن هو ما تحمله إلينا الأيام» فطلب منه أبو مكرم مهلة لكي يستخير، وأن الاستخارة لا بد أن تكون على طهارة، وهذا يقتضي أن يستحم مرة في الأسبوع، وأن يقص شعره مرة في الشهر، واشترط أيضاً أن يؤتى له ببعض المعاجين والأدوية سماها له. فلم يتردّد المساعد في الموافقة على كل ما طلبه!

وفي يوم لاحق قال له إنه لا يكفي أن يكون وحده طاهراً، بل يجب أن يكون المكان الذي فيه والبشر الذين حوله كذلك، وهكذا جاء حلاق القرية وقضى بضعة أيام في السجن، ولم يترك أحداً إلاّ وحلق له، كما أصبحنا نقضي وقتاً أطول في الحمام التركي في جانب من الحصن، دون أن نخشى شيئاً أو احداً.

السجناء العاديون ينظرون إلينا غير مصدّقين، لكنهم يتظاهرون أنهم لم يروا، أكثر من ذلك قلّلوا تحرشاتهم بالمساعد.

قال محيي الدين الأحدب لحامد بمرح:

ـ دخيلك، اكتب لنا الوصفة، لأنَّ وصفتنا السنة الماضية كانت أضعف من هذي بكثير..

وبعد قليل، وقد زايل وجهه المرح:

ـ خاصة أنكم اليوم معنا، وبكرة، من غير شر، راح تتركونا وتمشوا، مثل كل السياسيين اللي جاؤوا من قبل!

أمّا صادق الداوودي الذي لم يخف عجبه واستغرابه، فقد علق:

ـ هذا ما هو فعل كف وفنجان، هذا سحر معلمين...

وتغيّرت اللهجة:

ـ شو يا أبو مكرم، كيف دبّرت الزلمة، سفّ شيء؟ شمّ شيء؟

ـ علمي علمك يا أبو عبدالله، وكل ما عملناه: كلمتين فتح فيهم الله علينا!

ـ اطلع من هالباب، أنا شايف المساعد يلولح وباصبعك مثل الخاتم، فلا بد أنك سحرته حتى داخ!

قال محيي الدين الأحدب:

ـ المهم، بالنسبة لنا، يا أبو عبدالله، أن نأخذ الوصفة، لأنّه يجوز نحتاجها، والشباب، الله ييسر لهم، اليوم معنا، بكره لا تعرف وين أراضيهم.

قال حامد زيدان بمرح:

ـ بشرفي، يا جماعة الخير، لا سحر ولا سفوف ولا دفوف، كلها كم نظرة وكم كلمة، وطبيعي معهم صفنة وهزّة راس، هذا كل ما سوّيناه!

قال محيي الدين الداوودي:

ـ مثل ما قلت لك، يا أبو عبدالله، هذول الشباب كل واحد منهم بالع لسان طير، وحكيم يطلّع الحية من جحرها، وإذا ظلّت الأمور عند حدود الحكي لازم الواحد منا يضرب لهم تمني، لكن الشهور التسعة ورا الباب، يروح يوم ويجي يوم وتخلص، فإذا كانت النتيجة بنت اكلوا خرا، أما إذا الله راد يرأف بهم ويبعث صبي فبيتهم بالقلعة.

ضحك بعربدة صادق الداوودي ورد:

ـ ليش احنا وين ساكنين، يا مظلوم!

ـ اتركنا من هالحكي، يا شيخ، المهم، بالنسبة لي، الوصفة، لأنها تلزم..

وتغيّرت اللهجة، أصبحت أكثر جدية:

ـ يا أبو مكرم حتى لو ما كان في دفوف وسفوف، فالكلام اللي حكيته اكتبه لي، لأننا بوجه ال خ.خ لآخر أيام العمر، ويمكن نسحره مثل ما سحرتموه.

قال الداوودي بنوع من الدعابة:

ـ لازم تاخذ بالك: الكلام ابن وقته، إذا بات أو تكرّر فَقَدَ قيمته، مثل ورقة اليانصيب، قبل السحب لا تبيعها بأقل من جائزتها، أما بعد السحب فما تسوى قيمة الورق!

ـ يا أبو عبدالله: الكلام اللي تفضلت به على العين والراس، صحيح، لكن الواحد يتعلم من تجارب غيره، وهذه هي سنّة الحياة، ولن نخسر إذا الشباب كتبوا لنا الوصفة، وإذا جاء أوانها نرش عليها فلفل وبهارات حتى تناسب شيخ الشباب خ.خ!

ـ اكتبوا له يا شباب، لكن لعلمك، هذه الورقة مثل مَن يستعير طقم أسنان غيره!

وهكذا كنا نقضي الوقت، أثناء فترة التنفس، وكنا آمنين أن عيني المساعد لن ترانا!

في إحدى الليالي جاءنا النقيب:

ـ شايف انكم والمساعد سمن وعسل، فإمّا أنّكم تأدبتم بعد مشاوير العين، أو خربتم الزلمة!

ردّ حامد زيدان:

ـ تعرف، يا سيادة النقيب، نحن جماعة مسجونين، ضيوف عليكم، ولازم الضيف يكون مؤدب، وأنتم المعزبين، والعادة أن الضيف قبل المعزب، لكن ما حصل في البداية أنكم تجاوزتم هذه العادة أو لم تعترفوا بها!

هزّ النقيب رأسه، وكان لا يخفي استغرابه وسخريته، وسأل:

ـ وكمان.. ما عايزين نزوجكم؟

ـ أنتم كرماء ونحن مستاهلين، يا سيادة النقيب!

ـ طلبات أخرى؟

ـ ما نتمناه أن تعود ونعود إلى عمورية، وأن تقفل السجون إلى الأبد.

غيّر النقيب جلسته، وقال بمزيج من السخرية والرغبة:

ـ كيف يمكن للسجون أن تقفل وأمثالكم أكثر من الهم على القلب؟

ـ نحن، يا سيادة النقيب، لا نملك إلاّ كم فكرة وكم كلمة، وليس لدينا أسلحة، ولا نهدّد حتى عصفور، وأعتقد أنه يجب ألا نخاف من الكلمة، لأنّ لا أحد يستطيع أن يسجنها أو يمنعها، وأنتم الآن لا تسجنون الكلمة تسجنون مَن يسمعها، مَن يقولها، وهذا ما يولد الثورة، ويغيّر كل شيء!

ـ والله محاضرة رائعة...

وبعد قليل ويخبث:

ـ إذن عن هذا الطريق زحلقتم المساعد؟

ـ والله، يا سيادة النقيب، هذه أول مرة نحكي مثل هذا الكلام!

قام مدحت عثمان وهو يهز رأسه، نظر إلينا بإمعان، وقال:

ـ هذا الكلام خطير، أقوى من الدبابات والمدافع، لأنّه يخرب بيوت ويهدم دول!

وقال واحد من الذين كانوا قرب الباب أنه سمعه يردّد:

ـ «ان في البيان لسحرا» وهذا الحمار أبو غايب انعبط بكمّ كلمة وداخ!

كاد شهر العسل ينقطع، فالعريف ادريس، وتنفيذاً لتعليمات النقيب، حلّ مكان المساعد، وتعبيراً عن استعادة السيطرة على السجن، وفرض الهيمنة من جديد، كلفنا بتكسير الحطب وعمليات التنظيف. تقبلنا الأمر بصعوبة، لكننا قمنا به، مع أن أصواتاً عديدة ارتفعت تطالب بالرفض والامتناع حتى لو وصل الحال إلى إعلان الإضراب.

في اليوم التالي حملنا الأوساخ وهبطنا إلى قعر الوادي، وعدنا بالمياه.

في اليوم الثالث، قبل الغروب، أثناء فترة التنفس، لمحنا في الطرف الثاني من الساحة، المساعد خليل يتمشى، وبقدر ما يمكن أن نميز، بدا لنا متجهماً، وكان وحيداً.

في اليوم الذي يليه قال السجناء العاديون، بنوع من التعويض:

ـ راحت السكرة وجاءت الفكرة، والظاهر أن بنزين كلام السياسيين خلص!

العريف ادريس، رغم صوته القوي وضرباته القاسية، إلاّ أن دافع الواجب ما يملي عليه أكثر من القناعة أو الرغبة. حاول بمزيد من القسوة أن يضبط الأمور، لكن الأمور لها مقياس المساعد خليل وأساليبه، وأيضاً طريقته في التعامل مع العناصر. النقيب مدحت موجود بمقدار وجود المساعد، فإذا غاب أو اختلت العلاقة فلا بد من التعامل مع الأمور بشكل مختلف.

قبل أن ينتهي الأسبوع قال المساعد خليل لحامد زيدان، بعد أن استدعاه لغرفته:

ـ تحملوا كم يوم بعد... يا أبو مكرم..

وحين تطلّع إليه أبو مكرم، قال له وهو يبتسم:

ـ هذا سجني، وأنا كل شيء فيه. النقيب طول النهار والليل سكران، وما عنده إلاّ نظم الأشعار والصراخ في التلفون: آلو ترانك، اعطني عمورية؛ فلا تخافوا!

وحين مدّ حامد زيدان يديه، لكي يريه ما عليها من أوساخ، نتيجة التنظيف، ردّ بمرح:

ـ حمام ومعه ليفة وصابون وأبوك الله يرحمه!

ويفتل أبو مكرم اليدين متسائلاً إلى متى، يجيب المساعد بحدة:

ـ كلها كم يوم، وراح يبوسوا بسطاري حتى ارجع!

في نهاية الأسبوع الثاني استعاد المساعد خليل مواقعه السابقة!

صحيح أن الفترة التي استلم خلالها العريف المسؤولية كانت قصيرة ومرتبكة، لكنها كانت قاسية أيضاً، وكانت شديدة الوطأة، لأننا لا نعرف هل نقاوم أم نستسلم. كان أبو مكرم يقول، ليمتص غضبنا:

ـ يا جماعة... تحمّلنا الكثير، وشفنا الكثير، والمساعد يقول: كلها كم يوم وتنتهي، فخلّنا نصغّر عقولنا ونصدقه، وما راح نخسر شيء!

ونوافق، أو بالأحرى ليس لنا إلاّ أن نوافق!

النقيب الذي تفقدنا أكثر من مرة خلال هذه الفترة، وقد أثنى على العريف ادريس بصوت عالٍ، وكأنّه يشعرنا أنه يمنح الرضا لهذا الشخص ويسحبه من المساعد خليل، تباعدت، كالعادة، زياراته، إلى أن انتهت!

قال حامد زيدان بنوع من المرح:

ـ لازم نكافئ، يا شباب، المساعد، والولد الذي ينتظره لازم يحصل عليه!

قال رضوان بمرح وفجور:

ـ لو «ساعدناه» يحصل على مبتغاه، أما إذا كنا بعيدين فلازم رب العالمين يتدخل ويساعده!

ردّ رضا:

ـ نحن نقامر بالزمن وأخطر شيء في هذه الحياة أن يقامر الإنسان بالزمن!

قال حامد زيدان، ولم يفارقه مرحه:

ـ اتركونا من الجد، يا جماعة؛ المهم أن نستفيد من التناقضات بينهم، وأن نوسعها، أمّا ما يحصل بعد ذلك فإنّه خارج عن أي قانون علمي!

سألت أبا مكرم:

ـ ماذا تقترح أيُّها المعلم.

ـ أن نغامر بمنحه الولد الذي يريده، لكن بشرط...

تطلعت إليه العيون لمعرفة ما يخبئ من مفاجآت. قال، وهو يتطلع إلى البعيد:

ـ من المناسب أن نمنحه الولد على دفعات...

وضحك بمرح أكثر، وبعد أن هدأ أضاف:

ـ الحياة، كما أتصورها، لعبة، وبعض الأحيان، لعبة سمجة، وما دمنا مضطرين لأن نشترك في هذه اللعبة، فلا مانع أن نحاول الإخلال بقواعدها، أن نتدخل في تغيير المسارات وزحزحة الأفلاك، وأن نستولد المرأة ما نريد، أو ما نعتبره أفضل!

وفي هذه الأمسية، وبعد مناقشات كانت على الحدود الفاصلة بين الجد والمزاح، «قررنا» وبالأغلبية أن نمنح المساعد خليل خيرو ولداً ذكراً، شرط أن يكف عن تسميته غائب، وأن يسميه يحيى!

وهكذا، في أحد الأيام المتأخرة من شهر نيسان، وتنفيذاً للقرار الذي اتخذ «مُنح» المساعد خليل خيرو الغلام الذي تمنّاه وطالما انتظره. فقد قام السجين القديم، الكهل، حامد زيدان، وفي جو احتفالي اقتصر على الاثنين فقط، وفي لحظة تخيرها السجين المذكور، وهيأ لها جيداً، أمسك باليد اليسرى للمساعد، فرد كفه، تطلع إليه طويلاً، تطلع إلى عينيه، هزَّ رأسه عدة مرات، كما يفعل أي منجم مغربي عريق، وقال، وخرج صوته رخيماً:

ـ ما تنتظره سيأتي بمشيئة الخالق العظيم. الله الواحد الأحد، لكن، وهذه استخارة الأولياء، وليست مشيئة الخالق، قالوا: انتظر يحيى ليحيا، فاسمع مني، يا أبا غائب، أن تكسب الغائب ليحيا بدل أن تنتظر الغائب الذي لا يحيا!

وهذا ما حصل!

بدأ الجو بالتحسن وبدأ الجميع بالانتظار.

ارتخت قبضة المساعد خليل، ولكن لا يستطيع أن يغض النظر بصورة كاملة، أكثر من ذلك كان يلجأ بعض الأحيان، إلى القسوة، ليشعر الجميع بوجوده وقوته. العريف والجنود موجودون وغير موجودين في آن واحد. أما النقيب الذي غرق في السكر والأحزان، فلا أحد يعرف، حتى المساعد، متى استعاد نشاطه ووعيه لينظم هذا الكم الهائل من الأشعار! وليس هناك تفسير مقنع أو كافٍ ليختارني وحدي مقيّماً لشعره ودوزنته وإعطاء الرأي فيه، تمهيداً لقرار صعب يريد أن يتخذه «بإشاعة هذا الشعر بين الناس، وعدم إبقائه حبيساً في الصدر أو على الورق، حتى لو اضطررت لانتحال اسم مستعار واعتماده كاسم فنّي!».

هذا مما قاله وهو يمهد للوصول إلى هذه النتيجة:

ـ. . . أنظم الشعر على السليقة، قلبي يدلني إلى ما يجب أن أقوله، أمّا الموسيقى فأصل إليها، ليلاً، بالدق على الطاولة، مع إيقاع الرِجل اليمنى، وترديد كلمات كل بيت. . .

توقف قليلاً ليقرأ في وجهي أثر اكتشافاته، هزّ رأسه عدة مرات، وهو يبتسم، ثم أضاف:

ـ طبيعي يستغرق هذا وقتاً طويلاً، الأمر الذي كان من السهل عليّ تجاوزه لو تعلمت بحور الشعر، ومثلما تعرف، هذه لا تكلف شيئاً، لكن لا أعتبرها الطريقة المثالية. . .

وتغيّرت اللهجة تماماً، اقترب مني أكثر وتساءل بصراحة:

- ثم مَن من الشعراء كلّف نفسه تعلّم الأوزان وتقطيع الأبيات، كما يفعل طلاب المدارس؟ هل فعل ذلك امرؤ القيس أم المتنبي أم أبو تمام؟

وعاد إلى لهجته الأولى:

- وهنا، في هذا المكان اللعين، لا نملك سوى الوقت، لذلك لا ضرر إذا أنفقناه في أنبل مهمة، ولأشرف غاية: للشعر والتعبد في محراب الجمال!

طبيعي قبل أن يكشف ما يفكر فيه أو ما يريده مني، أشار إلى عراقة عائلتي، وتعاطي عدد من أفرادها للكتابة والفن! وأشار أيضاً، ولكنه لم يكن متأكداً، ما إذا قرأ لي شيئاً قبل عدة سنوات نُشر في إحدى المجلات. ولم ينسَ أن يلومني، لكن دون قسوة، على تورطي في السياسة، مع قناعته أن الأمر نزوة ومؤقت، وسوف يكون لي تجربة مهمة حين أتفرغ في وقت لاحق للأمور الجدية، بما فيها الكتابة، خاصة الشعر!

لم أرَ مناسباً أن أُصحّح المعلومات الخاطئة الكثيرة التي وردت عن عراقة العائلة، وربما انصرف ذهنه إلى عائلة أخرى تحمل نفس الكنية! هذا عدا عن الكتابة، والتي لم أقرب منها! قلت في محاولة لتخفيف الصدمة، ثم للاعتذار:

- إذا كانت لي ميزة، يا سيادة النقيب، فإنَّ هذه الميزة لا تتعدى تذوق الشعر، ولذلك لا تتوقع مني أكثر من ذلك!

- هذا ما أقصده بالسليقة، وهذا جوهر الشعر...

هكذا ردَّ بانفعال، وتابع:

- وهذا ما اعتبره مقياس الشعر الحقيقي، أمّا ما عداه فإنّه النظم، وتدرك الفرق الهائل بين الشعر والنظم!

وحين وافقت مضطراً على القيام بالمهمة التي انتدبني لها النقيب، وطلبت أن يسلمني القصائد لكي أتمتع بها قبل أي شيء آخر، ردَّ بطريقة لا تخلو من تعريض:

- للشعر طقوس يجب أن يُحافظ عليها بشكل قدسي، تماماً كما يتوجه المؤمن نحو المحراب!

ولما بدا كلامه غير مفهوم أضاف شارحاً:

- الجنين يبقى في بطن أمه تسعة شهور قبل أن يولد، يبقى وحيداً وفي

الظلمة، وكذلك الشعر!

ولم أفهم أيضاً، قرأ ذلك في عيني، أضاف شارحاً أكثر:

ـ أريدك أن تبقى قريباً مني، كل يوم ساعتين أو ثلاث ساعات، وسوف أفرد لك غرفة إلى جانب غرفتي، وبعد أن تنتهي من قصيدة، وتستريح يوماً أو يومين، تتعامل، أو تتمتع بالقصيدة الثانية، وهكذا. أمّا أن تُجرجر القصيدة إلى المهاجع وترتمي أمام الأعين كأنها البضاعة الكاسدة، أو المعطوبة، فإنَّ أي شاعر يحترم نفسه ويحترم الشعر لا يوافق على ذلك!

وهكذا أصبحت، كما أطلق عليّ السجناء الآخرون: «المستشار الشعري للنقيب»! ومن خلال هذا المنصب اكتشفت أن أسهل طريقة للصداقة أو للعداوة مع شاعر، حتى لو كان شرطياً، أن لا يكون لك رأي صادق، لأنَّ الصداقة لا تقتصر على امتداح شعره فقط، وإنما بهجو الشعراء الآخرين أيضاً، خاصة الأحياء منهم.

وإذا كنت لا أزال أتذكّر فإنَّ شعر النقيب عبارة عن سرقات من أماكن وعصور متباينة إلى أقصى الحدود، ومعها أناشيد مدرسية تُعلّم في مدارس الأيتام، وتحضّ على العفة والتضحية وحب الوطن، وتذم الحسد والحقد والتعالي. ولم ينس أيضاً التقاط بعض الأغاني والأهازيج العامية، وتحويلها إلى الفصحى، فبدت مثل الفزاعات بعد أن فقدت روحها وظلالها.

قبل أن تنتهي مهمتي كمستشار شعري، وفي جناح النقيب، تعرّفت على اسماعيل حمدو. كان مساعداً لطباخ النقيب، ومكلفاً بجلب المؤونة من القرية. وأثناء ما كان يحمل إليّ القهوة أو يضع علب السجاير الأجنبية على الطاولة القريبة، لم تكف نظراته عن الكلام. افترضت، في فترة معينة، أنه يلومني على القيام بهذه المهمة! وفي فترة أخرى يدرس مدى شجاعتي.

لم أفهم الرجل، ولم أعرف كيف أتصرف معه.

سألني ذات يوم، وكنت أقرأ أحد أناشيد النقيب بصوت عالٍ، لأقدر مدى ملاءمته للتلحين:

ـ لماذا لا تهرب من هذا السجن اللعين؟

تطلعت إليه باستغراب مشوب بالخوف، ولم أجب. قدّرت أن الرجل يريد أن يخلص مني، وربما تضايق من الخدمات التي يقدمها إليّ، علماً بأني لم

أطلب شيئاً، وحاولت أن أكون خفيفاً!

ابتسم بطريقة ودودة، وقال مجيباً على ما يدور في رأسي من أسئلة:

ـ لا تظن أني أريد بك السوء، وأنا لست منهم!

حاولت أن أرد على ابتسامته، بابتسامة، لكنني لم أستطع، اقترب مني أكثر، وهمس:

ـ لا تخف مني...

وبعد قليل، وبعد أن تلفت ليتأكد أن لا أحد يسمعنا:

ـ أنا الذي هرّبت سامي أيوب...

وتغيّرت اللهجة:

ـ إذا كان هناك أحد يفكّر بالهرب فهذه أحسن فترة، كما ترى!

«ماذا يريد الرجل مني، وكيف يفاتح سجيناً لا يعرفه بموضوع خطير هكذا، وهل أثق بما يقول ويعرضه أم يريد أن يوقع بي؟» هكذا مرت الأفكار في رأسي وأنا أنظر إليه، أقرأ في عينيه مدى صدق وجدية الكلمات التي سمعتها منه. عندما رآني خائفاً متردداً من مجرد الاستفسار، قال، وخرج صوته محذراً:

ـ انتظر، سأعود إليك بعد أن أتأكّد أن لا أحد بالقرب من هنا!

خرج وعاد. لم أستطع أن أركز أو أن أطلب شيئاً محدداً. قال، وبدا فرحاً:

ـ أعمل هنا لأني لم أجد عملاً في مكان آخر. أكره هذا المكان، وأشفق على كل سجين، وأرى وأسمع كل ما يجري...

وبعد قليل، وقد جلس على كرسي في مواجهتي:

ـ لو يعرفون أنني ساعدت سامي أيوب، وإني أخفيته حتى توقف البحث عنه، لشنقوني، وهذا الذي أقوله لك الآن لا يعرفه أحد...

وأمال رأسه قليلاً ليتنصت، لما تأكّد أن الصمت لا زال قوياً شاملاً، أضاف:

ـ السجن الآن فلتان، وأنت شايف: شعر وسكر في الليل، والنهار يغرق جناح النقيب، والمساعد باله مشغول بجيش البنات في بيته وبولي العهد اللي طال انتظاره، والعناصر بين طلبات النقل والترفيع...

وتحركت شفتاه بطريقة هي بين الاستفسار وعدم الاهتمام، لأنّ رد فعلي على ما قاله كان بطيئاً وغير متناسب مع الموضوع الذي طرحه.

هزّ رأسه عدة مرات، بما يشبه الندم أو الاعتراف بالتسرع، وقال:

ـ على كل حال الموضوع راجع لك، فكّر فيه، وإذا اقتنعت أنا جاهز...

ضحك بنوع من الاضطراب، وقال كأنّه يخاطب نفسه:

ـ لو كنت قادراً لهدمت السجن كله، ولهرّبت كل السجناء، لكن مَن لا يعرفك لا يقدّرك!

قلت في محاولة لأن أبقي خيطاً:

ـ أتذكّر أن اسمك اسماعيل...

ـ اسماعيل حمدو

ـ يا أخ اسماعيل أقدّر مشاعرك، لكن لا نية عندي للهرب، وأنا أشكرك.

رد وهو يهز كتفيه:

ـ لا أحد يهرّب الثاني بالقوة، هذه قضية مستحيلة، لكن مع ذلك فكّر، وإذا قرّرت أنا جاهز!

لما أبلغت رفاق المهجع بما عُرض عليّ أبدى الجميع تحفظهم عدا رضوان، قال بحماس:

ـ يا جماعة... هذه فرصة، فنحن الآن في عزلة كاملة، فإذا استطعنا أن نوصل أخبارنا إلى الخارج يمكن أن نخلق حالة جديدة في كل البلد.

وحين تتالت الاعتراضات على الاقتراح، واحتمال أن يكون فخاً، ردّ بحدة:

ـ أنا مستعد للمغامرة، مهما كانت النتائج!

قال رضا:

ـ اتركنا، يا رضوان، من التحديات والمزاودة، لأنّ هذه الطريقة لن تحلّ المشكلة.

ـ يا سيدي أنا أتنازل، تفضل أنت.

ـ المسألة ليست مَن يهرب ومَن يبقى، المسألة أنّ هرب أحد السجناء،

وأنت أدرى، يُلحق الأذى بالجميع، ولذلك أرى أن هذا الاقتراح يضرنا ويجب أن لا نتورط.

ـ وماذا تقول، وما هو رأيك بهرب سامي أيوب؟

قال حامد زيدان بطريقة أبوية:

ـ يا جماعة... كل قضية تؤخذ بظروفها. سامي لما هرب كان بمهمّة ونتيجة اتفاق، والظروف خدمته. أما الآن فيمكن أن تتحول عملية الهروب إلى مسلخ، ولذلك لازم نصرف النظر عنها!

قال رضوان بسخرية وتحدٍ:

ـ يا سيدي أنا أسحب كلامي. أنا باقٍ، لا عايز اهرب ولا عايز اترك هذا المكان، لكن يعجبني فيكم طريقة التفسير والتبرير. سامي أيوب: عنده مهمة. هربه: مفيد! عادل الخالدي أو رضوان فرج إذا أُتيحت لأي منهما الفرصة: لا، هذا خطأ، هذا خطر، ويمكن أن يؤذي الجميع..

استراح قليلاً، وأضاف بلهجة جديدة:

ـ يعني حضراتكم الآن مرتاحين؟ لازم نبقى مثل الكلاب نهز ذيلنا ونشكر كل واحد يرمي لنا عظمة؟ سجن القليعة عجبكم أكثر من سجن العفير؟ أكثر من السجن المركزي؟ إلى متى نبقى خايفين وساكتين؟

رد رضا ببرود مثير:

ـ على مهلك يا رضوان، الدنيا ما هي يوم واثنين، وعادل حكى عن اقتراح يمكن يكون فخ، والزلمة عرضه عليه ولم يعرضه على أحد غيره، ولذلك اختلافاتنا الآن، وهذا الهبش والتحدي، ما هو بمكانه. لازم نتأكد أن احتمال الهرب احتمال جدي، ويمكن أن ينجح، وبعد التأكيد نقرر، إذا اتفقنا، مَن يهرب ومَن يبقى، أما مناقشاتنا الآن فمثل الذين يختلفون على جلد الدب قبل صيده، ولذلك، لازم نطوّل بالنا، ولازم نعد للمئة، قبل ما يلعب بروسنا جماعة السجن.

قال أبو مكرم، وبنوع من اليأس:

ـ والله ما قلته، يا رضا، على العين والراس...

وبعد قليل، وبصوت خفيض..

ـ ويمكن الجماعة غايتهم يختبرونا، يلعبوا بنا، فلازم نظل ثقال،

وخلونا نفكر بشيء ثاني!

قال رامز في محاولة لتغيير الجو:

ـ بعدما حسمنا موضوع الهروب، ما رأيك بأشعار النقيب؟

ـ لا أجمل ولا أروع. .

هكذا أجبت، وكانوا يرقبونني، وبعد قليل وبسخرية:

ـ ماذا تتوقعون؟ تصوروا جلاداً بيده كرباج وباليد الأخرى زهرة صناعية للتدليل على الرقة والعطف! تصوروا الجزار الذي يقدم الماء للخروف قبل أن يذبحه، للحظة يظن الخروف أن هذا الإنسان يحسن إليه، يحبه، ولا يعرف أنه حين يذبح يصبح أسهل للسلخ!

قال رامز ليستفزني:

ـ هذا كلام عام، لا يصف ولا يحدّد، نريدك أن تقول كلاماً أدق في شعره!

ـ شعر صوفي يعتمر قبعة فولاذية ويحمل رشاشاً، بيده بوصلة مهمتها أن تدله إلى أقرب خمارة، وبفمه صفارة إنذار ضد الديمقراطية، فهل هذا الوصف يكفي أم تريد تحديداً أكثر؟

قال رضوان بحدة:

ـ اتركونا من هذي السوالف، وهل يمكن أن يكون شعر الشرطة إلاّ شرطي إضافي له رائحة كريهة؟

حاول رامز أن يستعيد المبادرة:

ـ أنا رجل أتعامل مع الملموس، وأي وصف يُعطى لشعر النقيب يبقى حكماً مجرداً إذا لم تقدم أمثلة!

وقضينا تلك الليلة في استعادة ما أتذكره من شعر النقيب، مع تعليقات وتحويرات لا تلبث أن تتزايد مع كل بيت جديد، إلى أن قال حامد زيدان:

ـ اللهم اجعله ضحك خير. . .

وبعد قليل، وفي محاولة لإقناعنا، بشكل غير مباشر، أنه حان وقت النوم:

ـ يا جماعة. . . الاختيارية ما هم مثل الشباب: لازم يناموا بكّير، لأنّهم يصحون قبل الضو!

رد رضوان:

ـ يا سيدي لا أحد منعك من النوم!

قال رامز:

ـ والله أنا نعسان!

قال رضا:

ـ هذا الشعر وحده كافٍ لأن يجعلنا ننام دهوراً. . .

وبعد قليل، وباستغراب:

ـ هل تتصورون أن هناك بشراً، وشعراء على التحديد، يفكرون وينظمون بهذه الطريقة؟ ليس ذلك فقط، في اليوم التالي يتخلون عن كل الكلمات الأنيقة الناعمة، ويتحولون مرة أخرى إلى جلادين: بيد الكرباج، وفي الفم مجموعة من البذاءات والشتائم!

قال حمود، وظلَّ ساكتاً طوال السهرة:

ـ لا يمكن أن يتحرر هذا الشعب قبل أن تتحرر لغته، أن تغادر القواميس إلى الحياة، وأن تتخلى عن الزخرفة والشعر المستعار والأسنان الصناعية، وأن تصبح لغة الناس!

وأتذكر أنني نمت على أصوات الذين واصلوا النقاش في اللغة، وكنت بين فترة وأخرى افزّ على ضجيج بعض الكلمات! وأتذكّر أنني حلمت تلك الليلة بأشياء بيضاء وصغيرة وبسيطة وفرحة وكنت أفهمها وأتمتع بها دون أن أعرف ما هي!

قبل أن ينقضي أسبوع على تلك الليلة أفاق السجن على شيء غير عادي: الشرطة في حالة استنفار، التعداد يجري مرة بعد أخرى، صيحات النقيب وهرولة المساعد تدلان على ارتباك وحيرة لا يخفيان، وبدأت بعد ذلك الإشاعات: عدد كبير من السجناء العاديين اختفى، ولا يعرف ما إذا هرب هؤلاء أو ضلوا طريقهم في الغابة، فقد استغلوا مد أنابيب المياه إلى السجن، حيث شارك في العمل معظم السجناء، وهربوا.

عند ظهيرة اليوم التالي تأكّد هروب محيي الدين الأحدب!

وفي اليوم الذي يليه استدعاني النقيب لكي أصحّح، لغوياً، المرافعة التي أعدها وسوف يتلوها على مسامع اللجنة التي يفترض وصولها بين لحظة وأخرى. التقيت باسماعيل حمدو، الذي عاد تواً من إجازة بدأت قبل بضعة أيام. كان هادئاً وطبيعياً. لما قدّم إليّ فنجان القهوة المرة، بعد أن قدم للنقيب، اهتزت يده للحظة، لكن نظرات عينيه كانت حازمة، جريئة، أقرب إلى التحدّي، وكأنّها تقول: مجرد كلمة أو إشارة تجعلك تدفع دمك!

بعد أن أصبح الغياب فراراً من السجن، وليس ضياعاً في الغابة، ولما عادت مفرزة التعقب دون جدوى، ورغم أن الاجراءات المشدّدة بدأت منذ لحظة اكتشاف غياب محيي الدين الأحدب، إلاّ أن عودة المفرزة خائبة يائسة حوّل السجن إلى جحيم.

قال رضوان، بعد أن هجم الشرطة على مهجعنا وأوسعونا ضرباً:

ـ قلت لكم: الهروب ممكن وسهل، والرجل يعني كلماته، لكننا كنا جبناء!

لم يجبه أحد، تابع بحدة:
- وباعتبار أن مَن هرّبه عاد فلا بد أن تكون المهمة قد نجحت، ونجا الأحدب!
ولم يعلق أحد. شعر أن أستُفز. التفت إلي وقال:
- كنت تشكك وتعتبر المصايد والأفخاخ تزحم الطريق، ألم يكن هذا رأيك؟
- لم يكن هدفنا الهروب، هذا كل شيء، وما دامت الفكرة مرفوضة من حيث المبدأ، فكل مناقشة للتفاصيل زائدة.
- وماذا لو أوصلنا أصواتنا إلى الخارج، إلى الشعب، هل يعتبر ذلك خطأ؟
قال رامز بحدة:
- اسمع يا رضوان: إذا اقتصرت الأمور عند حد الإهانات وضرب اليوم، ولم تصبح قانوناً في السجن خلال الفترة القادمة فنحن بألف خير!
قال رضا:
- إنهم يخافون السجناء العاديين، ولذلك لا بد أن ينتقموا منا، وسوف نواجه خلال الفترة القادمة وضعاً صعباً.
- الحجة دائماً جاهزة، والتبرير موجود قبل التفكير، وهذه طريقة الجبناء والذين يخافون من اقتحام المخاطر!
هكذا قال رضوان بحدة، وتابع:
- لا أريد أن أتهم أحداً، ولكن هذا ما أشم رائحته في هذا المهجع!
قال أبو مكرم:
- المهم، يا جماعة، أن نبقى متماسكين، وأن نبقى بعيدين قدر الإمكان، لأنْ لا علاقة لنا بما جرى ولأن الأمر يعني إدارة السجن.
رد رضوان بسخرية:
- إن ما جرى، يا أبو مكرم، يعني الجميع، وسوف ترى!
ولم نتأخر لكي نرى، ففي اليوم التالي لوصول اللجنة بدأ استدعاء السجناء واحداً فواحداً. بدأوا بالسجناء العاديين، وكان عددهم حوالى العشرين، وقد استغرق استجوابهم يومين وليلتين. وفي اليوم الثالث أخذوا

ينادون علينا واحداً بعد آخر.

كان دوري الرابع.

المحققون ثلاثة، يجلسون في صدر غرفة النقيب، وراء طاولة أعدّت لهذا الغرض، وعلى كل من الجانبين طاولة، ناحية اليمين للنقيب، وناحية اليسار لكاتب الضبط، أما المساعد فقد جلس ومجموعة من الشرطة على مقعد طويل، قرب الباب.

ـ اذكر كل ما تعرف عن السجين محيي الدين الأحدب.

وحين ذكرت أن معرفتي به لا تتعدى التحية، وأغلب الأحيان عن بعد، ولا أعرف عنه شيئاً خاصاً أو شخصياً، تبادلوا، فيما بينهم، النظرات، ولمحت على وجوه أحدهم ظلّ ابتسامة!

ـ اذكر الأشخاص الذين كان يلتقي بهم السجين المذكور، خاصة من مهاجع السياسيين.

ـ لا أذكر أنه كان يلتقي بأحد منهم، وإذا جرى شيء من هذا ففي الساحة، خلال فترة التنفس، وكان يقتصر الأمر على تبادل التحيات وأحاديث عامة.

ـ مَن هؤلاء؟

ـ لا أتذكّر.

ـ لا تتذكّر؟

حاولت أن أستعيد بعض الصيغ التي قرأها النقيب في المرافعة، وهي عبارة عن كلمات كبيرة، لها رنين. ابتسم المحققون وهم يسمعونني، ونظروا ناحية النقيب. قال النقيب في محاولة للتوضيح:

ـ السجين الماثل أمامكم الآن كان يُعاقب في فترات سابقة بأن يكتب ألف سطر يومياً، لأنه الوحيد من آل الخالدي الذي شذّ عن سنن العائلة، وأنتم تعرفون منزلة هذه العائلة في الآداب الرفيعة، وقد اتبعت معه هذا الاسلوب لعله يعود عن غيه ويسلك الطريق القويم!

قال لي المحقق الجالس في الوسط:

ـ إذن اكتسبت الفصاحة من آلاف السطور التي كتبتها؟

وبعد قليل وهو يتوجه للنقيب:

ـ وماذا كنت تطلب منه أن يكتب، يا سيادة النقيب؟

فوجئ بالسؤال، ردَّ بارتباك:

ـ كنت أطلب منه أن يكتب «أقرّ وأعترف، أنا السجين عادل الخالدي، أني حمار مدبّر وكلب نبّاح، لا أُحسن التفكير أو التصرف ولهذا أنا سجين».

وحين ابتسم المحققون تشجع، وأضاف:

ـ وكنت أكلفه بكتابة بعض أبيات من الشعر...

ـ أبيات من نفس النوع؟

هكذا سأل أحد المحققين، فردَّ النقيب:

ـ ما يرد على البال، لأنَّ الهدف: العقوبة!

قال رئيس لجنة التحقيق:

ـ مَن تظن أنه سهّل أو ساعد السجين محيي الدين الأحدب على الهرب، ولماذا؟

ـ لا أعرف أي شيء عن هذا.

ـ لم أسألك تعرف أو لا تعرف، سألتك مَن تظن أنه ساعد أو سهّل؟

ـ لا أظن بأحد.

ـ ما هي علاقته برضوان فرج وحامد زيدان؟

ـ بحدود علمي ليست له بهما أية علاقة.

ـ ماذا قال له السياسيون؟

ـ لم يقولوا شيئاً.

ـ ولماذا لم يفكّر في الهرب قبل وصول السياسيين؟

ـ لا أعرف، ويمكن أن يوجه له السؤال.

ـ كيف كانت علاقته بإدارة السجن؟

ـ لا أعرف.

ـ هل رأيته يشتم أو يتعارك مع أحد؟

ـ لا.

ـ هل عرض عليك أحد أن تهرب؟

ـ لا.

قلت الكلمة الأخيرة وقد شعرت بالاضطراب، فلا بد أن تكون لديهم

معلومات من نوع أو آخر تشير إلى مفاتحتي بالأمر، وربما التفتُ في تلك اللحظة لألقي نظرة على العناصر الموجودة إلى جانب المساعد، لكي أتأكّد ما إذا كان اسماعيل حمدو ضمنهم. سألني المحقق من جديد، بطريقة استفزازية:

ـ هل أنت متأكد أن لا أحد عرض عليك الهرب؟

ـ نعم متأكّد.

قال رئيس اللجنة بسخرية:

ـ من صفاتك الفصاحة، وقد عرفنا أنها إرث عائلي وتدريب في السجن، ومن صفاتك أيضاً: الوثوق، وأنت الآن تؤكّد أن لا أحد عرض عليك فكرة الهروب.

سألني المحقق الآخر:

ـ هل لك علاقة بعملية هرب سابقة؟

ـ لا.

ـ لماذا حققوا معك في سجن العفير لما هرب رضوان الفرج؟

ـ لأننا كنا في نفس المهجع، وقد حققوا مع الجميع.

ـ هل عاقبوك بعد هذا الهروب؟

ـ عاقبوا الكثيرين، عاقبوا السجن كله!

قال رئيس اللجنة وهو يهزّ رأسه بتهديد وسخرية معاً:

ـ إذا قدّر لك أن تخرج من السجن في يوم من الأيام يجب أن تدرس الحقوق، لأنك الآن، وقبل الدراسة، نصف محامٍ وأكثر، لكن سوف نرى!

قال النقيب مدحت عثمان:

ـ إن هذا السجين، يا سيادة المقدم، يبدو ناعماً وديعاً، لكنه شديد الخبث وكذاب اشر!

نظرت إلى النقيب وابتسمت ابتسامة صغيرة. قال مهدداً:

ـ إذا أخطأنا في الماضي، ولم نعاقبك العقوبات الرادعة فسوف ترى، كما قال سيادة المقدم!

بعد أن انتهى التحقيق جمعنا النقيب مدحت عثمان في ذات المكان عند السور المطل على وادي الموت. كان محتقناً بادي التجهم والغضب. ومثل المرة السابقة: أنور نور الدين إلى يمينه، بيده أوراق وقلم ومستعد للكتابة، وإلى

اليسار المساعد خليل وعدد من العناصر. تطلع إلى الوادي، إلى الجبل، ثم تطلع إلينا، وقال:

- تأكّد لنا أن هروب محيي الدين الأحدب هروب سياسي، وأن السياسيين وراءه، إذ لم يسبق أن فكّر أي من السجناء العاديين بالهرب، رغم طول المدة؛ هذا أولاً، وثانياً الطريقة التي اتبعت في حالة سامي أيوب هي نفسها في حالة محيي الدين الأحدب، وهذا ما يؤكّد أن الجهة التي نظمت الهرب هي نفسها، وربما حمّلته رسالة سياسية.

استراح قليلاً، تطلع إلينا وهزّ رأسه عدة مرات، وكانت أقرب إلى التهديد وتابع:

- واللجنة فوّضتني بالصلاحيات الكاملة من أجل الوصول إلى الحقيقة...

وبعد قليل:

- وحتى توفروا على أنفسكم العذاب فإنّ الاعتراف أسهل الطرق لخلاصكم، فماذا تقولون؟

لم يسمع جواباً، ولم يكن يتوقع أي جواب، تابع:

- هذا الوادي شكا إليّ أنه لم يتلق أية فريسة منذ مدة طويلة، ولا بد أن الواويات تزعجكم مطلع كل مساء وهي تصرخ وتنادي طالبة شيئاً تأكله...

ضحك بفرح لهذه الصيغة الشعرية التي تدفقت من فمه، وأضاف بنفس النبرة:

- لازم تعرفوا: الوادي يناديني، الحيوانات تستنجد بي، ولا يمكن أن أصمت عن هذه النداءات، فاختاروا أي الشرين تريدون!

قال حامد زيدان بغضب لم يستطع أن يخفيه:

- يا سيادة النقيب: ليس لنا علاقة ولا نعرف أي شيء عما حصل، يجب أن تتأكدوا من ذلك، أما إذا أردتم أن تصفّوا حساباتكم، وأن تنتقموا منا فهذا أمر آخر.

- أنت، يا شيبة الأبالسة، آخر مَن يحق له الكلام، لأن سوابقك أكثر من أن تحصى!

- إذن هي تصفية حساب!

ـ المهم أن نصل إلى الحقيقة، إلى نتيجة، ولا شيء يهمنا أكثر من ذلك أو غير ذلك، و. .

توقف، صمت، هزَّ رأسه، وقال، وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ اللوم يقع عليّ، لأنيّ وثقت بالآخرين، ولم أُعالج الأمور بنفسي، لكن ابتداء من هذه اللحظة فلا بد أن أعرّفكم مَن يكون مدحت عثمان، لقد انتدبته الإدارة لهذا السجن بالذات لأنها تدرك أي رجل اختارت، ولأية مهمة كبيرة يعجز غيره عن أدائها.

وفجأة انفعل، وبطريقة غاضبة:

ـ أتريدون أن تدمروا تاريخي؟ أن تجعلوني أضحوكة؟ أن أُنقل من هنا كعقوبة أو نتيجة العجز؟

ولم تطل المناقشة، سألنا النقيب بحدة وبنفاد صبر:

ـ هل لديكم ما تعترفون به، ما تقولونه؟

وحين صمتنا، ولم نَقُل أية كلمة، قال للمساعد خليل:

ـ إلى المهاجع!

شعرنا ببعض الراحة، ونحن ندخل المهجع، إذ تكفينا واحدة من العقوبتين: الشتائم والتهديدات، أو العذاب الجسدي.

قبل أن يبزغ الضوء، وبشكل مفاجئ، هجموا علينا: هجموا كالكلاب الضارية: الضجة والأصوات، إضافة إلى كميات كبيرة من المياه الباردة تنصب علينا لا أعرف من أين. عدا عن الرفسات والصفعات والضرب بأعقاب البنادق والصيحات والشتائم. ما كدنا نستوعب الحالة حتى انهالت علينا الكرابيج مع العصي تطلب إلينا أن نتجمع بسرعة في الساحة. استغرق ذلك بضع دقائق. كان برد الصباح قارساً، خاصة مع هذه الكمية من المياه الباردة والمفاجئة، وبعد دفء الفراش الذي جهدنا من أجل الوصول إليه.

كان النقيب، هذه المرة، قائد الحملة. ما كدنا نتجمع، حتى طلب إلينا أن نصطف في رتل أحادي، واصطف خلفنا عدد مماثل أو يزيد من الشرطة. طلب الينا أن نرفع أيدينا إلى فوق، وأن يقف كل منا على رجل واحدة. فعلنا كما طلب منا، لكن العصي التي أمطرتنا، الصفعات التي كانت تنهال علينا

فجأة، جعلتنا لا نعرف ماذا نفعل. كان النقيب، وإلى جانبه الكاتب، في مواجهتنا. وكما يفعل القرّاد، كان يصرخ، كان يطلب من الشرطة أن يزيدوا من ضربهم، أن يكسروا أضلاعنا وأسناننا!

لا أريد أن أتذكر، فالأمر بسرعته وغرابته يجعل وصفه أو تحديده أكبر من الكلمات. كنت أنظر إلى الذين حولي في الرتل، في محاولة لأن أفعل مثلهم، أن أُقلّدهم، لكن كل محاولة بنظر الذين خلفنا كانت تبدو خاطئة وتستحق بضع ضربات إضافية، عقاباً لهذا الخطأ!

تورمت رقابنا من الصفعات، وكذلك أكتافنا من العصي، وضاعت صرخات النقيب في هذه الرياضة السويدية المجنونة!

في لحظة معينة انطلقت صافرة، كانت صافرة أنور نور الدين!

توقف الضرب والجنون بعد الصافرة. قال النقيب:

ـ هرولة إلى العين روحة ورجعة وبدون توقف.

ومثل المجانين، في تلك الممرات الجبلية القاسية، بدأنا تلك الرحلة. كنا نركض ونتدحرج، لأنَّ الضربات على ظهورنا تلاحقنا، وكنا نجفل ونرتد والعصي تبرز من وراء الأشجار لتلطم وجوهنا، وكذلك الأرجل وهي تمتد لتوقعنا!

وإذا كان النقيب وحده يصدر الأوامر في السجن، فقد بدا الأفراد أكثر تفنناً وهم يصدرون الأوامر إلينا بأنفسهم! لا يمكن أن تُحصى العصي التي تلقيناها في الهبوط إلى القعر، وأثناء العودة. كان الأفراد كامنين في كل زاوية، في كل منعطف، وكأنّهم يريدون أن ينتقموا منا، فضرباتهم تنهال علينا في كل لحظة، ليس لأنّا تباطأنا أو تأخرنا، وإنما لتشعرنا بمدى حرصهم وحقدهم!

ظللنا ذلك اليوم نهبط ونصعد، وكأنّنا في سباق تتابع لا نهاية له! إذ ما نكاد نصل إلى السجن، وكان النقيب هناك، حتى يأمر بأن نعود مرة أخرى!

وبدأنا نتساقط الواحد بعد الآخر، ولم يُستطع لمّنا وإعادتنا إلى المهاجع إلاّ بصعوبة. وربما لا يذكر أي منا كيف انقضت تلك الليلة.

في اليوم التالي تركونا، لأنّه كان دور السجناء العاديين.

سمعنا الصرخات والشتائم، وفي وقت من الأوقات سمعنا إطلاق نار ثم خيّم الهدوء! ماذا حصل؟ هل قتلوا أحداً؟ هل أطلقوا النار للتخويف؟ وما هو رد فعل هؤلاء السجناء؟ ونحن، هل علينا أن نفعل شيئاً وهل نقوى على أن نفعل؟

قال الطبيب الذي جيء به لمعالجة بعض المصابين:

ـ لا أتصور أن هنا مخلوقاً يمكن أن يكون بهذه الدرجة من القسوة والأنانية، وأيضاً من الجبن، كالجلاد، قاسٍ لأنه يخاف الآخرين، وأناني لأنه لا يعرف الشبع ولا يعرف كيف يتمتع بما لديه، وجبان لأن وسيلته الوحيدة للشعور بالقوة: إيذاء الآخرين!

كان الطبيب يحدّث نفسه أكثر مما يحدّثنا، وبدا شديد القلق على حامد زيدان وهو يفحصه. تابع بنفس اللهجة؟

ـ ماذا يستطيع الطبيب أن يفعل؟ وما داموا يريدون قتل البشر ما الحاجة لوجود الطبيب أو لاستدعائه في آخر لحظة؟

وحين تساءلت العيون، ومعها الكلمات المتلعثمة، حول صحة حامد، ردَّ بغضب:

ـ إذا أمكن إنقاذه هذه المرة، فهل يتصورون أن الطبيب مثل الله يقول للأشياء كوني فتكون؟

زرقه ابرة، وفتح حقيبته واستخرج علبة دواء، وقال للذين حوله:

ـ آمل أن يتحسن، والمهم الآن أن يستريح!

وهو ينهض:

ـ لدي من الهموم ما يكفيني، وأعتقد أنكم لن تروا وجهي بعد اليوم، ولن أزور هذا السجن اللعين أبداً!

أما ما حدث بين السجناء العاديين والشرطة فقد عرفناه بالتدريج، وبعد بضعة أيام. إذ ما كاد النقيب يطلب منهم الاصطفاف، وفي نفس المكان الذي وقفنا فيه، وحين بدأ يوجه أوامره ولم يستجيبوا، فجأة انهالت عليهم العصي والصفعات فاشتبكوا مع الشرطة، مما أدّى إلى إطلاق النار وجرح عدد منهم. وقد خشي النقيب النتائج فأوعز إلى رجاله بالتوقف، وأُعيد السجناء بصعوبة إلى المهاجع، وبعث يستدعي الطبيب.

في وقت لاحق، وبعد أن غاب النقيب ولم يعد يراه أحد، سرت إشاعات قوية أنه وقع مريضاً، وأصبحت حالته تنذر بالخطر. وقيل إن سبب غيابه غرقه في السكر ليل نهار بحيث لم يعد يصحو أبداً. وهمس أحد المجندين أن النقيب قدَّم استقالته وينتظر الموافقة عليها.

إن شيئاً ما أصاب النقيب، خاصة وأن المساعد الذي صدف أن عملية الهروب جرت أثناء إجازته الأسبوعية، أخذ يستعيد، وبسرعة نفوذه وقوته من جديد، وإن بدا أضعف من السابق، لأنه يعتبر نفسه مسؤولاً بشكل ما عما حصل، ولذلك أصبح خلال هذه الفترة أكثر قسوة وحدة، وإن بدا شديد الحيرة والقلق ايضاً.

ولأنه يحتاج إلى حامد زيدان، لكي يؤكّد له مرة بعد أخرى أن يحيى في طريقه إلى الدنيا، وكان يطرب لمجرد سماعه مثل هذه الكلمة، فقد تعمّد أن يستدعيه إلى غرفته، أو يسأله، بعض الأحيان، في الساحة، حين يكون أبو مكرم وحيداً مهموماً يتمشى. وقد صدف ذات يوم، وكانا وحيدين في الساحة، وبعد أن مدَّ إليه كفه ليقرأ فيه أحداث الأيام التالية، أن وصل العريف وبعض الأفراد. للحظة ارتبك المساعد، لكن فجأة، وكما تغيّر الحرباء لونها، تغيَّر. إذ بعد أن كان متوسلاً وديعاً، وهو يمد يده، انقلب إلى وحش ضارٍ.

ـ . . . وتمسك ايدي يا ابن الكلب؟ تتصور أنك إذا انفردت بي قادر تغدر وتقتلني؟

وتطلب عينا المساعد وكلماته العون. يهجم الشرطة على حامد زيدان، يلقون به أرضاً، يضربونه بأرجلهم، بأيديهم، يصرخ، يحاول أن يدافع عن نفسه، لكن قبل أن نصل إليه كان قد شبع ضرباً، وكان المساعد مع كل ضربة يزداد ضراوة وتحدياً!

ونحن نضمّد جراحه ونواسيه، قال، وكان صوته ساخراً:

ـ لن أتورط مرة أخرى. . .

وحين نظرنا إليه مستغربين، تابع، وهو يحاول أن يبتسم:

ـ لن أُصبح، بعد اليوم، منجماً أو ساحراً!

وضجّ المهجع بالضحك، وبعد قليل:

- ابن الحرام مدّ يده مثل الشحاذ: «ابو مكرم: ابوس ايدك، وازيدك تشوف كف هالفقير». وبعد ما نويت وأمسكت يده هجموا مثل الذئاب، ووين الجنب اللي يوجعك، أولاد الكلب ضربهم ضرب كفار، قلوبهم سودا، وعقولهم ببساطيرهم، لكن بسيطة...

ورغم الألم والكدمات فقد ضحك، وآلمه الضحك، لكن بعد أن هدأ أضاف:

- بسيطة.. والله ابن الكلب إذا سألني مرة ثانية لأقول له أن ما سيأتيك ليس بنتاً واحدة بل ومعها زوج من السعادين وراح يشوف!

وقبل أن نتحداه بدأ السجناء العاديون:

- يا غايبين طولتوا الغيبة...

ويرد عليهم آخرون:

- تركونا صغار، كبرنا، طرنا، وما راح يشوفونا!

- وغائب؟

- طار، صار خبر من الأخبار، سامعينا يا أهل الدار!

يسمع المساعد، يضجّ، يمتلئ بالعناد والتحدي، يلوب مثل جرادة، مثل عفريت. يطل على مهجعنا، يتطلع بإمعان، ويقول:

- آخ منكم يا اولاد الحرام، من يوم ما شفناكم ما شفنا إلاّ الشقا.

ردّ عليه حامد زيدان:

- يجي يوم ونتقابل، وبغير هذا المكان، يا مساعد خليل، وتشوف!

يتطلع إليه المساعد ويصرخ:

- أبو مكرم... والله أنا ورياك للوحة، لا تغلط!

- غلطت وخلص، بعد ذاك اليوم!

- غلط غير مقصود، يا أبو مكرم!

- مقصود أو غير مقصود، ما يفيد، لأنّ ضلوعي تكسرت!

- ضلوعك بعيوني، يا أبو مكرم.

ـ طز عليك وعلى عيونك.

ـ لا تغلط يا أبو مكرم.

ـ غيري غلط قبل غلطي، وأنا معذور!

ـ دخيلك يا أبو مكرم.

ـ بلط البحر، لأنَّ المنجم فيّ مات، يا أبو البنات!

ـ حتى أنت يا أبو مكرم؟

ـ حتى أنا، وبعد اليوم، وإذا شفت الانس أو الجان راح أقول لهم كثّروا لهذا المحروس البنات لأنه لا يستاهل غير هيك!

ـ هيك يا أبو مكرم!

ـ هيك ونص، يا مساعد خليل!

دخل الصيف. النسمات الدافئة تهب والنهارات تطول، والجو يتغير يوماً بعد يوم، ويفترض أن يتغير الرجال، أن يُخلقوا من جديد، جسداً وروحاً، لأنّ العادة في مثل هذه الأوقات، وفي مثل هذه الأماكن، أن تصخب الحياة وتتفتح، وقد خلّفت وراءها شتاء طويلاً قاسياً. لكن كمداً أقرب إلى الحزن خيّم على القلوب، وسيطر على العلاقة بين السجناء والسجّانين. إنه كمد غير مفهوم ويمتزج بالحيرة، فلا أحد يعرف ماذا يقول أو ماذا يفعل، عكس فترات سابقة كانت تبدو فيها الحياة أكثر يسراً أو حتى أكثر صعوبة، لكنها مفهومة أيضاً، ويمكن للإنسان أن يتكيف معها.

قلت لرامز، ذات غروب، وكنا نتمشى في الساحة:

ـ من أغرب الأمور التي اكتشفتها في الأيام الأخيرة انّني أعتبر هذا المكان من أقبح الأمكنة التي رأيتها في حياتي.

وحين بدا له كلامي غير مفهوم وبعيداً، أضفت:

ـ لو أخذت هذا المكان بشكل مجرد، أي كطبيعة، ربما يعتبر من أجمل الأماكن في عمورية: الخضرة، المياه، المناظر الطبيعية، إضافة إلى اعتدال الطقس، خلال الصيف. وربما لو أُقيمت في هذه الجبال مصحات واستراحات لفاقت بجمالها أماكن كثيرة في العالم، لكن أن يتلخص المكان الآن بسجن معزول ومليء بالعنف والجنون، فإنّه يجعله مكاناً كريهاً!

قال رامز بحزن:

ـ الأماكن، بالدرجة الأولى، البشر.

ـ أُوافقك، يا صاحبي، ولكي نكون أكثر دقة: العلاقات بين البشر.

أية علاقات تجعلك تشعر بالدفء، بالحب، بالارتباط، هذا، في النتيجة، هو الوطن!

زفر، ولم أسمع في حياتي زفرة مثل هذه، وراح يهذي:

ـ قد لا تكون بلادنا أجمل البلاد، لأنَّ هناك بالتأكيد بلداناً أجمل، ولكن في الأماكن الأخرى أنت غريب وزائد، أمّا هنا فإنَّ كل ما تفعله ينبع من القلب ويصب في قلوب الآخرين، وهذا الذي يقيم العلاقة بينك وبين كل ما حولك، لأنَّ كل شيء هنا لك، أنت، المرآة التي ترى فيها نفسك ويراك فيها غيرك، ثم الجذر الذي انحدرت منه، والامتداد التي تواصل الحياة من خلاله، وعشرات، مئات، التفاصيل الصغيرة التي تجعل الإنسان يحس بالانتماء والارتباط والتواصل.

قاطعته، وبنوع من المشاكسة:

ـ لكن. . .

تطلع إليّ بتساؤل أقرب إلى الإنكار، فقلت:

ـ كل ما قلته صحيح بشرط واحد. .

انتظر، لم يسأل، تابعت:

ـ أن يشعر الإنسان أنه حر، أنه واحد من مجموعة تعرف كيف تضحك وتفرح، وأيضاً كيف يموت دون خوف. . .

هزَّ رأسه وقد بدا عليه الحزن، ومثل ما هذى هذيت:

ـ الخوف لا يقود أبداً إلى الحب، وقد لا أكون مخطئاً إذا قلت إنه أقصر الطرق إلى الكراهية، ثم الحقد، وأخيراً إلى العنف أو أكثر. الخوف قد يخلق الطاعة الظاهرية أو الشكلية، وربما يوحي بالاستقرار، لكن لا يؤدِّي إلى الطمأنينة. ثم ما قيمة الحياة إذا كان طرفا العلاقة خائفين، وإذا انعدمت الطمأنينة؟

لا أعرف متى اقترب رضوان، وكيف التقطت أذناه جزءاً مما يدور بيننا. ما كدت أكتشفه، وأكتشف الابتسامة الرضية التي ملأت وجهه، حتى قال، وكان صوته مخرشاً:

ـ الجماعة معهم حق. .

أشار إلى قسم السجناء العاديين، رغم أن كلامه لم يكن واضحاً، وأضاف:

ـ نحن الأفندية نتخيل العالم ولا نعرفه، نتصوره كما نريد أكثر مما هو على حقيقته، وهذا يقودنا إلى مجموعة غير محدودة من الأخطاء والأوهام والأحلام..

وضحك ثم أضاف:

ـ وتكسير الأضلاع...

وتغيّرت اللهجة تماماً، أصبحت صارمة، ولا تخلو من غضب:

ـ حبيبي، أنت وهو، إذا ظلينا نفكر سياسة بهذه الطريقة، طريقة الأفندية، ما راح نصل أبداً. الواحد إذا اراد يشتغل سياسة لازم يفكر بطريقة السياسيين: الحيلة، المكر، التكتم، والتآمر، وإلاّ ما في فائدة!

ـ سأله رامز باستفزاز:

ـ ما هو المقصود بالفائدة؟

ـ أن نصل إلى الحكم!

هكذا رد رضوان، وهو يتقدم لكي يواجهنا، وبعد قليل:

ـ أما أن نظل مبشرين ووعاظاً؛ أمّا الافتراض أن النصائح وحدها يمكن أن تغيّر الناس، تجعلهم يتراجعون عن أخطائهم، فإنّنا نكون واهمين، أو كمَن يحرث في البحر، كما يقولون!

تدخّلتُ في محاولة للتحديد:

ـ هذا موضوع واسع ومتشعب، وفيه اجتهادات كثيرة أيضاً، لكن المسألة التي أعتبرها أكثر أهمية من غيرها: كيف يمكن الاتفاق على قواعد للعبة. ومثل ما تعرفون، أية لعبة في الدنيا لها قواعد، بما فيها لعبة السياسة، لكن ساستنا وأنظمتنا مهمتها الأساسية أن تخترق، أن تتجاوز القواعد، وهذا ما يؤدّي إلى ما نراه الآن، بما فيه: السجون والاضطهاد والخوف، وأيضاً انتظار المفاجآت، وبالنسبة للطرفين: الحاكمين والمحكومين.

قال رضوان بحدة:

ـ بدون فلسفة كثيرة: الجماعة، الحكام، يريدون أن يحكموا، وأن يستمروا، ومن أجل هذه الغاية كل شيء بالنسبة لهم مشروع، وممكن، لذلك فإن تحكيم القواعد أو المبادئ في تفسير الواقع والسلوك لن يؤدّي إلاّ إلى المزيد من الأخطاء، هذا ما أتصوره، وعدا ذلك غباء. غباء مطلق!

جاء أبو مكرم، كان يبدو مثل كبش، فالسمنة القديمة مع القصر، إضافة إلى الخطوات الصغيرة، تجعله يبدو أكثر امتلاء مما هو. تطلع إلينا بعينين، التساؤل فيهما أقل من الاشفاق والمحبة. لما اقترب منا تماماً، قال، وكان صوته أبوياً.

ـ أنا متأكد أن المناقشة تدور حول جنس الملائكة، ام أنا غلطان؟

ردّ رضوان بسخرية:

ـ المناقشة، يا أبو مكرم، حول الملائكة، لأننا لم نصل بعد إلى تحديد جنسها!

قال رامز دون حماس:

ـ نعلك الصوف، يا أبو مكرم، فقط لتمرين الفك!

قال حامد زيدان، وقد شاب صوته الحزن:

ـ مثل هذا السجن الملعون لا يعلّم الإنسان إلاّ أن يأكل نفسه. في سجون أخرى، في أوقات غير هذه الأوقات، كنا أكثر سعادة. . .

ضحك بحزن، واستدرك:

ـ لا أقصد سعادة، ولكن كنا أقل شقاء. كان الواحد يتعلم الكثير في السجن: كيف يفكر، كيف يتكلم، كيف يتعامل مع الأمور بعقل عملي. أما هنا، وسط الجنون والمزاج وتهيئة الأمور لولاية العهد، فقد أصبح الواحد منا جزءاً من السيرك. . .

قهقه، ثم أضاف وهو يخاطب نفسه:

ـ حتى أنا لا تنقصني إلاّ طاسة ومسبحة طويلة ولفة كبيرة لكي أُصبح كاتب حجب لحبل النسوان، وبعد الإنجاب أتحول إلى مطهّر، وإذا مات الأجداد أتحول إلى مغسل أموات!

قال رضوان بنوع من التعريض:

ـ مَن جدّ وجد والبداية ليست سيئة.

ـ المهم، يا رضوان، ليس البداية وإنّما النهاية!

هكذا ردّ أبو مكرم، وهو يهز رأسه، وأضاف:

ـ اللهم حسن الختام.

قال العريف ادريس، وهو يتطلع إلينا بسخرية، فقد صدف أن المساعد في إجازته الأسبوعية:

ـ والله عال، الواحد وهو يتفرج عليكم يتصور انكم رايحين على مولد أو راجعين من عرس: بالكم فاضي وليلكم طويل...

ثم فجأة ويغضب:

ـ يا الله، يا أولاد الكلب، كأنكم طرشان وعميان، لا سمعتم الجرس، ولا شفتم الناس اللي دخلوا للمهاجع.

رغم الحزن وتشعب المواضيع، كان بودي أن نتابع، لكن ما كدنا ندخل المهجع حتى وجدنا الشباب غارقين في مناقشة من نوع آخر: «هذه الخضرة الهائلة في الطبيعة، والتي تمتد من الأشجار إلى الطحالب، من المياه إلى الضفادع، لماذا لم تصل إلى الحيوان والإنسان؟ لماذا لا نجد كلباً أخضر أو فرساً خضراء مثلاً، ولماذا هناك بين البشر الأجناس البيضاء، والسوداء والصفراء والحمراء وليس بينها الجنس الأخضر»؟

هكذا كان يجري الحديث. تطلعت إلى رامز وتساءلت:

ـ هل نواصل حديثنا؟

ـ لدينا وقت طويل، والجو كما ترى، أكبر من أمورنا الصغيرة!

وخلال فترة قصيرة اندمجنا في جو الطبيعة الخضراء. رضوان الذي بدا مثل طفل، وقد فوجئ بهذه الحقيقة التي ظلت غائبة عنه، رغم قربها، وكان في البداية يتساءل، ما لبث أن أُخذ، فأصبح يسأل ويجيب في الوقت نفسه!

قلت لنفسي «لولا قدرة السجين على التكيف، وأن يجد ما يشغل به نفسه ووقته لما استطاع احتمال صعوبة وجحيم العزلة، والآخرين، وأن يبقى دائماً غير نفسه!»

وإذا كانت العادة ألاّ يقترب الحرس من المهاجع بعد التعداد والعشاء، وأن نُترك وحدنا نذبل إلى أن ننام، فإنّ غياب المساعد في إجازته الأسبوعية، وفي محاولة لإثبات الوجود وفرض الهيمنة، فقد مرّ علينا العريف ادريس مرتين تلك الليلة. المرة الأولى نظر، استمع، هزّ رأسه عدة مرات، ثم مضى. أمّا في المرة الثانية، وقبل أن ننام بقليل، فقد استمع للحديث الذي يدور، وما كادت تمر دقيقة أو اثنتان حتى هدر صوته، وكان غاضباً وساخراً معاً:

ـ فعلاً ما عندكم غير لساناتكم؛ ولو ما كان لكم أي ذنب، يكفي أن يحبسوكم على لغوكم: فرس خضراء وكلب أخضر. . .

وبعد قليل وبغضب:

ـ انقبروا، اخرسوا، وإذا جيت مرة ثانية وسمعت أي صوت والله لأخلي الخِضَر يغيّب الشريف فيكم. . .

وهو يستدير ويمشي:

ـ يا حيف، رجال مشوربين، الصغير فيهم بعمر أبوي، وحاملين شهادات ولا أعلى، ومع ذلك لاهين حالهم بحكي الأولاد الزغار!

قال رضوان، بعد أن ابتعدت خطوات العريف ادريس:

ـ إذا قدّر لي ذات يوم فوالله لأسوّي العريف بلون الخسّ أو الخيار!

علّق رامز:

ـ مثل ما سوّانا قبل فترة بلون البندورة!

قال حامد زيدان وهو لا يقوى على إخفاء ضحكته:

ـ استرونا يا شباب، لأنّ العريف إذا خضّرت معه يرجع ويسوينا سلطة!

وانزلقنا إلى النوم واحداً بعد آخر. اللون الوحيد الذي يملأ كل شيء هو الأخضر. أتذكّر أنني رأيت عشرات الألوان الخضراء، كانت كلها خضراء، لكنها مختلفة الخضرة، وتمتد بصفوف لا نهاية لها. كانت رائعة، رطبة، بعضها كثيف والآخر يشبه الدانتيل وهو يهفهف كأنّه جناح فراشة أو رفة جفن، وأتذكّر أن القمر ملأ السماء فجأة، كان لونه أخضر زاهياً، تماماً مثل أوراق الأشجار في بداية الربيع، وكان الندى يتحلب منه على شكل رذاذ

خفيف، والناس ينظرون إليه بفرح، ثم فجأة أخذ القمر يسودّ إلى أن اختفى، ولم أعد أتذكّر شيئاً.

اما في اليوم التالي، وأتذكر أنه أربعاء، ومن أيام حزيران الأولى، فقد أفاق السجن على شيء غير عادي: المساعد خليل العائد من إجازته كأنّه الوحش الهارب من قفص. كان يريد أن يتشبث بأول فريسة لكي يمزقها.

دار على المهاجع بسرعة. وتوقف عند مهجعنا:

ـ ها، يا أولاد الشرموطة، شايفكم اليوم معنترين، وعين الواحد منكم كأنّها عين قحبة...

وبعد قليل:

ـ يعني إذا غبت عن السجن يوم واحد تتصوروا الأمور فلتت؟ غاب القط إلعب يا فار!

هزّ رأسه عدة مرات، وهو يتطلع في الوجوه، وكان معه ثلاثة من العناصر، وتوجه لحامد زيدان:

ـ وأنت يا شايب الخرا. تلعب من وراء ظهري، ها؟

رد أبو مكرم بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الله يجيبك يا طولة البال!

ـ علّ صوتك إذا كنت رجال.

ـ يا محشوم، اكفينا شرّك، واعطينا عرض كتافك...

فتح المساعد باب المهجع بسرعة وتحدٍ ودخل. وقف فوق رأس حامد، وقال بصوت رخوٍ:

ـ اعطيك عرض كتافي؟ أنت اللي يوجه لي الأوامر؟

اهتزّ رأس حامد زيدان واحتقن وجهه، قال يخاطب نفسه:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله!

صرخ المساعد، كأنّه يؤذن:

ـ لك أنا كسّرت روس كثيرة أكبر من هذا الراس، أنا ما ينضحك عليّ، ولا أحد يقدر يلعب من ورا ظهري!

ردّ حامد زيدان بنفاد صبر:

- يا مساعد خليل، الله يخليك، اتركنا وحل عنا، أحسن لك.

- تهدّدني؟

- افهمها مثل ما أنت عايز!

ونهض حامد زيدان. تكهرب المهجع واحتقن، أصبح كأنّه وتر مشدود. إذا تراجع المساعد هُزم، إذا لم يثبت جدارته الآن فَقَدَ كل شيء، قال بطريقة استعراضية:

- الظاهر انك ما تتربى إلاّ إذا تكسّر راسك.

- اخرس يا كلب، يا ابن الشرموطة.

هكذا صرخ حامد زيدان وهو يهجم عليه.

لم يصدق المساعد، ولم يصدق الناس الذين معه، وخلال دقائق قليلة اشتعل المهجع، تحول إلى كتلة من الجمر، وخلال دقائق لاحقة اشتعل السجن، كل السجن. هرب الذين مع المساعد، وتحوّل المساعد ذاته إلى فأر تنهال عليه الصفعات وتدوسه الأرجل، وهو يصرخ، يستغيث، يحاول أن يفلت، لكن الباب الذي أغلق بإحكام، وحال الهيجان التي سادت، جعلت الأمور تأخذ منحى خطراً. وحامد زيدان الذي كان أكثر الناس هيجاناً وغيظاً، وهو يهجم على المساعد، ما لبث أن تنبه لاحتمال أن يموت الرجل بين أيدينا وارجلنا، صرخ بغضب وحدة:

- كفى.. كفى.. يا شباب!

وحين لم يستجب أحد لصراخه، وبدا أنه يفقد سيطرته، صرخ بصوت أعلى:

- اتركوا هالكلب لأنه راح يموت بين أيدينا...

بصعوبة، وبعد فترة، توقّف الضرب.

كان المساعد ملقى على الأرض، وقد تمزّقت ثيابه، والكدمات والدماء ظاهرة على وجهه، وكان مغمض العينين ويتنفس بصعوبة.

سُمعت عدة طلقات في الهواء، ووصل النقيب وهو يشهر مسدسه وحوله عدد كبير من الشرطة ومعهم أسلحتهم.

كان النقيب بملابس النوم، شاحباً، زائغ النظرات، وكأنّه لم يستوعب، بعد، ما حصل.

بعد الكثير من التهديدات والمناقشات، وقد اتخذنا من المساعد متراساً لنمنعهم من إطلاق النار. ونتيجة مفاوضات طويلة، تدخّل في إحدى مراحلها بعض السجناء العاديين، وافقنا على أن نفرج عن المساعد شرط ألاّ يتعرض أحد منا للعقوبة، وأن تنتهي الأمور عند هذا الحد!

أُخرج المساعد كالجثة، سُحب أول الأمر، ثم حُمل، وخيمت على السجن حالة من الترقب المشوبة بالخوف، فقد أصبحنا على يقين أن الغد مليء بالدوي، وتكاد تلتقطه الأذن منذ الآن!

في اليوم التالي، أو الذي يليه، سنعرف أن ثورة الجنون التي أصابت المساعد وجعلته يتصرف هكذا، أن الحمل الجديد للزوجة الثانية، وقد راهن عليه، وكان يحسب الأيام، نتيجة تنبوءات حامد زيدان، هذا الحمل سقط قبل اكتمال الشهر الثالث، وقيل إنه أنثى. . أيضاً!

أبلغنا بالأمر السجناء العاديون، بعد أن «سرقوا» لسان أحد الحراس؛ وكانوا لا يخفون شماتتهم بالمساعد وسخريتهم منه. أما حين سُمح لنا بالاختلاط في الساحة، بعد أسبوع من الحادث، فلم يستطع هؤلاء السجناء أن يخفوا إعجابهم بشجاعتنا. أكثر من ذلك حاول الداوودي أن يوضح وأن يعتذر، قال، بعد أن اقترب وتطلع إلينا والابتسامة تملأ وجهه:

ـ الواحد ما لازم يتسرع يا جماعة الخير، ولا يحكم على المظاهر. . .

وحين تعلقت به العيون لتعرف ما وراء هذه المقدمة، ابتسم أكثر من قبل وهو يضيف:

ـ بلا مؤاخذة منكم يا جماعة: أنا واحد من الناس ما كنت قابضكم، ولا متصور أنه يطلع شي منكم. لكن، والشهادة لله، بيّضتوا الوجه. وبظنّي أن المساعد ما راح يبين قبل شهر أو شهرين، وإذا هذا الدرس ما رباه والله لأشرب دمه وأخلّص السجن منه!

قال له سجين آخر ممازحاً:

ـ الحجر اللي ما يعجبك، يا أبو عبدالله، يفجّك.

ردّ الداوودي بمرح:

ـ والله يا عمّي معك حق، وكل الناس خير وبركة!

وتوجه نحو حامد زيدان، عانقه طويلاً، وقال بانفعال:

ـ الزكرت يعجبني، على عيني، وأنت يا أبو مكرم، رفعت راس السجن كله...

وبعد قليل، وهو يتطلع إلى فوق:

ـ وأنت يا محيي الدين، يا أبو راشد، الله ييسر لك وين ما كنت، لكن كان نفسي تشوف الخرا ابن الخرا كيف كان مدمي، وكيف مثل الواوي يصيح!

وأضاف كأنّه يحدّث نفسه:

ـ ومع ذلك، وين ما كنت راح تصلك الأخبار!

وإذا كان قد تم التكتم على أخبار المساعد في الأيام الأولى، فقد بدأت تُعرف يوماً بعد آخر.

فأحد الحراس نقل أن الطبيب رفض بشكل قاطع زيارة السجن، حتى لو كان المريض النقيب ذاته. وحين أكدوا له أن المساعد، في السجن، أهم من النقيب، ردَّ بعدم اهتمام وسخرية:

ـ الآن حجتكم أخرا وأخرا...

وأضاف باختصار لكي ينهي أية مناقشة:

ـ أنا طبيب وعندي عنوان، ومَن يحتاجني لازم يجي لهذا المكان!

أمّا اسماعيل حمدو الذي زار القرية، فقد نقل عن الناس فيها أن الكلمات التي قالها الطبيب حُرّفت، إذ قال وهو يرفض:

ـ أنا طبيب وعندي شهادة، لا تحسبوني مطهر أولاد أو قلاع ضراس! وما أريد، كائن مَن كان يقول: عزيمة وحلوان.

ويؤكد اسماعيل حمدو أن المساعد نقل على ظهر بغل في اليوم التالي «للمعركة»، لأنَّ سيارة النقيب لم تتحرك رغم المحاولات التي بُذلت لإصلاحها! أما سيارة السجن فقد كانت في رحلة إلى المدينة لجلب الرواتب والتموين.

قال أحد السجناء، بعد أن عُرفت هذه الوقائع:

ـ لازم نعرف البغل اللي شاله، لأنّه نذل مثله!

ردّ عليه آخر:

ـ لا يحتاج الأمر إلى سؤال أو فراسة، يُعرف من ريحته!

وتجددت، مرة أخرى، الأهازيج عن المساعد، ورويت القصص، وبدا وكأن السجن تخلص من كابوس. أكثر من ذلك بدأت مهاجعنا الثلاثة تخطط للاستفادة من الوقت وترتيب برنامج للمحاضرات، خاصة وقد أصبح الطقس نموذجياً. وشط الخيال بالبعض لأن يفكّروا بتقديم التماس للنقيب لإبقاء الأبواب مفتوحة، «مع التعهد بعدم الهرب»! وبالغ غيرهم فطالبوا بزيارة الغابة والنبع في هذا الوقت من السنة، وليس أيام الزمهرير!

قال رضوان فرج في إحدى الأمسيات:

ـ لو توفّرت المصادر لدرست «الحلقة الخضراء في الطبيعة: كيف بدأت، كيف تطورت، ولماذا لم تواصل مسيرتها؟»

ردّ أبو مكرم، وبدا أقرب إلى الحزن:

ـ لا تتفاءلوا كثيراً يا جماعة الخير، لأنّ صمت الإدارة وراه مقلب، والجماعة أبد ما راح ينسوا.

قال رضوان:

ـ المكاسب التي تحققت للسجناء اندفع عليها دم، وما هو من السهل انتزاعها.

ردّ حامد، ولم يتطلع إلى رضوان:

ـ ما نعيشه وما نشوفه اليوم غمامة صيف، وأبد ما لازم ننخدع!

لم تكن هذه مشاعر حامد زيدان وحده، كانت مشاعر الكثيرين أيضاً، لكن السجناء كالمرضى تماماً، إنهم يصدقون كل شيء بطيبة مذهلة، أو بالأحرى يصدقون رغباتهم وأوهامهم، كما أنهم سريعو التغيّر. فالقناعات التي قضوا الأيام والليالي من أجل الوصول إليها، وافترضوا أنها صلبة شديدة الرسوخ، لا تلبث أن تنهار في لحظات، إذا طرأ أمر لم يكن متوقعاً أو محسوباً.

فالنقيب الذي غاب، كعادته، بعد ذلك اليوم، وتأكّد عدد من السجناء أنه مريض، نتيجة ارتجاف اليد التي كانت تقبض على المسدس، وارتجاف الوجنة اليسرى بشكل عصبي، ثم حالة الشرود، حتى أثناء المفاوضات، جاء مَن يؤكّد أنه رفض نقل المساعد بسيارته إلى عيادة الطبيب، أكثر من ذلك قيل إنه لم يخفِ سروره بعد أن سمع رواية المساعد، ثم تصحيحات العناصر كيف ضرب، وكيف داسته الأرجل!

ولأنّ لجنة للتحقيق لم تصل إلى السجن تأكدت الإشاعة أن النقيب لم يرفع تقريراً بما حصل، ولذلك اعتبر الأمر قضاء وقدراً ولا يستوجب بالتالي إبلاغ الإدارة!

والعريف ادريس الذي تحسّب كثيراً، وأصبح يداري خوفه بطول الغياب، وأنه لا يرى ولم يسمع، عكس الوضع الذي كان يتخذه أثناء إجازات المساعد لإثبات وجوده، فهو الآن شديد الارتباك، إذ لا يعرف المدى المسموح به للتساهل من أجل استرضاء السجناء، وما هو حجم القسوة التي لا تجعل السجن يثور، وهذا ما دفع السجناء العاديين لوصفه «السويعاتي» بحيث انطبق عليه اللقب أكثر من اسمه الحقيقي، وسوف يُعرف في الأوراق الرسمية خلال فترة لاحقة «الملقب الساعاتي» بعد أن جاء سجين ماكر وأقنعه بأن يتكنى بهذه الكنية بعد أن حُرّفت قليلاً!

قال العريف بعد أسبوعين من «المعركة» في محاولة للاتفاق مع السجناء:

ـ يا جماعة الخير.. أنتم محكومين ونحن موظفين مأمورين، ولو الإدارة ما بعثت بكم لهذا السجن ما شفناكم ولا شفتونا، ونحن، أولها وتاليها، لا بينا ثار ولا دم، فإذا الله هداكم وصرتم عاقلين ما راح تشوفوا منا إلاّ كل خير، فخلونا نقرا الفاتحة!

نظر السجناء إلى بعضهم ونظروا إليه: «أهو نفس العريف ادريس الذي نعرفه»؟

سأله الداوودي:

ـ واللي يخون يا عريف؟

ـ ما وصلنا إلى حد الخيانة، يا أبو عبدالله!
سأله رضوان:
ـ هذا الكلام من عندك يا عريف ادريس، أو موقف الإدارة؟
رد وهو يرفع يديه بضيق:
ـ اتركونا من سين جيم يا أولاد الحلال، وأنا اعطيكم كلمة، وبعدها جربوا واحكموا.
قال الداوودي وهو يبتسم:
ـ الله يذكرك بالخير يا أبو راشد، لأنّه دائماً كان يقول: اسمع كلامك يعجبني أشوف أفعالك أتعجب!
قال أحد السجناء من خارج الحلقة الملتفة حول العريف:
حط ايدك على شواربك يا عريف وقول بالهشوارب!
وقف غاضباً بعد أن سمع عفطة، وقال بانفعال:
ـ الظاهر انكم لا مصلين على النبي ولا تعرفوا مصلحتكم.
ـ خليك يا عريف، لأنّك بعد لم تسمع الجواب...
هكذا قال الداوودي، في محاولة لاسترضاء العريف، فردَّ:
ـ أنا اللي عندي حكيته، وأنتم فكروا بالموضوع، فكروا يوم، اثنين، والمسألة ما هي كونترا وشوارب وأيمان، المسألة سلوك ومعاملة!
قال صادق الداوودي قبل لحظات من دخولنا إلى المهاجع:
ـ هذا حكي شرطة، يا جماعة، والعريف كل يوم برأي...
وقبل أن يودعنا:
ـ طلبوا منه يقول كم كلمة حلوة حتى يدوخنا، بس بكرة إذا تدردبوا علينا عند وجه الصبح لا تستغربوا ودائماً الحق علينا!
في الليل، ونحن في المهاجع، قال أبو مكرم، وكنا نستعيد أقوال العريف:
ـ المسألة فعلاً مثل ما قال: لا كونترا ولا شوارب، مسألة سلوك، ونحن نريد سلتنا بلا عنب، لكن مهمة السجن، خاصة مثل سجن القليعة، أن تكسر السجين، أن تذله، فإذا ظلت الأمور بهذا الشكل فنحن بألف خير!

قال رامز، وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لا يدوم سرور!

ردّ رضوان بانفعال أقرب إلى الغضب:

ـ نشّف البحر يا سيدي، وسدّها أكثر مما هي مسدودة!

ـ البحر ملان والعيون جارية، يا رضوان، بس، لعلمك، هذي الهدنة لن تطول والأيام بينا.

قلت في محاولة لإنهاء الموضوع:

ـ خلونا يا جماعة «نتمتع» بهذي الهدنة إلى أن يرجع خ.خ أو إلى أن يفيق النقيب، وبعدها لكل حادث حديث!

ولا أعرف كيف عاد الموضوع، وبحماس أيضاً، إلى اللون الأخضر، «الخالد»، كما وصفه رضوان، خاصة بعد ملاحظات غنية وطريفة، وبعض الأحيان لا تخطر على بال شاعر، وقد تقدم بها عدد من المتحمسين في المهاجع الأخرى!

في أحد الأيام المبكرة من شهر تموز بدأت تتوارد الأخبار أن المساعد سيعود! نقل واحداً من هذه الأخبار اسماعيل حمدو، فقد همس في أذن أحد السجناء من المهجع الثاني: «احتاطوا» وحين لم يفهم ذلك السجين، وبعد أن وضع حمل الحطب عند موقد الطعام في المطبخ، وتطلع إليه، أضاف:

ـ الجماعة ما لهم شغل إلاّ يحدّوا السكاكين، والمساعد راجع بين يوم والتاني، وحادّ أسنانه، فانتبهوا!

وتظاهر السجين أنه لم يفهم، احتد اسماعيل حمدو وقال:

ـ بالعربي الفصيح، الجماعة ناوين عليكم فاستعدوا، خلوا عندكم كم عصا، كم قضيب!

واستعد السجن.

وقبل أن ينتصف تموز عاد المساعد!

مرّ، نظر، هزّ رأسه، تحركت شفتاه، وأكمل طريقه.

في اليوم التالي فعل الشيء ذاته، ومضى.

قال السجناء العاديون، خلال فترة التنفس:

ـ انتبهوا يا شباب: في السجن ريحة شواط!

وحين صمتنا، لا نعرف كيف نجيب، أضافوا:

ـ الشرطة، لا يحللون ولا يحرمون. واللي يقع بين أيديهم الله يستره!

سمعنا ولم نعلق. قال الداوودي، وكان يتحدث لحامد زيدان:

ـ إذا نادوا عليك فأنت مريض..

وبعد قليل، وبمرح:

ـ شلونك يا أبو مكرم؟ بعدك مريض؟

وأضاف صادق الداوودي، كأنّه يحدّث نفسه:

ـ هذول ما يحبوا يجتمع اثنين، حتى لو كان الرجّال ومرته، لأنّ كل اثنين لازم يحكوا عليهم، ورايدين يستفردوا الواحد حتى يمصوه، فإذا انمصّ يسووه طُعم لغيره، شرطة..

قال حامد بطريقة متعاطفة ونبيلة في آن واحد:

ـ يا أبو عبدالله كلنا ضحايا، يجوز الواحد أكثر من الثاني، ويجوز الأسباب مختلفة، لكن الجماعة لا يرتاحون إلاّ إذا ركعنا، وأنا، وهذا بينّا، يا أبو عبدالله، ما عاد عندي شيء أحرص عليه، ومثل ما قالوا: ما عاد في العمر قد ما مضى، ولذلك لا أخاف أي شيء!

ردّ صادق الداوودي بحدة:

ـ أبو مكرم.. لا تغلط..

وبعد قليل:

ـ عمري عمرك، يجوز تكبرني سنة، أو أكبرك سنة، لكن المشكلة أنه قبل ما نموت لازم نموتهم، لأن حرام نروح قبل ما يروحوا!

ـ يا ريت، يا رجال، لكن..

ـ لا يا ريت، ولا كلام فاضي، فأنا ناوي عليهم قبل ما ينووا عليّ...

ابتسم، وتابع كأنّه يستدرك:

ـ عمي.. أنا لا أفهم بالسياسة، وما لي علاقة، لكن هذول مجرمين، همهم يذلوا الناس، وأنا، والشهادة لله، مستعد أسوي كل شيء حتى اذلّهم،

حتى أنتقم منهم، أمّا يموّتونا مثل الخرفان، فلا، وهذا يمين عليّ، والله الشاهد.

قال أبو مكرم بحزن:

ـ المعركة، يا أبو عبدالله، ما هي بسجن القليعة، ولا هي بسجن العفير، المعركة أكبر لأنها تعني كل الناس، وإذا الناس ما اشتركوا، ما كانوا موجودين، ما في فائدة.

ـ يا أخي احسبني لا أعرف أي شيء، لكن مثل ما يقول الاختيارية، اضربهم على الوجع، لأنّهم إذا انضربوا بهذا المكان يحسوا، يفيقوا، أما عيني وآغاتي ما راح توصل لأية نتيجة، وهذا يطمّعهم أكثر فينا.

رد أبو مكرم بيأس:

ـ القليعة آخر نقطة في هذا الوطن، وأي شيء يحصل فيها لا يحس به أحد، لا من عرف ولا من دري، فلازم الضرب يكون في الخاصرة، والخاصرة عمورية، إذا ضرب الواحد هناك يخافوا، يهتزوا، أما غير هيك فوهم.

ردّ صادق الداوودي:

ـ السجين، يا أبو مكرم، مسيّر ما هو مخيّر. الواحد منا لا اختار هذا المكان ولا حبه، لكن هم اللي فرضوه علينا. وما دمنا موجودين لازم نخرمش، لازم نقول لهم: مهما بعدنا فنحن موجودين. ويا ريت الناس، هناك، عندهم آذان تسمع وعقل يفكر، لكن أغلب الناس، مع الأسف، كل واحد: يا نفسي!

وإذا كانت المناقشات في أماكن أخرى تنتهي إلى نتائج، فإنّها في السجن لا تحاول ذلك أغلب الأحيان. إنها تمارين للذاكرة واللسان، وأيضاً لتزجية الوقت. كما أن أي حادث عرضي يثير فضول السجناء واهتمامهم، حتى الكائنات الصغيرة التي لا تثير انتباه أحد خارج السجن، تكتسب أهمية غير عادية بين السجناء. فالسلحفاة التي وصلت الساحة بطريقة ما تحوّلت إلى كائن يثير الدهشة والعجب: كم تزن؟ ماذا تأكل؟ وإذا أرادت أن تنام، هل تغيّر وضعها أو أعضاءها؟ وعشرات الأسئلة لا يُعرف كيف تخطر ببالهم!

وانطلاقاً من أي كلمة أو فكرة تبدأ مناقشات لا نهاية لها، وينقسم

السجناء إلى معسكرين، ويقسو كل معسكر على الآخر، ويتخلل ذلك التعريض والتحديات والنكات، ثم ينتهي كل شيء، كما بدأ.

حتى الوقت في السجن ليس له حساب واحد، فهو في الشتاء غيره في الصيف، في النهار غيره في الليل. ومع ذلك فإنَّ الأمر، في أحيان كثيرة، يثير الفضول والتساؤل. فإن يحرص رامز على الدقة، حين يسأله أحد عن الوقت، إذ يجيب، بعد أن يحدد الساعة، بالدقائق وأجزائها، مما يثير رضوان إلى أقصى حد. كان يعلق على جواب رامز:

ـ الساعة، حسب توقيت غرينتش، كذا وكذا من أجزاء الثانية!

وتتغير اللهجة، تصبح ساخرة:

ـ ستقلع الطائرة في تمام الساعة كذا.

ويلتفت إلى السائل ويقول:

ـ يا أخي نحن نسينا الأيام والشهور وأنت تسأل عن الدقائق والثواني!

ويتطلع إلى رامز وتصبح كلماته أقرب إلى الأمر:

ـ الله يخليك يا رامز سكّت لنا هذا الضمير الذي لا ينام، لأنه خلق في قلبي علّة، ولا تزعل مني إذا صبّحت في يوم من الأيام ووجدت الساعة بحّ: إمّا ضاعت أو انكسرت عقاربها أو بطّلت تتكتك!

يجيب رامز بجد لا يخلو من سخرية:

ـ هذه الساعة ليست لها علاقة بالزمن الحاضر، وإنما تحدد الماضي وتشير إلى المستقبل!

ونغرق في مناقشة حول الزمن والشعور بالزمن، وكيف تتبدل المقاييس تبعاً لحالة الإنسان ومكان وجوده، فمَن ينتظر يكون إحساسه بالزمن مختلفاً عن الذي يكون مع امرأة يحبها، عن الذي يتلقى الجلد!

قال رضا بنوع من التأفف:

ـ الظاهر أن ليالي الصيف تثير الشهوة للسفر والنساء، وما ساعة رامز إلاّ حجة!

ـ أتريد أن تحرمنا حتى من هذه المتع الصغيرة يا رضا؟

هكذا سأل رضوان، وأضاف:

ـ لم أعد أتخيل العالم الخارجي. حتى بيتنا انمسحت صورته من ذاكرتي، فما بالكم بالشوارع والبشر والحياة وراء هذه الجدران؟

قال رضا بسخرية:

ـ إذا كان هذا إحساسك، والأرض بعدها تحتك ما حميت، فما هو شعور هذا الجمل؟

وأشار إلى حامد زيدان، الذي أطرق قليلاً، وقال دون أن يركّز نظراته على أحد:

ـ المسألة لا تتعلق بالمدة، ويجوز بعض الأحيان، أن شعور السجين الجديد بالقهر والظلم أقوى من شعور المحكوم مؤبد.

ـ انت، يا عم أبو مكرم، وبعد هذه المدة الطويلة في السجن، كيف تتخيل العالم الخارجي، ما هو شعورك نحوه؟

هكذا سأل رضا من جديد. ارتبك أبو مكرم، ردَّ والحيرة تميز كلماته ووجهه:

ـ شعوري مثل شعوركم، ونحن صار لنا مع بعض فترة طويلة، وأظن أن لا فرق بيننا!

قال رضوان، كأنّه يخاطب نفسه:

ـ لا أتخيل نفسي أبداً أن أقضي نصف هذا العدد من السنوات، دقيقة بعد دقيقة، على توقيت ساعة رامز، ويوم بعد يوم، وبعدها تصير شهوراً وسنين.

ردَّ أبو مكرم بدعابة:

ـ أنا يا عمي تمسحت وما عادت فارقة معي!

ـ والله انت، يا أبو مكرم، أكثرنا شعوراً بالحياة، أي بالزمن، ومَن يراقب تصرفاتك، وطريقتك في التعامل، يظن أنك ستبدأ من جديد إذا أطلقوا سراحك.

قال رامز ذلك بانفعال ومحبة، فردَّ عليه حامد بدعابة أيضاً:

ـ يا عمي تعودنا، السياسة صارت بدمّنا، وما عندنا شغلة غيرها، ومثل ما قالوا: مَن شبَّ على شيء شاب عليه!

وآوينا إلى النوم في وقت متأخر، وانقضت ليلة أخرى. . . أو كادت.

ففي الصباح الباكر، وعلى غير العادة، دوى جرس الانذار. وأن يدوي الجرس يعني أمراً غير عادي، وعلى السجناء الاستيقاظ والاستعداد، ومَن يتخلف أو يتأخر توقّع عليه عقوبات شديدة.

بصعوبة نهضنا. كنا ننظر في وجوه بعض بتساؤل، لكن لا أحد يجرؤ على تقديم جواب، أو ترجيح احتمال على آخر. حتى الأسئلة التي يمكن أن تطرح في حالات مماثلة، لم نجد أنفسنا نملك شيئاً منها، وإذا تبادرت إلى الذهن أسئلة من نوع معين، فقد بقيت في الذهن دون أن تتحول إلى كلمات.

ارتدينا ملابسنا وبدأنا ننتظر. الدقائق ثقيلة قاسية. الصمت شامل موجع. السور الذي يواجه المهاجع أكثر صفرة من الأيام العادية، ربما لأن أنوار الصباح المبكر، والتي لم تنضج بعد، تنعكس عليه برخاوة. زرقة السماء، التي بين طرف منها، حادة، وكأنّه أُعيد طلاؤها من جديد. أمّا الطيور التي كانت تسمع أصواتها منذ بداية فصل الربيع، فقد صمتت هذا اليوم وبشكل متعمد، وقد يكون الخوف ما أجبرها على الصمت.

إن كل شيء مختلف في هذا اليوم التموزي الذي بدأ مبكراً بصافرة الإنذار. لم يقل هذا أي واحد منا، لكننا، كلنا كنا نحسه، كنا نلمح تضاريسه الخشنة، وربما أيضاً صوته الذي يشبه عواء مقلوباً!

وجاؤوا!

السجن كله جاء: النقيب، المساعد، العريف، والعناصر. حتى اسماعيل حمدو كان موجوداً، لكن على مسافة غير قصيرة من الآخرين.

وجاءت أيضاً مجموعة جديدة من العناصر، كنا نراها لأول مرة.

حتى أنور نور الدين الذي لم يلمحه أحد، في البداية، ربما لأنه لم يقف إلى جانب النقيب كعادته، انبثق فجأة، خاصة حين فرد دفتره وبدأ ينادي على الأسماء.

هجسنا، وإن لم نكن متأكدين، أنه تقرر نقلنا من سجن القليعة، لكن هذا الهاجس ظلّ احتمالاً خلال الفترة الأولى، لأنّ العادة أن نبلّغ لكي نستعد ونجمع حاجاتنا. لم يفعلوا ذلك هذه المرة.

وإذا كان هو النقل فهل يحتاج الأمر لصافرة الإنذار وكل هذا الحشد من الناس؟

والنقيب، والمساعد، هل يمكن أن يقرأ الإنسان في ملامحهم أو تصرفاتهم ما يشي باحتمال أقوى من غيره؟

كان النقيب، رغم الحزم البادي عليه، شارداً، وكأنّه متعب أو لم ينم ما يكفي، وكان يتلفت كثيراً، ذات اليمين وذات اليسار، وكأنّه يلتمس العون من الذين حوله. أما المساعد فإن النظر لا يخطئ في تمييز ذله وانكساره، لكن هذا هو الوقت بالذات الذي يمكّنه من فرض نفسه، دون قناعة من أي نوع لاستعادة اعتباره بنظر الذين يعرفونه أما الذين لا يعرفونه فقد يؤخذون بحركاته وبطريقته في التصرف.

أية ملاحظات لا تكفي. كما أن الوقائع تتلاحق. إذ بعد أن بدأ أنور نور الدين، بصوته الحائر، ولا يعرف إن كان صوت رجل أو صوت امرأة، ولا بد أن يخطئ مَن يسمعه عبر الهاتف أو من وراء ستار. وازاء صرخة المساعد، بعد نظرة من النقيب الذي لم يكلف نفسه بإعطاء أية تعليمات عملية بأن يتقدم مَن ينادي عليه خطوة إلى الأمام، مع أننا لم نكن نحتاج إلى مثل هذه التعليمات، وبعد أن انتهت المناداة على الأسماء، التفتُ فرأيت رضوان وأبا مكرم وأحمد وماجد، إضافة إلى رامز، في بداية الرتل الخلفي لم يناد على أسمائهم.

قال النقيب، ولأول مرة نسمع صوته، منذ وقت طويل:

ـ الأسماء التي أعلنت الآن هي وجبة المنقولين الأولى، وستلتحق الوجبة الثانية خلال الأسبوع القادم...

هزَّ رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ على الرتل المتقدم أن يهيّئ نفسه خلال نصف ساعة.

التفت إلى المساعد، وبإشارة متفق عليها، صرخ المساعد:

ـ الرتل المتقدم: إلى اليمين، إلى المهاجع، والاستعداد للانطلاق.

ونحن نستدير، ونحن نتحرك، كنا نخلّف أجزاء أساسية من الحياة، من قلوبنا. كنا نمشي ونتلفت، كنا نمشي بصعوبة، ولا نعرف هل نواصل أو نتوقف، وهل نترك رفاقنا ونمضي؟

كان المساعد مثل ديك يافع، كان يرقب الذين يسيرون والذين بقوا، ولا يعرف هل يتابع المتجهين إلى المهاجع ليتأكد من وصولهم، أم يبقى مع الذين تأجّل «ترحيلهم».

في المهجع، ونحن نجمع الأسمال الممزقة، وبقايا الأشياء، من الخرز ومسابح نوى الزيتون، إضافة إلى المزامير والقطع الخشبية، كنا نشتم، نحتج، نتألم. لا أعرف إن بكى أحد منا، لكن صدورنا كانت محصورة، ضيقة، جافة، إلى درجة لم نعش حالة مثل هذه منذ وقت طويل. تصوروا... هذا السجن النائي، المنسي، البعيد إلى أقصى حد، ومع ذلك لا يمكن اقتلاعنا منه بهذه السهولة. صحيح أن الكراهية التي نكنها للمكان لا تماثلها أية كراهية، لكن الإنسان لا يمكن أن يترك يده أو أي جزء منه هكذا ويمضي، دون أمل، دون عودة! هل نقوى على ترك هؤلاء الخمسة؟ وماذا نستطيع الآن؟ كيف يجب أن نتصرف؟

أشياؤنا الصغيرة، التافهة، التي يمكن أن تُجمع خلال لحظات، كما في حالات التفتيش، أو التي يمكن أن تداس، أو أن تُرمى، دون شعور بأي ذنب، في أوقات اخرى، استغرق وقت طويل للمّها، لجمعها، لأن تصبح، مرة أخرى، جزءاً منا.

جاءنا العريف ادريس، وبدا قوياً شامخاً:

- يا رايح كثّر ملايح، ويمكن الأحسن، في الساعة الأخيرة، أن تسمعوا منا كلمة. «في امان الله، الله ويّاكم»، فلازم تستعجلوا، لأنَّ النقيب ضاقت روحه!

نتطلع إليه بأطراف أرواحنا، لأنَّ الأطراف الأخرى مع الذين يبقون. نجمع قطعة من هنا وقطعة من هناك. ننظر إلى قطع الخشب التي لازمتنا فترة طويلة، ننظر إليها من جديد: «هل تصلح تمثالاً، مزماراً، عصا؟» ونلقي، ونجمع، تماماً كالعميان في غابة، لا نعرف كيف نتصرف. نتذكر دقائق وثواني رامز. تخرج الكلمات والأفكار دون اتفاق:

- يا عريف تحملتونا ستة أو سبعة شهور، فهل ضاقت صدوركم بكم دقيقة؟

ـ صدورنا تحتمل، لكن صدور غيرنا، النقيب والمساعد والذين ينتظرون!

أما كيف تتحول اللغة إلى مجرد شتائم، لأن وحدها الشتائم التي تعبّر عن الحالة، وحدها التي تقول الحقائق، دون خوف، دون مواربة، فلم أكن أتصور أن لغتنا ضيقة، خانقة، فقيرة إلى هذه الدرجة.

قال رضا بطريقة تراجيدية:

ـ اتركونا. دعونا نبكي حياتنا أو ما تبقى من هذه الحياة!

وحين تراجع العريف فزعاً، أضاف رضا بحدة أكثر:

ـ جئنا معاً وكان يجب أن نعود معاً، أمّا هذه المؤامرة، أن تبقوا عدداً من رفاقنا، فإنّها الخيانة، ولن نغفرها لكم، ولو بعد ألف عام.

قال العريف بطريقة مرتبكة:

ـ قوائم المنقولين، والسيارات!

صرخ به رضا:

ـ اخرس. أنت واحد من القتلة!

في وقت ما انتهينا. لا أعرف كم استغرق ذلك وفق ساعة رامز، لكن المساعد، في لحظة ما، ظهر. بدا مثل ديك مطر ربيعي منعش، وكأنّه يقول لنا: «مهما تأخرتم في جمع بقاياكم فأنتم راحلون، أمّا الذين يبقون فإنّهم سيدفعون الضريبة كلها» قلنا لأنفسنا، لبعضنا: «لا فائدة من المقاومة الآن، لأنها إضافة إلى كونها متأخرة، فهي غير مجدية»!

كنا نحمل البقج والأكياس البائسة، ونحن نتجه، مرة أخرى، إلى الساحة. دون اتفاق، دون إيعاز من أحد، وفي اللحظة ذاتها، ألقينا تلك «الأحمال» وهجمنا على الذين بقوا. كالعشاق، كالذين يذهبون إلى الموت، كالأطفال الذاهبين إلى لحظة الفرح، تعانقنا. بكينا، تبادلنا الوصايا، قلنا أشياء كثيرة دون معنى، وقلنا أشياء ذات معنى وقيمة.

لا أتذكر، أو لا أريد أن أتذكّر، لكن كلمات حامد زيدان، أبو مكرم، سوف تبقى في قلبي، في عيني، ومحفورة على الأضلاع أيضاً، ولآخر أيام العمر، قال:

ـ شدوا حيلكم، ولا تخافوا علينا، المهم أن تحافظوا على أنفسكم، أن تبقوا أقوياء وشجعاناً!

وبطريقة أقرب إلى الفوضى، رغم المحاولات المشدّدة لأن نكون نظاميين، حملنا أشياءنا، وبدأنا نغادر. غادرنا الساحة أولاً، ثم الدهليز المسقوف، ووصلنا إلى الساحة المكشوفة، أما حين فتحوا البوابة، وبدأنا بالصعود إلى السيارات، فقد شعرت أني تركت قلبي، جزءاً منه، في هذا المكان، الذي كان يبدو لي طوال الشهور الماضية أكثر الأماكن كراهية.

وأتذكر أن حامد زيدان، رامز، رضوان، أحمد، ماجد، وهم يلوحون لنا، في الساحة الداخلية، كانوا مثل علامات الطرق، مثل منارات الموانىء، مثل الطيور التي تقول أشياء كثيرة، بصمت!

وغادرنا سجن القليعة!

وماذا أقول لكم أيضاً؟

لا أريد أن أسليكم بأن أروي قصص السجن، فهي كثيرة وموجعة، وستبقى تتوالد وتتراكم ما دام السجن موجوداً وما دام الجلاد؛ وأنتم تعرفون أن السجن كجهنم، لا يشبع، والجلاد لا يعرف التعب، إلى أن ينتهي، إلى أن يصبح هو ذاته ضحية، ثم يصبح بعد ذلك قصة تروى!

ولا أريد أن أبتزكم لأستدر عواطف الشفقة عندكم، فأنا بمقدار ما أكره السجن أكره الشفقة، لأنّ هذه العاطفة، ثم الخوف الذي يليها، من الأسباب القوية التي جعلت السجن يستمر حتى الآن. فواحدكم، بعد أن يحزن، وقد يذرف الدموع، يضع رأسه على الوسادة وينام، متوهماً أنه أدّى واجبه، وأنه نجا، وقد يشعر بالسعادة التي تصل درجة الغبطة، لأنّه لم يكن الضحية!

واخيراً، لا تخطئوا أبداً ولا تتوهموا أنني كنت أريد أن أُعذّبكم وأنا أروي تلك القصص، إذ ليس من هواياتي تعذيب الآخرين بعد أن ذقت طعم العذاب، وعرفت كيف يتحول الإنسان إلى وحش وهو يدخل إلى ذلك النفق المظلم.

إن قلبي الآن متعب ومملوء بالجروح. فبعد ذلك اليوم التموزي، ثم ما تلاه من أيام قاسية مثله أو أقسى منه، لا أعرف ماذا حصل لي. أصبحت شديد الحزن، متشائماً، وأخذت الوساوس والهموم تلاحقني، كما أصبحت سؤالاً دائماً: لماذا وكيف تحول الناس، معظم الناس، إلى جلادين وضحايا

في آن واحد؟ ليس بنيتي تمويه الأمور أو تغييب الحقائق، ولا يخطر ببالي لحظة واحدة أن أجعل الجلاد موازياً أو مماثلاً للضحية، ولكن هناك جذراً للأخطاء والتشوهات جعل الناس هكذا.

أقول لنفسي بعض الأحيان: هل بلغ الخراب في روحي إلى درجة أن أصبح كالمتسول أعرض أمام الآخرين جروحي وقروحي لأدلل على مدى ما عانيناه، ولأقول لهم: هذا ما أصابنا اليوم وغداً سيأتي دوركم؟

وما الفرق بين السجن المركزي والعفير والقليعة وعشرات السجون الأخرى إذا ظلت روحنا هي السجن؟

وإذا ذكرت لكم ما حصل بالنسبة لحامد زيدان، ورضوان، ورامز، بعد أن غادرنا سجن القليعة، فهل هذا سيزيدكم اقتناعاً بصحة هذا الموقف أو ذاك، وبضرورة التعاطف مع هذه الضحية أو تلك؟ أتريدون مزيداً من الحقائق والوقائع والآهات لتكونوا أكثر وعياً أو أكثر نبلاً وتدركوا ما يجري حولكم؟

وغابة الجنون التي وعدتكم أو هددتكم بها... ألم تروها؟ ألم تصلوا إليها بعد، أم أنكم الآن في وسطها تعيشون؟

تدركون وأنا أروي لكم الآن، وربما ذكرت هذا من قبل، أنني حرّ طليق، وأنني أقيم في باريس، ولم يعد السجن إلا ذكرى، والذكرى ذاتها تبتعد يوماً بعد آخر وقد تنسى. وسوف أحاول التكيف مع المحيط الجديد، وقد أعود إلى الحياة الطبيعية مرة أخرى. وماذا يمنع أن تكون لدي مشاريع جديدة أو طموحات؟ فإذا شعرت بنوع من التردد أو التهيب أقول لنفسي، في محاولة للتغلب على آخر الموانع: «اترك الماضي، انسه، وابدأ الحياة من جديد» اعتماداً على نصيحة ذلك المصلح، والمشعوذ الأمريكي، الذي تفرّغ لكي يقدم للناس النصائح ويتلقى عليها مقابلاً. كان يعلمهم: كيف يكسبون الأصدقاء، كيف يجمعون الثروة، وأيضاً كيف يخلّفون القلق وراء ظهورهم ليبدأوا الحياة من جديد!

هل ذكرت لكم شيئاً مثل هذا من قبل أم أنّني أتوهم؟

تختلط الصور والأزمان في ذاكرتي إلى درجة لم أعد أُميّز، كما فقدت القدرة على إعادة جمع الشظايا أو إعطائها نسقاً يمكن أن يفهم.

قد تستغربون طبعي النزق، وأيضاً المتقلب؛ وربما تبدو الحدة في مواقفي وتصرفاتي تجاه الأشخاص والأشياء غير مفهومة بنظركم، أو على الأقل بنظر بعضكم، ولا بد أن تحاروا في تفسير هذا الغضب الذي صار جزءاً من تكويني، وحتى ملامحي!

لا يهم. لأكن أي شيء بنظركم، ويمكن أن تعطوني الأوصاف التي تشاؤون. لن أعترض عليها ولن أناقشكم، لكن، بالمقابل، أطلب منكم أن تجيبوا أنفسكم، ولا أطلب منكم جواباً من أي نوع: هل تستحق الحياة أن تعاش إذا تحوّل الإنسان إلى دمية، إلى كرة تتقاذفها الأرجل بسخرية وإذلال؟

ليس ذلك فقط: كيف يسوّغون لأنفسهم، وكيف يبررون، قتل إنسان أو تشويه جسده وروحه، علماً بأنّهم لم يعرفوه من قبل، لم يروه، ولم يسئ لهم أيضاً؟ أكثر من ذلك، هذا الشخص الذي قتلوه، شوهوا جسده وروحه، قد يكون أقرب لهم من الذين أوعزوا إليهم، وربما لو أُتيحت الفرصة لأن يجتمعوا في مكان، عند ضفة نهر أو بالقرب من نبع، لاكتشفوا كم من الأشياء تجمعهم، وكم من الهموم توحّد بينهم!

في محاولة لإقناع ضمائرهم، لكي لا يموتوا، يقولون لهم: الاختلاف!

ولكن هذا الذي قتلوه لم يقاتلهم، لم يقاسمهم، ذنبه الوحيد: أنه فكّر، نعم فكّر، أن صيغة أخرى، ربما، يمكن أن تكون أفضل من أجل حياة الناس. . . في المستقبل!

لكي لا أكون منظّراً أو واعظاً أقول لكم بضعة أشياء قبل أن نفترق ويمضي كل إلى سبيل!

عدنا إلى السجن المركزي، أو بالأحرى أعادونا. لا تتصوروا أنني سأُواصل الحديث من حيث انقطع ولكن لأقول لكم إن الحاج مصطفى كان هناك، وسوف أروي عنه شيئاً الآن، أو بالأحرى أُعيد ما قاله أحد السجناء عن الحاج حين رآه يوماً يضع أذنه على الجدار باهتمام ويتنصت، إذ ما كاد يرى الطبيب يمر حتى طلب منه أن يفعل مثله، استجاب الطبيب، وبعد قليل التفت إليه وقال: لم أسمع شيئاً يا حاج، فردَّ عليه الحاج مصطفى: هذا الصمت هو ما يحيرني ويحزنني، يا حكيم!

وأنا، الآن. هذا ما يحيرني، ويحزنني أيضاً!

كيف تغيّر الناس، من أين حصلوا على وهم الرضا الذي يعيشون فيه، وكيف لم يدركوا بعد ما ينتظرهم غداً؟

أحاول أن أتذكر، لكن لا أصل إلى جواب!

وإذا تبقى لنا بعض الوقت، وكما يقول الرياضيون، فسوف يلعب الفريقان بدل الوقت الضائع، فإذا تعادلا ستمدد المباراة، وإذا استمر التعادل فإنّ ضربات الجزاء ستحسم المباراة وتحدّد بطل الدوري لهذا العام. . . أمّا الأعوام الأخرى. . .

جودت يعقوب، آمر السجن المركزي، ترفّع خلال غيابنا، أصبح رائداً! والرائد في قول كريم لا يكذب أهله! ما كاد جودت يرانا، وقد وصلنا عند العصر، حتى نظر إلينا بتأمل، وكان يضع يديه خلف ظهره، وكانت أزرار قميصه مفتوحة. استمر يتأملنا وقتاً غير قصير، وكأنّه يرى طيوراً نادرة أو مخلوقات غريبة. ابتسم، وكانت ابتسامته أقرب إلى الفرح، وقال بطريقة مسرحية لا تخلو من إتقان وود:

ـ يا هلا بالشباب، شرفتوا. . .

وبعد قليل، وهو يتقرب منا أكثر، وكأنّه يعايننا:

ـ فترة النقاهة فادتكم: مربربين ووجوهكم مرتاحة. .

وضحك بمرح وهو يضيف:

ـ طبيعي أن تربربوا ما دمتم شتيتم في العفير وصيّفتم في القليعة، هذي لأبوي ما صارت!

وكان أبو سمير موجوداً، قال له بطريقة ساخرة:

ـ لازم نزوجهم. . يا أبو سمير!

ردّ المساعد، وخرج صوته ابحاً ثقيلاً:

ـ يلزم لهم، سيدي: حلق ونتف وعقيدة نسوان، لأنّ اللي شايفهم صاروا خصيان!

ـ كلهم؟

ـ يجوز فيهم كم واحد بعده معنتر!

ـ تول أمرهم يا أبو الأيتام!

صرخ المساعد:

- اصطفاف.

اصطففنا في رتل واحد. كنا مطيعين وشديدي الانتظام. صرخ مرة أخرى:

- تعداد.

وبدأنا، الواحد بعد الآخر، العدّ. كنا خمسةً وعشرين، قال الرائد، بملل لم يستطع أن يخفيه:

- الخمسة وكل مضاعفاتها خطوة للأمام. . .

لأول وهلة لم نفهم. أوضح بعصبية:

- متعلمين وسياسيين ولا تعرفون الخمسة ومضاعفاتها، ها؟

وبدأ العد بطريقة بدائية: واحد، اثنين، ثلاثة، اربعة، خمسة. انت. وبعدها العشرة. . إلى آخره، فهمتم يا تيوس؟

وبطريقة لا تخلو من الارتباك والخطأ تقدم الذين يعنيهم الأمر، وإن وقعت بعض الأخطاء، لأنَّ اثنين تقدّما ثم أُعيدا إلى الصف الخلفي. قال الرائد بطريقة حازمة:

- كان بودنا أن يُقسم العدد على رقم أصغر، لكن هذه إمكانياتنا، وانشاء الله نعوضها في مرات قادمة!

والتفت إلى المساعد:

- المهجع رقم 7، والباقي عليك!

انقسمنا إلى رتلين: الأول إلى المهجع، وأُخذ الثاني إلى السرداب!

لم يكن رقمي خمسة أو مضاعفاتها، ولذلك كنت من الذين توجهوا إلى المهجع.

ما كدنا نجتاز المشنقة ونتقدم إلى بوابة اليسار، وما كاد يرانا الحاج مصطفى، حتى صاح بطريقة أقرب إلى العواء:

- ربي الله، الله امان ربي!

وهجم علينا كما تهجم الخراف الصغيرة المحجوزة على أُمهاتها بعد أن تعود من المرعى.

لا أتصور أن شوقاً، حباً، رغبة، حنيناً، جنوناً، يشبه تلك اللحظة.

كان يعانقنا، يبكي، يصرخ، يحتج، يضرب رأسه بيديه، يدور، يبكي مرة أخرى، يقبّل، يتمسح، يضرب على الأكتاف، ينظر.. كل هذه الأشياء كانت تجري بطريقة حيوانية، لكن أقرب وأقوى من أي تعبيرات أخرى. في لحظة انفعال، ولا أعرف مَن قال ذلك:

ـ حاج مصطفى... مرحا، مرحا، مرحا.

وقبل أن يستوعب ما قيل رد بانفعال أشد وأقوى:

ـ مرحا رجال قوة، رجال شرف!

وبعد قليل، وبطريقة صوفية، وهو يهز رأسه:

ـ الله، ربي، تمام حق!

سنعرف في وقت لاحق أن الحاج مصطفى سفّر خلال غيابنا مرتين... وأُعيد.. وسوف نكتشف أن المستشفى رفضت استقباله «لأنّ المومأ إليه تمّ شفاؤه، ولعدم وجود الشواغر» وأن السجن لا يعرف كيف يتصرف معه، فهو ليس سجيناً، والجهات التركية ترفض استقباله «لعدم وجود أوراق ثبوتية نظامية تذكر أن المطلوب تسليمه تركي الجنسية» وهكذا بقي، أغلب الوقت، في النظارة، ولم يكن يُعترض على تجواله في السجن من قسم إلى آخر.

بعد ثلاثة أيام سيعاد إلى مهجعنا «الخمسات»، كما سمّاهم الرائد جودت، وقد جاء معهم.

قال بطريقة متحدية:

ـ هنا العاصمة، وهذا سجن العاصمة. الواحد لو راح لآخر الدنيا لازم يرجع لهنا، وأنا، والحمد لله، ذاكرتي قوية، لا أنسى أبداً، وإذا الواحد منكم جاء على باله يعنتر، يتفلسف، ترى عندنا هنا من الابرة للطيارة، والشغل أربع وعشرين ساعة...

ويبدو أنه شتّ، إذ لم يعرف كيف يواصل، توقف قليلاً، مسح العرق عن جبينه، وتابع:

ـ السجن هذي الأيام مثل الساعة: انضباط ونظام وطاعة، فخل الواحد منكم يخلّص محكوميته ويفرقنا. أما إذا رجعتم، مثل حليمة، للعادات

القديمة: عرائض وإضرابات واعتصامات فلا تلوموا إلاّ أرواحكم، والمرة الماضية إذا اكتفينا أن زورناكم كم سجن، ترى أي مخالفة، مهما كانت صغيرة، راح يندفع عليها هذي المرة كثير كثير، فاهمين؟

ظللنا صامتين. لم يكن لدينا ما نقوله، ولم نكن في وضع نستطيع أن نقدّر بدقة ما جرى خلال غيابنا الطويل. حين وجدنا هكذا هز رأسه عدة مرات، ومضى.

ومن جديد أصبح المساعد أبو سمير نافذتنا على الإدارة. كانت الأسابيع الأولى مرحلة اختبار حاول كل طرف أن يكتشف حجم التغير عند الطرف الآخر، لكي يضع خطته، خاصة وأن إقامتنا هنا ستطول، ولا بد أن نصل، بشكل ما، إلى معادلة تمكّننا من التعايش والاستمرار!

يضاف إلى ذلك أنه رغم انتقالنا من سجن القليعة فقد ظلّت أرواحنا هناك، وكان حديثنا، أغلب الأحيان، يدور حول الذين بقوا.

سألنا المساعد ذات يوم:

ـ ما دامت الرسائل الواصلة والمرسلة مراقبة، وتطلعون عليها، فهل مسموح لنا أن نبعث برسالة إلى سجن القليعة؟

تطلع إلينا باستغراب أقرب إلى الذهول، وبعد وقت غير قصير:

ـ وعندكم طلبات غير هذه؟

ـ مجرد سؤال حتى نعرف كيف نتصرف!

ـ حتى تعرفوا كيف تتصرفوا؟ شو معنى هذا الكلام؟

قال نجيب ببراءة:

ـ تركنا بعض الأخوان مرضى، وفكرنا عندهم، وهدفنا أن نطمئن.

ـ اسمعوا.. أنا خلّعت ضراسي مع ناس من أمثالكم، الواحد منكم يتظاهر أنه بريء، مسكين، القطة تأكل عشاه، لكن ما يمر يوم والثاني حتى يستنمر! مطالبكم تبدأ بالكبريتة ورغيف الخبز وتنتهي بقلب النظام. وهذه القصة عارفينها وحافظينها...

استراح قليلاً، ثم تابع بلهجة مختلفة:

ـ شفرات السجن، وحيل السجناء نعرفها كلها: «نحن بخير وسلامنا

لكم» اللي يكتبها كل الناس، ولها معنى واحد في كل الدنيا، تصبح في السجن: «اعلنوا الاضراب» «قاوموا وجميع السجون معكم» وقيس على هذا الشيء...

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ لذلك ما أريد أسمع طلبات من هذا النوع ابداً!

وطوي الموضوع، على الأقل في الظروف الحالية. لكن ما حصل في غيابنا أن معظم، وربما جميع، ما تحقّق للسجناء من مكتسبات في فترات سابقة تمّ مصادرتها. إنها عادة تتكرّر في كل السجون وفي كل الأوقات، ما أن تنتصر الإدارة في معركة حتى تعتبر جميع ما تمّ تحصيله من قبل غنيمة لها.

ويبدأ السجناء من جديد، ببطء وصعوبة، حتى إذا تراكم شيء تمّ الاستيلاء عليه مرة أخرى مع أول هزيمة تلحق بالسجناء، وهكذا!

وبدأنا ننتظر من جديد، لعلنا نستطيع أن نحقق بعض المكاسب بمرور الزمن.

انتهى الصيف وأعقبه الخريف. لا شيء عن سجن القليعة، وأخبار العالم الخارجي ذابلة، بطيئة، وكأن العالم أو الحياة في حالة أقرب إلى الركود. حتى ما يمكن اعتباره مطلباً في بعض الأوقات كالراديو أو الصحف، فإنّه في أوقات أخرى لا يعني شيئاً، ولا يستوجب معركة.

وبدأ البرد، برد عمورية، وهو في الليل، خادع غدار، إذ فجأة يأتي، ويكون أشد وأقسى إذا جاء متسللاً. فبعد أيام متواصلة من الدفء، ولأن الأمطار تأخرت كثيراً، وبدا أنها سنة أخرى من سنوات القحط، هجم البرد، وهجم فجأة وبشكل ثقيل. وإذا كانت الأيام الدافئة تتستر على العلل القديمة والأمراض، فإنّ البرد يفجرها، يدفعها جميعها إلى الظهور، ثم إلى التفاعل، حيث يتحول السجن كله تقريباً إلى مجموعة من الأمراض. ورغم وجود الأطباء، فإنّ مهمتهم تقتصر على التشخيص، ولا تصل إلى حد المعالجة لعدم توفر الأدوية ، ولأن الإدارة تعتبر المرضى مثل الطلاب الكسالى: متمارضين ومحتالين، فلا تستجيب إلاّ لرأي طبيب الإدارة، وكان عادة يزور السجين مرتين في الشهر، وفي بعض الأحوال الطارئة. هذا عدا عن عقوبة المرض، وهي «هبة الله للإدارة»، كما قال ذات مرة الرائد جودت، حين توالى عليه

الإلحاح من أجل معالجة بعض المرضى!

سأعرف هذا النوع من المرض في وقت لاحق، ومدى ما يخلفه في الأجساد المتعبة والمقهورة من آلام لا تطاق. ورغم المطالبة والإلحاح، فإن بعض أطباء السجن لا يختلفون عن السجانين أنفسهم، إذ ينظرون باستخفاف أقرب إلى السخرية لما يقوله المرضى، وفي أغلب الأحيان لا يسمعون، وزيادة في التحدّي والإهانة فإنّهم يتكلمون مع الحرس، مع الممرض، والمريض مسترسل في الحديث عن الأوجاع التي يعاني منها!

في هذا الشتاء الذي دخل فجأة، وفي ظل الذبول المخيم على السجن، تقلّصت الحركة، وأخذت المساحات تضيق أكثر مما كانت ضيقة. أكثر من ذلك لم نعد نرى المساعد إلاّ نادراً، فقد كان يفضل أن يبقى قرب المدفأة. وإذا اضطر إلى جولة فكان يغرق نفسه في معطف ثقيل، لا أعرف كيف يقوى على حمله! وكان أيضاً يلف وجهه بحيث لا تبين منه إلاّ العينان. وبسرعة يمر على المهاجع، كواجب ثقيل، ويمضي، فقط ليؤكّد وجوده.

كما أن بوابات المهاجع تغلق مبكراً خلال هذا الفصل، ولا تفتح إلاّ في ساعة متأخرة من اليوم التالي. ورغم أن وضعاً مثل هذا يساعد على الدفء، إلاّ أن الروائح داخل المهاجع تصبح ثقيلة، وتسبب حالة من الخدر أقرب إلى الدوار، خاصة وهي تمتزج بالدخان أو بالغازات التي تتولد من ذهاب هذا العدد الكبير إلى المراحيض في وقت واحد!

كان الحارس حسن مجلي وهو يفتح باب المهجع يصرخ:

ـ والله ريحة الفطايس أحسن من ريحتكم، يا أولاد الحرام!

يقول هذه الكلمات وهو يحاول أن يبتعد. أما حين تهب النسمات الباردة ويتحرك الهواء كله، ولما ينهض الرجال، فعندئذٍ يحسون أكثر من قبل بالدوار والروائح معاً، وغالباً ما ينظر الواحد إلى الآخر وكأنّه يتهمه، ولينفي التهمة عن نفسه في ذات الوقت، ومع ذلك يبقى الجميع متهمين وأبرياء بنفس المقدار!

ولأنّ الأمزجة شديدة الاختلاف، والعادات التي تعودها كل واحد قبل السجن تختلف عن الآخرين، من حيث طريقة تهوية المهجع، أو المدة التي يجب أن يبقى الباب خلالها مفتوحاً، ثم ما يشترطه البعض من ضرورة حمل

الأغطية إلى الخارج، خاصة في الأيام المشمسة، كشرط للنظافة العامة، والتي تعني الجميع، أن هذه الأمزجة والعادات، والتي كثيراً ما يُحاول تمويهها أو التستّر عليها، غالباً ما تنفجر في مثل هذه الأيام. وكأن الشتاء أو هذا الطقس الملعون، سبَّب في تفجيرها، أو ظهورها بهذه الحدة، وبهذه الكثافة، مع ما تؤدي إليه من نتائج!

في هذا الجو الشديد البرودة والجفاف، لم يبق أحد، تقريباً، من السجناء، إلاَّ ولاحه المرض بمقدار ما، ولذلك فإنَّ حالة من التعب والكآبة سيطرت على السجن كله. كما أن ذكريات سجن القليعة طغت على ما عداها من الذكريات. هل يحصلون على الحطب؟ هل يحتطبون؟ والمساعد خ.خ، بعد أن غادرنا، هل انتقم منهم؟ وردود الفعل. . . هل استطاعت أن تمنع عنهم الأذى؟ هذه الأسئلة، وأخرى غيرها، ملأت مهجعنا تماماً، بل وخيِّل للكثيرين، في لحظات معينة، أو في الأحلام، أننا عدنا مرة أخرى إلى هناك.

في أحد الأيام الكئيبة من كانون أول، وكانت قطع الغيوم الهشة تمر فوق السجن بسرعة، كأنها مطاردة وتريد أن تهرب، أفاق السجن على حركة غير عادية، وأبكر من الأيام الأخرى. تطلعنا في وجوه بعضنا بتساؤل، خاصة وأن الحركة، وكانت ترافقها أصوات غليظة، ثقيلة، ولا تُفهم، تتزايد بمرور الوقت.

والسجناء مثل عادتهم دائماً: لديهم لتفسير أي حدث أو ظاهرة عشرات التفسيرات، ، فمَن قال: سجناء جدد، وهذا يعني أن الوضع السياسي تدهور، وربما تغير، مما أدّى إلى اعتقالات جديدة، ولا بد أن نسمع الأخبار! ومَن قال: حملة تفتيش جديدة، خاصة في مهاجع السجناء القدماء، ولذلك يجب أن يتحسب كل واحد منا، وأن يتأكد من عدم وجود الممنوعات. ومَن قال: عملية هروب كبيرة ومنظمة وهذا ما يستدعي التكتم في المرحلة الأولى، وإجراء تفتيش دقيق قبل إبلاغ الإدارة المركزية، ولذلك فإنَّ عمليات التفتيش بدأت ولا بد أن تصلنا في أية لحظة.

وكل احتمال من هذه الاحتمالات يستولد عشرات الأفكار والصور، ويُرتِّب نتائج من نوع أو آخر، ولا بد أن نستعد. وإذا كان الإنسان في الحياة العادية، خارج السجن، يعيش نصف حياته في أحلام اليقظة، فإنَّ السجناء

يحلمون بصوت عالٍ أغلب الوقت، كل الوقت. ولذلك كانت الحالة النفسية للجميع تراوح بين حدين متناقضين: بين التغيّر الذي حصل في الخارج وقرب الإفراج عنا، وبين عملية تفتيش مباغتة لا بد أن يدفع السجن، كل السجن، ثمنها، حتى لو لم يجدوا شيئاً واحداً ممنوعاً!

وإذا كانت العادة أن يفتحوا الأبواب في وقت معين، فقد انقضى ذلك الوقت دون أن تُفتح، لكن الحركة والأصوات لم تهدأ، ولم تتوقف. أكثر من ذلك كانت بعض الحركات إلى جانب المهجع تماماً، ولأنّها محاذرة، وتحاول أن تتخفى، فقد أخذ التشاؤم يطغى على كل ما عداه!

حتى الذين يجدون متعة في تقديم الاحتمالات وتفسير الظواهر، كفوا، فجأة عن الحديث، وقد شعروا أن الطرق التي سلكوها وهم يرجحون احتمالاً أكثر من غيره، تؤدي بهم إلى الضياع الكامل!

لا أحد يستطيع أن يقدّر التأخير إلى أن فتح الباب، لأن الزمن اختلف تماماً، وصارت له مقاييس من نوع خاص.

حسن مجلي، وهو يفتح الباب، وقد جاء وحده، فعل ذلك دون أن يتفوه بكلمة، بشتيمة، خلافاً لعادته. فتحه ووقف في مواجهتنا، خلافاً لعادته أيضاً. نظر إلينا، وكأنّه لا يرانا. حين نظرنا إليه، كانت حمرة خفيفة توشي العينين. لم نشأ أن نسأل، أو لم نجرؤ على السؤال، فقد خشينا أن تبدأ شتائمه، أو ربما ما يفوقها.

في لحظة ما حاول أن يمشي، لكنه يريد أحداً أن يسأله، أن يكلمه، فقد بدا أنه لا يقوى وحده على أن يحتمل السر طويلاً.

قال له نجيب بطريقة لا تخلو من ود:

- ما أنت على بعضك، يا أبو مجلي!

هزّ رأسه بلوعة وموافقة. سأله نجيب من جديد:

- خير يا أبو مجلي؟

- الاختيار، الحاج مصطفى، أعطاكم عمره!

- كيف؟ متى؟ شلون؟

- صبّحنا لقيناه ميت. يمكن البرد ذبحه!

وبعد قليل، وهو يستدير، بعد أن أزاح عن كاهله هذا الحمل الثقيل،

قال كأنّه يخاطب نفسه ويريدنا أن نسمع:

ـ الله يرحمه، ويرحمنا.

وقبل أن يغيب، ولأول مرة في هذا الشتاء الأجرد الفاصل، بدأت قطرات المطر تتساقط من السماء.

وظللنا، ذلك اليوم، في مهاجعنا، لم نغادرها، وكانت الريح في الخارج، وبين فترة وأخرى تهب، وكأنّها تذكرت الحاج مصطفى فأخذت تولول، وكانت السماء وهي تنزل القطرات القليلة، وكأنّها تذرف الدموع، وتتذكر أيضاً!

وهكذا ينتهي الوقت الضائع في هذه المباراة.

ويبدأ الشوطان القصيران... وقد لا نصل إلى ضربات الجزاء!

الليلة الأولى لموت الحاج مصطفى كانت شديدة الصعوبة، صحيح أننا لم نتكلم عنه طويلاً، أو بشكل متصل، لكنه ظلّ كامناً وراء كلماتنا، كان ينظر إلينا ويبتسم، وبعض الأحيان يغضب ويشتم، وحين نصمت نسمع قهقهاته أو نسمع بكاءه، قلت لنفسي، وأنا أُحاول النوم: «قد تكون هذه هي الليلة الأولى التي ينام فيها ذلك الحصان الهرم نوماً عميقاً متصلاً لأنه وجد، أخيراً، مكاناً يستقر فيه دون أن يزعجه أحد»!

ورغم ثقل الروح والأجساد المجهدة، فقد جفا النوم عيون الكثيرين منا تلك الليلة، كنت أغمض عيني لكي أنام فأجد أن النوم يهجرني، يبتعد عني، وكلما توغل الليل أكثر يبتعد النوم أكثر. قلت لنفسي، وقد اكتشفت هذه المفارقة: «النوم يتخلى عن الإنسان في إحدى حالتين: الحب أو الموت!».

وتذكرت: طيلة سنوات السجن، بأيامها ولياليها، ما عدا فترات التعليق والتعذيب والمنع من النوم بشكل متعمد، لم يكن النوم يتخلى عنّي. كنت أغفو، وفي حالات عديدة أنام كالقتيل، كما كانت تقول أُمّي، وهي تحاول إيقاظي لئلا يفوتني موعد المدرسة! هذه الليلة تختلف، فالحاج مصطفى يقف فوق رأسي بإصرار عجيب. وحين ألوم نفسي وأُحاول أن أنام لا أستطيع. أما إذا استحضرت حماقات الحاج، وتذكرت لقاءنا الأول لما وصلت السجن، لكي أقنع نفسي أن الأمر لا يستحق كل هذا العناء، فأجد أن شيئاً في داخلي يصرخ: «أهكذا تعاملون الموتى والأصدقاء الراحلين؟» وإذا تذكرت مشيته البطيئة، والصفرة التي تجعله أقرب إلى الموتى، في محاولة لأن أقتنع

بموته، ينظر بسخرية، ولا يتردّد في أن يمد لسانه ليقول دون كلمات: «لقد اختلت القيم والمقاييس حتى لم تعودوا قادرين على التمييز بين الموتى والأحياء!».

لما أحسست أنوار الصباح، قبل أن تلمسها عيناي، قلت لنفسي وأنا أستعد للنهوض: «لو أن الموت، أو الاحساس بالموت، يكون قريباً وقوياً بالنسبة للبشر، كما هو فعلاً، لأصبح الإنسان أرقى، لكن أكثر براعات هذا المخلوق، منذ أقدم العصور وحتى الآن: كيف ينسى أن الموت قريب منه هكذا».

نفضت النوم عني وجلست. تصوّرت أني أول المستيقظين، لكن الحركة حولي أكّدت لي أنني لست الوحيد الذي لم ينم، أو نهض في هذا الوقت المبكر. ومع ذلك، بدا لي سلوك الذين استيقظوا مشوباً بالخوف، أو مبالغاً باحترام الموت، فهم يحاذرون إزعاج غيرهم، وأكثر تهذيباً مما تعودوا، كما أنهم لا يريدون أن يسجلوا على أنفسهم خطيئة من أي نوع.

نجيب لم يكن بعيداً. قلت له همساً، لكن صوتي كان جافاً:

ـ الغريب، يا صاحبي، أن الموت يعيد صياغة البشر، ويجعلهم أكثر إحساساً بالحياة!

ردّ بتورية:

ـ الأفضل أن نترك الموتى يستريحون في قبورهم، أما إذا أيقظناهم فإنّهم ينزعجون ويفسدون حياة الأحياء!

ـ لماذا نهرب من الموت ما دام قوياً وكثيفاً هكذا في حياتنا؟

اقترب مني كثيراً، تجاوز الذي كان بيننا، وقال:

ـ اسمع يا عادل: الحياة هكذا، ولا يمكن لإنسان فرد، مهما كان قوياً وبارعاً، أن يعيد صياغة عقول البشر وعواطفهم لكي يصبحوا مثلما يريد. والإنسان، لكي يعيش ويستمر، عليه أن يتكيف، أن يصبح امتداداً لما هو قائم في القناعات المسيطرة.. وإلاّ تعب وأتعب الآخرين!

وبعد قليل، تغيّرت نبرة صوته:

ـ أعرف أن لديك من الأسئلة أكثر مما لديك من الإجابات، لكن سنجد ما نقوله في وقت آخر!

رددت بحدة:

ـ أنت بطل الحلول الوسطى!

تطلع إليّ بلوم، وعلق:

ـ يمكن أن تقول أي شيء الآن، لكن يجب أن تعرف: أبطأ شيء في التغير هو العقل، وبالتالي قناعات البشر، فإذا ارتبط الأمر بقضايا غامضة، خاصة بالموت، فعندئذ يصبح التغيير أصعب!

لم نكن نناقش، كان كل منا يفكّر وحده، وبالطريقة التي تلائمه، وإن بدا أننا نتكلم حول نفس الموضوع!

في الليلة التالية كان الأمر أخف وطأة، وكان الإجهاد قد بلغ منا مبلغاً لم يترك لنا خياراً، وهكذا، بعد أن تحدثنا في أمور كثيرة، ولم ننسَ الحاج مصطفى بطبيعة الحال، وإن أخذنا نسمّيه المرحوم، ولا نذكر اسمه، آوينا إلى النوم.

وإذا كانت اليقظة تعباً فإنّ النوم تعب أكبر. لم أقل لأحد ما حلمت به في اليوم التالي، ولم أسمع من أحد شيئاً حول ذلك. لكن في الأيام اللاحقة، ودون اتفاق، بدأ الكثيرون يتحدثون عن أحلامهم، وفوجئوا أن الحلم واحد أو متقارب. لم ينسَ أحد منهم أن يتحدث عن أُناس ماتوا، عن آبائهم وأمهاتهم، وعن إخوة وأخوات صغار رحلوا بشكل غامض. ولم ينسَ أحد أن يقول إن الحاج مصطفى كان موجوداً في هذه الأحلام!

لكن والأيام تتوالى بدأ يغيب الحاج مصطفى، وبدأنا نحن السياسيون ننشغل بالأمور «الكبيرة»، إلى أن فوجئنا أن القسم الآخر يغلي ويضج بالهتافات والصراخ.

إنه يوم من أيام السجن المشهودة، فالسجناء في ذلك القسم، ونتيجة ترتيب استمر لبضعة أيام، وبالاتفاق مع بعض الحرس، بعثوا لشراء ثلاثة رؤوس من الغنم، لكي تذبح في أربعين الحاج مصطفى. اشتريت الرؤوس الثلاثة فعلاً وجيء بها إلى السجن، وكان يمكن أن تعبر إلى قسم السجناء العاديين، وأن تذبح، كما جرت العادة، في حالات مماثلة، حيث استقبل ذلك القسم أضاحي العيد، وأغنام منتصف شعبان، واستقبل مرتين أو ثلاث مرات خرافاً ذبحت في ذكرى مرور عشرين عاماً على وجود حمدي أبو جلدة،

ونعيم زند الحديد، وصفوان خوفني. لم تعترض الإدارة، تماماً، على الأغنام وهي تدخل، والمناسبات التي ذبحت من أجلها. أو إذا أردنا الدقة: تظاهرت الإدارة أنها لم تر ولم تسمع، خاصة بعد معركة شنبور، حيث تصدّى السجناء العاديون لمتعهد التموين، وجرحوا وكيله، وحين تدخلت الشرطة وقعت معركة جرح خلالها خمسة أشخاص: ثلاثة من السجناء، واثنان من الشرطة، عدا إصابات أخرى خافية، تمَّ بنتيجتها السماح هنا للسجناء أن يؤمنوا التموين عن طريق متعهدين يختارونهم بأنفسهم، وهكذا أصبحوا قادرين على طلب ما يحتاجونه.

بعد معركة شنبور أو يوم شنبور كما أُطلق عليه، أصبح بإمكان السجناء أن يُدخلوا إلى السجن أشياء كثيرة، بما فيها سكاكين الذبح والسواطير، وآلات أخرى يحتاجونها. ولأن زعماء القسم أعطوا كلمة، ووضعوا أيديهم على شواربهم، فقد وثقت الإدارة، وقامت تقاليد ليس من السهل تجاوزها.

هذه المرة كان من الممكن، أو من السهل، أن تمر الخراف، لكن صدف وجود لجنة الجرد السنوي، وكان ضمنها المسؤول عن الشؤون الصحية، وقد اعترض على دخول الخراف لأنه لم يتم فحصها قبل الذبح! وهكذا تفجّر الموقف.

بدأت الهتافات عند الضحى، وحين بُحت الأصوات بدأت التهاليل، وأخيراً عند الظهر بدأت الأغاني البذيئة، والتي لم توفر فضيحة من فضائح السجن وخارج السجن!

وحين بدأت المفاوضات بين العصر والمغرب، قال ممثلو السجناء، كما ذكر لنا نامق أبو قمحة، جامع القمامة وهو يروي لنا بالتفصيل ما حدث:

«قال حمدي أبو جلدة للرائد جودت:

ـ اسمع يا ولد، صحيح أنا سجين، لكن كرامتي لا ابدلها بالدنيا كلها، وإذا ما كنت تعرفني منيح اسأل الأكبر منك، لأنَّ ما في أحد بالبلد، خاصة اللي عليهم قدر، إلاّ ويعرف أبو عزمي...

ولما حاول الرائد أن يتدخل، أن يعترض، صرخ به أبو جلدة صرخة زلزلته، قال له:

ـ تسكت حتى أكمل، لا كلمة، ولا نفس، سامع؟

ضحك الرائد في محاولة ليتغلب على غضب أبو جلدة. قال له أبو جلدة:

ـ حارتنا ضيقة ونعرف بعضنا منيح منيح، ما هيك يا حضرة الرائد؟

وهزَّ الرائد رأسه موافقاً، فقال أبو عزمي:

ـ مطلع كل صبح لكم خوّة علينا مقدارها كذا وكذا، وهذا أمين الصندوق موجود ويمكن يحكي. وأنا، والحمد لله، لا أعرف بالفلوس ولا أتعاطى بها، بس الشباب، المسؤولين عن الحسابات، على علم بالصغيرة والكبيرة، وأنا اسمع منهم: هذا الكوم للرائد، هذا الكوم للنقيب، هذا الكوم للملازمين الثلاثة، وهذا الكوم للمساعد، وجُرّ. ما في أحد منكم إلاّ وأكل من لحم كتافنا، ونحن، وأنت تعرف: ساكتين، صابرين، ونقول لكم ماشي الحال، ونقول في قلوبنا: السم الساري...

توقف. نظر إلى الرجال، ثم واصل بانفعال:

ـ تاركين اللي عندهم فلوس ما تاكلها النيران ولاحقينا نحن الفقراء؟ تاركين الناس كلها وحاطين دابكم بدابنا؟ يا سيدي تحملناكم سنة، تنتين، عشرة، وبعدين؟

وضحك بحزن وقال:

ـ والله حرام؛ والله ما نزلت بكتاب أو قبلها عقل: حاميها حراميها. أنتم تستلموا رواتب من الحكومة، وعندكم علاوات، وفوق كل هذا: على الداخل والخارج رسم: الزيارة عليها رسم، الرسالة فوق الطابع والدمغة عليها رسم، الحلاقة عليها رسم، الملابس النظيفة والوسخة لازم تترسم، الأكل لازم ينذاق، الباكيت لازم ينفتح...

توقف لحظة، ثم صرخ:

ـ لو كنتم بالوعة كانت طفت، لك وبعدين معكم؟

قال له الرائد وهو يبتسم:

ـ تعرف، يا أبو عزمي: نحن وأنتم مثل السمن والعسل، تفاهم واتفاق على الكبيرة والصغيرة، وما في بينا أي خلاف، لكن هذا السخيف، مأمور الصحة: «هذا يجوز، وهذا لا يجوز». تصور يا أبو عزمي: خايف عليكم،

يقول: «إذا الذبيحة ما انذبحت في المسلخ يمكن تكون مريضة. وسنكون مسؤولين عن أية نتائج!» حاولت معه، لكنه رفض، وتعرف، إذا كان مع لجنة الجرد يمكن يخرب بيتي، وقادر يؤذيني، وانتم، الله يسلمكم، انعبطتوا، لو انتظرتم ساعة أو ساعتين، لو تركتم هذا اليوم يمر كانت الأمور رجعت مثل ما كانت، لكن أنتم زودتوها، وخلقتوا لأنفسكم مشكلة لا أحد يعرف كيف تنتهي!

وقال له حمدي أبو جلدة:

ـ وأربعين هذا المسكين، كيف يمكن يمر لا قحا ولا مرحبا؟ لو كنا طالعين من المحل العمومي حرام ننساه، لو ما في بينا خبز وملح كان قلنا: الله يرحمه وانتهى الأمر، لكن المسألة أكبر من هذا كله، يا حضرة الرائد!

قال له الرائد جودت:

ـ يا أبو عزمي، الميت لا تجوز عليه إلاّ الرحمة، لكن بشرفك، بدينك، هذا البهلول يستحق كل هذا الاختلاف بينا؟

ردّ عليه أبو عزمي بغضب:

ـ المسألة، يا حضرة الرائد، مسألة ناموس، ونحن جماعة شرفاء، اللي يمالحنا على راسنا وعينا، ولا يمكن أن ننساه!

ردّ عليه الرائد:

ـ يا أبو عزمي، أنا ما عندي اي اعتراض، لكن لا فرق بين اليوم وبكرة، والنية إذا كانت موجودة الضحية تصل روح المرحوم.

قال حمدي أبو جلدة:

ـ أربعين الميت هي أربعين الميت، وأنت تعرف، أن روحه، في هذا اليوم، تصعد إلى السماء، ولازم أجنحة ترفعها، تساعدها. والرجال، والشهادة لله، ما له غيرنا، فإذا نحن غضينا النظر، وصرنا مثل الحجارة، بكرة لا أحد يسأل عنا، والواحد منا يمكن يموت موتة كلب، ولذلك نحن ندافع عن أرواحنا، ندافع عن حقنا، وأنتم لا تعترفون إلاّ للأغنياء.

قال له الرائد:

ـ أنا اللي خلاني آخذ على خاطري، يا أبو عزمي: الهتافات

والشعارات، والظاهر أن هذه ما هي شغلة القسم اللي أنتم فيه، هذا شغل السياسيين، ولا بد يكون الجماعة حكوا معكم، دهوا بعقولكم، وإلاَّ أنا غلطان؟

ردَّ حمدي أبو جلدة بحدة:

ـ غلطان ونص، يا حضرة الرائد، لأنَّ الجماعة لا حكوا ولا قالوا، ونكون ما عندنا شرف ولا وجدان إذا اتهمناهم. إذا قلنا عليهم كلمة واحدة زايجة!

قال الرائد:

ـ أنا عايز اطمئن يا أبو عزمي، أنا مصدقك، لكن حتى يطمئن قلبي!

ـ خذ مني، يا حضرة الرائد، لا شفنا الجماعة، ولا حكينا معهم أي شيء، عن المرحوم، وإذا ردتم تصفوا الحسابات فنحن معهم، ولا تغلط، يا حضرة الرائد!

قال الرائد بخوف:

ـ ما في بينا أية حسابات، يا أبو عزمي، لكن الواحد رايد يتأكّد، لأنَّ عادتكم: لا هتافات ولا شعارات، هذه المرة غير شكل!

قال أبو جلدة، وقد ضاقت روحه:

ـ يا حضرة الرائد.. بالمختصر المفيد: إذا كنت تريد تذبحها على قبلة، ونخلص من الموضوع، آخر موعد بالنسبة لنا: غداً فجراً. الخرفان تصلنا، ونذبحها على روحه، ونقول لرب العالمين: تقبّلها عن أربعين المرحوم!

أجابه الرائد:

ـ على خيرة الله، بس هذا بينا، لا من شاف ولا من سمع، موافقني؟

وبعد أن تم الاتفاق قال المساعد أبو سمير:

ـ تعالَ وشوف يا حاج مصطفى...

فضحك نامق أبو قمحة ضحكة مجلجلة.

وأكمل المساعد:

ـ «الظاهر ان الميت بعد ما يموت تطول كراعينه!».

وانتهى الأمر بالاتفاق، شرط أن يحصل السجناء على ترضية معقولة، وكانت الترضية أن توافق الإدارة على أن يدعى شخصان أو ثلاثة من قسم

السياسيين لكي يشاركوا بهذه المناسبة!

لا أزال أتذكر، رغم مرور الزمن، ذلك اليوم من آذار: خلال فترة التنفس الصباحية، وكنا نقف مستندين إلى الحائط الغربي نتشمس، لأنَّ اللسعة الصباحية الباردة لا تزال تتخلل ذرات الهواء، وكنا غارقين في حالة من التأمل الرخو، لمحنا موكباً من ثلاثة أو أربعة أشخاص قادماً نحونا، كان حمدي أبو جلدة ونعيم زند الحديد، ولا أتذكر مَن أيضاً.

حمدي، بجسده القصير الممتلئ القوي، يتقدّم الآخرين بنصف خطوة، ورغم القصص الكثيرة التي تُروى عنه، وهي أقرب إلى الخيال، فقد كان يتقدم وعيناه إلى الأرض، تعبيراً عن الثقة والتواضع معاً، ومَن يرقب مشيته لا يخطئ في أنه يقصدنا. لما وصل، ولم تبق إلاَّ خطوة أو اثنتان، رفع وجهه، تبادلنا النظرات دون أن نتكلم. بدا الصمت ثقيلاً، وبدا الرجل محرجاً لا يعرف كيف يبدأ، قال واحد من ورائه:

ـ أبو عزمي له معكم كلمة!

نظر إلينا من جديد ولم يزايله الحرج. إنها واحدة من المرات القليلة، وربما المرة الوحيدة، التي نراه هكذا. لم نكن مرتاحين، أو بتعبير أدق كنا متوجسين، فهذا الرجل الذي تسبقه شهرته، والمحكوم مؤبداً، لا بد من خلال هذه الزيارة، أن يسبب لنا متاعب من نوع أو آخر، وإلاَّ لما جاء، أو على الأقل لجاء بشكل مختلف.

قال له نجيب، بطريقته الدمثة، والتي غالباً ما تمتص الصدمات، وكنا نطلق عليه: نجيب سفنجة، أو نجيب مانعة الصواعق، نظراً لقدرته وبراعته في تنفيس غضب الطرف الآخر؛ قال له نجيب:

ـ أهلاً وسهلاً عمّي أبو عزمي، ولو كنا بغير هذا المكان، وبغير هذا الوضع كان شفت كيف نستقبلك...

ـ اهلاً بالمهلي.

هكذا ردّ حمدي أبو جلدة، وقد انفرجت أساريره، وغادره الحرج، وأضاف بصوته الخشن:

ـ بالمختصر المفيد: الاخوان في القسم الثاني ذبحوا على روح المرحوم الحاج مصطفى، وكلفوني بزيارتكم والسؤال عن خاطركم...

توقف لحظة، بلع ريقه، وتابع فجاء صوته مختلفاً:
ـ ويزيدنا شرف أن تختاروا اثنين أو ثلاثة حتى يشرفونا بهذه المناسبة!
ولقطع الطريق على أي اعتذار أضاف بسرعة:
ـ نحن اتفقنا مع الإدارة، والإدارة وافقت.
قال نعيم زند الحديد الذي تقدّم خطوة:
ـ لو ما كنا محابيس، وأيدينا قصيرة، لكان سوينا للمرحوم عزيمة كبيرة ومطنطنة، ولكان دعينا لها اللي نعرفه واللي لا نعرفه، وكل مَن يحضرها يأكل ويقول الله يرحمه!
التفت إليه حمدي أبو جلدة وقال بمرح:
ـ نذراً عليّ يا أبو زكي، إذا الله كتب وقدّر، وطلعت، لأعوض كل هذا القصور!
سوف أتجاوز الآن الكثير من التفاصيل، لأنّي، كما ذكرت من قبل، لا أكتب لكي أسليكم، وليس هدفي التعذيب أيضاً، فقلبي انقبض أكثر من قبل بعد هذه الزيارة. كنا نلتقي مع هؤلاء الناس في الساحة، ونتبادل معهم التحيات وبضع كلمات، ولكن ذاكرتنا مليئة إلى أقصى حد بالقصص التي تُروى عنهم: الجرائم التي ارتكبوها، الأحكام التي يحملونها على أكتافهم، إضافة إلى ما يرويه الشرطة عن قسوتهم ونذالاتهم، وكانت هذه الأمور تقيم حاجزاً بيننا وبينهم. أما في ذلك اليوم، ونحن في ضيافتهم، فقد تأكّدت أن هؤلاء الناس يفيضون رقة وخجلاً وبؤساً. لا أريد أن أقول إنهم أفضل من الآخرين، ولكنهم مثل الآخرين تماماً، غير أن المجتمع قسا عليهم ودفعهم لأن يكونوا قساة، لكي يدافعوا عن أنفسهم. وصدف أن قبض عليهم، أما الذين لم يقبض عليهم، ولا زالوا أحراراً وأقوياء، فإنّهم يفوقونهم عدداً أضعافاً مضاعفة، ويفوقونهم أيضاً دهاء ومكراً!
قد يقول أحدكم الآن إنني وقعت في المطب الذي كنت أهرب منه: الوعظ! ولكي لا أترك لديكم انطباعاً مثل هذا راقبوا ما حصل:
بعد أن تمّ اختيارنا، أخذنا نحن الثلاثة في موكب، لكي نقابل الرائد جودت، الذي قال لنا بفرح:
ـ الجمال لا يخفى، والشمس لا يمكن تغطيتها بغربال، ونحن طول

المدة الماضية نضرب أخماس بأسداس: مَن هم المسؤولون عن المهجع، مَن هم الشيوخ، والآن جئتم على أرجلكم تدرجون درج!

ابتسم وهزَّ رأسه ثم أضاف:

ـ سياسة وأكل خرا ما في؛ حكي عن الإدارة ما في؛ مطالب وعرايض ما في، وشوشة ومؤامرات ما في. سامعين؟

قال نجيب بمرح:

ـ عزيمة وشروط يا سيادة الرائد؟

ـ عزيمة مجانين، الجنازة كبيرة والميت كلب، لأن هذا الداشر ما حدا قال له في حياته مرحبا، لكن بعد ما مات صار واحداً من أشراف روما..

ضحك وهزَّ رأسه عدة مرات، وتابع:

ـ كلكم أورطة سرسرية، مهابيل على مجانين، وأنا راح تصلني كل كلمة تنقال، وما دام عرفتكم انكم أنتم الشيوخ فلمسوا على روسكم، وانتبهوا!

بمقدار الفجور والكلمات النابية التي صدرت عن الرائد، وقد أضاف إليها المساعد الكثير، أثناء مرافقته لنا، فقد وجدنا في المنازل الأخرى شيئاً مغايراً: ربما لم ينم أحد من السجناء، إذ انشغلوا بالتنظيف والإعداد، وما كدنا نصل حتى هبوا، وقفوا دفعة واحدة، وبدفء لا يخلو من ارتباك، استقبلونا بالتحيات.

كانوا ينظرون إلى هؤلاء السياسيين نظرة هي مزيج من الاحترام والرثاء وعدم الفهم. ظلوا صامتين فترة طويلة، عدا كلمات الترحيب التي تتكرر كمحاولة لقهر الصمت.

حين وجد نعيم زند الحديد أن الصمت طال أكثر مما ينبغي، وأن عبارات الترحيب أصبحت تستفز أكثر مما تعبر عن الود، قال:

ـ يا جماعة الخير...

تطلّع إلى أبو عزمي وتابع:

ـ بالإذن من أبو عزمي، بالإذن من جميع الاخوان، ولأنّا، نحن محابيس القسم العام، ما تعودنا، مثلكم، على الكلام، ولأن المناسبة أربعين المرحوم أخونا الحاج مصطفى، فراح نحتفل على طريقتنا.

وفجأة بدأ القرآن. إذ قرئت بعض السور الصغيرة، ثم أعقبته التهاليل،

ثم بدأ الحديث عن المرحوم.

بدأت الأحاديث بتحفظ، إذ رويت القصص التي تشيد بالمتوفى فقط، لكن أحد السجناء قال ولم يستطع أن يخفي ضحكته:

ـ يا جماعة الخير، الميت الله يرحمه، أخونا وصاحبنا، لكن الحاج مصطفى ما كان شرطي ولا حفار قبور، واللي يسمع كلامكم يتصوركم انكم تحكوا عن واحد غير اللي نعرفه!

وبدأت القصص والنكات، وبدأت تعلو الضحكات الصاخبة.

وتغير الجو: ظهر الحشيش وظهرت المشروبات، وعبق المهجع كله بالروائح، ومع كل دقيقة تمر، يتغير مزاج البشر. وإذا كانت المناسبة أربعين الحاج، فقد تذكروا كلماته وشتائمه، وطريقته في استجداء الحشيش. قال أحد السجناء لتبرير كل ما يجري:

ـ نحن نعرف الحاج مصطفى كإنسان، نعرفه واحد منا، والله يرحمه ما كان يحب إلاّ هذه الحياة!

ولم تكد تمر ساعة حتى بدأ الغناء، واكتشفنا في المهجع عدداً من المغنين. كانت أصوات معظمهم شجية. وقد تناوب على الغناء الكثيرون، كان بعضه يؤديه مغنون منفردون، وبعضه الآخر جوقات، ولم يبق أحد إلاّ وشارك بشكل ما، بمقدار ما. أما عندما طلب منا أحد السجناء أن «نقدم وصلة» فقد تطلع إليه أبو جلدة بقسوة، وقال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ لا تتبارد على الضيوف يا منظوم. . .

والتفت نحونا معتذراً:

ـ بعض الناس، بعد الكاس أو كم نفس يضيّعوا، فلا تؤاخذونا.

قال نعيم زند الحديد:

ـ بساطنا أحمدي، واللي يحب يغني يتفضل، أما أن نثقل دمنا على أحد فالعياذ بالله، ما كنا ولا راح نصير. . .

وبعد قليل:

ـ خاصة مع شرواكم، وأنتم ضيوفنا وعلى العين والراس، واستروا ما شفتم منا!

هذا الصخب لم يستبق أحداً، ولذلك كان الذين يقفون في باب المهجع من الشرطة والموظفين أكثر من الذين في الداخل، وقد شاركوا بتعليقاتهم، وطلب عددٌ منهم أغنيات سموها، فردَّ أبو جلدة، وكان بين الجد والمزاح:

ـ نحن نغني الموال اللي براسنا حتى نطرب، ولا نغني حسب الطلب!

وعاد الحاج مصطفى مرة أخرى قبل الغداء بدور تمثيلي أدّاه اثنان من السجناء، وكان متقناً ومسلياً، حتى أن أحداً لم يتردد في أن يقول:

ـ سبحان الله، الخالق الناطق، وكأنه الحاج مصطفى ذاته، لا راح ولا جا!

حتى الملابس التي ارتداها من قام بدور الحاج ارتاب الكثيرون أن تكون ملابس الحاج ذاتها أو شديدة الشبه بها، وقد صفق الجميع وأشادوا بهذا الأداء!

علق أحد السجناء بعد التمثيلية:

ـ الشخص الوحيد الناقص، واللي كان لازم يشوف هذا الدور هو الحاج مصطفى نفسه!

وقال آخر:

ـ نم هادئاً وديعاً يا مَن أفرحت الناس في حياتك وفي موتك!

وسأل سجين كان يجلس في نهاية المهجع:

ـ إذا مت يا جماعة الخير يمكن أن تقيموا لي احتفالاً من نفس النوع؟

ـ موت وشوف!

هكذا ردَّ أكثر من واحد، وعلت الضحكات!

حين خيَّم الهدوء للحظات قال أبو جلدة:

ـ يا ضيوفنا، يا ضيوف الخير، ترى الأكل جاهز.. بس تأمروا.

خرج أكثر من صوت:

ـ يا أبو عزمي.. إذا الجماعة مرتاحين فلاحقين على الأكل!

التفت نعيم زند الحديد إلى أكثر من جهة وقال:

ـ بس يأمر الجماعة، ومثل ما قال أبو عزمي!

وارتفع صوت الغناء مرة أخرى، ودارت السجائر والطاسات، وفي لحظة صمت، سمع صوت أذان الظهر، فارتفع معه صوت الاستغفار وطلب

الرحمة والعفو، وخيّم صمت عميق طوال الفترة التي استغرقها الأذان.

لأول مرة في حياتي أرى على الوجوه هذا المقدار من العذاب والحيرة والتساؤل. إنها متجاورة، متعانقة، متداخلة، إلى درجة لا يمكن أن يفصل الإنسان خانة عن أخرى، حالة عن التي تجاورها. وهذه الوجوه بمقدار ما تعاني وتتعذب، فإنّها تقول الكثير، لكن بصمت وصبر، مما يدلل على غنى الداخل وتنوعه، وأيضاً على التعدد في الإنسان، خاصة إذا كان سجيناً ومقهوراً.

قال حمدي أبو جلدة، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ الله، سبحانه وتعالى، شايف وعارف، وهو الأدرى بالسرائر، والإنسان، مهما أخطأ وعصى، لا بد يجي يوم ويتوب، ولا بد يجي يوم ويموت، سنته سبحانه وتعالى، ونحن العبيد المقهورين، ما لازم نيأس من رحمة الله!

ورفع رأسه إلى فوق، وقال بتمتمة:

ـ اللهم اغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر.

ولكي لا نعود إلى جو الخطيئة مرة أخرى، التفت نحونا حمدي أبو جلدة وقال:

ـ أظن أن هذا الوقت مناسب للغداء، ما هذا رأيكم؟

وإذا كان استقبالنا قد جرى بجو من الود المشوب ببعض الارتباك، فإنّ الوداع كان حافلاً. عانقنا السجناء بحرارة، وكأنهم يعرفوننا منذ وقت طويل، وكانت عيونهم تفيض بالشكر والتقدير أننا لبينا الدعوة، وطلبوا، بإصرار، أن نغفر لهم أخطاءهم، وأن ننسى إساءاتهم، مع أنه لم تقع أخطاء أو إساءات.

ورافقنا عدد كبير منهم حتى البوابة!

قبل أن ينتهي أسبوع على أربعين الحاج مصطفى، وبخدعة ماكرة، تمّ استدعاء «شيوخ» القسم العام. وكان على رأسهم حمدي أبو جلدة، ونعيم زند الحديد، وصفوان خوّفني، إضافة إلى عدد آخر، وسُفّروا في نفس اليوم إلى سجن القليعة.

وفي فترة التنفس أُغلق الباب بين الساحة والمهاجع، وتمت مصادرة

جميع الممنوعات من القسم، خاصة أدوات المطبخ، بما فيها من سكاكين وسواطير وغيرها، ولم يدخل السجناء إلى المهاجع إلاّ بعد أن فتّشوا جميعاً، وقال المساعد في إنذار واضح وأخير:

ـ لازم تعرفوا: هذا السجن المركزي، لا إضرابات ولا احتفالات، وأكبر راس راح يتكسر!

وفي اليوم التالي استدعانا الرائد جودت يعقوب:

ـ أنا، ولله الحمد، ذاكرتي قوية، وإذا الواحد منكم، أو في المهجع كله، راح يعنتر راح ارجعه لبطن أمه. ولعلمكم، ترى عندنا من الوسائل والأدوات ما فتح ورزق، والشغل أربع وعشرين ساعة. . . ليل نهار فقط، سامعين؟

وحين هززنا رؤوسنا أننا سمعنا وفهمنا، قال بسخرية:

ـ وشفتم شو صار بجيرانكم. . .

وصرخ:

ـ يا الله، اعطوني عرض كتافكم، يا أولاد الكلب، والأيام بيننا!

ومرة أخرى يخيّم على السجن جو ثقيل.

المساعد، أبو سمير، الذي سبت طوال فصل الشتاء، اتقاء للبرد، أخذ ينتفض بقدوم النسمات الدافئة. أخذ يمر علينا، والعصا الرسمية معلقة في رسغه، وعيناه كالسنجاب فرحتان وخائفتان في آن واحد، وهذا الخوف لا ينتهي إلاّ إذا تدفقت من فمه الشتائم؛ كانت الشتائم وهي تخرج تؤكّد أن إنساناً داخله، بصوت غليظ وسخرية لاذعة، هو الذي يطلقها، وفجأة يتغير المساعد، يصبح شخصاً مختلفاً، إذ يبدأ يقفز كالجرادة، يتجول بيننا دون خوف، يغرز عصاه في الصدور ليطمئن على صحتنا، ويواصل الشتائم، في الوقت نفسه، وكأنّه يتلذذ بها!

ورغم أن أمطار هذه السنة كانت شحيحة، إلاّ أن الربيع، مثل كل سنة، جاء وقد أحسسنا بذلك من دفء الهواء وطول النهار. وأيضاً من تلك الأغاني الشجية التي يرددها سجناء القسم العام. كانت الأغاني حزينة، مليئة بالحنين والشجن، وتقول الأشياء بلوعة، وربما لاحظ هؤلاء السجناء انفعالنا وتأثرنا بغنائهم أثناء تلك الزيارة، ولذلك لم يترددوا، وهم يغنون في هذه الليالي، أن يرفعوا أصواتهم أقصى ما يستطيعون، وكأنّهم يبلغوننا رسائل شوق، وربما عتاب، وكانوا أيضاً يرثون أصحابهم الذين ذهبوا بعيداً، الذين أُخذوا إلى حيث لا يعرفون. وكانوا في الوقت نفسه يندبون حياتهم وحظهم في هذه الحياة!

لم يكن الشرطة يعترضون على هذا الغناء. أكثر من ذلك في لحظات

الصمت نسمع صرخات الاستحسان تتوالى من أمكنة عديدة، حتى من وراء الأسوار!

هكذا كان القسم الآخر يواجه الحياة، وهكذا يتعامل معها. في الوقت الذي كنا نغرق في مناقشات لا أعرف كيف تتفتق عنها عقولنا، وغالباً ليس بهدف زيادة ثقافتنا أو اكتشاف آفاق جديدة للمستقبل، وإنما بقصد أن نختلف، وكان الماضي يمدنا بذخيرة لا تنتهي في هذا المجال! كنا نقطّب ما بين الحواجب وندخل في تلك المبارزة، برغم أننا نريد الوصول إلى الحقيقة وتدقيق وقائع الفترة الماضية، إلاّ أننا أغلب الأحيان كنا نميل إلى المكابرة والتبرير، لكي نستطيب، بعد ذلك، الحزن الشفيف الذي يغلف قلوبنا وأرواحنا، ولأن نبرر الخصومات التي تقع!

نظرتان للحياة، وطريقتان للتعامل معها!

والمساعد والشرطة الآخرون الذين عجزوا عن ابتزاز القسم الآخر من السجن، واصطدموا بذلك الرفض المغلف بالبساطة، لكنه المستمر والمتين، يعوضون ما لحقهم من «خسارة» هناك ربحاً مضاعفاً هنا. وما عدا نجيب وبضعة أشخاص آخرين، كانوا يمتلكون حساً شعبياً وطريقة في التعامل، فقد كنا، نحن الآخرين، غالباً ما ندفع نيابة عن الجميع!

وهكذا أصبحت الحياة في السجن: بليدة، ثقيلة، مليئة بالمرارة، ونحن ندور كالثيران المعصوبة الأعين لا نعرف إلى اين أو إلى متى. نتسقط أخبار العالم الخارجي فتأتينا بطيئة، مشوشة، وكأنّ هذا العالم لا يقل ركوداً وبلادة عن السجن ذاته!

في هذا الجو، وفي الأيام الأولى من حزيران، وعلى غير توقع، سرت في السجن شائعة ما لبثت أن تأكّدت: «عودة السياسيين من سجن القليعة، لكنهم الآن في زيارة للسرداب!»

ورغم ما يعنيه السرداب من عذاب ومذلة، فقد هزتنا الشائعة وطغت علينا حالة من الفرح أنهم عادوا، وإذا كانوا يعانون الآن فلا بدّ أن تنتهي المعاناة بعد بضعة أيام، وسنلتقي من جديد لنستعيد حياة كاملة في العفير ثم في القليعة، وسوف نعرف الكثير عن الفترة اللاحقة، بعد أن غادرنا ذلك السجن اللعين.

وتذكّرت مرة أخرى مناقشاتنا حول الزمن في سجن القليعة، وباعتبار أننا ننتظر، فقد تمددت الساعات واتسعت الفواصل بين الأوقات. أخذنا نستعيد الوجوه ونتذكر الكلمات. أبو مكرم بضحكته الخجولة وصوته المنخفض، وكأن رضوان أخذ ما يستحقه وجزءاً مما كان مقرراً لحامد زيدان من صوت وطريقة في التعامل، ولذلك يبدو الفرق بين الاثنين الآن شاسعاً. أما رامز غرينتش، كما أصبحنا نطلق عليه بعد عودتنا إلى السجن المركزي، كطريقة للتحبّب والتذكّر، معاً، فقد كان يفترض ألاّ ينزع المريول الأبيض، حيث يجب أن يكون في أحد مصانع الأدوية يزن ويركب دون تعب! وكذلك أحمد وماجد. إن لكل واحد ملامح تشي بما يجب أن يكونه في هذه الحياة، لكن السجن حين سرقهم واستبقاهم بين جدرانه سنة بعد أخرى، فقد حرمهم من الحياة وحرم الحياة منهم، ليس هذا فقط، بعد تلك الرحلة الطويلة من أقاصي الشمال، وبدل الحمام الساخن والطعام الذي تفوح منه رائحة الأمهات، ها هم الآن في الظلمة القاسية ووسط الروائح التي تقتل الجرذان!

في الليلة الأولى، وكمحاولة للاحتفال بوصولهم، واستعداد للقاء بهم، لم نترك قصة أو نكتة في سجني العفير والقليعة، حولهم، أو لهم بها علاقة، إلاّ وتذكرناها. تماماً كمَن ينتظر مسافراً فيحاول أن يتذكّر ملامحه وتصرفاته، ويضيف إليها قليلاً من الزمن، لأنّه لا يستطيع أن يتعامل مع الزمن إلاّ بحذر يصل في أغلب الأحيان درجة الخوف. يقول لنفسه «لقد مضت سنوات على آخر لقاء لنا، ومعنى ذلك: بضع شعرات شائبة، وحزوز صغيرة، لم تصل إلى الخطوط، ولن تبلغ الأخاديد، بدأت توشي الجبهة، لتدل على السنوات التي مرت... وربما أيضاً، ثنيات لا تكاد تبين تحت العينين وفوق الجفون... هذا كل شيء» ويستغرب حين يجتاز ذلك المسافر العائد قاعة الجمارك، وتلتقي العيون. لأول وهلة لا يرى الواحد من الآخر إلاّ ما يريد، وبعد العناق والقبل، وبعد الأسئلة التي لا تنتظر إجابات، يبدأ التدقيق ثم الاكتشاف، واخيراً الوصول إلى يقين حازم: لقد مرَّ الزمن وخلّف الكثير من الخدوش والآثار والجروح!

الآن، ونحن نتذكر ملامحهم وتصرفاتهم، اكتشفنا أن زمناً طويلاً مرّ،

ومن خلال أحاسيسنا عرفنا أن أيام السجن ليست مثل أيام أخرى خارجه، وليست مثل ما يعدّ الآخرون. يضاف إلى ذلك أن خ.خ وزبانيته وقد أكدوا لنا، فقط لكي يخلصوا منا بسرعة، أنه لن يمر أسبوع إلاّ وسوف يلحقون بنا. بعد أن غادرنا استفردوا بهم، وربما انتقموا منهم.

لقد مرّت شهور طويلة منذ أن تركناهم، ولا بد أن أوقعوا بهم من الإصابات والأذى ما جعلهم يستبقونهم طوال هذه المدة ليشفوا جسدياً، وليتركوا في قلوبهم ندوباً لا تزول، خاصة في ظل شتاء مثل الذي مضى، حيث لا مطر، لكن البرودة والصقيع والجفاف، من شأنها أن تجعل الناس أقرب إلى الهياكل العظمية.

هكذا فكرنا وتذكّرنا واستعدنا بعض الأحداث والقصص. وإذا كانت العادة أن يبتدع السجناء وسائل لا حصر لها للاتصال، عن طريق الرشوة، ويجب الاعتراف أن السجناء العاديين كانوا أكثر قدرة ومهارة منا ـ فلم نفكر، ولم نحاول هذه المرة؛ وأتذكّر ما قاله نعيم زند الحديد ذات يوم، ونحن نفكّر بالذين تركناهم في القليعة، ولم نسمع عنهم شيئاً، إذ قال وهو يضحك:

ـ إذا كنتم رايدين حتى طاقية الملك ممكن نرفعها ونشوف اللي تحتها.

هذه المرة لم نفكر أن نصل إلى السرداب، لأنَّ الوقت قصير، ومؤامرة من هذا النوع تحتاج إلى تدبير محكم ورشاوى استثنائية، والأكثر مرارة: أنه لم يكن لدينا شيء نقوله لهم وليس هناك شيء نستفسر عنه، خاصة وأنهم عادوا!

قال نجيب في محاولة لأن يتغلب على جو الحزن والترقب:

ـ لدي إحساس أن الجماعة اللي راحوا من هنا، أبو عزمي وجماعته، لا بد يكون جابوا أجله للمساعد خليل، وانتقموا لأنفسهم ولنا!

ردَّ صابر بمرح:

ـ أراهن أن ثلاثة على الأقل أعطوكم عمرهم: النقيب مدحت عثمان، المساعد خليل خيرو، والعريف ادريس....

وبعد قليل، وهو يمثل:

ـ أبو عزمي: للنقيب: تعال يا افندينا، قف وارفع رأسك، ما هي

طلباتك الأخيرة؟ لا شيء.. عال.. العال مسكه من جوزته وطقها، وبعدما خلص نفض يده، وقال: دورك يا أبو زكي! قال له أبو زكي: ما تركت لي غير هذا الخرندعي، يا أبو عزمي؟ هذا ظهره محلول وعظمه فارغ وحرام الضرب فيه، وندفه بقفا يده زند الحديد فوقع على قحف راسه، وأبداً ما عطس، وصار خبراً بعد اثر، ولما انتهى التفت أبو عزمي إلى صفوان وقال له: دورك، شوف شلون يحب يموت، وما كذّب صفوان خوفني خبر، برم شاربه وقال له: تعال يا محروس، تحرك لعنده كالمضبوع، قال له: كافي. ومثل لمح البصر بعّ فيه وضرب رأسه بالحيط، أو ضرب الحيط براسه، وهذاك يوم وهذا يوم، وانتهوا!

قال نجيب:

ـ لما يصلوا الشباب بكرة أو بعد بكرة، مع بعض الإضافات والرتوش، تصلح هذه مسرحية لاستقبالهم، ما رأيك؟

ردّ صابر بمرح:

ـ أنا يا صاحبي مع المسرح السمفوني، يعني لازم الكل يشارك!

قال رضا بجدية:

ـ تعبير من هذا النوع لا يطلق أصلاً على المسرح، وأنا ضد الاستهتار بالمصطلحات، حتى لو من قبيل المزاح.

قلت في محاولة لإبقاء الجو مرحاً:

ـ لن أتدخل في المصطلحات، ولكن لدي سؤال: إذا كنت يا صابر تطالب بمشاركة الجميع، ألا تحتاج إلى جمهور، إلى متفرجين؟

ـ الخمسة يكفون، لأنهم وحدهم ضيوف الشرف!

ـ يعني كل متفرج له خمسة ممثلين؟

ـ هذا ما يجب أن يحظى المواطن به في بلد متقدم مثل عمورية، لأنّ المواطن المرفه، الحر، المثقف، الشجاع، هو الوطن القوي، وما دام مواطننا يحظى الآن بخمسة شعراء، وخمسة مغنين وخمسة مخبرين، فهل تعتبر أنه من باب الإسراف إذا حصل على خمسة ممثلين أيضاً؟

ـ لا أعترض على مبدأ الخمسات، خاصة وأن الرائد شديد الحرص على

هذا المبدأ، وأتذكر أنك كنت واحداً من الخمسة الذين اختارهم القدر لكي تمثلنا في السرداب حين عدنا من سجن القليعة، هل نسيت؟

ـ أنسى؟ كيف أنسى؟

قال نجيب:

ـ نقطة نظام، يا شباب...

تطلع إلى الوجوه طالباً التأييد، فلما وجد قبولاً تابع:

ـ لقد تشعبت المواضيع وتداخلت، ولذلك لا بد من العودة إلى جدول الأعمال...

ولما تساءلت العيون أوضح:

ـ أنا الذي تقدمت بالاقتراح أن تكون تمثيلية صابر، مع بعض الدعم والتقوية والمساندة، المسرحية التي نستقبل بها العائدين، وإذا كانت هناك اقتراحات أخرى فإنّني أطرح اقتراحي للتصويت عليه أولاً، والمسألة في البداية وفي الختام تعتمد على رأي الأغلبية!

قال بدر:

ـ أنا أُوافق من حيث المبدأ ولكن أقترح أن يُضاف عنصر آخر، وهو أحد سجناء القليعة الأصليين، واقترح مثلاً الداوودي لكي يقرف رقبة واحد آخر من جلاوزة السجن، فماذا تقولون؟

قال نجيب:

ـ الفكرة واردة، لأنَّ الجماعة زكرتية، واقتراح الداوودي بمكانه، لأنّه شيخ القليعة بعد هرب الأحدب!

قلت:

ـ إذا وافقنا على اقتراح الإضافة، فمَن هو المرشح للقتل؟ أي مَن هو الجلوز الذي سيخوض الداوودي بدمه؟

ردَّ بدر وهو يقف ويرفع يديه:

ـ السؤال ليس في مكانه، والأصح أن نسأل: مَن من جلاوزة القليعة لا يستحق القتل؟ أنسيتهم؟

وبعد قليل، وقد شاب صوته شيء من المرارة:

ـ يا أخي حتى بغالهم تستحق أن تُقتل!

قال سميح، وهو في العادة قليل الكلام:

ـ والسياسيون.. أليس لهم دور في هذه المسرحية؟ ألا يفترض أن يشاركوا بشكل أو بآخر؟

سأل رضا بمكر:

ـ لم أفهم السؤال بدقة، أتقصد أن يكون لهم دور في المسرحية أو في القتل؟

ردَّ صابر بمكر موازٍ:

ـ ما دام القتل سيحصل فيمكن أن نضيف ضحية جديدة لهذه المسرحية، ونشير بغموض إلى احتمال أن يكون وراءها هدف سياسي، وأيضاً شخصية سياسية!

ـ ومَن سيكون القاتل في هذه الحالة؟

هكذا سأل رضا من جديد وهو يتطلع في الوجوه ليرى إن كان أحد يرشح نفسه. ردَّ صابر:

ـ ما دام الغموض سيد الموقف، فإنَّ القاتل والأسباب تُسجّل ضد مجهول، ولذلك يمكن أن يكون القاتل أي واحد ويمكن أن يكون لا احد!

قلت في محاولة لتغيير المسار قليلاً:

ـ ما دام السياسي يقدّم المبررات ويخلق المناخ، ولديه الأدوات أيضاً، ولزيادة التعقيد والتركيب في المسرحية، فأرى أن يبقى بين الجمهور، وأن لا يظهر على المسرح ابداً. أكثر من ذلك أرى أن يتظاهر بالبراءة والعفة، والبعد عن الشبهة، لأنَّ هذه الطريقة وحدها تزيد التشويق وتجعل الأسئلة تدور بعد المسرحية، وهذه أهمية أية مسرحية، كما أفترض!

قال نجيب بحزم متكلف:

ـ من الأسباب الأساسية لفشلنا عدم التقيّد بالنظام، فأنا طرحت نقطة نظام، وطلبت التقيد بجدول الأعمال، والتصويت، لكن حضراتكم تجاوزتم

هذه النقطة وغرقتم في التفاصيل، ولذلك لا بد أن أُسجّل اعتراضي على هذه التجاوزات أولاً، ولا بد من التقيد بالنظام الداخلي في كل خطوة، ثانياً!

تساءل رضا بمكر:

ـ نحن متفقون من حيث المبدأ، لكن يبقى الموضوع الأساسي: ما اسم المسرحية؟

ردّ صابر:

ـ قتل في السجن، على غرار: قتل في الكاتيدرائية!

قلت:

ـ عنوان غامض وليس له أية إيحاءات أو ظلال! مَن القاتل؟ مَن المقتول؟ في أي سجن؟ يجب أن تكون هناك إشارات من نوع أو آخر تعطي بعض الدلائل.

ـ قتل في سجن القليعة!

ـ كيف قتلوا فلان!

ـ لماذا قتل فلان؟

ـ قتل في النهار؛ أو قتل سجين في النهار، أو السجين القتيل!

ـ هذه كلها عناوين تقليدية لأنها مألوفة ولا تشي بالقاتل. المهم فضح القاتل!

هكذا قال صابر تعقيباً على العناوين التي بدأت تنهال بسرعة، وبدأت عناوين أخرى بعد فترة صمت قصيرة:

ـ الاغتيال.

ـ اغتيال سجين.

ـ الاغتيال الغامض.

ـ لماذا اغتالوا عبدالله الحمود؟

ـ ومَن يكون الأفندي عبدالله الحمود، يا حضرة؟

ـ ممكن يكون أي إنسان.

ـ هذه تعمية مقصودة من أجل تسجيل القتل ضد مجهول!

ـ يا جماعة آخر شيء يتم اختياره، عادة، هو العنوان، ويمكن استنتاجه من السياق، فلذلك لا داعي للاختلاف قبل وضع المسرحية، وما دامت المسرحية ذاتها لم توضع فإنّنا كمَن يختلفون على جلد الدب قبل صيده!

هكذا قال نجيب بنوع من الحدة الظاهرية، وبعد قليل:

ـ أرى أن نرفع الجلسة اليوم على أن نستأنفها في وقت لاحق.

قلت في محاولة لاستمرار المرح:

ـ لا زلنا قادرين على متابعة الاجتماع، ولذلك اعترض على اقتراح نجيب، إلاّ إذا اعتبرنا الفترة اللاحقة هي للتداول والتشاور، لعلنا من خلال الاتصالات الثنائية نصل إلى بلورة أفكار واقتراحات تلاقي الاستجابة والموافقة من الأغلبية!

علق صابر بمرح:

ـ الفقراء وافقوا، لكن ظلت موافقة السلطان وابنته، وهذه دونها خرط القتاد...

وبعد قليل وهو يضحك ويمثل أيضاً:

ـ إذا رفضت التمثيل، إذا اعتذرت، إذا لم أكوّن الفريق، فما فائدة هذه المناقشات كلها؟

قال رضا:

ـ لا شك أن لها فائدة مزدوجة: للأرشيف وللمؤرخين، خاصة وأن هناك عدداً من المؤرخين تغريهم مثل هذه الثرثرات: مَن يتذكر أول مسرحية جرت في السجن؟ مَن كتبها؟ مَن مثّل فيها؟ ماذا كان موضوعها؟ كم استمر عرضها... وعشرات الأسئلة التي تملأ عشرات الصفحات، بحيث تصبح كتبهم معتمدة على عنصرين جليلين: الحجم الكبير والتوثيق الدقيق!

بهذه الطريقة قطعنا الليلة الأولى نحن السجناء البائسين بانتظار رفاقنا الذين سيلحقون بنا غداً أو بعد غد!

لا أخشى من نظراتكم الساخرة، والتي قد تبلغ الهزء، ونحن نكشف أرواحنا. قد نبدو في مناكفاتنا كالأطفال أو كالمعتوهين، وقد تستغربون هذه المناقشات، وقد يتواقح بعضكم ويقول: «كان الأجدر بهؤلاء السجناء أن

يستفيدوا من وقتهم، وأن يتصرفوا حسب أعمارهم»، لا أريد أن أتصدّى للدفاع، وأن أشتم، لكن أقول لِمَن ينتقدونا: تعالوا إلى السجن المركزي لتعرفوا ولتروا كيف يتشوه السجين! أمّا إذا «حالفكم» الحظ ووصلتم إلى العفير أو القليعة، للزيارة لا للإقامة، فعندئذ يمكن أن نصل إلى لغة مشتركة، وقد نتفق!

انقضت الليلة وجاءت الليلة الأخرى.

وإذا كانت الليالي في السجن متشابهة، وتتداخل مع ما سبقها وما سيأتي بعدها، فإنَّ لليالٍ أخرى تميزها، انفصالها، وقادرة أن تقف، مثل شواهد القبور، لتقول أشياءها الخاصة.

استدعانا الرائد، نحن «شيوخ» السجن:

ـ أن يرى الإنسان خير من أن يسمع، وقد رأيتم كيف أن رجالاً كباراً دفعوا ثمن ذلك البهلول الحاج مصطفى، وإذا كان القسم العام مجموعة من الحمير، مجموعة قتلة ولصوص ولواطيين ومهربي أفيون، فأنتم أصحاب فكر ومبادئ، والتفاهم معكم أسهل من غيركم، إذا حطيتوا عقولكم بروسكم، وحطيتوا الرحمان بين عيونكم. وأنا، حسب طلبات الإدارة وتوجيهاتها، وأنقل بالحرف ما قالوه لي: «القسم العام بعين، والسياسيين بألف عين» فلا أريد أي مشاكل. . .

وحين لاحظ في وجوهنا التساؤل والاستغراب أضاف، وهو يبتسم:

ـ حتى الآن، نحن واياكم سمن وعسل، هذي قضية لازم نعترف بها. . .

وبعد قليل وهو يأخذ نفساً عميقاً:

ـ لكن أنتم السياسيين، رغم انكم متعلمين، لكن فيكم شيء غلط. ونحن، ويمكن لاحظتم، معاملتنا لكم تختلف عن القسم العام. يجوز بعض الشرطة يفلّتوا، تطلع منهم شتائم وكلمات، لكن، والشهادة لله، لكم معاملة خاصة، وهذا لأنكم متعلمين، فهمانين، والإنسان لازم يأخذ الواحد على قدر عقله. . .

صمت فترة غير قصيرة، لأنّه لا يعرف كيف يتابع. زفر أكثر من مرة،

وهو يتطلع إلى وجوهنا، وبعد أن استراح، وهو يرتب أوراقه ومكتبه، أضاف:

ـ لازم يبقى السجن مثل الساعة. نظام وطاعة، وأي واحد، كائن مَن كان، لازم يعرف هذا الشيء، فإذا صارت عربدة أو قلة حياء راح يندفع عليها كثير!

سأل نجيب بودّ ظاهر:

ـ حصل شيء منا يا سيادة الرائد؟

ـ حتى الآن ماشي حالكم... لكن...

تطلع بإمعان في وجوهنا ليقرأ ما إذا عرفنا بوصول رفاقنا من القليعة، وحين وجدها صماء لا تقول شيئاً، ابتسم ثم أضاف:

ـ راح ابلغكم بشارة... ومعها تنبيه!

استراح قليلاً ليترك كلماته تصلنا على مهل وتستقر في عقولنا وقلوبنا، وبعد قليل:

ـ جماعتكم وصلوا من القليعة... هذه هي البشارة، ولأنهم غابوا عنا كثير، شهور وسنين، ويجوز أنهم نسوا، وجلّ مَن لا ينسى، قلنا لأرواحنا لازم يزوروا السرداب حتى يتذكروا المركزي منيح...

وابتسم بفرح، فرك يديه ودار حولنا، وجاء صوته هذه المرة من الخلف:

ـ أما التنبيه، واللبيب من الإشارة يفهم، فهو أنه بعودة الشباب يجوز أحد منكم يفكر أنكم صرتم أقوى، وأن القادة والزعماء رجعوا، ولذلك لازم تبدأ المطالب والعرائض والمساخر اللي تعودتم عليها...

توقف عن المتابعة، استدار من جديد ليواجهنا، وأضاف:

ـ إذا ظليتم أوادم ومعقولين نحن إلى جانبكم، وسوف نوصي الإدارة بتقاريرنا أن يسامحوكم بكم شهر، أما إذا ركبتم رؤوسكم فالله يستركم مني ومن غيري، وقد أعذر مَن أنذر!

دخل أبو سمير في تلك اللحظة، قال له الرائد:

ـ الجماعة اعطوني كلمة شرف أنهم راح يكونوا معنا مثل السمن

والعسل، أوادم وعاقلين، فالله يرضى عليك وصي جماعتك أن لا يثقلوا عليهم. . .

وبعد قليل، وهو يخاطب الجميع:

- راح نصدقكم ونجربكم، ومثل ما قالوا: إلحق العيار لباب الدار، وبعدها نشوف، ولكل حادث حديث. . .

تنفس وتمطى، وقال كأنه يخاطب نفسه:

- يا الله يا أبو سمير، يا الله يا شباب، على بركة الله؛ وإن غداً لناظره قريب!

في ذلك اليوم البعيد، والذي لا يشبه غيره من الأيام، استيقظنا مبكرين. لا أريد أن أقول إننا لم ننم، لكن انتظارنا للعائدين، توقّعنا لوصولهم في كل لحظة، جعل نومنا قلقاً مختلطاً أقرب ما يكون لنوم الوجل، لأنه يقع عند التخوم، إذ لا يمكن اعتباره نوماً ولا يمكن اعتباره يقظة. كان سهوات متوترة مشحونة بالفرح والشوق والانتظار.

ساعات الصباح طويلة رخوة. ساعات الضحى ثقيلة حادة. قبل الظهر بقليل بدا وكأنّ شيئاً أخذ بالتكوّن ولن يلبث أن ينبثق وتراه العيون.

فجأة فتح الباب الخارجي. سمعناه وهو يفتح. أغلق الباب الخارجي سمعناه وهو يغلق. سمعنا الخطوات وهي تقترب. كانت تقترب والضجة تزداد. إنها ضجة رجال الشرطة!

انفتح الباب الداخلي. دخل أُناس عديدون. كانت الضجة أوضح من قبل، ضجة رجال الشرطة. أغلق الباب الداخلي. الساحة تمتلىء بالضجة والناس السائرين. ميّزنا أصوات رجال الشرطة. اقتربت الضجة والأصوات والخطوات من مهجعنا. أصبحت الأصوات أوضح، إنها أصوات رجال الشرطة. توقفت الخطوات لكن لم تتوقف الضجة، ضجة رجال الشرطة. قال صوت، وقد عرفنا أنه صوت المساعد:

ـ أية فوضى سنعيدكم إلى السرداب، سامعين؟

لا جواب، لكن ضجة رجال الشرطة لم تتوقف. للحظة ساد السكون وعمّ. دخل المفتاح في قفل باب المهجع، دار دورة، دار دورة ثانية. انفتح

الباب، شُرّع على اتساعه، ودون كلمة، دون إشارة، دفعوهم إلى الداخل. أغلقوا الباب، ومضوا!

في تلك اللحظة، وهم يغلقون الباب، أصبحنا في حالة من اليقين الخطر، وبدل الضحك الذي كان يفترض أن يغرقنا، أن نغرق فيه، بدأنا البكاء.

قبل أن يتكلموا، قبل أن يقول أحد، ودون أن نسأل: عرفنا: حامد زيدان لم يكن معهم. امتلأنا بالنذير، هجسنا: لم يتخلف أبو مكرم في مكان، لكن لن تراه العين بعد الآن، ثم فجأة أصبحنا متأكدين: لقد مضى حامد زيدان، مات، وربما قتلوه!

لا أعرف كيف تعانقنا، كيف تبادلنا النظرات والكلمات. أفسحنا لهم مكاناً في صدر المهجع. ما كادوا يلامسون الأرض، وقبل أن نسألهم، هدر صوت رامز نادباً الحياة والكون والبشر، وكل شيء في هذه الدنيا:

ـ لقد قتلوا أبا مكرم، نعم، لقد قتلوه!

ما أقسى الحزن وما أمضّه حين يبكي الرجال. لقد فعلنا ذلك دون اتفاق، دون قدرة على أن نمنع أنفسنا من البكاء. بكينا لكي لا نختنق، لكي لا نتبدد. وحين يبكي الرجال تصبح الدنيا صغيرة، عديمة الجدوى وشديدة القسوة، لأنّ الدمعة وحدها تصبح السلاح الوحيد، السلاح الأخير!

لا أحد يعرف إلى متى استمر ذلك البكاء. لا أحد أحس متى دخل الظلام. لا أحد يدري كيف أو مَن نام تلك الليلة.

في الأيام التالية، في الليالي التالية، أصبحنا أقدر على التماسك والتصرف، وعلى الابتسام أيضاً، لكن شيئاً في داخلنا انكسر، تحطم. لم يحصل ذلك دفعة واحدة أو بنفس المقدار، لكننا أخذنا نشعر بالمرض، بالعزوف عن الأكل، وأصبح الحزن ثقيلاً لا يفارقنا، حتى لو أردنا أن نبعده، أن نتحداه.

سنعرف في وقت متأخر أنهم قتلوا حامد زيدان بعد مغادرتنا بثلاثة أيام. لم يقتلوه وحده قتلوا معه صادق الداوودي، الذي حاول أن يخلصه منهم فاشتبك معهم.

أمّا كيف فعلوا ذلك فإنّهم بعد أن استعدوا، وفي اللحظة التي كان

يتمشى الاثنان في الساحة، قريباً من مطبخ السجن، استدرجهم بعض الشرطة بحجة وجود حريق، وما أن اندفعا للمساعدة حتى أغلق الباب خلفهم، وهناك كان المساعد وعدد من الأفراد، فانهالوا على حامد بالضرب ليقتلوه، ولما تصدّى لهم الداوودي دفعوا الاثنين إلى وادي الموت، من نفس المكان الذي كانت تلقى منه القمامة!

وغرق سجن القليعة في موجة من التساؤل والتوقع، فمَن قائل إن الاثنين حاولا الهرب أو هربا فعلاً، ووجد مَن قال إنهما قتلا، ولم يتأخر رجال الإدارة في إشاعة نقلهما إلى سجن آخر! أمّا النقيب مدحت عثمان فقد أعد تقريراً أشار في آخر فقراته إلى «ان المشادة بين القسمين كانت نتيجة المناقشات العقيمة، والمحظورة أساساً في السجن، ونتيجة الاتهامات التي كان يتبادلها الطرفان، وكان من المحتمل أن تتطور تلك المشادة، وتخلف ضحايا إضافيين، لولا تدخل الإدارة السريع، فاقتصر الأمر على وفاة حامد زيدان من القسم السياسي وصادق الداوودي من القسم العام، وصودرت من الطرفين الأدوات التي استعملت في المشادة».

«ولا بد من الإشارة إلى أن الضحيتين من أصحاب السوابق، والموصوفين بالشغب، ويشير سجلهما إلى عقوبات عديدة وقّعت بحقهما في عدة سجون سابقاً».

«نرجو أن تأخذوا علماً بما حصل، ونرى أن يطوى الموضوع، واعتبار الوفاة قضاء وقدراً، مع الإشارة إلى أن الطبيب في قرية طيبة الوادي رفض القدوم إلى السجن، بحجة المرض، لتسجيل الوفيات، الأمر الذي منعنا من إرفاق تقرير الطبيب الشرعي، فاستعضنا عنه بإفادات الشهود المرفقة».

لقد عُرفت هذه التفاصيل بعد عدة أسابيع عن طريق اسماعيل حمدو، وقيل إنه لم يُطلَب حضور الطبيب نهائياً، وما كان الطبيب ليصل السجن حتى لو جاء النقيب وسيارته لحمله! ويؤكّد اسماعيل حمدو أن المساعد هو الذي أعدَّ التقرير، وقد وقّعه النقيب وكان سكراناً، وبعد عدة أيام، وهو يعيد قراءته، استشاط غضباً واعتبر توقيعه مزوراً، لكن بعد أن تأكّد، وبمرور الوقت دون أن تترتب أية نتائج، قدم طلباً لنقله من سجن القليعة، وانتظر

شهراً ثم آخر دون أن يتلقى جواباً، ولو على شكل إشعار، «ان الطلب قيد الدرس»!

في وقت متأخر سنعرف عن طريق السجناء في القسم العام أنه عثر على النقيب مدحت عثمان مقتولاً في غرفته! قالوا ذلك بمرح مشوب بالفخر، ولم يضيفوا شيئاً آخر، لكنهم تركوا الآخرين ليقدروا!

رامز البكري النظيف الأنيق، بمقدار ما يسمح السجن، والشديد الدقة في أقواله وتصرفاته، تحول إلى شخص آخر: أطلق لحيته، تركها تنمو دون تهذيب ودون تشذيب، حتى أصبحت مثل غابة، كما ضمر جسده وتقلص، وبدأ يتصرف بطريقة متحدية وساخرة.

لا أزال أتذكّر ذلك الاحتفال الذي دعانا له ذات مساء:

كان يمسك الساعة بيده، كان يرفعها ويريدنا أن نراها، وبعد أن أدارها في كل الاتجاهات، والابتسامة تملأ وجهه، وتأكّد أننا رأيناها، قال، وخرج صوته أجشاً:

ـ هذه ساعة وليست أرنب، موافقين؟

نهز رؤوسنا بالموافقة وننتظر:

ـ الباب اللي يجيك منه الريح سده واستريح، صحيح؟

ونهز رؤوسنا بالموافقة وننتظر:

ـ واللي ما يجي معك تعال معه، موافقين؟

ونهز رؤوسنا بالموافقة وننتظر:

ـ وأنا، بعد التفكير والتقدير واستشارة الوجدان والضمير اتخذت قراراً أرجو أن توافقوني عليه. . .

نتطلع إليه وننتظر:

ـ لقد أصدرت حكمي الذي لن أتراجع عنه، والذي سأُنفذه هذا اليوم، الآن. .

نخاف مما سيفعل وننتظر:

ـ ومثل ما قلنا في البداية: هذه ساعة لا أرنب. . .

وبعد قليل وهو يتطلع إلينا ويبتسم، ويقرأ في وجوهنا الأثر الذي تركته كلماته، لكي يعلن القرار، وحين يطمئن، يضيف:

ـ هذا الشيطان الذي أتعبني طوال السنين السابقة أريد أن أقضي عليه، أن أصفّي حسابي معه، وزيادة على الموافقة التي أريدها منكم، أطمع إلى المشاركة!

وبهدوء لا يتقنه إلاّ لص أو محتال، بعد أن يكون قد قضى مدة طويلة في المهنة، انتزع زجاج الساعة؛ بعد أن فعل ذلك قرّبها من أذنه:

ـ بنت الكلب لا تزال تمشي، تتابع سيرها الملعون، وتُعلّم عليّ. . .

رمى بعيداً الزجاجة، وبأظفرين شديدي البراعة انتزع العقرب الكبير:

ـ هذا عذابه قليل، وأذاه يزول رغم حجمه الكبير وحركته السريعة. .

ورماه فوق رؤوسنا كما يُنثر الماء المقدس، كما يُرمى ملح النذور للبركة وضد الحسد، وبنفس الأظفرين انتزع العقرب الصغير ورماه فوق رؤوسنا أيضاً، لكنه فعل ذلك وكأنه يرمي شيئاً ثقيلاً، تطلع إلى الساعة، أدارها لكي نراها، ثم قرّبها من أذنه:

ـ لم تتوقف عن التكتكة رغم أنها أصبحت عمياء. اللعنة لا تزال داخلها!

وكمَن يريد أن يتخلص من حمل ثقيل أرهقه، أنزلها. وضعها على الأرض في الفراغ الذي يفصل بيننا، ولا أعرف من أين حصل على ذلك الحجر النهري المصقول، والذي يملأ راحة اليد، وأين كان يخفيه. هبط على الأرض، جلس على ركبته، وبطريقة بارعة هوى بالحجر على الساعة فحطّمها.

تنفس بعمق ومد يده بالحجر إلى أقرب واحد إليه:

ـ سوف أشعر بالسعادة إذا شاركتموني هذا الاحتفال الهمجي، بالحجر، بالحذاء، بأي شكل، لكي أرتاح من هذا العذاب وأبدأ زمناً جديداً!

وبطريقة لا تخلو من مرح شاركنا في هذا الاحتفال، وحين تأكّد أن الساعة أصبحت بقايا وشظايا، قال، وخرج صوته عميقاً وودوداً:

ـ طوال الفترة الماضية تقيدنا بزمن الآخرين فأرهقنا السجن، علينا الآن أن نخترع زمننا الخاص لنقوى على الصمود!

رضوان فرج أصبح اثنين: نصحو بعض الأيام على غنائه، وفي أيام أخرى نصحو على بكائه أو صخبه واحتجاجه أننا لا نترك له أن ينام.

صوته القوي تراجع، فَقَدَ درجة أو اثنتين من سلّمه الموسيقي، كما قال مرة رضا. يسأل، بعض الأحيان، كطفل: «أتعتقدون أن حامد يمكن أن يعود؟» وحين تتوالى الشواهد والقرائن أنهم قتلوه يصرخ:

ـ لا أُصدّق، لأنَّ حامد زيدان لا يمكن أن يموت.

ونقول له إن كل إنسان يمكن أن يموت، لا بد أن يموت، فيصرخ بتحدٍ:

ـ حامد زيدان، أبو مكرم، غير شكل: إنسان ضد الموت، لأنّه هو الحياة!

ونصمت لكي لا نثيره بكلماتنا. يتطلع إلينا بحقد، ويهدر صوته:

ـ المؤامرة كبيرة، كبيرة جداً، وأنا أشك حتى بالهواء.

ويقف. يتجاهل وجودنا ويتوجه بالكلام إلى حامد زيدان:

«ـ يا أبو مكرم، اسجّل عليك يوم غياب آخر، وأنت تعرف أن الغياب إذا طال يؤثّر على العلاقات، فانتبه!»

يتطلع إلينا ويقول:

ـ لدي قناعة أكيدة أن حامد حي، موجود، وإذا قدّر لنا أن نخرج من هذا السجن، فلا بد أن نلتقي به. هذه قناعة لا تحتاج إلى إثبات، فأنا متأكد... وسوف أثبت لكم ذلك!

وحين يرانا صامتين، ولا ننظر إليه، يصرخ:

ـ انتبهوا، إننا نخطئ إذا بقينا بهذا الشكل، لأننا نقتل حامد قبل أن يقتلوه!

لا نتكلم، نسمع ولا نتكلم، يُستفز. يقول بصوت رخو:

ـ أشمّ رائحة الجبن. والجبن مهما حاول أن يتخفى فإنّه لا يخفى، ولقد رأيت هذا الشيء مرات كثيرة وأصبحت قادراً على تمييزه مهما كان الشكل الذي يظهر فيه.

ـ رضوان... يجب أن نؤجّل مناقشة بعض الموضوعات، إذ لا فائدة الآن، ثم أن معلوماتنا قليلة، ولذلك يجب أن نعطي أنفسنا فسحة من الأمل والانتظار!

هكذا يرد عليه صابر. يوافق رضوان. ومثلما كان حاداً عنيفاً يتراجع، يقول رداً على هذه الكلمات:

سأبقى أنتظر!

وفي يوم آخر رضوان آخر، بدل الغناء: رغبة غير محدودة للنوم، وعند الضحى حين يسمع أصواتنا، حين يحس بالحركة حوله، يرفع رأسه، يجلس في فراشه، ويبدأ:

ـ ليس لنا في هذا السجن الخرا إلاَّ أن نقطّع الوقت، فإذا نمت ساعة إضافية تضيق عيونكم؟ تتصورونها على حسابكم؟

يقلب نظراته في وجوهنا، ويضيف بحزن:

ـ فعلاً لم يعد الإنسان يعرف صديقه من عدوه، وهذا من أصعب الأمور!

ورغم الاعتذارات والتنبيه أن النهار تقدّم كثيراً، فإنّه يرد بحدة:

ـ يا جماعة، تكفينا شرطة السجن!

كلما حاولت أن أستعيد تلك الفترة أشعر بالحيرة، ولا أعرف كيف أُفسّر الأمور، فرضوان بصوته وطريقته في التصرّف لم يعد كذلك، وأي أسلوب للتعامل معه يحتمل مقداراً من الخطأ يعادل مقدار الصواب.

ظلت الأمور هكذا بضعة شهور، وكانت فترة ثقيلة ومتعبة. أمّا عندما جاء قرار نقل رضوان وثلاثة آخرين إلى السجن المعلق، ورغم الود والعلاقات التي امتدت بيننا لسنوات، فقد شعرنا بالراحة، قال نجيب في الليل، بعد أن رحلوا:

ـ الليلة أستطيع أن أنام دون هزّ، وفي الصباح لن أفيق على صوت الغناء أو صوت البكاء.

وبعد قليل، وكأنّه يخاطب نفسه.

ـ كانوا محقين حين قالوا: عدو عاقل ولا صديق جاهل!

وكدنا نستريح، أو هكذا بدأنا نرغب ونفكر ونخطّط، لكن رغبات السجين وأفكاره وخططه آخر ما يؤخذ بعين الاعتبار. فما أن اتفقنا على برنامج لتدريس اللغات، وبعد أن حصلنا على الكتب الضرورية، عن طريق رشوة الحرس، حتى تعرضت مهاجعنا لواحدة من حملات التفتيش، والتي

تجري عادة عند الفجر، وحملة من هذا النوع لا تعني مصادرة ما يعتبر ممنوعاً فقط، إذ ترافقها عمليات الإهانة والضرب، وقد تصل إلى التحقيق الذي يمتد لعدة أيام، ليس بهدف معرفة مصادر المواد الممنوعة، وإنما لمعرفة الوضع المعنوي للسجناء، وما طرأ عليهم خلال الفترة الماضية، الأمر الذي يقتضي إعادة التوزيع، واللجوء إلى التهديد أو الإغراء في محاولة لإسقاط عدد من السجناء.

سوف أتجاوز الكثير من التفاصيل والتحقيقات التي جرت معنا في السجن المركزي أثناء حملات التفتيش المتكررة، لأتذكر الأخيرة، قبل المرض:

كعادتهم مثل كل مرة: جاؤوا عند الفجر. طلبوا منا أن نغادر المهجع، قلبوا فراشنا وأشياءنا البائسة، نقبوا في الجدران والأرض، جمعوا ما اعتبروه ممنوعاً، وبدأ الرائد جودت:

ـ يمكن أن تسمّوا أنفسكم أبطالاً، ويجوز أن الكثيرين في الخارج يعتبرونكم كذلك. أمّا أنا فأعتبركم حميراً تمسحت جلودكم، وصار الواحد منكم عواطلي لا ينفع لا للدنيا ولا للآخرة..

ويبدو أنه شتّ، إذ بمقدار ما تروق له الشتيمة، ويمكن أن ينساق وراء عشرات الصفات والمترادفات التي تتتابع بسرعة ولذة وهو يطلقها على السجين الواقف أمامه، إلاّ أنه تذكر أنه تحدّث، أول ما تحدّث عن البطولة، تابع من هذه النقطة:

ـ أي نعم يمكن أن تعتبروا أنفسكم أبطالاً، لكن هذه المرة ستصبحون كالصراصير...

تنفس بعمق وأضاف:

ـ كل واحد له شيء في هذا الكوم «يتفضل» ويتناوله!

لم تكن في الكوم سوى مجموعة من الكتب والأوراق إضافة إلى مطرقة ومبردان وعدد من التماثيل الصغيرة والحجار.

ـ لم يكد ينتهي من إصدار الأمر حتى تقدّم: سميح وغازي. سميح جمع الكتب والأوراق، وقال:

ـ هذه لي.

وقال غازي بسخرية ظاهرة:

ـ والباقية لي.

ـ مثل ما حزرت، لازم من بينكم فدائي ويقول هذه لي، حتى ينقذ الآخرين، أو يدّعي كل واحد منكم أن الممنوعات له، والهدف في الحالتين أن تضيع الحقيقة وأن يتيه المحقق، لكن بسيطة!

عُزل سميح وغازي، أُخذت الأوراق والكتب والأدوات، قسمونا إلى مجموعات صغيرة، ووضعنا في أماكن معزولة ومتباعدة.

التحقيق، في المرحلة الأولى، لا يختلف عن تحقيقات أخرى كثيرة، لكنه في المرحلة الأخيرة كان مسلياً ومحزناً في آن، وربما عجّل أيضاً في إصابتي بمجموعة من الأمراض، بدأت بالروح ثم طالت أعضاء عديدة من جسدي، إلى أن أخرجوني من السجن لكي لا أموت فيه!

بعد منتصف الليل فتح الحارس الباب ونادى عليّ. لم يكن قد مرَّ إلاَّ وقت قصير على استغراقي في النوم، أعرف ذلك لأن نومي، في مثل هذه الحالات، يكون صعباً، وبعض الأحيان متعذراً، رغم الجهد الذي أبذله لأنام، ليس ذلك فقط أن أية يقظة، قبل أن أصل ملكوت النوم البعيد والعميق، تكون سريعة ويصعب عليّ بعدها النوم من جديد.

قادني الحرس، وكان معه اثنان آخران، عبر بوابة، ثم بوابة أخرى، فثالثة، وظلوا مستمرين إلى درجة توهمت أنهم سيفتحون البوابة الرئيسية للسجن، ويدفعونني إلى الخارج بالصفعات والركلات مع كلمات ستلاحقني وأنا أركض: لقد طلعت ريحتك في هذا السجن، فحلّ عنا بعد أن زهقت أرواحنا منك، ولا ترينا وجهك مرة أخرى. ومما أكدّ لدي مثل هذا الوهم أن الرائحة هنا تختلف عن الداخل، خاصة وقد امتلأ الجو برائحة شجرة الليل والياسمين، وبدا الهواء مشبعاً بالرطوبة اللذيذة، وكان أيضاً يفيض بأصوات آخر الساهرين.

بعد أن اجتزنا النظارة انعطفنا إلى اليسار بزاوية حادة، لنصل إلى الحديقة، التي لم أتصور وجودها من قبل، وقد افترضت أنها لا تتعدى بضع أشجار.

حديقة واسعة نُثرت فيها أضواء ملونة بشكل بدائي وفج؛ عرائش العنب والياسمين تظلل القسم الأوسط، وكانت الأضواء تتركز في هذا

القسم؛ تحت العرائش بركة صغيرة ترتفع وسطها نافورة تتدفق منها المياه. حول البركة، وبقوس صغير، كان جودت يعقوب ومعه ثلاثة من الضيوف، أمامهم مائدة صُفّت فوقها أنواع متعددة من الأطعمة والمشروبات؛ وراءهم على طاولة راديو ومسجلة تنبعث من أحدهما أغانٍ لا أستطيع أن أصنّفها ضمن الأغاني التي أعرفها أو استمعت إليها خلال فترة السجن؛ على طرف البركة، في الجهة المقابلة، صحن كبير فيه فواكه متعددة، كانت تصله قطرات من النافورة أثناء سقوط الماء.

رائحة المكان مزيج من الهواء الطري وشجرة الليل والياسمين ورطوبة الماء، إضافة إلى رائحة المشروبات، خاصة العرق.

ونحن نقبل على هذا المكان الذي يثير مشاعر متعددة ومتباينة، وقبل أن نصل، نهض، لا أعرف من أين، كلب ضخم أشد سواداً من الليل. تمطى بسرعة وتحفز. وسأكتشف بعد ساعة من الزمن، وبعد أن ألفتُ المكان، وجود غزالين في الزاوية كانا داخل مساحة مسيّجة بأسلاك مشبكة، وكان السياج غير مسقوف من أعلى، ويكاد يصل بارتفاعه إلى ثلثي القامة. وسأكتشف أيضاً وجود عدة أقفاص لعصافير الكناري الصفراء والبيضاء وأيضاً المغبرة اللون، والتي لا تكف عن الحركة والتقافز كلما دخل صوت جديد!

الكلب وهو يتحرك، وكأنّه يتوجه نحونا، جمّد خطواتي. فالعداء بيني وبين كلاب الحراسة قديم، ولم أستطع أن أصلح هذا الموقف. ضحك الرائد بصوت قوي، وقال يخاطب الكلب ويخاطبني في الوقت نفسه:

ـ الله يخزيكم، سنين وبعدكم ما لقيتم لغة للتفاهم..

وبعد قليل وبسخرية، وكان الكلب يتقدّم:

ـ نفس الزاد ونفس الملح، وبعد الواحد منكم يتلمظ للثاني؟

حين اقترب الكلب كثيراً، وبدأ يهمر، وتوقعت أن يقفز عليّ في أية لحظة، تراجعت خطوة للخلف في محاولة للاحتماء وراء الحرس، صاح الرائد:

ـ بس.. ضاري..

توقف الكلب لحظة، لكن لم يتخلَ عن رغبته بافتراسي، وربما أغرته

حركتي الخائفة، صاح الرائد بطريقة آمرة:
ـ ضاري تعال، ضاري مكانك.
وأشار بإصبعه، وكان الكلب الغضوب يلتفت، ربما ليقدر مدى جدية هذا الأمر، فلما وجد الإصبع ممدودة والرائد يعني الكلمات التي قالها، تراجع ببطء، لكنه التفت نحوي ونحو الرائد أكثر من مرة، لعله يستطيع أن يعاود. لما وصل طرف البركة خفض رأسه أكثر مما ينبغي دلالة الطاعة والذل، وراغباً أن يمنح نفسه نوعاً من التعويض حين اختار مكاناً غير الذي حدّده الرائد، فزجره بقوة وكان يشير بإصبعه إلى المكان:
ـ قلت لك هنا يا حيوان!
وبغضب ذليل زحف الكلب إلى حيث أشار الرائد وهمد هناك. بعد أن استقر علّق الرائد وهو يوجه إليّ الكلام:
ـ اللي هدفه قلب الحكومات وتغيير الأنظمة لازم يكون فيه عزم وعنده عصب قوي، واشوفك رخو مثل خرقة، يا أبو الشباب!
لم أتكلم، علّق أحد الضيوف، وسوف أعرف أنه أحد أعضاء لجنة التحقيق:
ـ مهمة الشباب، يا سيادة الرائد، التنظير، أما التنفيذ فعلى عاتق العمال والفلاحين، ومثل ما يقول المثل: مَن يكون لديه خدم فعليه أن لا يوسخ يديه!
وضحكوا بصخب لا يناسب الكلمات التي قالها الضيف، وبعد أن هدأوا قال الرائد بما يشبه الأمر والسخرية معاً:
ـ قرّب، تفضّل، حتى تحكي لنا كم كلمة نظيفة. . .
تقدمت بارتياب وارتباك، إذ لا أعرف كيف عليّ أن أتصرف. أشار الرائد إلى كرسي لم أره من قبل، وقال بتبسط:
ـ صحيح أن الدعوة متأخرة، لكن، مثل ما تعرف، أشغالنا كثيرة، والواحد ما هو فاضي يحك رأسه، وأنت تقدّر. . .
وضحك، وكأنّه يريد أن يدخل الموضوع بسرعة، لكن عليه، في الوقت نفسه، أن يخلق الجو المناسب:
ـ تشاركنا بقدح؟

وحين رفضت بسرعة وبحزم، أضاف وهو يضحك:

ـ ما راح نلحّ عليك، فأنت من أهل البيت، وإذا رفضت أن تشاركنا الكاس، فيمكن أن تمد يدك، أن تنقنق معنا!

وبسرعة أيضاً أجبت:

ـ تعشيت، شكراً!

ـ إذن، وبدون مقدمات، ندخل الموضوع...

التفت إلى ضيوفه وقال:

ـ صحتكم يا جماعة.

رفعوا كؤوسهم، شربوا، وأثناء إعادة الكؤوس إلى طرف البركة سقط كأس أحد الضيوف وانكسر، قال الرائد بفخامة:

ـ «وللأرض من كأس الكريم نصيب».

وبعد قليل:

ـ عمّر لك كأس جديد، يا أبو سوسن، والقصة جاءت وحدها، جاءت على رجليها، كما يقولون!

هزّ رأسه أكثر من مرة والتفت إليّ:

ـ عندما أقول: «وللأرض من كأس الكريم نصيب» أو عندما أقول «كأنما هو في حل ومرتحل ـ موكل بفضاء الله يذرعه» أو عندما أقول «ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطيناً» فهذا الشعر يمكن أن يُفهم، أن يصل إلى القلب والوجدان، وباعتبار أنك من معلمي السجن، ونحن من سلك الأمن، وعقلنا على قدر حالنا، فقلنا لأنفسنا ما لنا إلاّ عادل الخالدي ينوّرنا، مثل ما كنت في القليعة!

سمعت ولم أعلّق، تابع بلهجة جديدة:

ـ الخرطوش الذي وجدناه في المهجع، ولن ندخل في مَن يدّعي ملكيته، أريدك أن تفسر لي الشعر الذي فيه:

«النهار بطيء في نومه
كأنما جسده مائل إلى الحافة
الظلمة تفتح جيوبها الكبيرة حيث
تنام جبهة الأرض كالعذراء»

وحين أصمت لا أجيب، يقول بصوت رخو:

- إذا عجزت عن هذا المقطع فخذ غيره:

«يفتل المكان لهج الأماسي التعبة بهطل نعاس قمري

كنت كاتب الضوء المصفد بشغف يتأوه

أبعث الكلام من رئة في الشفق»

وأحاول أن أجيب، لكن أشعر أن أية محاولة في الدخول مع هؤلاء إلى الدهليز الذي يريدونني أن أدخل إليه سوف يجعلني أمامهم أضحوكة، محاولة غير مفهومة، ولذلك ألجأ إلى تغيير الموضوع:

- سيادة الرائد أنا لا أستطيع تفسير الشعر.

- ماذا تستطيع أن تفسر؟

- أستطيع تفسير القرآن.

- آه.. يا ابن الكلب، أنت عايز تضحك علينا؟ عايز تستغل هذه اللحظة وتقول إننا سكارى؟

- أرجو ألا تفهمني بشكل خاطئ، فأنتم لم تتركوا لنا فرصة للاطلاع، فما عدا تفسير الطبري وبعض الكتب المتعلقة بالتفسير، ليس لدينا أية كتب!

- وهذه الكتب التي وجدناها عندكم؟

- تمت مصادرتها قبل أن نقرأها!

- ولك، يا ابن الكلب، مفتّلة قدر ما هي مقروءة!

- لم يأتِ بعد دوري في قراءتها!

- تقرأون بالدور؟

هكذا سألني أحد الضيوف بتورية، فرد الآخر، الذي وقع كأسه، أبو سوسن، بتورية أكثر دعارة:

- مولانا، هذول بالدور وبالتناوب، مرة فوق ومرة تحت، وتشوف عيونك: ايدين ترجف وعيون غايرة وإلاّ كيف راح يدبرون أمورهم؟

- ما فيهم واحد شريف، لكن كلماتهم مثل ما قرأ لك الرائد: كبيرة كأنها جبال، وخطيرة كأنها قنابل، لكن مهما خضيتها تظلّ ميّ ما يطلع منها شيء.

قال أبو سوسن:

ـ قرأت الديوان كله، مولانا، وما طلعت منه بفكرة، بشيء يبقى في الذاكرة، وصاحبه معطيه عنوان «على جناح غيمة» والإهداء «إلى الجماهير المتطلعة إلى غد أفضل». . .

ضحك بمرح وجاءت لهجته ساخرة:

ـ أنا ما عندي كثير أتناقش فيه معك، لكن بشرفك هذا الكلام الموجه إلى الجماهير معقول؟ يمكن أن يصل؟

وبعد قليلٍ ولم يفارقه مرحه:

ـ هذا يدلّ على أنكم أُناس بسطاء، تعيشون في الأحلام، ولا أريد أن أقول أكثر من ذلك، فهل يطيب لك أن تبقى في السجن سنة وراء سنة، ومع أُناس حالمين ويتوجهون إلى الناس بمثل الكلام الذي سمعت بعضه من الرائد؟ هل تعتقد أن بإمكانكم بمثل هذا الشعر وبمثل هذه التماثيل أن تقيموا نظاماً أفضل من النظام القائم الآن؟

ـ الشعر والتماثيل لا يمكن أن تقيم نظاماً.

هكذا رددت بانفعال، فسألني الرائد بمرح:

ـ ولكنكم لا تتوقفون لحظة واحدة عن التبشير بنظام على أنقاض هذا النظام، وبغدٍ أفضل، وهو نفسه الإهداء على الديوان، فهل مثلُ هذا الشعر سيوصل إلى النظام الذي تريدونه؟

قلت بنوع من اليأس:

ـ سيادة الرائد، إن أي شعر، وأية تماثيل أو روايات لا يمكن أن تغير شيئاً، إن الذي يغيّر هو الإنسان!

قال أبو سوسن:

ـ سيادة الرائد. . . مهما تكلمنا الآن فإنّ كلام الليل يمحوه النهار، ثم أن للنهار عيوناً، فمن رأيي أن نعلّق التحقيق حتى الصباح، يمكن الله يفتح عليه ونستطيع أن نتفاهم معه.

قال الرائد جودت:

ـ فعلاً سرقنا الوقت، والساعة الآن قرّبت من الثالثة، والصباح رباح. . .

وبعد قليل:

ـ لكن يا جماعة ما مددتم ايديكم للفاكهة.

ـ والله أنا شبعت، وميّت من النعس!

ـ وأنا كمان!

ونهضوا، ونهض الكلب. أصبحتُ في مواجهته تماماً، ولا تفصل بيننا إلا خطوتان أو ثلاث خطوات، نبح عليّ بطريقة عدائية، وليختبر الجو أيضاً. قال له الرائد:

ـ بس... ضاري.

نبح بطريقة عدائية لكن بصوت منخفض، ليدلل على عدم رضاه، قال الرائد مخاطباً الحرس:

ـ خلوه قريب منا، ولا داعي لإعادته إلى المهجع.

والتفت إليّ:

ـ منامتك الليلة عندنا، قريب منا، والحارس ضاري!

لا حاجة لأن أقول إنني لم أنم تلك الليلة، فقد كان النوم في مثل تلك الليالي ترفاً لا يليق بأمثالنا التفكير فيه، كما أننا لن نستطيع الوصول إليه، حتى لو أردنا!

فالمكان الذي أشار إليه الرائد مستودع للحبوب الخاصة بالإدارة، وكان مليئاً حتى البوابة، تقريباً. إذ ليس فيه فراغ إلاّ للوقوف، وحتى هذا الفراغ تكدست فيه اطارات السيارات القديمة، وكانت تستعمل كسلّم لتناول الأكياس العالية. أمّا البوابة، وهي عبارة عن قضبان متشابكة، فكانت تفتح إلى الخارج، ويبدو الإنسان من خلالها سجيناً حقيقياً، كما يظهر في الأفلام!

بعد أن دُحشت في ذلك المكان، وأغلق الباب، ألقى واحد من الحراس مجموعة من العظام، وقال لضاري بطريقة آمرة:

ـ ضاري... هذا مكانك!

لم يكن ضاري بحاجة إلى هذه التوصية، أو إلى أية توصية، فهو بالإضافة إلى أنه لم يحبني أبداً كان مكلفاً بحراستي. أما الآن فأصبح غيظه مني يزداد وأنا أرقبه يعرق العظام. ورغم أني لم أكن أراه، إذ كان غارقاً في سواده والظلمة، إلاّ أنه كان يراني. كان يلتفت إليّ، بين لحظة وأخرى، ويهمّر بعدوانية تزيد أضعاف المرات عن مستواها حين استقبلني أول مرة! أما إذا تحركت، مهما كانت الحركة خفية، فكان ينبح بقوة ويشب على الباب يريد أن يمزقني. تمنيت أن أتوارى عنه، أن أبتعد، لكن الأكياس وراء ظهري تجعل الحركة مستحيلة.

ظللنا هكذا وجهاً لوجه إلى أن بدأت الظلمة تتراجع، وأخذ لون النور المضبّب ينتشر في الساحة ثم في الحديقة خلفها. بدا لي الوقت طويلاً خطراً، وإذا عجز ضاري عن الوصول إليّ لانشغاله بالعظام، فإنَّ أضواء النهار الأولى جعلتني أرى أنه طحن العظام كلها، ولا بد أن يلتفت إليّ، خاصة بعد أن بدأت أميّز عينيه المعاديتين وأسنانه الحادة. قلت لنفسي: «لا يمكن أن تتخلى روما عن تقاليدها وسأصبح فريسة هذا الحيوان المجنون».

في لحظة ما أخذ ضاري، لكي يسلي نفسه ولئلا ينام، يطارد بين بوابة المستودع وقفص الغزلان. كان يركض وكأنّه في سباق. حين يغير عليّ بتلك السرعة، كنت متأكداً أنه سيطحن، في لحظة ما، القضبان كما طحن العظام. أما وهو يغير على قفص الغزلان فكنت أرى آذان وقرون تلك الحيوانات البائسة ترتجف وكأنّها أوراق أشجار في مهب الرياح! كان يشعر بمتعة لا يستطيع أن يخفيها وهو يخيفنا، وكان يروق له، في بعض اللحظات، أن يتوقف فجأة في منتصف المسافة، ويمد ساقيه الأماميتين ويقرّب رأسه من الأرض ويعوص بنباح مقلوب. كان يفعل ذلك ويطيل، فأتذكّر أياماً بعيدة، حين كنا نسمع مثل هذا النباح، فتقول أمّي: «اللهم اجعله خيراً» فقد كان هذا النباح دلالة الموت، أو الشؤم على أقل تقدير!

بعد أن ارتفعت الشمس ذراعاً، ولأنَّ المغاسل لم تكن بعيدة عن المستودع، فقد بدأ الشرطة بالتوافد. كان الكثيرون منهم بملابس النوم، أو بسراويل قصيرة، حاملين المناشف وأدوات الحلاقة. بدأت أرقبهم، إنهم أناس فقراء، يظهر ذلك من الملابس الداخلية، من المناشف، وأكثر من هذه من وجوههم وقد فارقت النوم لتوها. وأن يرقب الإنسان الآخرين، دون أن يروه، دون أن يحسوا به، تتوالد لديه مشاعر متباينة: يحس أنه لا يكرههم، ليس بينه وبينهم أي عداء، أكثر من ذلك يكتشف أنهم يشبهونه في أمور عديدة، ويستغرب كيف يصبح هؤلاء الناس سيئين دون مبررات كافية. ولقد حصل ما توقعته تماماً، إذ ما كاد أحد رجال الشرطة يكتشف وجودي، وضاري هو الذي نبهه، حتى جاء مع آخرين وبدأوا:

ـ السجن كله ما وسعكم ولاحقينا لهنا؟

ـ....

ـ ليش جرّوك لهنا؟

ـ. . . . .

ـ ليش ما تجاوب يا ابن الكلب؟

ـ. . . . .

ـ شايف حالك؟ سياسي، ها؟

ويقول واحد لآخر، لكن يريدني أن أسمع:

ـ هذول السياسيين مجانين، وما يفيدوا لا للخل ولا للخردل. المجرم العادي إذا انحبس قضيته مفهومة، لأنه سرق، لأنه نهب، يعني استفاد كم قرش، والحظ وقّعه ووصل للسجن، أما هذول الأفندية فلا دنيا ولا دين، لا مع النصارى ولا مع المسلمين، ولو كانوا كافّين الناس شرهم كان فيها وما فيها، لكنهم تاعبين أرواحهم وتاعبين الناس معهم. . .

والتفت إليّ من جديد:

ـ احك، ليش جابوك؟

ـ اسأل معلمك.

ـ أنا اسألك أنت يا جحش، ولازم تجاوب.

ـ ما عندي جواب.

ـ يعني ما تريد تحكي، ها؟

التفت حواليه، وجد قطعة من الخشب، التقطها وبدأ من جديد:

ـ أحسن لك أن تحكي، ولا تعكّر صباحنا؟

قال آخر:

ـ هذول السياسيين لا يفهمون إلاّ بالضرب، الله خالقهم بهذا الشكل، مثل الحمير!

وخزني الأول بالعصا، وقال:

ـ راح تنزع صباحنا وتخلينا نوسخ ايدينا بضربك كم عصا، هذا اللي تريده؟

صرخت بنوع من اليأس.

ـ والله يا جماعة الخير لا علم لي ولا خبر. بعد نص الليل قالوا لي: شرّف، جيت، ومثل ما تشوف عيونكم!

ـ شوف. . شوف، ابن الكلب بريء، وكأنّه أطهر من ماء السماء، لا يعرف: لا من شاف ولا من سمع!

قال آخر:

ـ هذول، يا جماعة الخير، خنازير. الواحد منهم سر ببير، فسندوه بكم ضربة وخلونا نمشي، لأن راح يجي دوره.

قال واحد ظلّ بعيداً:

ـ يا جماعة اتركوا الناس بهمومها، وإذا تأخرنا راح علينا الفطور!

ضربوني بالخشبة بضع ضربات وبصق عليّ أحدهم وغادروا. وظلّ ضاري يحوم حولي!

قال لي الرائد، وقد استدعوني قبل الظهر بقليل:

ـ حظك من السماء، لأنّ دورك أمس كان متأخراً، ولو كان الوقت أبكر لصرت مثل الفطبول!

لا أعرف إن قلت شكراً أم لا، لكن تصورت الذين حققوا معهم في وقت مبكر، وكيف تعرضوا للتغطيس في الماء، كيف ضربوا، وأيضاً كيف تركوا ضاري «يداعبهم»!

الوجوه التي أراها أمامي الآن لا تشبه التي كانت الليلة البارحة، إنها الآن، خلال النهار، تبدو أكثر صرامة وشراسة. قال لي أبو سوسن:

ـ إذا كنت لا تفهم بالشعر ولم تفدنا شيئاً، فنريدك اليوم أن تحدثنا عن الفن، وهذا اختصاصك.

ـ لا أزال مبتدئاً في هذا الاختصاص، أنا سنة ثانية.

قال الرائد:

ـ نحن جماعة عمليين، لا يهمنا الفن ولا تاريخ الفن، ولكن نريدك أن تشرح لنا هذه الأصنام، ما هو مغزاها، كيف نفهمها، أين هو جمالها؟

حين صمت، بعد أن فشلت جميع المحاولات لأن ندخل في مناقشة من أي نوع، قال الرائد بيأس وسخرية:

ـ راح يظل رأسك أيبس من الصوان يا ابن الخالدي، وإذا الله ما فتح عليك بكلمة تفيدنا بها فوقف على حيلك وخذ الشاكوش.

وقفت، وبصعوبة أمسكت المطرقة، قال يتابع:

ـ أنا متأكد أنك وراء هذه السخافات، وأريد أمنحك شرف تحطيم الألهة التي صنعتها، ولذلك أعد من الواحد إلى الثلاثة، وحضرتك تبدأ بالشاكوش، يا قوي، يا واحد احد، تكسّر، لازم تكسرها عن آخرها.

وعدّ الرائد جودت يعقوب، وعدّ مرة أخرى، بعد تهديدات إضافية؛ وعدّ بعد أن استدعى عدداً من الأفراد، ورأيت بينهم بعض الذين وقفوا في مواجهتي صباحاً، وقال إنني إذا لم اكسرها، وهذا إنذار أخير، فسوف يكسر رأسي.

مع الرقم الأخير، وهو يعد، سقطت المطرقة من يدي، دلالة أنني لن أفعل مهما كانت النتائج. وأتذكر أنه التقط بنفسه المطرقة، وبدأ يهوي على التماثيل الصغيرة، حتى إذا انتهى منها جميعاً، التفت نحوي، قلب المطرقة وهوى بيدها على رأسي، ترنحت ثم سقطت، وأتذكر أن الأرجل، العصي، الأيدي بدأت تهوي عليّ، وغبت عن الوعي.

أما بعد أن أُعدت إلى المهجع، وأخذت أستعيد الوعي شيئاً فشيئاً، فقد وجدت إلى جانبي غازي. كان يبذل أقصى ما يستطيع من أجل مساعدتي، دون أن يعرف علاقته بما حصل. كان حزيناً يريد أن يبكي وهو يرى الجروح والكدمات، وكان فناناً في الشتائم قدر ما هو فنان في تطويع الحجر. بعد أن أصبحت في وضع مناسب، وأخذت أروي للآخرين ما حصل في تلك الليلة، ثم في اليوم الذي يليها، فقد كان غازي أكثر الناس تأثراً ثم سخرية ودعابة:

ـ الله لا يعطيك إلاّ كل عافية لأنك أهم كُرّ شفته في حياتي!

ولأني لا أعرف هل يمتدحني أم يعرّض بي، ويبدو ذلك واضحاً في وجهي، يضيف:

ـ كان لازم تكسرها، يا ابن الحلال، لأنّ الأصل إذا ظلّ موجوداً وقوياً يمكن أن ينحت بدل الواحد ألفاً؟

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ عندما سألوني عن تمثال السعادين الثلاثة قلت لهم: لا جواب عندي غير الذي قاله الحطيئة:

كدحت بأظفاري وأعملت معولي فصادفت جلموداً من الصخر أملسا
تشاغل لما جئت في وجه حاجتي وأطرق حتى قلت قد مات أو عسى
وأجمعت أن أنعاه حين رأيته يفوق مواق الموت حتى تنفسا
وقلت له لا بأس لست بعائدٍ فافرخ تعلوه السمادير ملبسا

ضحكوا، وسألوا عن تمثال العاشقة، فقلت: البلهاء. ضحكوا أكثر من قبل وعلّق أحدهم: مثلكم، أجبته، أصبت يا سيدي، وهكذا مررنا على جميع التماثيل بمرح، وانتهى الأمر بأن أبلغوني «مصادرة موضوع المخالفة والأدوات الجرمية».

وحين استفسر نجيب عن الأسباب التي دفعتهم لأن يكتفوا بذلك معه، ردّ بسخرية:

ـ عزيزي أبو ابراهيم، كانوا خايفين من المطرقة والمبارد، ولما قلت لهم إن عليوي أمّنها لي ودفعت له ثمنها مضاعفاً، قال الرائد: عليوي بلغني في نفس اليوم، وكنا عارفين كل شيء!

أما مسألة نقلنا من المهجع لبضعة أيام لاحقة لحملة التفتيش، فقد كانت للتأكد أننا لم نستعمل هذه الأدوات لأغراض أخرى!

وبعد قليل وقد التفت إليّ:

ـ الله يصلحك كان لازم تكسرها ولا يكسروا عظامك، ومع ذلك حقك عليّ، فإذا طلعنا بالخير والسلامة لك عهد عليّ أن أُضاعف عملي حتى نعوّض ما خسرناه!

قال رضا:

ـ أنا مع عادل: لا أقوى على التعامل مع الأثر الفني بقسوة، وربما لو تعرضت لنفس الموقف لا أتصرف إلاّ مثلما تصرف...

وبعد قليل مخاطباً غازي:

ـ ثم أن العمل الفني، أيا كان، بعد أن يُنجز، لا يعود ملك صاحبه، يصبح للآخرين حق فيه كصانعه ومالكه، ولذلك أختلف معك في هذه النقطة يا غازي.

ـ ما دمنا أحياء وأقوياء فباستطاعتنا أن نجعل الدورة تستمر، وسنكون

قادرين على العمل والإنتاج، أما أن نعرّض أرواحنا للخطر المجاني فهذا أقرب إلى الجنون. . .

وابتسم وهو يلتفت نحوي موضحاً:

ـ مع الاعتذار من عادل، وأعتذر مرة أخرى لما أصابه بسببي، فإنَّ علينا ألاَّ نكرر بساطة أو غباء الثوار الاسبان في الحرب الأهلية. فإذا أصررنا على تكرارها فإنِّي أُبشّركم بالهزيمة منذ الآن، لأنَّ الديكتاتور يريد أن يهزمنا باختبائه وراء لوحة أو تمثال، والجلاد يريد أن يبتزنا من خلال طفل. ونحن ذوو النيات الحسنة والعواطف الجياشة نستجيب لما يريدون فننكس أسلحتنا ونستثير كل ما فينا من دموع وضعف ونسلّم أنفسنا للذبح، وهكذا نخسر بشكل مضاعف، نخسر الفن والطفولة ونخسر أنفسنا في الوقت نفسه.

وطال النقاش وتشعب. وأتذكر دمعات غازي وهو يودعني عندما خرجت من السجن. أعطاني مسبحة قضى شهرين وهو يصنعها من نويات التمر، وهذه الهدية ما تزال ترافقني، ولا أستطيع الآن النوم إلاَّ إذا لففتها على معصمي كتميمة. ولا أزال أتذكر كلمات غازي التي قالها في اللحظات الأخيرة وأنا أُغادر:

ـ كتاب «الفن والثورة» أصبح كاملاً وجاهزاً، وكله هنا!

وأشار إلى رأسه؛ ثم بعد قليل:

ـ وحالما أخرج، وخلال شهرين، سوف أنتهي منه، ويصبح عندئذ، ملكاً للجميع!

وقبل شهر من مغادرتي لمستشفى كارلوف جاءني نبأ وفاة غازي سمعان، وقيل إن وفاته في السجن كانت نتيجة أزمة قلبية!

لـم يبقَ من الوقت إلاّ القليل. . ونمضي، كلٌ إلى سبيل.

أعرف أني أثقلت عليكم، لم أشأ ذلك، ولم أتوقع أن مشوارنا هكذا سيطول! بدأت الكتابة لكي أقول لكم بعض ما حصل، لكن ربما تهت ووصلت إلى تخوم الفضيحة. لم أقصد ولم أُخطط، فإذا أخذنا الأمور بالنوايا قد تغفرون لي، وربما تجدون تفسيراً لما أردته، ولما وصلت إليه، وتدركون، بعد ذلك، الأسباب التي دفعتني لقول ما قلت. أمّا إذا برز لي واحد من بينكم، وقال: إن طريق جهنم مرصوف بذوي النوايا الطيبة، فلا أملك رداً على ما يقول!

سوف أسمع ما يقال لكني سأُتابع سيري إلى المطبعة، لأنّي لا أستطيع أن أتأخر، فالوقت يدرك، ورب العمل لا ينتظر، ومجلة «الميس» يجب أن تصدر في وقتها، فقد أصبحت منذ شهرين موظفاً في تلك المجلة، وأصبحت المسؤول عن التصحيح اللغوي والطباعي!

قد يبدو كلامي غير واضح بالمقدار الكافي، أعرف ذلك، وكما هو كل شيء في هذه الحياة، ولكن ماذا سيتغير إذا صدّعت رؤوسكم بهذا المقدار الهائل من الوقائع الصغيرة؟ ثم ماذا تعني تلك الوقائع بعد الخراب الذي حصل وعمّ أغلب الأشياء؟ الدقة؟ الموضوعية؟ استكمال القصص وفق نسق مسلٍ لمعرفة مصائر البشر والأحداث؟ وإذا تكلمت أو لم أتكلم ماذا سيتغير في هذا الكون؟ وهل أوهمْ نفسي أن لا يزال هناك مَن يقرأ ويمكن أن يفعل شيئاً ذات يوم؟

لا أريد جواباً من أي نوع.

لكنني، في الوقت نفسه، لا أُصدّق أن إنساناً في تلك المنطقة الممتدة من الماء إلى الماء، وفي هذه الفترة يملك هذا المقدار الهائل من الأحزان والألم والتعاسة دون أن يشعر بذلك.

ربما تكون نظرتي للأشياء والأشخاص والحياة اكتسبت هذا اللون القاتم، وقد أكون بحاجة إلى معالجة نفسية، بعد أن انتهت معالجة الجسد ضمن نفس المقولة التي أكّدها لي الدكتور ميلان قبل مغادرتي براغ: «يجب أن تتعايش مع المرض، سوف تتحسن، لكن بمقدار: ويجب أن تعرف: الصحة والمرض يتعلقان بالإرادة، بمقدار ما يتعلقان بالجسد». عليّ أن أُصدّق، أن أمتثل، لكن يجب أن أعترف: اختلطت عليّ الأمور. ما كان ثابتاً، قوياً، واضحاً، أكيداً، لم يعد كذلك الآن. لم أيأس، لكن لم أعد قوياً أو متأكداً بالمقدار الكافي. لن أُسلّم، لكن أشعر أن وسائلي القديمة لمواجهة الأيام الآتية لم تعد كافية أو مجدية، قد يصعب عليّ أن أتغير، أن أُصبح شخصاً جديداً ومختلفاً، ومع ذلك أشعر أن في داخلي شيئاً يتحرك. صحيح أن هذا يتم ببطء، بسأم، وبعض الأحيان دون بوصلة أو نقطة ارتكاز، لكن هكذا هي الحياة!

تحطّمت أكثر الأحلام، أعرف ذلك، لم يبقَ منها إلاّ القليل، لكن معها، وربما قبلها، تحطمت أغلب الأوهام، كلها. لم أعد قادراً على عبادة أي صنم، ولم يعد يرشدني ويقودني سوى الضمير.

أهذي؟ استبدلت أحلاماً بغيرها؟ تخليت عن الآلهة القديمة ولم أجد آلهة غيرها؟ فليكن: المهم أن تكون هناك إرادة، وهذه وحدها يمكن أن تعيد تشكيل العالم مرة أخرى. لا أعرف كيف سيكون عالم الغد، لكن لدى البشر الكثير من الجنون ورغبة الحياة، وهذا وحده كفيل بإيجاد عالم جديد.

هل قطعت عليكم الطريق؟ هل خدعتكم أو قصدت إلى شيء سيّئ؟ لا أظن، لكن لدي بضع كلمات أخيرة:

خرجت من مستشفى سان باترير بعد فترة كانت قاسية عصيبة، ليس بسبب الفحوص والمرض، وإنما بسبب «صديقي» أبو مهند!

كيف يمكن أن يجتمع الشك والخوف والود في آن واحد؟ في مكان واحد؟

كان لا يثق إلاّ بما أقوله؛ وكان خائفاً وخجولاً وحائراً. لديه الكثير ليعترف به، لكن لا يجد الكلمات ولا يجد الطريقة. أقول له بنوع من التحريض:

ـ انس، يا أبو مهند، أننا كنا في العفير، أحدنا جلاد والثاني ضحية، الأول آمر للسجن والثاني سجين. . . لقد كان ذلك منذ وقت قديم، وأنا نفسي نسيت كل ذلك، وعليك أن تنسى!

يرد بحزن:

ـ لا أعرف كيف أقول. كنت خرا، كنت كلباً، أنا لا أستحق، وأنت أحسن مني. . .

ـ اترك هذا الكلام يا رجل. لقد نسيت كل وقائع الفترة الماضية، والحياة ليست يوماً أو اثنين والناس للناس!

يصرخ كمجنون!

ـ الله كم كنت حيواناً ورديئاً ونذلاً. . .

يضرب السرير ويصرخ:

ـ لا فائدة مني، أصبحت جثة، ولا أعرف ماذا أفعل!

ـ لا حاجة لأن تفعل أي شيء، يا أبو مهند، فقد كنت مجرد موظف. ربما انسجمت أكثر من اللازم لكن عليك أن تبدأ من جديد. . .

يعتبر طريقتي أكثر إهانة، يصرخ:

ـ أبدأ من جديد؟ أكون انساناً آخر؟ أنت مجنون. . .

ويتغيّر صوته، يتابع:

ـ أرجو ألاّ تغضب مني: كنتَ مجنوناً وستبقى كذلك، وهذه هبة من الله!

ـ جن يا صاحبي، إذا كانت هذه ميزة وهبة من الله!

ـ لم أعد قادراً على أي شيء أو نافعاً لأي شيء حتى على الجنون.

يتغير صوته مرة أخرى، وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ إذا الله أعطاني عمراً، وعشت، وحتى لو راحت أكثر من الرجل، فلا بد أن ارجع، وسوف أُحاول أن أقضي أيامي، حتى آخر يوم، أصليّ وأستغفر، لعلّ الله يغفر لي ويسامحني.

يرفع وجهه إلى أعلى ويقول بصوت مسكين:

ـ يا رب إذا أعطيتني العمر لن أنساك، سوف أُصليّ وأتوسل إليك أن تطهر روحي، فأنا رجل لا يستحق أن تتطلع إليه، أن ترحمه، لكنك غفور رحيم... وحتى لو قتلني الناس الذين أسأت إليهم لن أحزن ولن ألومهم، المهم الآن يا رب راحة الضمير!

وعاد أبو مهند إلى عمورية بقايا إنسان: برجل واحدة والأخرى مقطوعة، وروحه الممزقة ترفرف فوقه كمظلة قديمة مهترئة. كنت الوحيد الذي ودعته في أورلي وساعدته في إنجاز المعاملات الرسمية، علماً بأنه كان على موعد مع ممثل عن السفارة وجرى تأكيد هذا الموعد أكثر من مرة.

في اللحظة الأخيرة وهو يُدفع على الكرسي المتحرك، قال لي، وكان يشد على يدي:

ـ انتبهوا: رضوان فرج باع نفسه للجهاز، أصبح مسؤولاً عن منظمات الخارج!

وماذا أيضاً؟

صدقوني.. لا أعرف!

وإذا كانت هناك ضرورة لمنطق من أي نوع، فما يمكن أن أقوله: لقد دخلت إلى غابة الجنون منذ ذلك الوقت البعيد، ولا أزال في تلك الغابة أدور. يتراءى لي، بعض الأحيان، أنني أبصرت نهاية تلك الغابة، بدأت الوصول، لكن الظلمة لا تلبث أن تطبق وتضيع المسالك والدروب، وأُعاود، بتعب، الدوران من جديد بحثاً عن طريق.

قال لي سامي أيوب قبل أيام ونحن نجوب غابة بولونيا، ونستعرض ما حصل:

ـ لا داعي للندم أبداً، لأنّ الندم يعيدنا إلى الماضي، والماضي مضى وانقضى؛ علينا أن نجد طريقنا للمستقبل.

ـ ألا تزال تفكّر في المستقبل أيها الصديق؟

ـ وهل أستطيع غير ذلك؟

ـ أنت متفائل!

ـ لا يتعلق الأمر بالتفاؤل والتشاؤم، إنه يتعلق بقدرتنا على أن نبدأ بشكل صحيح.

ـ وما هو الصحيح في غابة الجنون هذه؟

ـ لا أريد أن أكون نبياً أو أنوب عن الآخرين، في البحث عن طريق المستقبل، لكن مثلما علّم ديكارت الفرنسيين، ثم أوروبا فالعالم، أشياء أساسية، خاصة في المنهج، فأعتقد أن أعظم وأهمّ ما علّمهم كلمة تفوق كل الأشياء، علّمهم كلمة: لا!

وغرقنا في صمت حزين. هذه الكلمة الصغيرة، فجّرت في داخلي أحزاناً لا نهاية لها. وبعد أن خلفنا الغابة وراءنا، وسرنا باتجاه محطة المترو، ظلت هذه الكلمة تدوّي في رأسي، رغم الصمت.

أما حين أصبحنا وسط باريس، واقترح سامي عليّ أن نذهب إلى أحد مقاهي الحي اللاتيني لنواصل الحديث، فقد اعتذرت. قلت له بمداعبة:

ـ لا تزال أمامي عدة ملازم من «ميس» ويجب أن أنجز تصحيحها كي تخرج المجلة في موعدها..

وابتسمت وأنا أتابع:

ـ ثم أن الأكل الذي تقدمه صفحات المجلة أشهى وألذ، بما لا يقاس، من أكل الصعاليك الذي تعودتم عليه في مطاعم الفقراء المنزوية!

ـ يحق لك أن تقول أي شيء!

ـ ليس ذلك فقط، إحدى ملازم هذا العدد مخصصة لكيفية التعامل وحفظ أنواع معينة من الفراء النادر، وهذا ما يجعلني أغرق في الدفء والعطور والأحلام... وأتقاضى أجراً أيضاً!

ـ لدي كلمة كبيرة، لكن لا أجرؤ أن أقولها!

ـ لا حاجة لأن تقولها، أعرفها!

وبعد قليل، وهو يحاول أن يقنعني بالتصعلك، تابعت:

ـ ألم تقل إن أعظم كلمة غيّرت وجه العالم هي كلمة لا؟ أليس من حقي أن أستعملها؟

ـ طبيعي لا . . . ألسنا من هناك ولم نتعلم بعد هذه الكلمة؟

وافترقنا. ذهب ليترجم، وذهبت إلى المطبعة لأُصحّح الملازم.

في وقت متأخر من الليل، وأنا عائد إلى غرفتي، كانت الأفكار والأحلام تتصارع في عقلي وقلبي. أما في الغرفة، وبعد أن رتبت ما يمكن أكله، وفردت أمامي كتاباً لأقرأ قليلاً قبل أن أنام، فقد شردت، وامتلأت حنيناً وبكاء. . . وغضباً أيضاً. وحين انتبهت لنفسي كان قد مرّ وقت طويل.

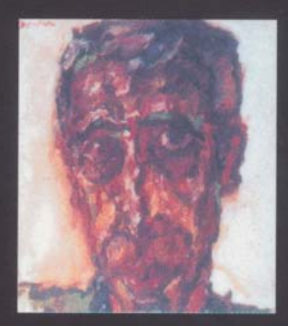
في وقت ما انزلقت إلى فراشي. ما كدت أضع رأسي على الوسادة حتى بدأت أسمع النواح والأنين الآتي من هناك، وفي لحظة لاحقة سمعت ما يشبه الدوي. أما وأنا انزلق إلى النوم أكثر فقد أحسست أن الأرض تتشقق ويعلو الصهيل. وأتذكر أنني حلمت أحلاماً كثيرة تلك الليلة، وكان بعضها لا يخلو من فرح حزين.

شتاء 1991

ما كنت أريد أن أتذكّر عمورية وحكامها، ولم أكن أنوي تذكّر سجونها بشكل خاص، ولكنني وجدت نفسي عاجزاً عن الهرب، تدهمني الوقائع والوجوه، وتأكلني الخيبة.

آن لي أن أتكلم. قد أخطىء وقد يساء فهمي، وربما تدور حولي الظنون. لا يهم، لم يعد هناك ما أحرص عليه، لم يبقَ لي ولم يتبق مني شيء، فلماذا أظلّ صامتاً؟

لا أخشى من نظراتكم الساخرة، والتي قد تبلغ الهزء، حين أكشف أرواحنا، وحين أتحدث عن مناكداتنا كالأطفال أو كالمعتوهين، قد تستغربون مناقشاتنا، وقد يتواقح بعضكم فيقول: «كان الأجدر بهؤلاء المساجين أن يستفيدوا من وقتهم، أو أن يكونوا أنضج». لا أريد أن أتصدى للدفاع، ولكنني أدعو هؤلاء إلى السجن المركزي ليعرفوا ويروا كيف يتشوّه السجين، أما إذا حالفهم الحظ ووصلوا إلى العقير أو القليعة، للزيارة لا للإقامة، فعندئذ يمكن أن نصل إلى لغة مشتركة، وقد نتفق!



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

ارض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

مدن الملح (5 أجزاء)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

التصميم:
مروان قصاب باشي

الإخراج: آنيا مورينغ
ويزن قصاب باشي

صورة الكاتب:
تفصيل من لوحة
لمروان قصاب باشي

خط الغلاف: محمد قنوع

إشراف فني: حاتم الحاج حسين

الآن... هُنا

حين فرغت من رواية عبد الرحمن منيف الجديدة، أحسست حلقي جافاً، وغمرني شعور ذاهل بالعار. كيف نعيش حياتنا اليومية، ونساكن هذا الرعب الذي يتربص بنا هنا... والآن؟ أي صملاخ بليد يحجب عن أسماعنا الصراخ والأنين، كي نواصل نومنا كل ليلة! أية ذاكرة مثقوبة تلك التي تتيح لنا أن نتناسى الآلاف الذين يهترئون في السجون هنا... والآن! هذا عار يكاد يلامس التواطؤ. من خوفنا، وغفلتنا، وصمتنا يغزل الجلاد سياطه. ومن خوفنا، وغفلتنا، وصمتنا تغصّ بنا السجون، تغدو الحياة هنا والآن كابوساً من الجنون والرعب.

إن رواية عبد الرحمن منيف تمزق الصمت، وتعلن الفضيحة. هذه الأوطان ـ السجون الفضيحة، وهؤلاء المواطنون ـ المساجين فضيحة، وهذا التاريخ الشرق أوسطي معتقل يستنقع في الفضيحة. ورغم أن الرواية تلاحق هذه الفضيحة بتنوعاتها القطرية، وتعدد مستوياتها، فإنها تتعمد أن تظل قولاً ناقصاً، قولاً لا يكتمل إلا إذا أضاف القارئ عليه موقفاً أو فعلاً.

وبين التعرية والتحريض، وبين النمنمة الفنية والوعي التاريخي، يبني عبد الرحمن منيف رواية ـ شهادة، لن نستطيع الاستغناء عنها إذا أردنا أن نعرف الـ الآن... وهنا، وإذا أردنا أن نغيّر الـ هنا... والآن أيضاً.

سعد الله ونوس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر   المركز الثقافي العربي ـ للنشر